التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة آل عمران

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر، قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني

الدرر السنية
www.dorar.net

التفسير المحرر
للقرآن الكريم

٢

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية للنشير - القسم العلمي

التفسير المحرر للقرآن الكريم (المجلد الثاني)/ مؤسسة الدرر السنية للنشر - القسم العلمي - الظهران، ١٤٣٧هـ

٧٦٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ١-٢٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٦/٨٣١٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٨٣١٤

ردمك: ١-٢٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ /فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ آلِ عِمْرانَ

سُورَةُ آلِ عِمْرانَ

أسماءُ السُّورة:

١- سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسورة: آل عِمْرانَ[١]!

فعن النَّوَّاسِ بن سَمْعانَ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((يُؤتَى بالقُرْآنِ يومَ القيامةِ وأهلِه الَّذين كانوا يَعمَلون به، تَقدُمُه سورةُ البقرة وآلِ عِمْرانَ))[٢].

٢- سُمِّيتْ هي والبقرةُ بالزَّهْرَاوَيْنِ[٣]!

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((اقرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ[٤]: البقرةَ وسورةَ آلِ عِمْرانَ...))[٥].

فضائلُ السُّورةِ وخَصائصُها:

١- سورةُ آلِ عِمْرانَ تُحاجُّ عن صاحبِها يومَ القِيامة مع البقرةِ:

- فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((اقْرَؤوا القُرْآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابه،

---

(١) قال ابن عاشور: (ووجهُ تسميتها بسورة آل عمران أنَّها ذُكِرت فيها فضائلُ آل عمران) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٣).

(٢) رواه مسلم (٨٠٥).

(٣) سُمِّيت سورة البقرة وآل عمران بالزهراوين؛ لأنَّهما النيِّرتان؛ وذلك إمَّا لهدايتهما قارئَهما بما يزهر له من أنوارهما، أي: من معانيهما. وإمَّا لِمَا يترتَّب على قراءتهما من النور التامِّ يوم القيامة، وقيل غير ذلك. يُنظر ((تفسير الخازن)) (١/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣).

(٤) الزَّهراوان: أي: المُنيرتان المُضيئتانِ، مُثنَّى زَهْراء، وهي البيضاءُ المُشرِقةُ الوَجهِ، المُستنيرةُ المُشْربَةُ بحُمرةٍ. ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٦٧٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٢١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١١/ ٤٧٩- ٤٨٠).

(٥) رواه مسلم (٨٠٤).

اقرَؤوا الزَّهرَاوَينِ: البقرةَ وسورةَ آلِ عِمْرانَ؛ فإنَّهما تأتِيانِ يومَ القيامةِ كأنَّهما غَمَامتانِ[١]، أو كأنَّهما غَيَايَتانِ[٢] أو كأنَّهما فِرْقانِ[٣] من طيرٍ صوافَّ[٤] تُحاجَّانِ[٥] عن أصحابهما...))[٦].

- عن النَّوَّاس بن سَمْعانَ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((يُؤتَى بالقُرْآنِ يومَ القيامةِ وأهلِه الَّذين كانوا يعمَلون به، تقدُمُه سورةُ البقرةِ وآلُ عِمْرانَ، وضرب لهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ثلاثةَ أمثالٍ، ما نسيتُهنَّ بعدُ، قال: كأنَّهما غَمامَتانِ أو ظُلَّتانِ[٧] سَوْداوانِ، بينهما شَرْقٌ[٨]، أو كأنَّهما حِزْقانِ[٩] من طيرٍ صوافَّ، تُحاجَّانِ عن صاحِبِهما))[١٠].

٢- تعظيمُ الصَّحابةِ رضِي اللهُ عنهم لقارِئ البقرةِ وآلِ عِمْرانَ:

فعن أنسٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان الرَّجُلُ إذا قرأ البقرةَ وآلَ عِمْرانَ، جَدَّ

---

(١) الغَمامة: السَّحابة. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٨٩).
(٢) الغَيَايَة: كلُّ شيءٍ أظلَّ الإنسان فوقَ رأسه كالسَّحابة وغيرها. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠٣).
(٣) فِرقان: أي: قِطعتان، والفِرق: القِطعة من الشيء. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٤٠).
(٤) صَواف: أي مُصطفَّة متضامَّة؛ لتظلِّل قارئها. ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ١٥٠).
(٥) تُحاجَّان: أي: السُّورتان تُجادلانِ عن صاحِبِهما، فتدْفَعانِ عنهُ ما يَسُوؤُه، والمحاجَّة: المجادلةُ وإظهارُ الحُجَّة. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (٥/ ١٦٤١)، ((فيض القدير)) للمناوي (٢/ ٦٤)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ١٥٥).
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) ظُلَّتان: أي: سَحابتان. ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٤٦١).
(٨) بينهما شَرْق: أي ضياء ونور. ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٩١).
(٩) حِزْقان: أي: جَماعتانِ أو فِرقتانِ، مُثنَّى حِزْق، والحِزْق والحَزيقة: الجَماعةُ مِن كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٤٥٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٧٨).
(١٠) تقدم تخريجه.

فينا- يعني: عظُمَ- وفي رواية: يُعَدُّ فينا عَظيمًا، وفي أخرى: عُدَّ فينا ذا شأنٍ))(١).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ آل عِمْرانَ سورةٌ مدنيَّةٌ، نزلَتْ بعد الهجرةِ، ونقَل الإجماعَ على ذلك عددٌ من المفسِّرين(٢).

مقاصد السُّورة:

مِن أهمِّ المقاصد الَّتي تضمَّنَتْها سورةُ آل عِمْرانَ:

١- إثباتُ وَحْدانيَّةِ الله، وإقامة الأدلَّة والحُجَجِ عليها.

٢- بيانُ أهميَّةِ عقيدةِ الولاءِ والبَراء، والتَّحذيرُ من ولايةِ غيرِ المؤمنين، وتفصيلُ أحوالِ أهلِ الكتاب.

٣- الاهتمامُ بجوانب التَّربيَةِ والإرشادِ والتَّوجيهِ للمؤمنين.

موضوعاتُ السُّورة:

مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ آلِ عِمْرانَ:

١- بيانُ وَحْدانيَّةِ اللهِ تبارَك وتعالَى المُطلَقةِ، وتقريرُ أنواعِ التَّوحيدِ الثَّلاثةِ:

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٠) (١٢٢٣٦)، وابن حبان (٣/ ١٩) (٧٤٤).
صحح إسناده ابن تيمية في ((الصارم المسلول)) (٢/ ٢٤١)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ١٧٩): على شرط الشيخين. وأصله في الصحيحين كما قال ابن حجر في ((الكاف الشاف)) (١٣).

(٢) نقَل الإجماعَ على ذلك: القرطبيُّ، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، ومجدُ الدِّين الفيروزابادي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البداية والنهاية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١)، ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ٤٢٢)، ((البداية والنهاية)) (٣/ ١٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) (١/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٦).
وقد نزَل صدْرُ سورة آل عِمْرانَ إلى ثلاثٍ وثمانينَ آيةً في وَفْدِ نَجْرانَ؛ ولهذا كان عامَّة السُّورة في شأن المسيح عليه السلام، وكان قُدومُهم سنةَ تِسعٍ من الهجرةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥).

الألوهيَّةِ، والرُّبوبيَّةِ، والأسماءِ والصِّفاتِ.

٢- تقريرُ وَحْدةِ الجِهةِ الَّتي تنزَّلَتْ منها جميعُ الكُتُبِ والدِّياناتِ السَّماويَّةِ.

٣- بيانُ أقسامِ النَّاسِ مع مُحكَمِ القُرْآنِ ومُتشابِهِه.

٤- تحذيرُ أهلِ الكفرِ المناوئين للهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالسُّلطانُ والقوَّةُ والجاهُ والولَدُ لن يُغنيَ عنهم شيئًا من عذاب اللهِ وسَطوتِه، وبيان أنَّ نهايتَهم هي الخسرانُ المُبينُ في الدُّنيا والآخرةِ، وضرب لهم الأمثالَ بآلِ فرعونَ ومَن قبلَهم، وكيف كانت نهايتُهم.

٥- الإشارةُ إلى غزوةِ بَدْرٍ الكبرى، وذكرُ تفاصيلِ ما جرى في غزوةِ أُحُدٍ من أحداثٍ.

٦- الإشارةُ إلى أحبِّ الشَّهواتِ النَّفسيَّةِ للإنسانِ، وبيان أنَّ هناك ما هو خيرٌ منها، وهو ما أعَدَّه اللهُ للمتَّقين مِن نعيمٍ مقيمٍ في جنَّاتِ الخُلدِ.

٧- بيانُ أهميَّةِ دِينِ الإسلامِ، وأنَّه دينُ الله الَّذي لا يَقبَلُ غيرَه.

٨- تفصيلُ أحوالِ أهل الكتاب، وفَضْحُ ضلالاتِهم، وما وقَعوا فيه من اختلافٍ في أمرِ دِينهم، وما ارتكَبوه من جرائمَ وموبقاتٍ بتكذيبِهم بآياتِ اللهِ، وقتلِهم أنبياءَه والدُّعاةَ إليه، وامتناعِهم عن التَّحاكُمِ إلى كتابِه، وقِصَّتُهم مع عيسى عليه السَّلام، وكُفْرُهم به، ودعوةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى مُباهَلةِ كلِّ مَن جادَله منهم في شأنِ عيسى عليه السَّلام، وأمرُ اللهِ لرسولِه أنْ يدعوَهم إلى كلمةٍ سواءٍ، وهي كلمةُ التَّوحيد، ومجادلتُهم في إبراهيمَ عليه السَّلام، وبيانُ الحقِّ لهم في شأنِه، وذِكْرُ مجموعةٍ من صفاتهم الَّتي اتَّصفوا بها؛ كإرادتهم إضلالَ المسلمين، وكُفرِهم بآياتِ الله، ولَبْسِهم الحقَّ بالباطل، ولَيِّهم ألسنتَهم بالكتاب بما ليس منه إيهامًا للمؤمنين، وأمرُ اللهِ لنبيِّه بمجادلتِهم، وبيانُ الحقِّ

لهم في أكثرَ مِن موضعٍ من مواضعِ السُّورةِ، وتحذيرُ اللهِ لأوليائه المؤمنين من اتِّباعِهم وطاعتِهم، وإخبارُ اللهِ تبارَك وتعالَى أنَّ أهلَ الكتابِ ليسوا سواءً، وثناؤُه على طائفةٍ منهم، وهم الَّذين يتلُون آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيل، ويُؤمنون باليومِ الآخِرِ، ويَأمُرون بالمعروفِ، ويَنهَوْن عن المنكَرِ، وغير ذلك ممَّا يتعلَّقُ بأهلِ الكتابِ.

٩- التنبيهُ على عقيدةِ الولاءِ والبَرَاءِ، والتَّأكيدُ عليها، والتَّحذيرُ مِن ولايةِ غيرِ المؤمنين، واتِّخاذِهم بِطانةً من دونِ المؤمنين.

١٠- بيانُ أنَّ محبةَ الله لها دلائلُ وعلاماتٌ وثمارٌ؛ فمِن دلائلِها: اتباعُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومِن ثمارِها: محبَّتُه لِمَن أطاع رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

١١- ذِكرُ الأنبياء، وبيانُ علوِّ مراتبِهم، واصطفاءِ الله لهم، وبيان قصَّةِ مريمَ وابنِها عيسى عليهما السَّلام، وقصَّة زكريَّا وابنِه يحيى عليهما السَّلام.

١٢- ذِكرُ مجموعةٍ من الآدابِ التَّربويَّةِ للجماعةِ المسلِمةِ؛ كالوصيَّةِ بالتَّقوى، والاعتصامِ بحبلِ اللهِ، ونَبْذِ الفُرقةِ والاختلافِ، وأمرهم بالدَّعوةِ إلى الخيرِ، وامتنان الله عليهم بأنْ جعَلَهم خيرَ أمَّةٍ أُخرِجت للنَّاسِ، وحثهم على الإنفاقِ، وغيرها من الآدابِ العظيمةِ المنثورة في ثنايا السُّورةِ.

١٣- ذِكرُ بعض الأحكام الشَّرعيَّة؛ كالنَّهيِ عن أكلِ الرِّبا، والنَّهيِ عن الغُلولِ، وعقوبة مانع الزَّكاةِ.

الآيات (١ - ٤)

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿الْقَيُّومُ﴾: القائمُ بنَفْسِه الذي لا يَزول، والحافِظُ لكلِّ الأشياءِ، والعالِم بها، المقيمُ غيرَه، والمعطي له ما به قِوامُه؛ فهو القائمُ على أمْر خَلْقه بآجالِهم وأرزاقِهم وأعمالِهم، يَكْلَؤُهم ويَرزُقُهم ويَحفَظُهم، و(قيوم) على وزن (فَيْعُول)، مِن قُمْتُ بالشَّيء: إذا وَلِيته(١).

﴿الْفُرْقَانَ﴾: الذي يَفرُق بَين الحقِّ والباطِل. وأصله من الفَرْق- وهو الانفصالُ والتَّمييزُ بين شَيئينِ- ومنه قيل للحُجَّة والقُرآنِ وغيرِه مِن الكتُب: فُرقانٌ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣- ٤٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢-٦٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص:٤٢، ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

قال ابن تيميَّة: (لفظ «الفرقان» يتناولُ ما يفرِّق بين الحقِّ والباطل، مثل الآيات التي بعث بها الأنبياء: كالحيَّة، واليد البيضاء، وانفلاق البحر. والقرآن فرقانٌ بين [كذا، ولعلَّ الصواب: فُرقانٌ مِن] هذا الوجهِ: من جِهة أنَّه آيةٌ عظيمة لنبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ وعلم عظيم. وهو أيضًا فرقان باعتبار أنَّه فرق ببيانه بين الحقِّ والباطل كما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]؛ ولهذا فسَّر جماعة الفرقان هنا به. ولفظ «الفرقان» أيضًا يتناول نصر الله لأنبيائه وعباده المؤمنين، وإهلاك أعدائهم؛ فإنَّه فرق به بين أوليائه وأعدائه، وهو أيضًا من الأعلام؛ قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]) ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٢٧٧).

المَعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحروف المقطَّعة؛ لبيانِ إعجاز القرآنِ؛ إذ يَعجِزُ الخَلْقُ عن معارضتِه بالإتيان بشيءٍ من مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها! ثمَّ ثنَّى سبحانه بالإخبارِ بأُلوهيَّتِه، وأنَّه الإلهُ الَّذي لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، الَّذي من صِفاته: أنَّه الحيُّ الَّذي له الحياةُ الكاملةُ المستلزِمةُ لجميع الصِّفات، والقيُّوم الَّذي قام بنفسِه؛ فاسْتغنَى عن جميعِ مَخلوقاتِه، وقام على غيرِه فافتقَرَت إليه جميعُ مخلوقاته، ومِن قيامه بعبادِه ورحمته بهم: أنَّه نزَّل على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ القُرْآنَ مشتملًا على الحقِّ، ومُصدِّقًا للكتبِ السَّابقة، وأنزل التَّوراةَ على موسى، والإنجيلَ على عيسى، من قبلِ إنزال القُرْآنِ، أنزل هذه الكتبَ جميعًا من أجلِ هدايةِ النَّاس، وأنزَل فيها ما يُفرِّقُ بين الحقِّ والباطل، والهُدى والضَّلال؛ فلهذا توعَّد الَّذين كفَروا بآياته بالعذاب الشَّديد يوم القيامة؛ فهو سبحانه لا يُغالَب، ولا يُعجِزه شيءٌ، وهو ذو انتقام ممَّن عصاه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الم (١)﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهرُ عَجْزَ الخَلْقِ عن مُعارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يَتحدَّثون بها[1]!

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

أي: لا أحدَ معبودٌ بحقٍّ سِوى الله تعالى؛ فهو وحْدَه المستحِقُّ للعبادة حبًّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّر اللهُ سبحانه ما يتعلَّقُ بمعرفةِ الإله، وما يَتعلَّقُ بتقريرِ النُّبوَّةِ، أَتْبَع ذلك بالوعيدِ؛ زجرًا للمُعرِضين عن هذه الدَّلائلِ الباهِرة عليهما[1]، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: إنَّ الذين كَفروا بأعلامِ الله، وأدلَّته على توحيدِه، فأَنكَروها، وردُّوها بالباطلِ، لهم عذابٌ شديدٌ يوم القيامةِ[2].

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

أي: عزيزٌ في سُلطانِه، لا يَمنَعُه مانعٌ ممَّن أراد عذابَه منهم، ولا يحُولُ بينه وبينه حائلٌ، ولا يَستطيعُ أنْ يُعاندَه فيه أحدٌ، وأنَّه ذو انتقامٍ ممَّن جحَد حُجَجَه وأدلَّتَه، وخالَف رُسلَه[3].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

يُؤخَذُ من قولِه تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أنَّه كلَّما اهتدى الإنسانُ للفروقِ، كان أعظمَ اهتداءً بالكتُبِ المنزَّلةِ من الله؛ لأنَّ الكتُبَ كلَّها فُرقانٌ، فمَن يُفرِّقُ

= قلنا: هذا القول أَوْلى بالصَّواب؛ لأنَّ إخبارَ الله عن تنزيله القرآنَ- قبل إخباره عن تنزيله التوراة والإنجيل في هذه الآية- قد مضى بقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣]، ولا شكَّ أنَّ ذلك «الكتاب»، هو القرآنُ لا غيره، فلا وجهَ لتكريرِه مرَّةً أخرى؛ إذ لا فائدةَ في تكريره ليستْ في ذِكره إيَّاه وخبرِه عنه ابتداءً)) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٣)، ويُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

مثلًا بين الشِّركِ الأصغرِ والأكبر، وبَين النِّفاقِ الاعتقاديِّ والعمليِّ، وبين الحلالِ والحرام- كان أشدَّ اهتداءً بالكتبِ ممَّن لا يُفرِّقُ[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- لَمَّا كان سببُ نزولِ صدْر هذه السُّورةِ هو قضيةَ مجادلةِ نصارى نَجْرانَ حينَ وفَدوا إلى المدينةِ، وبيانَ فضلِ الإسلام على النَّصرانيَّةِ- ناسَب أنْ تُفتَتَحَ السُّورةُ بحروف التَّهجِّي، المرموزِ بها إلى تحدِّي المكذِّبين بهذا الكتابِ[٢].

٢- قولُ الله تبارَك وتعالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه ردٌّ على النَّصارى في قولِهم بأُلوهيَّةِ عيسى عليه السَّلام؛ فجاء البيانُ هنا أنَّ أحَدًا لا يستحقُّ العبادةَ سوى الله عزَّ وجلَّ[٣].

٣- الجمعُ بين الاسمينِ الكريمينِ ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فيه استغراقٌ لجميعِ ما يوصَفُ اللهُ به بجميعِ الكمالات؛ ففي ﴿الحَيُّ﴾ كمالُ الصِّفاتِ، وفي ﴿القَيُّومُ﴾ كمالُ الأفعال، وفيهما جميعًا كمالُ الذَّات؛ فهو كاملُ الصِّفاتِ والأفعالِ والذَّات[٤].

٤- القرآن نزلَ نُجومًا: شيئًا بعدَ شيءٍ؛ فلذلك قال: ﴿نَزَّلَ﴾ والتنزيلُ مَرَّةً بعدَ مرَّة، والتوراة والإنجيل نَزلَا دفعةً واحدة؛ فلذلك قال: ﴿أَنْزَلَ﴾[٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إنْ قيل: كيف يكونُ القرآنُ مُصدِّقًا لِمَا بَينَ يَديهِ وهو ناسخٌ لعامَّة أحكامِه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥).

قيل: تَصديقُه إيَّاه تحقيقُه أنَّه مِن جِهة الله، ومطابقتُه إيَّاه في كونِه داعيًا إلى التَّوحيدِ وفِعلِ الخيرِ ونحوِ ذلك، وإلى أنواعِ العباداتِ دون قَدْرِها وهَيكلِها، وكيف إيقاعُها[1].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ جمَع التَّوارةَ والإنجيلَ في إنزالٍ واحدٍ، واستجدَّ للقرآنِ إنزالًا؛ تَنبيهًا على علوِّ رُتبتِه عنهما[2]، وهذا على القول بأنَّ معنى الفرقان: القرآن.

٧- ذَكَر في قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ هذا القيدَ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ لكي لا يتوهَّم أنَّ هُدَى التوراةِ والإنجيل مُستمرٌّ بعد نزول القرآن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّها كالمقدِّماتِ لنزولِ القرآن، الذي هو تمامُ مرادِ الله مِن البَشر؛ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾[3] [آل عمران: ١٩].

٨- إثباتُ الحِكمةِ للهِ تعالى في أحكامِه الشَّرعيَّة، كما تَثبتُ في أحكامِه الكونيَّةِ؛ لقولِه: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾[4].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ بيانُ أنَّ جميعَ كتبِ الله تبارَك وتعالَى فُرقانٌ؛ لِما تضمَّنَتْه من تفريقٍ بين الحقِّ والباطل، والصِّدقِ والكذِبِ، والمؤمنِ والكافر، والضَّارِّ والنَّافع[5].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أنَّ الكتبَ السَّماويةَ لا تَجمعُ بين مُختلفينِ، ولا تُفرِّقُ بَين متماثلينِ أبدًا؛ فهي فُرقانٌ، والفُرقانُ هو الَّذي يُفرِّقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٠٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١).

بين شَيئين مختلفينِ، أمَّا شيئانِ لا يَختلفانِ فلا تَفريقَ بينهما، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: إثباتُ القياسِ؛ لأنَّه جمْعٌ بينِ متماثلينِ، وعَدمُ الأخْذِ بالقياسِ تفريقٌ بين مُتماثلينِ[١].

١١- الدِّينُ الحَقُّ دينُ الإسلامِ؛ عبادةُ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، وتصديقُ رُسُلِه، كما يدلُّ عليه قولُنا: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وقد جَمَع اللهُ تعالى بين هذينِ الأصلينِ في غيرِ مَوضِعٍ؛ منها قولُه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. ثمَّ قال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ فذَكَرَ التوحيدَ أوَّلًا، ثمَّ ذَكَرَ النُّبُوَّاتِ المتضمِّنَةِ إنزالَ الكتابِ[٢].

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾، قال سبحانه: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ ولم يقُلْ: (ذو الانتقام)؛ لأنَّ الانتقامَ ليس من أوصافِ اللهِ المطلَقةِ، وليس من أسمائِه، وإنَّما يُوصَفُ اللهُ به مقيَّدًا؛ فيُقال: المنتقِمُ من المجرِمين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فقوله ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لا يُعطي معنى الانتقامِ المطلَقِ؛ لأنَّ (انتقام) نكِرة، فلا تُعطي المعنى على إطلاقِه، بل له انتقامٌ مقيَّدٌ بالمجرِمينَ ونحوِهم[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿الم﴾ فيه مِن ضُروبِ الفصاحةِ: حُسنُ الإبهامِ في الافتتاحِ بـ(الم)؛ ليُنبِّهَ الفِكرَ إلى النَّظرِ فيما بعدَه من الكلامِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١).
(٢) يُنظر: ((الإخنائيَّة)) لابن تيمية (ص: ٢١٢)
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨).

٢- في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾:

- جِيءَ بالاسمِ العَلَم الجَليل (الله)؛ لتربية المهابة عند سماعِه، ثمَّ أُرْدِفَ بجُملة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهي جملةٌ معترِضةٌ أو حاليَّة؛ ردًّا على المشركين، وعلى النَّصارى خاصَّة[(١)].

- وأُتْبِعَ بالوَصفينِ (الحي القيُّوم)؛ لنفي اللَّبْس عن مُسمَّى هذا الاسم، والإيماءِ إلى وجه انفرادِه بالإلهيَّة، وأنَّ غيرَه لا يَستأهلُها؛ لأنَّه غيرُ حيٍّ، أو غير قيُّوم[(٢)].

٣- قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾:

- قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ خَبرٌ عن اسمِ الجلالةِ ﴿اللَّهُ﴾ في قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وهذا الخَبرُ مُستعمَلٌ هنا في الامتنانِ، أو هو تَعريضٌ ونِكايةٌ بأهل الكتابِ الذين أَنكروا ذلك، وجِيءَ بهذا الخبَر فِعلًا؛ لإفادةِ تقويةِ الخبرِ، أو للدَّلالةِ- مع ذلك- على الاختِصاصِ، أي: اللهُ لا غيرُه نَزَّل عليكَ الكِتابَ؛ إبطالًا لقولِ المشركين: إنَّ القُرْآنَ من كلامِ الشَّيطان، أو مِن طَرائقِ الكَهانة، أو يُعلِّمه بَشرٌ[(٣)].

- وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكَ﴾؛ للحصرِ والاختِصاص؛ وكأنَّ مُوجِبَ ذلك ادِّعاءُ بعضِهم أنَّه يُوحَى إليه، وأنَّه يَقدِر على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإتيانِ بمِثل هذا الوحي[١]، وللاعتناءِ بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر[٢].

- وعبَّر في قولِه تعالى: ﴿الْكِتَابَ﴾ عن (القُرْآنَ) باسمِ الجِنس؛ إيذانًا بكمالِ تَفوُّقه على بقيَّة الأفرادِ في حِيازةِ كمالاتِ الجِنس، كأنَّه هو الحقيقُ بأنْ يُطلَقَ عليه اسمُ الكتاب، دون ما عَداه كما يُلوِّحُ به التصريحُ باسْمي التَّوراةِ والإنجيل[٣].

- وذَكَر الـمُنزَّلَ على نَبيِّنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله: ﴿عَلَيْكَ﴾، ولم يأتِ في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بذِكرِ المنزَّلِ عليه التَّوراةُ، ولا المنزلِ عليه الإنجيل (مُوسى وعِيسى عليهما السَّلامُ)؛ تَخصيصًا له وتَشريفًا بالذِّكر لنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤]، أو أنَّه لم يذكُرِ مُوسى وعِيسى عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ الكَلامَ في الكِتابَينِ، لا فيمَن أُنزِلَا عليه[٥].

- وأتى بلفظة: (عَلَى)؛ لِمَا فيها من الاستعلاء[٦].

- وجاء بكاف الخِطاب في ﴿عَلَيْكَ﴾؛ لِمَا في الخطاب من المؤانسة[٧].

- ﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ مؤكِّدة، وفائدةُ تَقييدِ التَّنزيل بها: حثُّ أهلِ الكتابَينِ على الإيمان بالمُنزَّل، وتَنبيهُهم على وجوبِه؛ فإنَّ الإيمانَ بالمصدِّق مُوجِبٌ للإيمانِ بما يُصدِّقه حتمًا[٨].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤).

- قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ﴾:

- ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾: فيه تَعيينٌ لِمَا بين يديه، وتَبيينٌ لرِفعةِ محلِّه، تأكيدًا لِمَا قبله، وتمهيدًا لِمَا بعده؛ إذ بذلك يترقَّى شأنُ ما يُصدِّقه رِفعةً ونباهةً، ويزداد في القلوب قَبولًا ومهابةً، ويتفاحَش حالُ مَن كفرَ بهما في الشَّناعة، واستتباعِ ما سيُذكَرُ من العذاب الشَّديد والانتقام[1].

- قوله تعالى: ﴿الإنجيلَ﴾: وُضِع على صِيغة (إفعيل)؛ لمزيدِ معنًى ما وُضعتْ له هذه الصِّيغة، وزيادتها مبالغةً في المعنى[2]، هذا على القولِ بأنَّها عربيَّة، وفي ذلك خلافٌ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ...﴾

فيه: التَّصريحُ بـ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ مع ظهورِ الأمر؛ للمبالغةِ في البيان[3].

- وتقديم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ على ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾؛ للاهتمام به[4].

- وخصَّ الهدى بالتَّوراة والإنجيل في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى للنَّاسِ﴾، وإنْ كان القُرْآن هدًى؛ لأنَّ المناظرةَ كانتْ مع النَّصارى، وهم لا يَهتدون بالقُرْآن، بل وُصِف بأنَّه حقٌّ في نفْسه، قَبِلوه أو لم يَقْبَلوه، وأمَّا التَّوراةُ والإنجيلُ فهم يَعتقدون صحَّتهما؛ فلذلك اختصَّا في الذِّكر بالهُدَى[5].

- وقوله تعالى: ﴿هُدًى للنَّاسِ﴾: فيه إقامةُ المصدرِ ﴿هُدًى﴾ مقامَ اسمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧).

الفاعل (هاديًا)؛ إمَّا على حذْفِ المضاف، أي: ذَوي هدى، أو عَلى المبالغةِ بأنْ جُعِلَ ما ذُكِر من كتُب هي نفْسَ الهُدى؛ لِمَا فيها من الإرشاد(١).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال هنا عن التَّوراة والإنجيلِ: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾، وقال عن القُرْآن: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ خبرٌ مُجرَّد، بَينَما قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبرٌ مقترِنٌ به الاستدعاءُ والصَّرفُ إلى الإيمانِ؛ وذلك لأنَّ الأوَّل ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ هو الهُدَى الَّذي هو الدُّعاء، أو الهدى الَّذي هو في نَفْسِه مُعدٌّ أنْ يَهتديَ به النَّاس، والثاني ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ هو الهُدَى الَّذي هو إيجادُ الهدايةِ في القلْبِ؛ فحَسُن مع القُرآنِ وصْفُ الهُدَى بأنَّه للمتَّقين؛ ليَقعَ من السَّامعِ النَّشاطُ والبدارُ(٢).

- قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾: فيه تكرار لفِعل الإنزال (نزَّل- وأَنْزَل- وأَنْزَل)؛ لاختلافِ الإنزال، وكيفيَّته، وزمانه بآيات الله(٣).

- فيه: تَرتيبٌ بديعٌ في التَّقديم والتأخير، حيث لم يَجيءِ الإخبارُ عن ذلك على حسَب الزَّمان؛ إذ التَّوراة أولًا، ثمَّ الزَّبور، ثمَّ الإنجيل، ثمَّ القُرْآن؛ فقدَّم القُرْآن ﴿الكِتَاب﴾ الذي هو القرآن؛ لشَرفِه، وعِظَم ثَوابِه، ونَسْخِه لِمَا تقدَّم من الكتُب، وبقائِه، واستمرار حُكمه إلى آخِر الزَّمان، وثنَّى بالتَّوراة؛ لِمَا فيها من الأحكامِ الكثيرة، والقَصص، وخفايا الاستنباط، ثمَّ ثلَّث بالإنجيلِ؛ لأنَّه كتابٌ فيه من المواعِظ والحِكم ما لا يُحصَى، ثمَّ تلاه بالزَّبور- عند القائِلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨-٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٠٦).

بأنَّ الفرقان هو الزَّبور-؛ لأنَّ فيه مواعظَ وحِكمًا لم تبلغ مبلغَ الإنجيل(١).

- وعندَ القائلِ بأنَّ ﴿الفُرْقَانَ﴾ هو القُرْآن؛ فيكون ذِكْر ﴿الفُرْقان﴾ فيه تَكرارٌ لذكر القُرْآن بما هو نعتٌ له ومدحٌ، من كونه فارقًا بين الحقِّ والباطل بعدَما ذَكَره باسمِ الجِنس ﴿الكِتَاب﴾؛ تعظيمًا لشأنِه، وإظهارًا لفضله(٢).

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه إظهارُ ما كان مِن حقِّه الإضمار ﴿الَّذِينَ﴾، وفائدته: إرادةُ تعليقِ الحُكمِ بالوَصف، وهو الكفرُ(٣).

- قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾:

- فيه تَشبيهُ ما يَحصُل للنَّفس من ضِيق العذاب وألَمِه، بالمشدود المُوثَق المُضيَّق عليه(٤).

- وهو وعيدٌ جِيءَ به إثرَ تقريرِ أمْرِ التَّوحيدِ الذاتيِّ والوَصفيِّ، والإشارةِ إلى ما يَنطِقُ بذلك من الكتب الإلهيَّة، حملًا على القَبول والإذعان، وزَجْرًا عن الكفرِ والعِصيانِ(٥).

- وحسُن إطلاقُ العذابِ بَعدَ ذِكْر الفُرقان؛ ليشملَ الكونُ في الدُّنيا نُصرةً للمؤمنين، استجابةً لدُعائهم، وفي الآخرة تصديقًا لقولهم، وزيادةً في سُرورهم ونعيمهم، وتهديدًا لِمَن نَزَل كثير من هذه السُّورة بسببهم، وهم وفدُ نصارى نجران(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢-٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢١٦).

- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ، مقرِّرٌ للوعيد، ومؤكِّد له[١]؛ فهي خبرٌ فيه وعيد، جِيء به بعدَ تقرير التَّوحيد، والإشارةِ إلى ما هو العُمدة في إثبات النبوَّة؛ تعظيمًا للأمر، وزَجْرًا عن الإعراض عنه[٢].

- وتكرَّر اسمُه تعالى ﴿الله﴾ تفخيمًا؛ لأنَّ في ذِكرِ المُظهَرِ من التَّفخيمِ ما ليس في المُضمَر[٣].

- والوصف: بـ(ذو)، أبلغُ من الوصفِ بـ(صاحب)؛ ولذلك لم يَجِئْ في صِفات اللهِ (صاحِب)؛ لأنَّهم ذَكروا أنَّ (ذو) أبدًا لا تكونُ إلَّا مضافةً لاسمٍ؛ فمدلولُها أشرفُ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٤٦) (٣/ ٤٠).

الآيات (٥ - ٩)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ
فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ
إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿الْأَرْحَامِ﴾: جمْعُ رحِم، وهو بيتُ مَنبَت الولدِ، ووِعاؤه في البَطن، وأصلُه من الرِّقَّة والعَطْف والرَّأفة؛ سُمِّي به رحِمُ المرأة؛ لأنَّ منه يكونُ ما يُرحَم ويُرقُّ له من ولدٍ(١).

﴿مُحْكَمَاتٌ﴾: واضحاتٌ لا تَحتَمِلُ غيرَ وجهٍ واحدٍ منَ التَّأويل، بحيثُ يظهر المرادُ منها دون الاحتياجِ إلى غيرِها، وقيل غيرُ ذلك. والإحكامُ الإتقانُ، وسمِّيت (محكمات) مِن الإحكام، كأنَّه أحكَمها فمَنَع الخَلْق مِن التَّصرُّف فِيهَا؛ لظهورِها ووضوحِ معناهَا، وأصلُ (حكم) منع منعًا لإصلاح(٢).

﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أصلُ الكِتاب، ويُقال لأصلِ كلِّ شيء ومرجعِه: أمٌّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٩٧- ٢٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾: ما احْتَمَلَ منَ التَّأوِيلِ أَوْجُهًا، بحيث يُحتاج إلى غيرِها في فَهم المرادِ منها، وتُطلق على ما أَشكَل تَفسيرُه؛ لمشابهتِه بغيره، وقيل غيرُ ذلك[١].

﴿زَيْغٌ﴾: جَوْرٌ وميلٌ عن الحقِّ[٢].

﴿الفِتْنَةِ﴾: الشِّرْك والكُفر والشَّرُّ، والفِتنةُ في الأصل: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحان، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه من رداءتِه[٣].

﴿الرَّاسِخُونَ في العِلمِ﴾: الثَّابتون فيه، الذين أَتْقنوا عِلْمَهم ووَعَوْه، فحَفِظوه حفظًا لا يدخلُهم في معرفتهم وعِلمهم بما عَلِموه شكٌّ ولا لَبْسٌ، جمْع: راسخ، ورسوخُ الشَّيء في الشَّيء، هو ثبوتُه وولوجُه فيه، وأصلُ (رسخ) يدلُّ على الثباتِ[٤].

﴿يَذَّكَّرُ﴾: يَتذكَّرُ- قُلِبت التَّاء ذالًا، وأُدغِمَت في الذَّال الأخرى، فصارَتْ (يَذَّكَّرُ)- أي: يتَّعظ والذِّكْرُ: تارةً يُقال على استحضارِ الشَّيءِ، وتارةً على حُضورِه بالقلبِ أو بالقولِ، وتارةً على العَلاءِ والشَّرفِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٩٧ - ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩-١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾

﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾: الواو استئنافيَّة، و﴿الرَّاسِخُونَ﴾ مرفوعٌ، مبتدأ، وخبرُه جملة: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾؛ وهذا على قِراءة الوقفِ على اسمِ اللهِ تعالى. أو تكونُ الواوُ عاطفةً، و﴿الرَّاسِخُونَ﴾ مرفوعًا، عطفًا على (اللهِ) جَلَّ ذِكرُه، والتقدير: وما يَعلَمُ تفسيرَ المتشابهِ وبيانَه، ورَدَّه إلى المُحكَم، إلَّا اللهُ والرَّاسخونَ في العِلم؛ وهذا على قِراءة الوصلِ. وعلى هذا الوجهِ فجُملة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالٌ، أي: يَعلمون تأويلَه حالَ كونِهم قائلين ذلك، أو تكون خبرَ مبتدأٍ محذوف، أي: هُم يقولون...[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

تُرشد الآياتُ إلى كَمال عِلمِ الله تعالى؛ فهو سبحانه لا يغيبُ عن عِلمه شيءٌ في الأرض ولا في السَّموات؛ فهو الَّذي يجعلُكم صُوَرًا في أرحام أمَّهاتِكم على أيِّ كيفيَّةٍ شاء؛ لذا فهو المستحقُّ للإلهيَّةِ وحده لا شريكَ له، وهو العزيزُ في مُلكِه، لا يغلِبُه شيءٌ، ولا يمتنع منه شيءٌ، والحكيمُ في خَلْقِه وصُنعِه وتدبيره، هو الَّذي أنزَل عليك- يا محمَّدُ- القُرْآنَ، منه آياتٌ بيِّنات واضحاتُ الدَّلالة، لا التباسَ فيها، وهي أصلُ هذا الكتاب ومعظَمُه، ومن القُرْآن آياتٌ أُخَرُ يلتبس معناها، أو تشتبهُ دلالتُها على كثيرٍ من النَّاسِ أو بعضِهم، فأمَّا الَّذين في قلوبهم ميلٌ عن الحقِّ وضلالٌ، فيتعلَّقون بالمتشابِهِ من الآيات، ويتركون المُحكَم؛ وذلك طلَبًا للَّبْسِ على المؤمنين وإضلالِهم، وطلبًا لتفسيره على ما يريدون؛ تحريفًا له وَفْقَ أهوائِهم، وما يعلَمُ تفسيرَ المتشابِهِ إلَّا الله تعالى، والثَّابتون في

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٤٩-١٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٣٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩).

العِلمِ المتمكِّنون منه يعلَمون تفسيرها أيضًا، وإن لم يعلَموا حقائقَ الأمورِ وما تؤولُ إليه؛ لأنَّ اللهَ وحده هو الَّذي يعلَمُها، ويُعلِن الرَّاسخون في العلم إيمانَهم بالمتشابِهِ؛ فكلٌّ من المُحكَمِ والمتشابهِ من عند الله تعالى، وما يتذكَّرُ ويتَّعظُ إلَّا أصحابُ العقول السَّليمة، ويَدعو الراسخون في العلمِ ربَّهم ألَّا يُميلَ قلوبهم عن الهُدى بعد الهداية، وأن يهَبَ لهم رحمةً عظيمة تَزيدُهم إيمانًا وثباتًا؛ فإنَّه واسعُ العطايا والهباتِ، كثيرُ الإحسان، ويقولون: يا ربَّنا، إنَّك تجمعُ النَّاسَ في يوم لا شكَّ فيه، وهو يوم القيامة، للفصلِ بينهم، ومجازاة كلٍّ واحدٍ بعمَله، فاغفِرْ لنا يومئذٍ، واعفُ عنَّا، إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ وعدَه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥)﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغيبُ عن عِلمِه شيءٌ في الأرض ولا في السَّموات؛ فهو سبحانه عالِمٌ بجميعِ الأشياء على التَّفصيلِ[(١)].

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّر سبحانه إحاطةَ عِلمِه بالمعلومات كلِّها، جليِّها وخفيِّها، ظاهرِها وباطنِها، ذَكَر مِن جملةِ ذلك الأَجِنَّةَ في البطون، الَّتي لا يُدركُها بصرُ المخلوقين،

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

قال ابنُ عاشور: (وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قصَد منه عمومَ أمْكِنة الأشياء، فالمرادُ من الأرض الكُرة الأرضيَّة: بما فيها مِن بِحار، والمرادُ بالسَّماء جِنسُ السَّموات: وهي العوالمُ المتباعِدة عن الأرض)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١).

ولا يَنالُها عِلمُهم، وهو تعالى يدبِّرُها بألطفِ تدبير، ويقدِّرُها بكلِّ تقدير[١]، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

أي: هو الَّذي يَجعلُكم صُوَرًا في أرحام أمَّهاتِكم، على أيِّ كيفيَّةٍ شاء، فيجعَلُ هذا ذَكَرًا وهذا أُنثى، وهذا أسودَ وهذا أحمرَ، وهذا حَسَنًا وهذا قَبيحًا، وهذا طويلًا وهذا قصيرًا، إلى غير ذلك من الاختِلافاتِ[٢].

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وشرَح النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كيفيَّةَ التصويرِ في الحديثِ الذي رواه ابنُ مسعودٍ وغيرُه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أنَّه قال: ((إنَّ أحدَكُم يُجمَعُ خَلقُه في بَطنِ أمِّهِ أربعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ في ذلك عَلقةً مثلَ ذلِكَ، ثمَّ يَكونُ مُضغةً مثلَ ذلِكَ، ثمَّ يُرسَلُ الملَكُ فيَنفخُ فيهِ الرُّوحَ، ويُؤمرُ بأربعِ كلِماتٍ: بكَتبِ رزقِه وأجلِه وعملِه، وشقيٌّ أو سعيدٌ))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/٤٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/٢٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٣).

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ عيسى ابنَ مريمَ عبدٌ مخلوق، كما خَلَق اللهُ سائرَ البشر؛ لأنَّ اللهَ تعالى صوَّره في الرَّحِم وخَلَقه كما يشاء؛ فكيف يكونُ إلَهًا كما زعمَتْه النَّصارى، وقد تَقلَّب في الأحشاءِ، وتنقَّل من حالٍ إلى حال؛ كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[1] [الزمر: ٦]؛ لذا قال اللهُ تعالى بعد ذلِك مقررًا انفرادَه بالأُلوهيَّة:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: هو المستحقُّ للإلهيَّة وحْدَه لا شريكَ له، العزيزُ في مُلكِه، لا يَغلِبُه شيء، ولا يمتنعُ منه شيءٌ، وما شاء كان بلا ممانعٍ، والحكيمُ في خَلْقِه وصُنعِه وتدبيره[2].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.

أي: هو الَّذي أنزَل عليك- يا محمَّدُ- القُرْآنَ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١). =

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾.

أي: مِن القُرْآن آياتٌ بيِّناتٌ واضحاتُ الدَّلالة، لا التباسَ فيها على أحدٍ من النَّاسِ، ولا شُبهةَ، ولا إشكالَ[1].

﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

أي: وهذه الآياتُ المُحكَماتُ هي أصل هذا الكتابِ، ومُعظَمُه الَّذي يُرجَعُ إليه عند الاشتباهِ[2].

﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

أي: ومِن القُرْآنِ آياتٌ أُخَرُ يَلتبسُ معناها، أو تشتبهُ دَلالتُها على كثيرٍ من النَّاسِ أو بعضهم[3].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين في قلوبِهم مَيْلٌ عن الحقِّ، وانحرافٌ عنه وضلال[4]، فيَتعلَّقون بالمتشابِهِ من آياتِ القُرْآن، ويأخذون به، ويتركون المُحكَمَ[5].

= قال ابن عطية: (الكتابُ في هذه الآيةِ القرآنُ بإجماعٍ مِن المتأولين) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٨٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢).

(٤) وقد قال بنحو هذا القول: ابن عبَّاس، وابن مسعود، ومجاهد، ومحمد بن جعفر بن الزُّبير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢).

﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾.

أي: طلبًا للشُّبهاتِ، واللَّبْسِ على المؤمنين، وإضلالِهم؛ إيهامًا بأنَّهم يحتجُّونَ بالقُرْآن(١).

﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

أي: وطلبًا لتفسيرِه على ما يُريدون؛ تحريفًا له وَفْقَ أهوائِهم الفاسدةِ؛ لاحتمالِ لفظِه لِما يصرِفونه إليه(٢).

عَن عَائِشَةَ رضِي الله عنها، قالت: تَلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هذه الآيةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، قالَتْ: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((فإذا رأيتِ الَّذين يتَّبِعون ما تَشابَه منه، فأُولئِكِ الَّذين سَمَّى اللهُ، فاحذَرُوهم))(٣).

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾.

أي: وما يعلَمُ عواقِبَ الأمورِ وما تؤولُ إليها، ولا حقائقَها، إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ وحده؛ وذلك كحقائقِ صفاتِ الله وكيفيَّتِها، وحقائق أوصاف ما يكونُ في اليومِ الآخِرِ، ونحو ذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦١).
وممن قال بنحو هذا القول: مجاهد، ومحمد بن جعفر بن الزبير، ومحمد بن إسحاق. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٤).

(٣) رواه البخاري (٤٥٤٧)، مسلم (٢٦٦٥).

أمَّا الرَّاسخون في العِلم، المتمكِّنون منه، المُتقِنون له، فيقولون: آمَنَّا وصدَّقْنا بالمتشابِهِ من آيِ الكِتابِ، وأنَّه حقٌّ وإن لم نعلَمْ تأويلَه(١)، هذا على قراءة الوقفِ على اسمِ الله(٢).

أمَّا على قِراءة الوصلِ(٣) فيكون المعنى: وما يَعلَمُ تفسيرَ المتشابِهِ، وبيانَه، ورَدَّه إلى المُحكَم، ودَفْعَ شُبَهِه، إلَّا اللهُ والرَّاسخون في العِلم، المتمكِّنون منه، المُتقِنون له أيضًا، يعلَمون ذلك، ويقولون: آمَنَّا وصدَّقْنا بالمتشابِهِ من آيِ الكتابِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة آل عمران)) (١/ ٣٥).

(٢) رجَّح الوقفَ على اسم الله: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٢١٧، ٢٢٠)، والواحديُّ في ((تفسيره)) (١/ ٤١٤)، وابنُ قدامة في ((روضة الناظر)) (١/ ٢١٦)، والشنقيطيُّ في ((تفسيره)) (١/ ١٨٩).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: عائشة، وابن عبَّاس، وهشام بن عروة، وأبو نَهِيك الأسديُّ، وعمر بن عبد العزيز، ومالك، وأبو الشعثاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٩٩).

وقال أبو عمرو الدَّاني: (وهو قولُ أكثر أهل العلم من المفسِّرين والقرَّاء والنحويِّين)، ((المكتفَى في الوقف والابتدَا)) (ص: ٣٧).

وقال ابن تيمية: (وعليه أصحابُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وجمهورُ التابعين، وجماهير الأمَّة)، ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٢٧٥).

(٣) وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، ومجاهد، والربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والضحَّاك. يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٥٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين –سورة آل عمران)) (١/ ٣٥).

قال الراغب: (الوقفُ على قوله: ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، ووصله بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ جائز، وأنَّ لكلٍّ واحد منهما وجهًا)، ((المفردات)) (ص ٤٤٥).

وقال ابن تيميَّة: (ولا منافاةَ بين القولينِ عند التَّحقيق)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٣/ ٥٥) وينظر ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة آل عمران)) (١/ ٣٥).

﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

أي: كلٌّ مِن المحكَمِ من الكتاب والمتشابِهِ منه، الجميعُ مِن عند ربِّنا، أوحاه إلى نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، يُصدِّقُ كلٌّ منهما الآخَرَ، ويشهَدُ له[١].

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي: وما يَتذكَّرُ ويتَّعِظُ ويفهَمُ ويَقبَلُ النُّصحَ إلَّا أصحابُ العقول السَّليمة[٢].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

أي: ويقول الرَّاسخونَ في العِلم أيضًا: يا ربَّنا، لا تُمِلْ قلوبَنا عن الهُدى والحقِّ بعد إذ هديتَنا إليه، فوفَّقْتَنا للإيمانِ بمُحكَمِ كتابِك ومتشابِهه، فلا تَجْعَلْنا كالَّذين في قلوبهم زَيغٌ، ممَّن يتَّبِعُ ما تشابهَ من القُرْآن[٣].

عن عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ قلوبَ بَني آدمَ كلَّها بينَ إصبَعينِ من أصابعِ الرَّحمنِ كقَلبٍ واحِدٍ، يُصرِّفُه حيثُ يشاءُ، ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اللَّهمَّ مُصرِّفَ القلوبِ، صرِّفْ قلوبَنا على طاعتِكَ))[٤].

وعن أُمِّ سلَمةَ رضِي اللهُ عنها قالت: ((كانَ أَكْثرُ دعائِهِ: يا مُقلِّبَ القلوبِ، ثبِّت قلبي علَى دينِكَ، قالَت: فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما أَكْثرَ دُعاءَكَ: يا مقلِّبَ القلوبِ، ثبِّت قَلبي علَى دينِكَ! قال: يا أمَّ سلَمةَ، إنَّهُ لَيسَ آدميٌّ إلَّا وقلبُهُ بينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢).

(٤) رواه مسلم (٢٦٥٤)

أُصبُعَيْنِ من أصابعِ اللهِ، فمَن شاءَ أقامَ، ومن شاءَ أزاغَ)). فتلا معاذٌ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾(١).

﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾.

أي: وأعطِنا يا ربَّنا- تفضُّلًا مِن عندك- رحمةً عظيمةً تَزيدُنا بها إيمانًا وثَباتًا ويقينًا وسَدادًا(٢).

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

أي: إنَّك أنت واسعُ العطايا والهِبَاتِ، كثيرُ الإحسان(٣)، فإنَّنا إنَّما طلَبْنا منك هبةَ الرَّحمةِ؛ لأنَّك أنتَ الوهَّابُ(٤).

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: ويقول الرَّاسخون في العِلمِ أيضًا: يا ربَّنا، إنَّك تبعَثُ النَّاسَ، وتجمَعُهم في يومٍ لا شكَّ فيه، وهو يوم القيامة، وذلك للفصلِ بينهم، ومجازاةِ كلِّ واحد بعمَلِه، فاغفِرْ لنا يومئذٍ، واعفُ عنَّا(٥).

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢) واللفظ له، وأحمد (٢٦٧٢١)، وأبو يعلى (٦٩٨٦).
حسنه الترمذي، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٣٥٥). وقواه بطرقه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٢٠٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢-٥٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢١).
=

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ وعده؛ أنَّ مَن آمَن به واتَّبع رسولَه، وعمِل صالحًا، أنَّه يغفِرُ له(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ...﴾ حضٌّ على تربيةِ الإنسان لنفسِه على امتثالِ ما أمَره الله به، واجتنابِ ما نهاه عنه، وأنْ يتيقَّنَ أنَّ عمَلَه لا يَخفَى على الله، بل هو معلومٌ له(٢).

٢- في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ دليلٌ على أنَّ مِن علامةِ الزَّيغِ اتِّباعَ المتشابِهِ من القُرْآنِ، سواءٌ تبِعه الإنسانُ بالنِّسبة لتصوُّرِه فيما بينه وبين نفسِه، بإيراد الآياتِ المتشابهاتِ عليها، أو كان يتَّبعُ ذلك بالنِّسبة لعَرْضِ القُرْآن على غيره(٣).

٣- في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾- على قراءةِ الوقفِ- بيانُ أنَّ في القُرْآن ما لا يعلَمُ تأويلَه إلَّا اللهُ (وهي عواقبُ الأمورِ وما تؤولُ إليها حقائقُها)،

= قال ابن جرير: (وهذا من الكلام الذي استُغني بِذِكر ما ذُكر منه عمَّا ترك ذِكرُه؛ وذلك أنَّ معنى الكلام: ربَّنا إنك جامع الناس ليوم القيامة، فاغفر لنا يومئذ، واعف عنَّا؛ فإنَّك لا تخلف وعدك أنَّ مَن آمن بك واتَّبع رسولك، وعمل بالذي أمرتَه به في كتابك، أنَّك غافره يومئذ. وإنما هذا من القوم مسألة ربهم أن يُثبِّتَهم على ما هم عليه من حُسن بصيرتهم بالإيمان بالله ورسوله، وما جاءهم به من تنزيله، حتى يَقبِضَهم على أحسن أعمالهم وإيمانهم، فإذا فعَل ذلك بهم، وجبَتْ لهم الجنة؛ لأنَّه قد وعد مَن فَعَل ذلك به من عباده أنه يُدخِلَه الجنة، فالآية وإنْ كانت قد خرَجت مخرجَ الخبر، فإنَّ تأويلها من القوم مسألةٌ ودعاءٌ ورغبة إلى ربهم)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٥).

وفيه امتحانٌ للعباد بتأدُّبِهم مع الله عزَّ وجلَّ، هل يحاولون الوصولَ إلى شيءٍ لا تدركُه عقولُهم، أو يقفون على حدودِ ما تُدركه عقولُهم[1].

٤- يؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أنَّ إنكارَ ما جاء عن اللهِ، والتبجُّحَ في ردِّه، لا يكون إلَّا من السَّطحيِّين الَّذين تخدَعُهم قشورُ العِلم، بخلاف الرَّاسخين فيه[2].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فضيلةُ الرُّسوخ في العِلم، وضرورةُ الثَّبات فيه، والتعمُّقِ في أخذِه، والبعدِ عن السَّطحيَّةِ فيه[3].

٦- الرُّسوخُ في العِلم قدرٌ زائدٌ على مجرَّد العِلم؛ فالرَّاسخُ في العِلم يقتضي أنْ يكون عالِمًا محقِّقًا، وعارفًا مدقِّقًا، قد رسخ قدمُه في أسرارِ الشَّريعةِ؛ عِلمًا وحالًا وعمَلًا[4].

٧- ينبغي للإنسان أنْ يحرِصَ على أنْ يكون راسخًا في العِلم، لا مُجرَّدَ جامعٍ له؛ فالرُّسوخُ في العِلم يُولِّد عند الشَّخص ملَكةً يستطيعُ من خلالها تقريبَ العِلم بعضِه من بعض، وقياسَ بعضِه على بعض[5].

٨- لا يَنتفعُ بهذا القُرْآن ولا يتذكَّرُ بآياته إلَّا مَن كان له عقلٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وكلَّما ازداد المرءُ عقلًا، ازداد تذكُّرًا بكلامِ الله، وكلَّما نقَص تذكُّرُه دلَّ ذلك على نقصٍ في عقلِه بناءً على قاعدة: الحكم المعلَّق على وصفٍ يَزيد بزيادته، ويَنقُص بنقصانه[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ بيانُ أنَّ للقلبِ حالينِ: حالَ استقامةٍ، وحالَ زيغٍ، والإنسان مضطرٌّ إلى أنْ يسألَ اللهَ سبحانه وتعالى ألَّا يُزيغَ قلبَه، حتى يكونَ مستقيمًا؛ فهو لا يملِكُ قلبَه؛ لذا لا بدَّ أنْ يلجأَ إلى اللهِ بسؤالِه ألَّا يُزيغَ قلبه، ولا يغترَّ بنفسِه، ويتَّكِلَ على إيمانِه، فكم من مؤمنٍ زلَّ وارتكَس، والعياذُ بالله[١].

١٠- القلبُ عليه مدارُ العمَلِ؛ لذلك سلَّط اللهُ فِعْلَ الزَّيغ عليه فقال: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾[٢].

١١- التَّخليَة تكونُ قبل التَّحليَة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾[٣]، فقدَّم اللهُ تبارَك وتعالَى السُّؤال في تطهير القلبِ عمَّا لا يَنبغي، على طلبِ تَنويرِه بما ينبغي؛ لأنَّ إزالةَ المانع قبل إيجادِ المقتضِي عينُ الحكمة[٤].

١٢- في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ بيانُ أنَّ القلبَ المؤمن يُشفِق من العودةِ إلى الضَّلال، كما يُشفق السَّائرُ في الدَّربِ المستقيم أنْ يعودَ إلى التخبُّطِ في المنعرَجاتِ المظلِمة؛ فهو يُدرك قِيمةَ الاهتداء بعد الضَّلال، والرُّؤيةِ الواضحة بعد الغَبَشِ، والاستقامةِ بعد الحَيْرة، والتَّحرُّرِ من العبوديَّةِ للعبيد بالعبوديَّةِ للهِ وحده[٥].

١٣- في قولِه تعالى عن أوليائِه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥)، وانظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٤٩).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧٠، ٣٧١).

لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أنَّه إذا سَلِمَ العَبْدُ مِن فِتنةِ الشُّبُهاتِ والشَّهواتِ حصَل له أعظمُ غايتَينِ مطلوبتَينِ، بِهما سَعادتُه وفلاحُه وكمالُه؛ وهُما الهُدَى، والرَّحمةُ[1].

١٤- نبَّه تعالى بقوله: ﴿هَبْ لَنَا﴾ على أنَّ العبدَ يَنبغي ألَّا يلتفتَ إلى شيءٍ من عمَلِه، ولا أنْ يَطلُبَ العِوَضَ به، بل يَرجو رَجاءَ المفَاليسِ الطَّالبين للتفضُّلِ والهِبَة لا العِوَض[2].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله: ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ خصَّ اللهُ تبارَك وتعالَى الأرضَ والسَّماء بالذِّكر؛ لكونِهما مَشهودَينِ لنا، أمَّا ما عدا ذلك فإنَّنا لا نعلَمُه إلَّا عن طريقِ الغيب[3].

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ صفةٌ سلبيَّةٌ، يرادُ بها بيانُ كمالِ العِلم؛ لأنَّ الصِّفاتِ المنفيَّةَ لا يرادُ بها مجرَّدُ النَّفي، وإنَّما يراد بها بيانُ كمال الضِّدِّ[4].

٣- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ...﴾ فيه ردٌّ على غلاةِ القدريَّةِ الَّذين يَزعُمون أنَّ اللهَ لا يعلَمُ بعمَلِ العبدِ إلَّا بعد وقوعِه[5].

٤- إحاطةُ علمِ اللهِ بالكلِّيَّات والجزئيَّات؛ وذلك يؤخَذُ من قوله: ﴿شَيْءٌ﴾؛

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٨- ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤).

فهي نكِرةٌ في سياق النَّفي، فأفادت العمومَ[١].

٥- قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فيه ردٌّ أيضًا على أهلِ الطَّبيعة؛ إذ يجعلونها فاعلةً مستبدَّةً[٢].

٦- لَمَّا ذكَر أنَّ القُرْآنَ مُحكَمٌ ومتشابِهٌ، نظَر إليه جملةً- كما اقتضاه التَّعبيرُ بالكتابِ- فعبَّر عن ذلك بالإنزالِ دون التَّنزيل فقال: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكَ﴾[٣].

٧- قسَّم اللهُ الأدلَّةَ السَّمعية إلى قِسمين: مُحكَمٍ ومتشابِهٍ، وجعَل المحكَم أصلًا للمتشابِهِ، وأُمًّا له، وأمُّ الشَّيء مرجعُه وأصلُه، فما خالَف ظاهرَ المُحكَم، فهو متشابهٌ، يُرَدُّ إلى المحكَم؛ ولذا قدَّم وصف هذه المحكَمات بقوله: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾؛ ليتبادرَ إلى الذهن أوَّلَ ما يتبادر أنَّه يردُّ المتشابهات إلى المحكَماتِ؛ لأنها كالأمِّ لها؛ فالمحكَماتُ تُفهَم بذواتها، بينما المتشابهات لا تُفهَم إلَّا بالاستعانة بالمُحكَمات[٤].

٨- الاشتباه قد يكونُ اشتباهًا في المعنى، بحيث يكون المعنى غيرَ واضح، أو اشتباهًا في التعارضِ، بحيث يظنُّ الظانُّ أنَّ القُرْآن يعارِضُ بعضُه بعضًا، وهذا لا يمكن أنْ يكون واقعًا في القرآن؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، والقُرْآن يُصدِّقُ بعضُه بعضًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤)، وينظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٤٢)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيِّم (٢/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١).

٩- التَّشابُه في التفسيرِ والمعنى أمرٌ نِسبيٌّ؛ فقد يتشابهُ عند هذا ما لا يتشابه عند غيرِه، ولكن ثَمَّ آياتٌ مُحكَماتٌ لا تشابُهَ فيها على أحدٍ، وتلك المتشابهات إذا عُرِف معناها صارَتْ غيرَ متشابهة[1].

١٠- في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ذكَر اللهُ أشدَّ الميْل، وهو مَيْلُ القلب، وفي إشعارِه ما يلحَقُ بزيغِ القلوبِ من سيِّئِ الأحوال في الأنفُس، وزلَلِ الأفعال في الأعمال، فأنبأَ عن الأشدِّ، وأبهم ما هو الأضعفُ[2].

١١- يُؤخَذُ من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ الآيةَ: أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أنزَل المتشابِهَ؛ ليمتحِنَ قلوبَنا في التَّصديق به، للتمييزِ بين الثابت على الحقِّ والمتزلزل فيه، فإنَّه لو كان كلُّ ما ورَد في الكتاب معقولًا واضحًا، لَمَا كان في الإيمان شيءٌ من معنى الخضوعِ لأمرِ الله تعالى والتَّسليمِ لرُسلِه، ولكي يكونَ حافزًا لعقل المؤمنِ إلى النَّظر كيلا يضعُفَ فيموتَ، ولتعويد حَمَلةِ هذه الشَّريعةِ، وعلماءِ هذه الأمَّةِ بالتَّنقيبِ، والبحثِ، واستخراج المقاصدِ من عويصاتِ الأدلَّة، وليظهر فيها فضلُهم، ويزداد حِرصُهم على أن يجتهدوا في تَدبُّرها، وتحصيلِ العلوم المتوقِّف عليها استنباطُ المراد بها، فينالوا بها، وبإتعابِ القرائحِ في استخراجِ معانيها، والتوفيقِ بينها وبين المُحكَمات الدَّرجاتِ العُلى عند الله تعالى[3].

١٢- قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، ولم يجمَعْ فيقول: (هنَّ أمَّهاتُ الكتاب)، وقد قال: ﴿هُنَّ﴾؛ لأنَّه أراد: جميعُ الآياتِ المحكَماتِ أمُّ الكتاب، لا أنَّ كلَّ آيةٍ منهنَّ أمُّ الكتاب، ونظيرُ ذلك، قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((السراج المنير)) للشربيني (١/ ٢٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٨).

آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ولم يقُلْ: آيتينِ؛ لأنَّ معناه: وجعلنا جميعَهما آيةً؛ لأنَّ المعنى واحدٌ فيما جُعِلا فيه عبرةً للخَلْقِ(١).

١٣- مُقتضى الرُّبوبيَّة أنَّ اللهَ تعالى يُنزِّل على عبادِه كتابًا، لا يكونُ فيه اختلافٌ يوقِعُهم في الشَّكِّ والاشتباهِ؛ لقوله سبحانه: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي: المحكَم والمتشابِهُ، وما كان من عندِ الرَّبِّ المعتني بعبادِه بربوبيَّتِه، فلن يكونَ فيه تعارُضٌ ولا تناقُضٌ، بل هو متَّفِق، يصدِّقُ بعضُه بعضًا، ويشهَدُ بعضُه لبعض، فإذا أشكَل مجمَلُ المتشابِهِ، فهو مردودٌ يقينًا إلى المحكَمِ(٢).

١٤- الدُّعاء غالبًا ما يُصَدَّر بالرَّبِّ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يتطلَّبُ الإجابةَ، والإجابةُ من الأفعال، والأفعال علاقتُها بالرُّبوبيَّة أكثر من علاقتها بالألوهيَّة؛ فالربوبيةُ تَقتضي القيامَ بأمورِ العباد وإصلاحِها؛ فكان العبدُ مُتعلِّقًا بمَنْ شأنُه التربيةُ والرفقُ والإحسان(٣).

١٥- قولهم: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ لا يُرادُ به الافتخارُ، بل يرادُ به التَّوسُّل بالنِّعَم السَّابقة إلى النِّعَم اللَّاحقة(٤).

١٦- طلبُهم الرَّحمةَ مِن عندِ الله بقولهم: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ حتى لا يكونَ لأحدٍ عليهم منَّةٌ سواه، ولأنَّها متى ما كانت مِن عندِه كانت عظيمةً؛ فالعطاءُ على قدرِ المعطي(٥).

١٧- في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ إثباتُ اسمِ الله الوهَّاب، وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣).

يتضمَّنُه من صفةِ الهِبَة، وهي صِفةٌ فعليَّةٌ لله تعالى(١).

١٨- في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا﴾ دليلٌ على أنَّ الهُدى والضَّلال مِن اللهِ تعالى، وأنَّه متفضِّلٌ بما يُنعِم على عبادِه، لا يجبُ عليه شيءٌ ما(٢).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ استئنافٌ يَتنزَّلُ منزلةَ البيان لوصْفِ الحيِّ؛ لأنَّ عموم العِلم يبيِّنُ كمالَ الحياة(٣)؛ فهذه الجملةُ كالدَّليل على كونه حيًّا(٤).

- عبَّر هنا بـ﴿لَا يَخفَى عَلَيهِ شَيءٌ﴾ ولم يقُل: هو عالمٌ بكلِّ شيء؛ لأنَّ ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أبلغُ مِن قوله: (يعلم) في الأصل، وإنْ كان استعمالُ اللَّفظين فيه يُفيدان معنًى واحدًا(٥).

- وتَنكير ﴿شَيْء﴾؛ ليُفيد العموم والشُّمول، وجِيء بـ(شيء) هنا؛ لأنَّه من الأسماء العامَّة(٦).

- وتقديمُ ﴿الْأَرْض﴾ على ﴿السَّمَاءِ﴾؛ ترقِّيًا من الأَدْنى إلى الأعلى، ولأنَّ المقصودَ بالذِّكر ما اقْتُرِف في الأَرضِ؛ فكانت أَوْلى بالتَّقديم(٧)، أو ابتدأَ في

---

(١) يُنظر: ((اشتقاق الأسماء)) للزَّجَّاج (ص: ١٢٦)، ((صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسُّنة)) لعلوي السَّقَّاف (ص: ٤١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٨٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦).

الذِّكر بالأرض؛ ليتَسنَّى التدرُّجُ في العطفِ إلى الأبعدِ في الحُكم؛ لأنَّ الكثيرَ من أشياءِ الأرض يعلَمُها كثيرٌ من النَّاس، أمَّا أشياءُ السَّماء فلا يعلم أحدٌ بعضَها، فضلًا عن عِلم جميعِها(١).

٢- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ استئنافٌ يُبيِّنُ شيئًا من معنى القيُّوميَّة؛ فهو كبَدَلِ البعضِ من الكلِّ، وخَصَّ بالذِّكرِ مِن بين شؤونِ القيُّومية تصويرَ البَشر؛ لأنَّه مِن أعجبِ مظاهرِ القدرةِ، ولأنَّ فيه تعريضًا بالرَّدِّ على النَّصارى في اعتقادِهم إلهيَّةَ عيسى عليه السَّلام(٢)؛ فهذه الجملةُ كالدَّليلِ على القيوميَّة، والاستدلالِ على أنَّه عالمٌ بإتقانِ فِعْلِه في خَلْقِ الجنينِ وتصويرِه(٣).

- قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: فيه تكرار قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي سبق في مَطلعِ السورة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾؛ للتَّنبيهِ على استقرارِ ذلك في النُّفوس، وللردِّ على مَن زعم أنَّ معه إلهًا غيره(٤).

- وناسَب هنا مَجيءُ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بعدَ الوصفينِ السَّابقين من العِلم والقُدرة؛ إذ مَن هذان الوَصفانِ له هو المتَّصفُ بالإلهيَّة لا غيرُه، ثم أتى بوصْفِ العِزَّة الدالَّة على عدم النَّظير، والحِكمة الموجِبة لتصويرِ الأشياءِ على الإتقان التامِّ(٥).

- وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: تذييلٌ لتقريرِ الأحكام المتقدِّمة(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١)، ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١، ٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٣).

- وفي افتتاحِ السُّورةِ بهذه الآياتِ بَراعةُ استهلالٍ؛ لنزولها في مجادلةِ نَصارى نجران؛ ولذلك تَكرَّر في هذا الطالع قَصْرُ الإلهيَّة على اللهِ تعالى في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾(١).

٣- في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ﴾(٢)، وتمهيد لقوله: ﴿منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾(٣).

- وفيه: تقديمُ الظَّرف ﴿عَلَيْكَ﴾ على المفعول ﴿الكِتَابَ﴾؛ للاعتناءِ بشأنِ بِشارتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، بتشريفِ الإنزالِ عليه، وللتشويقِ إلى ما أُنزل؛ فإنَّ النفسَ عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ- لا سيَّما بعدَ الإشعارِ برِفعةِ شأنِه أو بمنفعته- تبقَى مترقبةً لهُ، فيتمكَّنُ لديها عند وُرودِه عليها فضلُ تمكُّنٍ، وليتَّصل به تقسيمه إلى قسيمه، ولِمَا يُفيدُهُ مِنَ الاخْتِصَاصِ(٤).

- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ﴾: فيه من بدائع البلاغة: ذِكر فِعل ﴿أَنْزَلَ﴾ في صِيغة القصر- وهي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي﴾- لأنَّ تعريفَ جزأَيِ الجملة بالضَّمير والموصولِ يُفيدُ القَصْر- مع أنَّ (الإنزال) مختصٌّ بالله تعالى ولو بدون صِيغة القَصر؛ إذ الإنزالُ يُرادِفُ الوحيَ، ولا يكونُ إلَّا من الله، بخِلافِ ما لو قال: هو الذي آتاك الكِتابَ(٥)، فأفاد التَّأكيد.

٤- في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ شبَّه القلبَ المائلَ عن القصْد بالشَّيء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٥٤).

الزائغ عن مكانه[١]، وجعَل قلوبهم مقرًّا للزيغ؛ مبالغةً في عُدولِهم عن سَنَنِ الرَّشاد، وإصرارِهم على الشرِّ والفَساد[٢].

٥- **قوله تعالى:** ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ فيه تكرارُ لَفْظِ التأويل؛ لاختلافِ التأويلينِ، أو للتَّفخيمِ لشأنِ التأويل[٣].

- وجاءَ قوله: ﴿ابْتِغَاءَ﴾ على صِيغة (افتعال)؛ لبيان التكلُّف في شدَّة الطلب[٤].

٦- **قوله تعالى:** ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَه ومُؤكِّد له، وفيه: مزيدُ تأكيدٍ بِذِكر ﴿عِنْدَ﴾، ولم يقل: (من ربِّنا)؛ لأنَّ الإيمانَ بالمتشابِهِ يُحتاجُ فيه إلى مزيدِ التأكيد[٥]، أو زِيدت كلمة ﴿عِنْدَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ﴿مِنْ﴾ هنا للابتداءِ الحقيقيِّ دون المجازيِّ، أي: هو مُنزَّلٌ مِن وحْيِ اللهِ تعالى وكلامِه[٦].

- قوله: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾: هذا مِن المقول، ومفعول: (يقولون) قوله: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾، وجُعلتْ كلُّ جملةٍ كأنَّها مستقلَّةٌ بالقول؛ ولذلك لم يُشترَكْ بينهما بحَرْف العَطف، أو جُعلَا ممتزجينِ في القولِ امتزاجَ الجُملة الواحدة[٧].

٧- **قوله تعالى:** ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ تذييلٌ سِيقَ مساقَ المدحِ للرَّاسخين، والثناءِ عليهم بجَودةِ الذِّهن، وصَحيحِ الفَهم، وحُسْن النَّظر[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٤٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦٩).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠).
(٨) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦٩).

٨- **قوله تعالى:** ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾ فيه تَكرارُ الدُّعاء بـ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ﴾؛ للتنبيهِ على مُلازمتِه، وللتحذيرِ من الغفْلة عنه؛ لِمَا فيه من إظهارِ الافتِقار(١).

٩- **قوله تعالى:** ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ التنكِيرُ في قوله: ﴿رَحْمَةً﴾؛ للتَّعظيمِ، أي: رحمةً عَظيمةً واسعةً(٢).

- وشبَّه المعقولَ من الرَّحمة بالمحسوس مِن الأجرام من العِوض والمعوَّض في الهِبة(٣).

- وفيه تأخيرُ المفعول الصَّريح ﴿رَحْمَةً﴾ عن الجارَّينِ ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّم، والتشويقِ إلى المُؤخَّر؛ فإنَّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تَبقَى النفسُ مترقبةً لوروده، لا سيَّما عند الإشعارِ بكونه من المنافعِ(٤).

١٠- **قوله تعالى:** ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ الجملةُ هنا استئنافيَّةٌ لتَعليلِ السُّؤال والتَّوسُّل ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾، أو لتعليلِ إعطاء المسؤول في قوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾(٥).

- وقوله: ﴿الْوَهَّابُ﴾ صِيغةُ مبالغة، وأُطْلِقت ولم تُقيَّد، حيث لم يَقُل مثلًا: (وهَّاب الهداية)؛ ليتناولَ كلَّ موهوبٍ(٦).

- وفيه قَصْرٌ بتَوسيطِ ضَميرِ الفَصلِ ﴿أَنْتَ﴾؛ للمبالغة؛ لأجْلِ كمال الصِّفة فيه تعالى؛ لأنَّ هِباتِ الناس بالنسبة لِمَا أفاض الله من الخيراتِ شيءٌ لا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

يُعبأ به، وفيه تأكيد بـ(إنَّ)، وبالجملة الاسميَّة، وبطريق القَصر[1]؛ فإنَّ ضميرَ الفصلِ يأتي لثَلاثِ فوائدَ: الأول: الفصلُ بين الصِّفة والخبر، والثانية: التوكيد، والثالثة: الحَصْرُ والقَصر[2].

١١- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ فيه إيجازٌ بحَذْفِ المضافِ إليه، وإقامةُ المضافِ مقامَه، والتقدير: يوم الحِسابِ أو يوم الجزاء؛ لكونِ المراد ظاهرًا، وللتهويلِ له، والتفظيعِ لِمَا يقَعُ فيه[3].

- وفيه التفاتٌ[4]؛ حيث قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ اللهَ﴾؛ لإبراز كمالِ التَّعظيمِ، والإجلالِ الناشِئ من ذِكرِ اليومِ المَهيب الهائل، ولتنبيهِ المخاطَب بتغييرِ أسلوبِ الكلام؛ وأيضًا لأنَّ الكلام بصيغةِ الغائب أبلغُ في تعظيمِ الله تبارَكَ وتعالَى[5].

١٢- في قوله تعالى: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ تأكيدٌ لإظهارِ ما هم عليه من كَمالِ الطُّمأنينةِ، وقوَّة اليقينِ بأحوال الآخرة[6].

١٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ تعليلٌ لمضمون الجُملة المؤكدةِ، أو لانتفاءِ الرَّيب[7].

- وفيه مناسبةٌ بليغة؛ ففي هذه الآية قال: ﴿إِنَّ اللهَ﴾، وفي آخِر السُّورة قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥١).

(٤) هذا على القول بأنَّه من تمام حِكاية قول الرَّاسخين في العِلم، وأمَّا على القول بأنَّ الكلام مستأنَفٌ من كلام الله، فلا التفاتَ حينئذ.

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧١).

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، والفرق: أنَّ هذه الآيَةَ في مقامِ الهيبة، والإلهيَّة تَقتضي الحشرَ والنَّشرَ؛ ليتصف المظلومون من الظالِمين، فكان ذِكرُه باسمِه أَوْلى في هذا المقام، أمَّا قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ في آخِر السُّورة، فذاك المقامُ مقامُ طلَب العبدِ من ربِّه أن يُنعِمَ عليه بفضله، وأنْ يتجاوزَ عن سيِّئاته، فلم يكُن المقام مقامَ الهيبة؛ فناسَبَه ذِكرُ الضَّمير: ﴿إِنَّكَ﴾[1].

- و﴿الْمِيعَاد﴾: على صِيغة (مِفعال) من الوعد، وجِيء به هكذا؛ لإفادةِ معنى تكرُّره ودوامِه[2]. وأيضًا التعبيرُ بنفيِ الخُلْفِ بلفظة: ﴿الْمِيعَاد﴾- وهي صيغةٌ تُستعمَلُ كاسمِ زمانٍ واسمِ مكانٍ بحسَبِ سياقِها- أبلغُ؛ لأنَّ نَفْيَ الخُلف في زَمنِ الوعدِ ومكانِه، أبلغُ من نفيِ خلف الوعدِ ذاتِه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان: (١٠ - ١١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَدَأْبِ﴾: الدَّأْب- بتسكينِ الهَمزة وفتَحِها-: العادةُ المستمرَّة، والشَّأن، أو الأشباه- بلُغة جُرهم-، وأصله: مِن الملازَمة والدَّوام(١).

﴿فِرْعَوْنَ﴾: لقبُ مَلِكِ مِصرَ وطاغيتِها في عَهدِ موسى عليه السَّلام، وقيل لكلِّ عاتٍ وطاغيةٍ: فِرْعَون، واشتُقَّ منه: تَفرْعَن، أي: فعَل فِعْل فِرعونَ(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تبارَكَ وتعالَى أنَّ الَّذين كفَروا به وبآياتِه، وكذَّبوا الرُّسل وعادَوْهم، وتولَّوْا عن دِين الله، وأعرَضوا عنه، أنَّه لن تنفعَهم أموالُهم ولا أولادهم، ولن تكون سببًا في نجاتهم من عقوبةِ الله إذا حلَّتْ بهم، وأن مصيرَهم إلى النَّارِ؛ فهم وَقُودُها الَّذي تُسعَّر به، وهم الملازِمون لها دائمًا وأبدًا؛ فهذه هي سُنَّةُ اللهِ الَّتي لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، فشأنُهم في ذلك كشأنِ فِرعون وآلِه، وكشأنِ الأُمَم المكذِّبة بآياتِ الله من قبلِهم؛ إذ كان مصيرَهم أنْ أهلكَهم اللهُ بسببِ ما اقترَفوه من ذنوب، عدلًا منه لا ظلمًا؛ فهو شديدُ الأخذِ، أليمُ العذابِ لِمَن جاء بأسبابِ العذاب.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (١/ ٢٣٨).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى يومَ القيامة، وتَحقَّق أنَّ يومَ الجمْع كائنٌ لا محالةَ، تحقَّق أنَّ مِن نتائجه تَحقيقًا لعزَّتِه سبحانه وتعالى: أنْ يحاسِبَ الَّذين كفروا، وأنْ يَنتقمَ منهم[1].

و أيضًا لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى ما دعَا به المؤمنون: مِن دوامِ الهدايةِ، وسؤالِ الرَّحمة، والفوزِ يومَ القِيامة، ذَكَر حالَ الكافرين في ذلك اليومِ، على عادةِ القُرآن في إردافِ البشارة بالنذارة، وتعقيبِ دُعاءِ المؤمنين، بِذِكر حالِ المشركين[2]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ الَّذين كفَروا باللهِ وآياتِه، وكذَّبوا رُسلَه، وجحَدوا دينَه، لن تُنجيَهم أموالُهم ولا أولادُهم من عُقوبةِ اللهِ إذا حلَّتْ بهم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٢٣).

قال الشِّنقيطيُّ: (ولم يُبيِّن هنا؛ هل نفيه لذلك تكذيبٌ لدعواهم أنَّ أموالَهم وأولادَهم تَنفعُهم، وبيَّن في مواضعَ أُخر أنهم ادَّعَوْا ذلك ظنًّا منهم أنه ما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا إلَّا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأنَّ الآخرة كالدنيا يستحقون فيها ذلك أيضًا، فكذَّبهم في آيات كثيرة، فمن الآيات الدالة على أنهم ادعوا ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، يعني في الآخرة كما أوتيته في الدُّنيا. وقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: بدليل ما أعطاني في الدنيا، وقوله: ﴿وَلَئِنْ =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ -٨٩].

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

أي: وأولئك هم حطَبُ النَّارِ الَّذي توقَدُ به، الملازِمونَ لها دائمًا أبدًا.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

ثمَّ ذكَرَ تعالى مثلًا لهؤلاء الكافرينَ الذين استغْنَوْا بما أُوتوا في الدُّنيا عن الحقِّ، فعارضُوه وناهضُوه حتَّى أَخذهم[2]، فقال:

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أي: شأنُهم في ذلك كشأنِ فِرعونَ[3] وآلِه، والأُمَم المكذِّبةِ بآياتِ الله مِن

= رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، قياسًا منه للآخرة على الدنيا، وردَّ الله عليهم هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، إلى غير ذلك من الآيات)، ((أضواء البيان)) (١/ ١٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٩١).

(٣) قال ابنُ كثير: (وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قال الضحَّاك، عن ابن عبَّاس: كصنيع =

قبلِهم؛ كقوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وأمثالِهم[1].

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: أهلَكهم اللهُ بسببِ ذُنوبهم، واللهُ شديدُ الأخذِ، أليمُ العذابِ[2].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بيانُ أنَّه قد مضَتْ سنَّةُ اللهِ تبارَك وتعالَى بأن يكونَ العقابُ أثَرًا طبيعيًّا للذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، فوجَب الحذرُ منها[3].

٢- تضمَّن قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ...﴾ الآيةَ: تحذيرًا مِن الغرورِ؛ إذ إنَّ الجحودَ مِن النَّاس نتيجةٌ حتميَّةٌ لغرورِهم بأنفسِهم؛ حيث تُوهِمُهم الاستغناءَ عن الحقِّ[4].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ...﴾ دليلٌ على

= آل فرعون. وكذا رُوي عن عِكرمة، ومجاهد، وأبي مالك، والضحَّاك، وغيرِ واحد، ومنهم مَن يقول: كسُنَّة آل فرعون، وكفِعل آل فرعون وكشَبَه آلِ فرعون، والألفاظ متقارِبة) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير) (٢/ ١٦)) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٧). و((تفسير السعدي)) (١/ ١٢٣).

يقول ابنُ عاشور: (وقد ضرَب الله لهم هذا المَثَل عِبرةً وموعظة؛ لأنَّهم إذا استقْرَوُا الأمم التي أصابها العذاب، وجدوا جميعهم قد تَماثَلوا في الكُفر: بالله، وبرسله، وبآياته، وكفى بهذا الاستقراء موعظةً لأمثال مشركي العرب)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٣٦،٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ الكفَّارَ لا تنفَعُهم أموالُهم ولا أولادُهم، لا في دُنياهم ولا أُخراهم، بخلافِ المؤمنين الَّذين ينتفعون بأموالِهم وأولادِهم، في حياتِهم وبعدَ موتهم[1].

٢- بيانُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا ينفعُ منه مالٌ ولا بنونَ، وأمَّا مَن غيرُ الله فقد تُغنِي هذه الأشياءُ منه؛ ويؤخَذُ ذلك من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[2].

٣- الكفرُ ملَّةٌ واحدةٌ، والكفَّار المتأخِّرون كالكفَّارِ السَّابقينَ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ تعالى في الخَلْق واحدةٌ، فليس بينه وبين الخَلْق نسَبٌ يراعيه ويُحابي مَن يتَّصلُ به، وليس لأحدٍ على اللهِ، ولا له شفاعةٌ، إلَّا بالإيمانِ الصَّحيحِ؛ كما في قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾[3].

٤- في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ ردٌّ على الجَبْريَّةِ الَّذين لا ينسُبون فِعْلَ العبدِ إليه؛ فاللهُ قد أضاف الذُّنوبَ إليهم، والفِعلُ لا يُنسَبُ إلَّا لِمَن قام به حقيقةً[4].

٥- في قولِه تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ بيانُ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في المكذِّبين بآياتِه يُجريها حيث يَشاءُ، فلا أمانَ لمكذِّبٍ، ولا ضمانَ لجاحِدٍ، وهو مَثَلٌ مضى في التَّاريخِ مَكرورًا، وقصَّه اللهُ في هذا الكتاب تفصيلًا[5].

٦- كمالُ العذابِ هو أنْ يَزولَ عنه كلُّ ما كان منتفعًا به، ثمَّ يجتمع عليه جميعُ الأسبابِ المؤلِمة؛ فالأوَّلُ هو المرادُ بقوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾؛ فإن المرءَ عند الشِّدَّة يفزَعُ إلى المالِ والولَدِ؛ لأنهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦١).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧٢).

أقربُ الأمورِ الَّتي يفزَعُ إليها في دفعِ النَّوائب، فبيَّن تعالى أنَّ صفةَ ذلك اليوم مخالِفةٌ لصفةِ الدُّنيا، وإذا تعذَّر عليه الانتفاعُ بالمالِ والولَدِ، وهما أقربُ الطُّرقِ، فما عداه بالتَّعذُّرِ أَوْلى، وأمَّا الثَّاني مِن أسباب كمال العذابِ، وهو اجتماعُ الأسباب المؤلِمة، فهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾، وهذا هو النِّهايةُ في العذاب؛ فإنَّه لا عذابَ أعظمُ مِن أنْ تشتعلَ النَّارُ فيهم كاشتعالِها في الحطَبِ اليابس(١).

٧- خَصَّ اللهُ آلَ فِرْعون بالذِّكرِ- من بين بقيَّةِ الأُمَم- في قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ لأنَّ هلاكَهم معلومٌ عند أهلِ الكتاب، بخلاف هلاكِ عادٍ وثمودَ؛ فهو عند العربِ أشهرُ، وقدَّمهم؛ لأنَّهم أكثرُ الأُممِ طغيانًا، وأعظمُهم تعنُّتًا على أنبيائِهم، فكانوا أشدَّ الناسِ عذابًا(٢).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾:

- فيه تقديمُ ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ على ﴿أَوْلَادُهُمْ﴾ من باب تقديم الأنسب؛ لأنَّ بالأموالِ قوامَ ما بعدَها، وتمام لذَّاته(٣)، وأيضًا لَمَّا كان المالُ في بابِ المدافعةِ والتقرُّبِ والفتنةِ أبلغَ مِن الأولاد، قُدِّم في هذه الآية(٤).

- والتأكيدُ بإعادة النافي ﴿وَلَا﴾؛ ليفيدَ النَّفي عن كلِّ حالةٍ وعن المجموعِ؛ فيكونَ أصرحَ في المرام(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٣- ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٥٣).

- وفيه إيجازٌ بالحذفِ في قوله تعالى: ﴿مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾؛ لدلالةِ الكلامِ عليه، والتقدير: (من عَذابِ الله)، فحُذف المضاف، أو تكون ﴿مِنْ﴾ بمعنى (عندَ)، أي: (لن تُغني عندَ اللهِ شيئًا)[1].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾: جِيءِ بالإشارة (أُولئك)؛ لاستحضارهم كأنَّهم بحيث يُشارُ إليهم، وللتنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما سيأتي من الخبَر، وهو قوله: ﴿هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾[2].

- وعُطفتْ هذه الجملةُ بالواو، ولم تُفصَل؛ لأنَّ المرادَ مِن التي قبلها الوعيدُ في الدنيا، وهذه في وعيدِ الآخِرة بقرينةِ قوله بعدها: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[3] [آل عمران: ١٢].

- وفيه التأكيدُ بضَمير الفصل ﴿هُمْ﴾[4].

٣- قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: تشبيهٌ، وقد صرَّح فيه بذِكر أداة التَّشبيه[5]، وفي كيفيَّة التشبيهِ وجوه؛ منها: أنَّ جِدَّهم واجتهادَهم في تكذيبِهم بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وكُفرِهم بدِينه كدأبِ آل فِرعون مع موسى عليه السَّلام، ثم إنَّا أهلكْنا أولئك بذُنوبهم، فكذا نُهلِك هؤلاء، وقيل غير ذلك[6].

- وهذا إخبارٌ غَرضُه التخويفُ لهم، والوعيدُ بعذاب الدنيا؛ لعِلمهم بما حلَّ بآل فرعون والذين من قَبل آل فِرعون من الأُمم الكافِرة[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٧٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٣، ٤٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٥).
(٧) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٨٨-٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٣).

٤- قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: بيانٌ وتفسيرٌ لدأبهم الذي فعَلوا، على طريقِ الاستئنافِ المبنيِّ على السؤالِ، كأنَّه قيل: كيف كان دأبُهم؟ فقيل: كذَّبوا بآياتنا[١].

- وفي قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، ثم قوله بعد ذلك: ﴿وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾: التفاتٌ؛ فالتكلُّم أولًا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ للجَريِ على سَنَنِ الكبرياءِ، وإلى الغَيبة ثانيًا بإظهار الجلالة (الله)؛ لتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوعة[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: التعبيرُ بالأخْذ فيه مبالغةٌ في شِدَّة عذابهم؛ كأنَّ مَن يُنزل به العقابَ يَصير كالمأخوذِ المأسورِ الذي لا يَقدِر على التخلُّص[٣].

- وإظهارُ الاسمِ الشَّريفِ ﴿اللهُ﴾ وعدمُ إضمارِه في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾؛ للتهويلِ، وللتنبيهِ على باهِر العظمة. وإظهارُه كذلك في قوله: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ للتنبيهِ على زِيادة العظمةِ في عذابِهم لمزيد اجترائهم[٤].

- ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: إنْ أُريد بها تكذيبُهم بالآيات، فالباء للسببيَّة؛ جِيء بها تأكيدًا لِمَا تُفيده الفاءُ من سببيَّة ما قبلَها لِمَا بعدَها، وإنْ أُريد بها سائرُ ذنوبهم فالباء للملابسة؛ جِيء بها للدَّلالةِ على أنَّ لهم ذنوبًا أُخَر، أي: فأَخَذَهم متلبِّسين بذُنوبهم غيرَ تائبين عنها[٥].

- ﴿واللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾: تذييلٌ مقرِّر لمضمونِ ما قبله من الأخْذ، وتكملةٌ له، وفيه: تهويلٌ للمؤاخذةِ، وزيادةُ تخويفٍ للكَفرة[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١).

الآيتان: (١٢ - ١٣)

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ
١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ
كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ١٣ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُحْشَرُونَ﴾: تُجمَعون؛ والحشرُ: الجمعُ مع سَوْق، والبعثُ والانبعاثُ، وكل جمعٍ حَشْرٌ، أو الجمعُ بكثرة(١).

﴿الْمِهَادُ﴾: الفِراشُ، أو المكانُ الممهَّد المُوطَّأ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُخبِرَ الكافرين بأنَّهم سيُغلَبون من قِبَلِ المؤمنين في حياتِهم الدُّنيا، وأنَّهم سيُجمَعون يومَ القيامة إلى نارِ جهنَّمَ؛ فهي الفِراشُ الَّذي فرَشوه لأنفسِهم، فبئس الفِراشُ.

ثم يقول تعالى: قد كان لكم علامةٌ ودلالةٌ واضحةٌ في أنَّ الغَلَبَةَ تكونُ للمؤمنين، وأنَّ النَّصرَ حليفُهم، وأنَّ اللهَ مُعزٌّ دِينَه، ومؤيِّدٌ رسولَه، هذه العلامةُ والدَّلالة متمثِّلةٌ في طائفتينِ تَقاتَلَتا، إحداهما مؤمنة تُقاتِلُ في سبيل الله، وهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَن معه من المسلمين، والأخرى كافرة، وهم مُشرِكو قريشٍ، وذلك في يوم بدرٍ؛ حيث كان المسلمون يرَوْن الكافرين رؤيةً

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧، ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

ظاهرةً بأنَّهم ضِعفُهم في العددِ، حتى يحصُلَ لهم التَّوكُّلُ على الله، ويلجَؤوا إليه في طلبِ الإعانة، والله يُقوِّي بأسباب نصرِه مَن يشاءُ ممَّن تقتضي الحكمةُ نصرَه أو تأييدَه، وفي ذلك التَّأييدِ للفئةِ المسلِمةِ- مع قلَّتِها- عبرةٌ وعِظَةٌ لِمن رُزِق بصيرةً نافذةً وعقلًا كاملًا يوصِلانِه إلى معرفةِ حِكَمِ اللهِ وأفعالِه.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ قراءتان:

١- قراءة (سَيُغْلَبُونَ) على معنى أنَّ الكُفَّارَ غُيَّبٌ.

وقيل معناه: قلْ لليهود: سيُغلبُ مُشرِكو العربِ، ويُحشرون إلى جَهنَّمَ، فتكونُ المخاطبةُ لليهود، وتكونُ الغلبةُ واقعةً على مُشركي قريش، والتوجيهُ الأوَّل أرجحُ لصريحِ الخِطاب ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1].

٢- قِراءة ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ هي أمرٌ من الله لنبيِّه أنْ يُخاطِبَ الكفَّارَ بهذا، أي: قل لهم- يا محمَّدُ- مواجهًا بالخطاب: ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنَّمَ[2].

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للَّذين كفروا: ستُغلَبون من قِبَلِ المؤمنين في الدُّنيا.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾، وكما قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[1].

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ قِراءتان:

١- قِراءة (وَيُحْشَرُونَ) بالياء، على لفظِ الغَيبة[2].

٢- قِراءة ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بالتَّاء بالخِطابِ[3].

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾.

أي: وتُجمَعون يَومَ القِيامةِ إلى النَّار[4].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٢).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٣).
ولَمَّا كان الأمرُ كما أخبَر به اللهُ تعالى مِن كونِهم غُلبوا في الدُّنيا، وشاهَد ذلك النَّاسُ؛ فهذا يُصدِّق الخبرَ الأخير أنَّهم يُحشرون إلى جهنَّم، وبئس المهاد. ((الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح)) لابن تيمية (١/ ٤١٠).

﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾:

أي: وبئس الفِراشُ جهنَّمُ الَّتي تُحشَرون إليها[(١)].

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾.

أي: قد كان لكم[(٢)] علامةٌ ودلالةٌ على أنَّ الغَلَبَةَ تكونُ للمؤمنين، وأنَّ اللهَ مُعِزٌّ دِينَه، وناصرٌ رسولَه، ومُظهِرٌ كلمتَه[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٥).

والمخصوص بالذمِّ محذوف؛ لدلالةِ ما قبله عليه، التقدير: وبئس المهادُ جهنمُ، وكثيرًا ما يُحذف لفَهم المعنى. ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤).

(٢) في المخاطَبين بهذا ثلاثةُ أقوال؛ أحدها: أنهم المؤمنون، رُوي عن ابن مسعود، والحسن. والثاني: الكفَّار، فيكون معطوفًا على الذي قبله، وهو يتخرَّج على قول ابن عبَّاس في الذي قبله. والثالث: أنَّهم اليهود، ذكره الفرَّاء، وابن الأنباري. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٦٢)، واختارَ القول الثالث: أنَّهم اليهود: ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٢٤١)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٢/ ١٧).

قال ابنُ عاشور: (والخِطاب في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ خِطابٌ للذين كفروا، كما هو الظَّاهر؛ لأنَّ المقام للمحاجَّة، فأعقب الإنذار والوعيد بإقامة الحُجَّة؛ فيكون من جملة المقول، ويجوز أن يكونَ الخطاب للمسلمين، فيكون استئنافًا ناشئًا عن قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾؛ إذ لعل كثرة المخاطبين من المشركين، أو اليهود، أو كليهما، يُثير تعجُّب السامعين من غلبهم، فذكَّرهم الله بما كان يوم بدر). ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧).

﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾.

أي: في طائفتينِ لقِيَ بعضُهما بعضًا للقتالِ فيما بينهما[1]: طائفةٍ تُقاتِلُ في سبيلِ الله، وهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَن معه من المسلِمين، وطائفةٍ كافرةٍ، وهم مُشرِكو قُريشٍ، وذلك يومَ بَدْرٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

أي: يرَى المسلِمون الكافرين[3] مثلي عدد المسلمين، رؤيةً ظاهرةً لا لَبْسَ فيها؛ حيث تَلحقُهم أبصارُهم، وإنْ كانوا أكثرَ من ذلك في حقيقةِ الأمر[4]؛

---

(١) لا خِلافَ بين المفسِّرين أنَّ الإشارةَ بهاتين الفِئتين هي إلى يوم بدر. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٥).

قال ابنُ عاشور: (والالتقاء: اللِّقاء، وصِيغة الافتعال فيه للمُبالغة، واللقاء مصادفةُ الشخص شخصًا في مكان واحد، ويُطلق اللِّقاءُ على البروز للقتال كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]... وهذه الآية تحتمل المعنيين) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣).

(٣) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٢٥١)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤١٧)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٢٣)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة آل عمران)) (١/ ٧٩).

وقيل: رأى الكفَّارُ المسلمينَ يومَ بدرٍ عندَ اللِّقاءِ والتَّلاحمِ مِثْلي عددِهم، فوقَع الرُّعبُ في قلوبِهم. وممن اختاره ابنُ عاشورٍ في ((تفسيره)) (٣/ ١٧٧)، والشنقيطيُّ في ((العذب النمير)) (٥/ ٧١).

(٤) قال ابن كثير: (ما الجمعُ بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصَّة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]؟ =

ليتوكَّلوا على اللهِ، ويَطلُبوا منه الإعانةَ(١).

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: واللهُ يُقوِّي بنَصرِه مَن يشاء ممَّن تَقتضي الحِكمةُ نَصْرَه أو تأييدَه(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

أي: إنَّ في تأييدِنا الفئةَ المسلِمةَ- مع قلَّتِها في العدَدِ- على الفئةِ الكافرة- مع كثرتها في العدَدِ- لَمُعتبَرًا ومتَّعظًا لِمَن له بصيرةٌ وفهمٌ يَهتدي به إلى حِكَمِ اللهِ وأفعالِه، وقَدَرِه الجاري بنصرِ عباده المؤمنين في هذه الحياة الدُّنيا، ويومَ يقومُ الأشهادُ(٣).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ...﴾ دليلٌ على أنَّه لو رجَع المسلِمون إلى دِينهم حقًّا في العقيدةِ والقولِ والعملِ والأخلاقِ والآداب، وجميعِ أمور

= والجواب: أنَّ هذا كان في حال، والآخَر كان في حال أخرى، فعندما عاين كلُّ الفريقين الآخَرَ رأى المسلمون المشركين مِثليهم، أي: أكثر منهم بالضِّعف؛ ليتوكَّلوا ويتوجَّهوا ويَطلُبوا الإعانةَ من ربهم عزَّ وجلَّ. ورأى المشركون المؤمنين كذلك؛ ليحصلَ لهم الرعبُ والخوفُ، والجزع والهلع، ثم لَمَّا حصَل التصافُّ والْتقَى الفريقان قلَّل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء؛ ليُقْدِم كلٌّ منهما على الآخَر)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٤٣٨).

قال الواحديُّ: (ترى الفئةُ المسلمة الفئةَ الكافرة، ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾، وهم كانوا ثلاثةَ أمثالهم، ولكن الله أرَى المسلمين أنَّ المشركين لا يَزيدون عن مثليهم؛ وذلك أنَّ الله كان قد أعلَمَ المسلمين أنَّ المئة منهم تغلب المِئتين من الكفَّار، فأراهم المشركين على قدْر ما أعلَمهم أنَّهم يَغلبونهم لتقوى قلوبُهم) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٥٣، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٠-٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨).

الدِّين، لحصَلَتْ لهم الغَلَبَةُ على الكفَّار، ويَشهَدُ لهذا تاريخُ المسلِمينَ؛ حيث ملَكوا مشارِقَ الأرضِ ومغارِبَها[١].

٢- يُؤخَذُ من قوله: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أنَّ القتالَ لا يكون سببًا للنصرِ إلَّا إذا كان في سبيلِ الله؛ إخلاصًا، وموافقةً للشَّرع، واجتنابًا للمحارِمِ، فإذا تمَّتْ هذه الأمورُ الثَّلاثةُ، فهذا هو الَّذي في سبيلِ الله[٢].

٣- إذا كان القتالُ في سبيلِ الله، توجَّهَتْ إليه النَّفسُ بكلِّ ما فيها من قوَّةٍ وشُعورٍ، وما تستطيعُه من تدبيرٍ واستعدادٍ، مع ثقةٍ قويَّةٍ بأن وراءَ قوتها معونةَ اللهِ وتأييدَه[٣].

٤- النَّصرُ ليس بكثرةِ العَدَدِ، ولا بقوَّة العُدَدِ، ولكنَّه من الله؛ لأنَّ اللهَ لَمَّا ضرَب هذا المَثَلَ قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[٤]؛ فالنَّاظرُ إلى مجرَّدِ الأسبابِ الظَّاهرة يجزم بأنَّ غلَبَةَ الفئةِ القليلة للفئة الكثيرة مِن المُحالات، ولكن وراءَ هذا السَّبب المُشاهَدِ بالأبصار، سببٌ أعظمُ منه، لا يُدرِكُه إلَّا أهلُ البصائر والإيمانِ والتَّوكُّلِ، وهو نصرُ اللهِ، وإعزازُه لعباده المؤمنين[٥].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فيه إرشادٌ إلى أنْ نَعتبرَ بأحوالِ المتقدِّمينَ علَيْنا مِن هذِه الأمَّةِ، كما نعتبِر أيضًا بأحوالِ مَن قَبلَها مِن الأُمَم؛ فاللهُ تعالى لَمَّا ذكَرَ قِصَّةَ فرعونَ، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣).
(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٢٦).

٦- انتفاءُ العِبرةِ يدلُّ على ضَعْفِ البَصيرةِ أو عدَمِها بالكلِّيَّةِ، فإذا وجَد الإنسانُ من نفْسِه عدمَ اعتبارٍ واتِّعاظٍ بما يجري، فليعلَمْ أنَّه ضعيفُ البَصيرةِ؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1].

٧- وعْدُ اللهِ بهزيمة الكافرين المنحرِفين عن منهجِ الله، قائمٌ في كلِّ لحظةٍ، ووعْدُ الله بنصرِ الفئةِ المؤمنة- ولو قلَّ عددُها- قائمٌ كذلك في كلِّ لحظةٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾[2].

٨- في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ دليلٌ على أنَّ توقُّفَ النَّصرِ على تأييدِ اللهِ الَّذي يعطيه مَن يشاءُ، حقيقةٌ قائمةٌ لم تُنسَخْ، وسُنَّةٌ ماضيةٌ لم تتوقَّفْ، فعلى المؤمنين أنْ يطمئنُّوا لهذه الحقيقةِ، ويثِقوا في ذلك الوعدِ، ويأْخُذوا للأمْرِ عُدَّتَه، ويَصبِروا حتى يأذَنَ اللهُ، وألَّا يَستعجلوا أو يَقنَطوا إذا طال عليهم الأمدُ المُغيَّبُ في عِلمِ اللهِ[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- من قولِ الله تعالى لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿قُلْ﴾ يُعلَم أنَّه عبدٌ تُوجَّه إليه الأوامرُ؛ فهو عبدٌ لا يُعْبَد، ورسولٌ لا يُكَذَّب[4].

٢- ضَرْبُ الأمثالِ بالأمورِ الواقعةِ أبلغُ في التَّصديقِ والطُّمأنينةِ، فينبغي للواعظِ والدَّاعي إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يضرِبَ المَثَلَ للمدعوِّين بالأمورِ الواقعة؛ لأنَّ ذلك أبلغُ، يؤخَذُ ذلك من قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٨١).

٣- لا أُلفةَ بين المؤمنين والكافرين؛ لقوله: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾، فمَن حاوَل أنْ يجمَعَ بين المؤمنين والكافرين، فقد حاوَل الجمعَ بين النَّارِ والماء(١).

٤- الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ في قولِه: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فأضاف الفِعلَ إليها(٢).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾:

- استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقال من النِّذارة إلى التهديد، ومِن ضَرب المَثل لهم بأحوالِ سَلفِهم في الكُفر إلى ضربِ المَثل لهم بسابِقِ أحوالهم المؤذِنة بأنَّ أمرَهم صائرٌ إلى زوال، وأنَّ أمْر الإسلام ستندكُّ له صُمُّ الجبال(٣).

- وجِيء في هذا التهديدِ بأطنبِ عِبارةٍ وأبلغِها؛ لأنَّ المقام مقامُ إطناب؛ لمزيد الموعظةِ، والتذكير بوصْف يومٍ كان عليهم، وهم يَعلمون هذا اليومَ، وهو يومُ بدرٍ(٤).

- وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فيه العدولُ عن الضَّمير (لـهُم) إلى الاسم الظَّاهِر ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ لاستقلالِ هذه النِّذارة، وللإفصاحِ عن التَّشنيعِ بهم في هذا الإنذارِ؛ حتى يُعادَ استحضارُ وصْفِهم بالكفر بأصرحِ عبارة(٥)، وأيضًا لكون ما سيَذكره بَعدَه مُرتَّبًا على هذه الصِّفة.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٤)، فالجَبْريَّةُ يقولون: إنَّه لا يُضافُ الفِعلُ إلى الفاعل إلَّا على سبيل المجاز، كما نقول: أكلتِ النَّارُ الحطَبَ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٧٥) (٩/ ٣٤٢). =

٢- قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾:

- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ فيه تأكيدٌ؛ لأنَّه جوابُ قسمٍ محذوفٍ، وهو من تمامِ القولِ المأمورِ به؛ جِيءَ به لتقريرِ مَضمونِ ما قَبْله وتحقيقِه[١].

- وتقديمُ الظَّرْف ﴿لَكُمْ﴾ على فاعلِ كان ﴿آيَةٌ﴾؛ للاعتناءِ بما قُدِّم، والتشويقِ إلى ما أُخِّر- على القول بأنَّ ﴿كَانَ﴾ تامَّةً- وتركُ تأنيثِ الفعل فلم يقُلْ: (كانت)؛ لأنَّ ﴿آيَةٌ﴾ تأنيثُها غيرُ حقيقيٍّ، وقيل: ردَّها إلى البيان، أي: قد كانَ لكم بيانٌ، فذَهَب إلى المعنى وترَك اللَّفظَ، ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿كَانَ﴾ ناقصةً، والظرفُ ﴿لَكُمْ﴾ خبرٌ، ولتوسُّطه بينَ ﴿كَانَ﴾ وبين اسمِها ﴿آيَةٌ﴾ تُرِك التأنيثُ[٢].

- وفيه من لطائفِ البَلاغة: الاحتباكُ، وذلِك في قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾؛ حيث حذَف مِن كلِّ جملةٍ من الجُملتين المتقابلتين شيئًا إيجازًا، وذكَر في الجملةِ الأخرى ما يدلُّ عليه، والتقدير: فِئةٌ مؤمنةٌ تُقاتِلُ في سبيل الله، وفِئةٌ أُخرى كافرةٌ تُقاتِل في سبيلِ الشَّيطان[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾:

= وهذا الوجه بناءً على القولِ بأنَّ المراد بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ...﴾، أمَّا على القول بأنَّ المراد بهم المشركون خاصَّةً، فليس فيه هذا الوجه.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٦٦).

- فيه إيثارُ صِيغة الجمعِ في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾؛ للدَّلالة على شُمول الرؤيةِ لكلٍّ واحدٍ من آحاد الفئة.

- وفيه تأكيدٌ بالمصدر المؤكَّد ﴿رَأْيَ﴾، وهو نص في أنَّ الرؤية بَصَريَّةٌ[1]، والقاعدةُ أنَّ التأكيدَ بالمصدر يَنفي احتمالَ المجاز[2].

- وقوله: ﴿رَأْيَ العَيْنِ﴾ فيه احتراسٌ؛ لئلَّا يُعتقد أنَّه من رُؤيةِ القَلْبِ[3].

٤- قوله: ﴿لَعِبْرَةً﴾: التنكيرُ للتَّعظيم، أي: عِبْرة عظيمة، وموعِظة جسيمة[4].

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣).

(٢) ينظر ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((فتح البيان في مقاصد القرآن)) لصديق حسن خان (٢/ ١٩٦).

الآيات: (١٤ - ١٧)

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ (١٤) ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ (١٥) ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٦) ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ (١٧) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿الْقَنَاطِيرِ﴾: جمْع قِنطار، وقد اختُلِف في حدِّه على أقوالٍ، وجملةُ القولِ: أنَّه عددٌ كثيرٌ مِن المال(١).

﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾: المضاعَفة، أو المضعَّفة، أو المكمَّلة(٢).

﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾: أي: الرَّاعيةِ- مِن السَّوم وهو الرَّعي- أو المعلَّمة بالعَلاماتِ الحِسان- من السِّمة والتَّسويم، أو المطَهَّمة، أي: الـمُحسَّنة، أو المرسَلة وعليها رُكبانُها، أو المعلَّمة في الحَرْبِ بالعَلامةِ، وأصلُ (سوم): طلب الشَّيء(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣).

﴿الْمَآبِ﴾: المرجِع، مِن آبَ يَؤُوب أَوْبًا، إذا رجَع[١].

﴿الْقَانِتِينَ﴾: الخاضِعين، الـمُداومين على طاعةِ الله، والقُنوت: دوامُ الطَّاعة ولزومُها مع الخضوع؛ وأصل (قنت): يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين، ثم سُمِّي كلُّ استقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قنوتًا[٢].

﴿بِالأَسْحَارِ﴾: جمْع سَحَر، وهو آخِرُ اللَّيلِ ومُقدِّمةُ الصُّبح[٣].

المَعنَى الإجماليُّ:

بعدَ أنْ بيَّن تبارَك وتعالَى عقوبةَ الكافرين، وأنَّهم لن تُغنيَهم أموالُهم ولا أولادُهم مِن عذابِ اللهِ وغضَبِه، حذَّر أهلَ الإيمان من أنْ تُلهيَهم زينةُ الدُّنيا وشهواتُها عن الآخرةِ، فذكَر أنَّه زُيِّن للنَّاسِ محبَّةُ عددٍ مِن المشتهَيَاتِ؛ كالنِّساءِ، والبنينَ، وأنواعِ الأموال، وكلُّ هذه المُشْتَهيات ممَّا يُستمتَعُ به في الدُّنيا مِن زينتِها المنتهيَةِ بالزَّوالِ، وعند الله سبحانه حُسْنُ المرجِعِ والثَّوابِ.

ثمَّ أمَر الله نبيَّه أنْ يخبِرَ المؤمنين أنَّ هناك خيرًا من هذه الشَّهواتِ الدُّنيويَّة الزَّائلة، وهي الجنَّاتُ والنَّعيم المُقيم، وما فيها من المنازل الرَّفيعةِ، والأنهار الجارية، والأزواج المُطهَّرة، وأنَّ هذا النَّعيم دائمٌ ليس بمنقطعٍ؛ فهم خالدون فيها خلودًا أبديًّا، مع أكبرِ نعيمٍ وأعظَمِه، وهو الرِّضا من الله تعالى؛ فاللهُ تبارَك وتعالَى بصيرٌ بعَبادِه كلِّهم، فيُجازي كلَّ واحدٍ بما يستحقُّ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤ - ٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٠).

ثم بيَّن اللهُ تبارَك وتعالَى أحوالَ المتَّقين الَّذين يستحقُّون هذا النَّعيم، وعدَّد أوصافَهم، فذكَر أنهم هم الَّذين يتوسَّلون إلى اللهِ تبارَك وتعالَى بإيمانِهم به وبكتابِه وبرسولِه أنْ يَمُنَّ عليهم بمغفرةِ الذُّنوبِ، والوقايةِ من عذاب النَّارِ، ثمَّ ذكَر من صفاتهم الصَّبرَ، والصِّدقَ، والقنوت، والإنفاق، والاستغفار في أوقات السَّحَرِ؛ حيث وقتُ النُّزول الإلهيِّ، في ثُلُث اللَّيل الآخِرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقة عاقبةَ الكافرين، وأنَّهم لم تُغنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم، وعَظ وحذَّر مِن أنْ تُلهيَ زينةُ الدُّنيا وشهواتُها عن الآخرةِ[1]، فقال:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾.

أي: زيَّنَ اللهُ[2] تعالى للنَّاسِ محبَّةَ المشتهَيات؛ من النِّساءِ، والذُّكورِ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٧٨).

(٢) وعليه عامَّة المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٣٠٠). وقد أخرج البخاري معلقًا مجزومًا به قبل حديث (٦٤٤١): أنَّ عُمر رضي الله عنه قال: (اللَّهمَّ إنَّا لا نَستطيع إلَّا أنْ نفرح بما زَيَّنته لنا، اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك أنْ أُنفِقَه في حَقِّه). وينظر ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٤).
ومعنى تزيينِ الله، أي: بالإيجادِ، والتهيئةِ للانتفاعِ، وإنشاءِ الجبلَّة على الميلِ إلى هذه الأشياء. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٨).
والله تعالى يُزيِّنها ابتلاءً واختبارًا؛ لأنَّه لولا تزيين هذه الأشياء في قلوب الناس ما عُرِفَ =

الأولاد، والمال الكثير المتضاعف[١]؛ من الذَّهب والفضَّةِ والخيل الرَّاعية[٢]، والإبل والبقَر والغَنَم، والأرض المتَّخذة للزِّراعة[٣].

﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: جميعُ ما ذُكِر من النِّساء والبنين، والقناطير المقنطَرة مِن الذَّهب والفضَّة،

= المؤمن حقًّا، فإنَّ قَوِيَّ الإيمان لا يقدِّمها على محبة الله عزَّ وجلَّ، ففي حديث السبعة الذين يظلُّهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: ((ورجلٌ دعتْه امرأةٌ ذات مَنْصب وجمال، فقال: إنِّي أخاف الله)). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٥).

(١) وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: الرَّبيع بن أنس، وقَتادة، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٩).

وقد اختلف المفسِّرون في مقدار القِنطار على أقوال، وذكر بعضُ أهلِ العِلْم بكلامِ العربِ أنَّ العرب لا تحدُّ القنطار بمقدارٍ معلوم، فالصوابُ أن يُقال: هو المالُ الكثيرُ من غيرِ تحديدٍ لمقداره. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩).

(٢) وممَّن فسَّر المسوَّمة بالرَّاعية: ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبَير، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أَبْزَى، والسُّدِّي والربيع بن أنس، وأبو سنان، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١).

وقيل: معنى المسوَّمة: الـمُعلَّمةُ بالشِّيَات، الحِسانُ، ورجَّحه ابن جرير، واستبعَد قولَ مَن قال: إنَّها تعني: المعدَّة في سبيل الله. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٥).

وقال القرطبي بعد أن ذكر الأقوال فيها: (كلُّ ما ذُكِر يحتمله اللفظ، فتكون راعيةً معدَّة حسانًا معلَّمة؛ لتُعرَف من غيرها) ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٤- ٨٩).

قال ابن القيِّم: (أخبَر سبحانه أنَّ هذا الذي زَيَّن به الدنيا من ملاذِّها وشهواتها، وما هو غايةُ أماني طُلَّابها ومُؤْثِريها على الآخِرة، وهو سَبعةُ أشياء: النساء اللاتي هنَّ أعظمُ زِينتها وشهواتها وأعظمها فِتنةً، والبنين الذين بهم كمالُ الرجل وفخرُه وكرمُه وعِزُّه، والذهب والفضة، اللَّذين هما مادَّة الشهوات على اختلافِ أجناسِها وأنواعها، والخيل المسوَّمة التي هي عزُّ أصحابها وفخرُهم وحُصونُهم وآلة قَهرِهم لأعدائهم في طلبِهم وهربهم، والأنعام التي منها رَكوبُهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم، وغير ذلك من مصالحهم، والحَرْث الذي هو مادَّة قوتهم وقُوت أنعامهم ودوابِّهم وفاكهتهم وأدويتهم، وغير ذلك) ((عدة الصابرين)) (ص ١٦٧).

والخيلِ المسوَّمة، والأنعام والحَرْث، ممَّا يُستمتَعُ به في الدُّنيا، وهو مع قلَّتِه إلى زوالٍ[(١)].

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

أي: والله عنده حُسنُ المرجعِ[(٢)] إلى جنَّات تجري من تحتها الأنهارُ، وإلى أزواج مُطهَّرةٍ، ورضوانٍ من الله، وذلك للَّذين اتَّقَوا ربَّهم[(٣)].

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى متاعَ الدُّنيا، شوَّق عبادَه إلى متاعِ الآخرةِ[(٤)] فقال:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للنَّاس: أأُخبِرُكم وأُعلِمُكم بخيرٍ وأفضلَ ممَّا زُيِّن لكم في هذه الحياةِ الدُّنيا[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٠).

(٢) فإنْ قيل: كيف يكون: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ وعنده يومئذٍ عذابٌ أليمٌ، وعقاب شديد؟ فالجواب: أنَّ ذلك لفئةٍ خاصَّةٍ من الناس، وهم المتَّقون، فيكون المعنى: والله عنده حُسنُ المآب للذين اتقوا ربَّهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيِّم (ص: ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٨، تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٥).

قال ابنُ جرير: (اختلف أهلُ العربية في الموضع الذي تَناهَى إليه الاستفهامُ من هذا الكلام... وأَوْلى هذه الأقوال عندي بالصَّواب: قول مَن جعَل الاستفهام متناهيًا عند قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾، والخبر بعده مبتدأ عمَّن له الجنات بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ فيكون =

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: للَّذين خافوا اللهَ فأطاعوه؛ بأداء فرائضِه، واجتنابِ معاصيه: عند ربِّهم جنَّاتٌ كثيرةٌ ومتنوِّعة، تجري من تحتِ أشجارِها وقصورِها، ومن أرجائِها أنهارُ العسَلِ واللَّبَنِ والخمرِ والماءِ، وغير ذلك، ماكثين فيها أبدَ الآبادِ، لا يذوقون فيها الموتَ(١).

﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

أي: ولهم أزواجٌ من نِساء الجنَّةِ، اللَّواتي طهُرْنَ مِن كلِّ أذًى؛ مِن الحَيضِ، والمنِيِّ، والبولِ، والنِّفاس، ومن مساوئِ الأخلاق، وآفاتِ القلبِ واللِّسانِ والجوارحِ، وغير ذلك من كلِّ عيبٍ ظاهرٍ وباطنٍ ممَّا يعتري نساءَ أهلِ الدُّنيا(٢).

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: ولهم رضًا مِن الله تعالى يُحِلُّه عليهم(٣).

وفي الحديثِ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبَّيْكَ ربَّنا وسعدَيْكَ، فيقولُ: هل رضِيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نَرضَى

= مخرج ذلك مخرج الخبر، وهو إبانة عن معنى الخير الذي قال: أنبئكم به؟ فلا يكون بالكلام حينئذٍ حاجةٌ إلى ضمير)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، وينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠١). ويُنظر:((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٢).

وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا مِن خَلقِك؟! فيقولُ: أنا أُعطيكم أفضلَ من ذلك، قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا))[1].

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: واللهُ بصيرٌ بكلِّ العباد- مؤمنِهم وكافِرِهم، برِّهم وفاجِرِهم، مُتَّقيهم وعاصيهم- بَصرَ نظَرٍ؛ فلا يغيبُ عن نظَره شيءٌ، وبصَرَ عِلمٍ؛ فلا يعزُبُ عن عِلمه شيءٌ[2]، وإذا كان كذلك جازاهم بما يستحقُّون[3].

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى نعيمَ الآخرة، وأنَّه بصيرٌ بمَن يستحقُّ ما أعدَّ مِن الفوز العظيمِ، والنَّعيم المُقيم، ذكَر مَن يستحقُّ هذا النَّعيمَ، ومَن هم أهله الَّذين هم أَولى به، وما استحقُّوا ذلك به من الأوصاف، تفضُّلًا منه عليهم بها، وبإيجابِ ذلك على نفسِه؛ حثًّا لهم على التَّخلُّقِ بتلك الأوصافِ[4]، ففسَّر أحوالَ المتَّقين الموعودين بالجنَّاتِ[5] فقال:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

أي: هم الَّذين يقولونَ: يا ربَّنا، إنَّنا آمنَّا بك، وبكتابِك وبرسولِك؛ فبسببِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيِّم (ص: ١٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١).

إيمانِنا، استُرْ ذنوبَنا، ولا تُعاقِبْنا عليها[١].

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

أي: ادفَعْ عنَّا عذابَ النَّار، ولا تُعذِّبْنا بها[٢].

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾.

﴿الصَّابِرِينَ﴾.

أي: على القيامِ بالطَّاعات، وتَرْك المحرَّمات، وعلى أقدارِ الله المؤلِمَة[٣].

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾.

أي: في أقوالِهم وأفعالِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٢).

قال ابنُ عثيمين: (والمراد: قِنا العذابَ عند استحقاقنا له، وقِنا العذابَ حتى لا نعملَ العمل الذي يُوصلنا إلى العذاب. ثم هؤلاء إذا هم عمِلوا عمَلَ أهل النار، فالله تعالى يَقيهم ذلك بأمور مُتعدِّدة. وقد ذكر العلماءُ أسباب مغفرة الذنب، فبلغت نحو عشرة أسبابٍ؛ منها: أن يُوفَّق الإنسان للتوبة، فإن تاب الإنسان من الذنب، وقاه اللهُ تعالى عقابَ ذلك الذنب كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. ومنها الأعمال الصالحة، والصَّدقة، ودُعاء المؤمنين، ومشيئة الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وغير ذلك)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٢).

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾.

أي: والمطيعين، الذين يُداومون على الطَّاعةِ، مع مُصاحَبةِ الخشوعِ والخُضوعِ للهِ تعالى[1].

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾.

أي: مِن أموالِهم في جميعِ ما أُمِروا به من الطَّاعاتِ؛ كأداءِ الزَّكاةِ والصَّدقات، وصلةِ الأرحام والقَرابات، ومواساةِ ذوي الحاجاتِ، وغيرِ ذلك مِن الوجوه الَّتي أذِنَ اللهُ لهم بالإنفاقِ فيها[2].

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

أي: السَّائلين المغفرةَ في آخِرِ اللَّيل[3]؛ فهو وقتُ نُزولِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى سماءِ الدُّنيا؛ ففي الحديثِ عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليهِ وسلَّم: ((يَنْزِلُ ربُّنا تباركَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا، حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، يقولُ: من يَدعوني فأَستجيبَ له، من يَسْأَلُني فأُعْطِيَه، مَن يستغفرُني فأَغْفِرَ له؟))[4].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- التَّزهيدُ في الدُّنيا الفانيةِ الذَّاهبةِ، وفي التَّعلُّقِ بهذه الأشياءِ المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ والترغيبُ في الباقِي الدَّائمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٥).

(٤) رواه البخاري ١١٤٥ ومسلم ٧٥٨.

والإزراءُ بمَن آثَرَ هذا المزيَّنَ واتَّبَعَه؛ وذلك لقولِه سبحانه: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وكلُّ ما كان للدُّنيا فلا ينبغي للإنسانِ أنْ يُتبِعَه نفسَه؛ لأنَّه زائلٌ، إلَّا شيئًا يستعينُ به على طاعةِ اللهِ[1].

٢- في قوله تعالى: ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه المتعةَ غايتُها الزَّوالُ، فإمَّا أنْ تزولَ عنها، وإمَّا أنْ تزولَ عنك، ولو اجتمَعَتْ كلُّها للمرءِ فما هي إلَّا متاعُ الحياة الدُّنيا، يتمتَّعُ بها الإنسانُ ثمَّ يُفارقُها أو تُفارِقُه هي[2].

٣- يُستفاد مِن قوله: ﴿الدُّنْيَا﴾ أنَّ اللهَ قد أَدْنَى مرتبةَ هذه الأشياءِ؛ ليتنبَّهَ الإنسانُ أنَّها متاعُ الحياة الدُّنيا، فينظُرَ إليها نظرةَ جِدٍّ لا نظرةَ شَهوة، فإذا كان ذلك ينفَعُه في الآخِرةِ، فالنَّظرُ إليه طيِّبٌ ونافعٌ، ويكونُ مِن حَسَنة الدُّنيا والآخرة، أمَّا إذا نظَرَ إليه مجرَّدَ نظَرِ الشَّهوةِ، فإنَّه يُخشى عليه أنْ يُغلِّبَ جانبَ الشَّهوةِ على جانبِ الحقِّ[3].

٤- في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ الآيةَ: تسليةٌ للفقراءِ الَّذين لا قُدرةَ لهم على هذه الشَّهواتِ، الَّتي يقدِرُ عليها الأغنياءُ، وتحذيرٌ للمغترِّين بها[4].

٥- حُسن أسلوبِ التَّعليم والدَّعوة، وأنَّه يَنبغي للإنسانِ في مقامِ الدَّعوة أنْ يأتيَ بالألفاظِ الَّتي تُوجِبُ الانتباهَ والتَّشويقَ؛ كما في قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾[5].

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص:١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٤).

٦- يُستفاد من قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ التَّحذيرُ مِن مُخالفةِ أمرِه؛ لأنَّه متى علِم الإنسانُ أنَّ اللهَ بصيرٌ به، فسوف يردَعُ نفسَه عن مخالفة ربِّه؛ لأنَّه إذا خالَف ربَّه فاللهُ بصيرٌ به، وسوف يُجازيه بحسَب مخالَفتِه[1].

٧- ختَم اللهُ الآيةَ بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ لبيانِ أنَّه ليس كلُّ مَن ادَّعى التَّقوى يكون متَّقيًا، وإنَّما المتَّقي هو مَن يعلَمُ اللهُ منه التَّقوى، وفي ذلك تنبيهٌ وإيقاظٌ للنَّاس لمحاسبةِ نفوسِهم[2].

٨- يدلُّ قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا...﴾ أنَّ مِن صفاتِ المتَّقين إعلانَهم الإيمانَ باللهِ، واعترافَهم بالعبوديَّة، وعدمَ إعجابِهم بأنفسِهم، واعترافَهم بتقصيرِهم في طلَبِ المغفرةِ من اللهِ[3].

٩- قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ﴾ في كلِّ صفةٍ من صفاتِ المتَّقين المذكورة تتحقَّقُ سِمةٌ ذاتُ أهميةٍ في الحياة:

- فبالصَّبر يترفَّعُ المؤمنُ على الألَم، ويستعلي على الشَّكوى، وبه يثبُتُ على تكاليفِ الدَّعوة، وأداءِ تكاليف الحقِّ، وبه يُسلِمُ للهِ، ويستسلمُ لِما يُريدُ به من الأمرِ.

- وبالصِّدق يعتزُّ المؤمنُ بالحقِّ، ويترفَّعُ عن الضَّعف؛ فالكذبُ ضَعْفٌ عن كلمةِ الحقِّ؛ اتِّقاءً لضررٍ، أو اجتلابًا لمنفعةٍ.

- وبالقُنوت للهِ يؤدِّي المؤمنُ حقوقَ الألوهيَّة، ويقومُ بواجب العبوديَّةِ، ويحقِّقُ كرامةَ النَّفسِ بقنوتِه للهِ وحده.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٦).

- وبالإنفاقِ يتحرَّرُ المؤمنُ من استذلالِ المالِ، ويُعتِقُ نفسَه من رِبقةِ الشُّحِّ، ويُعلِي حقيقةَ الأُخوَّةِ الإنسانيَّة على شهوةِ اللَّذَّةِ الشَّخصيَّة(١).

١٠- في قوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ قُدِّم ذِكْرُ الصَّبر على ما بعده؛ لأنَّه كالشَّرط لها، وبدونه لا يتمُّ صِدقٌ، ولا قنوتٌ، ولا إنفاقٌ، ولا استغفارٌ في الأسحار(٢).

١١- قولُه تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ فيه مشروعيَّةُ ختْمِ الأعمالِ الصَّالحاتِ بالاستغفارِ؛ فإنَّهم قاموا باللَّيلِ وختَموه بالاستغفارِ، وختَم اللهُ تعالى سورةَ المزَّمِّل- وهي سورةُ قيامِ اللَّيلِ- بقولِه تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا انصرَفَ من صلاتِه استغفَرَ ثلاثًا(٣)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٤) [البقرة: ١٩٨-١٩٩].

١٢- خُصِّص وقتَ السَّحَر بالذِّكر في قوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾؛ لأنَّ العبادةَ فيه أشدُّ إخلاصًا، وأشقُّ على أهلِ البدايةِ؛ لطِيبِ النَّومِ في ذلك الوقتِ، وأروحُ لأهلِ النِّهايةِ؛ لصفاءِ النَّفسِ، وفراغِ القلبِ من الشَّواغلِ، ولدَلالتِه على اهتمامِ صاحبِه بأمرِ آخرتِه(٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ يدلُّ على أمورٍ ثلاثةٍ مُرتَّبةٍ، أوَّلُها:

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٧).
(٣) رواه مسلم (٥٩١).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٩٨) (١١/ ٢٥٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٥).

أنَّ المرء يشتهي أنواعَ المشتَهَيات، وثانيها: أنَّه يُحبُّ شهوتَه لها، وثالثها: أنَّه يعتقدُ أنَّ تلك المحبَّةَ حَسَنةٌ وفضيلةٌ، ولَمَّا اجتمعت الدَّرجاتُ الثَّلاثةُ بلغتِ الغايةَ القُصوى في الشِّدَّةِ والقوَّة، ولا يكاد ينحَلُّ ذلك إلَّا بتوفيقٍ عظيمٍ مِن الله تعالى[١].

٢- قوَّة التَّعبير القُرْآني، وأنَّه أعلى أنواعِ الكلام في الكمالِ؛ إذ سلَّط الحبَّ على الشَّهواتِ، لا على ذاتِ الأشياء؛ لأنَّ هذه الأشياءَ حبُّها قد يكون محمودًا[٢].

٣- خصَّ اللهُ حُبَّ الذَّكَرِ بالذِّكْرِ دون الأُنثى في قوله: ﴿وَالْبَنِينَ﴾؛ لأنَّ التَّمتُّعَ بهم ظاهرٌ من حيث السُّرورُ والتَّكثُّرُ بهم، إلى غير ذلك[٣].

٤- التَّعبيرُ بـ﴿الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ يُشعِر بأنَّ الكثرةَ هي مَظِنَّةُ الافتتانِ؛ لاشتغالِ القلبِ بالتَّمتُّعِ بها، واستغراقِ الوقت في تدبيرِها، حتى لا يكاد يَبقَى في قلبِ صاحبِها حاجةٌ إلى طلَبِ الحقِّ، ونُصرتِه في الدُّنيا، والاستعدادِ لِما أعدَّه الله للمتَّقين في الأُخرى[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ...﴾ قدَّم ما تعلُّقُ الشَّهوةِ به أقوى، وهو النِّساءُ، الَّتي فِتنتُهنَّ أعظمُ فِتَنِ الدُّنيا، ثمَّ ذكَر البنين المتولِّدين منهنَّ، وكلاهما مقصودٌ له لذاته، ثمَّ ذكر شهوةَ الأموال؛ لأنَّها تُقصَد لغيرها؛ فشهوتها شهوةُ الوسائل، وقدَّم أشرفَ أنواعها، وهو الذَّهب، ثمَّ الفضَّة بعده، ثمَّ ذكر الشَّهوةَ المتعلِّقةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٧).

بالحيوان، الَّذي لا يُعاشَر عِشْرةَ النِّساءِ والأولاد؛ فالشَّهوةُ المتعلِّقةُ به دونَ الشَّهوةِ المتعلِّقة بها، وقدَّم أشرفَ هذا النَّوع، وهو الخيلُ؛ فإنَّها حصونُ القوم، ومعاقِلُهم، وعِزُّهم، وشرفُهم، ثمَّ ذكَر الأنعامَ وقدَّمها على الحرثِ؛ لأنَّ الجَمَالَ بها والانتفاعَ أظهرُ وأكثرُ مِن الحرثِ، وأيضًا فصاحبُها أعزُّ مِن صاحبِ الحرثِ وأشرفُ، وهذا هو الواقعُ؛ فإن صاحب الحرث لا بدَّ له من نوعِ مذلَّةٍ، فجعَل الحرثَ في آخر المراتبِ؛ وَضْعًا له في موضعِه[1].

٦- قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: العِنديَّةُ هنا: تُفيدُ فضلًا عظيمًا؛ لأنَّها هي القُربُ مِن الله عزَّ وجلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٦]؛ فثواب المتَّقين عند اللهِ، والعِنديَّة تُفيد القُرْب، ولا أقربَ مِن شيءٍ يكونُ سقفُه عرشَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ كالفِرْدَوسِ الأعلى؛ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[2] [القمر: ٥٤-٥٥].

٧- إضافةُ لفظ (رب) إلى ضَميرِ المتَّقين في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إشعارٌ بفضلِهم، وعنايةِ مَن ربَّاهم بهم، واهتمامِه بشأنهم[3].

٨- في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾، قد أُلغِي ما يُقابل شهواتِ الدُّنيا في ذِكرِ نعيمِ الآخرةِ؛ لأنَّ لذَّةَ البنين، ولذَّة المالِ هنالك مفقودةٌ؛ للاستغناءِ عنها، وكذلك لذَّةُ الخيلِ والأنعامِ، فبَقِي ما يُقابل النِّساءَ والحَرْثَ، وهو الجنَّاتُ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم ١/ ٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٤).

والأزواجُ؛ لأنَّ بهما تمامَ النَّعيم والتَّأنُّس- وقيل: نصَّ على أزواج مطهَّرة؛ ليُعرف الفرقُ بين نساءِ الدُّنيا ونساءِ الآخرة- وزِيدَ عليهما رِضوانُ الله، الَّذي حُرِمَه مَن جعَل حظَّه لذَّاتِ الدُّنيا، وأعرَض عن الآخرةِ(١).

٩- عطف ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ على ما أعدَّ للَّذين اتَّقَوا عند اللهِ؛ لأنَّ رِضوانَه أعظمُ من ذلك النَّعيمِ الماديِّ؛ لأنَّ رضوانَ اللهِ تقريبٌ رُوحانيٌّ؛ قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٢) [التوبة: ٧٢].

١٠- في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: جوازُ التَّوسُّلِ بالإيمانِ؛ فالفاء هنا للسببيَّةِ، تدلُّ على أنَّ ما بعدَها مُسبَّبٌ عمَّا قبلها(٣)، أي: بسببِ إيمانِنا فاغفِرْ لنا؛ لأنَّ الإيمانَ لا شكَّ أنَّه وسيلةٌ للمغفرةِ، وكلَّما قوِيَ الإيمانُ، قوِيَتْ أسبابُ المغفرة، وهذا من بابِ التَّوسُّلِ بالطَّاعةِ لقَبولِ الدُّعاء؛ فهم توسَّلوا إلى اللهِ برُبوبيَّتِه، للإخبارِ بحالِهم في الإيمانِ به، كأنَّهم يقولونَ: ربَّنا آمَنَّا، ولكنَّنا لم نصِلْ إلى الإيمانِ إلَّا برُبوبيَّتِك لنا، تلك الرُّبوبيَّة الخاصَّة المقتضيَة للعنايةِ التَّامَّةِ(٤).

١١- في قوله: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ حصرٌ لمقاماتِ السَّالك على أحسنِ ترتيبٍ؛ فإنَّ معاملتَه مع اللهِ تعالى إمَّا توسُّل، وإمَّا طلَبٌ، والتَّوسُّل إمَّا بالنَّفس، وهو منعُها عن الرَّذائلِ، وحبسُها على الفضائل، والصَّبرُ يَشمَلُهما، وإمَّا بالبدنِ، وهو إمَّا قوليٌّ، وهو الصِّدقُ، وإمَّا فِعْليٌّ، وهو القُنوتُ الَّذي هو ملازمةُ الطَّاعة، وإمَّا بالمالِ وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٠٨).

الإِنفاقُ في سُبلِ الخيرِ، وأمَّا الطَّلب فبالاستغفارِ؛ لأنَّ المغفرةَ أعظمُ المطالبِ، بل الجامعُ لها(١).

١٢- ختَم اللهُ هذه الأعمالَ العظيمة بذِكْرِ الاستغفارِ في الأسحارِ؛ لِمَا في الاستغفارِ من اعترافٍ بالعجزِ عن القيامِ بالواجب، وذلك هو العُمدةُ في الخَلاصِ(٢).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ الآية استئنافٌ، وفيه مبالغةٌ، حيث عبَّر عن الأعيانِ التي ذَكَرها بالشَّهوات؛ تَخسيسًا لها، ومبالغةً في كونها مشتهاةً، مَحروصًا على الاستمتاعِ بها؛ فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾، ثم جاء بالتفسير، ليقرِّرَ أوَّلًا في النفوس أنَّ المزيَّن لهم حبُّه ما هو إلَّا شهواتٌ لا غيرُ، ثم يُفسِّره بهذه الأجناس، فيكون أقوى لتخسيسها، وأدلَّ على ذمِّ مَن يَستعظمُها ويَتهالَك عليها، ويُرجِّح طلبَها على طلبِ ما عند اللَّه(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ﴾: ﴿المُقَنْطَرَةِ﴾ مَبنيَّةٌ على وزن (مُفَنْعلة) أو (مُفَعْلَلة) من القِنطار، وهو للتأكيد، حيث اشتقُّوا منها وصفًا للتوكيد؛ فأُريد بها هنا المضاعفةُ المتكاثِرة؛ لأنَّ اشتقاقَ الوَصْف من اسمِ الشَّيءِ الموصوف إذا اشتهَر صاحبُ الاسم بصفةٍ، يُؤذِن ذلك الاشتقاقُ بمبالغةٍ في الحاصلِ به(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١-٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٢).

٣- **قوله تعالى:** ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ بالبعيدِ إلى جميعِ ما تَقدَّم ذِكرُه من الشَّهوات المفسَّر بهذه الأعيان؛ تأكيدًا لتخسيسِه البعيدِ من إخلادِ ذوي الهِمم إليه؛ ليقطعَهم عن الدَّار الباقية، فأعاد اسمَ الإشارةِ على مُفرَدٍ مُذكَّر، على تقديرِ: ذلِكَ المذكور، فطَوى ذِكرَ هذه السَّبعةِ كلِّها، وكنَّى عنها بالمذكور؛ وذلك لاحتقارِها بالنِّسبة لنعيمِ الآخرة[1]. وقيل: أفرَد كافَ الخِطاب في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾؛ لأنَّ الخطاب للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو لغير مُعيَّن، على أنَّ علامةَ المخاطَب الواحد هي الغالبُ في الاقترانِ بأسماء الإشارةِ لإرادة البُعْد، والبُعْد هنا بمعنى الرِّفعةِ والنَّفاسة[2].

٤- **قوله:** ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ جمَعَ ضميرَ المخاطَب فقال: ﴿ذَلِكُمْ﴾ ولم يقُل: (ذلك)؛ لأنَّ المخاطَبَ جميعُ النَّاس، وعظَّمه بأداةِ البُعد وميم الجمْع؛ لعَظمتِه عِندَهم، والزِّيادة في تَعظيم ما يُرشِدُ إليه، والمشار إليه ما سبَق مِن متاع الحياة الدُّنيا بأنواعِها السَّبعةِ، وأُشير إليها بلفظِ المفرَدِ المذكَّر مِن أجلِ طَيِّ ذِكره بشيءٍ واحد، كأنَّه قال: بخيرٍ مِن ذلكم المذكورِ، حتى لا يُشارَ إلى التفصيلِ فيه؛ لأنَّ الدُّنيا كلَّها في الواقعِ ينبغي أنْ يَزهَدَ فيها الإنسانُ، ولا يَحتسبَها شيئًا[3].

٥- **قوله تعالى:** ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ خبرٌ فيه تحريضٌ على استبدالِ ما عند الله من اللَّذاتِ الحقيقيَّة الأبديَّة، بالشَّهواتِ الفانية[4].

- وفيه تكريرُ الإسنادِ بجَعْلِ الجلالة ﴿واللهُ﴾ مبتدأً، وإسنادِ الجملة الظرفيَّة إليه؛ زيادةً في التأكيدِ والتفخيمِ، ولمزيدِ الاعتناءِ بالترغيبِ فيما عندَ اللهِ عزَّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨٩-٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨).

وجلَّ من النَّعيم المقيم، وللتزهيدِ في مَلاذِّ الدُّنيا وطيِّباتها الفانية[1].

- وفي الآية من البَلاغة: مُراعاةُ النَّظير، حيث جمَع بين كلِّ أمْر وما يُناسِبُه، مع إلْغاء ذِكرِ التضادِّ، فجمَع سبحانه مُعظَمَ وسائلِ النَّعيم الآيِلَةِ بالمرءِ إلى الانهماكِ في الفِتنة، والانسياقِ مع دواعي النُّفوس الجَموح، وقد زُيِّنتْ للناس واستهوتْهم بالتعاجيبِ والمفاتِن؛ ابتلاءً لهم[2].

- وفيها مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث بدَأ بتقديمِ النِّساءِ على البنينِ؛ للإشعارِ بعَراقتهنَّ في معنى الشَّهوة؛ إذ يَحصُل منهنَّ أتمُّ اللذَّات، وثَنَّى بالبَنين؛ للتكثُّرِ بهم، وأمَل قيامِهم مقامَهم من بعدهم، والتفاخُر والزِّينة[3].

٦- **قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾** افتتَح الاستئنافَ بكلمة ﴿قُلْ﴾ للاهتمامِ بالمقولِ، وهمزةُ الاستفهام في ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾؛ للتقريرِ والعرضِ؛ تشويقًا من نفوسِ المخاطَبين إلى تَلقِّي ما سيُقصُّ عليهم، أي: أأُخبرُكم بما هو خيرٌ ممَّا فُصِّل من تلك المستلذَّاتِ المزيَّنة لكم[4].

- وإبهامُ الخيرِ وتَنكيره في قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾؛ لتفخيمِ شأنِه والتشويقِ إليه[5].

- وقال: ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾ ولم يقُلْ: (أأُخبركم)؛ لأنَّ النبأَ إنَّما يُقالُ في الأمور المهمَّة؛ كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١- ٢]؛ ولهذا قيل للنَّبيِّ: (نبيٌّ)، ولم يُقَل: (مخبِر)؛ فهذا أمرٌ مُهِمٌّ يحتاجُ إلى الإنباء عنه[6].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٥).

- وفيه: تفصيلٌ بعدَ إجمال؛ مبالغةً في الترغيبِ، وللتسليةِ عن زخارفِ الدُّنيا، وتقويةً لنفوس تاركها(١).

- وفيه: التفاتٌ مِنَ الغَيبة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ...﴾ إلى الخِطاب ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾؛ للتشريفِ(٢).

٧- **قوله:** ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عند رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ فيه تقديمُ الخبر ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ على المُبتدأِ ﴿جَنَّاتٌ﴾ لإفادةِ الحَصر؛ إذ تقديمُ ما حقُّه التأخيرُ يُفيدُ الحصرَ(٣).

٨- **قوله تعالى:** ﴿ورِضْوَانٌ﴾ (رِضوان) اسمُ مبالغةٍ في مَعنَى الرِّضا، والزِّيادةُ في المبنى؛ لبيانِ المبالَغةِ في المعنى، فكأنَّه قال: ورضوانٌ عظيمٌ من الله، لا يشُوبُه ولا يعقُبُه سخطٌ(٤).

وأظهَر اسمَ الجلالة في قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾، دون أنْ يقولَ: (ورضوان منه)، أي: من ربِّهم؛ لِمَا في اسمِ الجلالةِ مِن الإيماءِ إلى عظَمةِ ذلك الرِّضوانِ(٥).

٩- **قوله تعالى:** ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ فيه تأكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ)؛ لإظهارِ أنَّ إيمانهم ناشئٌ مِن وُفورِ الرَّغبة، وكمالِ النَّشاط(٦).

- وإظهارُ اسمِ الجلالة في قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ لقصدِ استقلالِ الجُملةِ لتكونَ كالمَثَلِ(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).

- وفيه بيانُ الوعد، أي: إنَّه عليمٌ بالذين اتَّقوا، ومراتبِ تقواهم؛ فهو يُجازيهم[١].

- وفيه مع الوعيدِ، تهديدٌ شديدٌ لِمَن تولَّى عن الإسلام، ووعْدٌ بالخيرِ لِمَن أسلم؛ إذ معناه: إنَّ الله مُطَّلعٌ على أحوالِ عَبيدِه، فيُجازيهم بما تَقتضي حِكمتُه[٢].

١٠ - **قوله تعالى:** ﴿**الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا**﴾ فيه إسقاطُ أداة النِّداء في ﴿رَبَّنَا﴾؛ إشعارًا بما لهم من القُرب؛ لأنَّهم في حَضرةِ المراقبةِ[٣].

وفيه التأكيدُ بقوله: ﴿إِنَّنَا﴾ بإثباتِ النونِ؛ للمبالغةِ في التأكيدِ[٤].

١١ - **قوله تعالى:** ﴿**الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾ فيه تفخيمٌ للموصوفِ بدخولِ الواو على الصِّفاتِ، مع أنَّ الموصوفَ واحد؛ لأنَّه إيذانٌ بأنَّ كلَّ صفةٍ مستقلَّةٌ بمدح الموصوف؛ فتوسيطُ الواوِ بينها؛ للدَّلالةِ على استقلالِ كلٍّ واحدٍ منها، وكمالِهم فيها، أو لتغايُر الموصوفين بها[٥].

قولُه: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ أكملُ من قوله: (الَّذين يَصبِرون ويصدُقون)؛ لأنَّ قوله: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ هذا المعنى عادتُهم وخُلُقُهم، وأنَّهم لا يَنفكُّون عنها[٦]؛ فالاسمُ يدلُّ على الثُّبوتِ، والفِعلُ يدلُّ على التجدُّدِ والحدوثِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٧).

(٧) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ٣٧٦).

الآية: (١٨)

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: أي: يَلِي العَدْلَ بينَ خَلقِه، ويُراعيه ويَحفظُه؛ يُقال: قامَ بهذا الأمْر، أي: أَجْراه على الاستقامةِ في جميعِ الأمور. والقِسْطُ العَدْلُ، مِن أقْسَط فهو مُقْسِط[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾

﴿قَائِمًا﴾: منصوبٌ على الحالِ، وهي حالٌ مؤكِّدة مِن الضمير ﴿هُوَ﴾ والعاملُ في الحالِ معنى الجُملة، أي: لا إلهَ إلَّا هو قائمًا بالقِسط، كما يُقال: لا إلهَ إلَّا هو وحْدَه، وقيل: هي حالٌ من اسمِ الجلالةِ ﴿اللهُ﴾ والعاملُ في الحالِ ﴿شَهِدَ﴾، أي: شهِد اللهُ قائمًا بالقسط، وكِلا المعنيين صحيحٌ؛ فعلى الوجه الأوَّل يُعتَبر القِسط في الإلهيَّة؛ فيكون المعنى: «لا إله إلا هو قائمًا بالقسط»، أي: هو وحْدَه الإله قائمًا بالقِسط، كما يُقال: أشهد أنْ لا إلهَ إلَّا الله إلهًا واحدًا أحدًا صمدًا، وهذا الوجهُ أرجحُ؛ فإنَّه يتضمَّن أنَّ الملائكةَ وأُولي العِلمِ يَشهدون له مع أنَّه لا إلهَ إلَّا هو، وأنَّه قائمٌ بالقسط، والوجهُ الآخَرُ لا يدلُّ على هذا. وفائدةُ الفصْل بين صاحِبِ الحالِ وبينها بالمعطوفِ- حيث جاء مُتوسِّطًا بين صاحبِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠، ٦٩٠).

الحال وبينها-: أنَّه لو قال: (شهد الله أنَّه لا إله إلَّا هو قائمًا بالقسط والملائكة وأولو العلم)؛ لأَوْهمَ عطْفَ الملائكةِ وأُولي العِلم على الضَّميرِ في قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، وليس المعنى على ذلِك قطعًا، وإنَّما المعنى على خِلافِه، وهو أنَّ قيامَه بالقسطِ مُختصٌّ به، كما أنَّه مختصٌّ بالإلهيَّة؛ فهو وحْدَه الإلهُ المعبودُ المستحقُّ العبادة، وهو وحْدَه المُجازِي المثيبُ المعاقِبُ بالعدْل. وقيل غيرُ ذلك في توجيهِ نَصْب ﴿قَائِمًا﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

بعد أنْ ذكَر اللهُ ثناءَه على المؤمنين، أتْبَعَ ذلك ببيانِ علاماتِ الإيمان الواضحة، ودلائلِه النَّاصعة، وجاء ليُقرِّر التَّوحيدَ بأعظمِ الطَّرائقِ الموجِبة له، وهي شَهادتُه سبحانه؛ فشهِد أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وأتْبَع شَهادتَه بذِكْرِ شَهادةِ ملائكتِه وأُولي العِلم مِن عباده؛ فهو قائمٌ بالعدلِ في جميعِ الأحوال، متَّصِفٌ بالقِسط في كلِّ الأفعال.

ثمَّ أكَّدَ سبحانه وتعالى تفرُّدَه باستحقاقِ العبادة، وتوحُّدَه بالألوهيَّةِ، وبيَّنَ أنَّه عزيزٌ قويٌّ مَتِينٌ، لا يُغلَبُ، ولا يعجِزُ عن شيءٍ أراده، وأنَّه حكيمٌ في كلِّ أقوالِه وأفعالِه.

تَفسيرُ الآية:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٤٧)، و(٣/ ٢٤٠- ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٧٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٧٥- ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا مدَح اللهُ عزَّ وجَلَّ المؤمنين وأثْنى عليهم بقولِه: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٦]، أردَفه بأنْ بيَّنَ أنَّ دلائلَ الإيمانِ ظاهرةٌ جليَّةٌ[١]، فقال:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: عَلِمَ اللهُ تعالى أنَّه لا معبودَ حقٌّ إلَّا هو، وتكلَّمَ بذلك، وأخبر به خلْقَه، وأمَرَهم وألْزَمهم به[٢].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾.

أي: وشهِدَتِ الملائكةُ أيضًا بذلك وأصحابُ العِلم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٨).
عبارات السَّلف في ﴿شَهِدَ﴾ تدور على الحُكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار، قال مجاهد: (حَكَم، وقضى)، وقال الزجَّاج: بيَّن، وقالت طائفة: أعْلَم وأخبر، وهذه الأقوال كلها حقٌّ لا تَنافي بينها؛ فإنَّ الشهادةَ تتضمَّن كلامَ الشاهد وخبره، وقوله، وتتضمَّن إعلامَه، وإخبارَه وبيانه، فلها أربعُ مراتب، فأوَّل مراتبها: عِلم ومعرفة واعتقاد لصحَّة المشهود به وثبوته، وثانيها: تَكلُّمه بذلك ونُطقه به، وإنْ لم يُعلم به غيرَه، بل يتكلَّم به مع نفْسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها، وثالثها: أنْ يُعلم غيرَه بما شهِد به ويُخبره به ويُبيِّنه له، ورابعها: أنْ يُلزمَه بمضمونها ويأمرَه به؛ فشهادةُ الله سبحانه لنفْسِه بالوحدانيَّة والقيام بالقِسط: تَضمَّنتْ هذه المراتبَ الأربعة: عِلم الله سبحانه بذلك، وتكلُّمه به، وإعلامَه، وإخبارَه لخلقه به، وأمْرَهم وإلزامَهم به، يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤).
فإن قيل: ما المرادُ بأُولي العِلم الذين عظَّمهم الله تعالى هذا التعظيم؛ حيث جمَعَهم معه ومع الملائكة في الشَّهادة على وحدانيَّته؟ أُجيب: بأنَّ المرادَ بهم أنهم الذين يُثبتون وحدانيته بالحُجج الساطعة، والبراهين القاطعة، من الأنبياء والمؤمنين. ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٣)، وينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٩).

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾.

أي: حالَ كونِه قائمًا بالعَدْلِ، وهو في جميعِ الأحوال كذلك، لم يزَلْ متَّصِفًا بالقِسطِ في أفعالِه وتدبيرِه بين عِبادِه؛ فهو على صراطٍ مستقيمٍ فيما أمَر به ونهى عنه، وفيما خلَقه وقدَّرَه[1]، ثم أعاد تقريرَ توحيدِه، فقال تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا يستحقُّ العبادةَ غيرُه سبحانه، فهو الإلهُ الحقُّ المعبودُ[2].

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: القويُّ المتينُ، الَّذي لا يُغلَبُ، ولا يَمتنِعُ عليه شيءٌ أراده، ولا يَنتصِرُ منه أحدٌ، أو يَنالُ منه، الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والحَكيمُ يتضمَّنُ حُكْمَه وعِلْمَه وحِكمتَه فيما يقولُه ويفعلُه، فإذا أمَر بأمرٍ كان حَسَنًا، وإذا أخبَرَ بخبَرٍ كان صِدقًا، وإذا أرادَ خَلْقَ شيءٍ كان صوابًا؛ فهو حكيمٌ في إراداتِه وأفعالِه وأقوالِه[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- شَهادةُ اللهِ لنفسِه بانفرادِه بالألوهيَّةِ قد تكونُ قوليَّةً، كما في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقد تكون فعليَّةً فيما يُظهِرُه اللهُ مِن آياته؛ فكلُّ الكائناتِ تشهَدُ لله عزَّ وجلَّ بالوحدانيَّةِ بلسانِ الحال[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١١٨).

٢- الشَّهادة لا تكونُ إلَّا عن عِلمٍ يقينيٍّ يكونُ بمنزلة المشاهَدة البصريَّةِ، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ مَن لم يصِلْ في علمِ التَّوحيد إلى هذه الحالةِ، فليس مِن أُولي العِلم[1].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه أنَّه لا يُشترَطُ في الشَّهادةِ لفظُ (أَشْهَد)؛ فمُجرَّد إخبارِه عن نفْسِه إقرارٌ[2].

٤- في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾: جعَل اللهُ الملائكةَ في المرتبةِ الأُولى في الشَّهادةِ بالتَّوحيدِ بعدَه سبحانه؛ لبيان فضيلتِهم، ولأنَّهم الملأُ الأعلى، وعِلمُهم كلُّه ضروريٌّ، بخلاف البشَر؛ فإنَّ عِلمَهم ضروريٌّ واكتسابيٌّ[3].

٥- تأكيدُ الشَّيء المهمِّ، وإن كان المخبِرُ به من أهل الصِّدق؛ حيث صدَّر اللهُ تعالى وحدانيَّتَه بالشَّهادةِ، وبيَّن أنَّ هذه الشَّهادةَ ليست له وحده، بل له، وللملائكةِ، ولأُولي العِلم[4].

٦- في قوله: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ دليلٌ على شرَفِ العِلم وأهله من وجوهٍ، منها:

- تخصيصُ اللهِ لهم بالشَّهادةِ على أعظمِ مشهودٍ عليه.
- قرَنَ اللهُ شَهادتَهم بشَهادتِه وشَهادةِ ملائكتِه.
- أضافَهم اللهُ إلى العِلم؛ فهم القائمونَ به، المتَّصفون بصِفَتِه.
- جعَلهم اللهُ شُهداءَ وحُجَّةً على النَّاس، وألزَم النَّاسَ العملَ بما شهِدوا به، فكانوا هم السَّببَ في ذلك، فيكونُ كلُّ مَن عمِل بذلك نالهم مِن أجْرِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن قيم (٣/ ٤٣١-٤٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٢).

- أنَّ إشهادَه لهم يتضمَّنُ تزكيتَهم وتعديلَهم[١].

٧- لم يَذكُرِ اللهُ سبحانه شهادةَ رُسلِه مع الملائكة، فيقول: شهِدَ اللهُ أنَّه لا إلهَ إلَّا هو والملائكةُ والرُّسل، وهم أعظمُ شهادةً مِن أُولي العِلم؛ لعِدَّة فوائد:

منها: أنَّ أُولي العِلم أعمُّ من الرُّسل والأنبياء، فيَدخُلون هم وأتباعُهم.

ومنها: أنَّ في ذِكر أُولي العلم في هذه الشهادة، وتعليقِها بهم: ما يدلُّ على أنَّها من مُوجِبات العِلم ومُقتضياتِه، وأنَّ مَن كان من أُولي العِلم فإنَّه يَشهدُ بهذه الشَّهادة... ففي هذا بيانُ أنَّ مَن لم يَشهَدْ له الله سبحانه بهذه الشَّهادة فهو من أعظمِ الجُهَّال، وإنْ عَلِم من أمور الدنيا ما لم يَعلَمْه غيرُه؛ فهو من أُولي الجَهل، لا مِن أُولي العِلم، وإنْ وسَّع القولَ وأكْثَر الجِدال.

ومنها: الشَّهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة أنهم أولو العلم[٢].

٨- قوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ «القِسْط»: هو العَدْلُ، فشهِد الله سبحانه: أنَّه قائمٌ بالعدلِ في توحيده، وبالوحدانيَّةِ في عَدْله، والتَّوحيد والعَدْل هما جِماعُ صفات الكمال؛ فإنَّ التَّوحيد يتضمَّنُ تفرُّدَه سبحانه بالكمالِ والجلالِ والمجد والتَّعظيم، الَّذي لا ينبغي لأحدٍ سواه، والعدل يتضمَّنُ وقوعَ أفعاله كلِّها على السَّداد والصَّواب، وموافقة الحِكمة[٣].

٩- ختَم بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ ليكونَ دليلًا على قِسطِه؛ إذ لا يَصِحُّ أبدًا لذي العزَّةِ الكاملة والحِكمة الشَّاملة أنْ يتصرَّفَ بجَوْرٍ، وليكونَ دليلًا على وحدانيَّتِه؛ لأنَّه لا يصحُّ التفرُّدُ بدون الوصفينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (١/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٢).

١٠- تَضمَّنَتْ هذه الآيةُ وهذه الشَّهادةُ: الدَّلالةَ على وَحدانيَّتِه المنافيةِ للشِّركِ، وعلى عَدْلِه المنافي للظُّلم، وعِزَّتِه المنافيةِ للعجز، وحِكمتِه المنافية للجهلِ والعيبِ؛ ففيها الشَّهادةُ له بالتَّوحيد، والعَدْل، والقُدرة والعِلم والحِكمة؛ ولهذا كانتْ أعظمَ شَهادةٍ(١).

بلاغةُ الآية:

١- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

- قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيه تكرار؛ للتأكيدِ، ومزيدِ الاعتناءِ بمعرفةِ أدلَّة التوحيد، والحُكمِ به بعدَ إقامة الحُجَّة، وليبنيَ عليه قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيُعلم أنَّه الموصوفُ بهما، ولئلَّا يَسبِقَ بذِكْرِ العزيزِ الحكيمِ إلى قلْبِ السَّامع تمثيلٌ؛ إذ قد يُوصَفُ بهما المخلوقُ، أو يكون التَّكرارُ من باب تكرارِ ما صُدِّر الكلامُ به إذا طال عَهدُه(٢).

- والآية استئنافٌ، وتمهيدٌ لقولِه بعدها: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]؛ ذلك أنَّ أساسَ الإسلامِ هو توحيدُ الله، وإعلانُ هذا التوحيدِ، وتَخليصُه من شوائبِ الإشراكِ(٣).

- وفيه: تعريضٌ بالمشركين وبالنَّصارى واليهود، وإنْ تفاوتوا في مراتبِ الإشراك(٤).

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٥- ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٠-١٧١)، ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- في قولِه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، مفعولُ ﴿شَهِدَ﴾، وفصَلَ بين المعطوفِ عليه ﴿اللهُ﴾ والمعطوفِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾؛ ليدُلَّ على الاعتناءِ بذِكْرِ المفعولِ، وليدلَّ على تَفاوُتِ درجةِ المتعاطفَينِ، بحيث لا يُعطفانِ مُتجاورينِ[1].

- وفي الآية ردُّ العَجُزِ على الصَّدرِ؛ فقد ردَّ ﴿العَزِيز﴾ إلى تفرُّده بالوحدانيَّة التي تَقتضي العِزَّة، وردَّ ﴿الحَكِيم﴾ إلى العدلِ الذي هو القِسطُ؛ فالحكمةُ تلائمُ القيامَ بالقسطِ، فأتى بهما (العزيز الحكيم)؛ لتقريرِ الأمرين (الوحدانية والقيام بالقسط) على ترتيبِ ذكرِهما، وأكَّد ما افتُتِحت به السُّورةُ من قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٧٤).

الآيتان (١٩-٢٠)

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿الدِّينَ﴾: ما يَدين به المرءُ، والطَّاعةُ، والعادةُ، وأصله: الانقيادُ والذُّلُّ(١).

﴿الْأُمِّيِّينَ﴾: أي: العرَب، جمْع أُمِّيٍّ، وهو الَّذي لا يَكتُب ولا يَقرأ؛ نِسبةً إلى الأُمِّ؛ لأنَّ الكِتابَ كان في الرِّجال دونَ النِّساء، فنُسِبَ مَن لا يكتُب ولا يَخطُّ من الرِّجال إلى أُمِّه في جَهلِه بالكتابةِ دونَ أبيه، أو مَنْسُوبٌ إلى الأُمَّة الأُمِّيَّة، الَّتي هِي على أَصْلِ وِلاداتِ أُمَّهاتها، لم تتعلَّم الكتابةَ ولا قِراءتَها، والأُمِّيَّة: الغَفلةُ والجَهالةُ وقِلَّةُ المعرِفة، وأصْل (أمم): الأَصْلُ والمرجِع(٢).

﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرَضوا؛ فالفِعل (ولي)، إذا عُدِّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا - كما هنا - اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسه اقتَضى معنى الوِلاية والقُرْب(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ طبيعةَ الدِّين الَّذي يجب أنْ يُدانَ ويُتعبَّدَ له به،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٣- ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨، ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨ ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

وهو دِينُ الإسلام؛ فهو الدِّينُ الَّذي لا يَقبَلُ غيرَه، ولا يَرتضي سِواه.

ثم بَيَّن سبحانه وتعالى أنَّ اختلافَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ إنَّما حصَل بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليهم من إرسال الرُّسلِ، وإنزالِ الكتُب، وكان الحاملُ لهم على الاختلافِ والتَّفرُّقِ هو ما جرى فيهم مِن بَغيٍ ومجاوزةٍ للحدِّ في العُدوان والظُّلم.

ثمَّ عقَّب اللهُ تبارَك وتعالَى بذِكْر جزاءِ مَن يَكفُرُ بآياتِ الله، وأنَّه سيُحاسبُه على أفعالِه الَّتي أحصاها عليه؛ فهو سريعُ الحسابِ والإحصاءِ.

ثمَّ وجَّه اللهُ خِطابَه لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّهم إنْ جادَلوك- يا محمَّدُ- بالباطل، وخاصَموك فيما جاءَك من الحقِّ- فأَخبِرْهم أنَّك أخلَصْتَ العملَ لله وحده، وأفرَدْتَ العبادةَ له، أنت ومَن اتَّبَعك على دِينِك، وأمَرَه أنْ يقولَ للَّذين أُوتوا الكتابَ والأُمِّيِّين ممَّن لا كتابَ له مِن المُشركينَ: هل أَسلمتم للهِ وأفرَدْتُموه بالتَّوحيد؟! فإنْ أسلَموا بمِثْل إسلامِكم، واتَّبَعوا دِينَكم، وانقادوا لله، وأذعَنوا له- فقد أصابوا الهُدى، ووُفِّقوا لسبيل الحقِّ، وإنْ أعرَضوا عمَّا تَدْعوهم إليه، فليس عليك إلَّا البلاغُ، واللهُ بصيرٌ بجميعِ العباد، عالِمٌ بمَن يَهتدي منهم، ومَن يَضِلُّ عن سواءِ السَّبيلِ، وإليه مرجعُهم، وعليه حِسابُهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قرَّر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّه الإلهُ الحقُّ المعبود، بَيَّن العبادةَ والدِّينَ الَّذي يتعيَّنُ أنْ يُعبَدَ به ويُدانَ له، وهو الإسلامُ[١]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤) ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٦).

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾.

أي: إنَّ الدِّينَ المقبولَ عند اللهِ، الَّذي لا دِينَ سواه، هو الإسلام[١]؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلامُ هو الانقيادُ لله وحده، ظاهرًا وباطنًا، بما شرَعه على ألْسنةِ رُسله، إلى أنْ خُتِموا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فجميعُ الطُّرقِ مسدودةٌ إلَّا مِن جِهته[٢].

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

أي: اختلَف الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ بعدَما قامتْ عليهم الحُجَّة؛ بإرسالِ الرُّسلِ إليهم، وإنزال الكتُب عليهم، وعِلمِهم بالحقِّ، وحَمَلَهم على ذلك مجاوزتُهم

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٤).

وحمَل بعضُ المفسِّرين الإسلام هنا على معناه الخاصِّ، وهو التعبُّد لله بشرعِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن اختار ذلك: ابن عاشور في ((تفسيره)) (٣/ ١٨٩)، وابن عثيمين في ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٢٣).

(٢) قال ابنُ تيميَّة: (الإسلامُ هو الاستسلامُ لله وحدَه، فهو يَجمعُ معنيين: الانقياد والاستسلام، والثاني: إخلاص ذلك لله، كما قال تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أي خالصًا له، ليس لأحدٍ فيه شيء. وإنَّه يُستعمل لازمًا ومتعديًا، فالأول كقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]، وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ﴾ [آل عمران: ٨٣- ٨٥]، وهو هذا الإسلام الذي هو الاستسلام لربِّ العالمين.

وقد يُستعمل متعديًا في مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، فهنا لَمَّا كان مُقيَّدًا بإسلام الوجه قرَن به الإحسان؛ لأنَّ إسلامَ الوجه له هو يتضمَّن إخلاصَ القصد له، فلا بدَّ مع ذلك من الإحسان؛ ليكون عملُه صالحًا خالصًا لله)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٠).

الحدَّ بالعدوانِ والظُّلم، وبالتَّفريط وتضييعِ الحقِّ[١].

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: ومَن يكفرْ بحُجَجِ اللهِ وما أنزَل في كتابِه، فإنَّ اللهَ سيُجازيه ويُحاسبه على ذلك؛ فإنَّه يُحصي أعمالَ العبادِ بسرعةٍ، دون الحاجةِ إلى عَقدِ أصابعَ، أو استخدامِ أداةٍ، وبلا حاجةٍ إلى فِكرٍ أو رَوِيَّة، كما يَفعَلُ الخَلقُ، وهو سريعُ المحاسَبة للخَلْقِ يومَ القيامة دون أنْ يَظلِمَ أحَدًا شيئًا، ودون الحاجةِ إلى تذكُّرٍ أو تأمُّلٍ، فيُحاسبُهم على كثرتِهم في وقتٍ وجيزٍ جدًّا، وهو سَريعُ المجازاةِ لعباده، كما أنَّ حسابَه قريبٌ؛ لسرعةِ انقضاءِ هذه الحياةِ الدُّنيا[٢].

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)﴾.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

أي: فإنْ جادَلوك وخاصَموك بالباطل، فقُلْ - يا محمَّدُ -: أخلصتُ عملي وعبادتي للهِ وحْدَه لا شريكَ له، أنا ومَن على دِيني، فلا نُوجِّهُ وُجوهَنا إلى غيره[٣].

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾.

أي: وقلْ - يا محمَّدُ - للَّذين أوتوا الكِتابَ مِن اليهودِ والنَّصارى[٤] والأُمِّيِّين الَّذين لا كتابَ لهم مِن مُشرِكي العربِ: أأفرَدْتُم التَّوحيدَ لله وأخلَصْتم له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٢).

(٤) قال ابن عطية: (والذين أُوتُوا الْكِتابَ في هذا الموضع يَجمع اليهود والنصارى باتفاق) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٤).

العبادةَ؟ والمعنى: أسلِموا للهِ تعالى، ووحِّدوه، وأَخلِصوا له(١).

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾.

أي: فإنِ انقادُوا واستسلَموا للهِ ظاهرًا وباطنًا، فقدِ اهتدَوْا هدايةَ توفيقٍ، وأصابوا سبيلَ الحقِّ(٢).

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

أي: وإنْ أَدبَروا مُعرِضين عمَّا تَدْعوهم إليه من الإسلام، وإخلاصِ التَّوحيد للهِ، ولم يَنقادوا بظَواهِرهم ولا ببَواطِنِهم، فليس عليك إلَّا تبليغُ رسالةِ ربِّك، وبه وقَعَ أَجرُك على ربِّك، وقامتْ عليهم الحُجَّة(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٣)، و((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٥).

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران: ٢٠] عقيب الاستفهام؟ وهل يجوز على هذا في الكلام أن يُقال لرجل: هل تقوم؟ فإنْ تقُم أكرمْك؟ قيل: ذلك جائزٌ إذا كان الكلام مرادًا به الأمر، وإنْ خرج مخرج الاستفهام، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، يعني: انتهُوا، وكما قال جلَّ ثناؤه مخبرًا عن الحواريِّين أنهم قالوا لعيسى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢]، وإنما هو مسألةٌ، كما يقول الرجُل: هل أنت كافٍ عنا؟ بمعنى: اكففْ عنَّا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٧).

وأمَّا المعنى الآخَر فهو أنَّ المراد أنَّه يُنادي عليهم بالبلاهة، يعني: أأسلمتُم بعد هذا البيان وهذا الوضوح، أم أنَّكم بُلهاءُ لم تَفقهوا حتى الآن، ولم تُسلموا مع ظهور المعنى ووضوحِه؛ تبكيتًا لهم وتصغيرًا لشأنهم في الإنصافِ وقَبول الحقِّ. يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٣).

وقال ابنُ عطيَّة: (قال الزجاج: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ تهديد، وهذا حسنٌ؛ لأنَّ المعنى أأسلمتُم أم لا؟) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٤).

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: مطَّلِع على جميعِ الخَلْق أتمَّ الاطِّلاعِ، ويعلمُ أحوالهم؛ مَن يُطِيع منهم، ومَن يُعرِض، ويتولَّى جزاءَهم[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- على المسلمِ ألَّا يَنظُرَ إلى الآية الَّتي ذَكرتِ الخلافَ الَّذي وقع للَّذين أوتوا الكتابَ كحدَثٍ تاريخيٍّ، بل يتلوها متذكِّرًا أنَّها أُنزلتْ تحذيرًا للمسلمين من الخلافِ في الدِّين، والتَّفرُّقِ إلى شِيَعٍ اتِّباعًا لسَنَنِ مَن قبْلَهم[٢].

٢- في قوله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه عند مخالفةِ الإنسان غيرَه يَنبغي ألَّا يتطاولَ عليه، وألَّا يكون مقصِدُه بسَوْق الأدلَّةِ والحُجَج المؤيِّدةِ لقولِه، البَغيَ على غيره[٣].

٣- يُستفادُ من قوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أنَّه إذا عَلِم الإنسانُ أنَّ مَن يُحاجُّه إنَّما يَقصِدُ نصْرَ قولِه ولو كان باطلًا، فله الإعراضُ عنه؛ لأنَّه ليس أهلًا للمحاجَّةِ أو الخُصومةِ[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآيَةَ: تلميحٌ إلى أنَّ هذا الاختلافَ والبغيَ كفرٌ؛ لِمَا أفْضَى إليه مِن نقْضِ قواعدِ أديانِهم، ونُكرانِ دِين الإسلام؛ ولذلك ذيَّله بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٩).

٢- في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ التعبيرُ عنهم بقوله: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ زيادةُ تَقبيحٍ لهم؛ فإنَّ الاختلافَ بعدَ إتيانِ الكتابِ أقبحُ، وقوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ زيادةٌ أخرى؛ فإنَّ الاختلافَ بعد العِلم أزيدُ في القَباحةِ، وقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ زيادةٌ ثالثة؛ لأنَّه في حيِّزِ الحَصْر، فيكون أزيدَ في القُبح[1].

٣- الوجهُ أشرفُ الأعضاءِ، ومَجمَعُ الحواسِّ، وبه يكونُ الانقيادُ وعَدَمُه؛ لهذا كان أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه في حالِ سُجُودِه؛ لوَضعِه أشرفَ أعضائِه على مَوطِئِ الأقدامِ، وأيضًا فيه معنى التوجُّهِ والقَصدِ؛ لذا ذَكَرَه اللهُ تعالى في قوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾[2].

٤- في قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ دليلٌ على أنَّه ليس قولُ أحدٍ من أهل العِلم حُجَّةً على الآخَر؛ فهم كلُّهم تابِعون لا متبوعون[3].

٥- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ بيانُ أنَّ الهُدى له صورةٌ واحدة، هي صورةُ الإسلام بحقيقتِه تلك وطبيعتِه، وليس هنالك صورةٌ أخرى، ولا تَصوُّرٌ آخرُ، إنَّما هو الضَّلالُ والجاهليَّةُ[4].

٦- في إسنادِ الأفعالِ إلى فاعليها ردٌّ على الجَبْريَّة، فإنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، وكلُّ ذلك يُفيد أنَّ للإنسانِ إرادةً وفعلًا اختياريًّا[5].

(١) يُنظر: ((فتح البيان)) لصديق حسن خان (٢/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((فتح البيان)) لصديق حسن خان (٢/ ٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٨١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٠).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: عبَّر بـ﴿إِنَّ﴾ بالكسرِ؛ لأنَّ الكلامَ الذي قبلَه قد تمَّ؛ فالجملةُ مُستأنَفة مُقرِّرةٌ مؤكِّدةٌ لمضمونِ ما قَبلَها ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾، وهذا أبلغُ في التقريرِ، وأدخَلُ في المدحِ والثناءِ ،وفائدة التوكيد: بيانُ الدِّين المَرْضيِّ لله تعالى، وأنَّه ليس سوى الإسلامِ الذي هو التَّوحيدُ، والتدرُّعُ بالشريعةِ الشَّريفةِ التي جاءَ بها محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

- وفيه حَصْرٌ بتعريفِ جُزئَي الجملة (الدِّين- الإسلام)، وفيه أيضًا توكيدُ الكلام بـ(إنَّ)، تحقيقًا لِمَا تضمَّنه من حَصْر حقيقة الدِّين عند الله في الإسلام: أي الدِّين الكامل[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا...﴾: فيه وصلٌ- أي: عطفٌ بالواو- وهو مناسبٌ؛ لكونِ الكلامِ المتقدِّم مُشتملًا على تعريضٍ باليهود والنصارى، الذين كذَّبوا بالقرآن، وإبطالٍ لقولِ وفْد نجران، فناسَب أنْ يُنوَّه بعدَ ذلك بالإسلامِ الذي جاءَ به القرآن؛ ولذلك جاءَ العطفُ على قولِه: ﴿إِنَّ الدِّينَ...﴾[٣].

- وحُذِفَ متعلِّقُ الاختلاف في قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ ليَشملَ كلَّ اختلافٍ منهم: مِن مخالفةِ بعضِهم بعضًا في الدِّين الواحِدِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٨٨، ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٨٨).

ومخالفةِ أهل كلِّ دِينٍ لأهلِ الدِّين الآخَر، ومخالفةِ جميعِهم للمسلمين في صحَّة الدِّين. وحُذِفَ متعلَّقُ العِلمِ في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ لذلك[١].

٣- قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعدِ مَا جَاءَهُمُ العِلمُ﴾: فيه إطلاقُ اسمِ السَّببِ على المسبِّب، حيث عبَّر بالعِلم عن التوراةِ والإنجيل، أو النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم- على الخِلاف[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾: فيه إيماءٌ إلى أنَّ البغيَ دائرٌ شائعٌ فيهم، وكلُّ فِرقةٍ منهم تُجاذِب طرَفًا منه[٣]؛ فـ﴿بَيْنَهُمْ﴾ حال لبغيًا، أي: بغيًا مُتفشِّيًا بينهم، بأنْ بغَى كلُّ فريقٍ على الآخَر[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾: خبرٌ؛ غرضُه الوعيدُ الشَّديد، والتهديدُ لِمَن كفَر منهم بأنَّه سيصيرُ إلى اللهِ سريعًا فيَجزيه على كُفره؛ وأيضًا ﴿سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ أي: سريعُ الإحصاءِ مع كثرةِ الأعمال، وهو سريعُ المحاسَبة للخَلْق يومَ القيامة، على كثرتِهم، وهو سبحانه سريعُ المجازاة لعبادِه[٥]، مع ما فيه مِن تأكيدِ الخبر بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة.

- قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيثُ لمْ يَقُلْ: (فإنَّه)؛ للتهويلِ عليهم، والتَّهديدِ لهم[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٢٧).
(٦) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (١/ ٣٧٤).

٦- قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾:

- في قوله تعالى: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ الاستفهامُ في معرِض التَّقرير، أو التوبيخ والتقريع، وفيه: الإشارةُ إلى كونِ المخاطَب بليدًا قليلَ الفَهم[١]. أو الاستفهام للتحضيضِ والاستبطاءِ، وجِيء بصِيغة الماضي، ولم يقُل: (أتُسلِمون) على خِلافِ مُقتضَى الظاهر؛ للتنبيهِ على أنه يرجو تحقُّقَ إسلامِهم، حتى يكونَ كالحاصِلِ في الماضي، أو يكون المقصودُ مِن الاستفهام الأمْرَ؛ فهو بمنزلتِه في طَلَبِ الفعلِ والاستدعاءِ إليه، إلَّا أنَّ فيه معنًى زائدًا، وهو التَّعبيرُ بكونِ المخاطَبِ مُعانِدًا بعيدًا عن الإنصاف[٢].

- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فقَدِ اهْتَدَوْا﴾: عبَّر بصيغةِ الماضي المصحوبِ بـ(قَد) الدالَّة على التحقيقِ؛ مُبالغةً في الإخبارِ بوقوع الهُدى[٣]، وللتنبيهِ على أنَّه يرجو تحقُّقَ إسلامهم، حتى يكونَ كالحاصلِ في الماضي[٤].

- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: في صيغة (افتَعلوا) تلويحٌ بأنَّ الأنفُسَ مائلةٌ إلى الضلال، زائغةٌ عن طريقِ الكمال؛ فلا يَهمَّنك أمرُهم؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ﴾، وفي بِنية التفعُّل إيماءٌ إلى أنَّ طُرُقَ الهدى بعد البيانِ تأخُذ محاسنُها بمجامعِ القلوب، وأنَّ الصادفَ عنها بعدَ ذلك قد قهَر ظاهرَ عقلِه، وقويمَ فِطرتِه الأُولى برَجاسةِ نفْسه، واعوجاجِ طَبْعِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٢).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٧).

- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾: فيه قصرٌ بـ(إنَّما)، وهو مِن القصر الإضافيِّ، والتقديرُ فيه: فإنَّما عليك البلاغُ فقط، أمَّا الهدايةُ فليستْ عليك، وإنَّما هي علينا نحن[1].

- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: تذييلٌ فيه وعدٌ ووعيد[2].

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩).

الآيتان (٢١ - ٢٢)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَبِطَتْ﴾: بطَلَتْ، وأصلُ الحبْط: هو أنْ تُكثِر الدَّابَّةُ أكلًا حتَّى ينتفخَ بطنُها[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تبارَكَ وتعالَى عن هؤلاء الَّذين كفَروا بآياتِه، ولم يَكتَفُوا بذلك، بل أَمعَنوا في طُغيانهم، وازدادوا في ضَلالِهم، فقتَلوا أنبياءَ الله ورُسلَه بغير جُرمٍ ولا جَريرةٍ، وقتَلوا كذلك مَن يدعو إلى العدلِ، ويأمُرُ بالمعروف، وينهى عن المنكر مِن عبادِ الله؛ هؤلاء الذين هذه صِفتُهم أخبِرْهم يا محمدُ وأعلِمْهم بما ينتظرُهم من عذابٍ أليم، وعقابٍ موجِعٍ، جزاءً على كُفرِهم وسيِّئِ أعمالِهم.

وأخبَر سبحانه وتعالى أنَّ أعمالَ هؤلاء باطلةٌ، لا يَنتفعون بها ولا بآثارِها، لا في دُنياهم ولا في أُخراهم، ولن يَجِدوا نَصيرًا يَنصرُهم، ولا مُنقِذًا من عذابِ الله إذا حلَّ بهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَكفُرون بآياتِ الله؛ فيُكذِّبون بها استكبارًا وعِنادًا(١).

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ قِراءتان:

١- قراءة (وَيُقَاتِلُونَ) من القِتال، أي: يُحارِبون الذين يُخالفونهم في كُفرِهم، فالمقاتلةُ مِن اثنينِ(٢).

٢- قِراءة ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ من القتْل؛ فالقتْلُ مِن جانبٍ واحد(٣).

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أي: ويَقتُلون أنبياءَ الله المرسَلين إليهم، بغيرِ سببٍ، ولا جريمةٍ منهم(٤)!

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾.

أي: ويَقتُلون الَّذين يَأمرون بالعَدلِ مِن النَّاس من غيرِ الأنبياء(٥)، وهو الأمرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير))، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩).

(٢) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٥٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٥٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٦).

وقيل: قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ يَشمل الأنبياءَ وغيرَ الأنبياء، =

بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَر، وقتلُهم لهم هو غايةُ الكِبْر[١]، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ[٢]، وغَمْطُ النَّاس[٣]))[٤].

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: فأخبِرْهم أنَّ لهم عذابًا مؤلِمًا موجِعًا، بالغًا في الشِّدَّةِ[٥].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أي: الَّذين ذكَرْناهم هم الَّذين بطَلَتْ أعمالُهم في الدُّنيا، فلا يَنتفعون بآثارِها الطَّيِّبةِ في الدُّنيا، ولا يَنالون بها مَحْمدةً ولا ثناءً مِن النَّاس، مع بقاء الذَّمِّ واللَّعنة عليهم، وأمَّا في الآخرةِ، فلا يَنتفعون بثوابِ أعمالِهم، مع ما أعدَّ لهم فيها من العقابِ[٦].

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أي: وما لهؤلاءِ القومِ مِن ناصرٍ ينصُرُهم مِن الله، ويُنقِذهم من العذابِ إذا هو انتقَم منهم[٧].

= وعطفُه على النبيِّين من باب عطف العامِّ على الخاصِّ، وخُصَّ الأنبياءُ بالذِّكر؛ لأنَّ قتْلَهم أعظمُ مِن قتْل غيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

(٢) بطر الحق: هو دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) غمط الناس: احتقارُهم وازدراؤُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٩٠).

(٤) رواه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- جمَع اللهُ لِمَن يَكفُرون بآياته، ويقتُلون أنبياءَه ومَن يأمُرُ بالقِسط مِن عبادِه، ثلاثةَ أنواعٍ من الوعيد؛ الأوَّل: اجتماع أسبابِ الآلامِ والمكروهاتِ في حقِّهم؛ كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والثَّاني: زوال أسبابِ المنافعِ عنهم بالكليَّة؛ كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، والثَّالث: لُزوم ذلك في حقِّهم على وجهٍ لا يكونُ لهم ناصرٌ ولا دافعٌ؛ كما في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾(١).

٢- لَمَّا تقدَّم ذِكْرُ معصيتِهم بثلاثةِ أوصافٍ، ناسَب أنْ يكونَ جزاؤُهم بثلاثة؛ ليُقابَلَ كلُّ وصفٍ بمُناسِبه، ولَمَّا كان الكفرُ بآيات الله أعظمَ، كان التَّبشيرُ بالعذابِ الأليم أعظمَ، وقابَل قتلَ الأنبياءِ بحُبوطِ العملِ في الدُّنيا والآخرة؛ ففي الدُّنيا بالقتْلِ والسَّبيِ، وأَخْذِ المال والاسترقاقِ، وفي الآخِرةِ بالعقابِ الدَّائم، وقابَل قتْلَ الآمِرين بالقسط بانتفاءِ النَّاصرين عنهم إذا حلَّ بهم العذابُ، كما لم يكُنْ للآمِرين بالقِسْطِ مَن ينصُرُهم حين حَلَّ بهم قتلُ المعتدين، كذلك المُعتَدُون لا ناصرَ لهم إذا حلَّ بهم العذابُ(٢).

٣- في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ...﴾، توبيخٌ للمعاصِرين لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمساوئِ أسلافِهم، وببقائِهم أنفسِهم على فِعلِ ما أمكَنَهم من تلك المساوئ؛ لأنَّهم كانوا حريصين على قتْلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣).

٤- دلَّ قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٤).

الأمرَ بالمعروفِ، والنَّهي عن المنكَرِ، كان واجبًا في الأُممِ المتقدِّمةِ(١).

٥- دلَّ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على أنَّ القائمَ بالأمرِ بالمعروفِ تَلي منزلتُه في العِظَمِ منزلةَ الأنبياء(٢).

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

- قوله تعالى: ﴿يَكفُرونَ﴾ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ ﴿يَأْمُرُونَ﴾: جِيءَ في هذه الصِّلاتِ بالأفعالِ المضارِعة؛ على حِكايةِ الحالِ الماضية؛ استفظاعًا للقتْلِ، واستحضارًا لتِلك الحالِ الشَّنيعة للتعجُّبِ منها، وليس المرادُ إفادةَ التجدُّد؛ لأنَّ ذلك وإنْ تأتَّى في قوله: ﴿يَكْفُرونَ﴾، لا يَتأتَّى في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾؛ لأنَّهم قتَلوا الأنبياءَ والذين يأمرون بالقِسطِ في زمنٍ مضَى، والمرادُ مِن أصحابِ هذه الصِّلات يَهودُ العصرِ النَّبويِّ؛ لأنَّهم الَّذين توعَّدهم بعذابٍ أليم، وإنَّما حَمَلَ هؤلاء تَبِعَةَ أسلافِهم؛ لأنَّهم مُعتقِدون سَدادَ ما فعَلَه أسلافُهم(٣).

وقيل: أُريدُ بالمضارعِ الحالُ والمستقبَلُ على حَقيقتِه؛ لأنَّ اليهودَ يَرومُونَ قتْلَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ولذلك سَحروه وسمُّوه(٤)، وفي ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٦٦٢- ٦٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٦).

(٤) ينظر في سحر النبي صلى الله عليه وسلم ما رواه البخاري في((صحيحه)) (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها. ويُنظر في سَمِّ اليهودِ للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم =

تنبيهٌ على أنَّ عادتَهم قتْلُ أنبيائهم؛ لأنَّ هذا النبيَّ المكتوبَ عندَهم في التوراة والإنجيل- وقد أُمِروا بالإيمانِ به والنصرِ له- يَرُومونَ قتْلَه؛ فكيف مَن لم يكُن فيه تقدُّم عهدٍ من الله؟! فقتلُه عندَهم أَوْلى[١].

- قوله سبحانه: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: فيه تنكيرُ ﴿حَقٍّ﴾؛ لتأكيدِ العموم، أي: لم يكُن هناك حقٌّ لا هذا الذي يَعرِفه المسلمون ولا غيرُه ألبتةَ، ولا صغيرٌ ولا كبيرٌ في نفْس الأمر، ولا في اعتقادِهم[٢].

- وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وصفٌ كاشفٌ مُبيِّن للواقِع وليس وصفًا مُقيدًا؛ فلا يُرادُ به إخراجُ ما خالَف هذه الصِّفة، وإنَّما يُرادُ بها بيانُ الواقِع؛ إذ لا يكونُ قتلُ النَّبيِّين إلَّا بغير حقٍّ، فهذا القتلُ كان عدوانًا وظلمًا، فقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ليس له مفهومٌ؛ لظهورِ عدمِ إرادة التَّقييدِ والاحتراز، والمقصودُ من هذه الحال زيادةُ تشويهِ فِعلهم، وتشنيعُ هذه الحالة الَّتي لا شُبهةَ لصاحبِها، بل صاحبُها أعظمُ النَّاس جُرمًا، وأشدُّهم إساءةً[٣].

- وفيه: إشارةٌ إلى أنَّ قتْلَهم للأنبياء كان بغيرِ حقٍّ في اعتقادِهم أيضًا؛ فهو أبلغُ في التَّشنيعِ عليه[٤].

- وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ مناسبةٌ حسنةٌ لسِياق الآية، حيث جاءَ هنا مُنكَّرًا، وفي البقرة ﴿بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] مُعرَّفًا؛ لأنَّ الجملةَ هنا أُخرجتْ

= ما رواه البخاري (٤٤٢٨) معلَّقًا من حديث عائشة رضي الله عنها، وقد ذكَر ابن حجر مَن وصَلَه في ((تغليق التعليق)) (٤/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٦٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٦)، ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٠).

مخرجَ الشرط، وهو عامٌّ لا يَتخصَّص؛ فلذلك ناسَب أن تُنكَّر في سياقِ النَّفي ليعمَّ، وأمَّا في البقرةِ فجاءتِ الآيةُ في ناسٍ معهودِين مُشخصِين بأعيانهم، وكان الحقُّ الذي يُقتلُ به الإنسان معروفًا عندهم، فلم يُقصَدْ هذا العمومُ الذي هنا، فجِيء في كلِّ مكانٍ بما يُناسِبُه(١).

وقيل: لأنَّ المقصودَ في سُورةِ آل عِمران هُمُ الَّذين عاصروا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن بني إسرائيل، وشاهدوه، وعاينوا البراهين، وتأكَّدوا أنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلَّم هو مَن أخبر به موسى وغيرُه من الأنبياءِ، وتعدَّدت وكثرت الأدلَّة في ذلك، ومع هذا استمرُّوا في التَّمادي في الكُفرِ والعِناد، وبالمتمادِين منهم على الكُفرِ والضَّلال(٢)؛ فناسَب أنْ يُقال: إنَّهم ارْتَكَبوا كُفرَهم بغيرِ شُبهةٍ ولا سَببٍ يُمكِنُ التعلُّقُ به؛ فجاء قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، فكأنَّه مرادفُ ما لو قيل: بغيرِ سببٍ ولا شبهة، وذلك أبلغُ في ذَمِّهم. وأمَّا ما جاء في البقرة فإنما كان في سَلفِهم ممَّن لم يشاهِدِ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فهؤلاء وإنْ وقَع التَّصريح بكُفرِهم لِمَا ارْتكَبوه، لكن ورد أنَّ بعضَ هذه المرتكبات عفَا اللهُ عنهم فيها، كما أنَّه لا شكَّ من كون بعضهم سلِم ممَّا وقَع فيه الأكثرُ مِن الكُفرِ كما في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٢]؛ فحالُهم ليسَ كحالِ مَن عاصَر النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعانَدَ؛ لذلك ناسَبَ التعبير في البقرة بقوله: ﴿بغير الحقِّ﴾؛ إذ ليس المعرَّف في قوة المنكَّر المرادف لقولك بغير سبب، وقيل غير ذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٢٩٩).

(٢) والكلام هنا على موضعي آل عمران؛ الآية التي هُنا، والآية الأخرى هي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢].

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٤١- ٤٣)، ((درة التنزيل)) للإسكافي =

- ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾.

- (مِن) في قوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ إمَّا بيانٌ، وإمَّا للتبعيضِ أي: كلِّهم أو بعضِهم، سواءٌ أكانوا أنبياءَ أمْ لا، وكِلاهما معلومٌ أنَّهم مِن الناس؛ فقوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ جارٍ مجرَى التأكيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بهذا القَيدِ زيادةَ تَوبيخِهم بأنَّهم يَقتُلون جِنسَهم، الذي مِن حقِّهم أنْ يألفوه ويَسعَوا في بقائِه، وهذا تحقيقٌ لأنَّ قتْلَهم لمجرَّد العُدوان(١).

- قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾: لَمَّا كان ذلك مُومِئًا إلى وجهِ بناء الخبر: وهو أنَّهم إنَّما قَتَلوهم؛ لأنَّهم يَأمُرون بالقسطِ، أي: بالحقِّ، فقدِ اكتُفي بها في الدَّلالةِ على الشَّناعة، فلم تحتجْ إلى زيادةِ التشنيع(٢).

- وإنَّما كُرِّر الفعل ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾؛ لاختلافِ مُتعلَّقه، أو كُرِّر تأكيدًا، وقيل: المرادُ بأحد القتلينِ تفويتُ الرُّوح، وبالآخَرِ الإهانةُ؛ فلذلك ذُكِر كلُّ واحدٍ على حِدَته، ولولا ذلك لكان التركيبُ (ويقتلون النبيِّين والذين يأمرون)(٣)، أو لعلَّ تكريرَ الفعلِ؛ للإشعارِ بما بين القتلينِ من التفاوت، أو باختلافِها في الوقت(٤).

- قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾: زاد الفاء في خَبَر (إنَّ) إيذانًا بأنَّ الموصولَ (الذين)- الذي هو اسمُها- ضُمِّنَ معْنَى الشَّرْط أو الجزاءِ، كأنَّه قيل: الَّذين

= (١/ ٤٦-٢٤٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٧٤-٧٥)، ((فتح الرحمن)) لزكريا الأنصاري (١/ ٢٩- ٣٠).

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩).

يَكفُرون فبَشِّرْهم، بمعنى: مَنْ يَكفُرْ فبَشِّرْهم؛ إشارةً إلى أنَّ المقصودِين ليسوا قومًا معيَّنين، بلْ كلُّ مَن يتَّصف بالصِّلة، فجزاؤه أنْ يَعلمَ أنَّ له عذابًا أليمًا، ودخولُ الفاءِ على جوابِ الشَّرط زاد المعنى تأكيدًا(١).

٢- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾:

- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾: جِيءَ باسمِ الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لأنَّهم تميَّزوا بهذه الأفعالِ التي دلَّت عليها صِلاتُ الموصولِ أكملَ تمييزٍ، وللتنبيهِ على أنَّهم أحقَّاءُ بما سيُخبر به عنهم بعدَ اسمِ الإشارة(٢).

- وفي التعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ أيضًا دلالةٌ على بُعدِ المشارِ إليهم في الضَّلال والفسادِ(٣).

- والإخبارُ بالموصول ﴿الَّذِينَ﴾ أبلغُ من الخبَر بالفِعل؛ لأنَّ فيه نوعَ انحصارٍ(٤).

- في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ جِيء بـ: (مِن) الدَّالَّة على تنصيصِ العموم؛ لئلَّا يترُكَ لهم مدخَلًا إلى التَّأويل، يعني: ما لهم أحدٌ يَنصُرُهم، لا على سبيل الاجتماعِ، ولا على سبيل الانفراد؛ لأنَّ (مِن) الزائدة إذا دخَلَت على النَّكرةِ تجعَلُ النَّفيَ نصًّا في العموم؛ كـ (لا) النَّافيةِ للجنس(٥). ومجيء الجمعِ ﴿نَاصِرِينَ﴾ هنا أحسنُ من مجيء الإفراد؛ لأنَّه رأسُ آية، ولأنَّه بإزاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٢).

مَن للمؤمنين مِن الشُّفعاءِ، الَّذين هم الملائكةُ والأنبياء وصالِحُو المؤمنين، أي: ليس لهم كأمثالِ هؤلاء، والمعنى: أنَّه بانتفاءِ النَّاصرين انتفاءُ ما يَترتَّبُ على النَّصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفتْ مِن جمْعٍ، فانتفاؤُها من واحدٍ أَوْلى، وإذا كان جَمعٌ لا يَنصُرُ، فأَحْرَى ألَّا يَنصُرَ واحدٌ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٧).

الآيات (٢٣ - ٢٥)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِر اللهُ تبارَكَ وتعالَى عمَّن آتاهم نَصيبًا من الكتاب، وحظًّا من العِلم، وهم اليهود، بأنَّهم حين يُدْعَون إلى التَّحاكُم إلى ذلك الكتاب، الَّذي يُصدِّقون به، ويُؤمنون بحُكمه، وتَطمئنُّ قلوبُهم لِما فيه- يتولَّى فريق منهم، ويُعرِض عن كتابِ الله، ويُدبِر عمَّا فيه، والسَّببُ وراء ذلك الإعراضِ والتَّولِّي والتَّجرُّؤِ على مَعصيةِ الله هو أنَّهم قالوا: لن نُعذَّب في النَّارِ إلَّا أيَّامًا معدودة، وأوقاتًا محدودة، ثمَّ يُخرجنا اللهُ تبارَكَ وتعالَى منها، فكان هذا الافتراءُ والكذبُ المحضُ الَّذي جاؤوا به من عندِ أنفسهم هو الَّذي غرَّهم في دِينِهم، وأعْمَى قلوبَهم، وأضلَّهم عن سواء الصِّراطِ.

ثمَّ هدَّدهم اللهُ تبارَكَ وتعالَى وتَوعَّدهم بيومِ الجمْع؛ إذ كيف يكونُ حالُهم يوم يجمعُ الله الأوَّلين والآخرين، ويُوفيِّهم جزاءَهم على ما صنَعوا واقترفوا، في ذلك اليوم الَّذي تُوفَّى فيه كلُّ نفسٍ ما عمِلت من خير أو شرٍّ، وتُجزَى على جميعِ أفعالها وأقوالها دون نقصٍ ولا زيادة، ولا يظلِمُ ربُّك أحدًا؟!

تَفسيرُ الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ(٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نبَّه اللهُ تعالى على عِنادِ القومِ بقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، بَيَّن في هذه الآيةِ غايةَ عنادِهم، وهو أنَّهم يُدْعَون إلى الكتابِ الَّذي يزعُمونَ أنَّهم يؤمنون به، وهو التَّوراةُ، ثمَّ إنَّهم يتمرَّدون، ويتولَّوْن، وذلك يدُلُّ على غايةِ عنادهم[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: ألم ترَ- يا محمَّدُ- إلى اليهودِ الَّذين أُعطُوا حظًّا من العِلم بالتَّوراة[2].

﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: يُدْعَون إلى التَّوراةِ لتحكُمَ بينهم[3]؛ فهم يُقرُّون ويُصدِّقون بها[4].

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: يَستدبرُ فريقٌ[5] منهم عن كتابِ الله مُعرِضًا عنه مُنصرِفًا[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٩).

(٣) يحتمل أنْ يكون المرادُ: يَحكُم بينهم في بعض ما تنازعوا فيه هم ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويحتمل أنْ يكون تنازُعهم الذي دُعوا إلى حُكم التوراة فيه، هو أمْر نُبوَّة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويحتمل أنْ يكون المراد إبراهيم خليل الرحمن ودِينه، ويحتمل أنْ يكون ذلك ما دُعوا إليه من أمر الإسلام، والإقرار به، ويحتمل أنْ يكون ذلك التنازُع في حدٍّ؛ فإنَّ كلَّ ذلك ممَّا قد نازعوا فيه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فدَعاهم فيه إلى حُكم التوراة. وأيًّا ما كان فإنَّ المعنى الذي دُعِي إليه حمَلَةُ التوراة هو ممَّا قد وجَب عليهم في دِينهم الإجابةُ إليه، فامتنعوا منه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٥).

(٥) خصَّ الله تعالى بالتولي فريقًا دون الكلِّ؛ لأنَّ منهم مَن لم يتولَّ كابن سَلاَم وغيره. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٦).

=

عن عبدِ اللهِ بن عمرُ رضِي اللهُ عنهما أنَّ اليهودَ جاؤوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فذكَروا له أنَّ رجلًا منهم وامرأةً زَنَيا، فقال لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما تجِدون في التَّوراةِ في شأنِ الرَّجْمِ؟، فقالوا: نفضَحُهم ويُجْلَدُون، فقال عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ: كذَبْتُم، إنَّ فيها الرَّجْمَ، فأتَوْا بالتَّوراةِ فنشَروها، فوضَعَ أحدُهم يدَه على آيةِ الرَّجْمِ، فقرأَ ما قبلَها وما بعدَها، فقال له عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ: ارفعْ يدَكَ، فرَفَعَ يدَه، فإذا فيها آيةُ الرَّجْمِ، فقالوا: صدَقَ[1] يا محمدُ؛ فيها آيةُ الرَّجْمِ، فأمَرَ بهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فرُجِمَا))[2].

وذكَر الله تعالى سبب إعراضِهم فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾.

أي: ذلك التَّولِّي والإعراضُ بسبب قولِهم: لن نُعذَّبَ في النَّار إلَّا أيَّامًا قلائلَ، ثمَّ يُخرِجنا منها ربُّنا[3].

= يجوزُ أنْ يَعني بالتولِّي تولِّي فريقٍ من الذين أُوتوا نصيبًا من الكتاب، وبالإعراض جماعتهم، ويجوز أن يكون التولي والإعراضُ جميعًا للفريق، فيكون معنى التولي عنه ترْكَ موالاته، والإعراضُ يكون بالبدن؛ وذلك لئلَّا يحتجَّ عليهم إذا حَضروا فيلزمهم حُجَّة. ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٨٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٤) وقيل: تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

وقيل: معناه يتولَّى عن الداعي ويعرض عمَّا دُعِيَ إليه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٨٣).

(١) أي: صدَقَ عبدُ الله بنُ سَلَام.

(٢) رواه البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩).

وبعضُهم جعَل هذه القصَّةَ سببًا لنزول الآيةِ. يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧٨)، ((العجاب في بيان الأسباب)) لابن حجر (٢/ ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٧).

عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لليهود: ((مَن أهلُ النَّارِ؟ فقالوا: نكونُ فيها يسيرًا، ثمَّ تَخْلُفُونَنا فيها، فقال لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اخسَؤوا فيها، واللهِ لا نَخْلُفُكم فيها أبدًا))[١].

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أي: ثبَّتَهم على دِينِهم الباطل ما خدَعوا به أنفسَهم مِن زعمِهم أنَّ النَّارَ لن تمسَّهم إلَّا أيَّامًا معدوداتٍ، وادِّعائِهم أنَّهم أبناءُ الله وأحبَّاؤُه، إلى غيرِ ذلك، وهم الَّذين افترَوْا هذا مِن تلقاءِ أنفسِهم واختَلَقوه[٢].

ثمَّ قال الله تعالى مُتهدِّدًا لهم ومتوعِّدًا:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: فكيفَ يكونُ حالُهم مع ما صنَعوا إذا جمَعَهم اللهُ للفصلِ[٣] بينهم، ولحسابِهم في يومٍ لا شكَّ في مجيئِه ووقوعِه، وهو يومُ القيامة؟! وما أعظَمَ ما يلقَوْنَ من عقوبةٍ[٤]!

---

(١) رواه البخاري (٣١٦٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٨).

(٣) اللَّام في قوله: ﴿لِيَوْمٍ﴾ قيل: بمعنى (في)؛ قاله الكسائي، وقيل: المعنى (لحساب يوم)؛ قاله البصريُّون، وقيل: (لِمَا يَحدُث في يوم)، أو (لِمَا يكون في يوم)؛ قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).

وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إمَّا أنَّه خبر بمعنى النهي؛ والمعنى: لا تَرتابوا فيه، أو أنَّه خبرٌ على حقيقته. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥١).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾.

أي: وأَعْطَى اللهُ كلَّ نفسٍ جزاءَ ما عمِلَتْ من الخيرِ أو الشَّرِّ كاملًا وافيًا(١).

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: لا يُنقَصُ أحدٌ من حَسناتِه، ولا يُزاد في سيِّئاتِه، أو يُعاقَبُ بغيرِ جُرمِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿ولاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وفي الحديثِ القُدسيِّ الذي راوه أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضِي اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فيما روَى عن اللهِ تبارَك وتعالَى أنَّهُ قال: ((يا عِبادي، إنِّي حرَّمْتُ الظُّلمَ على نفْسِي...))(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ قد يُعطى عِلمًا، إلَّا أنَّه لا يوفَّق للعمل به(٤).

٢- في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ تحذيرٌ مِن التَّولِّي والإعراضِ عند الدَّعوةِ إلى التَّحاكُمِ إلى كتاب الله، بل الواجبُ على كلِّ أحدٍ إذا دُعِيَ إلى ذلك أنْ يسمَعَ ويُطيعَ وينقادَ، فلا يمكن أنْ يحتويَ قلبُ امرئٍ على

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٥).

الخوف من الآخرةِ والحياءِ من الله، ثمَّ يُعرِض عن الاحتكامِ إلى كتابِ الله، وتحكيمِه في كلِّ شأنٍ من شؤون الحياةِ[١].

٣- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ بُطلانُ الأمانيِّ، وأنَّ النَّفْس قد تُمنِّي الإنسانَ ما لا يكون؛ لذا يجبُ على الإنسان الحَذرُ من الاتِّكالِ على الأمانيِّ؛ فإنَّ هذا الخُلُقَ سِمةٌ من سِمات اليهود والنَّصارى[٢].

٤- لا يَجتمع في قلبٍ واحد جِدِّيَّةُ الاعتقادِ بلِقاء الله وحقيقتِه مع التَّميُّع في تصوُّر جزائِه وعَدْله؛ وذلك يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾[٣].

٥- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾، دلالةٌ على أنَّ اعتقادَ النَّجاةِ مِن عذابِ الله تعالى على كلِّ حال يحملُ المرءَ على الجُرأة على الإعراض عن الحقِّ، كما أنَّ هذا الاعتقادَ مُؤذِنٌ بسَفالة الهمَّة الدِّينيَّة، فلا تحصُلُ المنافسةُ في تزكية النَّفْس[٤].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بيانُ أنَّ الاغترار بالعمل قصورٌ في النَّظر؛ لأنَّه ليس الشَّأنُ هو القيامَ بالعمل، بل الشَّأنُ كلُّ الشَّأن أنْ يُقبَلَ منه العمل، فكم مِن عاملٍ ليس له مِن عملِه إلَّا التَّعبُ؛ لوجود مُبطِلٍ سابقٍ أو لاحقٍ[٥].

٧- من قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يتَّضح أنَّ المخالفةَ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٨).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٠).

إذا لم تكُن عن غرورٍ، فالإقلاعُ عنها مَرجوٌّ، أمَّا المغرورُ فلا يُترقَّبُ منه إقلاع[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ بيانُ أنَّ الحُكم في كتاب الله يَشمَلُ كلَّ شيءٍ مِن عباداتٍ ومعاملات وأخلاق؛ لأنَّه لم يخصِّص منها شيئًا، وفي هذا ردٌّ على مَن يزعم أنَّ الشَّرعَ إنَّما جاء في تنظيمِ العبادات فقط، أمَّا المعاملاتُ فهي إلى الخَلْق[٢].

٢- عبَّر بالقولِ عن مُعتقَدِهم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ ولم يقُل: (اعتقدوا)؛ قيل: للدَّلالة على أنَّ هذا الاعتقادَ لا دليلَ عليه، وأنَّه قولٌ مفترًى مدلَّسٌ، وهذا المعتقدُ هو عقيدةُ اليهود[٣].

٣- في قوله: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ دليلٌ على أنَّهم يؤمنون بالبعث، إلَّا أنَّه لا فائدةَ في الإيمانِ المجرَّد بوجودِ الله أو اليومِ الآخِر ما لم يَتْبَعْه قَبولٌ وإذعان؛ فمجرَّدُ التَّصديقِ لا يُعدُّ إيمانًا[٤].

بَلاغةُ الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾: الاستفهامُ للتقرير لِمَا سبقَ من أنَّ اختلافَهم في الإسلام؛ ليكونَ التقريرُ على نفْيِه محرِّضًا للمخاطَب على الاعترافِ به بناءً على أنَّه لا يَرضَى أنْ يكون ممَّن يَجهلُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٤٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٨).

- وفيه إظهارُ ما حقُّه الإضمار - حيث قال: ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾، وكان الموضِعُ أن يُقال: (إليهم)-؛ للدَّلالةِ على أنَّ ضلالهم على عِلمٍ، وأنَّ الذي أُوتوه منه قراءتُهم له بألْسنتِهم، وادِّعاءُ الإيمانِ به[1].

- وفي قوله: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾: عرَّف المتحدَّثَ عنهم بطريق الموصوليَّةِ ﴿الَّذِينَ﴾ دون لقَبِهم (اليهود)؛ لأنَّ في الصِّلةِ ما يَزيد التَّعجُّبَ من حالهم؛ لأنَّ كونَهم على عِلمٍ من الكتاب قليلٍ أو كثيرٍ مِن شأنِه أنْ يَصُدَّهم عمَّا أُخبر به عنهم، على ما في هذه الصِّلة أيضًا من توهينِ عِلمِهم المزعومِ[2].

- وتنكيرُ ﴿نَصِيبًا﴾ للتَّعظيم، وقيل: بل لبيان النوعيَّة، وليس للتعظيمِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تهاونٍ بهم، وقد يكونُ التنوينُ للتَّقليل[3].

٢- قوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾:

- قوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ﴾: فيه إظهارُ الاسم الشَّريف (الله)، وإضافةُ الكتابِ إليه، ولم يقُل: (كتابهم)؛ احترازًا عمَّا غيَّروا وبدَّلوا؛ ولأنَّهم إنَّما دُعوا إلى كتاب اللهِ الذي أنزل على موسى عليه الصَّلاة والسَّلام، لا إلى ما عساه أنْ يكونَ بأيديهم ممَّا غيروا. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى عظيمِ اجترائهم بتولِّيهم عمَّن له الإحاطةُ الكاملة[4].

- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾: العطف بـ(ثمَّ)- التي تجعلُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٢-٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٣).

الجملةَ المعطوفةَ في حُكمِ المفرد- فيه دلالةٌ على أنَّ تولِّيهم مستمرٌّ في أزمان كثيرة تبعُد عن زمان الدعوة. ودخول (ثم) هنا للدَّلالة على التراخِي الرُّتبي لا التراخِي الزَّمني؛ لأنَّهم قد يتوَّلون إثرَ الدعوة، ولكن أُريد التعجُّب من حالهم؛ كيف يتولَّون بعد أنْ أُوتوا الكتاب ونَقَلوه؟! فإذا دُعوا إلى كِتابهم تولَّوْا! والإتيان بالمضارع في قوله: ﴿يَتَوَلَّى﴾؛ للدَّلالة على التجدُّد[1].

- وجملة: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ حال مؤكِّدة لجملة: ﴿يَتولَّى فَرِيقٌ﴾؛ إذ التولِّي هو الإعراض، ولَمَّا كانتْ حالًا لم تكُن فيها دلالةٌ على الدوام والثبات، فكانتْ دالَّةً على تجدُّد الإعراض منهم المفادِ أيضًا من المضارع في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾[2].

٣- **قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾** جِيء فيه بجمْع القِلَّة (أيَّام)؛ لمناسبته للمقام، من حيثُ تَناهِي اجترائِهم على العظائم؛ لاستهانتِهم بالعذابِ لاستقصارِهم لمدَّته، وأُكِّدتْ إرادتُهم لحقيقة القِلَّة بجمْع آخَر للقِلَّة ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾[3].

- وخصَّ الجمع بهذا الموضع ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾؛ لأنَّه مكانُ تشنيعٍ عليهم بما فعَلوا وقالوا، فأتَى بلفظ الجمْع؛ مبالغةً في زَجْرهم، وزجْرِ مَن يعملُ بعمَلِهم[4].

٤- **في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾** استفهامٌ غرضُه التهويلُ، والاستعظامُ والاستفظاعُ لِمَا أعدَّ الله لهم في يومٍ عصيبٍ تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصار[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٣٨٧).

- وهو تفريعٌ عن قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ﴾، أي: إذا كان ذلك غرورًا؛ فكيف حالُهم أو جزاؤهم إذا جمعناهم[١]؟!

- وفيه إيجازٌ بالحذفِ، والتقديرُ: فكيف صُورتُهم وحالهم إذا جمعناهم؟! وهذا الحذفُ يوجبُ مَزيدَ البلاغة؛ لِمَا فيه من تحريكِ النَّفسِ على استحضارِ كلِّ نوعٍ مِن أنواعِ العذابِ[٢].

- وقال تعالى: ﴿لِيَوْمٍ﴾ ولم يقل: (في يوم)؛ لأنَّ المرادَ: لِجزاء يوم، أو لحساب يوم، فحُذف المضافُ ودلَّت اللامُ عليه[٣].

٥- **قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾** عبَّر بصيغة الماضي ﴿وُفِّيَتْ﴾؛ ليفيدَ أنَّ الجزاء أمرٌ متحقِّق لا بدَّ منه، والبناء للمَفعول؛ للدلالةِ على سهولةِ تلك التوفيةِ عليه سبحانه، وإنْ كانت كثيرةً تفوقُ الحصْرَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٦-٣٠٧).

الآيتان (٢٦ - ٢٧)

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُولِجُ﴾: تُدخِل هذا في هذا، إمَّا بالتَّعقيبِ، أو الزِّيادة والنَّقص؛ فما زاد في واحدٍ نقَصَ من الآخَرِ مِثلُه[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾

﴿اللَّهُمَّ﴾: مُنادى مُفرَد علَم، ومعناها: يا أللهُ، وهي مِن الأسماءِ التي لَزِمَت النِّداء، وحُذِفَ حرفُ النِّداء (يا)، وعُوِّضَ عنه هذه الميمُ المشدَّدة[2]، وهذا خاصٌّ بهذا الاسمِ الشَّريف؛ فلا يجوزُ تعويضُ الميمِ من حرفِ النِّداء في غيره[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٣).

(٢) قال ابن عاشور: (ولَمَّا كثُر حذف حرف النِّداء معه قال النحاة: إنَّ الميم عوض من حرف النداء؛ يريدون أنَّ لحاق الميم باسم الله في هذه الكلمة لَمَّا لم يقعْ إلَّا عند إرادة الدعاء صار غنيًّا عن جلب حرف النداء اختصارًا، وليس المراد أنَّ الميم تُفيد النداء. والظاهر: أنَّ الميم علامة تنوين في اللُّغة المنقول منها كلمة (اللهم) من عبرانية أو قحطانية، وأن أصلها (لا هم) مرادف (إله)، ويدلُّ على هذا أنَّ العرب نطقوا به هكذا في غير النِّداء، وأنهم نطَقوا به كذلك مع النِّداء، وأنهم يقولون: يا أللهُ كثيرًا) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٢) باختصار.

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٧).

﴿مَالِكَ﴾: منصوبٌ على أنَّه مُنادى مُضاف، وحُذفتْ أداة النِّداء، والتقديرُ: يا مالكَ الملكِ. وقيل: هو بدَلٌ من (اللهمَّ)، أو عطفُ بيان. وقيل: نعتٌ له[١].

المَعنَى الإجْماليُّ:

أمَرَ اللهُ سُبحانَه وتَعالَى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَدْعوَه معظِّمًا له، مُوكِلًا الأمرَ إليه، قائلًا: يا أللهُ، يا مَن لكَ جميعُ المُلك، وجميعُ الأمْر في الدُّنيا والآخِرة، تُصرِّف جميعَ الممالك وتُدبِّرُها، فتُعطي المُلْك من تشاءُ من عِبادك، وتَنزِعه ممَّن تشاء، وتُعِزُّ مَن تشاءُ منهم، وتُذِلُّ مَن تشاء؛ فأنت الخيرُ كلُّه بيديك، لا يُشارِكك فيه أحدٌ، وأنت قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فلا شيءَ يمتنع عليك، ولا يحُول بينك وبين ما تُريد حائلٌ، تُدخِل اللَّيل في النَّهار، وتُدخِل النَّهار في اللَّيل، وتُخرِج المخلوقَ الحيَّ من المخلوقِ الميِّتِ، والمخلوقَ الميِّتَ من المخلوقِ الحيِّ، وتهَبُ مَن تشاء ما تشاء مِن الرِّزقِ الواسعِ الكثيرِ بلا حِسابٍ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخْبَرَ تعالى أنَّ الكفَّارَ سيُغلَبون، وأنَّه ليس لهم من ناصرين، كان حالُهم مقتضيًا لأنْ يقولوا: كيف نُغلَبُ مع قوَّتنا وكثرتِنا، وقلَّة أعدائِنا وضَعْفِهم؟ فقال الله تعالى[٢]:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٠٨).

أي: قُلْ- يا محمَّدُ-: يا أللهُ[١]، يا مَن لك الملكُ كلُّه؛ مُلكُ الدُّنيا والآخِرة، فتملِكُ جميعَ الممالكِ وتُصرِّفها وتُدبِّرها[٢].

ثمَّ فصَّل في بعضِ وجوه تصاريفِه وتدابيرِه في مُلكِه فقال:

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾.

أي: تُعطي المُلكَ مَن تشاءُ أنْ تُعطيَه[٣].

﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾.

أي: وتَنزِعُ الملكَ ممَّن تشاءُ أنْ تنزعَه منه؛ فتُزيلُ عنه وصْفَ المُلكِ[٤].

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾.

أي: وتُعزُّ مَن تشاء أنْ تُعزَّه بطاعتِك، أو بإعطائِه المُلكَ، وبَسْطِ القدرةِ له، أو نَصْرِه، وغير ذلك[٥].

---

(١) (لا خِلاف أنَّ لفظة (اللهمَّ) معناها يا أللهُ. وقيل: زِيدت الميم للتعظيم والتفخيم. وهذا القولُ صحيح، ولكن يحتاج إلى تتمَّة، وقائله لحَظَ معنًى صحيحًا لا بدَّ من بيانه، وهو أنَّ الميم تدلُّ على الجمْع وتَقتضيه، ومَخرجُها يَقتضي ذلك. وإذا عُلِم هذا من شأن الميم، فهُم ألحقوها في آخِر هذا الاسم الذي يُسأل اللهُ سبحانه به في كلِّ حاجة وكلِّ حال؛ إيذانًا بجميعِ أسمائه وصفاتِه؛ فالسائلُ إذا قال: اللهمَّ إني أسألك، كأنه قال: أدعو اللهَ الذي له الأسماء الحسنى والصِّفات العلى بأسمائِه وصفاته، فأتَى بالميمِ المؤذِنةِ بالجمع في آخِرِ هذا الاسم؛ إيذانًا بسؤاله تعالى بأسمائه كلِّها. وهذا القول الذي اخترناه جاءَ عن غيرِ واحدٍ مِن السلف؛ قال الحسن البصري: (اللهمَّ) مَجمَعُ الدعاء، وقال أبو رجاء العطاردي: إنَّ الميم في قوله: (اللهم) فيها تِسعةٌ وتسعون اسمًا من أسماء الله تعالى. وقال النضرُ بن شُمَيل: مَن قال اللهمَّ، فقد دعا الله بجميعِ أسمائه) ((جلاء الأفهام)) لابن القيِّم (ص: ١٤٣) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- =

﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾.

أي: وتذلُّ مَن تشاءُ أنْ تذلَّه بمعصيتِك، أو بسَلْبِ مُلكِه، وتسليطِ أعدائِه عليه، أو هزيمتِه، وغير ذلك(١).

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾.

أي: الخيرُ كلُّه بيديك، ليس لأحدٍ معك منه شيءٌ(٢).

وفي حديثِ عليٍّ بن أبي طالبٍ، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يُثْني على ربِّه في دُعاءِ الاستفتاحِ فيقول: ((لبَّيْكَ وسَعْدَيْك، والخيرُ في يَديك، والشَّرُّ ليس إليك))(٣).

﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ الله قديرٌ على كلِّ شيءٍ، على ما شاءَه وما لم يَشَأْه؛ فلا يمتنعُ عليه أمرٌ من الأمور(٤).

= سورة آل عمران)) (١/ ١٥٧).

والإعزازُ سواء قِيل بالطاعة، أو الملك، أو النصر، أو غير ذلك يَنبغي حملُه على التمثيل، وكذلك الإذلال بضد ما ذكَرْنا؛ لأنَّه لا مُخصِّص في الآية، فالذي يقعُ به العزُّ والذلُّ مسكوتٌ عنه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٨٦)، ((روح المعاني)) للألوسي (٢/ ١١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٨).

فهذه التصرُّفات كلُّها بيده وكلها خير؛ فسَلْبُه الملك عمَّن يشاء، وإذلاله مَن يشاء خيرٌ، وإنْ كان شرًّا بالنسبة إلى المسلوب الذليل؛ فإنَّ هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحِكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كلُّه خيرٌ يُحمَد عليه الربُّ، ويُثنَى عليه به، كما يُحمد ويُثنى عليه بتنزيهِه عن الشرِّ، وأنَّه ليس إليه. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٩).

(٣) رواه مسلم (٧٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٩).

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

أي: تُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهار، وتُدخِل النَّهارَ في اللَّيل، فتجعلُ ما نَقَصْتَ من ساعاتِ اللَّيلِ زيادةً في ساعاتِ النَّهار، وما نَقصْتَ من ساعاتِ النَّهار زيادةً في ساعات اللَّيل(١).

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾.

أي: وتُخرجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائمَ الأحياءَ من النُّطَف الميتةِ، وتُخرج الزَّرعَ من الحَبَّةِ، والنَّخلةَ من النَّواة، والدَّجاجةَ مِن البيضةِ، والمؤمنَ من الكافِر، إلى غيرِ ذلك(٢).

﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

أي: وتُخرجُ النُّطفةَ الميِّتة من الإنسانِ الحيِّ والأنعامِ والبهائمِ الأحياءِ، وتُخرجُ الحَبَّةَ من الزَّرع، والنَّواةَ من النَّخلةِ، والبيضةَ من الدَّجاجةِ، والكافرَ من المؤمِن، إلى غير ذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٠٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٧) وعزاه لجميع المفسِّرين، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١٧) وقال: (وتحتمل ألفاظُ الآية أن يَدخُل فيها تعاقبُ الليل والنهار، كأنَّ زوالَ أحدهما ولوجٌ في الآخر).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٤).

لكن يرَى ابنُ جرير: أنَّ تأويلَ مَن تأوَّله بمعنى الحبَّة من السُّنبلة، والسُّنبلة من الحبَّة، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وإنْ كان له =

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: وتُعطي مَن تشاءُ من الخَلْقِ الرِّزقَ الواسعَ، دون تَقتيرٍ أو تضييقٍ أو مُحاسَبةٍ(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ...﴾ الآية: تَعليمٌ من الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يفوِّضَ الأمرَ إليه، والخِطاب الموجَّهُ له موجَّهٌ لأمَّته، إمَّا عن طريق التَّأسِّي، وإمَّا لأنَّ الخِطاب للإمام خِطابٌ له ولِمَن اتَّبعه، ما لم يدلَّ الدَّليلُ على أنَّه خاصٌّ به(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ تقديمُ الإيتاءِ على النَّزع إشارةٌ إلى أنَّ الداعي يَنبغي أن يبدأَ بالترغيبِ، و﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ فيه إشارةٌ إلى إنَّ الدعاء باللِّين إنْ لم يُجدِ ثُنِّي بالترهيب(٣).

٣- من قوله تعالى: ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ يُؤخَذ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى تامُّ الملك والسُّلطان؛ لكونه يُذِلُّ مَن يشاء، ولو بلَغ ما بلغ من العِزَّة البشريَّة؛ فإنَّ يدَ الله فوقَه مهما بلَغ الإنسانُ مِن العزِّ؛ فالله قادرٌ على إذلاله(٤).

٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى بيده الخيرُ، فإذا كان كذلك فإنَّه لا يُطلَب الخيرُ إلَّا منه؛ لأنَّه لا أحدَ بيده الخيرُ إلَّا هو؛ قال الله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾(٥).

= وجهٌ مفهوم، لكنَّه ليس هو الأغلبَ الظاهر في استعمالِ الناس في الكلام. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بيانُ ضَعْفِ الإنسان وحاجتِه؛ فإيلاجُ اللَّيل في النَّهار والعكس، وما يَنتجُ عنه من تقلُّبٍ في الفصول، يُعرِّفُ الإنسانَ بمدَى ضَعْفِه، وافتقارِه إلى ربِّه، فإنْ جاءَ البردُ احتاج إليه، وإنْ جاء الحرُّ احتاج إليه(١).

٦- في قوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ﴾ أنَّ الرِّزقَ بيد الله؛ وعليه فإنَّه يَنبغي للعاقل فضلًا عن المؤمن، ألَّا يَطلُبَ الرِّزق مِن أيدي النَّاس، وإنَّما يَطلُبه من الله عزَّ وجلَّ(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ تعريضٌ بأهلِ الكتاب، بأنَّ إعراضَهم إنَّما هو حسَدٌ على زوالِ النُّبوَّة وانقراضِ المُلكِ منهم، مع الإيماءِ إلى أنَّ الشَّريعةَ الإسلاميَّة مُقارِنةٌ للسُّلطان والمُلك(٣).

٢- في قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مقامِ بَيانِ عِنادِ المنكِرين، ومكابَرة الجاحدين، وتذكيرِه بقُدرتِه تعالى على نَصرِه وإعلاءِ كَلمةِ دِينه(٤).

٣- في قوله تبارَك وتعالَى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا تلازُمَ بين العزِّ والمُلك؛ فقد يكون الملِكُ ذليلًا إذا ضَعُف استقلالُه بسوءِ السِّياسةِ وفسادِ التدبير، حتَّى صارتِ الدُّولُ الأخرى تَفْتاتُ عليه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٣).

٤- في قوله تباركَ وتعالَى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أنَّ الثناءَ ممَّا يُتوسَّل به إلى الله، وهو في الآية يتضمَّنُ ما تدلُّ عليه هذه الجملةُ، فإذا أثنيتَ على الله بأنَّه يُعِزُّ مَن يشاء، فأنت تسألُه العزَّةَ[1].

٥- في قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ تنزيهُ اللهِ عن نِسبة الشَّرِّ إليه، بل كلُّ ما نُسِب إليه فهو خيرٌ، والشَّرُّ إنَّما صار شرًّا؛ لانقطاع نسبتِه وإضافتِه إليه، فلو أُضيف إليه لم يكن شرًّا، وهو سبحانه خالقُ الخيرِ والشَّرِّ؛ فالشَّرُّ في بعض مخلوقاتِه لا في خَلقِه وفِعلِه؛ فخَلْقُه وفعلُه وقضاؤُه وقدَرُه خيرٌ كلُّه[2].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

- ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾: بيانٌ لبعضِ وجوهِ التَّصرُّفِ الذي تَستدعيه مالكيَّةُ المُلك، وفيه تحقيقُ اختصاصِ وجوه التصرُّف هذِه باللهِ تعالى حقيقةً، وكونِ مالكيَّة غيره بطريقِ المجاز؛ لأنَّ لفظةَ ﴿تُؤْتِي﴾ تُفهِم مجرَّدَ الإعطاءِ، بخِلاف لفظةِ (تُملِّك) التي تُؤذِن بثُبوتِ المالكيَّةِ حقيقةً؛ فإنَّ المُلك حقيقةً هو لله وحْدَه. وفي التَّعبيرِ بالإيتاءِ أيضًا؛ دَلالةٌ على أنَّ المُلك نِيلَ مِن اللهِ تعالى من غيرِ قوَّةٍ وغَلبةٍ، ولا مطاولةٍ فيه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٢).

- قوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ لإفادةِ الحَصر، كأنَّه قال: بيَدِك الخيرُ لا بيدِ غيرِك[١].

- وتعريفُ (الخير)؛ للتعميم[٢].

- قوله تعالى: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾، ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ﴾: فيه تكرار (المُلك) في جُمَل عديدة؛ للتَّفخيم والتَّعظيم- إنْ كان المرادُ واحدًا- وإنِ اختَلف المرادُ، كان مِن تَكرار اللَّفْظ فقط[٣].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هذا كالتأكيدِ لِمَا تقدَّم، من كونِه مالكًا لإيتاءِ المُلك ونَزْعِه، والإعزازِ والإذلال[٤]، مع ما فيه مِن التأكيد بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة، وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى كُلِّ﴾[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَتُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، وقوله: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: فيهما وفي متعلِّقيهما (الليل والنهار- والحي والميِّت) تَكرارٌ أيضًا، وردُّ الأعجازِ على الصُّدور، والصُّدورِ على الأعجازِ، مِثل قولهم: (عاداتُ السَّاداتِ ساداتُ العاداتِ)، وهو مِن مَحاسِن البديع[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٠).
(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤١٠- ٤١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٠٦).

الآية: (٢٨)

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ تبارَك وتعالَى المؤمنين عن اتِّخاذ أهلِ الكُفر أولياءَ يحبُّونهم ويَنصرونهم، ويَتركون موالاةَ أهلِ الإيمان، وتوعَّد الله تبارَك وتعالَى مَن يفعل ذلك أنَّه ليس مِن الله في شيءٍ، وأنَّه بريءٌ منه، ثمَّ استَثْنَى اللهُ تبارَك وتعالَى من ذلك مُداراةَ الكفَّار مداراةً ظاهرةً، وإظهارَ موالاتهم باللِّسانِ مع إضمارِ البُغض والكُره، في حالة الخوفِ من شُرورِهم، ثمَّ حذَّر الله المؤمنين من نفسِه، وأنذَرهم من التعرُّض لِما يُسخِطه؛ من ارتكابِ الموبقات، والاجتراءِ على الذُّنوب والسَّيِّئات، والإقدامِ على موالاة أعدائِه، وبيَّن لهم أنَّه إليه مَرجعُ العِباد بعد موتِهم، فيُحاسبهم على أعمالهم.

تَفسيرُ الآية:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه مالكُ المُلك، وأنَّ بيده مجامعَ الخير، والسُّلطانَ المطلقَ في تصريف الكون، يُعطي مَن يشاء، ويَمنعُ مَن يشاء، ويُعزُّ مَن يشاء، ويُذلُّ مَن يشاء، فإذا كانت العزَّةُ والقوَّة له- عزَّ شأنُه- فمِن الجهلِ والغرورِ

الاعتزازُ بأحدٍ من دونه، أو اللُّجوءُ إلى غيرِ بابِه، أو موالاةُ أعدائه(١).

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: لا تتَّخِذوا – أيُّها المؤمنون – الكفَّارَ أنصارًا وأعوانًا، تحبُّونهم وتظاهرونهم وتوالونهم متجاوزين المؤمنين إليهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤].

ثمَّ توعَّد اللهُ تعالى مَن يفعل ذلك فقال:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

أي: ومَن يفعلْ ذلك المذكورَ، فيتَّخِذهم أولياءَ من دون المؤمنين، فقد بَرِئ مِن اللهِ، وبرِئَ اللهُ منه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٢٢-٣٢٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٧).

قال ابنُ تيميَّة في سببِ نزولِ هذه الآية: (قد اتَّفق المفسِّرون على أنَّها نزلتْ بسبب أنَّ بعض المسلمين أراد إظهارَ مودَّة الكفَّارِ فنُهوا عن ذلك) ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين– سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).

ثمَّ استثنَى اللهُ تعالى، فقال:

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

أي: إلَّا أنْ تَخافوا على أنفسِكم مِن شرِّهم، فلَكُم أنْ تتَّقوهم بمداراتِهم، وإظهارِ الوَلايةِ لهم بألْسنتِكم، مع إضمارِ العَداوةِ والبُغضِ لهم، وعدمِ مُشايعتِهم على كُفرِهم، أو إعانتِهم على المسلمين[١].

ثمَّ هدَّد وتوعَّد مَن فعَل ما نَهى عنه، فقال:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

أي: ويُخوِّفُكم اللهُ من نفسِه، فلا تَتعرَّضوا لسَخطِه وعذابِه بركوبِ مَعاصيه، أو موالاةِ أعدائِه[٢].

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

أي: إليه المرجعُ بعدَ الموت، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله؛ فإيَّاكم أنْ تفعلوا مِن الأعمالِ ما تَستحقُّون به العقوبةَ، واعمَلوا ما به يَحصُل الأجرُ والمثوبةُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).

وقال ابن القيِّم: (معلومٌ أنَّ التُّقاة ليست بموالاة، ولكن لَمَّا نهاهم عن موالاة الكفار، اقتضى ذلك معاداتهم، والبراءةَ منهم، ومُجاهرتَهم بالعدوان في كلِّ حال، إلَّا إذا خافوا من شرِّهم فأباح لهم التقيةَ، وليستِ التقيةُ موالاةً لهم)، ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٦٩).

ثم إنَّ جواز ذلك مشروطٌ بتسلُّط الكفَّار على المسلمين، وحالِ الخوف على النَّفس؛ لضَعْفِ المسلمين وقوَّة الكفار. ينظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

المداراةُ فيما لا يَهدِم حقًّا، ولا يَبني باطلًا، كِياسةٌ مُستحبَّة، يَقتضيها أدبُ المجالسة ما لم تَنتهِ إلى حدِّ النِّفاق؛ وذلك لقولِه تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ علَّق اللهُ حُكم (الموالاة) بالمؤمنين؛ لأنَّ مُقتضى الإيمانِ الحقيقيِّ أنَّ يتَّخذَ الإنسانُ الكافرين أعداءً، ولأنَّ اتِّخاذهم أولياءَ يُنافي أصلَ الإيمان أو كمالَه(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾ دلالةٌ على أنَّه لا يجوزُ أنْ يولَّى كافرٌ ولايةً من ولاياتِ المسلمين، ولا يُستعانُ به على الأمورِ الَّتي هي مَصالحُ لعمومِ المسلمين(٣).

٣- قوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا مفهومَ له؛ لأنَّه ذُكِرَ لموافقتِه للواقعِ؛ لورودِه في قومٍ بأعيانهم والَوُا الكافرينَ دونَ المؤمنين، وليسَ المرادُ إخراجَ المفهومِ عن حُكم المنطوقِ؛ فمِن مَوانعِ اعتبارِ مفهومِ المخالفةِ كونُ المنطوقِ نازلًا على حادثةٍ واقعة. ومعلومٌ أنَّ اتِّخاذَ المؤمنين الكافرين أولياءَ، ممنوعٌ على كلِّ حالٍ. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ الحقيقَ بالموالاةِ هم المؤمنون، وفي موالاتهم مندوحةٌ عن موالاة الكفَّار(٤).

٤- في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ذكَر اللهُ في تَحذيره النَّفْس؛ قيل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤).

لِيُعلمَ أنَّ الوعيدَ صادرٌ منه، وهو القادرُ على إنفاذِه؛ إذ لا يُعجِزُه شيء[١]. وقيل: جَعَل التَّحذيرَ هنا من نَفْسِ الله- أي ذاتِه- ليكونَ أعمَّ في الأحوالِ؛ لأنَّه لو قيل: يُحذِّرُكم اللهُ غَضَبَه، لتُوهِّم أنَّ للهِ رِضًا لا يَضرُّ معه تعمُّدُ مخالفةِ أوامرِه، والعرب إذا أرادتْ تعميمَ أحوالِ الذَّات علَّقت الحُكم بالذَّات. ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾- إلى قوله- ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢] [الفتح: ٢٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ إثباتُ النَّفْسِ لله تعالى، ونَفْسُه هي ذاتُه عَزَّ وجَلَّ[٣].

بَلاغَةُ الآيةِ:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فيه تكرارُ لفظ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإظهارُه في موطنِ الإضمار- حيث قال: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقُل: (من دونهم)-؛ للتأكيدِ[٤].

- قوله: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: (مِن) لتأكيد الظرفيَّة، والمعنى: مُباعِدين المؤمنين[٥].

٢- قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾: تنكيرُ ﴿شَيْءٍ﴾ وتنوينُه؛ للتحقيرِ، أي: ليس في شيءٍ يَصحُّ أن يُطلق عليه اسمُ الولاية أو الدِّين؛ لأنَّ موالاة المتضادَّين ممَّا لا يكادُ يقعُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((صفات الله عزَّ وجلَّ)) للسقاف (ص: ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢١٦).

(٦) يُنظر: ((روح المعاني)) للألوسي (٢/ ١١٧).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: التعبيرُ عن صَنيعهم بـ(يفعل)؛ للاختصارِ، أو لإيهامِ الاستهجانِ بذِكرِه[١].

٤- قوله سبحانه: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا﴾: فيه التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخِطاب، ولو جرَى على سَنن الكلامِ لقال: (إلَّا أنْ يتقوا)، وفي الالتفاتِ هنا سِرٌّ بديع؛ ذلك أنَّ موالاةَ الكفَّار لَمَّا كانتْ مُستقبحةً، لم يواجِهِ اللهُ عبادَه بخِطاب النهي، بل جاءَ به في كلامٍ أَسْندَ الفِعلَ المنهيَّ عنه لغَيب، ولَمَّا كانتِ المجاملةُ في الظاهرِ والمحاسَنةُ جائزةً لعُذرٍ، وهو اتِّقاءُ شرِّهم، حسُن الإقبالُ إليهم وخِطابُهم برفْعِ الحرَج عنهم في ذلك[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾: فيه تهديدٌ عظيم، مُشعِرٌ بتناهي النَّهي في القُبح؛ حيثُ جَعَل التحذيرَ هنا مِن نفْس اللهِ سبحانه؛ ليكونَ أعمَّ في الأحوال، وذِكْرُ النَّفْس للإيذانِ بأنَّ له عقابًا هائلًا لا يُؤبَه دونه بما يُحذَرُ من الكَفرةِ[٣].

٦- قوله: ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾: تذييلٌ مقرِّر لمضمونِ ما قبله، ومُحقِّق لوقوعِه حتمًا[٤].

- وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَإِلَى اللهِ﴾؛ للاهتمامِ والاختصاصِ، وفيه تعريضٌ بالوعيد؛ أكَّد به صريحَ التهديدِ الذي قَبْلَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٨٩-٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢).

- وفيه التأكيدُ باسميَّة الجملة، وقُدِّم فيها الخبر أيضًا لفائدةِ الحصر؛ يعني: (إلى الله لا إلى غيرِه المصيرُ)، وإيثارُ حرف الجرِّ (إلى)؛ للدَّلالة على انتهاءِ المصير إليه سبحانه وليس لغيرِه شيءٌ منه. ووضْعُ المُظهَر (الله) موضعَ المُضمر (إليه)؛ لكمالِ العنايةِ بتمييزه وتخصُّصه[1].

٧- وقوله: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ﴾، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾، ﴿وَإِلَى اللهِ﴾:

فيه مِن أنواعِ البلاغةِ:

- تَكرارُ التَّحذير؛ لاقتضاءِ المقامِ ذلك؛ فجُملة ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ﴾ تحذير، وجملة ﴿ويُحَذِّرُكُم...﴾ تصريحٌ بالتحذير كذلك، وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ تحذيرٌ آخرُ.

- وإظهارُ لفظِ الجلالةِ (الله) وعدمُ إضمارِه- حيث لم يقُل: (ويحذركم نفسه) (وإليه المصير)-؛ لإدخالِ المهابةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٥).

الآيتان: (٢٩ - ٣٠)

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَؤُوفٌ﴾: شديدُ الرَّحمة، وأصل (رأف): الرِّقَّة والرَّحمة[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالَى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقول مُحذِّرًا المؤمنين مِن اتِّخاذِ الكافرين أولياءَ: إنَّكم لو أخفيتُم ما في صُدورِكم، وسترتُم ما في ضَمائِرِكم؛ من خيرٍ أو شرٍّ، أو عداوة أو ولاية، أو أبديتُم ذلك بأقوالِكم أو أفعالِكم، فإنَّ الله يعلمُه، فيُجازيكم على جميعِ ذلك؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، أو شرًّا فشرٌّ؛ فهو الَّذي أحاط علمُه بما في السَّموات وما في الأرض، فلا يَخفَى عليه شيءٌ ولا يَغيبُ عنه، وهو ذو القُدرةِ النَّافذةِ على كلِّ شيءٍ، فلا يُعجِزه شيءٌ في السَّمواتِ ولا في الأرض.

ثمَّ ذكَر موعدَ هذه المجازاة، وهو يومُ القيامةِ، يومَ تجِدُ كلُّ نفسٍ ما عمِلَتْه من الخيرِ قليلِه وكثيرِه حاضرًا بتمامِه من غيرِ نقصٍ، موفَّرًا من غيرِ تغييرٍ ولا تبديلٍ، أمَّا ما عمِلَتْه من سوءٍ وشرٍّ، فإنَّها تَتمنَّى لو أنَّ بينَها وبينَ ما عمِلته مِن السُّوء مسافةً بعيدة، ثمَّ يؤكِّد اللهُ تهديدَه ووعيدَه بتحذيرِ عبادِه مِن نفْسِه، وتخويفِهم من عِقابه، مُبيِّنًا أنَّه إنَّما حذَّرهم لشدَّة رحمتِه بهم، ورأفتِه عليهم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن اتِّخاذ الكافِرين أولياءَ ظاهرًا وباطنًا، واستَثْنى منه التَّقيَّةَ في الظَّاهر، أتْبَع ذلك بالوعيدِ على أنْ يَصيرَ الباطنُ موافقًا للظَّاهر في وقت التَّقيَّة؛ وذلك لأنَّ مَن أَقْدَم عند التَّقيَّةِ على إظهارِ الموالاة، فقد يصيرُ إقدامُه على ذلك الفعلِ بحسَب الظَّاهر سببًا لحصولِ تلك الموالاةِ في الباطن؛ فلا جَرَم بَيَّن تعالى أنَّه عالمٌ بالبواطن كعِلْمِه بالظَّواهر، فيعلم العبدُ أنَّه لا بدَّ أنْ يجازيَه على كلِّ ما عزَم عليه في قلبه[١]؛ لذا قال:

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: إنْ تُخفوا ما في قلوبِكم وضمائرِكم- من الخيرِ أو الشَّرِّ، أو الولايةِ أو العَداوةِ وغير ذلك- أو تُظهروه، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَعلمُه ويُجازيكم عليه[٢].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: وقُلْ لهم أيضًا: إنَّ الله يَعلمُ جميعَ ما في السَّموات، وجميعَ ما في الأرض، لا يغيبُ عنه شيءٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٤)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٨).

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ قادرٌ على كلِّ شيء؛ فقُدرتُه نافذة، ولا يُعجِزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، ولكمالِ عِلمه وكمالِ قُدرته إذا أراد معاجلةَ أحدٍ بعقوبة، فلن يُفلِتَ من عِقابه، فاحذَروا(١).

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى عن عِلمه وقُدرته، وفي ضِمنه الإخبارُ بما هو لازمُ ذلك من المجازاةِ على الأعمال، أخبَر عن مَحلِّ ذلك، وهو يومُ القيامة، الَّذي تُوفَّى فيه كلُّ نُفْسٍ ما كسبتْ(٢)؛ فلهذا قال:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾.

يومَ تجِد كلُّ نفْسٍ الَّذي عمِلَتْه من خيرٍ - سواء كان قليلًا أو كثيرًا - قد أُحضِر كاملًا موفَّرًا(٣).

كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

أي: والَّذي عمِلَتْه كلُّ نفْس من سوء - قلَّ أو كثُر - تُحبُّ وتتمنَّى لو أنَّ بينها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

وبينه مسافةً بعيدةً، أو زمانًا طويلًا متأخِّرًا[1].

ثمَّ قال تعالى مؤكِّدًا ومهدِّدًا ومتوعِّدًا:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

أي: ويُخوِّفُكم الله مِن نفْسِه[2].

﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: واللهُ رحيمٌ بخَلْقه أشدَّ الرَّحمةِ وأرقَّها؛ لذا حذَّرهم[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ إرشادٌ إلى تطهيرِ القلوب، واستحضارِ عِلمِ الله كلَّ وقت، فيستحي العبدُ من ربِّه أنْ يرى قلبَه محلًّا لكلِّ فِكرٍ رديءٍ، بل يَشغَلُ أفكارَه فيما يُقرِّبُ إلى الله[4].

٢- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، أنَّه متى آمَن الإنسانُ بصِفة العِلمِ أوْجَب له ذلك أمرين:

الأوَّل: الهروبُ مِن معصيةِ الله، فلا يَجِده اللهُ عزَّ وجلَّ حيث نهاه.

الثَّاني: الرَّغبةُ في طاعةِ الله، فلا يَفقِده حيثُ أمَرَه؛ لأنَّه يؤمنُ بأنَّ الله تعالى يَعلَمُه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١)، ((مفردات القرآن)) للراغب (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٤).

(٢) تقدمت هذه الجملة في تفسير الآية (٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١).

٣- ختَم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه قد وسِع كلَّ شيءٍ علمًا وقُدرةً، وأنَّه قادرٌ على الانتقامِ منكم فيما إذا أخفيتُم ما لا يَرضاه، ولكنَّه لحِكمته قد يُؤخِّرُ الانتقام(١).

٤- في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إرشادٌ للإنسانِ إلى أنْ يَتعلَّق بربِّه؛ لأنَّه متى علِم أنَّ اللهَ على كلِّ شيء قديرٌ، فإنَّه لن يمنَعَه مانعٌ من أنْ يلتجئَ إليه سبحانه وتعالى بسؤال ما يُريد(٢).

٥- في قوله: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ...﴾ الآية، إمعانٌ في التَّحذيرِ والتَّهديد، واستجاشةِ الخشية، واتِّقاءِ التَّعرُّض للنِّقمةِ الَّتي يُساندُها العِلمُ والقدرة، فلا مَلجأَ منها ولا نُصرة(٣).

٦- قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا...﴾ فيه التَّحذيرُ والتَّذكيرُ لهذا اليومِ العظيمِ الَّذي يجِد فيه الإنسانُ ما عمِل من خيرٍ أو سُوء(٤).

٧- في قوله تبارَك وتعالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا...﴾ كمالُ قُدرة الله عزَّ وجلَّ بإحضارِ ما عمِلَه الإنسانُ من قليلٍ وكثير؛ لقوله: ﴿مَا﴾ وهي موصولة تُفيد العُمومَ(٥).

٨- في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ...﴾ تنبيهٌ للعبد؛ ليحذَرَ من أعمال السُّوءِ الَّتي لا بدَّ أنْ يحزَنَ عليها أشدَّ الحزن(٦).

٩- في قوله: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ بيانٌ لكراهةِ المسيءِ لِمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

عمِله في ذلك اليوم، وأنَّه يحبُّ أنْ يكونَ بينه وبينه كما بين المشرقِ والمغرب(١).

١٠- ترْكُ كلِّ شهوةٍ ولذَّة- وإنْ عسُر تركُها على النَّفس في هذه الدَّار- أيسرُ مِن معاناةِ تلك الشَّدائِدِ، واحتمالِ تلك الفضائِح(٢) لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ...﴾.

١١- أعاد تعالى التَّحذيرَ من نفْسه؛ رأفةً بالعبادِ ورحمةً؛ لئلَّا يطُولَ عليهم الأمدُ فتقسوَ قلوبُهم، وليجمعَ لهم بين التَّرغيب الموجِب للرَّجاء والعملِ الصالح، والتَّرهيبِ الموجِبِ للخوف وترْكِ الذُّنوب(٣).

١٢- لَمَّا قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وهو للوعيدِ أتْبعه بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ وهو للوعدِ؛ ليعلَمَ العبدُ أنَّ وعْدَه ورحمتَه، غالبٌ على وعيدِه وسخَطه(٤).

١٣- أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يعرفَ قدْرَ نفْسِه بالنِّسبة إلى ربِّه، وأنَّه عبدٌ، والعبد يجبُ أنْ يكونَ منقادًا لأمر الربِّ، وأنْ يكونَ ذليلًا له شرعًا، كما أنَّه ذليل له قدَرًا(٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- لَمَّا كان الخِطابُ للمؤمنين سَمَّى الموعظة تحذيرًا في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٦-١٩٧)، قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ يحتمل أن يكون إشارةً إلى التحذير؛ لأنَّ تحذيرَه وتنبيهَه على النجاة رأفةٌ منه بعباده، ويحتمل أنْ يكونَ ابتداءَ إعلام بهذه الصفة، فمُقتضى ذلك التأنيس؛ لئلَّا يُفرط الوعيد على نفْس مؤمن، وتَجيء الآية على نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٥]) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٨).

اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ لأنَّ المحذَّر لا يكونُ متلبسًا بالوقوع في الخطرِ؛ فإنَّ التَّحذير تبعيدٌ من الوقوع، وليس انتشالًا بعد الوقوع(١).

٢- ختَم اللهُ الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ مع أنَّ المقامَ مقامُ تحذيرٍ، والتَّحذيرُ يَقتضي الوعيد؛ وذلك لأنَّ إخبارَ الإنسان بحقيقة الحال من الرَّأفة به، ومن رأفته عزَّ وجلَّ بالعباد أنْ حذَّرهم نفسَه، وأخبرَهم بأنَّ الأمر عظيمٌ(٢).

٣- التَّعريفُ في العباد في قوله: ﴿رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ للاستغراق؛ لأنَّ رأفةَ الله شاملةٌ لكلِّ النَّاس، مسلِمِهم وكافرِهم، ولك أنْ تجعل (أل) عوضًا عن المضافِ إليه، أي: بعِبادِه، فيكون بِشارةً للمؤمنين(٣).

٤- جملة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ معطوفةٌ على جملةِ الشَّرط؛ فهي معمولةٌ لفعل ﴿قُلْ﴾، وليستْ معطوفةً على جوابِ الشَّرْط؛ لأنَّ عِلمَ الله بما في السَّموات وما في الأرض ثابتٌ مطلَقًا، غيرُ مُعلَّق على إخفاءِ ما في نُفوسِهم وإبدائِه(٤).

٥- في قوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قيل: جمَع السَّموات، وأفرد الأرض لوجهين؛ أحدهما: لفظيٌّ، والآخر: معنويٌّ: أمَّا اللَّفظي: فإنَّ جمْعَ الأرضِ جمْعَ تَكسير (آرُض كأفلُس، أو آراض كأجمال، أو أُرُوض كفُلُوس) مستثقلٌ وينبو عنه السَّمع؛ إذ ليس فيه مِن الفصاحة والحُسن والعذوبة ما في لفظ (السَّموات)؛ ولهذا تفادَوا مِن جمْعِه إذا أرادُوه بثلاثةِ ألفاظٍ تدلُّ على التعدُّد، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، وجَمْع (الْأَرْض)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٢٢).

جمع مذكر سالِمًا (أرَضُون) ثقيلٌ، وهو مخالفٌ للقياس، ورُبَّ مفردٍ لم يقعْ في القرآن جمعُه؛ لثقلِه وخِفَّةِ المفردِ، وجمْعٍ لم يقعْ مفردُه كـ(الألباب). أمَّا الفرق المعنوي: الأرضُ فأكثرُ ما تجيءُ مقصودًا بها معنى التَّحت والسُّفل دون أن يُقصَد ذواتُها وأعدادها. وأيضًا لأنَّ الأرَض لا نِسبةَ لها إلى السَّموات وسَعتها، بل هي بالنسبةِ إليها كحصاةٍ في صَحراءَ؛ فالأرضُ وإنْ تعدَّدت وتكبَّرت فهي بالنسبةِ إلى السماءِ كالواحدِ القليلِ، فاختير لها اسمُ الجنس، فإنْ قصَد المخبِرُ إلى جزءٍ من هذه الأرض الموطوءة وعيَّن قطعةً محدودة منها خرجتْ عن معنى السُّفل الذي هو في مقابلةِ العلوِّ، فجاز أن تُثنَّى إذا ضُمَّ إليها جزءٌ آخَرُ، وإذا كان المقصودُ بالسماءِ ذواتِها لا مجرَّد العلوِّ والفوقِ عبَّر عنها بلفظ الجمْع، وأمَّا إذا أُريد الوصفُ الشاملُ للسَّموات، وهو معنى العلوِّ والفوق، أفْردوا ذلك بحسَب ما يتَّصل به من الكلام والسِّياق؛ كقوله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦ - ١٧]؛ حيث أَفْرَدَ السماءَ هنا لَمَّا لم يُرِدْ سَماءً معيَّنةً مخصوصةً، فحيث أُريدَ العددُ أُتِي بصيغة الجمْعِ الدالَّةِ على سَعةِ العظمةِ والكثرةِ، وجُمعت جمعَ السَّلامة؛ لأنَّ العددَ قليلٌ، وجمعُ السلامة بالقليلِ أَوْلى؛ لقُربِه من التثنيةِ القريبة من الواحِد. وحيثُ أُريد الجهةُ أُتِي بصِيغة الإفرادِ، فجرَى اللفظُ مجرى المَصْدَر الموصوفِ به؛ كقولك: قَوْلٌ عَدْلٌ وزورٌ[1] وقيل غير ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (١/ ١١٣-١١٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٦-٩)، ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ٣٥٥- ٣٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١/ ٤٢٩) و(٦/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٣)، ((درج الدرر في تفسير الآي والسور)) للجرجاني (١/ ٣٢٨)، ((غرائب التفسير)) للكرماني (١/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عادل)) (٣/ ١١٨)، ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣- ٤) و(٥/ ٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٢٦).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: عبَّر بالصُّدور، ولـم يقُل: (ما في قلوبكم)؛ لأنَّ القلبَ في الصَّدر، فجازَ إقامةُ الصَّدرِ مقام القلْب، وفي هذا تفنُّن في اختلافِ التعبيرِ، بناءً على أنَّ المرادَ بالجميعِ واحد[1]، أو عبر بذلك جريًا على مَعروف اللُّغة مِن إضافة الخواطرِ النَّفسيَّة إلى الصَّدرِ والقلبِ؛ لأنَّ الانفعالاتِ النَّفسانيَّةَ وتردُّدات التَّفكُّر- كلُّها يُشعَرُ لها بحَركاتٍ في الصُّدور[2].

٢- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾:

- هذا مِن باب ذِكْر العامِّ وهو قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾ بعد الخاصِّ، وهو ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ تأكيدًا له وتقريرًا[3].

- وقدَّم هنا الإخفاءَ على الإبداءِ، وجَعَل محلَّهما الصُّدور، وجعَل جوابَ الشرط العِلم، بخِلافِ ما في البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]؛ فإنَّه قدَّم فيها الإبداءَ على الإخفاءِ، وجعَل مَحلَّهما النَّفس، وجَعَل جواب الشَّرْط المحاسَبة، وكلُّ ذلك تفنُّنٌ في البلاغةِ، وتنوُّعٌ في الفصاحة[4].

- وفيه مناسبةٌ حَسنةٌ لكلِّ سِياقٍ؛ حيثُ قال في هذه الآيةِ: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، قدَّم عِلْمَه بما خَفِي، وأخَّر عِلمَه بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١١٤)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣١٠).

بَدَا، وعكَس في آيةِ البقرة حيثُ أخَّر الإخفاءَ وقدَّم الإبداءَ في قولِه: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]؛ ومناسبة ذلك: أنَّه قدَّم عِلمَه تعالى بما يُخفونه على ما يُبدونه في آية آل عمران إيذانًا باقتِضاحِهم، ووُقوعِ ما يَحذَرونه مِن أوَّلِ الأمرِ، وأيضًا للمبالغةِ في بيانِ شُمولِ عِلمِ الله تعالى المحيطِ بجميعِ المعلومات، كأنَّ عِلمَه بما يُخفونَه أقدمُ مِنه بما يُبدونه، مع كونِهما في الحقيقةِ سواءٌ في عِلمِه تعالى، ويجوز أن يكونَ تقديمُ عِلمِه بما يُخفونَه بِناءً على أنَّ مرتبةَ الإخفاءِ والسرِّ مُتقدِّمةٌ على مرتبةِ الإبداءِ والعَلَن؛ فما مِن شيءٍ يُعلَنُ ويُبدَا إلَّا وهو مضمرٌ في القلبِ يتعلَّق به الإسرارُ غالبًا؛ فتعلُّقُ عِلمِه تعالى به في حالتِه الأولى وهو في السرِّ مُتقدِّمٌ على تَعلُّقِه لحالتِه الثانية المعلَنِ فيها. وأمَّا في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فقدَّم الإبداءَ؛ لأنَّ الكلامَ عن المحاسبةِ، والأصل أنَّ المحاسبةَ تَتعلَّقُ بالأمورِ الباديةِ دون الخافيةِ(١).

وقيل: إنَّ وجْهَ ذلك: أنَّ إبداءَ الشَّيءِ وإخفاءَ خِلافِه في المعتقَدات صِفةُ المنافقينَ، وبها امتازُوا عن غيرِهم من الكفرةِ، وقدْ أَعلَمَ سبحانه أنَّ المنافقين هُم الذين يتَّخذون الكافرينَ أولياءَ مِن دون المؤمنين، وتوعَّدهم على ذلِك بأليمِ العذابِ؛ قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]، فحذَّر المؤمنين مِن ذلِك في غير آية؛ فلمَّا تقرَّر هذا النهي وتكرَّر، وقد تقدَّم في آية آل عمران قولُه ناهيًا وزاجرًا: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وحذَّر تعالى مِن ذلك أشدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١١٨- ١١٩).

التحذيرِ إلَّا عند التقيَّة، فلمَّا نهاهم عن فِعلِ المنافقين كان آكَدَ شيءٍ وأهمَّه إعلامُهم بأنَّه سبحانه يَعلمُ ما يُخفون كعِلْمِه ما يُبدون؛ لبناءِ المنافقين كُفرَهم على ما جَهِلوه مِن عِلمِه سبحانه بخفيَّاتِ ضَمائرِهم وإلحادِهم في ذلك؛ جهلًا بما يجبُ للهِ سبحانه، وتكذيبًا لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فهذا وجهُ تقديمِ الإخفاءِ في آيةِ آل عمران. أمَّا آية البقرة، فلم يَجرِ فيها ذِكرُ النِّفاق ولا صِفة أهْلِه، وإنَّما الخطابُ فيها وفي آية الدَّينِ قَبْلَها وفيما أُعقِبت به بعدُ للمُؤمنين، فيما يَخصُّهم مِن الأحكامِ؛ فورَد فيها قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] مُقدَّمًا فيها بادِي أعمالِهم بناءً على سلامةِ بواطِنِهم وتنزُّهِهم عن صِفةِ المنافقين، والخِطابُ للمؤمنين، وهذا جارٍ مُطَّرِد فيما يُلحَقُ بهذا الضرب، كما اطَّرد البدءُ بالإخفاءِ على الإعلانِ حيثُ يَتقدَّم ذِكرُ أهلِ الكُفرِ أو يَنتظم الكلامُ بذِكرهم، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] بعدَ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وكقولِه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤] بعدَ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وغيرِها؛ فاطَّرد ذلك في الطرفينِ على رَعْيِ الإيمانِ والنِّفاقِ، وجاءَ كلٌّ على ما يُناسِبُ، واللهُ أعلمُ[١].

- وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: هو خبرٌ مقصودٌ به غايةُ التَّحذير؛ لأنَّه إذا كان لا يَخفى عليه شيءٌ فيهما؛ فكيف يخفَى عليه الضَّمير[٢]؟!

٣- **قوله تعالى: ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** إتمامٌ للتحذير؛ وذلك لأنَّ العالِم

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٧٢- ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥).

بكلِّ المعلوماتِ عالمٌ بما في القلب، وعالمٌ بمقاديرِ استحقاقِه من الثَّوابِ والعقابِ، ثم لَمَّا بيَّن أنَّه قادرٌ على جميعِ المقدورات، فكان لا مَحالةَ قادرًا على إيصالِ حقِّ كلِّ أحد إليه؛ فيكون في هذا تمامُ الوعدِ والوعيدِ، والترغيبِ والترهيبِ[1].

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿الله﴾ في موضِعِ الإضمار؛ حيث لم يقُلْ: (وهو على كلِّ شيء قديرٌ)؛ لتربية المهابةِ، وللتَّهويل[2]، ولتكونَ الجملةُ مستقلَّةً، فتجري مجرَى المَثَل[3].

٤- ﴿يَعْلَمْهُ اللهُ﴾، ﴿واللهُ عَلَى...﴾ فيها تَكرارٌ للفظ الجلالةِ، وإظهارُه في موضعِ الإضمارِ حيثُ لم يقُل: (وهو على..)؛ لإدخال المهابةِ أيضًا[4].

٥- **قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا...﴾**

- فيه تقديمُ الظَّرف ﴿يَوْمَ﴾ على عاملِه ﴿تَوَدُّ﴾؛ لأنَّ اسمَ الزَّمان هنا هو الأهمُّ في الغرَض المسوقِ له الكلامُ، وهو ظرفٌ لشيءٍ من علائقِه، فجِيءَ به منصوبًا على الظرفيَّة، وجُعِل معنى بعضِ ما يَحصُل منه مَصُوغًا في صِيغة فِعلٍ عاملٍ في ذلِك الظَّرْف[5].

- وهذه الآيةُ من بابِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، ومن تمامِ الكلامِ الذي تَقدَّم، وخُصَّ هذا اليومُ بالذِّكر، وإنْ كان غيرُه من الأيَّام بمنزلتِه في قُدرةِ اللهِ تعالى؛ تَفضيلًا له لعِظَمِ شأنِه[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٥).

- قوله تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾: عبر بقوله: ﴿مُحْضَرًا﴾ لأنَّ فيه من التهويلِ ما ليس في حاضرًا[١].

٦- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عَمِلَتْ﴾، ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾: فيه تكرار[٢]؛ للتأكيد.

٧- قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾:

قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ تقدَّم في آية (٢٨) وأعادَه هنا؛ لإفادةِ ما يُفيدُه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿واللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ مِن أنَّ تحذيرَه تعالى من رأفتِه بهم ورحمتِه الواسعةِ، أو أنَّ رأفتَه بهم لا تَمنعُ تحقيقَ ما حذَّرهموه من عِقابِه، وأنَّ تحذيرَه ليس مبنيًّا على تناسي صِفةِ الرَّأفة، بل هو مُتحقِّقٌ مع تحقُّقها أيضًا[٣]، فقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ﴾ في الموضعين يَتعلَّق بما ذُكِر قَبلَه؛ فلا تَكرارَ حِينئذٍ؛ فالأوَّل تحذيرٌ من موالاةِ الكافرين، والثاني تحذيرٌ من أن يَجِدوا يومَ القيامة ما عمِلوا من سوءٍ محضرًا؛ لأنَّه ذكَره بعدَ أنْ ذكَر الجزاءَ الَّذي يكونُ يومَ القِيامةِ[٤].

- وتكريرُ الاسمِ الجليلِ ﴿الله﴾؛ لتربيةِ المهابةِ[٥].

٨- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ هذه الجملة أبلغُ في الوصْف من جملة التخويفِ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾؛ لأنَّ جملةَ التَّخويفِ جُعِلَ فيها التَّحذيرُ مِن نفْسِ اللهِ، أي: ذاتِه؛ ليكونَ أعمَّ في الأحوالِ؛ لأنَّه لو قيل: يُحذِّركم اللهُ غضَبَه لتُوهِّم أنَّ للهِ رِضًا لا يضرُّ معه تَعمُّدُ مُخالفةِ أوامرِه. ولم يَتكرَّر في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٩)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٧٠٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤).

جملة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ اسمُ الله، وجاءَ المحذِّرُ مَخصوصًا بالمخاطَب فقط ﴿وَيُحَذِّرُكُم﴾. وأمَّا جملةُ ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ فجاءتْ اسميَّةً، فتكرَّر فيها اسمُ اللهِ؛ إذِ الوصفُ ﴿رَؤُوفٌ﴾ مُحتمِلٌ ضميرَه تعالى (هو)، وجاءَ المحكومُ به ﴿رَؤوفُ﴾ على وَزنِ (فَعُول) المقتضِي للمبالغةِ والتكثير، وجاءَ بأخصِّ ألْفاظِ الرحْمة، وهو ﴿رَؤُوف﴾، وجاءَ مُتعلَّقُه عامًّا؛ ليَشْمَلَ المخاطَبَ وغيرَه، وبلفظ ﴿العِبَاد﴾؛ ليدلَّ على الإحسانِ التامِّ؛ لأنَّ المالِكَ مُحسِنٌ لعبدِه، وناظِرٌ له أحسنَ نظَر؛ إذ هو مَلِكُه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور))(٣/ ٢٢١).

الآيتان (٣١ - ٣٢)

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لمدَّعي محبَّة الله تبارَك وتعالَى: إنَّ آيةَ صِدقِكم وعلامةَ محبَّتكم لله تبارَك وتعالَى هي اتِّباعي، فإنْ كنتُم صادِقين في دعواكم، فيَلزمكم تَصديقي فيما أَتيتُ به من خَبرٍ، وطاعتي فيما أمرتُكم به، واجتنابُ ما نهيتُكم عنه، والاقتداءُ بي؛ فإنَّ بين محبَّةِ الله واتباعي تَلازمًا؛ فهُمَا لا ينفكَّان، فإذا فعلتُم ذلك كان هذا دليلًا قاطعًا على محبَّتكم لله، وحينَها سيكونُ جزاؤُكم جزاءَ المِثل؛ إذ ستنالون محبَّةَ الله لكم، ومغفرتَه لذُنوبِكم؛ فإنَّه غفورٌ لذنوبِ عبادِه، رحيمٌ بهم.

ثمَّ يأمُر الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَأمرَهم بطاعةِ الله وطاعةِ رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنْ أعرَضوا وتولَّوا عمَّا أُمِروا به من الطَّاعة، واستنكفوا عن الامتثال لأمْر اللهِ وأمْر رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقد كفروا، وارْتَكبوا ما يُعرِّضهم لسَخَطِ الله وبُغضِه، فإنَّه سبحانه لا يُحبُّ الكافرين، بل يُبغِضُهم.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى الله سبحانه وتعالى عن مُوالاةِ الكفَّارِ ظاهرًا وباطنًا، وكان الإنسانُ ربَّما والَى الكافرَ وهو يدَّعي محبَّةَ الله سبحانه وتعالى، وختَم برأفتِه سبحانه وتعالى بعبادِه، وكانت الرَّأفةُ قد تكونُ عن المحبَّة الموجبة للقُرب، فكان

الإخبارُ بها ربَّما دعا إلى الاتِّكال، ووقَع لأجْلِه الاشتباهُ في الحِزبَينِ، جعَل لذلك سبحانه وتعالى علامةً[١]، فقال:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لِمَن يدَّعون محبَّةَ الله: إنْ كنتُم تحبُّون الله كما ادَّعيتم، فاتَّبِعوني بتصديق خبَري، وطاعةِ أمْري، والاقتداءِ بي[٢].

﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

أي: إنَّكم إنِ اتَّبعتموني يُحبَّكم الله، ويَغفِرْ لكم جميعَ ذُنوبِكم، فَمَن كَانَ محبًّا لله لزِم أنْ يتَّبع الرَّسُول، ومَن اتَّبع الرَّسولَ فقد فعَل ما يُحبُّه الله، فيُحِبه الله[٣].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ غفورٌ لذنوبِ عِبادِه؛ يستُرها عليهم، ويتجاوزُ عنها، رحيمٌ بهم؛ يَعطِفُ عليهم، ويُحسِن إليهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٣٢).

قال ابن عاشور: (الآية انتقالٌ إلى الترغيبِ بعدَ الترهيب، والمناسبة: أنَّ الترهيب المتقدِّم خُتم بقوله: ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾، والرأفة تستلزم محبَّةَ المرؤوفِ به الرؤوفَ، فجعْلُ محبَّة الله فِعلًا للشرط في مقام تعليق الأمر باتِّباع الرسول عليه مبنيٌّ على كون الرأفة تستلزم المحبَّة، أو هو مبنيٌّ على أنَّ محبة الله أمر مقطوعٌ به من جانب المخاطبين، فالتعليق عليه تعليق شرط محقَّق، ثم رُتِّب على الجزاء مشروطٌ آخر وهو قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾؛ لكونه أيضًا مقطوعَ الرغبة من المخاطبين؛ لأنَّ الخِطاب للمؤمنين، والمؤمن غايةُ قصده تحصيلُ رِضا الله عنه ومحبته إياه)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٤- ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ١٨٧)، ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٢).

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ-: أطيعوا اللهَ والرَّسول محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ وذلك بامتثالِ الأمْر، واجتنابِ النَّهي(١).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: فإنْ أعرَضوا عن الطَّاعة، ولم يَنقادوا، فهذا كُفرٌ منهم، والله عزَّ وجلَّ لا يحبُّ الكافرين، بل يُبغِضهم. ولا يغفِرُ لهم(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي: على ما أنا عليه مِن الشَّريعة؛ عقيدةً وقولًا، وفعلًا وتركًا، فمَن اتَّبَع الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذه الأربعة، صدَقَ في اتِّباعه، ومَن خالَف فهو غيرُ صادق(٣).

٢- حبُّ الله ليس دعوى باللِّسان، ولا هُيامًا بالوِجدانِ، إلَّا أنْ يُصاحبَه الاتِّباعُ لرسول اللهِ، والسَّيرُ على هداه، وتحقيقُ منهجه في الحياة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٤)، فمن كَانَ محبًّا للهِ لَزِمَ أَن يتَّبعَ الرَّسُولَ فيصدِّقَه فِيمَا أَخبرَ، ويُطيعَه فِيمَا أَمَرَ، ويتأسَّى بِهِ فِيمَا فعل؛ ومَن فَعَلَ هَذَا فقد فعل مَا يُحِبُّهُ الله، فَيُحِبُّه الله، فالرَّسُولُ لا يَأْمرُ إلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨، ٩٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٨٧).

بما يُحِبُّ الله، ولا ينْهَى إلَّا عَمَّا يُبغِضُه اللهُ، ولا يفعلُ إلَّا ما يُحِبُّه الله، ولا يخبِرُ إلَّا بما يحبُّ اللهُ التَّصْدِيقَ به(١).

٣- قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ...﴾ الآيَةَ: حُجَّةٌ على أهلِ الدَّعوى في كلِّ زمانٍ ومكان، فهذه محبَّةٌ امتحَنَ اللهُ بهَا أهلَ دَعْوَى محبَّةِ اللهِ، فَإِنَّ هَذا البابَ يكثُرُ فِيهِ الدَّعاوَى والاشتباهُ؛ إذ ما قيمةُ الدَّعوى يُكذِّبها العملُ؟! وكيف يجتمعُ الحبُّ مع الجهلِ بالمحبوبِ، وعدمِ العنايةِ بأمره ونهيه(٢)؟!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- جمَعَت هذه الآيةُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ...﴾ وجوبَ محبَّة الله، وعلاماتِها، ونتيجتَها وثمراتِها(٣).

٢- بهذه الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ يُوزَنُ جميعُ الخَلْق؛ فعلى حسَب حَظِّهم من اتِّباع الرَّسولِ يكونُ إيمانُهم وحبُّهم لله(٤).

٣- في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ جوازُ مخاطبةِ المدَّعي بالتحدِّي(٥).

٤- مُوافقةُ المحبوبِ من موجِباتِ المحبَّةِ وثَمَراتِها، وليستْ نفسَ المحبَّةِ، بل المحبَّةُ تستدعي الموافقةَ، وكلَّما كانت المحبَّةُ أقوى كانت الموافقةُ أتمَّ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٣).
(٦) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٣٠٢).

٥- يَنبغي للإنسان أنْ يُجيبَ غيرَه بما هو أكثرُ من سؤاله، إذا دعتْ إليه الحاجة؛ لأنَّه لم يقُلْ: فاتَّبعوني تحبُّوا الله، بل قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾، ولا أحدَ يحبُّه اللهُ إلَّا وهو يحبُّ اللهَ[1].

٦- كمالُ إحسانِ الله سبحانه وتعالى لجزائِه على العمل أكثرَ منه؛ لأنَّ الَّذي يتَّبع الرَّسول يحصل له محبَّةُ الله ومغفرةُ الذُّنوب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[2].

٧- الجمعُ بين الغفور والرَّحيم لفائدةٍ عظيمة؛ قيل: هي الجمعُ بين الوقايةِ والعنايةِ؛ بين الوقايةِ مِن شرِّ الذُّنوب بالمغفرة، والعنايةِ بالتَّيسير لليُسرى وتجنيبِ العُسرى بالرَّحمة[3].

٨- في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أتى بالواو الدَّالَّة على التَّشريكِ؛ لأنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يأمُرُ به مِن الشَّريعةِ من طاعةِ الله[4].

٩- في قوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ ردٌّ على مَن قال: إنَّ السُّنَّة لا يُعمَل بها إلَّا ما وافَق القُرْآن؛ وذلك لأنَّنا لو قلنا: إنَّ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُطاعُ إلَّا فيما أمَر اللهُ به، لَمْ يكُنْ للأمر بطاعتِه فائدةٌ؛ لأنَّ كلَّ مَن أمر بما أمَر اللهُ به، فإنَّه مطاعٌ، لا لأمْره، ولكن لأمْر الله؛ فَطاعةُ أمرِ الرَّسول طاعةٌ مُستقلَّة[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠١).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: تذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَهُ، مع زيادة وعْد الرحمةِ، ووضعُ الاسمِ الجليلِ (الله) موضعَ الضَّمير (هو)؛ للإشعارِ باستتباعِ وصْف الأُلوهيَّة للمغفرةِ والرَّحمة[١].

٢- قوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَ اللهَ﴾، وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾، وقوله: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ﴾، ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾: فيها تَكرارُ الاسمِ الجليل (الله)[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾: فيه إيثارُ الإظهارِ لكلمة ﴿وَالرَّسُول﴾ على إضمارِها بطريق الالتفاتِ من الخِطاب إلى الغَيبة؛ لتعيينِ حَيثيَّة الإطاعة، والإشعارِ بعلَّتها؛ فإنَّ الإطاعةَ المأمورَ بها إطاعتُه عليه الصَّلاة والسَّلام من حيثُ إنَّه رسولُ الله، لا مِن حيثُ ذاتُه، ولا ريبَ في أنَّ عنوانَ الرِّسالة من مُوجباتِ الإطاعةِ ودواعيها[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾

- فيه إظهارُ الاسم الجليل (الله)- حيث لم يُضمرْ فيقول: (فإنَّه)-؛ للتعظيمِ وتربيةِ المهابةِ؛ لأنَّ العربَ إذا عَظَّمتِ الشَّيء أعادتْ ذِكرَه[٤]، ولتَعميمِ الحُكمِ لكلِّ الكفرة، والإشعارِ بعِلَّتِه[٥].

- وفيه: إيثارُ إظهارِ لفظة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ على الإضمارِ- حيث لم يقل: (لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٢).
(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٢٢).

يحبُّهم)-؛ لتعميمِ الحُكمِ لكلِّ الكفَرَة، وللإشعارِ بعلَّته؛ فإنَّ سخطَه تعالى عليهم بسببِ كُفرهم، والإيذانِ بأنَّ التولِّي عن الطاعةِ كفرٌ، وبأنَّ محبَّته عزَّ وجلَّ مخصوصةٌ بالمؤمنين[1]، وفيه أيضًا فائدةٌ لفظية وهي مُراعاةُ الفواصِل[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠٠).

الآيات (٣٣ - ٣٧)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُحَرَّرًا﴾: عتيقًا لله، مُخلَصًا للعبادة، وأصلُ الحريَّة: خلافُ العبوديَّة، والبَراءةُ من العيبِ والنَّقص(١).

﴿الرَّجِيمِ﴾: المطرودِ عن الخَيرات، وأصل الرَّجم: الرَّميُ بالحجارة، ومنه: رَجمتُ فلانًا بالكلام، إذا شَتمْتَه(٢).

﴿كَفَّلَهَا﴾: ضَمَّها إليه، وأصل الكفالة: تَضمُّن الشَّيءِ للشَّيء(٣).

﴿الْمِحْرَابَ﴾: الموضِعُ العالي الشَّريف، والغُرفة، والمسجدُ، وسيِّدُ المجالس، ومُقدَّمُها وأشرفُها، وصدْرُ المجلس(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾

﴿ذُرِّيَّةً﴾: مَنصوبةٌ، وفي نصبِها وجهان: الأوَّل: النَّصْبُ على البَدليَّة، والمبدَل منه على هذا الوجه: آدَمُ عليه السَّلام ومَن عُطِف عليه، أو نوحٌ عليه السَّلام ومَن عُطِف عليه، أو الآلانِ فقط (آلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ). الثاني: النَّصبُ على الحاليَّة منهم، وتقديرُه: اصطفاهم حالَ كونِهم مُتناسِبين بعضهم من بعضٍ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر اللهُ تبارَكَ وتعالَى أنَّه اجتبَى مِن خَلْقِه، واختار من عِبادِه أفرادًا وأُسرًا، امتنَّ عليهم بفضلِه، وأخلَصهم لعبادتِه، فاجتبى آدَمَ ونوحًا عليهما السَّلام فردَينِ، واختارَ إبراهيم وعِمْران وذرِّيَّتهما أُسرتين، فكان هؤلاء هم صفوةَ خَلْقه من العالَمين، وخِيرةَ عباده في الأوَّلين والآخِرين، وجعَلَ الصَّلاحَ والتَّوفيق مُتسلسلًا في ذرِّيَّاتهم؛ فالله تعالى على عِلم تامٍّ بمن يَستحقُّ الاصطفاءَ والاختيارَ من عبادِه؛ فهو السَّميع العليم.

ثمَّ ذكر اللهُ تبارَكَ وتعالَى نبأ امرأة عِمْران، حيث نذرتْ ما في بطنِها لله متفرِّغًا لعبادته، وخدمةِ بيتِ المقدس، ودَعَتِ الله أنْ يَتقبَّل منها؛ فهو السَّميعُ العليم، فلمَّا ولَدت إذَا بالمولود أُنثى، فاعتذرتْ إلى ربِّها من ذلك؛ لأنَّها كانتْ ترجو أنْ يكونَ مولودها ذكَرًا؛ لأنَّه أقدرُ على الخدمةِ وملازمةِ مكانِ العبادةِ من الأنثى.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٢٩). وينظر كذلك: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٤).

ثمَّ أخبرتْ أنَّها سمَّت مولودتَها مريم، وأنَّها تطلُب من الله أنْ يُعيذَها هي وذرِّيَّتَها من الشَّيطانِ الرَّجيم، فاستجاب اللهُ دعوتها، وقبِل نذرَها قَبولًا حسَنًا، فأنشأ مريمَ تنشئةً حسنة، وجعل زكريَّا كافلًا لها، وقائمًا على شؤونها، فكان كلَّما دخَلَ عليها المحرابَ وجَدَ عندها طعامًا وغذاءً، فيتعجَّب من ذلك؛ إذ كيفَ يأتيها هذا الرِّزقُ وهيَ منقطعةٌ لعبادة الله، حابسةٌ نفسَها على طاعته؟! فيسألها عن ذلك، فتُجيبه أنَّه من عندِ اللهِ، الَّذي يَتفضَّلُ على مَن يَشاء مِن عبادِه بالأرزاقِ والعطايا، ممَّا لا حَصرَ له ولا إحصاءَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ محبَّته منُوطة باتِّباع الرَّسول، فمَن اتَّبعه كان صادِقًا في دعْوى حبِّه لله، وجَديرًا بأنْ يكونَ محبوبًا منه- جلَّ علاه- أتْبع ذلك ذِكرَ مَن أحبَّهم واصطفاهم، وجَعَل منهم الرُّسلَ الَّذين يُبيِّنون طريقَ محبَّتِه، وهي الإيمانُ به مع طاعته[١]، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ اختار واجتبى آدمَ عليه السَّلام، فخلَقه بيدِه، ونفَخ فيه من رُوحِه، وأَسجدَ له ملائكتَه، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيء، إلى غيرِ ذلك، واختار نوحًا عليه السَّلام، فكان أوَّلَ رسولٍ بعثَه، وجعَل ذُرِّيَّته هم الباقين، واختار إبراهيمَ عليه السَّلام- خليلَ الله- وقومَه[٢]، ومنهم الأنبياء الَّذين مِن بعده؛ فهم مِن ذرِّيَّته،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٣/ ٢٣٧)

(٢) الآل هنا في قوله: ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ مُتعيِّن للحمْل على رَهْط الرَّجُل وقرابتِه. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣١).

ومنهم محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واختار عِمْرانَ والدَ مريم، وزوجتَه أُمَّ مريم، ومريمَ وابنها عيسى عليه السَّلام؛ اختارَهم وفضَّلهم على العالَمين(١).

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقال: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾(٢) [النساء: ٥٤].

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

أي: نَسْلًا بعضُه من بعض، في وراثةِ الاصطفاءِ والإيمانِ، والطَّاعةِ والموالاةِ في الدِّين، والتَّناصُر على الحقِّ(٣).

كما قال تعالى لَمَّا ذكَر جملةً من الأنبياء الدَّاخلين في ضِمن هذه البيوتِ الكبار: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٤).

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ من يستحقُّ الاصطفاءَ فيَصطفيه؛ فهو يسمَعُ أقوالهم، ويَعلَم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

ومعنى قوله: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أي: على عالَمي زَمانهم، في قول أهل التفسير. وقيل: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على جميع الخَلق كلِّهم؛ وذلك أنَّ هؤلاء رسلٌ وأنبياء؛ فهُم صَفوةُ الخلق. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٣).

(٢) هذا المدحُ لهذا المعدن الشريف؛ لِمَا فيهم من الإيمان والعمل الصالح. يُنظر: ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

أحوالَهم، وما في ضَمائِرِهم؛ فلذا فضَّلهم واختارَهم(١).

وهذا كقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ﴾(٢) [الدخان: ٣٢].

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

أي: واذكُرْ إذ قالت امرأةُ عِمْران: يا ربِّ، إنِّي أوجبتُ على نفْسي أنْ أجعلَ ما في بطني مفرَّغًا لعبادتك، حبيسًا على خِدمةِ بيتِ المقدس(٣).

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾.

أي: فتقبَّلْ منِّي يا ربِّ، ما نذرتُ لك(٤).

﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّك أنت السَّميعُ لقولي ودُعائي، المستجيبُ له، العليمُ بنيَّتي وقَصْدي(٥).

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)﴾.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٤٨- ٣٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٤).

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾.

أي: فلمَّا ولَدَتِ امرأةُ عِمْران إذَا بالمولودِ أُنثى، فاعتذرتْ قائلةً: يا ربِّ، إنِّي ولَدْتُها أنثى(١).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَضَعَتْ﴾ قراءتان:

١- (وَضَعْتُ) وتَعني أنَّه من قولِ أمِّ مريمَ وفِعلها(٢).

٢- ﴿وَضَعَتْ﴾ وتَعني الإخبارَ مِن الله عزَّ وجلَّ عن فِعلها(٣).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

أي: واللهُ أعلمُ مِن كلِّ أحدٍ بما وضعَتْه(٤).

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾.

أي: وليس الذَّكَرُ كالأنثى في القوَّة والجَلَدِ على خِدمةِ بيت المقدس، بالإضافةِ إلى ما يَعتري الأُنثى من الحيضِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٢) قرأ بها ابن عامر ويعقوب وأبو بكر. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) قرأ بها الباقون. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٣٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣١)، ((تفسير =

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

أي: وإنِّي جعلتُ اسمَها مريمَ، فأَطلقتُ عليها هذا الاسمَ يومَ ولادتِها[1].

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

أي: وإنِّي أُجيرُها وأولادَها- أي: عيسى عليه السَّلام- بكَ وحْدَك، من الشَّيطانِ المبعَدِ المطرودِ[2].

وقد استجابَ اللهُ تعالى لها؛ فعن أبي هُرَيرَةَ، رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما من مولودٍ يُولَدُ إلَّا مسَّه الشَّيطانُ حين يُولد، فيستهلُّ صارخًا من مسِّه إيَّاه، إلَّا مريمَ وابْنَها))، ثمَّ يقول أبو هُرَيرَةَ: اقرؤوا إنْ شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[3] [آل عمران: ٣٦].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

أي: قَبِل اللهُ مريمَ قَبولًا حسَنًا[4]، ورضِي نَذْرَ أمِّها وإنْ كان أنثى، فيسَّرها

= ابن كثير)) (٢/ ٣٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣١)، ((تفسير الخازن)) (١/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٨).

قال ابنُ عثيمينَ: (قالت: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ بناءً على الأصلِ والغالبِ؛ أنَّ الأُنثى تتزوَّج ويكونُ لها ذريةٌ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ أراد لهذه المرأةِ شيئًا آخرَ).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٦٦).

(٤) وعُرِف هذا القَبول بوحيٍ مِن الله إلى زكريَّا عليه السلام بأنَّه تَقبَّلها؛ ولذلك جعَلوها كما =

لليُسرى، وسلَكَ بها طريقَ السُّعداء[١].

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.

أي: أنشأَها نشأةً حسنةً في بَدَنِها، وخِلْقتِها، ودِينها، وأخلاقِها[٢].

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ قراءتان[٣]:

١ - ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ أي: ضَمَّها اللهُ تعالى إلى زكريَّا[٤].

٢ - (وَكَفَلَهَا) أي: ضَمَّها زكريَّا إليه[٥].

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

أي: جعَل اللهُ تعالى نَبيَّه زكريَّا عليه السَّلام كافلًا وضامنًا لها[٦]؛ وذلك بعدَ

= نذَرَتْ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير صديق حسن خان)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢١).

(٣) قال السَّمين الحلبي: (لا مخالفةَ بينَ القِراءتَين؛ لأنَّ الله لَمَّا كَفَّلها إيَّاه كَفَلَها) ((الدر المصون)) (٣/ ١٤٢).

(٤) قرأ بها الكوفيون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٤٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤١).

(٥) قرأ بها الباقون. ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٤٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٤٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤١).

(٦) كان زكريَّا عليه السلام زوجَ خالتها، على ما ذَكره ابنُ إسحاقَ، وابنُ جرير، وغيرهما، وقيل: =

أنْ وقَع الخلافُ فيمَن يَكفُل مريم، فاقْتَرعوا، فكانتْ من نصيبِ زكريَّا عليه السَّلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(١) [آل عمران: ٤٤].

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾.

أي: كلَّما دخَلَ عليها زكريَّا عليه السَّلام مكانَ عِبادتها، وجَد عندها طعامًا تتغذَّى به، بلا كَسبٍ ولا تعبٍ؛ فهي منقطعةٌ للعبادة(٢)، فيتعجَّبُ ويسألُها عن ذلك؛ كما قال تعالى:

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.

أي: قال زكريَّا لمريم: يا مريمُ، مِن أينَ لك هذا الرِّزق(٣)؟!

= زوج أختها، كما ورد في الصَّحيح: (فإذا بيحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة)، وقد يُطلَق على ما ذكَره ابنُ إسحاق ذلك أيضًا توسعًا، فعلى هذا كانتْ في حضانةِ خالتِها. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٧).
ذهَب غيرُ واحدٍ من أهل العلم أنَّ معنى ﴿أَنَّى﴾: مِن أين، ومنهم أبو عُبيدة وابنُ عطية وغيرهم. لكن قال النحَّاس: وهذا فيه تساهُلٌ؛ لأنَّ (أين) سؤال عن المواضع، و﴿أَنَّى﴾ سؤال عن المذاهب والجهات. والمعنى: من أيِّ المذاهب، ومن أيِّ الجهات لك هذا. ينظر ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢). وقال أبو حيَّان: (﴿أَنَّى﴾، سؤال عن الكيفية، وعن المكانِ وعن الزَّمان، والأظهرُ أنَّه سؤالٌ عن الجهة، فكأنَّه قال: من أيِّ جهة لك هذا الرزق؟ ولذلك قال أبو عُبَيدة: معناه من أين؟ ولا يَبعُد أنْ يكون سؤالًا عن الكيفية، أي: كيف تهيَّأ وصولُ هذا الرزق إليك؟) ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٦٣).

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ هذا الرِّزق مِن عندِ الله؛ فهو الَّذي ساقه إليَّ ورَزَقَنِيه(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُعطي الرِّزقَ مَن يشاء من غيرِ إحصاءٍ ولا حصرٍ، ولا عددٍ يُحاسِب عليه(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه اصطفاهم على تمامِ العِلم بهم؛ ترغيبًا في أحوالهم والاقتداءِ بأفعالهم وأقوالِهم(٣).

٢- الحثُّ على طردِ الإعجاب بالنَّفس، وتَرْك الإدْلالِ على اللهِ بالأعمالِ، وهذا مستفادٌ من قولِ امرأة عِمْران: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾(٤).

٣- التَّعبير عن الخُلوصِ المطلَق بأنَّه تحرُّر كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، تعبيرٌ موحٍ، فما يَتحرَّر حقًّا إلَّا مَن يَخلُص للهِ كلِّه، ويفرُّ إلى الله بجُملته، وما عداه عُبوديَّةٌ، وإنْ تراءتْ في صورة الحرِّيَّة(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٧)، وينظر أيضًا: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٣) فقد ذكَر في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ ثمانيةَ أوجه. وقد ذهَب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ هذه الجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من قول الله تعالى بعدَ انتهاء كلام مريم، وذهَب آخرون إلى أنَّها من قول مريم. ينظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الماوردي)) (١/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٤٨-٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٩٢).

٤- الدُّعاءُ الخاشعُ من امرأة عِمْران يَنمُّ عن ذلك الإسلامِ الخالصِ لله، والتَّوجُّهِ إليه كلِّيَّة، والتَّحرُّرِ من كلِّ قيد، والتَّجرُّدِ إلَّا مِن ابتغاء قَبوله ورِضاه، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1] [آل عمران: ٣٥].

٥- كلمة ﴿وَضَعَتْهَا﴾ تُشعِر أنَّ الأمَّ تَتكلَّف الحملَ، وإذا قدَّرنا أنَّ هذا الطِّفلَ الَّذي في بطنِها سيبقَى تِسعةَ شُهور، وهي حاملةٌ له في بطنِها، في أرقِّ ما يكونُ من البدن، قائمةً وقاعدةً، ومستيقظةً ونائمةً، فماذا نَتصوَّر من التَّعب؟! لذا فحقُّ الأمِّ على الأولادِ عظيمٌ[2].

٦- اعتذارُ الإنسان عند ربِّه إذا وقَع الأمرُ خلافَ ما أراد[3]؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾.

٧- لا يَستوي الذُّكورُ والإناث، لا في الطَّبيعة، ولا في الأخلاقِ، ولا في المعاملةِ، بل ولا في الأحكامِ في بعضِ الأحيان[4]؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾.

٨- بقَدْرِ صلاحِ المربِّي يَكتسبُ مَن يُربِّيه مِن خُلقه وصلاحِه، وفي كفالةِ زكريَّا لمريم فضيلةٌ تَزيدُ من فضائِلها؛ قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[5].

٩- أعظمُ الشُّكر لرزقِ الله سبحانه وتعالى معرفةُ العبد بأنَّه مِن الله تعالى،

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨)، و((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥) ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣١).

إنَّما يَشكُر رِزقَ الله مَن أخَذه مِن اللهِ سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- جاء ذكرُ آل إبراهيمَ في قوله: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ قيل لترغيبِ المعترفين باصطفائِهم في الإيمانِ بنُبوَّة النبيِّ صلَّى الله عليهِ وسلم، واستمالتِهم نحوَ الاعترافِ باصطفائِه بواسطةِ كونِه من زُمرتهم(٢).

٢- يُؤخذُ من قول أُمِّ مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ جوازُ النَّذرِ في الأمرِ المجهولِ(٣).

٣- لَمَّا كان حُسنُ إجابةِ المهتوفِ به الملتجأِ إليه على حسَب إحاطة سَمعِه وعِلمه، علَّلت سؤالَها في التقبُّل بأنْ قصَرَتِ السَّمع والعِلم عليه سبحانه، فقالت: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ أي: وحدَك ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٤).

٤- في قولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ جوازُ تَسميةِ الأطفالِ يومَ الولادةِ، وقبلَ اليومِ السَّابع(٥).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((المحرر الوجيز)) لابن عطية (١/ ٤٢٥).

قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((وُلِد لي الليلةَ ولدٌ سميتُه باسمِ أبي إبراهيم)). البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) واللفظ له. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّه ذهب بأخيه، حين ولدتْه أمُّه، إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فحنَّكه وسمَّاه عبد الله. البخاري (٥٤٨٠)، ومسلم (٢١٤٤). وقال رجل: يا رسول الله، وُلِد لي ولد، فما أُسمِّيه؟ قال: ((اسم ولدك عبد الرحمن)) البخاري (٦١٨٦). وينظر ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤).

٥- في قولِه تَعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ دلالةٌ على أنَّ للأمِّ تَسميةَ الولدِ إذا لم يَكْرَهِ الأبُ(١).

٦- مشروعيَّةُ إعاذةِ الإنسانِ أبناءَه بالله عزَّ وجلَّ من الشَّيطان الرَّجيم، ومِن شرِّ الخَلْق؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٢).

٧- في قوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ بيانُ جوازِ الدُّعاء للمعدوم، فذُرِّيَّتُها لم تأتِ بعدُ(٣).

٨- عبَّر عن التَّربيةِ بالإنباتِ في قوله: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ قيل: لبيانِ أنَّ التَّربيةَ فِطريَّةٌ لا شائبةَ فيها(٤).

٩- تطوُّر الإنسانِ في حياتِه بأمرِ الله، وما الغذاءُ والعنايةُ بالطفل إلَّا سببٌ، والله تعالى هو المسبِّبُ، وهو المكوِّنُ للإنسان، والمُنبت له(٥)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.

١٠- كلمة ﴿كُلَّمَا﴾ تُفيد التَّكرار، وفي ذلك بيانٌ لحُسن كفَالةِ زكريَّا لها، وأنَّه كان يتفقَّدها عند تقديرِ حاجتِها إلى الطَّعام(٦).

١١- في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٩).
وهذا على القولِ بأنَّ عمرانَ كان حيًّا وقتَ ولادتِها، وإلا فقد استدلَّ بعضُ أهل العلم بانفرادِ امرأة عمرانَ بالتسميةِ على كونِ عمرانَ كان متوفيًا. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣١).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٥٨- ٣٥٩).

رِزْقًا...﴾ دليلٌ على إثباتِ كراماتِ الأولياءِ الخارقةِ للعادة[١].

١٢- في قوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بيانُ أنَّ الأشياءَ تُضافُ إلى اللهِ وإنْ كان لها سببٌ[٢].

١٣- في قولِ الله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، لَمَّا كان الرزقُ لم يأتِ به بشرٌ، ولم يُسْعَ فيه السَّعيُ المعتادُ، قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

- ذِكرُ آلِ عمرانَ مع اندراجِهم في آل إبراهيمَ من باب ذِكرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ لإظهارِ مزيدِ الاعتناءِ بتحقيقِ أمْر عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لكمال رُسوخِ الخِلافِ في شأنِه؛ فإنَّ نِسبةَ الاصطفاءِ إلى الأبِ الأقربِ أدلُّ على تحقُّقه في الآل، وأمَّا اصطفاءُ نفْسه عليه الصَّلاة والسَّلام، فمفهومٌ من اصطفائِهم بطريقِ الأولويَّة، وعدمُ التَّصريح به؛ للإيذانِ بالغِنَى عنه لكمالِ شُهرةِ أمرِه في الخُلَّة، وكونه إمامَ الأنبياء، قُدوةَ الرُّسُلُ عليهم الصَّلاة والسَّلام[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ فيه إجمالٌ لـ(بعض) هنا؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ شدَّة الاتِّصال بين هذه الذريَّة؛ فـ(مِن) للاتِّصال لا للتبعيض، أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣١).
(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٦٨-٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦).

بين هذه الذُّرية اتصالُ القَرابة؛ فكلٌّ بعضٍ فيها هو متَّصل بالبعض الآخَر(١).

– وفيها: براعةُ التخلُّص(٢)؛ إذ انتقل من تمهيداتِ سببِ السُّورة إلى واسطةِ بين التَّمهيد والمقصِد؛ فهذا تخلُّصٌ لمحاجَّة وفْد نجران؛ فإنَّه سبحانه وتَعالى وطَّأ بهذه الآية إلى سِياق خبَر ميلادِ المسيح عليه السَّلام، فقد خلُص إلى ذِكر امرأة عمران؛ ليسوقَ قِصَّة حمْلها بمريم، وكفالة زكريَّا لها، وذِكْر ولدِه يحيى، وقصَّة حمْلِ مريم بالمسيح، وما تَخلَّل ذلك مِن آياتٍ باهرات، وعِبَرٍ بالغات، وهذا من محاسنِ البَلاغة(٣).

٣- **قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾** فيه مناسبةٌ بديعة؛ إذ التعرُّضُ لوَصفِ الرُّبوبيةِ المنبئةِ عن إفاضةِ ما فيه صلاحُ المربوبِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِها، أنسب لإجابة الدُّعاء. وتأكيدُ الجملة بـ(إنَّ)؛ لإبرازِ وفورِ الرَّغبة في مضمونها، وتقديمُ الجارِّ والمجرور لكمالِ الاعتناءِ به(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣١).

(٢) براعة التخلُّص: تعني امتزاجَ آخِر ما يُقدَّم من البَسط في الكلام بأوَّل ما يُستهلُّ به كلام آخَر، ينتقل المتكلِّم انتقالًا رشيقًا دقيقَ المعنى بحيث لا يشعُر السامع بالانتقال من المعنى الأوَّل إلَّا وقد وقع في الثاني؛ لشدَّة الممازجة والالتئام، كأنَّهما أُفرغَا في قالب واحد، أو توطئة بفصل لفصل يُريد أن يأتي به بعده، وإمَّا بنكتة تشير الى معنى الفصل المستقبل. ويُسمَّى معرفة الفصل من الوصل. وهو من أوجُهِ الإعجاز في القرآن، ويَخفى على غير الحذَّاق من ذوي النَّقد. وهو مبثوثٌ في الكتاب العزيز من أوَّله إلى آخره؛ فقد يُوقَف من الكتاب العزيز على مواضعَ تُظنُّ في الظاهر فُصولًا متنافرة، فإذا أُنعم فيها النَّظرُ خصوصًا مع الدُّربة بهذه الصناعة، ظهَر الجمعُ بينهما، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ١-٢]...). يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٣٣ وما بعدها)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٤/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٥-٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٧).

٤- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ تعليلٌ؛ لاستدعاءِ القَبول لا من حيثُ إنَّ كونَه تعالى سميعًا لدعائها، عليمًا بما في ضميرِها مصحِّحٌ للتقبُّل في الجملة، بل من حيثُ إنَّ عِلمَه تعالى بصحَّة نيَّتها وإخلاصِها مستدعٍ لذلك تفضُّلًا وإحسانًا[١].

- وفيه تأكيدُ الجملة بـ(إن) و(أنت)؛ لعرضِ قُوَّةِ يَقينها بمضمونِها[٢].

- وفيه قَصرُ صِفتَي السَّمعِ والعلم عليه تعالى؛ لعرْض اختصاصِ دُعائِها به تعالى، وانقطاعِ حَبل رَجائها عمَّا عداه بالكليَّة؛ مُبالغةً في الضَّراعة والابتهال[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ هو تعليلٌ لِمَا قَبلَه، وتحريكٌ لسلسلةِ الإجابة[٤].

٦- قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ خبرٌ لا يُقصد به الإخبارُ والإعلام، بل التَّحسُّر والتَّحزُّن والاعتذار؛ فهو بمعنى الإنشاءِ[٥].

٧- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ خبَرٌ فيه تعظيمٌ لموضوعها، ومرادٌ منه لازم الفائدة، والقَصدُ منه إفادتُها دون التَّصريح بما سيكون من شأنِ المولودِ الذي لم تَأبَهْ له باديَ الأمر، وأنَّ الله أعلمُ بالشيءِ الذي وضعتْ، وما علَق من عظائم الأمور، وأنْ يَجعلَه وولدَه آيةً للعالمين، وهي جاهلةٌ بمآلِ أمْرِ هذه المولودة، لا تَعلم منه شيئًا؛ فلذلك تحسَّرتْ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٣٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٠٤)، ((الدر المصون)) =

- وعلى قِراءة ضمِّ التاء في (وضعتُ)، وأنَّه من كلامِ أمِّ مريمَ يكون فيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيبة؛ إظهارًا لغاية الإجلال؛ إذ لو جرَتْ على مقتضَى قولها: (رب) لقالت: (وأنت أعلم)[1].

- وفيه مِن تمامِ البلاغة: الاحترازُ عن كلِّ موهِمٍ لأمرٍ خطأ، سواءٌ كان في المقال أو في الفِعل، ويُستفاد ذلك من قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ﴾ على قِراءة الضَّمِّ؛ فقد يتوهَّم السَّامع من قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ أنَّها أضافتْ إلى اللهِ عِلمًا لم يكُن حاصلًا له[2].

٨- **قوله:** ﴿**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**﴾ بدأتْ بِذكْر الأهمِّ في نفْسِها، وإلَّا فسياقُ قصَّتِها يَقتضي أنْ تقولَ: وليستِ الأنثى كالذَّكر، فتَضعُ حرْفَ النَّفي مع الشَّيءِ الَّذي عندها، وانتفَتْ عنه صِفاتُ الكمالِ للغرضِ المراد[3].

٩- **قوله سبحانه:** ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ...**﴾ فيه إطنابٌ، والغرضُ مِن التصريحِ بالتسميَّة التقرُّبُ إلى الله، والازدلافُ إليه بخِدمة بيت المقدس أولًا، ورجاء عِصمتها ثانيًا- فإنَّ مريم في لُغتهم تَعني (العابدة)- وإظهارًا لعزمِها على الوفاءِ بوعْدِها ثالثًا[4].

١٠- **قوله تعالى:** ﴿**وإِنِّي سَمَّيْتُهَا**﴾ ﴿**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ**﴾ فيه التأكيدُ بقوله: (وإني) وتكرار هذه اللفظة للتأكيد؛ لأنَّ حالَ كراهيتها يُؤذِن بأنها ستُعرِض عنها

= للسمين الحلبي (٣/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٩).

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المحرر الوجيز)) لابن عطية (١/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٩).

فلا تشتغل بها، وكأنها أكَّدت هذا الخبر؛ إظهارًا للرِّضا بما قدَّر الله تعالى؛ ولذلك انتقلتْ إلى الدعاءِ لها الدالِّ على الرِّضا والمحبَّة، وأُكِّدت جملةُ أُعيذها مع أنَّها مستعملةٌ في إنشاء الدُّعاء(١).

١١- **قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ...﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾** تكرَّرت (إنَّ) أربع مرات، وفي الثلاث الأولى كان خبرُها فعلًا ماضيًا (وضعتها- سَمَّيْتُها- نَذَرْتُ)، وفي المرة الرابعة جاءَ الخبرُ بالمضارع، (أُعيذها)، لنُكتة بلاغيَّة، وهي ديمومةُ الاستعاذةِ وتجدُّدها دون انقطاعٍ، بخِلافِ الأخبار السابقة فإنَّها تحقَّقتْ وانقطعت(٢).

١٢- **قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾:**

- قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ جاءتِ الإجابةُ بصِيغة التفعُّل مطابقةً لقولها في الدعاء: ﴿فتقبَّلْ﴾؛ للإشعارِ بالتدرُّج والتطوُّر والتكثُّر، كأنه يُشعِر بأنَّها مزيدٌ لها في كلِّ طور تتطوَّر إليه، ولم تكن إجابته (فقبِلها)، فيكون إعطاء واحدًا منقطعًا عن التواصُل والتتابع؛ فلا تزال بركة تحريرها متجدِّدًا لها في نفسها(٣).

- وقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾: تفريعٌ على الدُّعاء، مؤذِنٌ بسرعة الإجابة(٤).

- قال سبحانه وتعالى: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ لم يقُل: (فتقبَّلها ربُّها بتقبُّل)؛ لأنَّ ما كان من بابِ التفعُّل فإنَّه يدلُّ على شدَّةِ اعتناءِ ذلك الفاعلِ بإظهارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥).

ذلك الفِعل، كالتصبُّر والتجلُّد ونحوهما؛ فإنَّهما يُفيدانِ الجدَّ في إظهارِ الصَّبر والجلادة، فكذا هاهنا التقبُّل يُفيد المبالغةَ في إظهارِ القَبول، والعناية العظيمة في تربيتها. فيكون جمَع بين الأمرين: التقبُّل الذي هو الترقِّي في القَبول، والقَبول الذي يَقتضي الرِّضا والإثابة[١].

- والباء في ﴿بِقَبُولٍ﴾ للتأكيدِ، وأصلُ نظْم الكلام: فتَقبَّلها قَبُولًا حَسنًا، فأُدخِلت الباءُ على المفعول المطلَق؛ ليصيرَ كالآلة للتقبُّل، فكأنَّه شيءٌ ثانٍ، وهذا إظهارٌ للعناية بها في هذا القَبول[٢].

١٣- **قوله عزَّ وجلَّ:** ﴿رِزْقًا﴾ جاء بالتنكير؛ لإفادةِ الشُّيوعِ والكثرة، وأنَّه ليس من جِنسٍ واحد، بل من أجناسٍ كثيرة[٣].

١٤- **قوله:** ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ...﴾ تعليلٌ لكونِه من عند الله[٤]، مع ما فيه من تأكيدِ الخبر بـ(إنَّ) واسميَّة الجُملةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٣).

الآيات: (٣٨ - ٤١)

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَصُورًا﴾: أي: لا يَأتِي النساءَ؛ لعفَّتِه واجتهادِه في إزالةِ الشَّهوةِ، كأنَّه محصورٌ عنهنَّ، أي: محبوسٌ عنهنَّ، وأصلُ الحَصْر: الجَمْعُ والحبْسُ والمنعُ[١].

﴿عَاقِرٌ﴾: عقيمٌ، وهي الَّتي لا تَلِد، وأصل العقر: الجرح[٢].

﴿رَمْزًا﴾: وحيًا وإيماءً، أو إشارةً، أو تحريك الشَّفتينِ باللَّفظ من غيرِ إبانةٍ بصوتٍ، وقد يكونُ إشارةً بالعينِ والحاجبَينِ[٣].

﴿بِالْعَشِيِّ﴾: آخِر النَّهار، أو مِن زوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباح، وقيل: إلى أنْ تَغيبَ الشَّمس[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥، ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧).

﴿وَالْإِبْكَارِ﴾: أوَّل النَّهار، أو مِن مَطلعِ الفجرِ إلى وقتِ الضُّحى[(١)].

المَعنَى الإجماليُّ:

حينما رأى زكريَّا عليه السَّلام ما امتنَّ الله به على مريمَ من كرامات، طَمِع في فضْل الله، وتاقتْ نفسُه للولد، فدعا ربه قائلًا: ربِّ، أعطِني مِن عِندك، وهَبْ لي من فَضْلك، ذرِّيَّةً صالحةً طيِّبة؛ إنَّك سميعٌ لدُعائي، مجيبٌ له.

فاستجاب الله له دُعاءَه، فجاءتْه الملائكةُ تبشِّره بمولودٍ يُولد له اسمُه يَحيى، وله صفاتٌ عظيمةٌ، وخصالٌ جليلة؛ فهو مصدِّقٌ بعيسى عليه السَّلام، وسيِّدٌ على قومه، يسُودُهم بما أنعم الله به عليه من خِصالٍ حميدةٍ، وخُلقٍ فاضل، وعِلمٍ ودِين، وهو منقطعٌ للعبادة بكلِّيَّته، مبالغٌ في منْعِ نفْسِه عن التمتُّع بما أحلَّ الله، ممَّا تشتهيه النفوسُ عادةً، حتى الزَّواجِ بالنِّساء، وبشَّرته الملائكةُ أيضًا بأنَّه يكون نبيًّا من الصَّالحين.

وهنا يتعجَّب زكريَّا عليه السَّلام من قُدرةِ اللهِ الكاملة، فيتساءَلُ عن كيفيَّةِ حُصولِ هذا مع كِبَر سنِّه، وكون امرأتِه عاقرًا لا تلِدُ! فيأتيه الجوابُ: إنَّ الله يفعلُ ما يشاء.

ويَطلُب زكريَّا عليه السَّلام من الله آيةً وعلامةً دالَّةً على وجودِ هذا الولد، تحصُل له بها الطُّمأنينةُ، فيُخبره الله تبارَك وتعالَى أنَّ علامة ذلك انحباسُ لِسانِه عن كلام النَّاس، لا عن مَرضٍ ولا آفةٍ، ويتعامَلُ معهم عن طريقِ الإشارة والرَّمز، مدَّةَ ثلاثةِ أيَّام بلياليها، ويأمره أنْ يُكثِرَ من ذِكر ربِّه، وتعظيمِه وتنزيهِه في آخِرِ النَّهارِ وأوَّله.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ(٣٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رأى زكريَّا عليه السَّلام ما منَّ الله سبحانه به على مريمَ، وما أكرمَها به من رِزقه الهَنِيء الَّذي أتاها بغيرِ سعيٍ منها ولا كسبٍ، طمعتْ نفسُه في الولدِ مع كونه شيخًا كبيرًا قد وهَن عَظمُه، واشتعلَ رأسه شيبًا، وكانتِ امرأتُه مع ذلك كبيرةً وعاقرًا[١]؛ قال تعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾.

أي: في ذلك المكانِ الَّذي وجَدَ فيه زكريَّا ذلك الرِّزقَ عند مريم، سأل ربَّه وناداه نداءً خفيًّا[٢].

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

أي: قال: يا ربِّ، أَعطِني من عندك ولدًا[٣] صالحًا مبارَكًا[٤].

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

أي: ذو سَمعٍ لدعاءِ مَن دعاك، ومجيبٌ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٢).

(٣) الذُّريَّة جمْع، وهي في هذا الموضِع للواحد؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في موضع آخَر مخبرًا عن دعاء زكريَّا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥] ولم يقل: (أولياء)، فدلَّ على أنه سأل واحدًا، وإنما أنَّث ﴿طَيِّبَةً﴾ لتأنيث الذريَّة. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٢)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٣).

قال الله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٢- ٦].

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

أي: فاستجاب اللهُ دُعاءَه، وأرسل إليه جماعةً من الملائكة[١]، تُبشِّره بذلك، فنادتْه حالَ قيامِه مُصلِّيًا في مكان عبادتِه[٢].

﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾.

أي: إنَّ الله يبشِّرُك يا زكريَّا بمولودٍ مِن صُلبك اسمُه يحيى[٣].

(١) واختار ذلك ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٣٦٥)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٤/ ٧٤).
وممَّن قال من السلف بهذا القول: قتادة، والربيع بن أنس، وعكرمة، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٥).
ونَسَب ابنُ عطية إلى جمهور المفسرين القولَ بأنَّ المراد بالملائكة هاهنا: جبريلُ عليه السلام. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٨).
وممَّن قال بهذا القول: مقاتل، والسُّدِّي. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٧٨).
وذهَب ابنُ عاشور وابنُ عثيمين إلى أنَّه يجوز أن يكون الذي ناداه جماعةٌ من الملائكة. ويجوز أن يكون الذي ناداه مَلَكًا واحدًا وهو جبريلُ عليه السلام. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧).
قيل: إنَّ مُقتضى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾، والتفريع عليه بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ﴾: أنَّ المحرابَ محرابُ مريم، فالله أعلم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٩).

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: مُصدِّقًا بعيسى عليه السَّلام[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ...﴾ [النساء: ١٧١]، وقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾[٢] [آل عمران: ٤٥].

﴿وَسَيِّدًا﴾.

أي: يسُودُ قومَه، ويَفُوقهم بخِصالِه الجَميلةِ، وعِلمه ودِينه[٣].

﴿وَحَصُورًا﴾.

أي: ممتنِعًا من قُربِ النِّساء[٤]، وعن كلِّ ما تَشتهيه النفوسُ عادةً ممَّا أحلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٤).

وهذا القول هو قولُ أكثر المفسِّرين، يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٣).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة والحسن وقتادة والسُّدِّي والرَّقَاشي، وجابر بن زيد، والربيع بن أنس، والضحَّاك. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٢).

قال ابن أبي حاتم: (عن ابن عبَّاس يعني في قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾، قال: عيسى بن مريم صلَّى الله عليه وسلَّمَ كلمةٌ من الله، يعني تكوَّن بكلمةٍ من الله)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٢).

(٢) قيل لعيسى عليه السلام: (كلمة)؛ لأنَّ الله أَوْجَده بكلمةٍ هي قوله (كن) فكان. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٥).

(٤) قال ابنُ عطية: (أجمَع مَن يُعتدُّ بقوله من المفسِّرين على أنَّ هذه الصفة ليحيى عليه السلام إنَّما هي الامتناع من وطْء النساء، إلَّا ما حكَى مكي من قول من قال: إنَّه الحصور عن الذنوب، =

الله؛ لانقطاعِه لعبادةِ الله[١].

﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: نبيًّا كائنًا من جملة الصَّالحين، وهذه بِشارةٌ ثانيةٌ بنبوَّةِ يحيى عليه السَّلام، وهي أعْلى مِن البِشارةِ الأُولى بولادتِه[٢].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لمَّا سمِع زكريَّا عليه السَّلام البِشارةَ بوجود الولد، أخَذ يتعجَّبُ من كمال قدرةِ الله[٣].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾.

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، كيف يكون لي غلامٌ[٤]؟

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾.

أي: وقد كبِرْتُ، وبلغتُ سنًّا مَن بلغها لم يولد له[٥].

= أي: لا يأتيها)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٤).

أمَّا قول مَن قال: إنَّ الحصور فعول بمعنى مفعول، وأنَّه محصور عن النساء؛ لأنَّه عِنين لا يقدر على إتيانهن، فليس بصحيح؛ لأنَّ العُنَّة عيب ونقص في الرجال، وليست مِن فِعله حتى يُثنَى عليه بها؛ ولأنَّ (فعولًا) في اللغة من صِيغ الفاعلين. ويُنظر: ((تفسير القرطبي))، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨١).

﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

أي: وامرأتي لا تلِدُ[1].

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك الفعلِ، وهو إيجادُ الولدِ مِن الشَّيخ الكبير والمرأة العاقر، يفعل اللَّه ما يشاء مِن الأفعال العجيبة[2].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)﴾.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾.

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، اجعَلْ لي علامة تدلُّ على وجود الولَد منِّي[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٥).

وفي معنى هذا الاستفهامِ وجهان: أحدهما أنَّه سأل: هل يكون له الولدُ وهو وامرأتُه على حاليهما، أو يُردَّانِ إلى حال مَن يلد؟ والثاني سأل: هل يُرزق الولد من امرأته العاقِر، أو من غيرها؟ يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٩).

وقال السعديُّ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: (فهذانِ مانعان، فمن أيِّ طريق- يا رب- يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟!) ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٦٦).

وقال أيضًا في تفسير سورة مريم: (فحينئذٍ لَمَّا جاءتْه البشارةُ بهذا المولود الذي طلبه استغرب وتعجَّب، وقال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ والحالُ أنَّ المانعَ من وجودِ الولد، موجودٌ بي وبزوجتي؟ وكأنَّه وقتَ دُعائِه لم يستحضر هذا المانع لقوَّة الواردِ في قلبِه، وشِدَّة الحرصِ العظيمِ على الولد، وفي هذه الحالِ- حين قُبِلَتْ دعوتُه- تعجَّب من ذلك) ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٦).

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾.

أي: قال: العلامةُ الَّتي تدلُّك، أنَّك ينحبِسُ لسانُك، فلا تستطيع النُّطقَ أو مخاطَبةَ النَّاس إلَّا إشارةً[1]، مدَّةَ ثلاثة أيَّامٍ بلياليها، مع كونك سويًّا صحيحًا[2].

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾.

أي: وأكثِرْ من ذِكر ربِّك؛ فإنك لا تُمنَعُ ذِكرَه[3].

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

أي: وعظِّم ربَّك بعبادته، منزِّهًا له عمَّا لا يليق به آخرَ النَّهار وأوَّله[4].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُؤخذ من قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أنَّ الخَلْقَ كلَّهم- بما في ذلك الأنبياء- مفتقِرون إلى الله، لا يَستغنُون عن دُعائِه[5].

٢- في قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ...﴾ بيان أنَّ الحكمةَ ضالَّةُ المؤمن، وأهل النُّفوس الزَّكيَّة يَعتبرون بما يرَوْن ويسمَعون[6].

---

(١) وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، وابن إسحاق، ابن زيد، وعبد الله بن كثير، وسعيد بن جُبَير، وأبو عبد الرحمن السلمي والحسن، والضحَّاك، ومحمد بن كعب، وقتادة، والسُّدِّي، والربيع بن أنس، وزيد بن أسلم. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨٩)، و((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٨).

٣- على الإنسانِ ألَّا يسألَ مُطلَقَ الذُّرِّيَّة؛ لأنَّ الذُّرِّيَّة قد يكون منها نكَدٌ وفتنةٌ، بل عليه أنْ يسألَ اللهَ الذُّرِّيَّةَ الطَّيِّبة؛ فزكريَّا عليه السلامُ حين سأل ربَّه الوَلَدَ تحرَّزَ فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، وقال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم : ٦]، والوَلَدُ إذا كان بهذه الصِّفةِ نَفَعَ أبويه في الدُّنيا والآخرةِ، وخَرَجَ من حدِّ العداوةِ والفتنةِ إلى حَدِّ المَسَرَّةِ والنِّعمَةِ(١).

٤- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يفعلَ مِن الأسبابِ ما يجعل ذُرِّيَّته طيِّبةً، ومن ذلك الدُّعاء(٢).

٥- التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائِه المناسِبةِ للحاجةِ؛ وذلك مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(٣).

٦- على الإنسانِ أنْ يبحثَ عمَّا يَزيدُ به الإيمان؛ لأنَّه مطلوبٌ منه أنْ يقوِّيَ إيمانه بكلِّ وسيلة، وذلك من قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾(٤).

٧- يَنبغي للإنسان إذا انقطَعَ عن النَّاس أنْ يَشغَلَ وقتَه بذِكر الله عزَّ وجلَّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾(٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ إثباتٌ للقياس؛ لأنَّه لَمَّا رأى أنَّ الله يَرزُقَ هذه المرأةَ بدون سببٍ معلوم، علِم أنَّ الَّذي يسُوقُ لها الرِّزق- وهي امرأةٌ منقطعةٌ عن التَّكسُّب في محرابها- قادرٌ أنْ يرزُقَه(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٧).

٢- في قوله ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾: أُضيفتِ العِنديَّة إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ليكون أبلغَ وأعظمَ؛ لأنَّ هديَّةَ الكريم أكرمُ[١].

٣- يُؤخذُ من قوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ جوازُ تكليمِ المصلِّي، إلَّا أنَّ المكلَّمَ في صَلاتِه لا يُخاطِب الآخَرَ، وإنَّما يُجيبه إشارةً[٢].

٤- مشروعيَّةُ تبشيرِ الإنسانِ بما يَسُرُّه، ومن ذلك استحبابُ بشارةِ مَن وُلِد له ولدٌ وتَهنِئَتُه؛ وذلك لقول اللهِ تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا﴾[٣].

٥- قوله: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ عاقرٌ: خبَر لامرأتي، وإنَّما جاء بصِيغة المذكَّر، وحقُّه التأنيثُ؛ لأنَّ (عاقر) مشتقٌّ من العقر، وهو مَن لا يُولَد له؛ رجلًا كان أو امرأةً. وقيل: جاء ذلك على النَّسَب، أي: وامرأتي ذات عَقرٍ، وهي بمعنى مفعول، أي: معقورة؛ ولذلك لم تُلحَقْ تاءَ التَّأنيثِ[٤].

٦- بيانُ أنَّ الممكِناتِ داخلةٌ تحت قدرةِ الله تعالى، وإن عزَّ وقوعُها في العادة[٥].

٧- لا حرَجَ أنْ يطلُبَ الإنسانُ ما تطمئنُّ به نفْسُه؛ فزكريَّا عليه الصلاة والسَّلام لم يَشُكَّ في خبَرِ الله، لكن أراد أنْ يَتقدَّم إليه الفرحُ والاستبشار بقوَّة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص:٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤١، ٢٤٢).

البراهين، وكلَّما ازدادتُ البراهين ازدادت قوَّة اليقين[١] كما في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾.

٨- جوازُ وصفِ الإنسانِ بما يكرهُ إذا كان المرادُ مجرَّدَ البيان لا القدحِ والعيبِ، كما في قوله: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[٢].

٩- في قوله ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ بيانُ أنَّ الله كما يمنعُ نفوذَ الأسباب مع وجودِها، فإنَّه يُوجِدها بدون أسبابها؛ ليدلَّ ذلك أنَّ الأسبابَ كلَّها مندرجةٌ في قضائِه وقدَره[٣].

١٠- في قوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ دليلٌ على أنَّ الإشارةَ تقومُ مقامَ العبارة[٤].

١١- قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الآية فيها دليلٌ على جوازِ إطلاق السَّيِّدِ على مَن ساد من النَّاس، وقد جاء في الصَّحيحينِ وغيرهما من حديثِ أبي بكرةَ، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال في الحسَنِ بن علي رضِي اللهُ عنهما: ((إنَّ ابْنِي هذا سيِّدٌ...))[٥] الحديث[٦].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾، و﴿قَالَ رَبِّ﴾ فيه تكرارُ لاسمِ الربِّ الجليل[٧]، وهو مِن الإظهارِ في موضِع الإضمارِ، وفائدتُه: بيانُ شدَّة تعلُّق زكريا عليه السلام بالله تعالى، ولمناسبةِ ما في الربوبيَّةِ من معاني الإحسانِ المناسبة لمِثل حالتِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٣).

(٥) رواه البخاري (٢٧٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٢).

٢- **قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾** عبَّر بالفاء التي للتعقيب في ﴿فَنَادَتْهُ﴾؛ للدلالةِ على السُّرعة في استجابة دَعوتِه(١).

- وعبَّر بالجمع ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾، وإنْ كان المنادِي له واحدًا (جبريل)؛ تعظيمًا له، ولأنَّه عظيمٌ في الملائكة، فأسند النِّداء إلى الكلِّ مع كونِه صادرًا عنه خاصَّةً، وهو من بلاغةِ التعبير، وهذا على القولِ بأنَّ المرادَ بالملائكةِ جبريل(٢)؛ فيكون مِن قَبيلِ العامِّ المرادِ به الخُصوص.

٣- **قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾** في تَكرار اسمِ الله تعالى(٣)، وإظهاره في موضِع الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابة.

٤- **قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ...﴾** فيه إطنابٌ، وإعادةٌ للكلام؛ وذلك أنَّه ربَّما أعاد السؤالَ ليُعيد ذلك الجواب، فحينئذٍ يلتذُّ بسَماعِ تلك الإجابة مرةً أخرى(٤).

- قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾: استفهامٌ غرضُه الاستبعادُ من حيثُ العادة، أو الاستعظامُ، أو التعجُّبُ قُصِد منه تعرُّفُ إمكان الولد؛ لأنَّه لَمَّا سأل الولدَ فقد تهيَّأ لحصول ذلك، أو يكون استفهامًا حقيقيًّا عن كيفية حُدوثِه(٥).

- في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: عبَّر بهذا التعبير ﴿بَلَغَنِيَ الكِبَرُ﴾، ولم يقل: (قدْ كبِرت)؛ لإظهارِ تمكُّن الكِبرِ منه كأنَّه يَتطلَّبه، حتى بلغه(٦).

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٢).

- وقوله سبحانه: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: فيه تأكيدٌ لحالِ الاستبعاد، حيثُ ذكَر زكريَّا عليه السَّلام كِبَرَ نفْسِه، مع كونِ زوجتِه عاقرًا[1].

- وقدَّم زكريَّا عليه السَّلام في هذه السُّورةِ حالَ نفْسِه، وأخَّر حالَ امرأتِه، وفي سورة مريمَ عكَس فقال: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، فقدَّم هنا ذِكر ﴿الكِبَرَ﴾ على ذِكرِ المرأة، وعكَس في (مريم)؛ لأن الذَّكَر مقدَّمٌ على الأُنثى، فقدَّم كِبَره هنا، ومناسبة ذلك: أنَّ صدْر الآيات في مريم مطابقٌ لهذا التركيب؛ لأنَّه قدَّم وهَنَ عظْمه، واشتعالَ شَيْبه، وخِيفةَ مواليه مِن ورائِه، وقال: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، فلمَّا أعاد ذِكرَهما في استفهامٍ آخَر ذكَر الكِبَر؛ ليوافقَ ﴿عتيًّا﴾ رُؤوسَ الآي، وهو بابٌ مقصودٌ في الفصاحةِ يترجَّح إذا لم يُخِلَّ بالمعنى، والعطفُ هنا بالواو، فليسَ التقديمُ والتأخيرُ مُشعِرًا بتقدُّم زمانٍ، وإنَّما هذا من بابِ تقديمِ المناسِب في فَصاحة الكلام، فاستدعتْ مقاطعُ آياتِ سورة مريم وفواصلُها- ﴿... زَكَرِيَّا﴾ ﴿خَفِيًّا﴾ ﴿حَيًّا﴾ ﴿نَبِيًّا﴾- ما يَجري على حُكمها ويُناسبها؛ فاقتضتْ مناسبةُ آي هذه السورة وُرودَ قِصَّة زكريَّا عليه السَّلام على ما تقدَّم[2].

٥- **في قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾** عبَّر عن المولودِ والطِّفل بالغلام- والغلامُ هو الشابُّ الفتيُّ السِّنِّ من الناس، وهو الذي طرَّ شاربُه-؛ على سبيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((البُرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ٨٩)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٣٦- ١٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٥٩)، ((فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن)) لزكريا الأنصاري (١/ ٨٥).

التفاؤل بما يؤولُ إليه[١].

٦- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ أي: في أيَّام الحُبسة، وهو مؤكِّدٌ لِمَا قبله، مُبيِّن للغرضِ منه، وتقييدُ الأمرِ بالكثرةِ يدلُّ على أنَّه لا يُفيد التَّكْرار[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٠)، وفيهما أنه يُطلق (الغلام) أيضًا على الكهْل باعتبار ما كان عليه.

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٦).

الآيات (٤٢ - ٤٤)

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿اقْنُتِي﴾: دَاوِمِي على الطَّاعةِ، والقُنُوتُ: دوامُ الطَّاعة ولزُومُها مع الخُضوع، وأصل (قنت): يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين، ثم سُمِّي كلُّ استقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قنوتًا[١].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَقصُّ الله تبارَكَ وتعالَى على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما كان من شأنِ مريم عليها السَّلام؛ إذ نادتْها الملائكةُ فقالت لها: يا مريمُ، إنَّ الله اجتباكِ واختاركِ وطهَّركِ في الخُلق والدِّين، وفضَّلكِ على نِساء العالَمين، يا مريم، إنَّ هذا الاصطفاءَ والتَّطهيرَ نعمةٌ كبيرةٌ من الله تستحقُّ منكِ الشُّكر، فلتكنْ عبادتُكِ خالصةً لله وحده، وداوِمِي عليها، وصلِّي مع المصلِّين العابدين الخاشعين.

ثمَّ قال الله تبارَكَ وتعالَى لرسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ كلَّ ما تقدَّم ذِكرُه من أَنباءٍ وقَصصٍ هي أخبارٌ خَفيَّة غَيبيَّة، لم تكُن تعلمها أنتَ ولا قومُك، ونحن قَصَصْناها عليك؛ لتكونَ شاهدًا وبرهانًا على صِدْق ما جئتَ به، ولم تكن- يا محمَّدُ- حاضرًا حين اجتمع زكريَّا وقومه واقترَعوا في شأنِ مريم؛ لينظروا أيُّهم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٧) (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤-٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

يكفُلُها ويُضمُّها إليه، واختصَموا في أمرها، وإنَّما جاءَك خبرُ هذا بالوحي، وإلَّا لَمَا علمت به، ولا وصَلك نبؤُه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾.

أي: واذكُرْ إذ قالتِ الملائكة: يا مريمُ(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ اختارَكِ وطهَّركِ في خُلُقِكِ ودِينكِ(٢).

﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: اختارَكِ على نِساءِ العالَمين(٣) وفضَّلكِ عليهنَّ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٤).
والمراد بالملائكة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾: الجِنس؛ إذ ليس المرادُ كلَّ الملائكة، بل المراد إما جماعةٌ من الملائكةِ أو واحدٌ منهم، وهو في الغالبِ جبريلُ، وتقدَّم ذكرُ الخلافِ في ذلك.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٥).
وممَّن قال بهذا القول من السَّلف الصالح: مجاهد. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٧).

(٣) وهذا الاصطفاء إمَّا على عالَمي زمانها- وعزاه الواحديُّ للأكثر، واختاره ابن جرير- أو مطلقًا، ومشاركة أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لا يُنافي الاصطفاء المذكور، وقيل: إنْ جعلْنا ﴿الْعالَمِينَ﴾ عامًّا فيمَن تقدَّم وتأخَّر جعلنا الاصطفاء مخصوصًا في أمر عيسى عليه السلام، وأنَّها اصطُفِيت لتلدَ من غير فحلٍ، وإنْ جعلنا الاصطفاء عامًّا جعلنا قوله تعالى: ﴿الْعالَمِينَ﴾ مخصوصًا في عالم ذلك الزمان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان في هذا الاصطفاءِ والتَّطهير لمريمَ من النِّعمة العظيمة، والمِنحةِ الجَسيمةِ، ما يُوجِبُ لها القيامَ بشُكرها، قالت لها الملائكةُ[1]:

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾.

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾.

أي: قالت الملائكةُ أيضًا: يا مريمُ، أخلِصي الطَّاعة لربِّكِ وحده، وداومِي على عبادتِه[2].

﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

أي: وصَلِّي، وكوني مع الخاشعين العابدين المصلِّين[3].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

أي: هذه الأخبارُ الَّتي تَقدَّم ذِكرُها عن امرأةِ عِمْران وابنتِها مريم وزكريَّا وابنه

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٧)، ((أعلام الموقعين)) لابن القيِّم (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٧).

وممَّن قال بنحو ذلك من السلف: سعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة والسُّدِّي. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩٩، ٤٠٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٤٨)، ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٢/ ١٩٥).

قال أبو حيان: (لا خلافَ بينَ المفسِّرين أنَّ المناديَ لها بذلك الملائكةُ الذين تقدَّم ذكرُهم) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير الراغب)) (٢/ ٥٥٦)، ((التفسير القيم لابن القيِّم)) لمحمد أويس الندوي (ص: ٢١٦)، ((تفسر السعدي)) (ص: ٩٦٦).

يحيى عليهما السَّلام من أخبارِ القوم الخفيَّة، الَّتي غابتْ عنكَ وعن قومِك فلم تَطَّلعوا عليها، نقصُّها عليك ونخبرُك بها؛ دليلًا على نُبوَّتِك، وتحقيقًا لِصِدْقِك(١).

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

أي: وما كنتُ- يا محمَّدُ- عند زكريَّا وقومِه حين اقترَعوا في شأنِ مريمَ بإلقاء أقلامِهم(٢)؛ ليَنظروا أيُّهم يَكفُلُها، ويَضمُّها إليه(٣).

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

أي: وما كُنتَ عندَهم حالَ اختصامِهم أيُّهم أحقُّ بها، فلولا أنَّ الله أَوحى إليك ذلك لَمَا كان لك علمٌ به(٤).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- كلَّما مَنَّ اللهُ سبحانه وتعالى على إنسانٍ بشيءٍ مِن نِعَمه كان مُطالَبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).

(٢) ظاهر القرآن: أنَّ المرادَ بالأقلامِ الأقلامُ حقيقةً التي يُكتب بها، وقيل: هي التي كانوا يَكتُبون بها التوراةَ كانوا يَقترِعون بها في المشكلات. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٢).

قال ابنُ جرير: (في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤] دلالةٌ على محذوف من الكلام، وهو: لينظروا أيُّهم يكفُلُ، وليتبيَّنوا ذلك ويَعلموه).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٣).

الظاهر أنَّ الاختصام كان قَبل إلقاء الأقلام، لكن أُخِّر في الذكر؛ قيل: لمناسبة رؤوس الآيات ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، أو لأنَّ الله سبحانه وتعالى ذكر النتيجة قبل المقدمة وقبل السبب؛ لأنها هي الغاية، فإنَّ إلقاء الأقلام والسهام، هو غاية الاختصام. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٣).

بالعبادة أكثرَ؛ شُكرًا على ما أنعم اللهُ عليه به[١]؛ كما قال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي..﴾ بعدَ إخبارِها بالاصطفاءِ والتَّطهير.

٢- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ...﴾ أنَّ مَن اعتقد أنَّه مكرَّمٌ اجتهدَ في المحافظةِ على كرامتِه، وتَباعَد أشدَّ التَّباعُدِ عن كلِّ ما ينقص منها[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في أمر الله نبيَّه أنْ يَذكرَ قصَّة مريم لهذه الأمَّة تعظيمٌ لشأنها[٣].

٢- في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ﴾، ذَكَرَ اللهُ الاصطفاء مرَّتين؛ فالأوَّل يَرجِع إلى الصِّفات الحميدة، والأفعال السَّديدة؛ فهو اصطفاء ذاتيٌّ، وهو جَعلُها منزَّهةً زكيَّة، والثَّاني: يرجع إلى تفضيلها على سائر نساءِ العالَمين، سواءٌ على عالَمِي زمانها، أو مطلقًا، وإن شارَكها أفرادٌ من النِّساء في ذلك؛ فلذلك لم يُعَدِّ الأوَّلَ إلى متعلِّق، وعدَّى الثَّاني[٤].

٣- الإشارةُ إلى الطُّهر في قوله: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ إشارةٌ ذات مغزًى؛ وذلك لِما لابَس مولدَ عيسى عليه السَّلام من شُبهاتٍ لم يَتورَّعِ اليهودُ أنْ يُلصقوها بمريم الطَّاهرة[٥].

٤- الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿لِرَبِّكِ﴾ ربوبيَّة خاصَّة، تختصُّ بمن خصَّها اللهُ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠). وقيل: كرَّر الاصطفاء؛ لأنَّ معنى الأول الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني لولادة عيسى. ينظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٨٢).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٩٥)، و((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٩).

وتُفيد تربيةً واعتناءً واختصاصًا أكثرَ من الرُّبوبيَّة العامَّة(١).

٥- في النَّصِّ على السُّجودِ والرُّكوع رغمَ دُخولِهما تحت القنوت: بيانٌ لفضيلتِهما، ولدلالتهما على غاية الخضوعِ لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣](٢).

٦- قدَّم السُّجود على الرُّكوع في قوله: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾؛ لعدة أوجه:

- منها: أنَّه أبلغُ في القنوت(٣).

- ومنها: أنه لَمَّا قدَّم الإخلاص الَّذي هو روحُ العبادة في قوله: ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾، أتبعَه السُّجود الَّذي هو أشرفُها(٤).

- ومنها: أنَّ المقامَ هنا مقامُ شُكر، والسُّجود أدخلُ في الشُّكر، ولأنَّ السُّجود مختصٌّ بنوعٍ من الرُّتبة والفضيلة، وهي كونُ العبد فيه أقرَبَ ما يكون من ربِّه، فقدَّمَه لِفَضْلِه(٥).

٧- في قوله: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ولم يقل: مع الرَّاكعات؛ قيل إشارةً إلى أنَّ الكمالَ في الرِّجال، وكثرة العمل في الرِّجال أظهرُ منها في النِّساء، وأنَّ العُبَّاد من الرِّجالِ أكثرُ من العُبَّاد من النِّساء، أو لأنَّ قوله: ﴿الرَّاكِعِينَ﴾ أعمُّ إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢١٨) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤)، وينظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦١).

٨- في قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ إيماءٌ إلى خلوِّ كتبِهم عن بعض ذلك، وإلَّا لقال: وما كنتَ تتْلو كُتُبَهم[1].

٩- مِن طُرُق الأَحكام: الحُكمُ بالقُرعةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾؛ فنبيُّ اللهِ زكريَّا استعْمَل القُرعةَ، وقدِ احتجَّ الأئمَّةُ الأربعةُ بشَرْعِ مَن قَبْلَنا إنْ صحَّ ذلك عنهم[2].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ فيه تَكريرُ التَّذكيرِ في قولِه: ﴿وَإِذْ﴾[3]؛ للإشعارِ بمزيدِ الاعتناءِ بما يُحكَى مِن أحكامِ الاصطفاءِ، والتَّنبيهِ على استقلالِها وانفرادِها عن الأحكامِ السَّابقة؛ فإنَّها من أحكامِ التربيةِ الجُسمانيَّة اللائقةِ بحال صِغَر مريمَ، وهذا من بابِ التربيةِ الرُّوحانيَّة بالتكاليف الشرعيةِ المتعلِّقة بحال كِبَرها[4].

- وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكَ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾: فيه تأكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ)، وكَرَّر الاصطفاءَ رفعًا من شَأنِها، أو كرَّره للتَّوكيدِ، أو ليُبيِّن مَنِ اصْطفَاها عليهنَّ، أو كرَّر الاصطفاءَ؛ لأنَّ كِلَا الاصطفائَينِ يَختلِفُ معناهما[5]، أو كرَّرَ مناقِبَ مَريمَ عليها السَّلام في قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكَ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأنَّ أوْصافَ الكمالِ كلَّما كُرِّرتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((الطرق الحكمية)) لابن القيم (ص:٢٤٥).

(٣) لأنَّ ﴿إِذْ﴾ منصوبٌ بِفِعلٍ مَحذوفٍ معطوفٍ على الفِعلِ المحذوفِ السَّابقِ عطفَ القِصَّةِ على القِصَّة، أو معطوفٌ على الظَّرْف السَّابق ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾، أي: واذْكُر أيضًا من شواهِدِ اصطفائِهم وقتَ قَولِ الملائكةِ عليهم الصَّلاة والسَّلام: ﴿يَا مَرْيَمُ...﴾. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤- ٣٥).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٩-١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤).

ظهَر مِن كَمالِ المَوصوفِ ما لم يكُن مَعلومًا من قَبلُ[١].

٢- قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدِي﴾ فيه تكريرُ النِّداءِ؛ للإيذانِ بأنَّ المقصودَ بكلِّ نداءٍ هو ما يرِدُ بعدَه؛ فالنِّداءُ الأوَّل تذكيرٌ بالنِّعمة، وكان ذِكرُه بمنزلةِ التَّمهيدِ للنِّداء الثاني، الذي هو للتَّكليفِ؛ ترغيبًا في العَملِ بموجبِه[٢]. أو أعادَ النِّداء في قولِ الملائكةِ: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي..﴾؛ لقَصدِ الإعجابِ بحالها؛ لأنَّ النِّداءَ الأوَّل كفَى في تحصيلِ المقصودِ من إقبالها لسَماعِ كلامِ الملائكة، فكان النِّداءُ الثَّاني لمجرَّد التَّنبيهِ الَّذي يُنتقل منه إلى لازِمه، وهو التَّنويهُ بهذه الحالةِ، والإعجاب بها[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ نَفَى فيه مُشاهدتَه صلَّى الله عليه وسلَّم لذلِك بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾، وانتفاءُ هذِه المشاهدةِ معلومٌ بغير شُبهة، وترَك نفْيَ استماعِ الأنباء من حُفَّاظِها، وهو موهوم؛ وفائدته: أنَّه كان معلومًا عند المنكِرين للوحيِ علمًا يقينيًّا أنه ليس من أهل السَّماع والقِراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يَبقَ إلَّا المشاهدةُ، وهي في غايةُ الاستبعادِ والاستحالةِ، فنُفِيتْ على سبيلِ التَّهكُّمِ بالمنكرينَ للوحي مع عِلْمِهم بأنَّه لا سماعَ له ولا قِراءة؛ فأفادَ التقريرَ والتحقيقَ لكونِ تلكَ الأنباءِ وحيًا من اللهِ تَعالَى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٨).

الآيات (٤٥ - ٥١)

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿يَمْسَسْنِي﴾: المسُّ: الجماع[1].

﴿وَجِيهًا﴾: صاحبُ جاهٍ ومنزلةٍ[2].

﴿الْمَهْدِ﴾: مَضْجَعُ الصَّبيِّ فِي رَضَاعِهِ، وهو ما يُهيَّأ للصَّبي، وأصلُه: التَّوطئةُ للشَّيء وتسهيلُه[3].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠).

﴿كَهْلًا﴾: الكهل: الَّذي انتَهى شبابُه، ومَن وَخَطَه- أي: خالَطَه- الشَّيبُ[(١)].

﴿الْأَكْمَهَ﴾: الَّذي يُولد أعْمَى، أو هو الَّذي يُولَد مطموسَ العينِ، أو الأعمى مطلَقًا[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِر الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمجيء الملائكةِ إلى مريم تَحمِل لها البُشرى بغلامٍ يوجِده الله بكلمةٍ منه، اسمُه المسيحُ عيسى ابنُ مريم، نسبةً إلى أمِّه؛ لأنَّه لا أبَ له، والَّذي سيكون من صِفاته أنَّه ذو وجاهةٍ عالية، ومنزلةٍ رفيعة عند الله في الدُّنيا والآخِرة، ومن المقرَّبين إليه، وأنَّ مِن معجزاته تَكليمَ النَّاس في حال طُفولتِه؛ تَبرئةً لأمِّه، ودَعوةً إلى عِبادةِ الله وحْده لا شريكَ له، ويُكلِّمهم في حال كُهولتِه تَكليمَ المرسلين بما يوحيه اللهُ إليه، وأنَّه من الصَّالحين.

ثمَّ يذكُرُ اللهُ تعالى جوابَ مريم: يا ربِّ، كيف يكون منِّي ولد وأنا لم يمسَسْني بشر؟! فأَخبَرها سبحانه أنَّ هذا الفِعلَ المستغرَب والخارِقَ للعادة هو مِن فِعل مَن بيده الأمرُ؛ فهو يَخلُق ما يشاءُ، كيفما يُريد، وإذا أراد شيئًا، فإنَّما يقولُ له: كن، فيكون الأمرُ كما أراد سبحانه.

ثمَّ يَذكرُ اللهُ تعالى ما امتنَّ به على عبدِه ورسولِه عيسى عليه السَّلام مِن المِنَن العظيمة؛ مِن تعليمِ الكتابِ والحِكمة، والتَّوراة والإنجيل، وأنَّه سيُرسله إلى بني إسرائيل ليقول لهم: إنِّي قد جِئتُكم بآيةٍ من ربِّكم، وهي أنِّي أُصوِّرُ من

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

الطِّين على شكل الطَّير، ثمَّ أنفخُ فيه، فيكون طيرًا تدِبُّ فيه الرُّوح، بإذن الله سبحانه وتعالى، وأنِّي أَشفي مَن وُلِد أعمى، وَمن به برَصٌ، وأُحيي الموتى بإذن الله، وأُخبركم بما تأكلون من طعام وما تدَّخرونه في بيوتكم، دون أنْ أراها أو يُطلِعني عليها أحدٌ، وفي هذا كلِّه آيةٌ لكم تدلُّكم على صِدق ما جئتُكم به، إنْ كنتم مؤمنين، وأنِّي قد أتيتُكم مقرِّرًا ومثبِّتًا لِمَا أُنزل قبلي من التَّوراة، ولأُحِلَّ لكم بعضَ الَّذي حُرِّم عليكم، وجئتُكم بآيةٍ تدلُّ على صِدق ما أقولُه لكم؛ فاتَّقوا اللهَ وأطيعوني فيما دعوتُكم إليه، إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم؛ لذا توجَّهوا إليه بالعبادةِ وحْدَه؛ فهذا هو الطَّريقُ المستقيم الَّذي يُوصلكم إلى الله ورِضوانِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾.

أي: واذكُرْ[(١)] إذ قالتِ الملائكةُ: يا مريمُ، إنَّ الله يُبشِّرُك بولد[(٢)] يكونُ وجودُه بكلمةٍ صادرةٍ من الله، وهي قوله: (كُنْ) فيكون[(٣)].

---

(١) ينظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٤).
وقال ابنُ جرير: (يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، وما كنتَ لديهم أيضًا ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٦) وردَّه ابن عطية.

(٢) اختار ابن جرير: أنَّ قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾. يعني: برسالة من الله، وخبر من عنده، وهو من قول القائل: ألقى فلان إليَّ كلمة سرَّني بها، بمعنى: أخبرني خبرًا فرحت به، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، يعني: بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها. وما اختاره خلافُ رأي الجمهور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٤).
=

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

أي: يَشتهِرُ بأنَّ اسمَه المسيحُ[١] عيسى ابنُ مريم، نِسبةً لأمِّه؛ لأنَّه لا أبَ له، فنفَى الله بذلك عنه ما أضافَ إليه النَّصارى، مِن إضافتِهم بنوَّتَه إليه عزَّ وجلَّ[٢].

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أي: حالَ كونه ذا وجاهةٍ ومنزلةٍ عالية ومكانةٍ عند الله: في الدُّنيا؛ لكونِه أحدَ المرسَلين مِن أُولي العزم الَّذين نَشَر الله ذِكرَهم، وفي الآخرة؛ لِمَا له من الشَّفاعة عند الله، والدَّرجات العُليا في الجنة[٣].

﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

أي: من المقرَّبين إلى الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا والآخِرة[٤].

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

أي: ويُكلِّمُ النَّاس طفلًا في الفِراش؛ آيةً من الله، وتبرئةً لأمِّه، ويكلِّمهم أيضًا

= وممَّن قال بهذا القول قتادة. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٧)

(١) سُمِّي عيسى عليه السَّلام بالمسيح؛ قال بعضُ السَّلف: لكثرةِ سِياحته. وقيل: لأنَّه كان إذا مَسَحَ أحدًا مِن ذوي العاهاتِ بَرَأ بإذن الله تعالى، وقيل: غير ذلك، حتى بلغَ بها بعضُهم خمسين قولًا. ينظر ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٩).

بالغًا كبيرًا حال كهولتِه، تكليمَ المرسَلين، بعد أنْ يوحيَ اللهُ إليه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٢٩-٣٣].

﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: وهو مِنَ الصَّالحين في قولِه وعمَلِه[2].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾.

أي: قالت مريمُ: يا ربِّ، كيف يوجَدُ هذا الولد منِّي، ولم يُجامِعْني بَشرٌ لا بنِكاحٍ ولا بزنًا[3]؟!

﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

أي: قال: مِثْلَ ذلك الخَلْقِ- وهو إيجادُ الولد بدون مسيسٍ- يَخلُقُ الله ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٦٩).

وممَّن قال بنحو هذا القول: محمَّد بن جعفر بن الزُّبير، وقتادة، والربيع، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٧).

يشاء، ويصنَعُ ما يُريد، فلا يُعجِزه شيءٌ[1].

﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أي: إذا أراد إيجادَ شيء، فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيوجَدُ كما شاء عَقِيبَ الأمر، فلا يتأخَّرُ شيئًا[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨)﴾.

أي: ويُعلِّمُ الله عزَّ وجلَّ عيسى عليه السَّلام الكتابةَ[3]، ويُعلِّمُه السُّنَّة الَّتي يُوحيها إليه في غير كِتابٍ من الشَّرائع ونحوها، ويُعلِّمه التَّوراةَ الَّتي أنزلها على موسى عليه السَّلام، والإنجيل الَّذي يُنزِّله عليه[4].

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).
وذهَب السعديُّ إلى أنَّه يحتمل أن يكون المرادُ بالكتاب هنا: جِنس الكتب، ويحتمل أن يكون معناه الكتابةَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).
وذهَب ابنُ عثيمين إلى حمْل الآية على كلا المعنيين. فعلَّمه الكتابةَ فكتَب، وعلَّمه الكتب السابقة. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٨)، ((هداية الحيارى)) لابن القيِّم (١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٧٧).

الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)﴾.

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

أي: ويَجعلُه رسولًا يُرسلُه إلى بَنِي إسرائيلَ[١].

قائلًا لهم:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي[٢]: أنِّي[٣] قد جئتُكم بعلامةٍ من ربِّكم، تحقِّقُ قولي، وتصدِّقُ خبَري في كوني مُرسَلًا مِن الله إليكم[٤].

ثم بَيَّن هذه الآيةَ الَّتي جاءَ بها قائلًا:

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٣).

(٢) من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ...﴾ إلى قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خِطاب لمريم، ومن قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ يحتمل أنْ يكونَ خِطابًا لمريم على معنى: يكون من قولِه لبني إسرائيل، كيت وكيت، ويكون في آخِرِ الكلامِ متروكٌ يدلُّ عليه الظاهر، تقديرُه: فجاء عيسى بني إسرائيل رسولًا، فقال لهم ما تقدَّم ذِكرُه ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ...﴾، ويحتمل أن يكون المتروك مقدرًا في صدْر الكلام بعد قوله: ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فيكون تقديره، فجاء عيسى كما بشَّر الله رسولًا إلى بني إسرائيل بأنِّي قد جئتُكم، ويكون قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ...﴾ ليس بخِطاب لمريمَ، والأوَّل أظهرُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٨).

(٣) فتْح الهمزة في قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ لتقديرِ باء الجرِّ، بعد قوله: ﴿وَرَسُولًا﴾، أي: رسولًا بهذا المقال؛ لِمَا تضمَّنه وصفُ ﴿رَسُولًا﴾ من كونِه مبعوثًا بكلام. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٨).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

أ- في قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ قراءتان:

١- (إنِّي) بالكَسرِ، وذلك على إضمارِ القولِ، أي: فقلت: إنِّي أَخلُق. أو أنَّه على الاستئناف. أو على التفسير، فَسَّر بهذه الجملةِ قولَه: ﴿بِآيَةٍ﴾ كأنَّ قائِلًا قال: وما الآيةُ؟ فقال هذا الكلامَ(١).

٢- ﴿أَنِّي﴾ بالفتحِ على أنَّهَا بدلٌ من قَوْله ﴿بِآيَةٍ﴾ فالمعنى: بأَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ. وقيل: إنها بدل من قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾. وقيل: إنها خَبرُ مبتدإٍ مُضمَرٍ، تقديرُه: هي أنِّي أَخلُق. وقيل غير ذلك(٢).

ب- وفي قوله تعالى: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ثلاثُ قراءات:

١- (... كَهَيْئَةِ الطَّائرِ... فَيَكُونُ طَائرًا)، أي: إنَّه كان يَخلُق واحدًا ثمَّ واحدًا(٣).

٢- (... كَهَيْئَةِ الطَّيرِ... فَيَكُونُ طَائرًا) أي: تُقدِّر هيئةً كهيئةِ الطَّير، فتكونُ الهيئةُ طائرًا، أي: كلُّ هَيئةٍ تُقدِّرها تكونُ واحدًا مِن الطَّير(٤).

---

(١) قَرَأَ بها المدَنيَّانِ نافع وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩١).

(٢) قَرَأَ بها البَاقُونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩١).

(٣) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤).

(٤) قرأ بها نافع ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٠٢).

٣- ﴿... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَيَكُونُ طَيْرًا﴾، أي: إنَّ الله تعالى أذِن له أن يَخلُقَ طيرًا كثيرةً، ولم يكُن يَخلُقُ واحدًا فقط[1].

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: أُصوِّرُ لكم من الطِّين شيئًا مقدَّرًا على شكلِ الطَّير، فأنفُخُ فيه فيكون طيرًا له رُوح، يَطيرُ بعِلم الله وتمكينِه لي[2].

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: وأَشفي مَن يُولد أعْمَى[3]، ومَن به داءُ البرصِ الَّذي يُصيب الجِلدَ، وأُحيي الموتى بإذنِ الله[4].

﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

أي: وأُخبِرُكم بما تأكلونَه، وما تدَّخِرونه في بُيوتِكم فلا تأكلونه، دون أنْ أُعاينَ ذلك، أو يَأتِيَني أحدٌ بخبَرِه[5].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٨٧).

ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

(٣) وممَّن قال بهذا القول: ابن عبَّاس، والحسن، والضحَّاك، والسُّدِّي، وقتادة. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٢).

قال ابنُ جرير: (فإنْ قال قائلٌ: وما كان في قوله لهم: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] مِن الحُجَّة له على صِدقِه، وقد رأينا المتنجِّمةَ والمتكهِّنةَ تُخبر بذلك كثيرًا فتصيب؟

=

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ في إبراءِ الأَكْمَهِ والأبرصِ، وإحياءِ الموتى، وغيرِ ذلك ممَّا سبق ذِكره، لآيةً تدلُّ على صِدقي، وتَهديكم، وتَنفعُكم، إنْ كنتم مؤمنين، وإلَّا فليستْ هاديةً ولا نافعةً لكم[1].

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

أي: وجئتُكم مُقررًا ومخبرًا بصِدْق ما قبلي من التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى عليه السَّلام[2].

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: وجئتُكم أيضًا لأحلَّ لكم بعضَ الَّذي حُرِّم عليكم[3].

﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وجئتُكم بحجَّةٍ ودلالةٍ على صِدقي فيما أقولُ لكم[4].

= قيل: إنَّ المتنجِّم والمتكهِّن معلومٌ منهما عند مَن يُخبره بذلك أنهما يُنبئان به عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدِّية إلى عِلمه، ولم يكُن ذلك كذلك مِن عيسى صلواتُ الله عليه ومِن سائرِ أنبياء الله ورسله، وإنَّما كان عيسى يُخبر به عن غيرِ استخراجٍ ولا طلبٍ لمعرفته باحتيالٍ، ولكن ابتداءً بإعلام الله إيَّاه من غير أصلٍ تَقدَّم ذلك؛ احتذاه أو بَنَى عليه أو فزِع إليه، كما يَفزع المتنجِّمُ إلى حِسابِه، والمتكهِّن إلى رِئيه، فذلك هو الفصلُ بين عِلم الأنبياء بالغيوبِ وإخبارهم عنها، وبين عِلم سائرِ المتكذِّبة على اللهِ، أو المدَّعية عِلمَ ذلك)) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

أي: فاتَّقوا الله بفِعلِ ما أمَر به، واجتنابِ ما نهى عنه، وأطِيعوني فيما دعوتُكم إليه[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَهم بتقوى الله ذَكَر ما هو كالسَّببِ في ذلك[2]، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

أي: إنَّ الله ربِّي وربُّكم، وخالقُنا، ومالكُنا ورازقُنا؛ لذا فاعبُدوه وحده؛ فاستدلَّ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة على توحيدِ الألوهيَّة؛ لأنَّه يستلزمُه[3].

كما قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

أي: ما سبَق ذِكرُه- من تقوى الله، وطاعة رسولِه، وتحقيق- العبادة له- طريقٌ مستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه، مُوصلٌ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه[4].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أنَّ علامةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٨).

الصَّادق أنْ يكونَ خبرُه من جِنسِ خبر الصَّادقين، يُخبِر بالصِّدق، ويأمُرُ بالعدلِ، من غير تخالُفٍ ولا تناقُضٍ[(١)].

٢- في قوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بيانُ أنَّه لا رتبةَ أعظمُ من كون المرء صالحًا؛ لكونه في جميعِ الأفعال والتُّروك مواظِبًا على النَّهج الأصلح، والطَّريق الأكمل، ومعلوم أنَّ ذلك يتناولُ جميع المقاماتِ في الدُّنيا والدِّين، في أفعال القلوب، وفي أفعال الجوارح[(٢)].

٣- الإيمانُ يَحمِلُ صاحبَه على قَبول الآياتِ الَّتي جاءت بها الرُّسلُ[(٣)]؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٤- في قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ دليلٌ على أنَّ مِن لوازم تقوى الله: طاعةَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٤)].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن حِكمةِ اللهِ أنْ تَدرَّج بأخبارِ العبادِ من الغريبِ إلى ما هو أغربُ منه؛ فذكَر وجودَ يَحيى بن زكريَّا بين أبوين أحدُهما كبيرٌ، والآخَر عاقرٌ، ثمَّ ذكَر أغربَ من ذلك وأعجبَ، وهو وجودُ عيسى عليه السَّلام من أمٍّ بلا أبٍ[(٥)].

٢- (مِن) في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ ليستْ للتَّبعيض، بل لابتداءِ الغاية؛ وذلك لعدمِ وجودِ واسطةِ الأبِ في حقِّ عيسى عليه السَّلام، فصارَ تأثيرُ كلمة الله تعالى في تكوينِه وتخليقِه أكملَ وأظهرَ، فكان كونُه كلمةَ الله مبدأً لظهوره ولحدوثه أكملَ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٥- ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٦).

٣- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ (كِلمة) نكرةٌ في سياقِ الإثباتِ، وهي مُطْلَقَةٌ ليس فيها عمومٌ على سبيلِ الجمعِ، وذلك يقتضي أنَّه كلمةٌ مِن كلماتِ اللهِ، ليس هو كلامَه كلَّه كما يقولُ النَّصارى؛ فالمسيحُ ليس هو مجموعَ الكَلِماتِ، بل خُلِقَ بكلمةٍ منها[1].

٤- بيَّنَ اللهُ تعالى مُرادَه بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ وأنَّه قال لعيسى عليه السَّلامُ: (كُنْ فيكون) في ثلاثِ آياتٍ؛ في قوله: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] وقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2] [مريم: ٣٤، ٣٥].

٥- في قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عبَّر عن العَلَم واللَّقب والوَصف بالاسم؛ لأنَّ لثلاثتِها أثرًا في تمييزِ المسمَّى[3].

٦- قدَّم اللَّقبَ في قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ على الاسمِ؛ لأنَّ المسيحَ لقَبٌ يُفيدُ كونَه شريفًا رفيعَ الدَّرجة؛ كالصِّدِّيقِ والفاروق؛ فذكَره الله أولًا؛ ليُفيدَ علوَّ درجتِه، ثمَّ ذكَره باسمه الخاصِّ[4].

٧- الضَّميرَ في قوله: ﴿اسْمُهُ﴾ عائدٌ إلى الكلمةِ، وهي مُؤنَّثة، ومع ذلك فقد ذكَّر الضَّمير؛ لأنَّ المسمَّى بها مُذكَّر[5].

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٣/ ٢٤٦، ٣٠٢) (٤/ ٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٤/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٨- جاء قوله: ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ مع كون الخِطاب لها؛ قيل: إعلامًا لها بأنَّه يُنسَب إليها؛ لأنَّه مُحدَثٌ بغير الأب، فكان ذلك سببًا لزيادة فضلِه، وعلوِّ درجتِه ودرجتها، وتشريفِها، وتبرئتِها ممَّا رماها به اليهود(١).

٩- خَصَّ تكليمَه بحالَي المهدِ والكهولة، مع أنَّه يتكلَّمُ فيما بين ذلك؛ لأنَّ لهما مزيدَ اختصاصٍ بتشريف الله إيَّاه، فأمَّا تكليمُه النَّاس في المهد، فلأنَّه خارقُ عادةٍ؛ إرهاصًا لنبوءتِه، وأمَّا تكليمُهم كهلًا، فمرادٌ به دعوتُه النَّاسَ إلى الشَّريعةِ(٢).

١٠- في قوله: ﴿كَهْلًا﴾ ردٌّ على النَّصارى الَّذين يدَّعون أنَّ عيسى إلهٌ؛ إذ لو كان إلهًا لَمَا كان متقلِّبًا في الأحوال من الصِّبا إلى الكهولة، فالتَّغيُّر على الإله تعالى محالٌ(٣).

١١- عبَّر عن تكوينِ الله لعيسى بفعل ﴿يَخْلُقُ﴾؛ لأنَّه إيجاد كائن من غير الأسبابِ المعتادةِ لإيجاد مِثله، فكان للفعل ﴿يَخْلُقُ﴾ هنا موقعٌ متعيِّن؛ فهو يدلُّ على الإبداع(٤).

١٢- تضمَّن قوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ في قوله: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ الرَّدَّ على شُبَه النَّصارى الَّذين يقولون: إنَّ عيسى هو الله، وإنَّه ثالثُ ثلاثةٍ؛ لأنَّ في قوله ﴿يَخْلُقُ﴾ التَّصريحَ بأنَّه مخلوق، فكان هذا قطعًا لدابر قولهم فيه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢١٥، ٣٧٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٤٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨١)، وينظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤).

١٣- المرادُ بالآية في قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ الجنس لا الفرد؛ لأنَّه تعالى عدَّد هاهنا أنواعًا من الآيات، وهي: إحياءُ الموتى، وإبراءُ الأَكْمَهِ والأبرص، والإخبارُ عن المغيَّبات[١].

١٤- أنَّ ما فُعِل بأمْر الله، فهو حلالٌ مُباحٌ، وإنْ كان نظيرُه بدون أمرٍ حرامًا؛ كما في قوله: ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ ثمَّ قال: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢].

١٥- الإذن في قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إذنٌ كونيٌّ وشرعيٌّ؛ لأنَّ كونه يُصوِّر مضاهيًا لخَلْق الله يحتاج إلى إذنٍ شرعيٍّ؛ لحرمة التَّصويرِ، وكذلك يحتاج إلى إذنٍ كونيٍّ؛ لأنَّ خَلْق هذا الطيرِ حتَّى يطير يكونُ بإذن اللهِ الكونيِّ، فيطير بإذن الله إذنًا كونيًّا[٣].

١٦- في ذِكر هذه المعجزات تعريضٌ بالنَّصارى، الَّذين جعَلوا منها دليلًا على ألوهيَّة عيسى؛ لعدمِ دُخولِها تحت مقدرةِ البشر، وهذا دليلٌ سُفسطائي، أشار اللهُ إلى كشفِه بقوله: ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ مرَّتين[٤].

١٧- جوازُ النَّسخ في الشَّرائع؛ لقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[٥]، ففيه دلالةٌ على أنَّ عيسى عليه السَّلام نسَخَ بعضَ شريعة التَّوراة، وأنَّ أكثرَ أحكام التَّوراة لم يَنسَخْها الإنجيلُ[٦].

١٨- بيانُ أنَّ طبيعةَ الدِّين تتضمَّنُ تنظيمًا لحياة النَّاس بالتَّشريع دون اقتصارٍ على الجانب التَّهذيبيِّ الأخلاقيِّ وحْدَه، ولا على المشاعرِ الوجدانيَّة وحدها،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣١).

ولا على العباداتِ والشَّعائر وحْدَها كذلك؛ لذا قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾(١).

١٩- في التَّعقيبِ بقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ..﴾ بعد قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تنبيهٌ على أنَّ النَّسخَ لا ينافي التَّصديقَ؛ لأنَّ النَّسخ إعلامٌ بتغيُّر الحُكم(٢).

٢٠- في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ جوازُ نِسبة الحُكم إلى مَن بلَّغه وأبانه وأظهره؛ إذ إنَّ الأصلَ في التَّحليل والتَّحريم أنَّه من عندِ الله عزَّ وجلَّ(٣).

٢١- نُصَّ على الطَّاعة في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ مع أنَّها من التَّقوى؛ وذلك لأنَّ المرادَ هو تقوى خاصَّةٌ فيما جاء به عيسى عليه السلام، كما أنَّ التَّقوى سبيلٌ إلى الاستجابةِ والطَّاعةِ والقَبولِ والانقياد(٤).

٢٢- يُؤخذُ من قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أنَّ الطَّاعة أمرٌ مشترَك بين الرُّسل وبين اللهِ عزَّ وجلَّ، وأمَّا التَّقوى فهي خاصَّةٌ بالله(٥).

٢٣- التَّقوى واجبةٌ في كلِّ شريعة، ولكن المتقَى به قد يختلف باختلاف الشَّرائع(٦).

٢٤- قوله تعالى: ﴿إن الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فيه ردٌّ على النَّصارى الَّذين يؤلِّهون عيسى عليه السَّلام(٧).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٤).

٢٥- قوله تعالى: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بدأ بنفسِه؛ ليكون أوَّلَ مُذعِنٍ ومنقادٍ لهذا الرَّبِّ عزَّ وجلَّ[1].

٢٦- مَن أقرَّ بربوبيَّةِ الله، لزِمَه أنْ يُقِرَّ بعبوديَّته؛ ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، فأتى بالفاء الدَّالَّة على السَّببيَّة، أي: فبسببِ اختصاصِه بالرُّبوبيَّة يجبُ أنْ تخصُّوه بالعبادةِ[2].

٢٧- في قوله تعالى: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ لَمَّا كان قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ قد لا يُلازم الوجاهةَ بعد الموت، قال: ﴿وَالْآخِرَةِ﴾، ولَمَّا كانتِ الوجاهةُ ثَمَّ مختلفةً، ذكَر أعلاها عاطفًا بالواو، إشارةً إلى تمكُّنِه في الصِّفات فقال: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: عند الله[3].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا﴾ فيه تعظيمٌ لقدْر عيسى عليه السَّلام، وبيانٌ لفَضلِه على يَحيى عليهما السَّلام؛ إذ لَمَّا وصفَه بهذا الوصفِ الشريف ﴿الْمَسِيحُ﴾ ذكَر اسْمَه فقال: ﴿عِيسَى﴾، وفي تَفخيمِ هذا الذِّكر بجَعْلِه نفْسَ الكَلمة وبإبهامِه أولًا ثمَّ تفسيرِه، والتعبيرِ بصِيغة المبالغةِ ﴿وَجِيهًا﴾ للمبالغةِ في وجاهته؛ إذ أصلُ معناه: الوجهُ، وهو الملاحَظُ المحترَمُ بعلوٍّ ظاهر فيه، ثم قال: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، أي: عند الله- وفي كلِّ ذلك تعظيمٌ لقدْر عيسى عليه السَّلام وبيانٌ لفَضلِه، ولم يَجعلْ ليحيى عليه السلام في البشارةِ به مِثلَ هذا الذِّكر[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠١)، ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٣٩٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٩٧-٣٩٨).

٢- قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ فيه إيثارُ التعبير بصيغة المضارع؛ لدلالته على التجدُّد وقتًا فوقتًا. وفيه تطمينٌ لخاطرها بما يخالف العادة، حيث بَشَّر اللهُ مريمَ بأنَّ هذا يَتكلَّم طِفلًا، ويَعيش ويتكلَّم في حال كُهولته. أو بمعنى يُكلِّم الناس كلامَ الأنبياء من غير تفاوتٍ بين الحالتين: حالة الطفولة وحالة الكُهولة؛ فيكون غايةً في الإعجاز[1].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾:

- النِّداءُ للتحسُّر (رَبِّ) وليس للخِطاب؛ لأنَّ الذي كَلَّمها هو الـمَلَكُ، وهي قد توجَّهتْ إلى الله[2].

- والاستفهامُ للإنكارِ والتعجُّب، أو للاستبعادِ العادي، أو استفهامٌ عن أنَّه يكون بتزوُّج أو غيره[3]؛ ولذلك أُجيب بجوابينِ؛ أحدهما: ﴿كَذَٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ لرَفْع إنكارها، والثاني: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا...﴾ لرفع تعجُّبها[4].

- وقال هنا: ﴿وَلَد﴾ كما في قول مريم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ ولم يقُل: (غلام) كما في قِصَّة زكريا وقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ لاستبعادِ مريمَ لمطلق الحَبَل، لا بقَيدِ كونِه ذَكرًا، كما في قِصَّة زكريا عليه السلام؛ لذا قالت ﴿وَلَدٌ﴾، وقالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؛ لفَهمها ذلك من نِسبته إليها فقط، والولَدُ يُطلق على الذَّكر والأنثى، بخلافِ زكريَّا عليه السلام الذي بُشِّر بيحيى عليه السلام[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٧٨، ١٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٠٠)

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...﴾ جوابُ استفهامها، ولم تُعطفْ هذه الجملةُ على التي قبلها؛ لأنَّها جاءتْ على طريقة المحاورات. وتقديمُ اسمِ الجلالة على الفِعل؛ لإفادةِ تقوِّي الحُكم، وتحقيقِ الخبَر[١].

- وصرَّح هاهنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ ولم يقل: (يَفْعَلُ) كما في قِصَّة زكريا؛ لأنَّ أمْر زكريَّا داخلٌ في الإمكانِ العاديِّ الذي يُتعارَف وإنْ قلَّ، وفي قِصَّة مريم قال: ﴿يَخْلُقُ﴾؛ لأنَّه لا يُتعارَف وجودُ ولدٍ من غيرِ والدٍ، فهو إيجادٌ واختراعٌ من غيرِ سببٍ عاديٍّ؛ فلذلك جاءَ بلفظ: ﴿يَخْلُقُ﴾ الدالِّ على هذا المعنى[٢]، فالخَلْقُ المنبِئُ عن الإحداثِ للمُكوَّن أنسبُ بهذا المقام؛ لئلَّا يبقى لمبطِلٍ شُبهةٌ. وأكَّد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، أي: من غير تأخُّر، ولا حاجةٍ إلى سبَب[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ فيه كنايةٌ حسَنة، حيث كنى بالمسِّ عن الوطء، كما كنَّى عنه: بالحَرْث، واللِّباس، والمباشَرة[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ فيه التعبيرُ عن الجَمْع بالمفرد؛ وسرُّ ذلك- والله أعلم- بيانُ سهولةِ قَضاءِ كلِّ الأمورِ وتكوينها عليه سبحانه، كأنَّ الأمورَ كلَّها عنده كأمرٍ واحد، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨][٥].

٧- قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ فيه التفاتٌ- على قِراءة (نُعلِّمه) بنون العظمة-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٥٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والالتفاتُ من ضميرِ الغَيبة إلى ضميرِ المتكلِّم المعظِّمِ نفْسَه؛ إيذانًا بالفخامةِ والتَّعظيم(١).

٨- قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ... وَمُصَدِّقًا ...﴾ فيه إيجازٌ بالحذف؛ فقوله: ومصدِّقًا معطوفٌ عليه، والتقديرُ: (وأبعثُه رسولًا إلى بني إسرائيلَ قائلًا: إنِّي قد جئتكم بآيةٍ، وإنِّي بُعثتُ مصدِّقًا لمَا بينَ يديَّ مِن التَّوراة)؛ وإنما حسُن حذفُ هذه الألفاظ؛ لدلالةِ الكلام عليها(٢).

- وتخصيصُ بني إسرائيل في قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ لخصوصِ بَعثتِه إليهم، أو للردِّ على مَن زعَم أنَّه مبعوثٌ إلى غيرِهم(٣).

٩- قوله تعالى: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيه تكرارُ قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ دفعًا لتوهُّم الألوهيَّة؛ فإنَّ الإحياء ليس من جِنس الأفعال البشريَّة(٤).

١٠- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ﴾، وقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾، وقوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه تكرارُ ذِكر الآيَةِ وإعادتها؛ للتأكيد؛ لأنَّ إخراجَ الإنسانِ عن المألوفِ المعتادِ من قديم الزَّمان عسِرٌ، فأعاد ذِكر المعجزات؛ ليصيرَ كلامُه ناجعًا في قلوبهم، ومؤثِّرًا في طباعهم، وفي هذا التَّكرارِ بيانُ أنَّ الأمورَ المهمَّة- خاصَّةً الخارجةَ عن المألوف المعتادِ- ينبغي تَكرارُها، من أجْل أنْ يَتبيَّن للمُخاطَبِ أهميَّتُها عند المتكلِّم، وأنَّه ذو عنايةٍ بها، ومن أجْل أنْ ترسخَ في الذِّهن، وتؤثِّرَ في القلوب(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٩١).

١١- **قوله تعالى:** ﴿أَخْلُقُ﴾ ﴿فَأَنفُخُ﴾ ﴿وَأُبْرِئُ﴾ ﴿وَأُحيِي﴾ ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾ أتى بهذه الخوارقِ بلفظِ المضارع؛ دلالةً على تجدُّد ذلك كلَّ وقتٍ طُلِب منه، وقَيَّد قوله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأنَّه خارقٌ عظيم، فأتَى به دفعًا لتوهُّم الإلهيَّة، ثمَّ قيَّدَ الخارقَ الثَّالثَ ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَى﴾ بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأنَّه خارقٌ عظيم أيضًا؛ فذَكَر عيسى عليه السَّلام قَيدَ الإذنِ مِن اللهِ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ في هذَينِ الموضَعينِ؛ لإزالةِ الشُّبهةِ، وتحقيقًا للتَّوحيد، ولرفْعِ توهُّمِ استقلالِه بالفِعلِ في كلِّ آيةٍ أتَى بها عِندَ مَن اعتقدَ فيه الإلهيَّة[1].

- ولم يأتِ بهذا القَيدِ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيما عُطِف عليه في قوله: ﴿وَأُبْرِئُ﴾، وقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على عِظَم ما قبْلَه ﴿أَخْلُقُ﴾ ﴿وَأُحيِي﴾، ودفعًا لوَهمِ مَن يَتوهَّمُ فيه الإلهيَّةَ. وقيل: حُذِفَ القيدُ مِن المعطوفينِ هنا؛ اكتفاءً به في الأوَّل[2].

١٢- **قوله تعالى:** ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أمرٌ مرادُه التخويفُ لهم؛ لأنَّ طاعة الرسول مِن لوازمِ تقوى الله تعالى، فبيَّن أنَّه إذا لزِمَكم أنْ تتَّقوا الله، لزِمَكم أن تُطيعوني فيما آمرُكم به عن ربِّي[3].

١٣- **في قوله تعالى:** ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تأكيدٌ لقوله الأوَّل: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وعطف بالواو؛ لأنَّه أُريد أن يكونَ من جملة الأخبار المتقدِّمة، ويحصُل التأكيدُ بمجرَّد تقدُّم مضمونه، فتكون لهذه الجملةِ اعتباران يَجعلانِها بمنزلة جُملتين، وليُبنى عليه التفريعُ بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٣).

١٤- **قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾** فيه تَكرار (رَبِّي وَرَبُّكُمْ)، وهو أبلغُ في الْتزام العبوديَّة من قوله: (ربُّنا)، وأدلُّ على التبرِّي من الربوبيَّة. ومقصودُه إظهارُ الخضوع، والاعتراف بالعبوديَّة؛ لكيلا يتقوَّلوا عليه الباطل، فيقولوا: إنَّه إلهٌ، وابنُ إله؛ لأنَّ إقرارَه لله بالعبوديَّة يَمنعُ ما تدَّعيه جُهَّالُ النَّصارى عليه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٧٠).

الآيات (٥٢ - ٥٨)

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أَحَسَّ﴾: عَلِم ووجَد، أو رأى وسمِع، والإحساس: العِلم بإحدى الحواسِّ(١).

﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾: جمْع حوارِيٍّ، وهمْ أصفياءُ عِيسى عليه السَّلام وشِيعتُه وناصِرُوه، وخُلاصةُ أصحابِه، وشاعَ استعماله في الَّذين خَلَصوا وأَخْلصُوا في التَّصْديق بالأنبياءِ ونُصرتِهم؛ قيل: سمُّوا بذلك؛ لأنَّهم كانوا يُحوِّرون الثِّياب، أي: يُبيِّضونها، واشتقاقُهُ من حُرْتُ الثوبَ، أي: أَخْلَصْتُ بياضَه بالغَسْل، ومنه يُقال للدَّقيق الأبيضِ النَّقيِّ: حُوَّارى. وقيل: اشتقاقُه مِن حارَ يحورُ: إذا رجَع، فكأنَّهم الرَّاجعونَ إلى الله، وقيل: هو مُشْتَقٌّ مِن نقاء القَلْبِ وخُلوصِه وصِدْقه(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)، =

﴿وَمَكَرُوا﴾: المكر: صرْفُ الغيرِ عمَّا يَقصِده بحيلةٍ، وأصل المكر: الاحتيالُ والخِداع[(١)].

مُشكلُ الإعراب:

قوله: ﴿مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ﴾

﴿إلى اللهِ﴾: الجارُّ والمجرورُ في مَوضِعِ الحالِ، وتَتعلَّق ﴿إِلَى﴾ بمحذوفٍ، والتقدير: مَن أنصاري مُضافِينَ إلى اللهِ، أو إلى أَنصارِ الله. وقيل: إنَّ ﴿إِلَى﴾ بمعنى اللام، أي: مَنْ أنصاري للهِ، كقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] أي: للحقِّ. وقيل: إنَّ ﴿إلى﴾ بمَعْنى (مَعَ)، أي: مَن أنصاري مع اللهِ، وقيل غير ذلك[(٢)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تبارَكَ وتعالَى أنَّ عيسى عليه السَّلام لَمَّا وجَدَ من بني إسرائيل إعراضًا عن دعوتِه، وعلِم بكُفرهم بنبوَّته، استنصرَ أصحابَه قائلًا: مَن يُعاوِنني ويَنهضُ معي بالدَّعوة إلى الله ونُصرةِ دِينه، فأجابه صفوةُ أصحابه بأنَّهم أنصارُ دِين الله تبارَكَ وتعالَى، وأعْلَنوا إيمانهم، وأَشهَدوا عيسى عليه السَّلام على إسلامِهم، ودعَوْا ربَّهم متوسِّلين بإيمانهم بما أنزل، واتِّباعهم لعيسى عليه السَّلام، أنْ يَكتُبَهم مع مَن شهِد له بالوحدانية، ولرُسلِه بالصِّدق، واتَّبَعوا أوامرَه، واجتنَبوا نواهيَه.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٧-٢٠٨).

ثمَّ يُخبر تبارَك وتعالَى عن مَكرِ مَن كَفَر بعيسى عليه السَّلام مِن بني إسرائيل وتَمالُئِهم على قَتْله، ومَكْرِه بهم مُقابلةً لمكرهم؛ حيث ألْقى شَبَهَ عيسى عليه السَّلام على رجلٍ آخرَ، فقتلوه ظانِّين أنَّه هو، فكان مكرُ الله أقوى من مَكرِهم وأشدَّ، ثمَّ يذكر قوله لعيسى، أنَّه متوفِّيه وفاةَ نوم، ورافعُه إليه برُوحه وبدنِه، ومُخرِجه من بين الَّذين كفروا، ومُنجِّيه منهم، وأنَّه سيجعل الَّذين اتَّبعوه فوقَ الَّذين كفروا بالحُجَّة والبرهان، وبالعزَّة والغَلَبةِ إلى يومِ القيامة، وأنَّ إليه المصيرَ والمرجعَ فيَقضي بينهم؛ فالَّذين كفروا يُعذِّبهم عذابًا أليمًا في الدُّنيا والآخرة، أمَّا عذابُ الدُّنيا فما أَقدَرَه عليهم من قتْلٍ وسَبْيٍ وذِلَّة، وضِيقٍ وضنكٍ وغيره! وأمَّا عذابُ الآخرة فبنارِ جهنَّم، وليس لهم مَن يَنصرُهم، أو يمنع عنهم العذابَ الأليم.

وأمَّا أهلُ الإيمانِ والعملِ الصالح فأولئك يُوفِّيهم أجْرَهم دون نقْصٍ: في الدُّنيا بالنَّصرِ والتَّمكين، وفي الآخِرَة بالجنَّة والرِّضوان من الله تبارك تعالى، واللهُ لا يحبُّ الظَّالمين؛ فكيف يظلِمُ خَلْقَه؟!

ثمَّ يقول اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ هذه الأنباء والقصصَ الَّتي أخبر الله بها عن عيسى عليه السَّلام وأمِّه مريم نتلوها عليك- يا محمَّدُ- وهي من العلامات والبراهين الدَّالَّة على صِدقِك ونبوَّتك، ومن القُرْآن المُحكَم المتقَن.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

أي: فلمَّا وجَد عيسى عليه السَّلام من بني إسرائيل- الَّذين أُرسِل إليهم- التَّكذيبَ به، ورأى الإعراضَ عنه، والجَحْد لنبوَّته، والصَّدَّ عن دعوتِه، قال: مَن

أعواني في الدَّعوة إلى اللهِ، ونُصرةِ دِينه، ومَن يُضيفُ نُصرتَه ويَضمُّها إلى نُصرةِ اللهِ لي[١]؟

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

أي: قال الأنصارُ مِن أصحابِ عيسى عليه السَّلام: نحن أنصارُ دِين الله[٢].

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

أي: آمنَّا بالله، واشهَدْ- يا عيسى- بأنَّنا مسلِمون[٣].

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)﴾.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾.

أي: قال الحواريُّون أيضًا: يا ربَّنا، آمنَّا بالإنجيل الَّذي أنزلتَ على عيسى عليه السَّلام[٤].

﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

أي: واتَّبعنا رسولَك عيسى عليه السَّلام[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).
قبل هذه الآيةِ محذوفٌ به يتمُّ اتِّساق الآيات، تقديره: فجاء عيسى عليه السلام كما بَشَّر الله به، فقال جميعَ ما ذُكر لبني إسرائيل، ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ...﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٨).

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أي: أَثبِتْ أسماءَنا مع أسماء الَّذين شهِدوا لك بالوَحْدانيَّة، ولرُسلِك بالصِّدق، ولدِينك بأنَّه الحقُّ، واتَّبَعوا أمرَك ونهيَك- ومنهم أمَّةُ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- فاجعَلْنا في عِدادِهم ومعهم؛ لنفوزَ بمِثْلِ ما فازوا به[1].

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾.

أي: ومكَر الَّذين كفَروا من بني إسرائيل بعيسى عليه السَّلام، فحاوَلوا قَتْلَه مُتحيِّلين على ذلك، ومَكَر اللهُ بهم؛ فألْقى شَبَهَ عيسى عليه السَّلام على رَجُلٍ آخرَ، فأَخَذوه وقتَلوه، ظنًّا منهم أنَّه عيسى عليه السَّلام[2].

وبَيَّن اللهُ تعالى مكرَهم في قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]، وبَيَّن مكرَه بهم في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ الآيةَ[3] [النساء: ١٥٧-١٥٨].

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

أي: أقواهم في المكرِ بمن يستحقُّ المكرَ، وأعلمُ بالأسبابِ الَّتي تُحيطُ بأعدائِه، وأشدُّ بطشًا، وأنفَذُ إرادةً[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٥)، ((التفسير الوسيط)) الواحدي (١/ ٤٤١) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢، ٩٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣) وعزاه لجمهور المفسرين، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين-=

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

أي: واذكُرْ[١] إذ قال اللهُ لعيسى عليه السَّلام: يا عيسى، إنِّي مُتوفِّيك وفاةَ نومٍ[٢].

= سورة آل عمران)) (١/ ٣١٧).

قال ابنُ عاشور: (ويجوز أن يكون معنى ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: أنَّ الإملاءَ والاستدراج، الذي يُقدِّره للفجَّار والجبابرة والمنافقين... هو خيرٌ محضٌ لا يترتَّب عليه إلَّا الصَّلاح العام، وإنْ كان يؤذي شخصًا أو أشخاصًا، فهو من هذه الجهة مجرَّدٌ عمَّا في المكر من القُبح؛ ولذلك كانتْ أفعالُه تعالى منزهةً عن الوصف بالقُبح أو الشناعة؛ لأنَّها لا تقارنها الأحوالُ التي بها تقبح بعضُ أفعال العباد من دلالةٍ على سفاهة رأي، أو سوء طويَّة، أو جُبنٍ، أو ضَعْف، أو طَمَع، أو نحو ذلك، أي: فإنْ كان في المكر قُبح، فمكرُ الله خيرٌ محض، ولك على هذا الوجهِ أن تجعل ﴿خَيْرُ﴾ بمعنى التفضيل وبدونه) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٧)، ويُحتمل أن تكون (إذ) متعلِّقة بالمكر يَعني: ومَكَرَ الله حين قال لعيسى... واختاره ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٤٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير سورة آل عمران)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٩).

والقول بأنَّ المراد بالوفاة هنا: النوم، هو اختيارُ الأكثر كما ذكَر ابن كثير.

وممَّن قال بهذا القول من السلف: الربيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٨).

وقيل: المراد قَبْضُه مِن الأرض حيًّا برُوحه وجسدِه دونَ نومٍ أو موتٍ. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٤٥٠)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٢١٣)، والقرطبي في ((تفسيره)) (٤/ ١٠٠).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ من السَّلف: الحسن، ومطر الورَّاق، وابن جريج، ومحمد بن جعفر ابن الزبير، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٨).

وقيل: هذا مِن المقدَّم الذي معناه التَّأخيرُ، والمؤخَّر الذي معناه التقديمُ، والمعنَى: إذ قال اللهُ: يا عيسى إنِّي رافعُك إليَّ ومطهِّرك مِن الذين كفَروا، ومُتوفِّيك بعدَ إنْزالي إيَّاك إلى الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٠).

وقيل غير ذلك. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٢-١٣٦).

كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

أي: ورافعُك برُوحِك وبَدَنِك إلى السَّماء(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٩].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: ((والَّذي نَفْسِي بِيَدِه، لَيُوشِكَنَّ أنْ يَنزِلَ فيكم ابنُ مَرْيَمَ صَلَّى الله عليه وسَلَّم حَكَمًا مُقْسِطًا، فيَكْسِرُ الصَّليبَ، ويَقْتُلُ الخِنزيرَ، ويَضَعُ الجِزْيَةَ، ويَفِيضُ المالُ حتَّى لا يَقْبَلَه أحدٌ))(٢).

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: مخلِّصُك ممَّن كفرَ بك، ومُخرِجك من بينهم، برفعي إيَّاك إلى السَّماء(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢٢). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٢٣).

(٢) رواه البخاري (٢٢٢٢) ومسلم (١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢٣).

أي: وجاعلٌ أتباعَك يا عيسى فوق الَّذين كفروا، بالحُجَّةِ والبُرهان، وبالعزَّة والغَلَبة(١).

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: ثمَّ يومَ القيامة إليَّ مصيرُكم- أيُّها المختلِفون في عيسى عليه السَّلام جميعًا- فأَقضِي بينكم فيما كُنتُم تَختلفونَ فيه مِن أمْرِه عليه السَّلام(٢).

ثمَّ بيَّن الله تعالى حُكمَه فيهم، وما يَفعلُه بهم فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين كفروا، فإنِّي أُعذِّبهم عذابًا شديدًا قويًّا في الدُّنيا؛ بالقتلِ والسَّبيِ والذِّلَّة والمسكنةِ، وأَخْذِ الأموال، وما يَحصُل لقلوبهم من الضِّيقِ والضَّنك،

---

(١) قيل: المراد بالأتباع أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وهو اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٤٥٣)، والواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٢١٣).

وقيل: المرادُ بهم النَّصارى المنتسبون لعيسى عليه السلام إلى أن بَعث الله نبينا محمدًا صلَّى اللهِ عليه وسلم فكان المسلمون هم المتَّبعين لعيسى حقيقةً، فأيَّدهم الله ونصرهم على اليهودِ والنَّصارى وسائرِ الكفَّار. وهذا اختيار السعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٣٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٣/ ٢٦٠).

وقال ابن عطية: (قال جمهورُ المفسِّرين بعمومِ اللفظ في المتبعين، فيدخلُ في ذلك أُمةُ محمَّد؛ لأنَّها متبعةٌ لعيسى، نصَّ على ذلك قتادة وغيره، وكذلك قالوا بعمومِ اللفظِ في الكافرين، فمقتضِى الآيةِ إعلامُ عيسى عليه السَّلامُ أنَّ أهلَ الإيمان به كما يجبُ هم فوقَ الذين كفروا بالحجَّة والبُرهان وبالعزَّةِ والغلبةِ، ويظهرُ مِن قولِ ابن جُريج وغيرِه أنَّ المرادَ المتبعون له في وقتِ استنصارِه، وهم الحواريون جعلَهم الله فوقَ الكافرين؛ لأنه شَرفهم وأبقَى لهم في الصالحين ذكرًا، فهم فوقهم بالحجَّة والبرهانِ) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٠).

والقلَقِ والحسرة، وغير ذلك، وفي الآخرةِ بنارِ جهنَّم(١).

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أي: وليس لهم أحدٌ يَدفَعُ عنهم العذابَ، ولا يمنَعُ عنهم أليمَ العِقاب، لا من الأهلِ، أو الشُّفعاء، أو الأصدقاء، أو غيرِهم(٢).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات، فيُتِمُّ لهم جزاءَهم من الثَّواب، دون نَقصٍ أو بَخْسٍ في الدُّنيا والآخرة، في الدُّنيا بالنَّصر والظَّفَر، والإعزاز، والحياة الطَّيِّبة، وحُسن الذِّكر، وغير ذلك، وفي الآخِرة بالجنَّةِ والنَّعيمِ المقيم(٣).

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يحبُّ مَن ظلَم غيرَه حقًّا له، أو وضَع شيئًا في غير موضعِه، بل يُبغِضهم ويُحِلُّ عليهم غضَبَه وعقابه، فنَفَى اللهُ بذلك عن نفْسِه أنْ يَظلِمَ أحَدًا مِن خلقِه؛ لأنَّه إذا كان لا يحبُّ الظَّالِمين، فكيف يظلِمُ خَلْقَه(٤)؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾.

أي: هذه الأنباءُ الَّتي أخبَر اللهُ بها عن عيسى عليه السَّلام وأمِّه مريمَ، وما قصَّه اللهُ من قَصصٍ نقرؤُها عليك- يا محمَّدُ- على لسان جِبريل عليه السَّلام، هذه الأنباءُ والأخبارُ من العلاماتِ والحُجَج الدَّالَّة على صِدقِك ونبوَّتِك، وهي أيضًا من القُرْآن ذي الحِكمةِ؛ فهو مُحكَم مُتقَنٌ وحاكمٌ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الإعلامُ بأنَّ الآياتِ الكونيَّة وإنْ كثُرت وعظُمت ليست مُفضِيَةً إلى الإيمان حتمًا، وإنَّما يكونُ الإيمان باستعداد المدعُوِّ إليه، وحُسن بيان الدَّاعي بعد توفيقِ الله تعالى وهدايتِه؛ كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾[2].

٢- طلبُ النَّصر لإظهارِ الدَّعوة لله، موقفٌ من مواقفِ الرُّسل، وسُنَّةُ اللهِ في أنبيائهِ وأوليائه؛ كما في قولِه: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[3].

٣- مِن قوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ يُؤخذُ أنَّه ينبغي على الدَّاعيَة إذا اشتبه الأمرُ أنْ يَطلُبَ المخلِصين، وأنْ ينتدبَ الصَّفوةَ من القوم[4].

٤- لا بدَّ لحصول النَّصرِ مِن تحصيلِ سببِه، كما هي سُنَّة الله[5]؛ كما في قول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٩٧)، و((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).

٥- لا بدَّ لكلِّ صاحبِ عقيدة ودعوةٍ مِن أنصارٍ ينهَضون معه، ويحمِلون دعوتَه، ويُحامون دونها، ويُبلِّغونها إلى مَن يَليهم، ويقومون بعده عليها(١).

٦- النَّصر لا يستلزم القتالَ؛ فالعملُ بالدِّين، والدَّعوةُ إليه نصرٌ له(٢).

٧- في قولِ الحواريِّين: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ بيانُ أنَّهم انخلَعوا وانفصَلوا من التَّقاليد السَّابقة، وأخَذوا بالتَّعليم الجديد، وسيَبذُلون مُنتهَى الاستطاعةِ في تأييده؛ فالنَّصر للهِ لا يكونُ إلَّا بذلك(٣).

٨- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أنَّ إشهادَ الإنسانِ على نفسِه بالإيمان أو بالإسلام أو ما أَشْبَه ذلك لا يُعَدُّ مِن الرِّياء، لا سيَّما في الأتْباع؛ لأنَّ في ذلك فائدةً، وهي تقويةُ المتبوع(٤).

٩- في توجُّههم لعقدِ البَيعةِ مع الله مباشرةً لَفْتَةٌ قيِّمة، وهي أنَّ عهدَ المؤمن هو ابتداءً مع ربِّه، ومتى قام الرَّسولُ بإبلاغه، فقد انتهتْ مَهمَّةُ الرَّسول من ناحيةِ الاعتقاد، وانعقدتِ البَيْعةُ مع الله(٥).

١٠- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ بيانُ أنَّه يجبُ أنْ يكونَ الإيمانُ شاملًا لكلِّ ما أنزَل الله(٦).

١١- على المرءِ أنْ يُعلِنَ اتِّباعه للرَّسولِ بين أئمَّة الكفر؛ كيلَا يداهنَ في دِين

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٠١- ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٢).

اللهِ؛ فالمداهنة في دِين الله والتَّقيَّةُ نِفاق في الواقع[١]؛ كما في قوله: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

١٢- في ذِكر الاتِّباع بعد الإيمان في قوله تعالى حِكايةً عن الحواريِّين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، بيانُ أنَّ العِلم الصَّحيح يستلزِم العملَ، والعِلم الَّذي لا أثرَ له في العمل يُشبِهُ أنْ يكونَ مجمَلًا وناقصًا لا يقينًا وإيمانًا، وكثيرًا ما يظنُّ الإنسانُ أنَّه عالمٌ بشيء، حتَّى إذا حاول العملَ به لم يُحسِنْه، فيتبيَّن له أنَّه كان مخطئًا في دعوى العِلم، فالعِلم بالشَّيء يظلُّ مجمَلًا مبهَمًا في النَّفس حتَّى يعمل به صاحبُه، فيكون بالعمل تفصيليًّا، فذِكر الحواريِّين الاتِّباعَ بعد الإيمان يفيد أنَّ إيمانهم كان في مرتبةِ اليقين التَّفصيليِّ، الحاكم على النَّفس، المصرِّف لها في العمل[٢].

١٣- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ الحرصُ على صُحبةِ الأخيار[٣].

١٤- في قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ بيانُ أنَّ المسلمَ المؤمن بدِين الله لا بدَّ أنْ يؤدِّيَ شَهادةً لهذا الدِّين تؤيِّد حقَّه في البقاء، وتؤيِّد الخيرَ الَّذي يحملُه هذا الدِّين للبشر.. وهو لا يُؤدِّيها حتَّى يَجعلَ من نفْسه صورةً حيَّةً لهذا الدِّين، ويَجعل منه قاعدةَ حياتِه، ونظامَ مجتمعِه، وشريعةَ نفسِه وقومِه[٤].

١٥- المكرُ في مقامِ المكرِ مَدْحٌ، وصفةُ كمالٍ، وهو حَسَنٌ إذا كان على وجهِ المقابلةِ لا على وجهِ الظُّلمِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨، ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٥).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٠٢).

الْمَاكِرِينَ﴾، والمكرُ في غيرِ موضعِه صفةُ نقْصٍ؛ لأنَّ المكرَ في غيرِ مَوضعِه خيانةٌ، والخيانةُ صفَةُ ذمٍّ(١).

١٦- يَنبغي أنْ يُذكِّر الإنسانُ النَّاسَ بأحوال الأنبياء السابقين؛ لِما في ذلك من محبَّتِهم، والثَّناءِ عليهم، ومعرفةِ أحوالهم، وإبقاءِ ذِكراهم، وغير ذلك مِن المصالحِ العظيمة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾ أي: واذكُرْ إذ قال الله(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ فيه تنبيهٌ أنَّه ظَهَر منهم الكُفْرُ ظهورًا بان للحِسِّ، فضلًا عن التَّفهُّم(٣).

٢- قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، ولم يقل: مَن أنصاري في الله؛ ليكون النَّصرُ مَبنيًّا على الإخلاص؛ لأنَّ (إلى) للغايةِ، فيُريد أنْ يكونَ نصرًا موصلًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ(٤).

٣- لَمَّا كان المقصودُ ثباتَ الأنصار معه إلى أنْ يتمَّ أمرُه، عبَّر عن ذلك بصلةٍ دلَّت على تضمينِ هذه الكلمةِ كلمةً توافقُ الصِّلة فقال: ﴿إِلَى﴾ أي: سائرينَ أو واصلين معي بنَصرِهم إلى ﴿اللَّهِ﴾ أي: الملِكِ الأعظمِ(٥).

٤- قوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ فيه التَّوسُّلُ إلى الله تعالى بربوبيَّتِه؛ لأنَّ الرُّبوبيَّةَ تدورُ على ثلاثةِ أشياء، وهي: الخَلْق، والمُلْك، والتَّدبير، وإجابة الدُّعاءِ تدخل في

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٩).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٣٣٧).
(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التميز)) للفيروز آبادي (٢/ ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤١٧).

هذه الثَّلاثة؛ فلذلك كان كثيرًا ما يتوسَّل الدعاةُ إلى الله بالربوبيَّة[١].

٥- حُسن الاحتراز في قول الحواريِّين: ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾، ولم يُطلقوا الإيمانَ مَثَلًا بالتَّوراة؛ لأنَّ التَّوراة الَّتي بأيدي اليهود محرَّفةٌ مبدَّلة[٢]

٦- في قوله: ﴿آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ عامٌّ، وهو دليلٌ على وجوب الإيمانِ بكلِّ ما أنزل اللهُ مِن كتاب، وأمَّا الاتِّباع فيكونُ للرَّسول الخاصِّ الَّذي أُرسِل إليك؛ لقوله: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وهو خاصٌّ[٣].

٧- أنَّه إذا كان هناك وَصفانِ، وكان أحدُ الوصفينِ أخصَّ من الآخرِ بالعمل أو بالحال الَّتي أنت فيها؛ فإنَّ الأَولى أنْ تأخذَ بالأخصِّ؛ لقوله: ﴿الرَّسُولَ﴾؛ لأنَّ الرَّسول مرسَلٌ إلينا، ولم يقولوا: (واتَّبَعْنا النَّبيَّ)[٤].

٨- في قوله: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الإسلامَ دِينُ اللهِ على لسان كلِّ نبيٍّ، وإنِ اختلفوا في بعض صُوَرِه وأشكاله، وأحكامه وأعماله[٥]؛ فهو دِينُ الله الَّذي ابتعَث به عيسى عليه السَّلام والأنبياءَ قبله، لا النَّصرانيَّة، ولا اليهوديَّة[٦].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ دليلٌ على عُلوِّ الله تعالى حقيقةً[٧]، وعلى أنَّ اللهَ تعالى ليس في خَلقِه، ولا خَلْقُه فيه، جلَّ وعزَّ، وتعالى عمَّا يقولُ الظَّالِمونَ علوًّا كبيرًا[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٥٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٤).
(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٢).
(٨) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٢٦).

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ دلالة على أنَّ عيسى عليه السَّلام في السَّماء حيٌّ(١).

١١- ذوو الهِمَمِ العالية يشتدُّ اهتمامُهم بما يكون عليه خلائفُهم بعدهم من الأحوال؛ لذا بشَّر اللهُ تعالى عيسى عليه السلام في ذلك بما يسُرُّه، فقال: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ...﴾(٢).

١٢- في قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بِشارةٌ بأنَّ المسلمين لا يَزالون فوق النَّصارى إلى يوم القِيامة، ولكن هذا مقيَّدٌ باتِّباع شَرْع الله تعالى؛ فبَقدْرِ اتِّباعهم تكون الفوقيَّة؛ فإنَّ المسلمين هم أتْباعُ المُرسَلين في الحقيقة، وأتْباع جميعِ الأنبياء، لا أعداؤُهم، وأعداؤُهم هم عُبَّادُ الصَّليب(٣).

١٣- في قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ منَّةُ الله سبحانه وتعالى على عِبادِه؛ حيث جعَل هذا الجزاءَ كالأجور اللازِم وفاؤُها(٤).

١٤- أشار في قوله: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ بأداة البُعد؛ تنبيهًا على عُلوِّ منزلتِه، ورفيعِ قدْرِه(٥).

١٥- في وصْفِ القُرْآن بالحَكيم دليلٌ على أنَّه لا يوجَدُ حُكمٌ دلَّ عليه القُرْآنُ إلَّا وهو في موضعِه اللَّائق به؛ إذ إنَّ الحكيمَ هو الَّذي يضعُ الشَّيءَ في مواضعِه(٦).

---

(١) قال ابنُ عطية: (أجمعت الأمَّة على ما تَضمَّنه الحديث المتواتِر من أنَّ عيسى عليه السلام في السماء حيٌّ، وأنه ينزل في آخِر الزمان فيَقتُل الخِنزير، ويَكسِر الصَّليب، ويقتُل الدجَّال)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيِّم (١/ ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٠).

١٦- في قوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ فضيلةُ الرَّسول عليه الصلاة والسَّلام، فخصَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتِّلاوة عليه؛ لأنَّه أشرفُ مَن يتلقَّى القُرْآن، وأقومُ النَّاس عملًا به، فكأنَّه هو المخصوصُ بالتِّلاوة عليه ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾(١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِلَى اللهِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ، والتقدير: (مَن أنصاري حال التِجائي إلى الله)، أو (مَن أنصاري إلى أنْ أُبيِّن أمر الله) (سائرينَ أو واصلين معي بنَصرِهم إلى اللَّهِ) وقيل غير ذلك (٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ﴾ نداءٌ غرضُه التضرُّع إلى الله عزَّ وجلَّ، والعرْضُ لحالهم عليه تعالى بَعدَ عرضِها على الرَّسول؛ مبالغةً في إظهار أمرِهم(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ فيه تأكيدُ الأمْر بعدَ إشهادِهم عيسى عليه السَّلام على إسلامِ أنفسِهم، حيث قالوا: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فأَشْهَدوا اللهَ تعالى على ذلك أيضًا تأكيدًا للأمْر، وتقويةً له، وأيضًا طَلبوا من الله مِثلَ ثواب كلِّ مؤمِنٍ شهِد لله بالتوحيدِ، ولأنبيائه بالنُّبوَّة(٤).

٤- في قوله سبحانه: ﴿واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ إظهارُ الجلالةِ (الله) في موقعِ الإضمار؛ لتربيةِ المهابة، ولأنَّ المقامَ لزيادةِ العظَمة، ولئلَّا يُفهَم الإضمارُ خصوصًا من جهةٍ ما، والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤١٧)..
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٣٥).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٣).

٥- في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ (ثمَّ) للتراخي الرُّتبي؛ لأنَّ الجزاءَ الحاصلَ عند مرجِع الناس إلى الله يومِ القِيامة- مع ما يُقارنه من الحُكم بين الفريقينِ فيما اختلفوا فيه- أعظمُ درجةً، وأهمُّ من جَعْل متَّبعي عيسى فوقَ الذين كفروا في الدُّنيا. وعلى حمْل الخِطاب في هذه الآية للنبيِّ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم والمسلمين، لا لعيسى عليه السَّلام ومَن معه، فتكون (ثمَّ) للانتقال من غرَض إلى غرَض؛ زيادةً على التراخِي الرُّتبي، والتَّراخي الزَّمني[1].

- وفيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ؛ للقصرِ المفيدِ لتأكيدِ الوعدِ والوعيد[2].

- وعلى القولِ بأنَّ الضَّمير في ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ لعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام وغيرِه من المتَّبعين له والكافرين به، يكونُ فيه تَغليبُ المخاطَب على الغائِبِ في ضِمنِ الالتفاتِ؛ فلو جاء النَّظمُ على السِّياق من غير التفات لكان: (ثم إليَّ مرجعهم فأحكُم بينهم فيما كانوا)، ولكنَّه التفتَ إلى الخِطاب؛ لأنَّه أبلغُ في البشارة، وأزجرُ في النَّذارة[3].

٦- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ...﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ فيه تفصيلٌ لِمَا أُجمِل في قوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾[4]. ففيه تفسيرٌ للحُكم الواقعِ بين الفريقين، وتفصيلٌ لكيفيته. والبدايةُ ببيانِ حالِ الكفرة؛ لأنَّ مساقَ الكلامِ لتهديدهم وزجرِهم عمَّا هُم عليهِ من الكُفر والعِناد[5].

٧- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تذييلٌ للتفصيل كلِّه؛ فهو تذييلٌ ثانٍ لجملة ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بصريحِ معناها، أي: أعذِّبهم؛ لأنَّهم ظالمون،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٤).
(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٤).

والله لا يحب الظالمين، وتذييل لجملة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾، بكناية معناها؛ لأنَّ انتفاءَ محبَّة الله الظالمين يستلزمُ أنَّه يحبُّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات؛ فلذلك يُعطيهم ثوابَهم وافيًا[1].

٨- في قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ تنوُّعٌ في الأسلوب، وهو الانتقالُ من ضمير التَّكلُّم إلى ضميرِ الغَيْبة، وفي تغييرِ الأسلوب فائدتانِ: لفظيَّةٌ، وهي الالتفاتُ الَّذي يوجب الانتباهَ، ومعنويَّةٌ، وهي إظهارُ السُّلطة والعَظَمة والعزَّة في باب التَّعذيب، وإظهارُ الفضل والإحسان للعامِلين في باب المَثُوبة[2].

– وعلى قِراءة (فنُوفِّيهم) بالمتكلم وحْدَه المعظِّمِ نفْسَه، يكون ذلك اعتناءً بالمؤمنين، ورفعًا من شأنِهم؛ لَمَّا كانوا مُعظَّمين عنده[3].

٩- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة بـ(ذلك) إلى ما سلَف من نبأ عيسى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما فيه من معنى البُعد؛ للدَّلالة على عِظم شأنِ المُشارِ إليهِ، ورِفعة قدْره، وبُعْد منزلتِه في الشَّرف، وعلى كونِه في ظهور الأمرِ ونباهةِ الشأن بمنزلةِ المشاهَد المعايَن[4].

١٠- قوله تعالى: ﴿نَتْلُوهُ﴾ يحتمل أنْ يكونَ فيه التفاتٌ من غَيبة إلى تكلُّم؛ لأنَّه قد تقدَّمه اسمٌ ظاهر، وهو قوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. ويحتمل أن يكون- ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ جِيء بها اعتراضًا بين أبعاضِ هذه القِصَّة، فلا يكون فيه التفاتٌ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٤٨). ويُنظر أيضًا: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٨).

الآيات (٥٩ - ٦٣)

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ (٦٣) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿الْمُمْتَرِين﴾: أي الشَّاكِّين، والـمِرْية: التَّردُّد في الأمر، وهي أخصُّ من الشَّكِّ(١).

﴿نَبْتَهِلْ﴾: أي: نتداعَ باللَّعْن، أو نلتعِن؛ يقال: عليه بهلةُ الله، وبَهلْتُه، أي: لعنتُه، وأصل (البَهْل): كونُ الشيءِ غيرَ مراعًى، والبَهْل والابتهال في الدُّعاء: الاسترسالُ فيه والتَّضرُّع(٢).

﴿الْقَصَصُ﴾: الأخبارُ المتتبَّعة، والأثرُ، وأصْل القصِّ: تتبُّعُ الأثَرِ أو الشَّيء(٣).

مُشكلُ الإعراب:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

﴿كَمَثَلِ﴾: الكافُ حرْف تَشبيه. و(مَثَلِ) مجرورة، وهي هنا بمعنى الحالِ والشأن، أي: إنَّ شأنَ عيسى وحالَه الغريبة كشأنِ آدَم، وقيل: إنَّ المَثَل بمعنى

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

الصِّفة؛ وقول: صِفةُ عيسى كصِفةِ آدَم كلامٌ مُطَّرد. وقيل غير ذلك.

﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾: جملةٌ مفسرةٌ لوجهِ التَّشبيه بين المَثَلين، لا محلَّ لها من الإعراب؛ فهي خبرٌ مستأنَفٌ على جِهةِ التَّفسير لحالِ آدَمَ عليه السَّلام، كقولِك: كمَثلِ زيد- تريد أنَّك تُشبهه في فِعْلٍ ثم تخبرُ بقصَّة زيد، فتقول:- فعَل كذا وكذا. وقيل غير ذلك.

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾: ﴿فَيَكُونُ﴾ مرفوعٌ على الاستئنافِ، أي: فهو يكون، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿فَيَكُونُ﴾ على بابِه مِنْ كونِه مستقبلًا، والمعنى: فيكونُ كما يأمرُ الله، فيكونُ حكايةً للحالِ التي يكونُ عليها آدم، ويجوز أن يكون ﴿فَيَكُونُ﴾ بمعنى (فكان)؛ لأنَّ الخبرَ عن أمر آدمَ تناهَى عند قوله: ﴿كُنْ﴾، وكلمة ﴿فَيَكُونُ﴾ خبرٌ لمبتدأ، أي: واعلم- يا محمَّد- أن ما قال له ربُّك: كُنْ، فهو كائنٌ[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُقيم اللهُ تعالى الحُجَّةَ على النَّصارى الَّذي عبَدوا عيسى عليه السَّلام بدَعْوى أنَّه لا أبَ له، فيُشبِّهُ خَلْقَ عيسى عليه السَّلام حينَ خلَقه من غير أبٍ بخَلْق آدمَ حين خلَقه من ترابٍ بلا أبٍ ولا أمٍّ، ثمَّ قال له: كُنْ، فكان، فخَلْقُ عيسى بلا أبٍ ليس بأعجبَ مِن خَلْق آدمَ.

ثمَّ يقول اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ هذا القولَ الَّذي أخبرتُك به، وقَصصتُه عليك، من أمرِ عيسى- هو الحقُّ مِن عند ربِّك، فلا تكُنْ من الشَّاكِّين، فمَن جادَلك وخاصمَك في عيسى بعدَ ما جاءَك من العِلم والبيان في شأنه، فقُلْ للَّذين يُحاجُّونك: هلمُّوا ندعُ أبناءَنا وأبناءَكم، وزوجاتِنا وزوجاتِكم، وإيَّانا وإيَّاكم، ثمَّ نلتعِنْ فنَجعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكاذِبِينَ منَّا ومنكم.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢١٨- ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٤).

ثمَّ قال الله تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ هذا الَّذي قصَصْناه عليك- يا محمَّدُ- في شأنِ عيسى وخبرِه هو الحقُّ البيِّن، وكلُّ ما خالَفه وناقضه فباطلٌ، ولا معبود يستحقُّ العبادةَ بحقٍّ إلَّا اللهُ العزيزُ الحكيم.

فإن أعرَض هؤلاء، وتولَّوا عن الحقِّ، ومالوا إلى الباطِلِ، فهم المفسِدون، واللهُ عليمٌ بهم، وسيُجازيهم على ذلك.

تَفسيرُ الآيات:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)﴾.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾.

أي: إنَّ شَبَهَ عيسى في خَلْق اللهِ له من غيرِ أبٍ كشَبَهِ آدمَ[١].

﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أي: خلَق آدمَ من ترابٍ بلا أبٍ ولا أمٍّ، ثمَّ قال له: كُنْ، فكان، فليس خَلْقُ اللهِ عيسى بلا أبٍ بأعجَبَ مِن خَلْق آدمَ؛ فكيف يَستنكِرُ وجودَ عيسى من غيرِ أبٍ، مَن يُقِرُّ بوجود آدمَ من غير أبٍ[٢]؟!

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)﴾.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

أي: هذا القولُ الَّذي أنبأتُك به مِن خبرِ عيسى هو الحقُّ مِن عند ربِّك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٩)، ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ويُنظر: ((أعلام الموقعين)) لابن القيِّم (١/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٣).

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

أي: فلا تكُنْ من الشَّاكِّين في شيءٍ ممَّا أخبرك به ربُّك(١).

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)﴾.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾.

أي: فمَن جادَلك- يا محمَّدُ- في المسيحِ عيسى ابنِ مريم(٢).

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

أي: مِن بعدِ ما جاءَك من العِلم الَّذي قد بيَّنْتُه لك أنَّ عيسى عليه السَّلام عبدُ اللهِ ورسولُه(٣).

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾.

أي: فقُلْ لهم: هلمُّوا وأقبِلوا، ولندعُ أبناءَنا وأبناءَكم، وزوجاتِنا وزوجاتِكم، وإيَّانا وإيَّاكم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

قال ابن عثيمين: (والمراد بالمحاجَّة في عيسى ليس في ذاته؛ لأنَّ عيسى معلوم أنه بشَر، لكن في شأنه وقضيته)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٥).

وجائزٌ أنْ تكون لفظة ﴿فِيهِ﴾ في قوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ عائدةً على الحقِّ الذي قال تعالى ذِكرُه: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٥).

قال ابن عاشور: (والنساء: الأزواج لا محالةَ، وهو إطلاقٌ معروفٌ عند العربِ إذا أُضيف =

عن سعدِ بنِ أبي وقَّاص قال: ((لما نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم عليًّا وفاطمةَ وحسنًا وحُسينًا، فقال: اللهمَّ هؤلاء أهلي))(١).

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

أي: ثمَّ نلتعِنْ، فنَجعَلْ لَعْنَةَ اللهِ وعقوبتَه على الكاذِبينَ منَّا ومنكم(٢).

عن حذيفةَ قال: ((جاء العاقبُ والسَّيدُ صاحبا نَجْران إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدُهما لصاحبِه: لا تفعلْ، فوالله لئنْ كان نبيًّا فلاعنَّا لا نُفْلح نحن، ولا عقِبُنا مِن بعدِنا. قالا: إنَّا نُعطيكَ ما سألْتَنا، وابعثْ معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعثْ معنا إلَّا أمينًا. فقال: لأبعثنَّ معكم رجلًا أمينًا حقَّ أمينٍ. فاستشرفَ له أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: قمْ يا أبا عبيدةَ بنَ الجرَّاح. فلمَّا قام قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم : هذا أمينُ هذه الأُمَّة))(٣).

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢)﴾.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.

= لفظ النساء إلى واحدٍ أو جماعة دون ما إذا ورد غيرَ مضاف، قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾... والأنفسُ أنفسُ المتكلِّمين وأنفس المخاطبين، أي: وإيَّانا وإيَّاكم)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٦).

(١) رواه مسلم (٢٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

قال ابنُ تيمية: (من المتواتر أنَّ نصارى نجران قدِموا على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ودعاهم إلى المباهلة المذكورة في سورة آل عمران، فأقرُّوا بالجزية ولم يُباهلوه، وصدْرُ آل عمران نزَل بسببِ ما جرَى؛ ولهذا عامَّتُها في أمْر المسيح)، ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٧٧).

(٣) رواه البخاري (٤٣٨٠) ومسلم (٢٤٢٠).

أي: إنَّ هذا الَّذي قصَصْناه عليك من أمرِ عيسى عليه السَّلام، وأنَّه عبدٌ لله ورسوله، هو القَصَصُ الحقُّ، والصِّدقُ، وما خالَفه فهو باطلٌ(١).

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾.

أي: وما من معبود بحقٍّ إلَّا اللهُ؛ فهو الَّذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له(٢).

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ هو الَّذي لا يُغلَب؛ فهو الَّذي قهَر كلَّ شيءٍ وخضع له، ذو الحكمةِ فهو الحاكمُ، ولا حاكمَ غيره، والمُحكِم أي المُتقِنُ لِما حكَم به(٣).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)﴾.

أي: فإنْ أعرَضوا عن الإقرار بالتَّوحيد، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه، وعدَلوا عن الحقِّ إلى الباطل، فهُمُ المفسِدون، واللهُ عليمٌ بهم، ويُجازيهم على ذلك شرَّ الجزاء، ويُعاقبُهم أشدَّ العُقوبة(٤).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- كلُّ مَن تولَّى عن دِين الله فهو مُفسدٌ، ولو زعَم أنَّه مصلِحٌ؛ كما في قوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٠).

قال ابن عثيمين: (﴿الْقَصَصُ﴾... يحتملُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى الفعلِ، ويحتملُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى اسمِ المفعولِ أي: إنَّ هذا لهو المقصوصُ الحقُّ، وسواء قُلنا بهذا أو بهذا فالمؤدَّى واحدٌ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[1].

٢- واجبُنا نحوَ أحكام الله الكونيَّة والشَّرعيَّة التَّسليم والرِّضا والقناعة، وألَّا نطلُبَ سواها؛ لأنَّنا نعلَمُ أنَّها مبنيَّةٌ على الحِكمة[2]؛ وذلك يؤخذُ من قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- إقامةُ الحُجَّة بمِثل ما يَحتجُّ به الخَصم؛ لأنَّه أقام الحُجَّة على النَّصارى بمِثْل ما احتَجُّوا به؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾[3].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾، إنْ قال قائلٌ: كيف شُبِّه عيسى بآدم وقدْ وُجِد هو مِن غيرِ أبٍ، ووُجِد آدَمُ من غير أبٍ وأمٍّ؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ التَّشبيهَ إنَّما هو في الحالةِ الخارجةِ عن المألوف؛ فقد شُبِّه به لأنَّه وُجِد وجودًا خارجًا عن العادة المستمرَّة، وهما في ذلك نظيران.

الثاني: أنَّ المماثلةَ هي مشاركةٌ في بعض الأوصافِ؛ فعيسى عليه السَّلام مَثيلُ آدَمَ عليه السَّلام في إحْدى الطَّرفين؛ فلا يمنعُ اختصاصُ آدم عليه السَّلام دونه بالطَّرَفِ الآخَرِ من تشبيهه به.

الثالث: أنَّ الوجودَ من غير أب وأمٍّ أغربُ وأخرقُ للعادة من الوجودِ بغير أبٍ، فشُبِّه الغريبُ بالأغربِ؛ ليكونَ أقطعَ للخَصمِ، وأحسمَ لمادَّة شُبهتِه، إذا نظَر فيما هو أغربُ ممَّا استغربَه[4]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير الشربيني)) =

كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ...﴾ ردٌّ على مَن يدَّعي أُلوهيَّة عيسى عليه السَّلام، فإذا كانوا يقولون: عيسى ابنُ الله- تعالى اللهُ عن ذلك-؛ لأنَّه وُلِد بلا أبٍ، فأَوْلى منه بذلك آدَمُ عليه السَّلام؛ لأنَّه خُلِق بلا أبٍ ولا أمٍّ؛ فإذا لم يكُن آدمُ إلهًا أو ابنَ إلهٍ، فعيسى ليسَ كذلك مِن باب أَوْلى[1].

٣- في قوله: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إثباتُ القياسِ، وكلُّ مَثَل مضروبٍ في القُرْآن، فإنَّه دليلٌ على ثبوت القياس؛ لأنَّه إلحاقُ الـمُورَدِ بالمضروبِ[2].

٤- قال تعالى: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، المقولِ له: ﴿كُن﴾ هو آدَمُ عليه السَّلام؛ وإنَّما قال: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ بعدَ أنْ ذكَر أنَّه ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾- وإنْ كان الترتيبُ الزمنيُّ يَقتضي أن يقول له: ﴿كُن﴾ قبل أنْ يَخلقَه لا بعده-؛ لأنَّه خلقَه قالبًا مِن ترابٍ، ثم قال له: كُنْ بَشَرًا. وقيل: الآية ليس فيها ترتيبٌ زمنيٌّ لهذه الأفعال، وإنَّما أخبرَنا اللهُ تعالى أولًا أنَّه خَلَق آدمَ مِن غيرِ ذَكَرٍ ولا أُنثى، ثم ابتدأَ خبرًا آخَرَ، أرادَ أنْ يُخبِرَنا به فقال: إنِّي مُخبِرُكم أيضًا بعد خَبَري الأوَّل أنِّي قلتُ له: ﴿كُن﴾ فكان، فجاءَ بـ﴿ثُمَّ﴾ لمعنى الخبرِ الذي تقدَّم، والخبرِ الذي تأخَّر في الذِّكر؛ لأنَّ الخَلْقَ تقدَّم على قولِه: ﴿كُن﴾[3].

= (١/ ٢٢١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٢).

والعربُ تضربُ الأمثالَ لبيان ما خَفِي معناه ودقَّ إيضاحُه؛ فلمَّا خفِي سرُّ ولادة عيسى من غير أب- لأنَّه خالف المعروف- ضرَب الله المَثَل بآدَمَ- الذي استقرَّ في الأذهان، وعُلِم أنه أُوجد من غيرِ أب ولا أم- كذلك خَلْقُ عيسى بلا أبٍ. ولا بدَّ من مشاركة معنويَّة بين مَن ضُرِب به المَثَل وبين من ضُرِبَ له المَثَل، من وجهٍ واحدٍ أو من وجوهٍ، ولا يُشترطُ الاشتراكُ في سائرِ الصِّفات. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢٠- ٢٢١).

٥- في إضافةِ الرُّبوبيَّة إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ فضيلةٌ له؛ لأنَّ الرُّبوبيَّة هذه خاصَّةٌ، والرُّبوبيَّة الخاصَّةُ تُفيد معنًى أخصَّ من الرُّبوبيَّة العامَّة(١).

٦- في قوله: ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ نهيُه عن الامتراء- وجلَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يكون ممتريًا- من باب التَّهييج لزيادة الثَّباتِ والطُّمأنينة(٢).

٧- في قوله: ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ قاعدةٌ شريفة، وهي أنَّ ما قامت الأدلَّةُ على أنَّه حقٌّ، وجزَم به العبدُ من مسائلِ العقائد وغيرها، وجَب الجزمُ بأنَّ كلَّ ما عارَضه باطلٌ، وكلَّ شُبهة تُورَدُ عليه فاسدة، سواءٌ قدَر العبدُ على حلِّها أو لا؛ لأنَّ ما خالَف الحقَّ فهو باطلٌ(٣).

٨- جواز المخاطبة بالتَّعريض؛ لأنَّ قوله: ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، لا يعني أنَّ الرَّسول يمكن أنْ يكونَ منهم، بل هو تعريضٌ بهؤلاء، وأنَّهم ذَوو خُلُق سيِّئ(٤).

٩- قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، يدلُّ على أنَّ هناك مهلةً بين العِلم الَّذي جاءه وبين المُحاجَّة الَّتي وقَعَت، بخلاف لو قال: (فمن حاجك فيه بعدما جاءك)، فإنَّها تفيد البَعديَّة، لكن لا تدلُّ على التَّراخي والمباعدة، ومعلوم أنَّ الإنسانَ كلَّما تمعَّن في النَّظر فيما علِم، ازداد به عِلمًا ويقينًا(٥).

١٠- في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، جواز

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((الكشاف)) للزمخشري (١/ ٣٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٥).

طلَب المباهلةِ عند عنادِ الخَصْم؛ وذلك مقيَّد بأنْ تكونَ بعِلم يقينيٍّ، أمَّا إذا كان الإنسان شاكًّا فلا يجوزُ له[١].

١١- في قوله سبحانه: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾، جمَعَ في الملاعنةِ الأبناءَ والنِّساء؛ لأنَّه لَمَّا ظهَرَتْ مُكابرتُهم في الحقِّ وحبُّ الدُّنيا، عُلِم أنَّ مَن هذه صفتُه يكونُ أهلُه ونساؤُه أحبَّ إليه من الحقِّ[٢].

١٢- في قوله: ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ جوازُ الدُّعاء باللَّعن على مَن خالَف الحقَّ، لكن بالوصفِ لا بالشَّخص؛ لأنَّ الكاذبين وصفٌ[٣].

١٣- من شروط المباهَلة أنْ تكونَ في أمرٍ مهمٍّ، أمَّا الأمور الَّتي ليست مهمَّةً، فلا ينبغي للإنسان أنْ يُعرِّض نفسَه للخطَر، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآية[٤].

١٤- في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إبطالٌ لإلهيَّة المسيح على حسَب اعتقادِ المخاطَبين من النَّصارى؛ فإنَّهم زعَموا أنَّ اليهودَ قتَلَتْه؛ وذلك ذِلَّةٌ وعجزٌ لا يَلتئمان مع الإلهيَّة، فكيف يكون إلهًا وهو غيرُ عزيزٍ، وهو محكومٌ عليه؟ وهو أيضًا إبطالٌ لإلهيَّته على اعتقادِنا؛ لأنَّه كان محتاجًا لإنقاذِه من أيدي الظَّالمين[٥].

١٥- يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنَّ كلَّ عزيزٍ إذا اقترَن في عزَّتِه الحكمةُ والحُكم، كملَتْ عِزَّتُه[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٥٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ مَن جَعَل ﴿مَثَلَ﴾ هنا مرادفًا لـ(مِثْل)، كالشَّبَهِ وَالشِّبْهِ، جعَل الجمْعَ بين أداتي تَشبيهٍ على طريقِ التَّأكيد للشبه، والتَّنبيه على عِظَم خطَرِه وقَدْره[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾:

- (ثُمَّ) للتراخي الرُّتبي؛ فإنَّ تكوينَه بأمْر (كن) أرفعُ رتبةً مِن (خلْقِه من تراب)، وهو أسبقُ في الوجودِ والتكوين المشارِ إليه بـ﴿كُنْ﴾: هو تكوينُه على الصِّفة المقصودة؛ ولذلك لم يقُل: (كوَّنه من تراب)، ولم يقل: (قال له كن من تراب، ثم أحياه)، بل قال: ﴿خَلَقَه﴾ ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾[٢].

- وعبَّر بقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ مع كونِه أمرًا قد مضَى، ولم يقل: (فكان)؛ لأنَّ معنى ﴿فَيَكُونُ﴾ فكان، أي: فهو كائنٌ؛ فاسْتُغنى بدَلالةِ الكلام على المعنى وقيل: ﴿فَيَكُونُ﴾، فعطف بالمستقبلِ على الماضي على ذلك المعنى[٣]. وقيل: عبَّر بالمضارِع عن الماضي لاستحضارِ صورة تكوُّنه، ولا يُحمل المضارعُ في مِثل هذا إلَّا على هذا المعنى، مِثل قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[٤] [فاطر: ٩].

- والإشارةُ بصيغةِ الافتعالِ ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾ إلى أنَّه لا يَشكُّ فيه بعدَ هذا إلَّا مَن أمعن الفِكرَ في شُبه يُثيرها، وأوهامٍ يُزاولها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٢٠- ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٢٨).

٣- قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا تنبيهًا لهم على خِطابهم في مباهلتِه، كأنَّه يقول لهم: لا تَعْجَلوا وتأنَّوْا؛ لعلَّه أنْ يَظهرَ لكم الحقُّ؛ فلذلك أتى بحرف التَّراخي، وللإشارة أيضًا إلى خَطرِ الأمْرِ، وأنَّه ممَّا يَنبغي الاهتمامُ به، والتَّروِّي له، وإمعانُ النَّظرِ فيه؛ لوخامةِ العاقبةِ، وسُوءِ المُنقلَبِ للكاذبِ[(١)].

٤- قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ فيه التنبيهُ بـ(ها) والإشارة (ذا) في قوله ﴿هَذَا﴾، والجمعُ بين حرفي التأكيد (إنَّ واللام)، والفَصْل في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[(٢)]؛ فأُكِّد الخبرُ بثلاثة مؤكِّدات؛ لأنَّ المقامَ يَقتضي هذا، فمِن بلاغة الكلام أن يكون مطابقًا للواقع، أو موافقًا لمقتضى الحال[(٣)].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

- قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ﴾: فيه تأكيدُ النَّفي؛ بـ(ما) و(إلَّا)، وذلك أقوى صِيَغ الحَصْر؛ للمبالغةِ في أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ الواحدُ الحقُّ سبحانه وتعالى[(٤)].

- وصرَّح فيه بـ(مِن) الاستغراقيَّة؛ تأكيدًا للردِّ على النَّصارى في تثليثهم. ودخولها- (مِن)- بعد حرْف النَّفي؛ للتَّنصيصِ على قَصْد نفيِ الجِنس؛ لتدلَّ الجملةُ على التوحيد، ونفْي الشريكِ بالصَّراحة، ودَلالة المطابقة، وأنْ ليس المرادُ نفْيَ الوحدة عن غيرِ الله، فيُوهِم أنَّه قد يكونُ إلَاهانِ أو أكثر في شقٍّ آخَر، وإنْ كان هذا يؤول إلى نفْي الشريك، لكن بدلالة الالتزام[(٥)].

- وفي قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ﴾: تَكرارُ اسم الله تعالى[(٦)]،

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) (٣/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٤).

وإظهارُه في موضِع الإضمار- حيث لم يقُلْ: (وإنه)-؛ لتربيةِ المهابةِ، ولتأكيدِ معنى الألوهيَّة[١].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾: فيه- مع التأكيد بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة- إشارةٌ إلى الجواب عن شُبهات النَّصارى[٢].

- والضميرُ في قولِه: ﴿لَهُوَ القَصَصُ﴾ ضميرُ فصلٍ، ودخلتْ عليه لامُ الابتداءِ؛ لزيادةِ التقويةِ التي أفادَها ضميرُ الفصلِ؛ لأنَّ اللام وحْدَها مفيدةٌ تقويةَ الخبرِ، وضميرَ الفصلِ يُفيد القصرَ، أي: هذا القَصصُ لا ما تَقصُّه كتُبُ النصارى وعقائدُهم[٣].

٦- **في قوله تعالى:** ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا**﴾ في الكلامِ التفاتٌ؛ إذ فيه انتقالٌ من خِطابٍ إلى غَيبة- هذا على القولِ بأنَّ الفِعل (تَوَلَّوا) ماضيًا، وأمَّا على القول بأنَّه مضارعٌ أصله (تَتولَّوا) وأُدغمتْ إحْدى التاءين في الأخرى، فليس فيه التِفاتٌ[٤].

٧- **في قوله:** ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ**﴾ وضعُ الظَّاهر موضعَ المُضمَر؛ ليدلَّ على أنَّ التَّولِّيَ عن الحُجَج والإعراض عن التَّوحيد إفسادٌ للدِّين والاعتقاد، المؤدِّي إلى فساد النَّفس، بل وإلى فسادِ العالَم[٥]، ومن فوائده أيضًا: انطباقُ الوصْفِ في هذا المظهَر على مَن يعودُ عليه، ومنها العموم؛ لأنَّه لو جاء الضَّميرُ هنا حسَب السِّياق، فإنَّ اللهَ عليمٌ بهم، لاختصَّ العِلم بهم وحدهم، لكن إذا قال: ﴿بِالْمُفْسِدِينَ﴾ صارَ عامًّا فيهم وفي غيرِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٧).
(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٣٠- ٢٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٢٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٧).

الآيات (٦٤ - ٦٨)

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۭ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۭ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّۭا وَلَا نَصْرَانِيًّۭا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًۭا مُّسْلِمًۭا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿سَوَاءٍ﴾: أي: عدْل، ونَصَفة، وسواءُ كلِّ شيءٍ: وَسَطُه. وأصله: الاستقامةُ والاعتدالُ[(١)].

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مُستقيمًا، أو مائلًا إلى الدِّين المُستقيم، والحَنَفُ: مَيلٌ عن الضَّلال إلى الاستقامة، وأصْله: ميلٌ في إبهامَي القَدمين، كلُّ واحدةٍ على صاحبتِها، والأحنف: مَن في رِجْلِه مَيلٌ؛ قيل: سُمِّي بذلك على التَّفاؤل[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ...﴾

﴿هَا﴾: للتَّنبيهِ. و﴿أَنْتُمْ﴾: في محلِّ رفْع مبتدأ. و﴿هَؤُلاءِ﴾: في محلِّ رفْع

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

خبَر، وعلى هذا فجملةُ ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ في محلِّ نصْب حال، والعاملُ في الحالِ اسمُ الإشارةِ؛ لِمَا فيه مِن معنى الفِعْل. وقيل: إنَّ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ خبرٌ لكِن على تقديرِ حذْفِ مضاف، تقديرُه: ها أنتم مِثلُ هؤلاءِ، وجملة ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ في محلِّ نصْب حال أيضًا، لكن العامِل في الحالِ معنى التشبيه، المستفادِ مِن (مِثْل) المحذوفةِ، ويلزَمُ منه الإشارةُ إلى غائبين؛ لأنَّ المرادَ بهم أسلافُهم على هذا، وقد يُقال: إنه نَزَّل الغائِبَ مَنْزِلَةَ الحاضرِ. وقيل: إنَّ جملة ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ مستأنفةٌ مبيِّنةٌ للجملةِ قبلها، أي: أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى، وبيانُ حماقِتكم وقلةِ عقولكم أنَّكم جادلتم فيما لكم به عِلم بما نَطَقَ به التوراة والإنجيل، فلِمَ تُحاجون فيما ليس لكم به علم؟! وقيل: إنَّه منادَى حُذِف منه حرْف النِّداء، والتقديرُ: يا هؤلاءِ[1]، وخبرُ ﴿أَنْتُمْ﴾ حينئذٍ جملةُ ﴿حَاجَجْتُمْ﴾. وقيل غيرُ ذلك في توجيهِ هذه الآية الكريمة[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يدعوَ أهلَ الكتابِ إلى كَلمةِ عدل، يستوي فيها الجميعُ، ويَجتمعون عليها، وهي كلمةُ التَّوحيد، وإفرادِ الله بالعبوديَّة، وعدمِ الإشراكِ معه غيرَه، وعدمِ اتِّخاذ أربابٍ يُعبَدون من دون الله، أو يُطاعون في تحليل ما حرَّم اللهُ، أو تحريم ما أحلَّ اللهُ؛ فإنْ أعرضوا فأَشْهِدوهم- أيُّها المؤمنون- أنَّكم مُسلِمون، مستمرُّون على هذا الدِّين الَّذي شرَعه الله وارتضاه لكم.

---

(١) وهذا الوجهُ فيه الفصْل بالنِّداء بينَ المبتدأ وخبرِه، وهذا لا يُجيزه جمهورُ البصريين. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٠٢- ١٠٣، ٢٠٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٨٦، ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٤٧٤- ٤٧٨) و(٣/ ٢٤٠- ٢٤٢).

ثمَّ يُوجِّه اللهُ خِطابَه لأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، حيث يقول لهم: يا أهلَ الكتاب، من اليهود والنَّصارى، لِمَ تُخاصِمون في إبراهيم عليه السَّلام، ويدَّعي كلُّ فريقٍ منكم أنَّه كان يَدينُ بدِينه، وفي حقيقةِ الأمْر أنَّ التَّوراة والإنجيل ما أُنزلت إلَّا بعد موتِه بزمنٍ، أفلا تعقلون أنَّ ما تقولونه باطلٌ؟!

فها أنتم خاصمتُم فيما تَعلمونه مِن أمْرِ دِينكم، وما جاء ذِكْره في كُتبكم؛ فلماذا الجدالُ والمُماراة فيما لم يَصِلْكم عِلمُه من شأنِ إبراهيمَ الخليلِ ودِينه الَّذي كان عليه؟! واللهُ قد أحاطَ عِلمُه بكلِّ شيءٍ ممَّا خَفِيَ عنكم علمُه، أمَّا أنتم فلا تعلمون ما يَعلمُه الله.

ثم يُبيِّن الله لهم الحقيقةَ الواضحةَ من أمْر إبراهيم، حيثُ نفَى الله عنه أن يكونَ يهوديًّا أو نَصرانيًّا، بل أَثْبَتَ أنَّه كان حنيفًا مستقيمًا، مُتَّبِعًا لأمْر الله، مُخلِصًا له، كما أنَّه لم يكُن من المشركين، الذين يَعكُفون على عبادةِ الأصنام وغيرِها.

ثمَّ يذكُر اللهُ بعد ذلك الطائفةَ الَّتي هي أحقُّ النَّاس بإبراهيم ووَلايتِه ونُصرتِه، فبيَّن أنَّهم مَن اتَّبع دِينَه، وسلَكَ طريقَه، ومنهم محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والَّذين آمنوا به مِن أصحابِه ومَنْ بعدَهم، فهؤلاءِ أحقُّ بولايتِه، واللهُ يتولَّى المؤمنين، ويُؤيِّدهم وينصُرهم على مَن عاداهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نَكَصَ أهلُ الكتاب عن المباهلة بعد أنْ أَوْرَدَ عليهم أنواع الحُجج فانقطعوا،

فلم تبقَ لهم شُبهةٌ، وقَبِلوا الصَّغارَ والجزية، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حريصًا على هداية الخَلق- أمَرَه الله تعالى أن يقومَ بتكرير دَعوتهم، وإرشادِهم بطريقٍ أخفَّ ممَّا مضى، بأنْ يُؤْنِسَهم فيما يدعوهم إليه بالمؤاساةِ، فيدعو دُعاءً يشملُ المحاجِّين من النَّصارى وغيرِهم- ممَّن له كتابٌ من اليهود وغيرهم- إلى الكلمةِ الَّتي قامت البراهين على حقيَّتها، ونهضت الدَّلائل على صِدقها، على وجهٍ يتضمَّن نفْيَ ما قد يُتَخَيَّلُ من إرادة التفضُّل عليهم والاختصاصِ بأمرٍ دونهم؛ وذلك أنَّه بدأ بمباشرةِ ما دعاهم إليه، ورَضِيَ لهم ما رَضِيَ لنفْسه، وما اجتمعتْ عليه الكتُبُ، واتَّفقت عليه الرُّسلُ، فقال تعالى[1]:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لأهل الكِتابِ من اليهود والنَّصارى: يا أهلَ الكتاب، هَلُمُّوا وأَقْبِلُوا إلى كلمةٍ عدْل نستوي- نحن وأنتم- فيها[2].

ثمَّ فسَّر هذه الكلمةَ بقوله:

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

أي: نوحِّد الله، ونُفرِده بالعبادة[3].

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾.

أي: لا نُشرِكُ بالله شيئًا؛ لا نبيًّا، ولا مَلَكًا، ولا وَلِيًّا، ولا صنمًا، ولا وَثَنًا، ولا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٤٦- ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥).

ومِمَّن قال بأنَّ ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ تعني: كلمة عدل من السَّلف: ابنُ عبَّاس، وقتادةُ، والرَّبيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٨)، ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

حيوانًا، ولا جمادًا، ولا غير ذلك[١].

فهذه دعوةُ الرُّسل- كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: ولا يُنْزِلُ بعضُنا بعضًا منزلةَ الرُّبوبيَّة؛ فيُعبد، أو يُسجَد له، أو يُطاع في تحليل ما حرَّم الله، أو تحليل ما أحلَّ الله[٢].

كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

أي: فإنْ أعْرَضوا عن إجابة ما دُعُوا إليه فقولوا- أيُّها المؤمنون- لهؤلاء المعرِضين: اشهدوا أنَّنا مُستمرُّون على الإسلام، منقادون لشريعتِه، مقرُّون بتوحيد الله، مُخلِصون في عبادتِه[٣].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٧٤، ٤٨٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٧).

أي: يا أهلَ الكتاب، من اليَهود والنَّصارى، لِمَ تجادلون وتخاصمون في إبراهيمَ خليلِ الرَّحمن، ويدَّعي كلُّ فريقٍ منكم أنَّه كان منهم، ويَدِينُ دِينهم(١).

كما قال تعالى مُبيِّنًا وَجْهَ مُحاجَّتِهم في إبراهيم: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾، وكما قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾.

ثمَّ يُقِيمُ الحُجَّة الداحِضة لدعواهم، والدَّليل المبطِل لقولهم، فيقول:

﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾.

أي: كيف تَدَّعُونَ- أيُّها اليهود- أنَّه كان يهوديًّا، وأيُّها النَّصارى- أنَّه كان نصرانيًّا، وما أُنْزِلَت التَّوراة ولا الإنجيل إلَّا بعد موته بزمن. واليهوديَّةُ ما حَدَثَتْ إلَّا بعد نزول التَّوراة، ولا حدَثت النصرانيَّة إلَّا بعد نزول الإنجيل(٢)؟!

ولَمَّا كان الدَّليل عقليًّا، قال الله مُوَبِّخًا لهم(٣):

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلا تَعقِلون بُطْلانَ قولِكم؟! فلو عَقَلتم ما تقولون، لم تقولوا ذلك(٤).

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٣).

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

أي: ها أنتُم- يا هؤلاء- جادلتُم وخاصَمتُم فيما لكم به عِلمٌ من أمْر دِينكم ممَّا وجدتموه في كُتُبكم(١).

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

أي: فلِمَ تُجادلون وتُخاصِمون في الَّذي لا عِلمَ لكم به من أمْر إبراهيم، وما كان عليه مِن الدِّين(٢)؟!

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: واللهُ يعلمُ ما غاب عنكم، ولم يَأتِكم عِلمُه عن طريقِ رُسله من أمْر إبراهيم عليه السَّلام وغيره من الأمور، وأنتُم لا تعلمونَ ما يَعلمُه اللهُ مِن هذا وغيرِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾.

ثم يُقرِّر الله تعالى ما كان عليه إبراهيمُ عليه السَّلام من الدِّين، فيقول:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾.

أي: لم يكُن إبراهيمُ عليه السَّلام يَهوديًّا على ملَّة اليهود، ولا نصرانيًّا على ملَّة النَّصارى(٤).

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٢). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٥).

﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾.

أي: ولكن كان إبراهيمُ عليه السَّلام مستقيمًا، مُتَّبِعًا لأمْر الله، مُخْلِصًا له، قد خشَع لله قلبُه، وانقادتْ له جوارحُه، والتزم بأحكامِه[(١)].

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: لم يكُن إبراهيمُ عليه السَّلام من المشركين، الَّذين يَعبُدون غيرَ الله من الأصنام وغيرها[(٢)].

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾.

أي: إنَّ أحقَّ النَّاسِ بإبراهيمَ وولايتِه ونُصرتِه، وأقربَهم إليه، هم الَّذين اتَّبعوه على دِينِه وملَّته، وسلكوا طريقَه[(٣)].

﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والَّذين آمنوا به مِن أصحابِه؛ ومَنْ بعدَهم[(٤)].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: والله ناصرُ المؤمنين، ومُعِينُهم، ومؤيِّدهم[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية ٢٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُؤخَذ من قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أنَّه ينبغي للمسلم أن يَعتزَّ بدِينه، وأن يُعلنه ويُشْهِرَه، خِلافًا لضعفاء الشَّخصية، الَّذين يتستَّرون بدِينهم مخافةَ أن يُعَيِّرَهم النَّاسُ به(١).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، عُلِّقَت الولايةُ بالإيمان، والحُكم المُعَلَّقُ بوصف يَزدادُ قوَّةً بقوَّة هذا الوصف فيه، وعليه فكلَّما كان الإنسانُ أقوى وأكمل إيمانًا، كانت ولايةُ الله له أتمَّ وأخصَّ وأكملَ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- إذا صدَّر اللهُ تعالى الشَّيء بـ﴿قُلْ﴾ الموَجَّه للرسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنَّه يَقتضي زيادةَ العناية به؛ لأنَّه أُمِرَ بأنْ يُبلِّغَ هذا الشيءَ بخصوصِه(٣).

٢- الكلمة تُطْلَقُ على الجملة المفيدة كما في قوله: ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾، ثمَّ قال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا...﴾(٤).

٣- في قوله: ﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ تنزُّل مع الخَصْم لإلزامه بالحقِّ، فمعلومٌ أنَّ الحقَّ مع الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكن من أجل إلزام الخَصْم وإقامة الحجة عليه تنزَّل معه(٥).

٤- يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

= السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٩).

وَبَيْنَكُمْ﴾ أنَّه يجبُ العدلُ في المناظرة حتَّى مع العدوِّ الكافر، وإذا كان هذا واجبًا في مناظرةِ المسلمين مع الكفَّار، فهو في مناظرةِ المسلمين بعضِهم مع بعضٍ أوجبُ وأوكَد[1].

٥- في قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ذَكَر ثلاثةَ أشياء: أولها: ألَّا نعبُد إلَّا الله. وثانيها: ألَّا نُشرِكَ به شيئًا. وثالثها: ألَّا يتَّخِذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون اللهِ، وإنَّما ذَكَر هذه الثلاثة؛ لأنَّ النَّصارى جمَعوا بين هذه الثلاثة[2].

٦- في قوله: ﴿بَعْضُنَا بَعْضًا﴾ بيانُ أنَّ البعضيَّة تُنافي الإلهيَّة؛ إذ هي تماثُلٌ في البشريَّة، وما كان مِثلَك استحال أن يكون إلهًا[3].

٧- في قوله: ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ دليلٌ على بُطلان القول بالاستحسانِ المجرَّد الَّذي لا يَستنِد إلى دليلٍ شرعيٍّ، وبُطلانِ القولِ بوجوب قَبُول قولِ الإمام دون إبانةِ مُستنَدٍ شرعي، كما ذهَب إليه الرَّوافض[4].

٨- لَمَّا كان التَّوجُّهُ إلى غيرِ الله خِلافَ ما تدْعو إليه الفِطرة الأولى، عبَّر بصيغة الافتعال فقال: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾[5].

٩- في قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أنَّ الحكم بين النَّاس والعبادة مُقترِنان؛ لأنَّ الله قَرَنَ بينهما،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٥٢)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٦).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٤٧).

ولأنَّك لن تعبُدَ الله إلَّا بشريعتِه، إذنْ يلزم أنْ يكون المشرِّعُ هو المعبودَ، ولا ينبغي لأحد أن يُشَرِّعَ من دونه[1].

١٠- الإشهادُ في قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ للتَّسجيل عليهم؛ لئلَّا يُظهروا إعراضَ المسلمين عن الاسترسالِ في مُحاجَّتهم في صورةِ العجزِ والتَّسليم بأحقيَّة ما عليه أهلُ الكتاب[2].

١١- إشهادُ الخَصم على الحال الَّتي يكون عليها خَصمُه؛ لِمَا في ذلك من الغضاضةِ عليه، وكسْر جَبروته، وعدمِ انقيادِه للحقِّ، كما في قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3].

١٢- قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يتضمَّن الإسلامَ والإيمانَ العمليَّ، الذي هو تجريدُ القَصْدِ بالحُبِّ والخَوفِ والرَّجاءِ، والتوكُّلِ والإنابةِ، والاستعانةِ والاستغاثةِ، والعبوديَّةِ بالقَلْبِ واللِّسانِ والجوارحِ لله وحْدَه[4].

١٣- الحثُّ على تعلُّم عِلم التاريخ، وأنَّه طريق لردِّ كثير من الأقوال الباطلة والدَّعاوى الَّتي تخالف ما عُلِمَ من التاريخ، كما جاءت الإشارة في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾[5].

١٤- في قوله: ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٥).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٦٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٠٢- ٤٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بيانٌ للاحتجاج بالعقل؛ وإشادةٌ به، وأنَّه لا ينبغي إهمالُ العقل في الاستدلال، وأنَّه لا يَحْمِلُ صاحبَه إلَّا على السَّداد والصَّواب، لكن لا ينبغي الاعتمادُ عليه بالكلِّيَّة، وتركُ النَّصِّ(١).

١٥- الهدفُ من ادِّعاءات أهل الكتاب احتكارُ عهدِ الله مع إبراهيم عليه السَّلام أنْ يَجعَلَ في بيته النُّبوَّةَ، واحتكارُ الهداية والفَضل، وتكذيبُ دعوى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه على دِين إبراهيم، وأنَّ المسلمين هم ورثةُ الحنيفيَّة الأولى، وتشكيكُ المسلمين في هذه الحقيقة، أو بثُّ الرِّيبةِ في نفوسِ بعضِهم على الأقلِّ(٢).

١٦- في قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ...﴾: تنزُّلٌ مع الخصم، يعني: لو فرضْنا أنَّ المحاجَّة قُبِلَتْ منكم فيما لكم به علمٌ، فإنَّها لا تُقْبَلُ منكم فيما ليس لكم به علمٌ(٣).

١٧- إقرارُ الإنسان على المحاجَّة بالعِلم، ولكن بشَرْط أنْ يكون قصْدُه حسنًا، بحيث يُريدُ من المجادلةِ الوصولَ إلى الحقِّ، فيُثبت الحقَّ، ويُبطِل الباطلَ(٤).

١٨- قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ فيه النَّهيُ عن الجَدَل بغيرِ عِلمٍ(٥).

١٩- في الآية دليلٌ على أنَّ الأولويات تختلف، أي: إنَّ النَّاس يتفاضلون بالأولويَّة والولاية؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ﴾، و﴿أَوْلَى﴾ اسم تفضيل يدلُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٧٨، ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٠٩).

على المفضَّل والمفضَّل عليه، ولا شكَّ أنَّ الولاية درجات(١).

٢٠- عطف ﴿النَّبِيُّ﴾ على الَّذين اتَّبعوا إبراهيم؛ للاهتمامِ به وتعظيمِه(٢).

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يَقُل: (وَلِيُّهم)؛ تنبيهًا أنَّ مُوالاةَ اللهِ تعالى تُستَحَقُّ بالإيمانِ، وأنَّها ليست بمقصورةٍ على من تقدَّمَ ذِكْرُهم، بل ذلك لكُلِّ مؤمنٍ في كلِّ وقتٍ(٣).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأفعالُ الدَّاخلُ عليها أداةُ النَّفي (أَلَّا نَعْبُدَ - وَلَا نُشْرِكَ - وَلَا يَتَّخِذَ...) مُتقارِبةٌ في المعنى، يُؤكِّد بعضُها بعضًا؛ إذ اختصاصُ الله بالعبادة يتضمَّن نفْيَ الاشتراك، ونفْيَ اتخاذِ الأربابِ من دون الله، ولكن الموضِع مَوضِعُ تأكيدٍ وإسهابٍ ونشْرِ كلام(٤).

- وقوله: ﴿أَلَّا نَعبُدَ إلَّا اللهَ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: فيه تكرار اسم الله تعالى(٥)، وإظهاره في موضِع الإضمار؛ لتربية المهابة، ولتأكيد معنى الألوهيَّة.

٢- قوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ عبَّر عن العِلم بالشَّهادة؛ وذلك على سبيلِ المبالغة، إذ خرَج ذلك من حيِّز المعقول إلى حَيِّز المشهود، وهو المحضَر في الحسِّ(٦).

٣- قوله سبحانه: ﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ..﴾، ﴿إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٧).
(٣) ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٢/ ٦٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ١٩٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٠٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ١٩٦).

﴿أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾: فيه تكرارٌ[1]؛ حيث تكرَّر اسم الخليل إبراهيم عليه السَّلام ثلاثَ مرَّات في ثلاث آيات؛ للتشريفِ وللتنويهِ بشأنِه، ولإظهارِ علوِّ مقامِه.

٤- قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ﴾ استفهامٌ مقصودٌ منه التنبيهُ على الغَلَط[2].

٥- قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾:

- فيه مناسبةٌ حسَنةٌ، حيثُ بدأ بالنَّفي قبلَ الإثبات؛ للإشارة إلى (التخلية قبل التحلية)، وهو ترتيبٌ موافِقٌ للطبيعة؛ لأنَّك تُخْلِي الشيءَ ممَّا يَشِينُه أوَّلًا، ثمَّ تضيفُ ما يكون به الكمالُ ثانيًا[3].

- وبدأ بنَفْي اليهوديَّة قبل النصرانيَّة في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾؛ لأنَّ شريعةَ اليهود أقدمُ من شريعة النَّصارى، وكرَّر ﴿لَا﴾، لتأكيدِ النَّفي عن كلِّ واحدٍ من الدِّينَيْنِ[4].

- ووقعتْ ﴿لَكِنْ﴾ في قوله: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حنيفًا مسلمًا﴾ في أحسنِ موقعِها؛ إذ هي واقعةٌ بين النَّقيضَينِ بالنِّسبة إلى اعتقادِ الحقِّ والباطل[5]، وأفادَ الاستدراكُ بعدَ نفْي الضِّدِّ حَصْرًا لحالِ إبراهيمَ فيما يوافق أصولَ الإسلام؛ ولذلك بيَّن ﴿حنيفًا﴾ بقوله: ﴿مُسْلِمًا﴾؛ لأنَّهم يَعرِفون معنى الحنيفيَّة ولا يُؤمنون بالإسلام؛ فأَعْلَمَهم أنَّ الإسلامَ هو الحنيفيَّة[6].

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ فيه استدراكٌ بعد نفْي الضدِّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٥).

حصرًا لحال إبراهيمَ فيما يُوافِقُ أصولَ الإسلام؛ ولذلك بيَّن ﴿حَنِيفًا﴾ بقوله: ﴿مُسْلِمًا﴾؛ لأنَّهم يَعرِفون معنى الحنيفيَّة، ولا يُؤمنون بالإسلامِ، فأعْلَمَهم أنَّ الإسلام هو الحنيفيَّة(١).

- وفيه: قصْرٌ إضافيٌّ بالنسبةِ لليهوديَّة والنصرانيَّة، حيث كان العربُ يَزعُمون أنَّهم على ملَّةِ إبراهيم، لكنَّهم مشركون(٢).

٧- **قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** فيه تعريضٌ بأنَّهم مشركون بقولهم: ﴿عزيرٌ ابنُ اللهِ﴾، و﴿المَسِيحُ ابنُ اللهِ﴾، وردٌّ لادِّعاء المشركين أنَّهم على ملَّةِ إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام. وخصَّ بالنَّفْي مَن عُرفوا بالشِّرك مع الصلاحِ لكلِّ مَن داخَلَه شِرْكٌ من غيرهم، كمَن أشركَ بعُزيرٍ والمسيحِ عليهما الصَّلاة والسَّلام، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

٨- **قوله: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾** تذييلٌ، أي: هؤلاء هم أَوْلى الناس بإبراهيم، والله وليُّ إبراهيم، والذين اتَّبعوه، وهذا النبيُّ والذين آمنوا؛ لأنَّ التذييلَ يشمل المذيَّل قطعًا، ثم يشمل غيرَه تكميلًا، كالعامِّ على سببٍ خاصٍّ(٤).

- وفي قوله: ﴿واللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾: تعريضٌ بأنَّ الذين لم يكُن إبراهيمُ منهم ليسوا بمؤمنين(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٥- ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٩ - ٧١)

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿تَلْبِسُونَ﴾: تَخلِطون، وأصل اللَّبس: المُخالَطةُ والمداخلة(١).

المَعنَى الإجماليُّ

يُحذِّر اللهُ تعالى عبادَه من مَكْر طائفةٍ خبيثةٍ من اليهود والنَّصارى، أُمنيتُها وغايتُها إضلالُ المسلمين، وإخراجُهم من النورِ إلى الظُّلمات؛ حَسدًا من عند أنفسِهم، إلَّا أنَّ مَكْرَهم هذا لا يَحيقُ إلَّا بهم، وإضلالهم للمسلمين يَرتدُّ عليهم، فيكون جُهدُهم الَّذي يبذلونه في الإضلالِ سببًا في زيادةِ ضلالهم؛ فهُم بهذا السعيِ لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم، وهم لا يَدْرُون.

ثم يقول الله تبارَك وتعالَى- مُنكِرًا على أهل الكتاب ما يفعلونه-: يا أهلَ الكتاب، ما الَّذي يَحمِلكم على الكُفْرِ بالقرآن، وأنتم تشهدون بصحَّته، وتُوقِنون بصدقه، وأنَّه منزَّلٌ من ربِّكم بالحقِّ؟! يا أهلَ الكتاب، لِمَ تَخْلِطون الحقَّ بالباطل حتَّى يلتبِسَ بعضُه ببعض، وتكتمونَ الحقَّ وتُخفونه، وأنتم تعلمونَ أنَّكم تَلبسونَ الحقَّ بالباطلِ، وتكتمون الحقَّ؟!

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧).

يقول اللهُ تعالى محذِّرًا من مَكْرِ هذه الطَّائفة مِن أهل الكتابِ:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾.

أي: تمنَّتْ جماعةٌ من أهل التَّوراة مِن اليهودِ، وأهلِ الإنجيل مِن النَّصارى- أنْ يُخرجوكم من الهُدى إلى الضَّلال، ومِن الإسلامِ إلى الكفرِ(١).

كما في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

أي: هم بذلك لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم؛ لأنَّهم ابتعدوا عن الإسلامِ، وانْشَغلوا بمحاولةِ إضلالِ المؤمنينَ عن طلبِ الهِداية(٢).

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: وما يَدْرُون، ولا يَعلمون أنَّهم لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم، وأنَّهم لا يَصِلون إلى إضلالِ المؤمنين(٣).

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٩٨).

ومِن المعلوم أنَّ مَن ودَّ شيئًا سعَى بجهدِه لتحصيلِ مرادِه، فهذه الطائفة تَسعى وتبذُل جهدَها في ردِّ المؤمنين وإدخال الشُّبه عليهم بكلِّ طريقٍ يقدرون عليه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ تحتمل ﴿مِنْ﴾ أن تكون للتبعيض، وتكون الطائفة الرؤساء والأحبار الذين يسكُن الناس إلى قولهم، ويحتمل أنْ تكون لبيان الجِنس، وتكون الطائفةُ جميعَ أهل الكتاب. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٨٩، ٤٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١١٠).

ثم قال تعالى مُنكِرًا عليهم:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ختَم الكلامَ في أهل الكتاب بنَفْي شُعورِهم، بَيَّنَ تعالى في مَعرِضِ التبكيتِ أنَّ نفيهم عنه إنَّما هو لأنَّهم معانِدون، لا يَعملون بعِلمهم، بل يعَملون بخِلافه، فقال مستأنِفًا بما يدلُّ على غايةِ التبكيتِ المُؤْذِنة بشديد الغضب[1]:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

أي: يا أهلَ الكتاب، ما الَّذي دعاكم إلى الكُفر بالقرآن[2]؟!

﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

أي: وأنتُم تَشهدون بصحَّةِ القرآن، وتعلمون صِدقَه، وأنَّه حقٌّ من عند ربِّكم[3].

فهم يَعلمون نعْتَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّذي جاء في كتبهم، وأنَّ ما جاء به حقٌّ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٥٥- ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (١/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤).

وقال ابنُ عثيمين: (آياتُ الله تشمل: التوراة والإنجيل والقرآن). ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيِّم (١/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.

أي: يا أهلَ الكتاب، لِمَ تَخلِطون الحقَّ بالباطلِ حتَّى يلتبسَ أحدُهما بالآخَر[١].

ثم ذكَر لازِمَ لَبْسِ الحقِّ بالباطِل، وهو كتمانُ الحقِّ[٢]، فقال:

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾.

أي: وتُخْفون الحقَّ، ومن ذلك كتمانُهم صفةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الموجودةَ في كتُبِهم، ونبوَّتَه[٣].

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وأنتُم تعلمون أنَّكم تَلْبِسون الحقَّ بالباطل، وأنَّ الَّذي تكتُمونَه من الحقِّ حقٌّ[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ في غَمْرَة الغَلَبَة، أو حبِّ الغَلَبَة، وسَكْرَة حبِّ الظُّهور يَنْسَى، ولا يشعر بضلاله وغوايته[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٣)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيِّم)) (ص: ١٣٤).

(٢) وإنَّما كان اللبسُ مستلزمًا للكِتمان؛ لأنَّ مَن لبس الحقَّ بالباطل، كما فعله أهل الكتاب- حيث ابتدعوا دينًا لم يَشرَعه الله، فأمروا بما لم يأمر به، ونهوا عمَّا لم ينه عنه، وأخبروا بخلاف ما أخبر به- فلا بدَّ له أن يكتم من الحقِّ المنزل ما يناقض بِدعتَه؛ إذ الحقُّ المنزل الذي فيه خبر، بخِلاف ما أخبر به إنْ لم يكتمْه، لم يتمَّ مقصوده، وكذلك الذي فيه إباحةٌ لِمَا نُهي عنه، أو إسقاط لما أُمر به. يُنظر: ((درء التعارض)) لابن تيمية (١/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٠).

٢- في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ المعتدي يُجازَى بمثل عُدوانه، ويُبتلَى بمثل ما ابْتُلِيَ غيره به[1].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسان قد يَعْمَى عن الباطل مع ممارستِه له[2].

٤- في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أيضًا مبالغةٌ في ذمِّهم، حيث فقَدوا المنفعةَ بحواسِّهم[3].

٥- يجب الحذرُ من أهلِ الباطل إذا لَبَسوا باطلَهم بالحقِّ، وألَّا نغترَّ بهم إذا زخرفوا القول[4].

٦- في قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ توبيخٌ لكل مَن لَبَسَ الحقَّ بالباطل، وكتَم الحقَّ، وسلَك هذا المسلك؛ لأنَّ تخصيصَ التوبيخِ لأهل الكتاب ليس تَخصيصًا للشخصِ والعين، بل بالجِنس والنوعِ والوصفِ؛ فمَن كان على شاكلتِهم، فإنَّه يَستحقُّ هذا التوبيخ[5].

٧- في قوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دليلٌ على وجوبِ بيان الحقِّ على من عَلِمَه، أمَّا مَن لم يَعلم، فعُذره ظاهرٌ[6].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ تعزيةُ المسلمين بما يُريده بهم هؤلاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

من الإضلالِ، فكأنَّ الله قال: لا تخافوا منهم؛ فإنَّ الإضلالَ إنَّما يعود عليهم[١].

٢- لانهماكِ أهلِ الكتاب في إضلالِ المسلمين لم يَشعُروا بأنَّه كان صارفًا لهم عن معرفة الحقِّ والهدى؛ لأنَّ المنهمكَ في الشَّيء لا يكادُ يَفطن لعواقبِه وآثاره، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٢]

٣- قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ولم يقُل: (وأنتم تعلمون)؛ لأنَّ الشهادةَ أقوى؛ لكونِها تَقتضي أنْ يكونَ العالِم كالمشاهِد للشيءِ بحسِّه، والمشاهدة بالحسِّ أقوى من المشاهدة بالذِّهن، أو مِن العِلم بالذِّهن[٣].

٤- السَّاعي في إخفاء الحقِّ لا سبيلَ له إلى ذلك إلَّا من أحد وجهين: إمَّا بإلقاء شُبهةٍ تدلُّ على الباطل، وإمَّا بإخفاءِ الدَّليل الَّذي يدلُّ على الحقِّ، فقوله: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ﴾ إشارةٌ إلى المقام الأوَّل، وقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ إشارة إلى المقام الثَّاني[٤].

٥- خُتِمَت الآيةُ الأولى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، والثانية: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ خُتِمَتْ بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ قيل لأنَّ المنكَرَ عليهم في الآية الأولى هو الكفرُ بآيات الله، وهي أخصُّ مِن الحقِّ؛ لأنَّ آياتِ الله بعضُ الحقِّ، والشهادة أخصُّ من العِلم، فناسَب الأخصُّ الأخصَّ، وذَكَرَ ﴿تَعْلَمُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٥٦/ ٢٥٧).

مع الحقِّ؛ لأنَّ الحقَّ أعمُّ من الآيات وغيرها، والعِلم أعمُّ من الشهادة، فناسب الأعمُّ الأعمَّ(١).

٦- تلبيسُ الحقِّ بالباطل هو سببُ مَنْشَأ ضلالِ مَنْ ضَلَّ من الأُمم قَبلنا، وهو منشأ البِدع كلِّها؛ فإنَّ البدعَ لو كانت باطلًا محضًا لَما قُبِلَتْ، ولَبادَرَ كلُّ أحد إلى ردِّها وإنكارها، ولو كانتْ حقًّا محضًا لم تكن بدعةً، وكانت مُوافِقةً للسُّنة، ولكنها تشتمل على الحقِّ والباطل، ويَلتبس فيها الحقُّ والباطل، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ...﴾** استئنافٌ، و(مِن) هاهنا للتبعيض- على أحدِ الوجهين كما سبَق-، وإنَّما ذَكر بعضَهم ولم يعمَّهم؛ لأنَّ مِنهم مَن آمَن(٣).

٢- **قوله: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ﴾** المقصودُ مِن إعادةِ نِدائهم بهذا، هو التوبيخُ، وتسجيلُ باطلهم عليهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٠٩- ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣١٧)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيِّم)) للبعلي (ص: ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٩).

الآيات (٧٢ - ٧٤)

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾: أي: صدْرَ النَّهار، أو أوَّله؛ فالوجه أوَّل ما يُسْتَقْبَلُ من الشيء[1].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾

﴿أَنْ يُؤْتَى﴾: (أنْ) والفِعل في تأويل مصدر (إيتاء)، متعلِّق بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ على حذْفِ حرفِ الجرِّ، والأصل: (ولا تؤمنوا بأنْ يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم إلَّا لِمَن تبع دِينكم)، فيكون في موضِع جَرٍّ أو نصْبٍ على الخلافِ في موضِع (أن) إذا حُذِف حرفُ الجرِّ، ويكون قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ جملةً اعتراضيَّة، أي: ولا تُظهروا إيمانَكم بأنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم إلَّا لأهل دِينكم دونَ غيرهم. وقوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾: عطفٌ على ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾. والضَّميرُ في ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾ عائدٌ على ﴿أَحَدٌ﴾؛ لأنَّه في معنى الجميع، أي: ولا تُؤمنوا لغيرِ أتْباعِكم؛ فإنَّ المسلمين يُحاجُّوكم عندَ ربِّكم بالحقِّ، ويُغالِبونكم

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥- ٨٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

عندَ الله. وعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ﴾ مُستثنًى من شيءٍ محذوف، تقديرُه: ولا تُؤمِنوا بأنْ يُؤتَى أحدٌ مِثلَ ما أوتيتُم لأحدٍ مِن الناسِ إلَّا لأشياعِكم دون غيرِهم.

أو يكون قوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ منصوبًا بفِعلٍ مُقدَّر يدلُّ عليه ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ كأنَّه قيل: قل إنَّ الهُدَى هُدَى الله، فلا تُنكروا أنْ يُؤتَى أحدٌ مِثلَ ما أوتيتُم، فـ(لا تُنكروا) ناصبٌ لـ(أن) وما في حَيِّزها، وجازَ حذفُ العامل (فلا تُنكِروا)؛ لوجودِ ما يدلُّ عليه.

أو يكون ﴿هُدَى اللهِ﴾ بدلًا مِن ﴿الْهُدَى﴾ الذي هو اسمُ إنَّ، ويكونُ خبر إنَّ: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾، والتقدير: قل: إنَّ هدى الله أنْ يُؤتَى أحدٌ، أي: إنَّ هدى الله إيتاءُ أحدٍ مثلَ ما أوتيتُم، وتكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى (حتى)، والمعنى: حتَّى يُحاجُّوكم عند ربِّكم فيَغلبوكم، ويَدْحَضوا حُجَّتكم عند الله، ولا يكون ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ معطوفًا على ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ وداخلًا في حيِّز (أن). وفي هذه الآيةِ أقوالٌ أخرى كثيرةٌ(١).

المَعنَى الإجماليُّ

يُخبر الله تعالى عن طائفةٍ خبيثةٍ أرادتِ المكيدةَ للمسلمين، بالتلبيسِ على الضُّعفاء أمرَ دِينهم، فتشاوروا بينهم أنْ يُظهروا الإيمانَ بما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّل النهار، فإذا جاء آخِرُ النهار كفَروا به؛ ليقول الضعفاءُ من النَّاس: لو كان هذا الدِّين حقًّا، ما ارتدَّ عنه مَنْ آمَن به من أهل الكتاب؛ يُريدون بذلك أنْ يَرجِعَ المسلمون عن دِينهم ويَتركوه.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٧٠- ٢٧١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٥٢- ٢٥٦).

كما أخْبَرَ الله تبارَكَ وتعالَى عنهم بأنَّهم تواصَوْا فيما بينهم بألَّا يؤمنوا إلَّا لِمَن كان على دِينِهم ومِلَّتهم، ثمَّ أَمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأن يردَّ عليهم، فقال له: قل لهم- يا محمَّدُ-: إنَّ الهُدَى والتوفيقَ مِن الله؛ فهو المتكفِّلُ بهدايةِ المؤمنين إلى الإيمانِ بما أنزلَه على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

ثم عادَ السِّياقُ إلى كَلامِ اليَهودِ بَعضِهم لبعضٍ، ووصاياهم فيما بَينَهم؛ إذ قالوا: ولا تَطْمئنُّوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تُظهروا سرَّكم وما عندَكم للمُسلمينَ، كراهةَ أن يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتِيتُم مِن العلمِ- لأنَّكم إذا أظهرتُم ما عندَكم مِن العلمِ للمسلمينَ، فإنَّهم يتعلمونه مِنكم، ويحصلُ لهم مِن العلمِ ما حصَل لكم، فيَصيرون مثلَكم- أو يتَّخِذوه حُجَّةً عليكم عندَ الله تعالى، ويَشهَدوا أنَّه قد تبيَّن لكم الهُدَى فلم تتَّبِعوه، فقال اللهُ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قلْ لهم- يا محمَّد-: إنَّ التَّوفيقَ والهِدايةَ والإحسانَ يُعطيها اللهُ مَن أراد مِن عِبادِه؛ فهو واسعُ الفضلِ، كثيرُ الإحسان، عليمٌ بمَن هو أهلٌ للإحسانِ؛ فيَهَبه له، ومَن لا يَستحقُّه فيَحْرِمه منه، وهو يَختصُّ برحمتِه مَن يشاءُ مِن عِبادِه؛ فهو صاحبُ الفضلِ الواسعِ الكثيرِ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)﴾.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾.

أي: وقالت طائفةٌ من أهل الكتاب من اليهود: أظهِروا الإيمانَ بما جاءَ به محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وادْخُلوا في دِينه أوَّل النهار[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٤٩)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩). =

﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾.

أي: إذا كان آخِرُ النهارِ اكفُروا بدِينهم[١].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لعلَّهم يَرجعون عن دِينهم ويَتركونه؛ لأنَّه يُقال: لو كان هذا الدِّين صحيحًا ما خرَج منه مَنْ آمَن به مِن أهلِ الكِتاب[٢].

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)﴾.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

أي: وقالتْ هذه الطَّائفة أيضًا: لا تثِقوا، ولا تَطْمئنُّوا إلا لمن تبع دينكم، واكتمُوا أمرَكم، ولا تُظهروا سرَّكم وما عندَكم للمُسلمينَ[٣].

فأمَر الله نبيَّه أنْ يردَّ عليهم بهذه الجملةِ الاعتراضيَّة:

﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ-: إنَّ التوفيقَ توفيقُ الله، والبيانَ بيانُه؛ فهو الَّذي يَهدي

= وممَّن قال بهذا القول وبنحوه: ابن عبَّاس وقتادة، وأبو مالك، والسُّدِّي، والربيع بن أنس. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٦٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

وقيل المعنى: ولا تُصدِّقوا إلَّا من تَبعَ دِينكم، فكان يهوديًّا. وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٠)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٥٠).

المؤمنين إلى الإيمانِ بما نزَّله على نبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنْ فعلتُم ما فعلتُم، فلن يَنفعَكم ذلك شيئًا[١].

ثم عادَ السِّياقُ إلى كلامِ اليهودِ بعضِهم لبعض[٢]:

﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ قِراءتان[٣]:

١- (ءانْ يُؤْتَى) بالمدِّ في (ءَان)، وهو استفهامٌ معناه الإنكار؛ وذلك أنَّ أحبارَ اليهود قالوا لِذَويهم: أَيُؤتَى أحَدٌ مثلَ مَا أوتيتُم؟ أي: لا يُؤتى أحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ[٤].

٢- ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ من غير مدٍّ في (أنْ)، وهي المصدريَّة، والمعنى: ولا تُؤمنوا إلَّا لِمَن تبع دِينكم ولا تُؤمنوا أنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٨).

(٢) وهذا اختيارُ ابن جريرٍ في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٤)، والواحديِّ في ((تفسيره)) (١/ ٤٥٠) وابنِ كثير في ((تفسيره)) ٢/ ٦٠ والسعديِّ في ((تفسيره)) (ص: ١٣٤) وغيرهم.
وهو قولُ مجاهد والأخفش. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٩٤).
وقيل: بل إنَّ كلامَ اليهود تامٌّ عندَ قوله: ﴿لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، والباقي مِن قول الله تعالى، لا يَعترِضه شيءٌ من قولِهم، وهو قولُ الحسن، وسعيدِ بن جُبير. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٢٩٤).

(٣) قرأ ابن كثير (ءانْ) بالمد، وقرأ الباقون (أَنْ) من غير مد. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى القراءتين: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤٧).

(٤) قرأ بها ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤٧).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١). =

﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾.

أي: كراهةَ أن يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم مِن العلمِ؛ لأنَّكم إذا أظهرتُم ما عندكم مِن العلمِ للمسلمينَ، فإنَّهم يتعلمونه مِنكم، ويحصلُ لهم مِن العلمِ ما حصَل لكم، فيَصيرون مثلَكم، ويُساوُونكم فيه[1].

﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

أي: أو يتَّخذوه حجةً عليكم عندَ اللهِ تعالى، ويشهدوا أنَّ الحُجة قد قامتْ عليكم، وتبيَّن لكم الهدَى فلم تتَّبِعوه[2].

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٥٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٦)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

وقيل المعنى: ولا تُصدِّقوا أن يُؤتَى أحدٌ من البشرِ مِثلَ الَّذي أوتيتُم يا بني إسرائيل. وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٠)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٥٠).

وفي الآية أوجهٌ أُخرى:

منها: أنَّ قولَ اليهود انتهى عند قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وما بَعدَه مِن قولِ الله تعالى كما تقدَّمت الإشارةُ إليه.

ويكون المعنى على ذلك: قل يا محمَّد، إنَّ الهدى هدى الله ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ أنْ بمعنى: الجَحْد، أي: ما يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتُم، يا أمَّة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا معنى قولِ سعيد بن جُبَير والحسن والكلبي ومقاتل. ((تفسير البغوي)) (١/ ٤٥٧).

أو يكون المعنى: كراهةَ أن يُؤتَى أحدٌ مِثلَ ما أوتيتُم وقلتُم ما قلتُم، ودبَّرتم ما دبَّرتم من الخداع، فموضع ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ مفعولٌ من أجله، أو منصوب بفِعل مضمر، تقديره: فلا تُنكروا أن يُؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتُم من الكتاب والنبوة. واستظهر أبو حيَّان هذا المعنى وقال: (ويؤيِّد هذا المعنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ...﴾ إلى آخره، ويؤيِّد هذا المعنى أيضًا قراءةُ ابن كثير (ءانْ يُؤتَى) على الاستفهام الذي معناه الإنكار عليهم والتقرير والتوبيخ. والاستفهامُ الذي معناه الإنكار هو مُثبَت من حيث المعنى، أي: أَلِمُخافةِ أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم؟ أو يحاجوكم عند ربكم قلتُم ذلك وفعلتموه؟ ويكون: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾، معطوفًا على: ﴿يُؤْتَى﴾، و﴿أَوْ﴾: للتنويع) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١٢).

وفي الآية أوجهٌ أخرى يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٥٤)، ((زاد المسير)) (١/ ٢٩٤).

وهذه الآية أشكلُ ما في السُّورة، كما قال غيرُ واحدٍ كالقرطبيِّ في ((تفسيره)) (٤/ ١١٢).

(٢) واختاره ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٥٩)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٣٥). وقيل =

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: قلْ لهم- يا محمَّدُ-: إنَّ التوفيقَ للإيمانِ، والهدايةَ للإسلامِ، والإحسانِ بشتَّى أنواع الإحسانِ، يُعطيه اللهُ مَن أراد مِن عِبادِه[1]، وقد آتى اللهُ هذه الأمَّةَ ما يَربو بكثيرٍ على الفضائلِ الَّتي آتاها بني إسرائيل[2].

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ذو سَعةٍ بفضلِه على مَن يشاءُ، ذو عِلمٍ بمَن يَستحقُّ الفضلَ، وهو له أهلٌ؛ فهو يُؤتي فضلَه عن عِلم وحِكمة سبحانه وتعالى[3].

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: يَخُصُّ بالنُّبوَّةِ والإسلامِ والقرآنِ مَن يشاء، ممَّن هو أهل لذلك[4]، وقد خَصَّ هذه الأمَّةَ ونبيَّها بما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ من الفضل[5].

= المعنى: أي: ولا تُصدِّقوا أنَّ أحدًا يجادلكم عند ربِّكم؛ لأنَّكم أصحُّ منهم دِينًا، وأكرمُ على الله منهم. وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٠٠)، والواحدي في ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٥٠).

وقيل: ويجوزُ أنْ تكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى حتَّى فيكون معنى ﴿أَوْ يُحاجُّوكُمْ﴾ أي: حتى يُحَاجُّوكم عند ربكم، على طريق التبعيد، كما يُقال: لا تلقاه أو تقوم الساعة. وتعلَّق به أو يعطيك حقَّك، أي: حتى يعطيَك حقَّك، وهذا قول الكسائي والفرَّاء. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (١/ ٤٠٢) ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٢٥).

وقيل: معنى ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ أي: ما يُؤتى ﴿أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ يا أمَّة محمد إلَّا أنْ يجادلكم اليهودُ بالباطل فيقولوا: نحن أفضلُ منكم، وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، أي: عند فِعل ربكم بكم ذلك، وهذا معنى قول سعيد بن جبير والكلبيِّ ومقاتل والحسن. ينظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠).

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الإحسانِ الواسعِ الكثير، الَّذي يَتفضَّلُ به على مَن أحبَّ مِن خلْقه[1].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- التحذيرُ مِن أعداءِ الإسلامِ وعُملائهم ممَّن يحملون أسماءَ المسلمين، الذين يُوجِّهون لخَلخلةِ العقيدةِ في النُّفوس بشتَّى الأساليبِ، في صورةِ بحثٍ وعلمٍ وأدبٍ وفنٍّ وصحافةٍ، ويعملون على تَوهينِ قواعدِها مِن الأساسِ، والتهوينِ مِن شأنِ العقيدةِ والشريعةِ سواء، وتأويلِها وتحميلِها ما لا تطيقُ، والدقِّ المتَّصل على «رجعيَّتها»! والدعوةِ للتفلُّت منها، وإبعادِها عن مجالِ الحياةِ! وابتداعِ تصوُّراتٍ ومُثُلٍ وقواعدَ للشُّعور والسُّلوك تناقضُ وتحطِّم تصوُّرات العقيدةِ ومُثلها، وتزيينِ تلك التصوُّرات المبتدَعة بقدرِ تشويهِ التَّصورات والمثل الإيمانيةِ، وإطلاقِ الشَّهوات مِن عِقالها! ويشوهون التاريخَ كلَّه، ويُحرِّفونه كما يُحرِّفون النُّصوص! وهم بهذه الأسماءِ المسلمةِ يُعلنون الإسلامَ وجهَ النَّهار، وبهذه المحاولاتِ المجرمةِ يكفرون آخرَه، ويؤدُّون بذلك دورَ أهلِ الكتابِ القديمِ، لا يتغيَّر إلا الشَّكل والإطارُ في ذلك الدورِ القديم[2].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ من طَلَب الهُدى والرُّشْد من غير الكتابِ والسُّنَّة ضلَّ، لأنَّ الهدى محصورٌ في هُدى اللهِ الذي أرسَلَ به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٧)، ((تفسير الراغب)) (٢/ ٦٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤١٥).

(٣) ((فتح الرحيم الملك العلام)) للسعدي (ص: ١٧١).

٣- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾: أنَّ المسلمَ يَرُدُّ كيدَ أهل الباطل بإعلانه أنَّ الهدى هُدى الله، وأنَّهم مهما حاولوا أنْ يَصُدُّوه عن دِينه، وقد أرادَ اللهُ هدايتَه؛ فإنَّ ذلك لا يَضُرُّه[1].

٤- يَنبغي للإنسان أن يُعلِّق الرجاء بالله؛ خوفًا وطمعًا؛ لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾[2].

٥- يَحصُل من مجموعِ قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ...﴾، والآية الَّتي تَليها: أنَّه لا نِهايةَ لمراتب إعزازِ الله وإكرامِه لعِبادِه، وأنَّ قصْرَ إنعامِه وإكرامِه على مراتبَ معيَّنة وعلى أشخاصٍ معيَّنين جَهلٌ بكمالِ اللهِ في القُدرة والحِكمة[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- الفائدةُ في إخبارِ الله تعالى عن تواطئهم على إظهارِ الإيمانِ أوَّلَ النَّهار والكفرِ آخرَه كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ...﴾ من وجوهٍ:

الأولُ: أنَّ هذه الحيلةَ كانت مَخفيَّةً فيما بينهم، وما أَطْلعوا عليها أحدًا مِن الأجانب، فلمَّا أَخبر الرسولُ عنها كان ذلك إخبارًا عن الغيبِ، فيكون معجزًا.

الثاني: أنَّه تعالى لَمَّا أطْلَع المؤمنين على تواطئِهم على هذه الحيلةِ لم يَحصُلْ لهذه الحيلةِ أثرٌ في قلوبِ المؤمنين، ولولا هذا الإعلانُ لكان ربَّما أثَّرت هذه الحيلةُ في قلبِ بعضِ مَن كان في إيمانِه ضعفٌ.

الثالث: أنَّ القومَ لَمَّا افتَضحوا في هذه الحيلةِ صارَ ذلك رادعًا لهم عن الإقدامِ على أمثالِها مِن الحيلِ والتَّلبيس[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٥٨).

٢- في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ تعدَّى الإيمانُ باللام؛ لبيان أنَّ التَّصديقَ مضمَّنٌ معنى الثِّقة والرُّكون، فيكون تصديقًا خاصًّا تضمَّن معنًى زائدًا، وفي هذا بيانُ أنَّ اليهود حصَروا الثِّقة بأنفسهم؛ لزَعمِهم أنَّ النبوَّة لا تكون إلَّا فيهم[١].

٣- وفائِدةُ الاعتراضِ في أثناءِ كلامِهم بقولِه: ﴿قل إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ المـُبادرةُ بما يُفِيدُ ضلالَهم؛ لأنَّ اللَّه حرَمهم التَّوفيقَ[٢] وأيضا فيه الإشارةُ إلى أنَّ كيدَهم غيرُ ضارٍّ لِمَن لَطَفَ اللهُ تعالى به بالدُّخولِ في الإسلام، أو زيادة التصلُّب فيه. ويُفيد أيضًا أنَّ الهُدى هداه؛ فهو الذي يتولَّى ظُهورَه ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾[٣].

٤- في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية: زيادةُ تذكيرٍ لهم، وإبطالٌ لإحالتهم أنْ يكون محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولًا من الله، وتذكيرٌ لهم على طرْح الحسَد على نِعم الله تعالى[٤].

٥- لا اعتراضَ على الله في كونِه يَختصُّ برحمته شخصًا، ويمنع رحمته آخرَ؛ لأنَّ الأمرَ إليه، وهو فضلٌ؛ إنْ شاء أعطاه، وإنْ شاء منَعَه، كما قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٥] [آل عمران: ٧٤].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ فيه اختصاصٌ لذِكر وجْه النَّهار؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢١).

لأنَّه وقتُ اجتماعِهم بالمؤمنين يُراؤونهم، وآخِره؛ لأنَّه وقتُ خَلوتِهم بأمثالهم من الكفَّار[1].

٢- قوله تبارَكَ وتعالَى: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ فيه لفٌّ ونشر معكوس؛ فقوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ إبطالٌ لقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، أي: قلتُم ذلك حسدًا من أن يُؤتَى أحدٌ مِثل ما أوتيتُم، وقوله: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ على طريقة التهكُّم، أي: مرادكم التنصُّل من أنْ يُحاجُّوكم، فجمعتُم بين الإيمان بما آمَن به المسلمون، حتى إذا كان لهم الفوزُ يومَ القيامة لا يُحاجُّونكم عند الله بأنَّكم كافِرون، وإذا كان الفوزُ لكم، كنتم قد أخذتُم بالحزم؛ إذ لم تُبطلوا دِينَ اليهوديَّة[2].

٣- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾ كلامٌ معترض، أُمِر النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يقولَه لهم؛ كنايةً عن استبعادِ حُصول اهتدائِهم، وأنَّ الله لم يَهدِهم؛ لأنَّ هُدى غيره- أي: محاولته هدى الناس- لا يَحصُل منه المطلوبُ إذا لم يُقدِّره الله، فالقصر حقيقيٌّ؛ لأنَّ ما لم يُقدِّره الله، فهو صورةُ الهدى، وليس بهُدى، وهو مقابل قولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ﴾، و﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾؛ إذ أرادوا صورةَ الإيمان، وما هو بإيمان، وفي هذا الجوابِ إظهارُ الاستغناءِ عن متابعتِهم[3].

٤- قوله تعالى: ﴿أَحَدٌ﴾ اسمٌ نكرةٌ غلَب استعمالها في سِياق النَّفي، أو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٧٩- ٢٨٠).

الإنكار؛ فيُفيد العمومَ، ونَدَر وقوعُه في حيِّز الإيجاب(١).

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: تذييلٌ لِمَا قبله، مقرِّرٌ لمضمونه، وفيه تأكيدُ الكلامِ بـ﴿إِنَّ﴾؛ لتنزيلهم منزلةَ مَن يُنكر أنَّ الفضل بيد الله، ومن يَحْسَبُ أنَّ الفضل تَبَعٌ لشهواتهم(٢).

- قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: فيه تأكيدٌ لتعظيمِ ما لَديه؛ دفعًا لتوهُّم مَن يَظنُّ أنَّ اختصاص البعض لضِيق الرحمة عن العموم. وكرَّر الاسم العظيم (الله)؛ تعظيمًا لِمَا ذُكِر من النِّعم، ومُشيرًا بذلك كلِّه إلى التمكُّنِ من الإعطاء، وغزارةِ فضلِه(٣).

- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ كالتأكيدِ لِمَا تَقدَّم ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، وبينهما فرقٌ؛ فإنَّ هذه الرَّحمةَ ربَّما بلغَتْ في الشَّرفِ وعلوِّ الرُّتبة إلى ألَّا تكون من جِنس ما آتاهم، بل تكونُ أعْلى وأجلَّ مِن أن تُقاس إلى ما آتاهم(٤).

- قوله تعالى: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: فيه تأكيدٌ للمَعنى السَّابق أيضًا؛ لأنَّ كونه واسعًا يدلُّ على كمال القُدرة، وكونه عليمًا على كمال العِلم، فيَصحُّ منه لمكان القُدرة أنْ يتفضَّل على أيِّ عبدٍ شاء بأيِّ تفضُّل شاء، ويَصحُّ منه- لمكان كمال العلم- أنْ لا يكون شيءٌ من أفعاله إلَّا على وجه الحِكمة والصَّواب(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٢- ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٣).

الآيتان (٧٥ - ٧٦)

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِقِنْطَارٍ﴾: القنطارُ؛ اختُلِف في حدِّه على أقوال، وجملةُ القول: أنَّه عددٌ كثير من المال[1].

﴿الْأُمِّيِّينَ﴾: أي: العرَب، والأُميُّون جمْع أُميٍّ، وهُم الَّذين لا يَكتُبون ولا يَقرؤون؛ نِسبةً إلى الأُمِّ؛ لأنَّ الكتابَ كان في الرِّجال دونَ النِّساء، فنُسب مَن لا يكتُب ولا يخطُّ من الرِّجال إلى أمِّه في جَهلِه بالكتابةِ دون أبيه، أو مَنْسُوبٌ إلى الأُمَّة الأُميَّة، الَّتي هِي على أصْلِ وِلاداتِ أُمَّهاتها، لم تتعلَّم الكتابةَ ولا قِراءتَها، والأُميَّة: الغَفلةُ والجَهالة وقِلَّة المعرِفة، وأصْل (أمّ): الأصْل والمرجع[2].

المَعنَى الإجماليُّ

يُخبر اللهُ تعالى عن معاملات أهل الكتاب الدُّنيويَّة، وأنَّ منهم الأمينَ، الَّذي لو أَمِنْتَه على المالِ الكثير أدَّاهُ إليك دون نقْص، ومنهم الخائِن، الَّذي لو أَمِنْتَهُ على دينار لم يُؤَدِّه إليك، إلَّا ما دُمتَ قائمًا عليه بالمطالبة والاقتضاء.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٣- ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨، ٣٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨ ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

ثم يُبيِّن الله تبارَك وتعالَى السَّبب الَّذي دعاهم إلى الخيانةِ، واستحلالِ أموال النَّاس، وهو أنَّهم يَزعُمون أنَّه ليس عليهم إثمٌ ولا حرَجٌ في عدم أداء أموال العربِ إليهم؛ فجَمعوا بين جريمتَينِ، وهما: أكْل الحرام، وادِّعاء حِلِّه، وهذا هو الكذبُ الَّذي قالوه على الله مع عِلمهم أنَّهم كاذبون في ذلك.

ثم أَبطَل اللهُ دعواهم تلك، وبيَّن لهم أنَّه ليس الأمر كما يقول هؤلاء الكاذبون، ولكن مَن أَوْفى من أهل الكتاب بعهدِ الله الَّذي عاهَدَهم عليه من الإيمان بمحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتصديقِه فيما جاء به، واتَّقى الله؛ فاجتنبَ ما نهاه عنه، وأطاعه فيما أمره به- فإنَّ الله يحبُّ الَّذين يتَّقونه.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

تعلُّقُ هذه الآيةِ ومناسبتُها لِمَا قَبلَها من وجهين:

الأوَّل: أنَّه تعالى حَكَى عنهم في الآية المتقدِّمة أنَّهم ادَّعوْا أنَّهم أُوتوا من المناصِب الدِّينيَّة، ما لم يُؤتَ أحدٌ غيرهم مثله، ثمَّ إنَّه تعالى بيَّن أنَّ الخيانة مُسْتقبَحَةٌ عند جميعِ أرباب الأديان، وهم مُصِرُّون عليها؛ فدلَّ هذا على كذبِهم.

والثاني: أنَّه تعالى لَمَّا حكَى عنهم في الآية المتقدِّمة قبائحَ أحوالهم فيما يتعلَّق بالأديان، وهو أنَّهم قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، حكَى في هذه الآيةِ بعضَ قبائحِ أحوالهم فيما يَتعلَّقُ بمعاملةِ النَّاس، وهو إصرارُهم على

الخِيانةِ والظُّلم، وأخْذِ أموال النَّاس في القليل والكثير[١]، فقال تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾.

أي: ومِن أهل الكتاب الَّذي إنْ تَأْمَنْه- يا محمَّدُ- على المال الكثير يُؤَدِّه إليك، ويَرُدَّهُ دون نُقصانٍ أو تغيير، ولا يَخُنْكَ فيه، وما دونه يُؤدِّيه من باب أَولى[٢].

ومن الأخبارِ الواردةِ في ذلك: ما رواه أبو هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، عن رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أنَّه ((ذكَر رجُلًا من بني إسرائيل سأَل بعضَ بني إسرائيل أن يُسْلِفه ألْفَ دينار، فقال: ائْتِني بالشُّهداءِ أُشْهِدهم، فقال: كفَى بالله شهيدًا! قال: ائتِني بالكفيلِ، قال: كفَى بالله كفيلًا! قال: صَدَقْتَ، فدَفَعها إليه إلى أَجَلٍ مسمًّى، فخرج في البحر فقضى حاجتَه، ثمَّ الْتَمَس مركبًا يَركبُها يَقْدَمُ عليه للأجَلِ الَّذي أَجَّلَهُ، فلم يجِد مركبًا، فأخَذ خشبةً فنقَرَها فأدْخل فيها ألفَ دِينار، وصحيفةً منه إلى صاحبِه، ثمَّ زَجَّجَ موضعها[٣]، ثمَّ أتى بها إلى البحر، فقال: اللهمَّ إنَّك تعلمُ أنِّي اسْتَسْلَفْتُ فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفَى بالله كفيلًا، فرَضِيَ بك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفَى بالله شهيدًا، فرَضِيَ بك، وإنِّي جَهِدْتُ أنْ أجِد مركبًا أبعث إليه الَّذي له، فلم أقدِر، وإني اسْتَوْدَعْتُكها. فرمَى بها في البحر حتَّى وَلَجَتْ فيه، ثمَّ انصرفَ وهو في ذلك يلتمسُ مركبًا يخرج إلى بلدِه، فخرج الرَّجُلُ الَّذي كان أسلفَه يَنظُر لعلَّ مركبًا يَجِيئُهُ بماله، فإذا بالخشبةِ الَّتي فيها المال، فأخَذَها لأهله حَطبًا، فلمَّا كَسَرَها وجدَ المال والصَّحيفة، ثمَّ قَدِم الَّذي كان تَسَلَّفَ منه، فأتاه بألفِ دِينار، وقال: واللهِ ما زِلتُ جاهدًا في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٣). وقَصَرَ ابنُ جرير وابنُ كثير أهلَ الكتابِ على اليهود.

(٣) زَجَّجَ مَوْضِعَهَا: أَيْ سَوَّى مَوْضع النَّقْر، وأصلحَه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٩٦).

طلبِ مركبٍ لآتيَك بمالك، فما وجدتُ مركبًا قبل الَّذي أَتَيْتُ فيه، قال: هل كنتَ بعثتَ إليَّ بشيء؟ قال: ألم أُخبِرْك أنِّي لم أجِدْ مركبًا قبل هذا؟ قال: فإنَّ اللهَ قد أدَّى عنك الَّذي بَعثتَ في الخَشَبةِ! فانْصَرِفْ بألف دِينار راشدًا))(١).

ثم ذكَر الله تعالى قِسمًا ثانيًا منهم، وهو الخائنُ الَّذي لا يُؤْتَمَنُ، فقال:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾.

أي: ومِن أهلِ الكتاب الَّذي إنْ تَأْمَنْهُ على دِينار يَخُنْكَ فيه، فلا يُؤَدِّه إليك إلَّا ما دُمتَ عليه قائمًا؛ بالمطالبةِ، والاقتضاءِ، والملازمة، والإلحاح في استخلاصِ حقِّك، وهو تاركٌ أداءَ ما فوقَه مِن بابِ أَوْلى(٢).

ثم بَيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ سببَ استحلالهم أموالَ المسلمين، وخيانتِهم، فقال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾.

أي: ذلك الجُحودُ للحقِّ، واستحلالُ الخيانة؛ بسببِ أنَّهم قالوا: لا حرجَ علينا ولا إثمَ فيما أَخَذْنا من أموالِ العرب، وأَكَلْنا منها؛ فإنَّ الله أحلَّها لنا؛ لأنَّهم على غير الحقِّ(٣).

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ويقولون الكذبَ على اللهِ بادِّعائهم أنَّه أَحَلَّ لهم خيانتَهم، وترْكَ قضائِهم، وليس ذلك عن جَهْلٍ، بل مع عِلمهم بأنَّهم يكذبون، فجَمعوا بيْن أكْل

---

(١) رواه البخاري مُعلَّقًا (٢٢٩١)، وقد وصَله في (٢٤٠٤) مختصرًا.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٠)، ((أحكام أهل الذمَّة)) لابن القيِّم (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٥).

الحرام، والكذب على الله بادِّعاء حِلِّه(١).

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)﴾.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾.

أي: ليس الأمْر كما يقولُ هؤلاء الكاذِبون على اللهِ مِن اليهود، من أنَّه ليس عليهم في أموال الأمِّيِّين حَرَجٌ ولا إثمٌ، ولكنَّ الَّذي أوْفَى بعهد الله منكم يا أهلَ الكتاب، الَّذي عاهدَكم عليه من الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وصدَّق بما جاء به من الله، وأدَّى الأمانة إلى مَن ائتمنَه عليها، إلى غير ذلك، واتَّقى ما نهاه اللهُ عنه من الكُفرِ به، وسائرِ معاصيه الَّتي حرَّمها عليه، وأطاعه واتَّبَعَ شريعتَه(٢).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي: فإنَّ الله يحبُّ الَّذين يَتَّقونه، فيخافون عقابَه، ويَحذَرون عذابه، باجتنابِ ما نهاهم عنه وحرَّمه عليهم، وطاعتِه فيما أمرَهم به(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- مَن أَوْفى بعهدِه الَّذي عاهد به الله أو النَّاس، واتَّقى الإخلافَ والغَدْر والاعتداء، فإنَّ الله يُحِبُّه، فيعامله بأنْ يَجعلَه محلَّ عنايته ورحمته في الدُّنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(٤).

٢- ورودُ الجواب في قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ بهذه العبارة يُفيد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).

قاعدةً عامَّة من قواعد الدِّين؛ وهي أنَّ الوفاءَ بالعهود واتِّقاءَ الإخلاف والابتعادَ عن سائرِ المعاصي والخطايا، هو الَّذي يُقرِّب العبدَ من ربِّه، ويجعله أهلًا لمحبَّته، لا كونه مِن شعب كذا[(١)].

٣- نظريَّةُ الإسلامِ الأخلاقيَّة، بصفةٍ عامَّةٍ، سواء كانت في الوفاءِ بالعهد وفيما سواه من الأخلاق، هي التَّعاملُ أولًا مع الله، بحيث يُلْحَظُ فيه جَنابُ الله، ويُتَجَنَّبُ به سخطُه، ويُطْلَبُ به رِضاه[(٢)].

٤- العهد في قوله: ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ يَشمَل العهد الَّذي بين العبد وربِّه، وهو جميعُ ما أوْجَبَه اللهُ على العبدِ من حقِّه، ويَشمل العهدَ الَّذي بينه وبين العِباد[(٣)].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فيه أنَّ الوَفاءَ بالعهودِ من التَّقوى التي يحبُّها اللهُ؛ فهو من جملةِ المأمورِ به، فإنَّ الواجِبَ إمَّا بالشَّرْعِ أو بالشَّرْطِ، وكلُّ ذلك فِعْلٌ مأمورٌ به، كما قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقال: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[(٤)].

٦- في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: حَثٌّ على تقوى الله؛ لأنَّ كل إنسان يحبُّ أن يُحِبَّه الله؛ فإذا أردتَ ذلك فما عليك إلَّا أنَّ تقومَ بتقوى الله؛ لأنَّ محبَّة الله متعلِّقةٌ بالعامل، ومتعلِّقة بالعمل، ومتعلِّقة بالزمن، ومتعلِّقة بالمكان[(٥)].

٧- التَّقوى في قوله: ﴿وَاتَّقَى﴾ ترجع في هذا الموضعِ إلى اتِّقاء المعاصي

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٥).

الَّتي بين العبد وربِّه، وبينه وبين الخَلق، فمَن كان كذلك، فإنَّه مِن المتَّقين الَّذين يحبُّهم الله تعالى[1].

الفَوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ يُبيِّن أنَّ المشرِكينَ وأهلَ الكِتابِ فيهم المؤتَمَنُ؛ فلهذا جازَ ائتمانُ أحدِهم على المالِ، وجازَ أنْ يَستَطِبَّ المسلمُ الكافرَ إذا كان ثِقةً؛ إذ ذلِك مِن قَبولِ خَبرِهم فيما يَعْلَمونَه مِن أمْرِ الدُّنيا، وائتمانٌ لهم على ذلِك، وهو جائزٌ إذا لم يكُنْ فيه مفسَدةٌ راجحةٌ[2].

٢- استنبطَ بعضُ أهلِ العِلم من قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ جوازَ السجن؛ لأنَّ الَّذي يقومُ عليه غريمُه، فهو يَمنعُه مِن تَصرُّفاته في غيرِ القَضاء، ولا فَرْقَ بين المنع من التصرُّفات وبين السجن[3].

٣- جوازُ الاقتصارِ على المثال؛ ليُقاس عليه ما يُشْبِهُه؛ لأنَّ الله ذكَر الدِّينار والقِنطار على سبيل التمثيل[4].

٤- في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: دليلٌ على أنَّ مَن افترى على الله الكذبَ وهو يَعلم، أشدُّ إثمًا وعدوانًا ممَّن لا يعلم، وإنْ كان كلٌّ منهما على خطأ[5].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، إشارة إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٣).

أنَّ الجهل المركَّب أقبحُ من الجهلِ البسيط؛ لأنَّ الَّذي يكذب وهو يعلم، أقبحُ مِن الَّذي يَكذِب ولا يَعلم(١).

بَلاغَةُ الآيتين:

١ - قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾:

- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ جاء قبل قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ...﴾ إنصافًا لحقِّ هذا الفَريق، ونعيًا عليهم لظُلمهم. وتقديم المسنَد في الموضعين (ومِن أهل الكتاب- ومنهم)؛ للتعجُّب من مضمونِ صِلة المسنَد إليهما؛ ففي الأول: للتعجُّب من قوَّة الأمانة، مع إمكانِ الخيانةِ، ووجودِ العُذرِ له في عادةِ أهل دِينه، وفي الثاني: للتعجُّب من أن يكونَ الخونُ خُلقًا لمتَّبِعِ كتابٍ من كتُب الله، ثم يزيد التعجُّب عند قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾، فيكسب المسنَد إليهما زيادةَ عجَب حال(٢).

- عدَّى ﴿تَأْمَنْهُ﴾ بالباءِ مع أنَّ مثله يتعدَّى بـ(على)؛ لتضمينِه معنى تُعامِلْه بقنطارٍ؛ ليشملَ الأمانةَ بالوديعة، والأمانةَ بالمعاملةِ على الاستيمانِ(٣).

- قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائِمًا﴾: فيه مبالغةٌ في مطالبتِه بالتقاضي، والترافُع، وإقامةِ البيِّنة(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٤).

٢- **في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: الاستفهامُ** إنكاريٌّ[(١)]، وفيه طِباق معنوي؛ لأنَّ الشهادة إقرارٌ وإظهار، والكفر سَتْر[(٢)]، وفيه: التفاتٌ مِنَ الغيبةِ إلى خِطاب اليهود[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٧٩).

الآيات (٧٧ - ٨٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿خَلَاق﴾: نصيبٌ، وحظٌّ من الخير، والخَلاقُ: ما اكتسَبَه الإنسانُ من الفضيلةِ بخُلُقه(١).

﴿يَلْوُونَ﴾: أي: يَقلِبون ألْسنتَهم بالتحريف والزِّيادة، وأصل اللَّيِّ: فَتْلُ الحبل، وإمالةُ الشَّيء كذلك(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر اللهُ تبارَك وتعالَى عن عِقاب الَّذين يَستبدلون بعهدِه الَّذي عاهدهم عليه؛ مِن اتِّباع أمْر الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والإيمان به، ويَأخذون بالأيمانِ الكاذبة عوضًا قليلًا خسيسًا من متاع الدُّنيا الزَّائل، فينكثون العهدَ مع

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

الله، ويَحلفون كذبًا وزورًا؛ من أجْل ذلك- يُخبر تعالى أنَّهم لا نصيبَ لهم من الخير يوم القِيامة، ولا يُكلِّمهم، كما أنَّه لا ينظُر إليهم، ولا يمتنُّ عليهم بتطهيرهم من الذُّنوب والأدناس، بل يُجازيهم بعذابٍ أليم موجِع.

ثمَّ يُخبِر الله تبارَك وتعالَى عبادَه المؤمنين أنَّ هناك جماعةً من أهل الكتاب يَعطفون ألسنتَهم، ويُميلونها بالكتاب، فيُحرِّفون لفظَه، ويَعبثون بمعناه، والغايةُ من ذلك هي إضلالُ عبادِه المؤمنين، والتلبيسُ عليهم؛ ليظنُّوا أنَّ ما يقرؤونه من الكتاب، وهو ليس منه، ويقولون عنه: إنَّه ممَّا أنزلَه اللهُ على أنبيائه، وهو ليس كذلك، وإنَّما هو ممَّا ابتدعوه وأحْدثوه من عند أنفسِهم، فهم بهذا يتقوَّلون على الله الكذبَ عمدًا، ويُلحِقون بكتابِه ما ليس منه، وهم يَعلمون في قَرارةِ أنفسِهم أنَّهم كاذِبون مفترون.

ثم يُبيِّن اللهُ سبحانه وتعالى أنَّ مِن الممتنِع، بل مِن أمحلِ المحال، أنْ يُعطي اللهُ بشرًا الكتاب، ويُعلِّمه الحِكمةَ، ويمتنَّ عليه بالنُّبوَّة، ثمَّ هو يدعو النَّاس إلى عبادة نفْسِه، فيقول لهم: اعبدوني من دون الله. بل إذا امتنَّ الله عليه بذلك، فإنَّه يأمرُهم ويقول لهم: كونوا علماءَ، عاملين بالعِلم، مخلِصين لله، عابِدين له، مُعلِّمين للنَّاس ومُربِّين؛ بسببِ تعليمِكم الكتابَ لغيركم، وبسببِ مداومتِكم على قراءتِه وحِفظِه. كما أنَّه يستحيلُ أنْ يأمرَكم باتخاذ الملائكة والنَّبيِّين أربابًا تعبُدونهم من دون الله؛ إذ كيف يأمُركم بالكفر بالله بعد انقيادِكم له بالطاعة، واستسلامِكم له بالعبوديَّة؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

في تعلُّق هذه الآيةِ ومناسبتها لِمَا قبلها وجوهٌ:

الأول: أنَّه تعالى لَمَّا وصَف اليهودَ بالخيانة في أموال النَّاس- ومِن المعلوم أنَّ الخيانةَ في أموال النَّاس لا تَتمشَّى إلَّا بالأَيمان الكاذبة- لا جَرَمَ ذكَر عقيبَ تلك الآيةِ هذه الآيةَ المشتملةَ على وعيدِ مَن يُقْدِمُ على الأيمانِ الكاذبة.

الثاني: أنَّه تعالى لَمَّا حكَى عنهم أنَّهم يقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون- ولا شكَّ في أنَّ عهدَ الله على كل مُكَلَّفٍ أنْ لا يَكْذِبَ على الله، ولا يخونَ في دِينه- لا جَرَمَ ذكَرَ هذا الوعيد عقيبَ ذلك.

الثالث: أنَّه تعالى ذكَر في الآيةِ السابقةِ خيانتَهم في أموال النَّاس، ثمَّ ذكَر في هذه الآية خيانتَهم في عهْدِ الله، وخيانتَهم في تعظيمِ أسمائِه حين يَحلِفون بها كذبًا(١).

الرابع: أنَّ في خيانةِ الأمانة إبطالًا للعهد وللحِلفِ الَّذي بَينهم وبين المسلمين وقُريش(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾.

سببُ النُّزول:

قال عبدُ اللهِ بن مسعود رضي اللهُ عنه: مَن حلَف على يمينٍ يستَحِقُّ بها مالًا، وهو فيها فاجِرٌ، لقِي اللهَ وهو عليه غضبانُ. فأنزَل اللهُ تصديقَ ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا- فقرَأ إلى- عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ثمَّ إنَّ الأشعَثَ بنَ قيسٍ خرَج إلينا فقال: ما يُحَدِّثُكم أبو عبدِ الرحمنِ؟ قال: فحدَّثْناه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٨٩).

قال: فقال: صدَق، لفِيَّ واللهِ أُنزِلَتْ، كانتْ بيني وبين رجلٍ خُصومةٌ في بئرٍ، فاختصمْنا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((شاهِداك أو يمينُه)). قلتُ: إنَّه إذنْ يحلِفُ ولا يُبالي، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن حلَفَ على يمينٍ يَستحِقُّ بها مالًا، هو فيها فاجِرٌ، لقِي اللهَ وهو عليه غضبانُ)). فأنزَل اللهُ تصديقَ ذلك، ثمَّ اقتَرأ هذه الآيةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فقرَأ إلى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

وورَدَ أيضًا عن عبدِ اللهِ بن أَبي أَوْفَى رضِي اللهُ عنهما، أنَّ رجلًا أقامَ سِلْعةً، وهوَ في السُّوقِ، فحلَفَ باللهِ لقدْ أُعْطِيَ بهَا ما لم يُعْطَ؛ ليوقِعَ فيها رجلًا من المسلمين، فنزلتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(٢).

ولا تعارُضَ بينهما؛ لاحتمالِ نُزولها في كلٍّ مِن القصَّتين إنْ تقارب الزمانُ، أو تكون نازلةً مرَّتيْن(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَستبدِلون بما عَهِدَ الله إليهم من الإيمانِ بمحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأداءِ الأمانة، ويَستبدلون بالحلفِ باللهِ كذبًا- استحلالًا لِمَا حرَّم الله

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٥، ٢٥١٦) واللفظ له، ومسلم (١٣٨)

وفي روايةٍ: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم: ((مَن حَلَفَ على يمينٍ، وهوَ فاجِرٌ، لِيقْتَطِعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ، لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ)). قال: فقال الأشْعَثُ بنُ قيسٍ: فيَّ واللهِ كان ذلكَ، كان بيني وبينَ رجلٍ من اليهودِ أرض، فَجَحَدنِي، فقَدَّمْتُه إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (أَلَكَ بَيِّنَةٌ)، قال: لا، قال: فقال لليَهودِيِّ: (احْلِف)، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ إذَنْ يَحْلِفُ ويَذْهَبُ بمَالِي، قالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخِرِ الآيةِ. رواه البخاري (٢٤١٦، ٢٤١٧)، واللفظ له، ومسلم (١٣٨).

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٢٨٧).

عليهم من أموال النَّاس- يَستبدلون بذلك ويأخذونَ به عِوَضًا قليلًا، وبدلًا يسيرًا خسيسًا من حُطام الدُّنيا، فينكُثون عهدَ الله، ويَحلِفون كذبًا من أجْل ذلك[1].

﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾.

أي: الَّذين يَفعلون ذلك لا حظَّ لهم مِن الخيرِ يومَ القيامة، ولا نصيبَ لهم منه[2].

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾.

أي: لا يُكلِّمهم اللهُ يومَ القِيامة تَكليمَ رضًا، أو كلامًا يَسُرُّهم، ولكنَّه يُكلِّمهم تكليمَ إهانةٍ وغضبٍ وسَخَطٍ[3].

﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ولا يَنظُر إليهم نظرَ رحمةٍ وعطفٍ، ولا نَظرًا يَسُرُّهم[4].

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: ولا يُطَهِّرهم من ذُنوبهم وكُفرهم؛ ممَّا تلوَّثوا به في الدُّنيا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥).

قال الرازي: (قوله: ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ فالمعنى لا نصيبَ لهم في خيرِ الآخرةِ ونعيمِها، واعلمْ أنَّ هذا العمومَ مشروطٌ بإجماعِ الأُمَّةِ بعدمِ التوبةِ، فإنَّه إن تابَ عنها سقَط الوعيدُ بالإجماعِ) ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٢).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: ولهم عذابٌ مُؤلِمٌ موجِعٌ[1].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾.

أي: وإنَّ من أهل الكتابِ جماعةً يَعطِفون ويُمِيلون ألسنتَهم بالكتاب؛ إمَّا بتحريفِ لفظِه، وإمَّا بتحريفِ معناه؛ بتفسيرِه على غيرِ مرادِ الله[2].

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: يَلْوُون ألسنتَهم بالكتاب؛ لتظنُّوا أنَّ ما يُحَرِّفونه بكلامِهم من كتابِ الله المنزَّل[3].

﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

أي: وما ذلك الَّذي لَوَوْا به ألسنتَهم من كتابِ الله[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٢).
قال الواحديُّ: (وأكثر المفسِّرين على أنَّ الآية نزلت في اليهود وكِتمانهم أمرَ محمد، صلَّى الله عليه وسلَّم، وإيمانهم الذي بدَّلوه من صفة محمَّد عليه السلام، هو الحقُّ في التَّوراة)، ((الوجيز)) (١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١).

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: ويقولون عمَّا لَوَوْا به ألْسنتَهم من التحريفِ والكذبِ والباطلِ: هو ممَّا أنزلَه اللهُ على أنبيائِه[1].

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: وما ذلك- الَّذي لَوَوْا به ألسنتَهم فأحْدَثوه- ممَّا أنزلَه اللهُ إلى أحدٍ من أنبيائه، ولكنَّه ممَّا أحْدَثوه من قِبَل أنفسِهم[2].

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ويتعمَّدون قولَ الكذبِ على الله، والإلحاقَ بكتابِ الله ما ليس منه، وهم يَعلمون مِن أنفسِهم أنَّهم قد كذَبوا وافترَوْا في ذلك[3].

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾.

أي: ما يَنبغي لأحدٍ من النَّاس[4].

﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ .

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسر ابن عطية)) (١/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦).

أي: يُنَزِّل اللهُ عليه كتابَه، ويُعلِّمه الحِكمةَ، ويُعطيه النُّبوَّة[١].

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: ثمَّ يدْعو إلى عِبادةِ نفْسه، ويقول للنَّاس: اعبدوني من دونِ الله[٢].

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

أي: ولكن إذا آتاه اللهُ ذلك، فإنَّه يقولُ للنَّاس: كونوا عُلماءَ حُكماءَ حُلماءَ، مخلِصين للربِّ، مُتعبِّدين له، مُعَلِّمين للنَّاس، تُربُّونهم بصِغار العِلم قبلَ كِباره[٣].

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ قراءتان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٣).

قال ابنُ جرير- بعد أنْ ذكر اختلاف المفسِّرين في معنى كلمة ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ قال: (وأَوْلى الأقوال عندي بالصواب في الربانيِّين: أنَّهم جمْع ربانيٍّ، وأنَّ الربانيَّ المنسوب إلى الرَّبَّان: الذي يرُبُّ الناس، وهو الذي يُصلِح أمورَهم ويرُبُّها، ويقوم بها... فإذا كان الأمرُ في ذلك على ما وصفنا... وكان العالمُ بالفقه والحِكمة من المصلِحين، يَرُبُّ أمورَ الناس بتعليمه إياهم الخير، ودُعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيمُ التقيُّ لله، والوليُّ الذي يلي أمورَ الناس على المنهاج الذي وَلِيَه المقسِطون من المصلحين أمورَ الخلق بالقيام فيهم، بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدة النفع عليهم في دِينهم ودُنياهم؛ كانوا جميعًا مستحقِّين أنهم ممَّن دخل في قوله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾... والرباني: الجامع إلى العِلم والفقهِ البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعيَّة، وما يُصلحهم في دُنياهم ودِينهم) ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٩-٥٣١).

١- ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ من التعليمِ، وكلُّ مُعلِّمٍ عالمٌ بما يُعلِّم، وليس كلُّ عالمٍ بشيءٍ معلِّمًا، فهذا أبلغُ وأمدح[1].

٢- (تَعْلَمُونَ) والمعنى: بعِلْمكم الكتابَ[2].

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾.

أي: بسببِ تَعليمِكم الكتابَ لغيرِكم، الْمُتَضَمِّن لعِلمِكم[3].

﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

أي: بسببِ مُداومتِكم على قِراءتِه، وحِفظِ ألفاظِه[4].

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نفَى اللهُ تعالى أنْ يكون مَن آتاه الله النُّبُوَّةَ مِن البشر داعيًا إلى نفْسه، وأثبت أنَّه يكون -ولا بدَّ- داعيًا إلى الله سبحانه وتعالى؛ أثبت أنَّ ذلك لا بدَّ أن يكون على وجهِ الإخلاص؛ لأنَّ بعضَ الشَّياطين يُحْكِمُ مكره بإبعاد التُّهمة

---

(١) قرأ بها ابن عامر والكوفيون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٥).

عن نفسه بالدُّعاء إلى غيرِه على وجهِ الشِّرْك، لا سيَّما إنْ كان ذلك الغيرُ ربانيًّا كعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام[(١)]، فقال تعالى:

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾.

أي: وما كان له أيضًا أن يأمرَكم أن تتَّخذوا الملائكة ولا النَّبيِّين أربابًا تُعبَد من دون الله، فما يَنبغي له أنْ يأمرَكم بعبادةِ أحدٍ من الخَلقِ؛ لا نبيٌّ مرسَل، ولا مَلَكٍ مقرَّبٍ[(٢)].

﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: فلا يُمكن أنْ يأمرَكم بالكفر بعد إذ أنتم مُنقادُون بالطاعةِ، مُتذلِّلون بالعبوديَّة لله، قد تقرَّر إسلامُكم وثَبَتَ[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ....﴾ الآية أنَّ مَن بَلَغَ مِن رِقَّة الدِّيانة إلى حدٍّ أنْ يَشتريَ بعهد الله وأَيْمانه ثمنًا قليلًا، فقد بلَغ الغايةَ القُصوى في الجُرْأة على الله؛ فكيف يُرْجَى له صلاح بعد ذلك[(٤)]؟!

٢- العمومُ في قوله: ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ عمومٌ مشروطٌ بعدم التوبة، وذلك بإجماع الأمَّة؛ فإنَّه إنْ تاب عنها، سقَط الوعيدُ بالإجماع[(٥)].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٨-٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٦).

٣- العُهودُ إذا نُكِثَتْ اختلَّ أمر الدِّين، وفسَدت مصالح الدُّنيا؛ لأجْل هذا كان الوعيدُ على نَكْث العهد- ولو كان لأجل المنفعة- أشدَّ ما نطق به الكتاب وأغلظَه، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾(١).

٤- منَ ألْزم النَّاس أو أراد منهم أن يتَّبعوا قولَه مهما كان، فإنَّه قد جعَلهم عِبادًا له؛ لأنَّ طاعة الشَّخص من العبادة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٢).

٥- الإشارةُ إلى أنَّه يَنبغي للإنسان أن يكون مُعلِّمًا ربانيًّا؛ لقوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾، ومَن كان معلمًا لا ربانيًّا فعِلمه قاصر جدًّا؛ لأنَّ فائدة العِلم وثمرته هي العملُ والتأدُّب بآداب العِلم(٣).

٦- المعلِّمُ ليس هو الَّذي يملأ أذهانَ النَّاس عِلمًا فحسبُ، ولكن الَّذي يملأ أفكارَهم أو أذهانَهم علمًا، وأخلاقَهم تربيةً(٤).

٧- في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، دلالةٌ على أنَّ العِلم والتعليم والدِّراسة توجب كونَ الإنسان ربانيًّا، فمَن اشتغل بالتعلُّم والتعليم لا لهذا المقصود، ضاعَ سعيُه، وخاب عملُه، وكان مَثَله مثلَ مَن غرس شجرةً حَسناءَ مونِقة بمنظرِها، ولا منفعةَ بثمرِها(٥).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا...﴾: هدَّد اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨٦).

الَّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، ومنهم العلماءُ الَّذين يكتمون ما أنزل الله مداهنةً أو مراعاةً، أو من أجْل مال(١).

٢- أضاف العهدَ إلى الله في قوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّه تعالى عَهِدَ إلى النَّاس في كتُبه المنزَّلةِ أنْ يلتزموا الصِّدقَ والوفاءَ بما يتعاهدون ويتعاقدون عليه، وأنْ يُؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها، وأنْ يَعبُدوه ولا يُشركوا به شيئًا ويتَّقوه في جميعِ الأمور، فعهدُ الله يشمل كلَّ ذلك(٢).

٣- يدخُل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كلُّ مَنْ أخذ شيئًا من الدُّنيا في مقابلةِ ما ترَكه من حقِّ الله أو حقِّ عباده، ومَن حلَف على يمين يَقتطع بها مالًا معصومًا(٣)، ويَدخُل فيه أيضًا جميعُ ما أمر الله به، ويدخُل فيه ما نصَب عليه الأدلَّة، ويدخُل فيه المواثيقُ المأخوذةُ من جِهة الرَّسول، ويدخل فيه ما يُلزِم الرَّجُلُ نفْسَه؛ لأنَّ كلَّ ذلك من عهد الله الَّذي يَلْزَم الوفاء به(٤).

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أنه لَمَّا كان الناكثُ للعهد لا ينكُث إلَّا لمنفعةٍ يجعلها بدلًا منه، عبَّر عن ذلك بالشِّراء، الَّذي هو معاوضة ومبادلة، وسَمَّى العوضَ ثمنًا قليلًا(٥).

٥- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يُؤخذ منه أنَّ اليمينَ الغموس وعدمَ القيام بعهدِ الله من كَبائر الذُّنوب، وهو أمرٌ زائدٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٨١).

كونه محرَّمًا؛ لأنَّ الكبيرة أعظمُ من مُطلقِ التَّحريم؛ لأنَّ فيها وعيدًا، وكلُّ ذنب رُتِّب عليه وعيدٌ فهو من كبائرِ الذُّنوب(١).

٦- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ أنَّ حُكم الحاكمِ لا يُحِلُّ المالَ في الباطِن بقضاء الظَّاهر، إذا عَلِم المحكوم له بُطلانَه(٢).

٧- إذا كان مَن اشترى بعهد الله ثمنًا قليلًا أو بيمينه ﴿لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾، فإنَّ مَنْ وفَّى بعهد الله، وحلَف على صِدق، فإنَّه لا يُحْرَمُ النصيب في الآخرة(٣).

٨- قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيه إثباتُ تكليمِه سبحانه وتعالى لأهلِ الجنَّة، وخِطابِه لهم، ومُحاضرتِه إيَّاهم؛ فلو كان لا يُكلِّم عِبادَه المؤمنِينَ لكانوا في ذلك هُم وأعداؤُه سواءً، ولم يكُن في تخصيصِ أعدائِه بأنَّه لا يُكلِّمُهم فائدةٌ(٤).

٩- المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ النَّظر الخاصُّ، أمَّا النَّظر العام، فإنَّ الله تعالى لا يُحجَب عن بصره شيءٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٠).

ويدل على ذلك ما جاء عن أُم سَلمةَ زَوجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّما أنا بشرٌ وأنتم تختصِمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحُجَّتِهِ من بعض، فأَقضِيَ له على نحو ما أَسمعُ منه؛ فمَن قضيتُ له بشيءٍ من حَقِّ أخيه، فلا يأخُذَنَّه؛ فإنَّما أقطعُ له قِطْعَةً من النار)). رواه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٤٦).

١٠- في مجيء الوعيد عقب الصِّلة، وهي ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ..﴾ الآية، إيذانٌ بأنَّ مَن شابههم في هذه الصِّفات، فهو لاحقٌ بهم[1].

١١- لَمَّا نسَب اللهُ فريقًا من أهل الكتاب إلى الكذِب عمومًا في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، نبَّه إلى نوع خاصٍّ منه، هو أكذبُ الكذب، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾[2].

١٢- لَمَّا كان كلامُ الله سبحانه وتعالى لا يَلتبِس بغيره إلَّا على ضعيفِ العقل، ناقص الفِطرة، عبَّر بالحسبان؛ تنفيرًا عن السَّماع منهم، وتنبيهًا على بُعد ما يَسمَعُه الإنسان من غيره، فقال: ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾[3].

١٣- لَمَّا كان الكذبُ قد يُطلَق على ما لم يُتعمَّد، بل وقع خطأً، احترز عنه بقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنَّه كذِب، لا يَشكُّون فيه[4].

١٤- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ أنَّه لا تُقبَلُ التَّرجمةُ إلَّا مِن ثقةٍ[5].

١٥- الأنبياء أكملُ الخَلْق على الإطلاق، فأوامرُهم تكون مناسبةً لأحوالهم، فلا يأمرون إلَّا بمعالي الأمور، وهم أعظمُ النَّاس نهيًا عن الأمورِ القبيحةِ، كما في قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ...﴾[6].

١٦- مادة (درس) تستلزمُ التمكُّنَ من المفعول؛ فلذلك صار درْس الكتابَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) .
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٤٦٦).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١١٢)
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).

بمعنى فَهْمه وإتقانه؛ ولذلك عطف في هذه الآية ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ على ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾(١).

١٧- خصَّ الملائكةَ والنبيِّين بالذِّكر في قوله: ﴿الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ﴾؛ لأنَّ الَّذين وُصِفوا من أهل الكتابِ بعبادةِ غير الله لم يَحكِ عنهم إلَّا عبادةَ الملائكة، وعبادة المسيحِ وعُزَيْر(٢).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

- قوله تعالى: ﴿يَلْوُونَ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مرَّتين: جِيء بالمضارعِ في هذه الأفعالِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّد ذلك منهم، وأنَّه دأْبهم(٣).

- والضميرُ في قولِه تعالى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾: يرجع إلى ما دلَّ عليه ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ وهو الكتابُ المُحرَّف، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تأكيدٌ لقولهم: ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾، وزيادةُ تشنيعٍ عليهم، وتسجيلٌ بالكذبِ، وفيه دلالةٌ على أنَّهم لا يُعرِّضون ولا يُورِّون، وإنَّما يُصرِّحون بأنَّه في التوراةِ هكذا، وقد أنزلَه اللهُ تعالى على موسى كذلك؛ لفَرطِ جراءتِهم على اللَّه، وقساوةِ قلوبهم، ويَئسِهم من الآخرة(٤).

- قوله تعالى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٧٧)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٦٨- ٢٦٩).

عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: فيه تكريرُ ﴿الْكِتَاب﴾ في الآية مرَّتين، وتكريرُ اسمِ الجَلالةِ أيضًا؛ لقَصدِ الاهتمامِ بالاسمينِ، وذلك يَجرُّ إلى الاهتمامِ بالخبَرِ المتعلِّقِ بهما، والمتعلِّقَينِ به، ويُقصَدُ بالتكريرِ أيضًا التَّفخيمُ[١].

- وفيه إظهارُ لفظ ﴿الكِتَابِ﴾، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿اللَّه﴾، في مَحلِّ الإضمارِ- حيثُ قال: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ﴾ ولم يقُل: (وما هو منه)، وقال: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ولم يقُل: (وما هو من عنده)-؛ لتهويلِ ما أَقْدَموا عليه مِن القولِ[٢].

- وقوله: ﴿وَما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: ردٌّ عليهم في إخبارِهم بالكذب، وتأكيدٌ لقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ حيث نَفَى أولًا نفيًا أخصَّ؛ إذ التعليل كان لأخصَّ، ونَفَى هنا نفيًا أعمَّ؛ لأنَّ الدَّعوى منهم كانت الأعمَّ؛ لأنَّ كونَه من عند الله أعمُّ مِن أن يكون في التوراة أو غيرها[٣]؛ وذلك لأنَّه ليس كلُّ ما لم يكُن في الكتابِ لم يكُن من عند الله؛ فإنَّ الحُكمَ الشرعيَّ قد ثبَت تارةً بالكتابِ وتارةً بالسُّنةِ، والكلُّ من عند اللهِ، وكذا ما يَرجِع إليهما مِن الإجماعِ والقِياس الصَّحيح[٤].

٢- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ فيه إيجازٌ بالحذف، ومبالغةٌ في نفْي استحقاق أيِّ أحدٍ لذلك القول؛ إذ اللام فيه للاستحقاقِ، وأصل هذا التركيب في الكلام: (ما كان فلان فاعلًا كذا)، فلمَّا أُريدتِ المبالغةُ في النَّفي، عدَل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٤-٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٦٨- ٢٦٩).

عن نفْي الفِعل إلى نفْي المصدَر الدالِّ على الجِنس، وجعَل نفْي الجنس عن الشَّخْص بواسطة نفْي الاستحقاق[١].

٣- في قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ أتى بلفظ: ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي هي للمُهلة تعظيمًا لهذا القول، وإذا انتفَى هذا القول بعد المهلة كان انتفاؤه بدونها أَوْلى وأحْرى، أي: إنَّ هذا الإيتاءَ العظيم لا يُجامع هذا القول، وإنْ كان بعد مهلةٍ مِن هذا الإنعام العظيم[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

- جِيء بخبرِ كان مضارعًا في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكتاب وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾؛ لإفادةِ الاستمرارِ التجدُّدي[٣].

- وتكريرُ ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ من استمرارِ التعليمِ، واستمرارِ القراءةِ بالفضل، وتحصيلِ الربَّانية[٤].

- وتقديمُ التعليمِ على الدِّراسة؛ لزيادة شرفِه عليها، أو لأنَّ الخطابَ الأولَ لرؤسائهم، والثاني لِمَن دُونهم[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

- قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾: فيه زيادةُ حرف النَّفي ﴿وَلَا﴾ لتأكيدِ معنى النَّفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٣٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢- ٥٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣).

في قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾، وليستْ معمولة لـ(أنْ)؛ لاقتضاءِ ذلك أنْ يصير المعنى: لا يَنبغي لِبشرٍ أُوتي الكتاب ألَّا يأمرَكم، وهو غيرُ صحيحٍ قطعًا[1]، أو تكون ﴿لَا﴾ لتأسيسِ النَّفْي على معنى أنَّه ليس له أنْ يأمُرَ بعبادتِه، ولا يأمُرَ باتِّخاذ أكفائِه أربابًا، بل يَنهَى عنه[2].

- في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، والمعنى: لا يأمُركم بعبادةِ نفْسِه، ولا بعبادةِ أحدٍ من الخَلق من الملائكة والنَّبيِّين وغيرهم[3].

- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: كلامٌ مستأنَف لخِطاب المؤمنين عن طريقِ التعجُّب من حالِ غيرِهم، والهمزة فيه للاستفهامِ الإنكاريِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٦- ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٥٤٨).

الآيتان (٨١ - ٨٢)

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾: أأثبتُّم واعترفتُم، والإقرارُ ضدُّ الجحود، وأصلُ الإقرار: إثباتُ الشَّيء، أو التمكُّن، وقرَّ في مكانه: إذا ثبَت ثبوتًا جامدًا(١).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ... لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾

﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾: قُرِئت ﴿لَمَا﴾ بفتْحِ اللام وتَخفيفِ الميمِ، و(مَا) شرطيَّة، ودخَلت عليها لامُ التَّحقيقِ أو التَّوْطِئة كما تدخُل على (إن) الشرطية، إذا كان في جَوابِها القَسمُ، كقوله: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]، فتقديرُ ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾: لَمَهمَا آتَيْتُكُمْ، أي: أيَّ كتابٍ آتَيْتُكُم لتُؤمنُنَّ به. وموضِعُ (ما) الإعرابيُّ النَّصبُ على المفعولِ به بالفِعلِ الذي بَعدَها، وهو ﴿آتَيْتُكُمْ﴾، وهذا الفِعلُ مُستقبَلٌ معنًى؛ لكونِه في حَيِّز الشَّرْط، ومَحلُّه الجزمُ في جوابِ الشرط. وجوابُ الشَّرْط مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ جوابِ القَسمِ في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ عليه، كما سيأتي.

وقيل: إنَّ (مَا) موصولةٌ بمعنى الَّذي، وهي في مَحلِّ رفْع مُبتدأ، واللامُ هي

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

لامُ الابتداء، وقعت جوابًا للقَسمِ المدلولِ عليه مِن معناه ﴿أَخَذَ مِيثَاقَ﴾؛ لأنَّه يكون بالأيمانِ والعهود، وجملة ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ صِلة (مَا)، والعائدُ محذوفٌ تقديره: آتيتكموه.

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾: جوابٌ لقوله: ﴿أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ سَدَّ جَوابُ القَسمِ مَسَدَّه، والضميرُ في ﴿بِهِ﴾ عائدٌ على اسمِ الشَّرْط- على الوجه الأوَّل في (ما) أنَّها شرطيَّة.

وأمَّا على الوجهِ الآخَر أنَّ (ما) موصولةٌ؛ فقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾: جوابُ قَسَمٍ مقدَّر، وهذا القَسَمُ المقدَّر وجوابُه خبرٌ للمبتدأ (ما) في ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾، والهاءُ في ﴿بِهِ﴾ تَعودُ على المبتدأ، ولا تعودُ على ﴿رَسُول﴾؛ لئلَّا يلزمَ خُلوُّ الجملة الواقعة خبرًا من رابطٍ يربطها بالمبتدأ. وفيه أقوالٌ وتفصيلات أخرى.

- وقُرِئت (لِمَا) بكسرِ اللام والتَّخفيف، وعليه؛ فاللامُ للتعليل، وهي حرف جرٍّ، و(مَا) حينئذ: مَصدريَّة، والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾، أو بـ﴿أَخَذَ﴾. والتقدير: لأجْل إيتائي إيَّاكم بعضَ الكتاب والحِكمة، ثم لمجيءِ رسولٍ مصدِّقٍ لتؤمننَّ به. أو يكونُ التقديرُ: لأجْلِ إيتائي إيَّاكم كيتَ وكيتَ أخذتُ عليكم الميثاقَ. وفي الكلامِ حذفُ مضافٍ، تقديره: لِرعايةِ ما آتيتُكم. أو تكون (ما) موصولةً بمعنى الذي، ويكونُ عائدُها محذوفًا. وقيل غير ذلك[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تبارَك وتعالَى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: واذكُرْ- يا محمَّدُ- حينما

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٢٢٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٦٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٦٥- ١٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٢٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٨٤- ٢٩٠)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ١٤٦).

عَهد الله إلى جميعِ الأنبياء، وأخَذ منهم الميثاقَ المؤكَّد، فقال لهم: بسببِ ما امتنَّ به عليهم من إعطائِهم الكتابَ والحِكمة، ثمَّ جاءَهم وجاء مَن يَتْبعهم من الأمم رسولٌ، يُقِرُّ بما جاؤوا به ويُصدِّقه- وهو الرَّسول محمَّد صلَّى الله عيه وسلَّم- فيجب عليهم الإيمانُ به وتصديقُه، ونُصرته. ثمَّ قال لهم مؤكِّدًا عليهم ومقرِّرًا لهم: أأقررتُم بهذا الميثاقِ والتزمتُم به، وأخذتُم عهدي ومِيثاقي الشَّديدَ عليه؟ فقال الأنبياءُ جميعُهم: أَقرَرْنا وقَبِلنا. فقال لهم تبارَك وتعالَى: فاشْهدوا على أنفسِكم وعلى أَتْباعِكم من الأمم بذلك، وسأكونُ أنا من الشاهِدين عليكم وعلى أُممكم؛ فمَن أَعرَض وتولَّى بعد ذلك عمَّا عاهَد عليه، فأولئك هم الفاسِقون، الخارِجون من دِين اللهِ، والمستكبِرون عن طاعتِه والتِزام أمْره.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾.

أي: واذكُر- يا محمَّدُ[١]- حينَ أخَذَ اللهُ ميثاقَ جميعِ النَّبيِّين وعَهْدَهم المؤكَّدَ[٢].

﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

---

(١) وقدَّره ابن جرير: واذْكُروا يا أهلَ الكتاب. ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦١).

قال ابن عطيَّة: (ويحتمل أن يكون ﴿أَخَذَ﴾ هذا الميثاق حين أخرج بني آدمَ مِن ظهْر آدم نسمًا، ويحتمل أن يكون هذا الأخْذ على كلِّ نبيٍّ في زمنه، ووقت بَعْثه، ثم جمع اللَّفظ في حكايةِ الحال في هذه الآية) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٣).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

أ- في قوله تعالى ﴿لَمَا﴾ قِراءتان:

١ - (لِمَا) والمعنى: وإذ أخَذ الله ميثاقَ النبيِّين لِلَّذي آتيتُكم، واللَّام متعلِّقة بـ (أخْذ الميثاق)، فالمعنى أخَذَ الميثاقَ لإيتائِه الكِتابَ والحِكمة[١].

٢ - ﴿لَمَا﴾ والمعنى: مهما آتيتُكم من كتابٍ وحكمةٍ، بمعنى الشَّرطِ والجزاءِ[٢].

ب- في قوله تعالى: ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ قراءتان:

١ - (آتَيْناكُمْ) بلفظ الجمْع، على معنى التعظيمِ لله تبارَكَ وتعالَى[٣].

٢ - ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ على معنى إخبارِ المتكلِّم بفِعله عن نَفْسِه[٤].

﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

أي: لَمَهْمَا أعطيتُكم- أيُّها النَّبيُّون- من كتابٍ وحِكمةٍ[٥].

﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾.

---

(١) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٦٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١)، وينظر أيضًا: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨).

(٣) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧).

أي: ثمَّ جاءَكم- أيُّها النَّبيُّون- وجاء أُممَكم وأتْباعَكم رسولٌ يُصدِّق ما معكم من الكتُب(١)، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم(٢).

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾.

أي: فعليكم أن تؤمنوا به وتصدِّقوه، وتنصروه على أعدائه، وتُعِينوه على نشْر

(١) وثَمَّةَ معنًى ثانٍ، وهو: أنه يقَعُ مصداقًا لِمَا سبَقه من الكتاب؛ لأنَّ الكتُب أخبرت به، فإذا جاء مطابقًا لما أخبرت به صار مصدقًا لها. فيكون على هذا الوجه شهادة لهذا الكتاب بأنَّه حق، ويكون مع الوجه الأول شهادة بأنَّ الكتُب السابقة حقٌّ؛ لأنَّ الله تعالى يقول في النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فإذا جاء على الوصف الذي جاءتْ به التوراةُ والإنجيل وقع مصداقًا؛ لأنَّها أخبرت بشيءٍ، فجاء هذا الشيءُ فيكون مصدقًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٥)، ((الزهد والورع والعبادة)) لابن تيمية (ص: ١٥٧)، ((هداية الحيارى)) لابن القيِّم (١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٢).

ذهَب عليٌّ وابن عبَّاس رضي الله عنهم إلى أنَّ هذا الميثاق المأخوذ إنَّما هو على الإيمان بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، بينما ذَهَب طاوس والحسنُ البصريُّ إلى أنَّ المراد: أنَّ الله أخَذَ الميثاق على النبيِّين أنْ يُصدِّق بعضهم بعضًا. قال ابنُ كثير: (وهذا لا يُضادُّ ما قاله عليٌّ وابن عبَّاس ولا يَنفيه، بل يستلزمه ويَقتضيه). يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧).

وقال ابن تيمية: (وقوله: ﴿رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ متناول لمحمَّد بالاتِّفاق... وهل يدخل في ذلك غيرُه من الرسل؟ فيه قولان: قيل: إنَّ الله أخذ ميثاق الأوَّل من الأنبياء أن يُصدِّق الثاني وينصره، وأمره أن يأخذ الميثاق على قومه بذلك، وقيل: بل هذا الرسول هو محمَّد خاصَّةً، وهذا قول الجمهور، وهو الصواب؛ لأنَّ الأنبياء قبله إنما كانتْ دعوتهم خاصَّةً لم يكونوا مبعوثين إلى كلِّ أحد، فإذا لم يدخل في دعوته جميعُ أهل زمنهم ومَن بعدهم؛ كيف يدخل فيها مَن أدركهم من الأنبياء قبلهم؟! والله تعالى قد بعث في كلِّ قوم نبيًّا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وكذلك قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾، والنصرة مع الإيمان به هو الجهادُ، ونوح وهود ونحوهم من الرُّسل لم يُؤمَروا بجهاد، ولكن موسى وبنو إسرائيل أُمِروا بالجهاد)، ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٤٥٣).

رسالته[١]، ولا يَحْمِلَنَّكم ما آتيتكم من كتاب وحِكمة على أن تَتركوا متابعتَه، أو تستغنوا بما آتيتكم عمَّا جاء به[٢].

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضِي اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ: ((لَو كَانَ أخِي موسى حيًّا، ما وَسِعَه إلَّا اتِّباعي))[٣].

﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾.

أي: اعترفتُم والتزمتُم بذلك الميثاقِ، وأخذتُم عهدي الثَّقيل، ومِيثاقي الشَّديد المؤكَّد، ووصيَّتي بالإيمانِ بهذا الرَّسول ونُصرته، وقَبِلتُم ذلك ورضيتُموه[٤]؟

﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾.

أي: قالوا: اعترَفنا وقَبِلنا، والتَزمنا بأنْ نؤمِنَ به ونَنصُره[٥].

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾.

أي: قال اللهُ تعالى للأنبياءِ: فاشَهْدوا على أنفسِكم، وعلى أَتْباعِكم من الأُممِ بذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٤)، ((الزُّهد والورع والعبادة)) لابن تيمية (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((دقائق التفسير)) لابن تيمية (١/ ٣٣٥).

(٣) رواه أحمد (١٥١٩٥)، وابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٢٦٩٤٩)، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (١٤٩٧).

صححه ابن الجوزي في ((الموضوعات)) (١/ ٣٢٢)، وحسنه الألباني في ((إرواء الغليل)) (١٥٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦).

﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أي: وأنا معكم مِنَ الشَّاهدين عليكم وعلى أُممكم، وكفَى بالله شهيدًا[١].

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾.

أي: فمَن تولَّى وأَعْرَضَ بعد ذلك عن هذا العهدِ والميثاق، بالإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واتِّباعِه ونُصْرتِه مِن أُممِ هؤلاءِ الأنبياء[٢].

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: فأولئك هم الخارِجونَ مِن دِين الله، والمُعرِضون عن طاعتِه[٣].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في أَخْذ اللهِ على النَّبيِّين الميثاقَ بالتكليفِ دليلٌ على أنَّهم مَرْبُوبُون، مُتعبَّدون لله عزَّ وجلَّ، كما أنَّ غيرهم كذلك[٤].

٢- في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ...﴾: فضيلةُ نبيِّنا محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعلوُّ مرتبتِه، وجلالةُ قدْره، وأنَّه أفضلُ الأنبياء؛ لكونِ اللهِ أَخَذ على جميعِ الأنبياء الميثاقَ والعهدَ أن يُؤمنوا به ويَنصُروه، وقوَّى هذا العهدِ بهذه التقريرات والإشهادات المختومةِ بقوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، ممَّا يَزيد فَضيلةً لرسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٦)

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦،٩٧٠

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((دقائق التفسير)) لابن تيمية (١/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٦)، ((تفسير =

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾ خبرٌ، مقصودٌ منه أمرُ الذين كانوا في زمان الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُؤمنوا به، فإذا دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الله تعالى أوجبَ على جميع الأنبياء أن يُؤمنوا بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، لو كانوا في الأحياء، وأنَّهم لو تركوا ذلك لصاروا من زُمرة الفاسقين، فلأنْ يكونَ الإيمان بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم واجبًا على أُممهم- لو كان ذلك- أَوْلى؛ فكان صَرْفُ هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيلِ المطلوب من هذا الوجْه[1].

٤- يجوزُ، بل يُشْرَع في الأمور المهمَّة، أنْ يُقرِّر مَن أُخِذ عليه العهد؛ حتَّى يُقِرَّ ويعترف، زيادةً على العقد الأوَّل الَّذي جرَى بينه وبين معاهِده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[2].

٥- في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ دليلٌ على جواز إشهادِ الإنسان على نفْسِه[3].

٦- لا طَريقَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ لأحدٍ مِن الخَلْقِ إلَّا بمُتابعةِ محمَّدٍ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم باطنًا وظاهرًا، حتى لو أدرَكَه موسى وعيسى وغيرُهما من الأنبياءِ لوَجَبَ عليهم اتِّباعُه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ

= ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧١، ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٣- ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ... ﴾(١).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال بحياةِ الخَضِر، وأنَّه باقٍ إلى الآن؛ إذ لو كان الخَضِرُ حيًّا لوجَبَ عليه أن يأتيَ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيُؤمِنَ به، ويُجاهِدَ معه؛ لأنَّ اللهَ أخَذَ الميثاقَ على الأنبياءِ وأتْباعِهم بذلك(٢).

٨- في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن تولَّى قبل قيام الحُجَّة عليه، لم يُحْكَم عليه بالفِسق، ويتفرَّعُ على هذا فائدةٌ مهمَّةٌ، وهي: أنَّ الشرائع لا تَلْزَمُ قبل العِلم(٣).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾:

- قوله تعالى: ﴿آتَيْتُكُمْ﴾ أو ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾ فيه: التفاتان؛ أحدهما: الخروجُ من الغَيبة إلى التكلُّم في قوله: ﴿آتَيْنَا﴾ أو ﴿آتَيْتُ﴾؛ لأنَّ قبله ذِكرُ الجلالة المعظَّمة في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ﴾. والثاني: الخروجُ من الغَيبة إلى الخِطاب في قولِه: ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾؛ لأنَّه قدْ تقدَّمه اسم ظاهرٌ، وهو ﴿النَّبِيِّينَ﴾؛ إذ لو جرَى على مقتضى تقدُّمِ الجلالة والنبيِّين لكان التركيب: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتاهم من كتاب... كذا). وقيل: مِثل هذا لا يُسمَّى التفاتًا،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٤).

وإنَّما يُسمَّى حِكايةَ الحال، ونظيره قول: حلَف زيدٌ ليفعلن ولأفعلن؛ فالغَيبةُ مراعاةً لتقدُّم الاسم الظاهر، والتكلُّمُ حِكايةً لكلام الحالِف، والآية الكريمة من هذا[1].

– في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ...﴾: إيجازٌ بالحذف؛ إذ ذكَر ﴿النَّبِيِّينَ﴾ على سبيلِ المغايبة، ثم قال: ﴿آتَيْتُكُمْ﴾، وهو مخاطبةٌ إضمارٍ، والتقدير: وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيين، فقال مخاطبًا لهم: ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾. وقيل: تقدير الآية: وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيِّين لتُبلغنَّ الناس ما آتيتُكم من كتابٍ وحِكمة، إلَّا أنه حذف (لتبلغن)؛ لدلالةِ الكلامِ عليه؛ لأنَّ لامَ القسمِ إنما تقَعُ على الفِعل؛ فلمَّا دلَّت هذه اللام على هذا الفِعل، حذفَه اختصارًا[2].

٢- قوله تعالى: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾:

– فيه إدخالُ (مع) على المخاطبين؛ لأنَّهم المباشِرون للشَّهادة حقيقةً. وكونُ الله تعالى معهم من الشاهِدين فيه توكيدٌ عظيمٌ للمشهودِ عليه، وتحذيرٌ شديدٌ لِمَن يُخالف مقتضَى هذه الشَّهادة[3].

– وفيه فائدةٌ أخرى- مع التأكيدِ، وتقوية الإلزام- وهي: أنَّه تعالى وإنْ أشهَد غيرَه، فليس مُحتاجًا إلى ذلك الإشهاد؛ لأنَّه تعالى لا يَخفى عليه خافيةٌ، لكن لضرب من المصلحة؛ لأنَّه سبحانه وتعالى يعلم السِّرَّ وأخفى، ثم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٤).

إنَّه تعالى ضمَّ إليه تأكيدًا آخر، فقال: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[1].

٣- قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أسلوبُ حَصْرٌ، ووَجْهُ هذا الحَصْرِ أنَّه للمُبالغةِ؛ لأنَّ فِسقَهم في هذه الحالةِ أشدُّ فِسقًا، فجُعِل غيرُه من الفِسقِ كالعدمِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٠).

الآيات (٨٣ - ٨٥)

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

في هذه الآياتِ يُنكِر اللهُ تعالى على مَن ابتغى دِينًا غير دِينه الَّذي أرسل به رسوله محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: أَيطلُبون دِينًا غيرَ دِين الله، وشريعةً غير شريعته، وله استسلمَ جميعُ مَن في السَّموات والأرض، وانقادوا له طائِعين وكارِهين، وهُم بعدَ مماتِهم راجعون إليه، فيُوفيهم أعمالَهم، ويَجزيهم على أفعالِهم؟!

ثمَّ يُوجِّه الله خِطابَه إلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ آمِرًا له أنْ يقولَ لهم إذا أرادوا دِينًا غير دِين الله: آمنَّا باللهِ، وما أَنزله علينا من كِتابٍ وسُنَّة، وبما أنزله على أنبيائِه إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، وعلى أنبياء بُطُون بني إسرائيل المتشعِّبة من الأولاد الاثني عشرَ ليعقوب، وآمنَّا أيضًا بالتَّوراة والإنجيل والآيات الَّتي أيَّد الله بها موسى وعيسى عليهما السَّلام، وآمنَّا بما أُعْطِيَ جميعُ الأنبياءِ من ربِّهم؛ نؤمِن بهم جميعًا ولا نُفَرِّقُ بينهم في الإيمان، ونحنُ مُسلِمونَ لله، خاضِعون منقادون له في الظَّاهر والباطن.

ثم يُخبِر الله تبارَك وتعالَى أنَّ مَن يَبتغي غيرَ الإسلام دينًا؛ ليَدِينَ به، فلنْ يَقبلَه اللهُ منه، بل سيكونُ مَردودًا عليه، وستكونُ عاقبتُه في الآخِرة هي الخسرانَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولى أنَّ الإيمانَ بمحمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام، شرعٌ شرَعه الله، وأَوجبَه على جميع مَن مضى من الأنبياء والأُمم، لَزِمَ أنَّ كلَّ مَن كَرِهَ ذلك، فإنَّه يكون طالبًا دِينًا غير دِين الله[1]؛ فلهذا قال بعده:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾.

أي: أَيطلُبون دِينًا غيرَ دِين الله، وشريعةً غير شريعته[2]؟

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

أي: وله استسلمَ وانقادَ، وخضَع وذلَّ مَن في السَّموات والأرض طائعين: كالملائكةِ والأنبياء والمؤمنين، ومُكرَهين: كالكفَّار؛ فهم تحتَ قَهْرِ الله وسُلطانِه العظيم، مستسلِمون لقضائِه وقدَره[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقال أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٦٧).
قال ابن تيمية: (وعامَّة السَّلف على أنَّ المراد بالاستسلام استسلامُهم له بالخضوع والذلِّ، لا مُجرَّد تصريف الربِّ لهم) ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٩).

اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩].

ثم يقولُ تعالى مخذِّرًا لهم أن يَلقَى الإنسانُ ربَّه على غير ملَّة الإسلام[١]:

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإليه يَصيرون بعدَ مماتِهم، فيجازي كلًّا بعمله: المحسِنَ بإحسانِه، والمسِيءَ بإساءته[٢].

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى في الآية المتقدِّمة أنَّه إنَّما أخَذَ الميثاقَ على الأنبياء في الإيمان بالرَّسول الَّذي يأتي مصدِّقًا لِمَا معهم، بَيَّن في هذه الآية أنَّ مِن صِفة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كونَه مصدِّقًا لِمَا معهم[٣]، فقال:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾.

أي: فإنِ ابتغَوْا غير دِين الله، فقل لهم- يا محمَّدُ-: آمنَّا بالله[٤]، والخِطاب للنبيِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٣)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، وقال: (فإنِ ابتغَوا غَيرَ دِين الله يا محمَّد، فقل لهم: آمنَّا بالله، فترَكَ ذِكر قوله: (فإنْ قالوا: نعم)، وذكر قوله: (فإنِ ابْتغَوْا غيرَ دِين الله)؛ لدلالةِ ما ظهَر من الكلامِ عليه).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأمَّته، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم﴾[1] [البقرة: ١٣٦].

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾.

أي: وآمنَّا بما أُنزِل علينا مِن وحْيِ اللهِ من القرآنِ، ومن سُنَّة نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

فالسُّنَّة منزَّلة[3]، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النِّساء: ١١٣].

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾.

أي: وقلْ: وآمنَّا أيضًا بما أُنزل الله على إبراهيمَ، وعلى ابنيْه إسماعيلَ وإسحاقَ، وعلى ابن إسحاقَ يعقوبَ، وعلى أنبياءِ بُطون بني إسرائيل المتشعِّبة من الأولاد الاثني عَشرَ ليعقوب، وهو إسرائيلُ[4].

وقد بيَّن اللهُ تعالى في سورة الأعلى أنَّ المنزَّل على إبراهيم عليه السَّلام إنَّما هو صُحف، وأنَّ مِن جملة ما في تلك الصُّحف: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[5] [الأعلى: ١٦-١٩].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٣).

(٥) هذا على القول بأنَّ الضميرَ في﴿هَذَا﴾ يعود على قوله سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥).

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: وقل: آمنَّا أيضًا بالتَّوراة الَّتي أعطاها اللهُ موسى عليه السَّلام، والإنجيل الَّذي أعطاه الله عيسى عليه السَّلام، وما أيَّدهما الله به من الآيات، وبما أُعطِي جميع الأنبياء من ربِّهم(١).

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾.

أي: لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم وآخَرَ في الإيمان؛ فنؤمِن ببعضٍ ونكفُر ببعض، لكن نؤمِن بهم جميعًا، وهذا تعريضٌ باليهود والنَّصارى(٢).

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: ونحن للهِ مستسلِمون ظاهرًا وباطنًا، منقادُون بالطاعة، مُتذلِّلون بالعبوديَّة، لا نَدين بغير دِين الإسلام(٣).

وقد جاءَ التصريحُ في القرآن بأنَّهم امتثلوا الأمْر في قوله سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وجاء ذِكرُ جَزائِهم على ذلك في قولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(٤) [النساء: ١٥٢].

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٥).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

أي: ومَن يَطلُبْ دينًا غير الإسلام ليَدِينَ به، فلن يُقبَلَ منه ذلك الدِّينُ، وهو مردودٌ عليه(١).

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أي: خسِرَ ثوابَ الله ونعيمَه، وصار إلى عذابِه، وبخَس نفْسَه حظَّها من رحمة الله؛ لأنَّه يَعملُ عملًا لن يُقبَل منه(٢).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- وجوب الإقرار بالإيمان باللِّسان، كما هو واجب بالقلب؛ لأنَّ قوله: ﴿قُلْ﴾ يعني: باللِّسان المعبِّر عمَّا في القلب(٣).

٢- في تقديم قوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، وجعْل ما بعده معطوفًا عليه، دليلٌ على أنَّ الإيمان بالله هو أصل كلِّ شيء، ومقدَّم على كلِّ شيء(٤).

---

(١) قيل بأنَّ الإسلام هاهنا الاستسلامُ لله تعالى، وتفويضُ الأمر إليه، وذلك أمرٌ مرادٌ من النَّاس في كلِّ زمان، ومِن كلِّ أمَّة، وفي كلِّ شريعة، وهذا اختيارُ ابن عطية في ((تفسيره)) (١/ ٤٦٧)، وابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٢/ ١٣١)، وفي ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (٢/ ٣٧٠)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٣٧).

وقيل: المرادُ بالإسلام شريعةُ محمَّد عليه الصلاة والسلام. وهذا اختيار الشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٤٤-٤٥)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٧).

قال الراغب: (وهذا الوجهُ داخلٌ في الأول، فمعلومٌ أنَّ مِن الاستسلام الانقيادَ لأوامر مَن صحَّتْ نبوَّتُه وظهَرَ صِدْقُه) ((تفسير الراغب)) (٢/ ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٥٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٤)، ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٩٣).

٣- في قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾: بيانُ أنَّه ليس في الدِّينِ الإسلاميِّ عصبيَّة[١].

٤- فائدةُ الاختصاص في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أنَّه لا ينبغي أن نستسلم لأحدٍ استسلامًا يُخالفُ الاستسلامَ لله عزَّ وجلَّ[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- مَن ابتغى غيرَ دِين الله، كمَنْ آثَرَ النُّظُمَ والقوانينَ المخالفةَ لشرعِ الله تعالى، فإنَّه مستحقٌّ لهذا التوبيخِ العظيم، كما في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾[٣].

٢- عبَّر بالطَّلبِ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾- لأنَّ معنى ﴿تَبْغُونَ﴾: تَطلُبونَ، وهو هنا بمعنى: تَدينون؛ لأنهم مُتلبِّسون بدِينٍ غيرِ دِين الله لا طالِبُوه-؛ إشعارًا بأنَّهم في كلِّ الوقتِ باحثون عن الدِّين ومُستخرِجوه ومُبتغوه[٤].

٣- تشريفُ هذا الدِّين الَّذي شرَعه الله؛ لأنَّ اللهَ أضافَه إلى نفْسه، فقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾[٥].

٤- في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، إقامةُ الحُجَّة على أنَّه لا يَليق بالإنسان أن يَبغيَ دِينًا غير دِين الله، وهو مربوبٌ مملوكٌ لله تعالى[٦].

٥- لَمَّا جاء الجمْع في قوله: ﴿وَالنَّبِيُّونَ﴾ دون التخصيص، جاء بالإيتاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٧٦).

دون الإنزال، من أجْل أن يشمل الآيات الَّتي قد يكون أُعطيها بعض النبيِّين[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ..﴾ الآية، ترتيبٌ بديعٌ حسنٌ؛ حيث قدَّم الإيمانَ بالله على الإيمانِ بالأنبياء؛ لأنَّه أصلُ الإيمان بالنبوةِ، وفي المرتبةِ الثانية ذكر الإيمانَ بما أنزل عليه؛ لأنَّ كتبَ سائرِ الأنبياء حرَّفوها وبدَّلوها، فلا سبيلَ إلى معرفةِ أحوالها إلا بما أُنزل اللهُ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فكان ما أنزل على محمدٍ كالأصلِ لما أنزل على سائرِ الأنبياء؛ فلهذا قدَّمه عليه، وفي المرتبةِ الثالثةِ ذكر بعضَ الأنبياءِ، وهم الأنبياءُ الذين يعترف أهلُ الكتابِ بوجودهم، ويختلفون في نبوَّتهم[٢].

٧- لَمَّا قال الله في آخر الآية المتقدمة ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أتْبعه بأن بيَّن في هذه الآية أنَّ الدين ليس إلَّا الإسلام، وأنَّ كلَّ دين سوى الإسلام فإنَّه غير مقبول عند الله[٣].

٨- قال تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ولم يقل: (فلن يَقبل الله منه)؛ ليعُمَّ الرَّفض والرَّد من الله عزَّ وجلَّ، ومن الرَّسول، ومن المسلمين؛ ولهذا لا يجوز للمسلمين أنْ يُقِرُّوا أحدًا على دِين خِلاف شريعة الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتَّحذير، واستنكارًا أن يفعلوا ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٠)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٤٨٤).

- وفيه تقريرٌ أنَّهم يفعلونه، وموضِع الهمزة هو لفظةُ (يَبْغُونَ)؛ تقديره: (أَيبغون غير دين الله)، وقدَّم المفعولَ الذي هو (غَيرَ) على فِعله ﴿يَبْغُونَ﴾؛ لأنَّه أهمُّ، من حيثُ إنَّ الإنكارَ الذي هو معنى الهمزة متوجِّهٌ إلى المعبود الباطل، وأمَّا الفاء فلعطفِ جُملةٍ على جملة[1].

- قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَ﴾: فيه التفاتٌ من الخِطاب إلى الغَيبة[2]؛ إعراضًا عن مخاطبتِهم إلى مخاطبةِ المسلمين بالتعجُّبِ من أهلِ الكتاب[3].

- وكله تفريعٌ؛ ذَكَر أحوالَ خلَف أولئك الأُمم؛ كيف اتَّبعوا غيرَ ما أُخذ عليهم العهد به؛ والاستفهام حينئذٍ للتعجُّب[4].

٢- قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ هذا خبرٌ فيه تعريضٌ باليهود والنَّصارى؛ لتفريقِهم بين الأنبياءِ، وحُذِف المعطوفُ، وتقديره: لا نُفرِّق بين أحدٍ وآخَر[5].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ خبرٌ متضمِّن لمعنى التهديدِ العظيم، والوعيدِ الشديد- على اعتبار الجملة مستأنفة- ويجوز أنْ تكون الجملةُ معطوفةً على الجملةِ مِن قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ فتكون حالًا أيضًا، ويكون المعنى أنَّه نعَى عليهم ابتغاءَ غير دِين مَن أسلم له جميعُ مَن في السَّموات والأرض طائعين ومُكرَهين، ومَن مرجعُهم إليه[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٧٩).

(٢) الالتفاتُ على قِراءة ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء- وهي قراءةُ أبي عمرو، وحفص، ويعقوب. وأمَّا على قراءة الجمهور ﴿تَبغونَ﴾ بتاء الخِطاب؛ فهو خطابٌ لأهل الكتاب جارٍ على طريقةِ الخِطاب في قوله آنفًا: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ﴾، فليس فيه التفات.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩٧).

٤- **قوله تعالى:** ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فيه إيجازٌ لمناسبةٍ بديعة، حيث جاءَ التعبيرُ هنا بغير إعادة (وما)، كما في قوله في سورة البقرة: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ [الآية: ١٣٦]؛ لأنَّ التي في البقرة لفظُ الخطابِ فيها عامٌّ، ومِن حُكمِ خطابِ العامِّ البَسطُ دون الإيجاز، بخِلافِ الخِطاب هنا؛ فإنَّه خاصٌّ؛ فلذلك اكتفَى فيه بالإيجازِ دون الإطناب(١).

٥- **قوله تعالى:** ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾:

- الآية جملة اعتراض واستئناف؛ لتلقين النَّبيِّ عليه السَّلام والمسلمين كلامًا جامعًا لمعنى الإسلام؛ ليدوموا عليه، ويُعلن به للأمم، نشأ عن قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾(٢).

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ حيث عدَّى ﴿أُنْزِلَ﴾ في هذه الآية بحرفِ الاستعلاء (على)، وفي سورةِ البقرة عدَّى الفِعل بحرف الانتهاء (إلى)؛ وذلك لوجودِ المعنيين جميعًا؛ لأنَّ الوحيَ يَنزل من فوقُ، ويَنتهي إلى الرُّسُلِ، فجاءَ تارةً بأحدِ المعنيين، وأخرى بالآخَر؛ تفنُّنًا في الفصاحة(٣).

وقيل: لأنَّ الأولى (في البقرة) خِطابٌ للمسلمين، والثانية (التي هنا في آل عمران) خِطابٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و(إلى) يُنتهَى بها من كلِّ جهة، و(على) لا يُنتهى بها إلَّا من جهةٍ واحدة، وهي العلوُّ، والقرآن يأتي المسلمين من كلِّ جِهة يأتي مبلِّغُه إيَّاهم منها، وإنما أُتي النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم من جِهة العلوِّ خاصَّةً، فناسَب قوله: ﴿عَلَيْنَا﴾؛ ولهذا أكثَر ما جاء في جِهة النبيِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨١)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٨١).

صلَّى الله عليه وسلَّم بـ (على)، وأكثر ما جاء في جِهة الأمَّة بـ (إلى)[1].

- قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾: وحَّد الضَّميرَ في ﴿قُلْ﴾ وجمَع في ﴿آمَنَّا﴾؛ لوجوه[2]:

منها: أنَّه تعالى حين خاطَبَه، إنَّما خاطبه بلفظِ الوحدان، وعلَّمه أنَّه حين يُخاطبُ القومَ يخاطبُهم بلفظِ الجمْع على وجهِ التعظيم والتفخيم.

ومنها: أنَّه خاطبه أولًا بخِطاب الوحدان؛ ليدلَّ هذا الكلامُ على أنَّه لا مُبلِّغَ لهذا التكليفِ من الله إلى الخَلق إلَّا هو، ثم قال: آمنَّا؛ تنبيهًا على أنَّه حين يقولُ هذا القولَ فإنَّ أصحابه يُوافقونه عليه.

ومنها: أنَّ الجمعَ في قوله: ﴿آمَنَّا﴾ بعدَ الإفراد في ﴿قُلْ﴾؛ لكونِ الأمرِ عامًّا، والإفراد لتشريفِه عليه الصَّلاة والسلام، والإيذانِ بأنَّه أصلٌ في ذلك، أو الأمْر خاصٌّ بالإخبارِ عن نفْسه الزكيَّة خاصَّة.

والجمْع لإظهارِ جلالةِ قدْره ورِفعة محلِّه بأمره بأنْ يَتكلَّم عن نفْسه على دَيدنِ الملوك.

٦- **قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾** فيه إيثارُ الإيتاءِ على الإنزالِ الخاصِّ بالكتابِ، وتخصيصُهما بالذِّكر مع دُخولِهما فيما سبَق؛ لأنَّ الكلامَ مع اليهود والنصارى[3].

٧- **قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** فيه تقديمُ المُتعلَّق على المتعلِّق؛ لإفادة الحَصْر، أي: ونحن له لا لغيرِه مُسلِمون[4].

---

(١) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩٣).

٨- **في قوله تعالى:** ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أتى بالفاء الرابطة؛ إعلامًا بأنَّ ما بعدها مسبَّبٌ عمَّا قبلها، ومربوطٌ به فقال: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. وأشْعرَ ترتيبُ هذا على السَّبب بأنَّه يُرجى زوالُ السَّبب؛ لأنَّه ممَّا عرَض للعبد، كما جرَى في الرِّدَّة في خِلافة الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه؛ فإنَّه رجَع إلى الإسلامِ أكثرُ المرتدِّين، وحسُنَ إسلامُهم[1].

٩- **قوله تعالى:** ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجملة حاليةٌ مفيدةٌ لتأكيدِ الإنكار[2].

١٠- **في قوله تعالى:** ﴿الإِسْلَامِ﴾ كرَّر الإسلامَ في هذا السِّياق كثيرًا؛ لكونه في حيِّز الميثاقِ المأخوذِ بمتابعةِ الرَّسول المصدِّق؛ حثًّا على تمامِ الانقيادِ له[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨٢-٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٥).

الآيات (٨٦ - ٨٩)

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

المَعنى الإجماليُّ

يُخبِر الله تبارَك وتعالَى أنَّه لا يَهدي قومًا ارتدُّوا على أعقابِهم، وكفَروا بعدَ إيمانِهم، وشهِدوا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حقٌّ، وجاءتهم البيِّناتُ القاطعاتُ، والبراهين الشاهدةُ على صِدقِه؛ فكيف يَستحقُّ هؤلاء الهدايةَ؟! فالله عزَّ وجلَّ لا يَهدي إلى الحقِّ الَّذين ظلموا أنفسَهم، بترْكهم الحقَّ بعدَ معرفتهم له، واتِّباعهم الباطلَ مع وضوح بُطلانه.

ثمَّ أخبر الله تعالى عن عُقوبةِ هؤلاء الظَّالمين في الدُّنيا والآخرة، وهي الطَّرد والإبعاد من رحمتِه، وأنَّ خلْقَه جميعًا من الملائكةِ والنَّاس يَلعنونهم، وأنَّهم خالدون في هذه اللَّعنةِ والعقوبة، لا يُخفَّف عنهم من العذاب شيئًا، ولا هم يُمْهَلون أو يُؤَخَّرون.

ثم استثنى اللهُ تعالى مَن تابَ ورجَع إلى الله، وعمِل الصالحات، فهو يَغفر ذَنبَه، ويستُر عيبَه، ويَتجاوز عن خطاياه، وذلك من لُطفه سبحانه وبرِّه، ورأفته ورحمته بخَلقه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ

الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا عظَّم اللهُ تعالى أمْر الإسلام والإيمان بقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أكَّد ذلك التعظيم بأنْ بيَّن وعيدَ مَن ترك الإسلام، فقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾[(١)].

سبب النُّزولِ:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما، قال: كانَ رجلٌ منَ الأنصارِ أسلمَ، ثمَّ ارتدَّ ولحِقَ بالشِّرْكِ ثمَّ تندَّمَ، فأرسلَ إلى قومِه: سلوا لي رسولَ اللَّهِ، صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، هل لي من توبةٍ؟ فجاءَ قومُه إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالوا: إنَّ فلانًا قد ندِمَ، وإنَّهُ أمرنا أنَّ نسألَكَ: هل لَهُ من توبةٍ؟ فنزلَت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسلَ إليهِ فأسلمَ[(٢)].

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

أي: لا يَهدي اللهُ قومًا ارتدُّوا بعدَ أنْ آمنوا؛ فكيف يستحقُّون الهدايةَ، وقد اختاروا الكُفر والضَّلال، بعدَ أن عَرَفوا الحقَّ، ودخلوا في الإيمان[(٣)]؟!

﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٣).

(٢) رواه النسائي (٤٠٦٨) واللفظ له، وأحمد (٢٢١٨)، وابن حبان (٤٤٧٧)، والحاكم (٨٠٩٢). صححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠٥)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٨)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٤٠٦٨)، وصححه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٥٨٥) وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٢).

أي: وبعدَ أنْ أقرُّوا أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولُ الله إلى النَّاس حقًّا، صادقٌ فيما أخبر، عادلٌ فيما حَكم(١).

﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

أي: وجاءتْهم الحُجج من عند الله، وقامتْ عليهم الدلائلُ والبراهين الَّتي تُبيِّن صِدْقَ ما جاء به الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ لا يُوفِّق للحقِّ الَّذين ظلموا أنفسَهم؛ فتركوا الحقَّ بعدما عرَفوه، واتَّبعوا الباطل مع عِلمهم ببُطلانِه(٣).

ثم أخبَر عن عقوبةِ هؤلاءِ المعانِدين الظالمين الدُّنيويَّة والأخرويَّة، فقال:

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧)﴾.

أي: هؤلاء الَّذين كفَروا بعد إيمانِهم، وشهِدوا أنَّ الرَّسول حقٌّ، وجاءَهم البيِّنات- ثوابهم(٤) ومكافأتُهم طَرْدُ الله لهم، وإبعادُهم من رحمتِه، ولعْنُ خلْقِه لهم؛ من الملائكةِ والنَّاس جميعًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٤).

قال الواحديُّ: (وقوله: ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ يجوز أن يُريد ما بيَّن لهم في التوراة والإنجيل، وهو قول ابن عبَّاس. ويجوز أن يُريد: ما أتَى به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكتاب والآيات والمعجزات) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).

(٤) والثَّواب: ما يَرجِع إلى الإنسانِ من جزاءِ أعماله، والثَّواب يُقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارَف في الخير. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكثِينَ في عُقوبةِ الله ولعنتِه[1].

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾.

أي: لا يُنْقَصون من العذابِ شيئًا، ولا تُهَوَّن عليهم العقوبة[2].

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

أي: ولا هم يُمْهَلون، ولا يُؤَخَّرون، ولا يؤجَّلون[3].

ثم استثنى - جلَّ ثناؤه - الَّذين تابوا من هؤلاء الَّذين كفروا بعد إيمانهم، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

أي: إلَّا الَّذين رجَعوا إلى الله، وراجَعوا الإيمانَ بالله ورسولِه من بعد كُفرِهم وارتدادِهم، وأصْلَحوا ما أَفْسَدوا، وعمِلوا الصَّالحات[4].

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يَستُر عليهم الذُّنوب، ويتجاوزُ عنها، ويترُكُ العقوبةَ عليها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٤).

ويتعطَّف عليهم بالرَّحمة، الَّتي تَقتضي الإحسانَ والإنعام[١].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الجزاء من جِنس العمل، فإنَّ هؤلاء لَمَّا ارتكبوا ثلاثَ جرائم، أو ثلاثةَ أمورٍ في كُفرهم، كان عليهم لعنةُ الله والملائكةِ والنَّاس، ثلاثٌ بثلاثٍ[٢].

٢- زلَّة العالم أقبحُ من زلَّة الجاهل؛ يُستفادُ ذلك من قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[٣].

٣- في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: دليلٌ على أنَّ التَّوبة تَجُبُّ ما قبلها[٤]، أي: تقْطَعُ وتَمْحو ما كانَ قَبْلَها مِنَ الكُفرِ والمعاصي والذُّنوب.

٤- في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: دليلٌ على أنَّ التوبة وحدها لا تكفي؛ إذ لا بدَّ معها من الإصلاح، وهذا واجبٌ في كلِّ مَن يتعدَّى جُرْمُه إلى غيره، أنْ يقومَ بإصلاحِ ما ترتَّب على هذا الجرم[٥].

٥- يَتبيَّن من قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أنَّ التَّوبة الَّتي لا تأثيرَ لها على سلوكِ الإنسانِ وحالِه وأعمالِه، لا شأنَ لها ولا قيمةَ في نظرِ الدِّين؛ ولذلك جرى القرآنُ على عطفِ العملِ الصَّالح عليها عند ذِكرِها، أو وصْفِها بالنَّصوح[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٥).
قال ابن عاشور: (﴿فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ عِلَّة لكلامٍ محذوف، تقديره: اللهُ يغفر لهم؛ لأنَّه غفورٌ رحيم) ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: أنَّ مَن ضلَّ عن بصيرةٍ، فإنَّه يَبعُد أن يُهْدَى، ومَن فَسقَ عن بصيرةٍ فإنَّه يبعُد أنَّ يكونَ من العدول[1].

٢- الجاهِلُ إذا عُرِّفَ وعُلِّم، فهو قريبٌ إلى الانقيادِ والاتِّباع، وأمَّا المعانِدُ فلا دواءَ فيه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

٣- في قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا﴾: استعظَم اللهُ كُفرَ القوم؛ لأنَّه حصل بعد خِصالٍ ثلاث؛ وهي: الإيمان، والشَّهادة بكون الرَّسول حقًّا، وبعدَ مجيءِ البيِّنات؛ فيكونُ الكفرُ بعدَ هذه الأشياء أقبحَ؛ لأنَّ مثلَ هذا الكفرِ يكون كالمعاندةِ والجحود[3].

٤- شأنُه سبحانه في كلِّ مَن أنعَم عليه بنِعمةٍ فكفَرها أنَّه يَسلبُه إيَّاها بعدَ أنْ كانتْ نصيبَه وحظَّه؛ قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[4].

٥- لَمَّا كان المقيمُ في الشدَّة قد تَنقُص شدَّتُه إذا طالتْ، نفَى ذلك بقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٦).
(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٤).
(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٠)
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٧).

٦- قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، استدلَّ به من قال بقَبولِ توبَةِ المرتَدِّ في الجملةِ؛ فاللهُ تعالى أخْبَر أنَّه غفورٌ رحيمٌ لِمَن تابَ بعدَ الرِّدَّة، وذلك يَقتَضي مَغفرتَه له في الدُّنيا والآخرة، ومَن هذه حالُه لم يُعاقَبْ بالقتْلِ[1].

٧- في الجمْعِ بين الغفور والرَّحيم زيادةُ معنى على ما يَتضمَّنه الاسمان، وهو أنَّ الله تعالى قد جمَع بين المغفرة الَّتي بها زوالُ المكروه، وآثار الذنب، والرَّحمة الَّتي بها حُصولُ المطلوبِ، وهو النِّعمةُ والإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١ - قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ يُناسب ما سبَقه من التنويهِ بشَرف الإسلام، و﴿كَيْفَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، معناه النَّفي، والمقصودُ استبعاد لأنْ يُرشدَهم الله للصَّواب ويوفِّقهم؛ فإنَّ الحائد عن الحقِّ بعدَما وضَح له، منهمكٌ في الضَّلال، بعيد عن الرَّشاد، وإنكارُ أنْ تحصُل لهم هدايةٌ خاصَّة، وهي إمَّا الهدايةُ الناشئةُ عن عِنايةِ الله بالعبدِ ولُطفه به، وإسنادُها إلى الله ظاهر، وإمَّا الهدايةُ الناشئة عن إعمالِ الأدلَّة والاستنتاجِ منها، وإسنادُها إلى الله؛ لأنَّه موجِدُ الأسباب ومُسبَّباتِها[3].

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص:٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٣، ٢٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٣).

وفيه: تأكيدٌ للتعظيم السابق ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ﴾، حيث بيَّن وعيدَ مَن ترَكَ الإسلام، وأكَّده هنا بقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾[١].

٢- **قوله تعالى:** ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ فيه تعميمٌ للحُكم بعد ذِكر بعض أفراده؛ فإنَّه قال في أوَّل الآية: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا...﴾ وقال في آخرها: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ مختصٌّ بالمرتدِّين، ثم إنَّه تعالى عمَّم ذلك الحُكم في المرتدِّ، وفي الكافر الأصلي، فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ وسمَّى الكافر ظالِمًا؛ لأنَّ الشِّرك ظُلمٌ عظيم[٢].

٣- **في قوله:** ﴿**أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ...**﴾ أتى باسم الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ على وجهِ البُعد؛ إشارةً إلى انحطاطِ مرتبتهم[٣].

٤- **قوله تعالى:** ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**﴾ أشارَ اللهُ تعالى إلى ما سبَقَ من الكُفر بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، وهي إشارةُ البعيد؛ وذلك لانحطاطِ مَرتبتِه[٤].

٥- **قوله تعالى:** ﴿**فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ فيه تعليلٌ لِمَا دلَّ عليه الاستثناءُ[٥]، مع ما فيه من تأكيد الخبر بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة، والمبالغة في صِيغةِ فعول وفعيل ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٦).

الآيتان (٩٠ - ٩١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ

يَتوعَّد اللهُ تبارَك وتعالَى الَّذين كفروا وارتدُّوا بعد إيمانهم، ثمَّ ازدادوا كُفرًا، واستمرُّوا عليه إلى أنْ جاءَهم الموت، بأنَّه لن يَقبلَ لهم توبةً؛ فهُم الَّذين خرَجوا عن المنهج الحقِّ إلى طريق الغيِّ والضَّلال في أقوالهم وأفعالهم.

ثم يُخبر تعالى بأنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وهم متلبِّسون بالكفرِ غيرَ تائبين منه، فإنَّه لن يَقبل من أحدٍ منهم شيئًا عمِله، ولو أنفق تقرُّبًا إليه مِلءَ الأرض ذهبًا، أو افتدَى نفْسَه به، فإنَّه لن يقبلَ منه، بل أُولَئِكَ لَهُمْ عند الله في الآخرة عَذَابٌ موجِعٌ مؤلم، ولن يَجِدوا ناصرًا ينصرُهم ويُنقذهم من عذابِ الله.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رغَّبَ في التوبة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، رهَّب من التواني عنها[1]، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٨).

سببُ النُّزول:

عَنِ ابنِ عباسٍ أنَّ قومًا أَسلَموا ثمَّ ارتدُّوا ثمَّ أَسلَموا ثمَّ ارتدُّوا، فأرْسلوا إلى قومِهم يَسألَونَ لهم، فذَكَروا ذلك لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين كفروا وارتدُّوا بعدَ إيمانهم[2].

﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

أي: ثمَّ أقاموا على كُفرِهم واستمرُّوا عليه إلى الممات، وتمادَوْا في ضلالهم، وأخَّروا التوبةَ إلى حُضور الموت- فلن يَقبلَ اللهُ لهم توبةً[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨].

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

أي: وهؤلاء الَّذين كفروا بعدَ إيمانهم، ثمَّ ازدادوا كُفرًا، هم الَّذين ضلُّوا

(١) رواه البزار كما في ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٢). وجود إسناده ابن كثير.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٠)، وعزاه ابن تيميَّة للأكثرين في ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٢٩).

وقال بعضُ العلماء: معنى ﴿لن تُقبل توبتهم﴾: لن يُوفَّقوا للتوبة، حتى تُقبل منهم، ويَشهد له قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧]، فعدم غفرانه لهم؛ لعدم هدايتهم السبيل الذي يغفر لصاحبه، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٢).

سبيل الحقِّ، وأخطؤوا الطَّريق القويم في الأقوال والأفعال(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

أي: إنَّ الَّذين كفَروا، وماتوا على الكُفر(٢).

﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾.

أي: مَن مات على الكُفرِ، فلن يَقبَل اللهُ منه شيئًا مِن عَمِله، ولو كان أنفقَ مِلْءَ الأرض ذهبًا تقرُّبًا إلى الله، وكذلك لو افتَدَى نفْسَه من الله بمِلْءِ الأرض ذهبًا ما قَبِل الله منه(٣).

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعَانَ كان في الجاهلِيَّة يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المِسكينَ؛ فهَلْ ذاكَ نافِعُه؟ قال: ((لا يَنْفَعُه؛ إنَّه لَمْ يَقُلْ يومًا: رَبِّ اغفِرْ لي خَطيئَتي يومَ الدِّين))(٤).

وعن أنسِ بن مالك رضِي اللهُ عنه، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يقولُ الله تعالى لأهونِ أهلِ النَّارِ عذابًا يومَ القيامةِ: لو أنَّ لك ما في الأرضِ من شيءٍ أكُنتَ تفتدي به؟ فيقولُ: نعمْ. فيقولُ: أردتُ منكَ أهونَ من هذا، وأنتَ في صُلبِ آدمَ: ألَّا تُشرِكَ بي شيئًا، فأَبَيْتَ إلَّا أنْ تُشرِكَ بي))(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٢).

(٤) رواه مسلم (٢١٤).

(٥) رواه البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

وصرَّح في مواضعَ أُخَرَ بأنَّه لو زِيد بمثلِه لا يُقبَل منه أيضًا فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦]، وبيَّن في مواضع أُخَر، أنَّه لا يُقبل فداءٌ في ذلك اليوم منهم بتاتًا كقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(١) [الحديد: ١٥].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: هؤلاء الَّذين كفروا، وماتوا وهم كُفَّار، لهم عند اللهِ في الآخِرة عذابٌ موجعٌ مؤلِم(٢).

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أي: وليس لهم أحدٌ ينصُرهم ويَستنقذُهم من عذابِ الله، أو يُجيرُهم من أليمِ عِقابِه(٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾: دليلٌ على أنَّ ازدياد الكُفرِ عبارةٌ عمَّا يُنمِّيه ويقوِّيه من الأعمال الَّتي يقاوم بها الإيمان، فالكفرُ يَزداد قوَّةً واستقرارًا وتمكنًا بالعمل بمقتضاه، كما أنَّ الإيمانَ كذلك(٤).

٢- يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أنَّ قَبولَ التوبة المستلزِم لمغفرة الذَّنب ليس من قَبيل العطاء الجُزاف، وإنَّما يكون بموافقةِ سُنن الله في الفِطرة الإنسانيَّة السليمة، فمقتضاها أنْ يُحدِث لها العِلمُ بقُبح الذنبِ وسوءِ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠١).

عاقبتِه أَلَمًا يَحمِلُها على ترْكه ومَحْو أثره، بعمل صالح يُحْدِثَ فيها أثرًا مضادًّا لذلك الأثر[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: دليلٌ على أنَّ السيِّئات يُنتِج بعضها بعضًا، وخصوصًا لِمَن أَقدم على الكُفر العظيم، وترَكَ الصِّراط المستقيم، وقد قامتْ عليه الحُجَّة، ووضَّح اللهُ له الآياتِ والبراهين[٢].

٤- دلَّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ...﴾ على أنَّ الأمر يسيرٌ على المؤمن؛ لأنَّه يَفتدي من عذاب الله بما هو أقلُّ مِن مِلْء الأرض ذهبًا، وهو الإيمانُ والعملُ الصالح، وأداءُ ما يجِب عليه من الحقوق الماليَّة[٣].

٥- مَن لم ترتَقِ رُوحُه في الدُّنيا إلى درجةِ الإيمان الصَّحيح؛ فإنَّها لا ترتقي في الآخرة من الهاوية إلى درجةٍ من الدَّرجات العُلا في الجنَّة، ولو افتدَى بمِلْءِ الأرضِ ذهبًا في الآخرة، على فرْض أنْ يملكَه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ المرتدَّ إذا بقي على رِدَّته، فإنَّه لا تُقبَل توبتُه عند الموت؛ لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾، وهذا لا يكون إلَّا بالردَّة[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠٣- ٣٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢١).

٢- أنَّه كلَّما تمادَى الإنسان في الكفر ولم يتُبْ، فإنَّه يزداد؛ لأنَّ كلَّ وقت يمرُّ عليه يزداد وزرًا إلى وزره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾(١).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾: عبَّر عن ذلك بأداة التراخي (ثمَّ)؛ إشارةً إلى تمادِيهم على ذلك، وعدَم مبادرتِهم بالتوبةِ(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لم تَدخُل الفاءُ في: ﴿لَنْ تُقْبَلَ﴾، ودخلتِ الفاءُ في قوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾؛ وذلِك أنَّ ترْكَ الفاءِ مُؤذِنٌ بأنَّ الكلامَ مبتدأٌ وخبرٌ، ولا دَليلَ فيه على التَّسبيبِ، وأمَّا الفاء فمؤذِنةٌ بالاستحقاقِ بالوصفِ السَّابق، ومُؤذنةٌ بأنَّ الكلامَ بُني على الشَّرطِ والجزاءِ، وأنَّ سببَ امتناعِ قَبول الفِديةِ هو الموتُ على الكُفر، وفي الآيةِ بعدَها قال: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، وهنا لم يُصرِّح بهذا القيدِ، ولأنَّه لَمَّا كانوا لا يتوبون إلَّا عندَ إشرافِهم على الهلاك، كنَّى عن عَدمِ توبتِهم بعَدمِ قَبولِها؛ تغليظًا في شأنهم، وإبرازًا لحالهم في صورة حالِ الآيسين من الرَّحمة، أو لأنَّ توبتَهم لا تكونُ إلَّا نفاقًا؛ لارتدادِهم وازديادِهم كفرًا؛ ولذلك لم تدخُلْ فيه الفاءُ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾: في فائدةِ ذِكر الواوِ في قوله: ﴿وَلَوِ﴾ وجوه(٤):

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨٢-٣٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٣٥٢).

منها: أنَّها للعطف، والتقدير: لو تقرَّب إلى الله بمِلْءِ الأرض ذهبًا، لم ينفعْه ذلك مع كُفره، ولو افتدَى من العذاب بمِلْء الأرض ذهبًا لم يُقبل منه، وهذا أَوْكَدُ في التَّغليظ؛ لأنَّه تصريحٌ بنفي القَبول من جميع الوجوه.

ومنها: أنَّ الواو دخلتْ لبيان التفصيل بعدَ الإجمال الذي في قوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا﴾؛ لاحتمالِه لوجوهٍ كثيرة، فنصَّ على نفْي القَبول بجهة الفِدية.

ومنها: أنَّها مبالغةٌ في إظهارِ غضَب الربِّ سبحانه عليهم؛ حيث حَكَم تعالى بأنَّه لا يُقبل منهم ملءُ الأرض ذهبًا، ولو كان واقعًا على سبيل الفداء؛ تنبيهًا على أنَّه لَمَّا لم يكن مقبولًا بهذا الطريق، فبأنْ لا يكونَ مقبولًا منه بسائرِ الطُّرق أَوْلى.

٤- **في قوله تعالى: ﴿مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا﴾**: فيه إيجازٌ بالحذف؛ إذ مِن المعلوم أنَّ الكافرَ لا يملك يومَ القيامة نقيرًا ولا قِطميرًا، وحتى لو مَلَكَهما فلا يَنفعانِ أَلْبَتَّةَ في الدار الآخِرة، فالتقدير: أنَّهم إذا ماتوا على الكُفر، فلو أنَّهم كانوا قدْ أنفقوا في الدُّنيا ملءَ الأرض ذهبًا، لن يَقبل اللهُ تعالى ذلك منهم؛ لأنَّ الطاعةَ مع الكفرِ لا تكون مقبولةً. أو يكون الكلامُ وقَع على سبيلِ الفرْض والتقدير؛ فالذهبُ كنايةٌ عن أعزِّ الأشياء، والتقدير: لو أنَّ الكافرَ يومَ القِيامة قدَرَ على أعزِّ الأشياء، ثُمَّ قدَر على بذْله في غايةِ الكثرة، لعجَز أن يتوسَّل بذلك إلى تخليصِ نفْسِه من عذابِ الله(١).

٥- **قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**: فيه مبالغةٌ في التحذير، وتأكيدٌ على عدمِ العفوِ عنهم، وإقناطٌ؛ لأنَّ مَن لا يُقبل منه الفداء، ربَّما يُعفَى عنه تكرمًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٧- ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٨).

٦- قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي﴾ وقوله: ﴿لَا يَهْدِي﴾: فيه تكرار[1]؛ للتأكيد. أو يكون قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ مختصًّا بالمرتدِّين، ثمَّ إنَّه تعالى عمَّم ذلك الحُكمَ في المرتدِّ، وفي الكافر الأصليِّ، فقال: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2]، وعلى هذا؛ ففيه ذِكرُ حُكمٍ عامٍّ بعد حُكمٍ خاصٍّ؛ وهو مفيدٌ للتأكيد أيضًا.

٧- قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾: فيه تأكيدٌ بضميرِ الفَصْل ﴿هُمْ﴾[3].

٨- قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: فيه تنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾؛ للتهويلِ. وفيه زيادةُ مبالغةٍ بوصْفِه بـ﴿أَلِيم﴾ مع العُدولِ من مُفعِل (مؤلم) إلى فَعيل ﴿أَلِيم﴾[4].

٩- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾: الإشارة بـ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعد؛ للتنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما يرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ من الحُكم عليهم[5].

١٠- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: فيه توكيدٌ لفظيٌّ بالمرادف، وليُبنى عليه التفريعُ بقوله: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ...﴾[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٥٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٣٠٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٠٥).

الآية (٩٢)

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿البِرَّ﴾: التوسُّع في فِعل الخير، والاتِّساع فِي الإحْسَان، ويطلق البِرُّ على الدِّين والطاعَة، وأصلُ (البِر): الصِّدقُ في المحبَّة[1].

المَعنَى الإجماليُّ

يَحثُّ الله تبارَك وتعالَى عبادَه المؤمنين على الإنفاق والبَذل، فيقول لهم: لن تُدركوا البرَّ- وهو الخيرُ الكثير من الله- ولن تَبلغوه، حتَّى تنفقوا وتتصدَّقوا من نفائس أموالكم الَّتي تحبُّها قلوبُكم، وتتعلَّق بها نفوسُكم، ومهما تُنفقوا من شيءٍ مِن أموالِكم، فإنَّ الله يَعْلمُه، فيَجزي صاحبَه عليه في الآخِرة الجزاءَ الأَوْفى.

تَفسيرُ الآية:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه في الآيةِ السابقةِ أنَّ الَّذين كفروا لن يُقبل من أحدِهم أعظمُ ما يُنفقه لتخليصِ نفْسِه في الآخِرة ممَّا يَلحَقه من الشدائد، حضَّ المؤمنين على الإنفاق، وبيَّن أنَّ الأحبَّ منه أجدرُ بالقَبول؛ وأنَّه يَبلُغ بصاحبه إلى مرتبة البرِّ[2]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧- ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥).

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

أي: لنْ تُدركوا الخيرَ الكثيرَ من اللهِ بتفضُّله عليكم، بإدخالِكم الجَنَّةَ، وصَرْفِ العذاب عنكم- الَّذي يُطلَب بطاعة الله وعبادته- حتَّى تُنفقوا وتتصدَّقوا من أموالِكم الَّتي تحبُّها قلوبُكم[(١)].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

أي: ومهما تُنفقوا من شيءٍ من أموالِكم، فإنَّ الله ذُو عِلم به، ويُجازي صاحبَه عليه جزاءَه في الآخِرة، ويُثيبه على ما أنفَقَ[(٢)].

عن أنسِ بن مالكٍ رضِي اللهُ عنه، قال: كان أبو طلحةَ أكثرَ أنصاريٍّ بالمدينة مالًا، وكان أحبَّ أموالِه إليه بَيْرَحاءُ- وكانتْ مستقبلةَ المسجِد، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يدخُلها، ويَشرَب من ماءٍ فيها طيِّب- قال أنس: فلمَّا نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا ممَّا تُحِبُّونَ﴾، قال أبو طلحة: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا ممَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيرَحاءُ، وإنَّها صدقةٌ لله، أرجو بِرَّها وذُخرَها عند الله تعالى؛ فضعْها يا رسول اللهِ حيث أراك الله تعالى، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((بَخٍ، ذاك مالٌ رابحٌ، ذاك مالٌ رابحٌ، وقد سمعتُ، وأنا أرَى أن تجعلَها في الأقربينَ))، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول اللهِ، فقَسَمها أبو طلحة في أقاربِه وبَنِي عمِّه[(٣)].

وعنِ ابنِ عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما، قال: أصابَ عُمَرُ أرضًا بخَيبرَ، فأتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستأمِرُه فيها، فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي أصبْتُ أرضًا بخَيبرَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٧٦٩)، ومسلم (٩٩٨) باختلافٍ يسير، وأحمد (١٢٤٦١) واللَّفظ له.

لم أُصِبْ مالًا قَطُّ هو أَنْفَسَ عندي منه؛ فما تَأْمُرُني به؟ قالَ: ((إنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَها، وتَصَدَّقْتَ بها، قال: فَتَصَدَّقَ بها عُمَرُ؛ أَنَّهُ لا يُباعُ أَصْلُها، ولا يُبْتاعُ، ولا يُورَثُ، ولا يُوهَبُ، قال: فَتَصَدَّقَ عُمَرُ في الفُقراءِ، وفي القُرْبَى، وفي الرِّقابِ، وفي سَبيلِ اللهِ، وابنِ السَّبيلِ، والضَّيْفِ...)) الحديث(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- تحريضُ المؤمنين على نَيْل البِرِّ بتقديم محبَّة الله تعالى على محبَّة الأموال، فبالنُّزول عمَّا يحبُّون، وببذل الطَّيِّب من المال، سخيَّةً به نفوسُهم، تحصُل تزكيةُ النَّفْس من بقيَّة ما فيها من الشُّحِّ، والتَّحرُّر من استرقاقِ المال، ومن حبِّ الذَّات(٢).

٢- الشيء الَّذي تتعلَّق به النَّفسُ كثيرًا هو الَّذي تَشُحُّ النفس في إنفاقه؛ لذا كان إنفاقُه علامةً على قوَّة الإيمان؛ لأنَّه لا يُدفع القويُّ إلَّا بما هو أقوى منه، كما قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٣).

٣- في الإنفاقُ من المال المحبوبِ صلاحٌ عظيمٌ للأُمَّة؛ إذ تجود أغنياؤها على فُقرائِها بما تَطمَح إليه نفوسُهم من نفائسِ الأموال، فتشتدُّ بذلك أواصرُ الأُخوَّة، ويَهنأ عيشُ الجميع(٤).

٤- مَا كان أحبَّ إلى المرءِ إذا تَقرَّبَ به إلى اللهِ تعالى كان أَفضلَ له مِن غيرِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٥).

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣١/ ٢٥١).

٥- تحرِّي الإخلاصِ في النَّفقة؛ فالله لا يَخفَى عليه شيءٌ من مقاصد المنفِقين، ولا يَعْزُب عنه شيءٌ منه، حتَّى يُجازي صاحبَه عليه جزاءَه في الآخِرة، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[١].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ افتتاح الكلام ببيان بعض وسائل البرِّ- إيذانٌ بأنَّ شرائع الإسلام تدور على محور البِرِّ، وأنَّه معنًى عظيمٌ لا يَخرِم حقيقتَه إلَّا ما يُفضي إلى نقْض أصلٍ من أصول الاستقامة[٢].

٢- المقصودُ من قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أمران: أولهما التحريضُ على الإنفاقِ، والتنويهُ بأنَّه من البرِّ، وثانيهما: التنويهُ بالبرِّ الَّذي الإنفاقُ خَصلةٌ من خِصاله[٣].

٣- في قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ إثباتُ الأسباب، حيث إنَّ الله أثبتَ للبرِّ سببًا، وهو الإنفاق ممَّا نحبُّ[٤].

٤- كلمة (منِ) في قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ للتبعيض؛ فمِن فضْل الله تعالى علينا أنِ اكتفى منَّا في نَيل البرِّ بأن نُنفق ممَّا نحبُّ، ولم يَشترطْ علينا أن ننفق جميعَ ما نحبُّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠٦).

٥- قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ يُوهِم أنَّ إنفاقَ غير هذا المقيَّد غيرُ نافع، فأَتْبَعه بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾؛ ليُفيد تعميمَ أنواع الإنفاق، فلا يضيِّق عليكم، بل يُثيبكم عليه[١].

٦- يُؤخَذ من قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: إثباتُ الجزاء، وأنَّ كلَّ إنسان سيُجازى بعمله؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ؛ لأنَّ المراد من إثبات العِلم إثباتُ ما يترتَّب عليه[٢].

بَلاغَةُ الآيةِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: فيه- مع التأكيدِ بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة- كنايةٌ لطيفة، وتعريضٌ حسَنٌ؛ فهو خبَرٌ مرادٌ به الوعدُ والتبشيرُ بعِظَم الجزاء، والترغيبُ في إنفاق الجيِّد، والتحذيرُ عن إنفاق الرَّديء. والتقدير: وما تُنفقوا من شيءٍ فإنَّ الله به يُجازيكم، قلَّ أم كثُر؛ لأنَّه عليمٌ به لا يَخفَى عليه شيءٌ منه، فجَعَل كونه عالِمًا بذلك الإنفاقِ كنايةً عن إعطاء الثواب، والتعريضُ في مِثل هذا الموضع أبلغُ من التصريح[٣].

- وهو تعليلٌ لجوابِ الشَّرطِ واقعٌ موقِعَه، أي: فمُجازيكم بحَسَبه، جيدًا كان أو رديئًا؛ فإنَّه تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ تُنفِقونه علمًا كاملًا، بحيثُ لا يَخفَى عليه شيءٌ من ذاته وصِفاته[٤].

- في قوله: ﴿بِهِ عَلِيمٌ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرور على مُتعلَّقه؛ لفائدتين:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧-٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٨).

الأولى لفظيَّة، وهي: مراعاةُ فواصلِ الآيات، والثانية معنويَّة، وهي: بيانُ الاعتناءِ بهذا المقدَّمِ حتَّى كأنَّ الله تعالى حصَرَ عِلمَه به[١].

٢- **قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾**: تذييلٌ، قُصِد به تعميمُ أنواعِ الإنفاق، وتبيينُ أنَّ الله تعالى لا يَخفى عليه شيءٌ من مقاصِد المنفِقين، وقد يكونُ الشيءُ القليل نفيسًا بحسَب حال صاحبِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧).

الآيتان (٩٣ - ٩٤)

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿حِلًّا﴾: أي: حلالًا، و﴿حِلًّا﴾ في الأصْل مصدرٌ لحَلَّ يَحِلُّ، ويُطلق على الأشخاصِ مبالغةً؛ ولذلك يَستوي فيه الواحدُ والمثنَّى والمجموع، والمذكَّرُ والمؤنَّث. وأصلُ الحَلِّ: فتْحُ الشَّيءِ، ومنه الحلالُ: ضدُّ الحرام، كأنَّه مِن حللتُ الشَّيءَ، إذا أبحتَه وأوسعتَه لأمرٍ فيه(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه في الزَّمنِ السَّابق لنُزول التَّوراة على موسى، كانتْ كلُّ أنواع الأطعمة حلالًا لبَني إسرائيل، إلَّا نوعًا واحدًا حرَّمه يعقوبُ على نَفْسه، ولم يُحرِّمه عليه اللهُ تبارَكَ وتعالَى، واقتَدَى به بنوه تقليدًا له، وهذا النَّوع هو لحومُ الإبل وألبانُها، وبعد نُزول التَّوراة حرَّم الله عليهم فيها ما شاء، وأَحلَّ لهم ما شاءَ وَفقَ حِكمتِه، فكان هذا نَسْخًا لِمَا سبَق مِن حِلِّه جميعَ الأطعمةِ ما عدا لحومَ الإبل وألبانها، ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه أن يَطلُب مِن اليهود أنْ يأتوا بالتَّوراة ويقرؤوها، إنْ كانوا مُحِقِّين في دعواهم، وبعد أنْ أقام عليهم الله تعالى الحُجَّةَ، أَخبرَهم أنَّ مَن تَقوَّل على الله الكَذِبَ بعد ذلك، فأولئك هم الظَّالِمون.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣١١).

تُنَزَّلَ التَّوراة قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوراة فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبر اللهُ تعالى أنَّه لا يَنال المرءُ البرَّ إلا بالإنفاق ممَّا يحبُّ في قوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾- فالمشروعُ في الإسلام هو الإنفاقُ في طاعةِ الله مما يُحِبُّه العبدُ ويَشتهيه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]- ذكَر سبحانه عقبَ ذلك أنَّ يعقوبَ عليه السَّلام، قد حرَّم أحبَّ الأشياءِ إليه وترَكها لله تعالى- وكان هذا سائغًا في شَريعتهم- بجامعِ أنَّ كلًّا منهما فيه تركُ ما يحبُّه الإنسانُ وما يُؤثِرُه على سبيلِ التقرُّب به للهِ سبحانَه وتعالى(١)، فقال تعالى:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوراة﴾.

أي: إنَّ كلَّ أنواعِ الأطعمة كان أَكْلُها حلالًا لذُريَّة يعقوب عليه السَّلام، قبل نزولِ التَّوراة على موسى عليه السَّلام، عدا نوعًا واحدًا حرَّمه أبوهم يعقوبُ على نَفْسه، من غير أن يُحرِّمه اللهُ عزَّ وجلَّ عليه، وهو لحومُ الإبل وألبانها، واتَّبعه اليهودُ على ذلك، فلمَّا نزلت التَّوراة بعدُ، حرَّم الله تعالى عليهم فيها ما شاء، وأحلَّ لهم فيها ما شاء وَفقِ حِكمته، فكان هذا نَسْخًا لِمَا سبَق مِن حِلِّه جميعَ الأطعمة لهم، سوى لحوم الإبل وألبانها(٢).

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((حضَرتْ عِصابةٌ من اليهود رسولَ الله

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٧٧، ٥٨١، ٥٨٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدِّثنا عن خِلالٍ نسألُك عنها، لا يَعلمُهنَّ إلا نبيٌّ، فكان فيما سألوه: أيُّ الطَّعامِ حرَّم إسرائيلُ على نَفْسه قبل أن تُنزَّل التَّوراة؟ قال: فأَنشُدكم بالله الذي أَنزَل التَّوراةَ على موسى، هل تعلمون أنَّ إسرائيل (يعقوب عليه السَّلام) مَرِض مرضًا شديدًا فطال سَقَمُه، فنذَر لله نَذْرًا، لئن شفاه اللهُ مِن سَقَمه، ليُحرِّمنَّ أَحبَّ الشَّراب إليه، وأَحبَّ الطَّعام إليه، فكان أحبَّ الطَّعام إليه لُحمانُ الإبل، وأحبَّ الشراب إليه ألبانُها؟ فقالوا: اللهمَّ نَعَم!))[1].

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّه قال أيضًا: ((أَقْبلت يهودُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسم، أَخبِرنا عن الرَّعد ما هو؟ قال: مَلَكٌ من الملائكة مُوكَّلٌ بالسَّحاب، معه مَخاريقُ[2] مِن نار يَسوق بها السَّحابَ حيث شاء الله، فقالوا: فما هذا الصَّوتُ الذي نَسمع؟ قال: زَجْرُه بالسَّحاب إذا زجَره، حتى يَنتهيَ إلى حيثُ أُمِر، قالوا: صدقتَ، فأَخبِرنا عمَّا حرَّم إسرائيلُ على نَفْسه؟ قال: اشتكى عِرْق النَّسا[3]، فلم يَجِد شيئًا يُلائمه إلاَّ لحومَ الإبل وألبانها؛ فلذلك حرَّمها، قالوا: صَدقتَ))[4].

---

(١) رواه أحمد (٢٤٧١)، والطبري في ((التفسير)) (٧٤٢٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٢/ ٢٤٦) (١٣٠١٢).

حسَّن إسنادَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٣)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (٢/ ٧١٦)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٠١).

(٢) مخاريق: جَمْعُ مِخْراقٍ، وهو في الأصلِ ثوبٌ يُلَف ويَضْرِب بِهِ الصِّبيانُ بَعضُهم بَعْضًا، أراد أنَّه آلَةٌ تَزْجُر بها الملائكةُ السَّحاب وتَسُوقه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٦).

(٣) عرق النَّسا: وجعٌ يبتدئُ مِن مفصِل الوَرِك، وينزلُ مِن خلف على الفخذِ، وربَّما على الكعبِ. قيل: وسمي بذلك؛ لأنَّ ألمَه يُنسي ما سواه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٥١)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٦٦).

(٤) رواه الترمذي (٣١١٧)، وأحمد (٢٤٨٣) والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٠٧٢)

قال الترمذي: حسن غريب. ووثق رجاله الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ٢٤٤)، وذكر =

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوراة فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: جِيئوا بالتَّوراة فاقرؤوها علينا بأنفسكم؛ حتى لا تتَّهِمونا بأنَّا حذَفْنا أو أَضفْنا شيئًا، فاقرؤوها، إنْ كنتم مُحِقِّين في دعواكم(١).

وهذا خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ عن كَذِبهم؛ لأنَّهم لا يأتون أبدًا بما يَشهَد على صحَّة دَعواهم، فأعلَم الله بكَذِبهم نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وجعَل إعلامَه ذلك حُجَّةً عليهم؛ لأنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمِّيٌّ ومِن غير مِلَّتِهم، فكيف عَلِم بذلك لولا أنَّ الله تعالى هو الذي أَعلَمه إيَّاه بوحيٍ مِن عنده؟! فهذا مِن أعظم الحُجَج عليهم بأنَّه رسول الله تعالى إليهم صِدقًا، وأنَّ النَّسخ واقعٌ حقًّا(٢).

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)﴾.

أي: فمَن تقوَّل على الله تعالى الكَذِبَ؛ بادِّعاء أنَّ ما حرَّمه إسرائيلُ على نفْسِه كان مُحرَّمًا عليهم كذلك، فهؤلاءِ هم الكافِرونَ القائِلونَ على الله تعالى

= ابن حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ١٦) أن له طرقا يقوي بعضها بعضا. وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦١)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١١٧).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠).

قيل المراد: إنْ كنتم محقِّين في دعواكم أنَّ الله أنزل تحريمَ لحوم الإبل وألبانها في التوراة. وهذا اختيارُ ابن جرير في ((تفسيره)) (٥/ ٥٨٧).

وقيل المراد: إنْ كنتم محقِّين في دعواكم أنَّ الله تعالى لم يُحرِّم عليكم في التوراة إلَّا ما كان مُحرَّمًا على إسرائيل فحسبُ. وهذا اختيارُ الشنقيطي في ((أضواء البيان)) (١/ ٣٧١).

وقيل غير ذلك. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٦٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

الباطلَ، والظالِمونَ أنفسَهم بالعُدُول عن الحقِّ بعدَما تَبيَّن[(١)].

الفَوائد التربويَّة:

الحضُّ على اتِّباع الحقِّ متى ظهَر؛ لأنَّه متى ظهَر الحقُّ فحاد الإنسانُ عنه صار أشدَّ ظلمًا؛ وأيُّ ظُلْمٍ أعظمُ مِن ظُلْم مَن يُدْعى إلى تحكيم كتاب الله تعالى فيَمتنِع من ذلك؛ عِنادًا وتكبُّرًا؟! قال تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[(٢)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله سبحانه: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ﴾؛ أَمْرٌ لهم بإحضارِ كتابهم الذي فيه شَريعتهم؛ ففيه إقامةُ الحُجَّة على الخَصْم بما يَعتقِد صحَّته، ويؤمن به، فهذا أعظمُ محاجَّة؛ لأنَّه تتبيَّنُ به الحُجَّة على وجْهٍ لا مفرَّ له منه، إذ لم يبقَ لهم ما يستطيعون أن يَدَّعوه شُبْهةً لهم[(٣)].

٢- قال: ﴿فَاتْلُوهَا﴾ ولم يَقُل: (نَتْلُوها)؛ دفعًا للتُّهمة بأنَّهم حَذَفوا شيئًا، أو أضافوا شيئًا، فلْيتلُوها هم بأنفسهم؛ حتى يَتبيَّن لهم الحقُّ[(٤)].

٣- في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوراة﴾ الردُّ على اليهودِ في إنكارِهم وجودَ النَّسخِ[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣٧).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: هذه الشَّرطيَّة تُفيد كمالَ التَّحدِّي وتَمامَه؛ فقد خرَج الكلامُ على سبيل الاستهزاء بهم، إذ جُعِل هذا الوصفَ ممَّا يُمكِن أنْ يتَّصِفوا به، وهم قد عُلِم كَذِبُهم، كقولك: إنْ كنتَ شُجاعًا فالْقَني، ومعلومٌ عندك أنَّه ليس بشُجاع[1].

٢- قوله: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قوله: ﴿الكَذِبَ﴾، فيه تأكيدٌ للافتراء؛ لأنَّ اسمَ الافتراءِ بمعنى الكَذِب والاختِلاق؛ فكان في إردافِه بقوله: ﴿الكَذِبَ﴾ تأكيدٌ للافتراء[2].

- والإشارة بقولِه: ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ وما فيه من مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعد مَنزِلتهم في الضَّلالِ والطُّغيان[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٩).

الآيات (٩٥ - ٩٧)

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وُضِعَ﴾: بُنِي[1].

﴿بِبَكَّةَ﴾: يعَني: مَكَّة، فَأُبدلت ميمُها باءً، قالوا: والعربُ تُعاقِبُ بين الباء والميم في مواضع، فتقول: لازم ولازِب. أو أنه اسم لبَطْن مكَّة، أو مكان البَيت، وقيل: أصْل بكَك: الجمعُ بين التَّزاحم والمُغالَبة، والبَكُّ: دقُّ العُنق؛ سُمِّيت مكَّة: بكَّة؛ لأنَّ الناس يَبُكُّ- أي: يَدْفَع- بعضُهم بعضًا في الطَّوافِ بالازدِحام، ويُقال: لأنَّها تَبُكُّ (تَدُقُّ) أعناقَ الجبابرةِ إذا ألْحَدوا فيها بظُلمٍ[2].

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

﴿مَقَامُ﴾: مرفوعٌ، على أنَّه بدلٌ من ﴿آيَاتٌ﴾، أو على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: هي مقامُ إبراهيم. و﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ، وهي معطوفة على ﴿مَقَامُ﴾ من حيثُ المعنى؛ لأن قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِنًا﴾ دلَّ على أمْن داخلِه، فكأنه قيل: فيه آياتٌ بيِّناتٌ: مقامُ إبراهيمَ، وأمْنُ داخلِه.

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل (٥/ ٢٨٥)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦).

وعلى هذين الوَجهينِ يكونُ فيه إبدالُ المفرد ﴿مَقَامُ﴾ من الجمع ﴿آيَاتٌ﴾، والإخبارُ عن الجَمْعِ بالمفرد؛ وجازَ ذلك على القولِ بأنَّ أقلَّ الجَمْعِ اثنان، فعبَّر عن الجمْع ﴿آيَاتٌ﴾ بالمقامِ وبأمْنِ الدَّاخل، أو لأنَّ ﴿مَقَام﴾ وإنْ كانَ مفردًا لفظًا إلَّا أنَّه يَشتمِلُ على آياتٍ كثيرة. وقيل غير ذلك. أو يكون ﴿مَقَامُ﴾ مرفوعًا على أنَّه مبتدأ، والخبر محذوف، أي: مِنها مقامُ إبراهيم، أو خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، لكن التقدير: أحدُها مقامُ إبراهيم، وعلى هذينِ الوجهينِ فلا إشْكالَ في كونِ ﴿مَقَامُ﴾ مفردًا و﴿آيَاتٌ﴾ جمعًا[1].

٢- قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾: ﴿مَن﴾ موصولةٌ بمعنى الذي، وهي في مَوضِعِ جرٍّ، على أنَّها بدلٌ مِن النَّاس- بدَلُ بعضٍ مِن كُلٍّ[2]، أو بدلُ كلٍّ مِن كل-. وقيل: ﴿مَن﴾ في موضِع رفْعٍ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: هم مَنِ استطاع، و﴿اسْتَطَاعَ﴾ على هذين الوَجهين صِلةُ ﴿مَن﴾ لا محلَّ له من الإعرابِ، وقيل: ﴿مَنْ﴾ شَرْطٌ في موضِع رفْعٍ بالابتداءِ، و﴿اسْتَطَاعَ﴾ في موضِع جزمٍ بـ﴿مَنْ﴾ والجواب محذوفٌ، تقديرُه: فعليه الحجُّ، ودلَّ على ذلك قولُه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، وقيل غير ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣١٧- ٣٢١).

(٢) وبدلُ البعضِ وبدلُ الاشتمالِ لا بدَّ في كلٍّ منهما مِنْ ضميرٍ يعودُ على المُبدَل منه نحو: أَكَلْتُ الرغيفَ ثُلثَه، وسُلِبَ زيدٌ ثوبُه، وهنا ليس ضَميرٌ، فقيل: هو محذوفٌ تقديرُه: مَنْ استطاع منهم. ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٦٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٢١- ٣٢٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لليهود: إنَّ كلَّ ما أَخبَرَ الله تعالى به، وكلَّ ما شرَعه فهو صِدْق، فعليهم أنْ يتَّبِعوا مِلَّة إبراهيم الخليل عليه السَّلام؛ فقد كان مُوحِّدًا، يميل عن الشِّرك، ولم يكُن محسوبًا في عِدادِ المشركين.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِع لجميع النَّاس مِن أجْل عِبادة الله فيه، هو البيتُ الحرام، الواقعُ في مكَّة المُكرَّمة، وهو مَوضِعٌ مُبارَك، فيه برَكاتٌ كثيرةٌ من المنافع الدِّينيَّة والدُّنيويَّة: كالأجورِ المضاعَفة، والأرزاقِ الوفيرة، وهو مَنارٌ يَهتدي به جميعُ العالَمين.

في هذا البيتِ أدِلَّةٌ واضِحةٌ على توحيدِ الله سبحانه وحِكْمتِه وعظمتِه وقُدْرتِه، وغير ذلك من صِفاتِه الحُسنى، وعلاماتٌ على شرفِه، ومن تلك العلامات: المواضِعُ التي قام فيها الخليلُ إبراهيمُ عليه السَّلام لأداءِ مناسكِ الحَجِّ، ومنها أيضًا: أنَّ مَن دخَله كان آمنًا مِن كلِّ سوء، وقد فرَض اللهُ قصْدَ البيتِ الحرام؛ لأداءِ شعائر الحَجِّ، على مَن قَدَر من أهل التَّكليفِ، ومَن جحَد فريضةَ الحجِّ فإنَّ الله غنيٌّ عنه وعن حَجِّه، وعن سائرِ خَلْقه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأولئك اليهود: إنَّ كلَّ ما أَخبَرَ الله تعالى به وكلَّ ما شرَعه فهو صِدْق، ومِن ذلك: إخبارُه بأنَّه لم يُحرِّم على اليهود شيئًا من الأطعمةِ قبل نُزول التَّوراة، إلَّا ما حرَّمه يعقوبُ عليه السَّلام على نَفْسِه، فجاء ما في التَّوراة مُوافِقًا لِمَا أَخبَرَ الله سبحانه عنه؛ فهُم كَذَبوا، وصدَق اللهُ عزَّ وجلَّ، وممَّا بيَّنه الله تعالى في كتابه الصَّادق مِلَّةَ إبراهيمَ الخليل عليه السَّلام، فإنْ كُنتم صادقينَ في

مَحبَّتِكم واعتزازِكم بالانتسابِ إليه، فاتَّبِعوه على توحيدِه اللهَ سبحانه، ومَيلانِه عن الشِّرك، وما كان إبراهيمُ مِثْلَكم- مَعشَر اليهودِ- في عِدادِ المحسوبين من المشرِكين بالله جلَّ وعلا[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرهم الله تعالى باتِّباع مِلَّةِ إبراهيمَ في التَّوحيد، وتَرْكِ الشِّرك، أمَرهم باتِّباعه بتعظيمِ البيتِ الحرام بالحجِّ وغيره؛ فحجُّ البيتِ من أعظمِ شعائر مِلَّة إبراهيمَ، ومِن خصوصيَّات دِينه، وأيضًا فإنَّ اليهود حين حُوِّلت القِبْلةُ إلى الكعبة طعَنوا في نُبوَّة رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقالوا: بيتُ المقدِس أفضلُ وأحقُّ بالاستقبال؛ لأنَّه وُضِع قَبْل الكعبة، وهو أرضُ المحشر، وقِبْلةُ جميعِ الأنبياء، فأكْذَبهم الله في ذلك[2] بقوله:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾.

أي: إنَّ أوَّل بيتٍ وُضِع لجميعِ النَّاس لعبادةِ الله تعالى، فيَطوفون به، ويُصلُّون إليه، ويَعتكِفون عنده- البيتُ الحرام الواقع في مكَّة، والذي يَزدحِم النَّاس حولَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧٠، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٢-٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

وهو الكعبةُ التي بناها إبراهيمُ الخليلُ عليه السَّلام، الذي يَزعُم كلٌّ مِن طائفتي النَّصارى واليهود أنَّهم على مِلَّته، ومع ذلك لا يَحُجُّون إلى البيتِ الذي بناه، ونادى النَّاس إلى حَجِّه! وهو مَوضِع مُبارَكٌ؛ فيه بركاتٌ كثيرةٌ من المنافعِ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة: كالأجورِ المضاعفة، والأرزاقِ الوفيرة، وهو مَنارٌ يُهتدى به، وتَحصُل فيه أنواعُ الهدايات لجميعِ العالَمين، ومِن ذلك: أنَّه قِبْلةٌ يَستقبِلها المسلمون في صَلواتهم، ويَقصِدونه في حَجِّهم وعُمراتِهم[1].

عن أبي ذَرٍّ رَضِي اللهُ عنه قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ مسجدٍ وُضِع في الأرضِ أوَّلُ؟ قال: المسجدُ الحرامُ، قال: قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعونَ سنةً، ثم أينَما أدرَكَتكَ الصَّلاةُ بعدُ فصلِّهِ، فإنَّ الفضلَ فيه))[2].

وعن عليٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: (كانتِ البُيوتُ قَبلَهُ، ولكنَّهُ كان أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ لعبادَةِ اللَّهِ)[3].

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾.

أي: في هذا البيتِ أدِلَّةٌ واضحةٌ على توحيدِه سبحانه، ورحْمتِه وحِكمتِه وعظَمتِه وقُدْرتِه، وغير ذلك من صِفاته الحُسنى، وفيه علاماتٌ ظاهرةٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ٩٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٦-٥٤٨).

(٢) رواه البخاري واللفظ له (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٣٨٢٧). صحح إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٧٠)، وقال أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٣٩٢): فيه مجالد بن سعيد، وهو حسن الحديث.

شرَفِ هذا البيت وعظيمِ فضْله، وأنَّه من بِناء إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن تلك العلامات، المواضِع التي قام فيها الخليلُ عليه السَّلام لأداءِ مناسك الحجِّ: كعَرَفة، ومُزْدَلِفة ومِنًى، ومن مَقاماته: الحَجرُ الذي قام عليه لاستِكمالِ بِناء الكعبة لَمَّا ارْتفَع بُنيانُها(١).

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.

أي: إنَّ مِن الآيات البيِّنات الدالَّةِ على شرفِ البيتِ الحرام وفضْلِه، وغير ذلك: أنَّ مَن يدخُل الحرمَ يكون بمعزلٍ عن أنْ ينالَه أحدٌ من الناس بسوءٍ على وجهِ العموم، وهذا امتنانٌ مِن الله تعالى بما تقرَّر في ماضي العصور، وبما هو متقرِّرٌ شرعًا(٢).

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].

عن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يوم افْتَتَح مكةَ: ((لا هِجرةَ، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا استُنفِرتُم(٣) فانفِروا، فإنَّ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٥٩٨، ٦٠٠، ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨، ١٣٩، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٨-٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٠٦-٦٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٩، ٩٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٠-٥٥١).

وممَّن قال من السلف في معنى ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ بنحو ما ذكَرْنا: ابن عبَّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير. انظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧١١).

(٣) استُنفِرتُم: أي: إذا طُلبَ منكم النُّصرةُ، فأجيبوا وانفروا خارجينَ إلى الإعانةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٩٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٢٥).

بلدٌ حَرَّمَه اللهُ يومَ خَلَق السمواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، وإنَّه لم يَحِلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قَبْلي، ولم يَحِلَّ لي إلا ساعةً من نهارٍ، فهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، لا يعْضَدُ[1] شَوْكُه، ولا يُنَفَّرُ صَيدُه، ولا يلْتَقَطُ لُقطته إلا مَن عرَّفها، ولا يُختَلى خَلَاها[2]، قال العباسُ: يا رسولَ اللهِ، إلا الإذْخِرَ؛ فإنَّه لقَيْنِهم[3] وبُيُوتِهم، قال: قال: إلا الإذْخِرَ))[4].

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

أي: إنَّ شعيرةَ حَجِّ بيتِ الله تعالى الحرام فرْضٌ واجبٌ لله عزَّ وجلَّ، على مَن قَدَر مِن أهلِ التَّكليفِ على القصدِ إليه، وذلك بتَوفُّر القُدرةِ الماليَّة والبدنيَّة وغيرِهما ممَّا يُحقِّق الاستطاعةَ[5].

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: ومَن جحَد فرض الحجِّ فأنكر وجوبه وكفر به، فإنَّ الله غنيٌّ عنه، وعن حَجِّه، وعن سائرِ خَلْقه[6].

---

(١) يُعْضَد أيْ: يُقْطع. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٥١).

(٢) لا يُختلى خَلاها: أي: لا يُقطع نباتُها الرَّطب. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٥).

(٣) لِقَينهم: جمْع قَيْن، وهو الحدَّاد والصائِغ. ومعناه: يحتاج إليه القَينُ في وقود النَّار. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٣٥).

(٤) رواه البخاري له (١٨٣٤)، ومسلم (٣١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٠٩، ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة آل عمران)) (١/ ٥٥١-٥٥٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦١٨، ٦٢٤)، ((شرح عمدة الفقه- كتاب الطهارة والحج)) لابن تيمية (٢/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧١)، ((تفسير ابن عثمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٤-٥٥٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف ابنُ عبَّاس، والضَّحَّاك، وعطاء، وعمران القطان، والحسن، ومجاهدٌ، وعِكرمةُ، ومُقاتل. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦١٨)، و((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٣٠٩).

وفي الآيةِ أوجهٌ أُخرى ذكَرها ابنُ الجوزيِّ في ((زاد المسير)) الموضع السابق، والشنقيطيُّ =

الفَوائد التربويَّة:

١- يجبُ على الإنسانِ أنْ يَتَّبعَ الحقَّ أينما كان، سواء كان مِن الرَّسول الذي أُرسِل إليه مُباشرةً، أو مِن الرُّسل السَّابقين؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[1].

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ تعظيمُ بيتِ الله الحرامِ؛ فهو أوَّلُ البُيُوت التي وضَعها الله في الأرض لعِبادتِه، وإقامةِ ذِكْره، وفيه من أنواعِ البركات، والهِدايات، وتنوُّع المصالحِ والمنافعِ للعالَمين شيءٌ كثير، وفضْلٌ غزير، وفيه علاماتٌ بيِّنة تُذكِّر بمقاماتِ إبراهيمَ الخليل، وتَنقُّلاتِه في الحَجِّ، وليس هذا لمكانٍ آخَرَ في الأرض؛ فلذا يَنبغي تعظيمُه ومراعاةُ حُرمتِه[2].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ الحَضُّ على فريضةِ الحَجِّ[3]، فينبغي على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ ممَّن يستطيعُ مئونةَ الحجِّ إذا كان مُكلَّفًا أن يبادرَ بذلك، وألَّا يُؤخِّرَه[4].

٤- الافتقارُ إلى الله، فإذا كان الله غنيًّا عن العالَمين، لَزِم أنْ يكون العالَمون مُفتَقِرين إليه، وليس بهم غِنًى عن الله، وهو كذلك؛ فإنَّ الخَلْق مُفتَقِرون إلى الله تعالى غايةَ الافتقار؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[5].

= في ((أضواء البيان)) (١/ ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران))(١/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٦/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦١).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائف:

١ – قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ فيه أنَّ تَقدُّمَ المكان في العبادةِ له أثرٌ في تفضيلِه[١].

٢ – قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ فيه أنَّ الآياتِ كما تكون شرعيَّةً، تكون كذلك حِسيَّةً كونيَّة، كما في هذه الآيات التي ذُكِرت للبيت العتيق[٢].

٣ – افتتَح اللهُ تعالى إيجابَ الحجِّ بذِكر محاسنِ البيتِ، وعظَّم شأنَه بما يَدْعو النفوسَ إلى قصْدِه وحَجِّه، وإنْ لم يُطلبْ ذلك منها؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[٣].

٤ – قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، تَضمَّن ثلاثةَ أمورٍ مُرتَّبة بحسَب الوقائع: أحدها: الموجِبُ لهذا الفرض وهو اللهُ سبحانه فبدأ بذِكْره، والثاني: مُؤدِّي الواجِبِ وهو المفترَض عليه وهم النَّاس، والثالث: النِّسْبة والحقُّ المتعلِّق به إيجابًا وبهم وجوبًا وأداء، وهو الحجُّ[٤].

٥ – أنَّ اللهَ تعالى إذا ذكَر ما يُوجِبه ويُحرِّمه يَذكُرُه بلفْظِ الأمْرِ والنَّهي، وهو الأكثرُ، وبلفْظِ الإيجابِ والكتابةِ والتَّحريمِ، أمَّا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فعبَّر عن وجوبِ الحجِّ بعِبارتينِ؛ إحداهما: لامُ المِلْك في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾، وثانيتهما: كلمةُ ﴿عَلَى﴾، وهذا من أَوْكَد ألفاظِ الوجوبِ عند العَرَب، كما قال بعضُ العلماء، فذكَرَ اللهُ سبحانه الحَجَّ بأبلغِ ألفاظِ الوجوبِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين– سورة آل عمران)) (١/ ٥٥٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥٧).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٤٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

تأكيدًا لحَقِّه، وتعظيمًا لحُرْمَتِه، وتقويةً لفَرْضِه(١).

٦- في قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ نكَّر السبيلَ في سِياق الشَّرط إيذانًا بأنَّه يجب الحجُّ على أيِّ سبيلٍ تيسَّرت، من قُوتٍ أو مالٍ، فعلَّق الوجوبَ بحصول ما يُسمَّى سبيلًا(٢).

٧- قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بيانُ رحمةِ الله تعالى، حيثُ لم يَفرِض على عبادِه ما كان شاقًّا عليهم ولا يَستطِيعونه(٣).

٨- وقوله: ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: خبرٌ فيه رمزٌ إلى نزْعِه وَلايةَ الحرمِ من أيدي كفَّار مكَّة؛ لأنَّه لَمَّا فرَض الحجَّ وهم يَصُدُّون عنه، وأَعلَمنا أنَّه غنيٌّ عن النَّاس، فهو لا يُعجِزه مَن يَصُدُّ النَّاسَ عن مُرادِه تعالى(٤).

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (١/ ٣٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).
قال ابنُ القَيِّم في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾: (وفي الحَجِّ أتى بهذا النَّظْم الدالِّ على تأكُّدِ الوجوبِ من عَشرةِ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه قدَّمَ اسمَه تعالى وأدخَلَ عليه لامَ الاستحقاقِ والاختصاصِ، ثم ذكَرَ مَن أوجَبَه عليهم بصيغَةِ العمومِ الدَّاخِل عليها حرفُ (على) ثُمَّ أبدَلَ منه أهْلَ الاستطاعةِ، ثم نكَّرَ السَّبيلَ في سياقِ الشَّرْطِ إيذانًا بأنَّه يجِبُ الحَجُّ على أيِّ سبيلٍ تيسَّرَت مِن قُوتٍ أو مالٍ، فعلَّقَ الوُجوبَ بِحُصولِ ما يُسَمَّى سبيلًا، ثمَّ أتبَعَ ذلك بأعظَمِ التهديدِ بالكُفْر، فقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾؛ أي: بِعَدَمِ التزامِ هذا الواجِبِ وتركِه، ثم عَظَّمَ الشَّأنَ وأكَّدَ الوعيدَ بإخبارِه باستغنائِه عنه، واللهُ تعالى هو الغنيُّ الحميدُ، ولا حاجةَ به إلى حَجِّ أحدٍ، وإنَّما في ذِكْرِ استغنائِه عنه هنا من الإعلامِ بِمَقْتِه له وسَخَطِه عليه وإعراضِه بوَجْهِه عنه ما هو مِنْ أعظَمِ التهديدِ وأبلَغِه، ثم أكَّدَ ذلك بذِكْرِ اسْمِ العالَمينَ عمومًا، ولم يَقُلْ: فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنه؛ لأنَّه إذا كان غنيًّا عن العالَمين كُلِّهم فلَهُ الغِنَى الكامِلُ التامُّ مِن كُلِّ وَجهٍ عَن كُلِّ أحَدٍ بكُلِّ اعتبارٍ، وكان أدلَّ على عِظَمِ مَقْتِه لتارِكِ حَقِّه الذي أوجَبَه عليه، ثم أكَّدَ هذا المعنى بأداةِ (إنَّ) الدَّالَّةِ على التوكيدِ؛ فهذه عشرةُ أوجُهٍ تقتضي تأكيدَ هذا الغَرَضِ العظيمِ). ((بدائعُ الفوائِدِ)) (٢/ ٤٥).
(٢) يُنظر: ((بدائعُ الفوائِدِ)) لابن القيم (٢/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (/ ٥٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾:

- خبرٌ فيه تعريضٌ بكَذِبهم، أي: ثبَت أنَّ اللهَ صادقٌ فيما أَنزل، وأنتم الكاذِبون[1]؛ لأنَّ صِدْق أحدِ الخبرين المتنافِيين يَستلزِم كَذِبَ الآخَر، فهو مُستعمَلٌ في معناه الأصليِّ والكِنائيِّ[2].

- ولم يَذكُر الخبرَ الذي حَكَم عليه بالصِّدق، فيكون ذلك عامًّا شاملًا، أي: صدَق اللهُ في كلِّ شيء[3].

٢- قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: الفاء في ﴿فاتَّبِعُوا﴾ للتَّفريع، وهي تفريعٌ على صِدق اللهِ؛ لأنَّ اتِّباع الصادِق فيما أمَر به مَنْجاةٌ من الخَطَر[4].

٣- قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: خبرٌ مُتضمِّن للتَّعريض بإشراك اليهودِ، والتَّصريحُ بأنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام ليس بَينَه وبَينَهم علاقةٌ دِينيَّةٌ قطْعًا، وهكذا أهلُ الشِّرْكِ في مَكَّةَ، والغرَضُ: بيانُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على دِين إبراهيمَ عليه السَّلام في الأصولِ؛ لأنَّه لا يَدعو إلَّا إلى التَّوحيدِ، والبراءةِ عن كلِّ معبودٍ سواه سبحانه وتعالى، والجُمْلةُ تذييلٌ لِما قبلَها[5].

٤- قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: كلامٌ واقع مَوقِعَ التَّعليل للأمر في قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ لأنَّ هذا البيتَ المُنوَّهَ بشأنِه كان مَقامًا لإبراهيمَ، ففضائلُ هذا البيت تُحقِّق فَضيلةَ شرْع بانِيهِ في مُتعارَف النَّاس،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٥٩).

وقد آذَنَ بكونِ الكلامِ تعليلًا مَوقِعُ (إنَّ) في أوَّله؛ فإنَّ التأكيد بـ(إنَّ) هنا لمجرَّدِ الاهتمام، وليس لردِّ إنكارِ مُنكَر، أو شكِّ شاكٍّ، ومِن خصائصِ (إنَّ) إذا وردتْ في الكلام لمجرَّد الاهتمامِ: أن تُغني غَناءَ فاء التَّفريعِ، وتُفيد التَّعليلَ والرَّبطَ[1].

- قوله: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: عدَل عن تعريفِ البيتِ باسمِه العَلَم بالغَلَبة (الكعبة)، إلى تعريفِه بالمَوصوليَّة بأنَّه (الذي ببكَّة)؛ دفعًا لتوهُّم غيرِه؛ لأنَّ هذه الصِّلةَ صارتْ أشهرَ في تعيُّنه عند السَّامعين؛ إذ ليس في مكَّةَ يومئذٍ بيتٌ للعبادةِ غيرُه، بخلافِ اسمِ الكعبة: فقد أُطلِق اسمُ الكعبةِ على القُلَّيس الذي بناه مَلِكُ الحبشة في صنعاء لِدين النَّصرانيَّة، ولقَّبوه (الكعبة اليَمانِيَة)[2].

- وقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ...﴾ استئنافُ ثَناءٍ على هذا البيتِ بما حُفَّ به من المناقِب والمزايا، وغيَّر الأسلوبَ للاهتمام[3].

٥- **قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾**: ذكَر النَّاس، ثُمَّ أَبدَل عنه ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وفيه ضَرْبان من التَّأكيد؛ لأنَّ الإبدال تثنيةٌ للمُراد وتَكْرير، وذلك يَدلُّ على شِدَّة العِناية؛ ولأنَّه أَجمَلَ أولًا وفصَّل ثانيًا، وذلك يدلُّ على شِدَّة الاهتمام[4].

- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ في تقديمِ المجرور الأوَّل ﴿وَلِلَّهِ﴾: أنَّ الاسمَ المجرورَ من حيثُ كان اسمًا لله سبحانه، وجَب الاهتمامُ بتقديمِه؛ تعظيمًا لحُرْمةِ هذا الواجبِ الذي أوجبَه، وتخويفًا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠).

تضييعه؛ إذ ليس ما أوجبه اللهُ سبحانه بمَنزلةِ ما يُوجِبه غيرُه(١).

٦- **قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾**: جُملةٌ معطوفةٌ مقابلة لقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وقيل: هي جملةٌ مستقلَّة، كالتَّذييلِ، بُيِّن بها عدمُ اكتراثِ الله بمَن كفَر به، وفي ذِكْرِ استغنائِه عنه مِن الإعلامِ بمَقْته وسَخَطه عليه وإعراضِه بوجْهِه عنه ما هو أعظمُ التَّهديد وأَبْلَغه(٢).

- وجاءَ التَّعبير بقوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يَقُل: (عنه)؛ مُبالغةً في التَّعميم، وللدَّلالةِ على الاستِغناء عنه بالبُرهان، والإشعار بعِظَم السَّخَط؛ لأنَّ المستغني عن كلِّ العالَمين أَوْلَى أنْ يكونَ مستغنيًا عن ذلِك الإنسانِ الواحدِ وعن طاعتِه؛ فكانَ ذلك أدلَّ على السَّخَط(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩١)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠).

الآيتان (٩٨ - ٩٩)

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿تَبْغُونَهَا﴾: تَطلُبونها[١].

﴿عِوَجًا﴾: أي: زيغًا وتحريفًا، واعوجاجًا في الدِّين؛ فالعِوَج- بالكَسر- يُقال فيما كانَ في أَرضٍ أو دِينٍ أَو مَعاشٍ، والعَوَج- بالفتْح- يُقال فيما يَنتَصِب كالحائطِ والعُود. ومنهم مَن خَصَّ المكسورَ بالمعاني، والمفتوحَ بالأعيانِ، وأصْل (عوج): الميل في الشَّيء[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَسأَلَ اليهودَ والنَّصارى مُوبِّخًا لهم: ما الذي يَحمِلهم على إنكارِ حُجَج الله التي أتت بها كُتُبُهم، والتي فيها إثبات نُبوَّته صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وصِدْق ما جاء به، والله تعالى لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالِهم.

ويأمُره أيضًا أنْ يقول لهم مُوبِّخًا لهم: لمَ يُضِلُّون المؤمنين عن سبيل الله؛ يُريدون بذلك الانحرافَ والميلَ بهذا السَّبيلِ عن استقامتِه، وهم يَعلمون الحقَّ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٠٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٩).

ويَعرِفون سوءَ ما يَقومون به، وليس الله بغافلٍ عمَّا يقومون به؟!

تَفسيرُ الآيتين:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأصحابِ التَّوراة والإنجيل مُوبِّخًا لهم: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، ما الذي يَحمِلكم على جحْد حُجَج الله تعالى التي جاءت بها كُتُبكم، والتي تُثْبِت نبوَّتي وصِدْقَ ما جئتُ به من الله تعالى؛ فلمَ تَجْحَدون ذلك وأنتُم على عِلْم بالحقِّ، والله تعالى شهيدٌ على كُفْركم؟! فإنَّه سبحانه لا يَخفى عليه شيءٌ، وسيُجازيكم على كُفْركم بما تَستحِقُّون(١).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتوبيخِ أهلِ الكتابِ على كُفْرهم القاصِر عليهم، أمَرَه أيضًا بتوبيخِهم على عُدوانهم على الغيرِ، بصدِّهم عن الإيمان(٢)، فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأهل الكتاب مُوبِّخًا: يا معشرَ اليهود والنَّصارى لِمَ تُضِلُّون عِبادَ الله المؤمنين عن طريقِ الله الذي جئتُ به من عندِ الله، والمُوصِل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٤-٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦١-٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

إلى الله، تُريدون انحرافَ هذا الطريق عن استقامتِه؛ ليَزيغَ بالمؤمنين مِن الهدى إلى الضَّلال، والحال أنَّكم تعلمون الحقَّ؛ مِصداقًا لِما تَجِدونه في كُتُبكم كصِفة محمد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعلَمون سوءَ ما تَصْنعون[(١)]؟!

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وليس الله عزَّ وجلَّ بغافلٍ- أيُّها اليهود والنَّصارى- عن ضلالِكم وإضلالكِم، بل يُحصي أعمالَكم، وعليها يُجازيكم[(٢)].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله: ﴿قُلْ: يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ﴾ مجابهةُ أهلِ الكتابِ بحقيقةِ موقفِهم، ووَصْفهم بصِفتِهم التي يُدارُونها بمظهرِ الإيمان والتديُّن، بينما هم في حقيقتِهم كُفَّارٌ؛ فهم يَكفُرون بآياتِ الله القرآنيَّة، ومن يَكفُرْ بشيءٍ من كتاب الله فقد كفَر بالكتاب كلِّه، ولو أنَّهم آمنوا بالنصيبِ الذي معهم لآمَنوا بكلِّ رسولٍ جاءَ من عند اللهِ بعد رسولِهم؛ فحقيقةُ الدِّينِ واحدةٌ مَن عرَفَها عرَفَ أنَّ كلَّ ما يَجيء به الرُّسُلُ مِن بعدُ حقٌّ، وأَوْجَب على نفسه الإسلامَ للهِ على أيديهم، وهي حقيقةٌ من شأنها أن تَهُزَّهم وأنْ تُخوِّفَهم عاقبةَ ما هم فيه، ثمَّ إنَّ المخدوعين مِنَ الجماعةِ المسلمةِ بكونِ هؤلاء الناسِ أهلَ كتابٍ يَسقطُ هذا الخِداعُ عنهم، وهم يَرَوْن اللهَ- سبحانه- يُعلنُ حقيقةَ أهلِ الكتابِ هؤلاءِ، ويَدْمَغُهم بالكفرِ الكاملِ الصَّريح؛ فلا تَبْقَى بعد هذا رِيبةٌ لمُستريبٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٥-٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٦).

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديدٌ بما يَخلَعُ القلوبَ، حين يحسُّ إنسانٌ أنَّ اللهَ يَشهَد عَملَه، وأنَّه ليس بغافلٍ عنه، بينما عملُه هو الكفرُ والخداعُ والإفسادُ والتَّضليلُ! ويُسجِّلُ اللهُ تعالى عليهم مَعرفةَ أهل الكتاب بالحقِّ الذي يَكفُرون به، ويَصدُّون الناسَ عنه: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَداءُ﴾، ممَّا يَجزِم بأنَّهم كانوا على يقينٍ مِن صِدق ما يُكذِّبون به، ومِن صلاحِ ما يَصدُّون الناسَ عنه، وهو أمرٌ بشعٌ مُستنكَرٌ، لا يستحقُّ فاعلُه ثقةً ولا صُحبةً، ولا يستأهلُ إلَّا الاحتقارَ والتَّنديد[1]!

٣- في قولِ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى مَا تَعْمَلُونَ﴾ إثباتُ شهادةِ الله على كلِّ ما يعملُ بنو آدمَ؛ لأنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ يُفيد العُمومَ[2].

٤- في قوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجًا...﴾ أنَّ سبيلَ الله هو الطريقُ المستقيم، وما عداه عوجٌ غيرُ مستقيم، وحين يُصدُّ الناسُ عن سبيل الله، وحين يُصدُّ المؤمنونَ عن منهج الله، فإنَّ الأمورَ كلَّها تَفقِدُ استقامتَها، والموازينَ كلَّها تَفقِدُ سلامتَها، ولا يكونُ في الأرضِ إلَّا العوجُ الذي لا يَستقيمُ، إنَّه الفسادُ؛ فسادُ الفطرةِ بانحرافها، وفسادُ الحياة باعوجاجِها! فإمَّا أنْ يستقيمَ الناسُ على منهجِ الله، فهي الاستقامةُ والصَّلاح والخير، وإمَّا أنْ يَنحرِفوا عنه إلى أيَّة وجهةٍ، فهو العوجُ والفسادُ والشرُّ، وليس هنالك إلَّا هاتان الحالتان، تتعاوران حياةَ بني الإنسان[3].

٥- في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، الحثُّ على الاستقامة بلُزوم الشَّرع، وتَرْك العِوَج والزَّيغ عن

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٣).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٧).

شريعةِ اللهِ تعالى في الأوامرِ بالتَّفريط، والتَّهاون، أو بالغُلُوِّ والإفراط، وفي النَّواهي بانتهاكِها، والتَّهاون بها، وكلُّ إنسانٍ عاقلٍ فإنَّه يَسعى إلى الوصولِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه غايةُ المطالِب، ولا وصولَ إلى الله إلَّا بسلوك شَرْعه وسبيله الذي يُوصِل إليه[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾؛ الحَذرُ من التَّثبيطِ عن فِعْل الخير، أو التَّرغيب في فِعْل الشَّرِّ؛ لأنَّ مَن صَدَّ عن سبيلِ الله من المسلمين يكونُ فيه شَبَهٌ من اليهود والنَّصارى؛ فهذا سبيلُهم[٢].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ افتَتَح بِفِعْل (قُلْ)؛ اهتمامًا بالمقُول[٣].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ يُستَفاد منه أنَّ اللهَ تعالى لا يُحاسِب العبدَ على ما حدَّث به نَفْسَه؛ فالوَساوس التي تكون في الصَّدر لا يُؤاخَذ عليها الإنسانُ إلَّا إذا ترتَّب عليها عملٌ، أو ركَن إليها واعتَقَدها، وجعَلَها من أعمالِ القلب، فحينئذٍ يُحاسَب عليها، وكذلك إذا نطَق بها لسانُه، أو عمِل بمقتضاها بجوارحه، فحينئذٍ يُحاسَب عليها[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾؛ إنَّما ذكَر مَنْ آمن مع أنهم يَصُدُّون مَنْ لم يؤمن أيضًا حتى لا يَدخُل في الإيمان؛ وذلك لأنَّ صدَّ مَن آمن أشدُّ عُدوانًا مِن صدِّ مَن لم يؤمن؛ فالبقاءُ على الكُفْر أهونُ من الرِّدة؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٤).

هذا مَنْع، والأوَّل رَفْع، ورَفْع الخيرِ أشدُّ عقوبةً مِن مَنْعه[1].

٤- ختَم اللهُ تعالى الآيةَ الأولى بقوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾، والآية الثانية بقوله ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ وذلك لأنَّهم كانوا يُظهِرون الكُفْرَ بنُبوَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما كانوا يُظهِرون إلقاءَ الشُّبهِ في قلوب المسلمين، بل كانوا يَحتالون في ذلك بضُروب من المكايد والحيل الخفيَّة، التي لا تَروُج إلا على الغافل، فلا جَرَم قال فيما أَظهَروه ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾، وفيما أَضمَروه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

٥- قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾؛ أحالَهم في هذا الكلامِ على ما في ضمائِرِهم ممَّا لا يَعلَمه إلَّا اللهُ؛ لأنَّ ذلك هو المقصودُ مَن وخْزِ قلوبهم، وانثنائِهم باللائمةِ على أنفسهم[3].

٦- قوله الله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ يتضمَّن نَفْي الغَفْلةِ عن الله، وكذلك ثبوتَ كمال المراقبة؛ لأنَّ مَن كان كامِل المراقبة، فإنَّه ليس عنده غَفْلة[4].

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فيه تخصيصُ أهلِ الكتاب بالخِطاب؛ للدَّلالةِ على أنَّ كُفْرهم أَقْبح؛ لأنَّ معرفتَهم بالآيات أقوى، ولأنَّ كونهم أهلَ كتابٍ يُوجِب الإيمانَ بما يُصدِّق ما معهم، وهم- وإنْ زعَموا أنهم مؤمنون بالتَّوراة والإنجيل- فهم كافرون بهما[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٦٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٢).

- وكرَّرها في الآيتين؛ لأنَّ المقصودَ التوبيخُ على أَلْطف الوجوه، وتكريرُ هذا الخطابِ اللَّطيف أقربُ إلى التلطُّف في صَرْفهم عن طريقَتِهم في الضَّلال والإضلال، وأدلُّ على النُّصح لهم في الدِّين والإشفاق(١).

٢- قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: استفهامٌ للتَّوبيخ والإنكار لأنْ يكونَ لكُفْرهم بها سببٌ من الأسباب، وتحقيقٌ لِما يوجِبُ الاجتنابَ عنه بالكُليَّة(٢).

٣- قوله: ﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ الجملة حالٌ مِن فاعِل ﴿تَكفُرون﴾ وهي مفيدةٌ لتشديد التَّوبيخِ، وتأكيدِ الإنكار(٣).

- وإظهارُ لفْظ الجلالةِ (والله) في موقعِ الإضمار- حيث لم يَقُل: (وهو)-؛ لتربية المهابة، وتهويلِ الخَطْبِ(٤).

- وصيغةُ المبالغةِ في ﴿شهيدٌ﴾؛ للتَّشديدِ في الوعيد(٥).

٤- قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾: أمرٌ بتوبيخهم بالإضلال إثْر توبيخِهم بالضَّلال، والتَّكريرُ للمُبالَغة في حَمْله عليه السَّلام على تقريعهم وتَوبيخِهم، وتَرْكُ عطفِه على الأمر السَّابقِ؛ حيث لم يَقُل: (وقل يا أهل..)؛ للإيذان باستقلالهم، كما أنَّ قطْعَ- أي: عدم عطف- قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ عن قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ كلَّ واحدٍ مِن كُفْرهم وصدِّهم شناعةٌ على حيالها، مُستقِلةٌ في استتباع اللائمةِ والتَّقريعِ، وتكريرُ الخطابِ بعُنوان

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أهليَّةِ الكتابِ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾؛ لتَّأكيد الاستقلالِ، وتشديدِ التَّشنيع، فإنَّ ذلك العُنوانَ كما يَستدعي الإيمانَ بما هو مُصدِّقٌ لِمَا معهم، يَستدعي ترغيبَ النَّاسِ فيه، فصدُّهم عنه في أقصى مراتبِ القَباحةِ[1].

٥- قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: اعتراضٌ تذييليٌّ، فيه تهديدٌ ووعيدٌ شديد، وتذكيرٌ؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الله يعلم ما تُخفي الصُّدور، وهو بمعنى قوله في موعظتهم السابقة: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾، إلا أنَّ هذا أغلظُ في التَّوبيخ؛ لِما فيه من إبطال اعتقاد غفْلته سبحانه؛ لأنَّ حالهم كانت بمَنزِلة حالِ مَن يَعتقِد ذلك[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٧).

الآيتان (١٠٠ - ١٠١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ
إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ
وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾: أي: يَمتنعْ بالله، وأصْل العِصمة: الإمساكُ، والمُلازَمةُ والمنعُ، ومنه يُقال: عصَمَه الطَّعامُ، أي: منَعه من الجوعِ(١).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُحذِّر الله تعالى المؤمنينَ مِن طاعةِ طائفةٍ مِنَ الذين أُوتوا الكتابَ، الذين يَحْسُدُون المؤمنينَ على ما آتاهم اللهُ مِن فَضْلِه، مبيِّنًا أنَّهم إن أطاعوهم أخْرَجوهم من الإيمانِ إلى الكُفْرِ، ثُمَّ بَيَّن تعالى أنَّ الكُفْر بعيدٌ منهم؛ فمِن أين يتطرَّقُ إليهم الكُفر، والحالُ أنَّ آياتِ الله تَنْزِل على رسولِه ويتلوها عليهم، وبَيْنَ أَظْهُرِهم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، يُبيِّنُ لهم ما أُنْزِلَ إليهم ويُثبِّتُهم، ثم أرشد اللهُ المؤمنينَ إلى الوسيلةِ التي متى تَمَسَّكوا بها عَصَموا أنفُسَهم مِن مَكْر اليهود وغَيرِهم، وهي الاعتصامُ بالله والتوكُّلُ عليه؛ فهي العُمدة في الهداية، والوسيلةُ إلى الرَّشاد، وطريقُ السَّداد، فمن يلتجِئْ إلى اللهِ في كلِّ أحوالِه، ويتَوَكَّلْ عليه حَقَّ التوكُّلِ، ويتمَسَّكْ بدينه، فقد هُدِيَ إلى الطريقِ الذي لا انحرافَ فيه ولا اعوجاجَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا وبَّخ أهلَ الكتاب على كُفْرهم، وصدِّهم عن سبيل الله- وهو الإسلام- وتَمَّ إيذانُه بالسَّخَط على أعدائِه، وأبلَغَ في إنذارهم عظيمَ انتقامِه إنْ داموا على إضلالهم، وذلك إثْرَ إقامة الحُجَج عليهم، وإزالة شُبُهاتهم- ناسَب أنْ يُخاطِب المؤمنين مُحذِّرًا إيَّاهم من الاغترارِ بالمُضلِّين، ومُبيِّنًا لهم أنَّ مَن كان هذا شأنَهم في الكُفْر، لا ينبغي أن يُطاعوا، ولا أن يُسمَع لهم قولٌ، فإنَّهم دُعاة الفِتْنة وروَّاد الكُفْر[1]، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، إذا أَطعْتم تلك الفئةَ من أهلِ التَّوراة والإنجيل، الحريصةَ على ردِّكم إلى الكُفْر، التي تَسعى جاهدةً بكلِّ ما تَستطيع، وتبذُل محاولاتٍ مُضنِيةً في سبيل ذلك، فقَبِلتم منهم ما يأمرونكم به؛ فإنَّكم ستُحقِّقون لهم ما يَبْتغون بإخراجِكم من الإيمانِ إلى الكفر[2].

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣١-٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠-٥٧٢).

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾.

أي: كيف تَرتدُّون عن إيمانكم- أيُّها المؤمنون- ومعكم ما يُثبِّتكم عليه، ويمنعكم من الارتداد عنه، وهو القرآنُ الذي تُقرأُ عليكم آياتُه، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الذي بين أَظْهُركم؛ إذ يُبلِّغه ويُبيِّنه لكم؛ فإنَّ الإيمانَ إذا تَغلَغل في شَغافِ القلب لا يَخرُج منه بإذن الله تعالى[1].

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي: إنَّ مَن يتعلَّق بأسباب الله، مُتمسِّكًا بدِينِه، مُتوكِّلًا عليه، فقد وُفِّق لطريقٍ واضحٍ غير مُعوجٍّ، فيستقيمُ به حتى يُوصِلَه إلى رِضوان الله، وإلى النَّجاة من عذابِه، والفوزِ بجنَّته سبحانه[2].

الفَوائدُ التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الحذرُ من طاعةِ أهل الكتاب، والتَّلقِّي عنهم، واقتباسِ مناهجِهم وأوضاعِهم؛ فهم يُحاوِلون غايةَ المحاولة أنْ يردُّوا المؤمنين عن إيمانهم إلى الكُفْر؛ وذلك لِمَا انطوتْ عليه نفوسُهم من غِلٍّ وغِشٍّ وحسَدٍ وبُغْض للمؤمنين، فالمؤمنون إنْ لانُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٣-٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٣-٥٧٥).

قال أبو حيان: (الرَّسول هنا: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم بلا خلافٍ) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٤-٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦).

وقَبِلوا منهم قولَهم أدَّى ذلك حالًا بعد حال إلى أنْ يعودوا كُفَّارًا(١).

٢- معرفةُ فضْلِ الصحابة بالمَنْقبة العظيمة، والمِنَّة الجليلة، وهي وجودُ هذا الرسول العظيم عليه الصَّلاة والسَّلام بينهم، ومشاهدةُ أنواره؛ فكان وجودُه عِصْمةً من ضلالهم، تلك المَزيَّة التي فاز بها الصَّحابةُ المخاطَبون بهذه الآية ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فيه أنَّ الاعتصامَ بالله تعبُّدًا واستعانةً، والامتناعَ بقوَّته ورحْمته عن كلِّ شَرٍّ، والاستعانةَ به على كلِّ خيرٍ هو العمدةُ في الهداية، والعُدَّةُ في مُباعدةِ الغَواية، والوسيلةُ إلى الرَّشاد، وطريق السَّداد، ومُوصِل لصاحبه إلى غاية المرغوب(٣).

٤- أنَّ التَّمسُّك بكتابِ الله تعالى وسُنَّة رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والإقبال عليهما أعظمُ مانعٍ يَمْنع من الكُفْر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٤).

٥- قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ فإذا كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد اسْتوفَى أجلَه، واختار الرَّفيقَ الأعلى، فإنَّ آياتِ الله باقيةٌ، وهُدَى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باقٍ، ونحن اليومَ مُخاطَبون بهذا القرآنِ كما خُوطِب به الأوَّلون، وطريقُ العصمة بيِّن، ولواءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٠٩)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص:١٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٤).

العصمة مرفوعٌ: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فالاعتصامِ بالله يَعصِم، واللهُ سبحانه هو الحيُّ القيوم[١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- النِّداء في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، مُوجَّه للمؤمنين من بابِ الإغراء؛ لقَبُولِ ما يأتي تصديقًا به إنْ كان خبرًا، وامتثالًا له إنْ كان طلبًا (أمرًا ونهيًا)؛ لأنَّ وصْفَهم بالإيمان يَقتضي أنْ يقوموا بمقتضى هذا الخِطاب الموجَّه لهم[٢].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فيه تَفضُّلُ الله على المؤمنين بأنْ خاطَبهم بغير واسطة؛ فلم يأتِ بلفظ (قُلْ)؛ ليكون ذلك خِطابًا منه تعالى لهم وتأنيسًا لهم، بخلافِ خِطابه لأهلِ الكِتاب؛ إذ قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾[٣].

٣- في قولِ الله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ أَطلَق الطواعيةَ لتَدلَّ على عمومِ البَدل، أي: إن يَصدُر منكم طواعيةٌ ما في أيِّ شيءٍ كان ممَّا يُحاوِلونه من إضلالِكم[٤].

٤- في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾؛ أَبرَز نهيَه عن موافِقتهم وطواعيتِهم في صورةٍ شَرْطيَّة؛ لأنَّه لم تَقَع طاعتُهم لهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَلاغَةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صُدِّر هذا الحُكمُ بالنِّداء، وتصديرُ الحُكْم بالنِّداءِ يتضمَّن تنبيهَ المُخاطَب، والتَّنبيهُ لا يكون إلَّا لأمرٍ مُهمٍّ تَجِب العنايةُ به(١).

٢- قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: استفهامُ إنكارٍ وتعجُّب؛ لكُفْرهم في حالِ اجتمَعت لهم الأسبابُ الدَّاعية إلى الإيمان الصَّارِفة عن الكُفْر(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾:

- فيه تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلى المؤمنين؛ تحذيرًا لهم عن طاعة أهلِ الكتابِ، والافتتانِ بفِتْنتهم، إثْرَ توبيخِهم بالإغواء والإضلالِ؛ ردْعًا لهم عن ذلك، وتعليقُ الردِّ بطاعة فريقٍ منهم؛ للمُبالَغة في التَّحذير عن طاعتِهم، وإيجابِ الاجتنابِ عن مصاحبتهم بالكُليَّة؛ فإنَّه في قوَّةِ أنْ يُقال: لا تُطيعوا فريقًا... إلخ(٣).

- وقوله: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: فيه تأكيدٌ لِما أفادَه قوله: ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾، والقصدُ من التَّصريحِ به توضيحُ فواتِ نِعمةٍ عظيمةٍ كانوا فيها لو يَكفُرون(٤).

٤- قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ جاء جوابُ الشَّرط ﴿هُدِيَ﴾ بصيغة الماضي، و﴿قَدْ﴾ المحقِّقة؛ إشارة إلى أنَّ مَن يلتجئ إلى الله تعالى ويَعتصِم بحبْله، فقدْ تَحقَّقت هِدايتُه، وثَبَتت استقامتُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨).

سابقًا وواقعًا، سابقًا في اللَّوح المحفوظ، وفي الكتابةِ حينما تُنفَخ فيه الرُّوح في بطن أُمِّه، وواقعًا؛ لأنَّه اعتَصَم بالله[1].

- وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: فيه حذْف الفاعلِ؛ ليشملَ كلَّ الهُداة؛ وذلك لتعدُّد طُرُق الهِداية، فأعْلى الهُداة الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام، ثمَّ وَرَثةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهم العلماءُ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٥).

الآيات (١٠٢ - ١٠٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿فَأَلَّفَ﴾: جمَع، وأوْقَع الأُلْفة، والإلفُ: اجتماعٌ مع التِئام، وأصلُه: انضمامُ الشَّيءِ إلى الشَّيء[١].

﴿شَفَا حُفۡرَةٖ﴾: أي: حَرْفِ حُفرة؛ فشفَا الشيءِ: حرْفُه، ومنه: أَشْفَى على كذا: إذا أشْرَف عليه[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر الله عبادَه المؤمنين بتقواه قَدْر الاستطاعةِ، وأنْ يُداوِموا على التَّمسُّك

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

بهذا الدِّين إلى أنْ يأتيَهم الموتُ وهم على ذلك.

كما يأمُرُهم سبحانه بالاجتماعِ والأُلْفة على كلمةِ الحقِّ، وألَّا يفعلوا ما يَدْعوهم إلى الفُرْقة.

وأمَرهم أيضًا أن يَذْكروا ما أَنعَم به عليهم من الاجتماعِ على دِين الإسلام، حتى صاروا بهذه النِّعمة إخوانًا، وقد كانوا مِن قَبْلِ اعتناقهم له أعداءً مُتقاتِلين، وذكَّرهم الله سبحانه أيضًا أنَّهم كانوا على وَشْكِ أنْ يقعوا في النَّار فأنقَذهم منها، كذلك يُوضِّح اللهُ لهم آياتِه؛ لأجْل أنْ تَحصُل لهم الدَّلالةُ على طريقِ الحقِّ والتَّوفيق لسُلوكه.

ثم يأمُر اللهُ عِبادَه المؤمنين أنْ يكون منهم جماعةٌ تقوم بالدَّعوة إلى دِين الله، ويأمرون الناسَ بما أمَرهم به الشَّرع، ويَنْهَوْنهم عن فِعْل ما نهاهم عنه الشَّرع، وأولئك هم المفلِحون.

ونهاهم أنْ يَتفرَّقوا في دِينهم كتَفرُّق الذين من قَبْلهم: كاليهود، والنَّصارى، الذين اختَلَفوا في دِينهم بعد أنْ جاءتهم البيِّناتُ التي تمنعهم مِن التفرُّق، وأولئك لهم عذابٌ من عند الله عظيم، وذلك في يوم تكونُ فيه وُجوه أهلِ السَّعادة بيضاءَ، بينما تَسْودُّ وجوه أهلِ الشَّقاوة. فأمَّا أصحابُ الوجوه المُسودَّة، فيُقال لهم توبيخًا: أَكفَرتم بعد إيمانكم؟! فذوقوا عذابَ الله بسبب كُفْركم، وأمَّا مَن ابيضَّت وجوههم، فهُم في رحمة الله، بما أَعدَّه الله في جنَّاته مِن أنواع النَّعيم، ماكِثين فيه أبدًا.

ثُمَّ خاطَب الله نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ تلك الآياتِ التي تقدَّمت نقرؤها عليك بالحقِّ، والله تعالى لا يَظلِم أحدًا مِن خلْقه مُطلَقًا، وله وحده جميعُ ما في السَّموات والأرض، وإليه تُرجَع جميع الأمور.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حذَّر الله تعالى المُخاطَبِين من الانخداع لوَساوس بعض أهل الكتاب، حرَّضهم على تَمامِ التَّقوى؛ لأنَّ في ذلك زيادةَ صلاحٍ لهم، ورُسوخًا لإيمانِهم[1]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون ابذُلوا كلَّ جَهْدكم وطاقتكم؛ لتَمتَثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ وتَجتنِبوا نواهيَه، ولتُحقِّقوا تقوى الله تعالى الاتِّقاءَ الحقَّ الواجبَ الثابتَ بقَدْرِ ما تستطيعون[2].

كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: داوِموا في حياتِكم على التَّمسُّك بدِين الإسلام، وحافِظوا عليه حتى يأتيَكم الموتُ وأنتم على ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١، ١٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٨).

قال ابن أبي حاتم: (عن عبد الله: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: أنْ يُطاع فلا يُعصى، وأنْ يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر... ورُوي عن مُرَّة الهَمْداني، والربيع بن خُثَيم، وعمرو ابن ميمون، والحسن، وطاوس، وقتادة، وإبراهيم النَّخَعي وأبي سِنَان، والسُّدِّي نحو ذلك) ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٨٩).

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى عبادَه المؤمنين بالتَّقوى، أمَرَهم بما يُعِينهم عليها، وهو الاجتماعُ والاعتصامُ بدِين الله[1]، فقال تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

أي: تَمسَّكُوا بدِينه، وعهْدِه إليكم بالأُلفةِ والاجتماعِ على كلمةِ الحقِّ، ولا تَرتكِبوا ما يُفرِّق جمْعَكم عن هذا الدِّين والعَهْد[2].

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ يرضَى لكم ثلاثًا، ويَكرهُ لكُم ثلاثًا، فيَرضَى لكُم: أنْ تَعبدوهُ، ولا تُشرِكوا به شيئًا، وأنْ تَعتصِموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تَفرَّقوا، ويَكرهُ لكم: قيلَ وقالَ، وكثرةَ السُّؤالِ، وإضاعةَ المالِ))[3].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٤٣، ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٩، ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٤- ٥٩٥).

(٣) رواه مسلم (١٧١٥).

عن زَيدِ بن أَرْقمَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ألَا وإنِّي تَارِكٌ فيكم ثَقَلَين: أحدُهما كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ، هو حبلُ اللهِ، مَن اتَّبعه كان على الهُدى، ومَن ترَكهُ كان على ضلالةٍ..)) الحديث[1].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

أي: اذكُروا بقلوبِكم وألْسنتِكم- أيُّها المؤمنون- ما أَنعَم الله تعالى به عليكم من الأُلْفةِ والاجتماعِ على دِين الإسلام، فقد كنتُم من قبلِ اعتناقِكم الإسلامَ أعداءً مُتفرِّقين، يُقاتِل بعضُكم بعضًا، في غيرِ طاعةِ الله تعالى، فجَمع الله عزَّ وجلَّ بالإسلامِ قلوبَكم، فجعَل بعضَكم لبعضٍ إخوانًا مُتحابِّين، بلا ضغائنَ ولا أحقادٍ بينكم[2].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

عن عبدِ الله بن زيد رضِي اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا أفاءَ اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ حُنينٍ، قَسَمَ في النَّاسِ في المؤلَّفةِ قلوبُهم، ولم يُعطِ الأنصارَ شيئًا، فكأنَّهم وجَدوا[3] إذ لم يُصِبْهم ما أصابَ النَّاسَ، فخطَبهم فقال: يا معشرَ الأنصارِ، ألمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكنتم مُتفرِّقين فألَّفكم اللهُ بي،

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٤٩-٦٥١، ٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٥).

(٣) وَجَدوا: أي: غضِبوا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٥٥).

وكنتم عالةً[١] فأغْناكم اللهُ بي؟! كلَّما قال شيئًا، قالوا: اللهُ ورسولُه أَمَنُّ ...)) الحديث[٢].

وفي روايةٍ أخرى قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((يا معشرَ الأنصارِ، ألمْ أَجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي، ومُتفرِّقينَ فجمَعكم اللهُ بي؟!))[٣].

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

أي: كنتُم- أيُّها المؤمنون- قبلَ اجتماعِ قلوبِكم على الإسلام، على وَشْكِ الوقوع في النَّار، إذ لم يَبقَ بينكم وبينها إلَّا أنْ تموتوا على كُفْركم، فأَنقَذَكم اللهُ تعالى منها بِهدايتِكم إلى الإسلام[٤].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: بمِثْل هذا الوضوحِ الذي بيَّن الله تعالى به ما تَقدَّم من الآيات الدَّالَّات على الحقِّ القويم، يُبيِّن أيضًا بوضوحٍ بقيَّة الآيات الأخرى؛ لأجْل أن تَحصُل لكم بها الدَّلالةُ على طريق الحقِّ، وتُوفَّقوا لسُلوكه[٥].

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

في الآياتِ المتقدِّمةِ عاب اللهُ تعالى أهلَ الكتاب على شَيئينِ أحدهما: أنَّه

(١) عَالة: جمْع عائِل، وهو الفقيرُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٣).

(٢) رواه البخاري (٤٣٣٠).

(٣) رواه مسلم (١٠٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٥٧-٦٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٩- ٦٠٠).

عابَهم على الكُفْر، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾، ثُمَّ بعد ذلك عابَهم على سَعْيهم في إلْقاء الغيرِ في الكُفْر، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فلمَّا انتَقَل منه إلى مخاطبة المؤمنين، أمَرَهم أوَّلًا بالتَّقوى والإيمان، فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، ثم أمَرهم بالسَّعي في إلْقاء الغيرِ في الإيمان والطَّاعة[1]، فقال:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾.

أي: لتوجدْ منكم- أيُّها المؤمنون- فِرْقةٌ مُتصدِّيةٌ للقيام بشأنِ الدَّعوة إلى دِين الله تعالى وبيانِ شرائعِه، وقائمةٌ بواجب أمْر النَّاس بامتِثال ما أمرهم به الشَّرع، ونَهْيِهم عن ارتكابِ ما نهاهم عنه الشَّرع؛ فإنَّ المتَّصِفين بهذه الصِّفات هم الفائزون في الدَّارينِ بما يَرْغَبون، والنَّاجون فيهما ممَّا يَرهَبون[2].

عن حُذيفةَ بن اليَمان رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((والذي نَفْسي بيدِه لتَأمرُنَّ بالمعروفِ، ولتَنهوُنَّ عن المُنكرِ، أو ليُوشِكَنَّ اللهُ أن يَبعثَ عليكمْ عقابًا منهُ فتدعونهُ فلا يَستجيبُ لكمْ))[3].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٠-٦٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١، ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢، ٩٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥-٨).

(٣) رواه الترمذي (٢١٦٩)، وأحمد (٢٣٣٤٩)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (٢٠١٩٩). حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧١٥)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢١٦٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

مُناسبةُ قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ...﴾ بعدَ قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ...﴾ أنَّ الأمَّةَ إذا تَركتِ الدَّعوةَ إلى الخيرِ والأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر فلا بدَّ أنْ تتفرَّق؛ لأنَّه لا يكونُ لهم في هذه الحالِ كلمةٌ جامعةٌ؛ إذ كلُّ واحدٍ يُريد أنْ يعملَ على هواه، فالنُّفوسُ لها نزعاتٌ متباينةٌ(١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ تعالى بالأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، وذلك ممَّا لا يَتِمُّ إلَّا إذا كان الآمرُ بالمعروف قادرًا على تنفيذ هذا التَّكليف، ولا تَحصُل هذه القُدْرةُ إلَّا إذا حصلتِ الأُلْفةُ والمحبَّةُ بين أهل الحقِّ والدِّين، لا جَرَم حذَّرهم اللهُ تعالى من الفُرْقة والاختلاف؛ لكي لا يصيرَ ذلك سببًا لعَجْزهم عن القيامِ بهذا التَّكليف(٢)، فقال:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

أي: لا تكونوا- يا معشرَ المؤمنين- مُتفرِّقين في دِينكم، كما تَفرَّق الذين مِن قبلكم، كاليهودِ والنَّصارى الذين اختَلَفوا في دِينهم، فأصبحوا أحزابًا مختلفةً، وذلك مِن بعد ما جاءتْهم دلائلُ الحقِّ الواضحات، وعلِموا الحقَّ المبين، فوقَعوا في مُخالفته عامدين، وعلى اللهِ تعالى مُتجرِّئين(٣).

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: لهؤلاء عذابٌ من عند الله عظيمٌ؛ فلا تكونوا مِثْلهم؛ فيكونَ لكم من عِقابِ الله مِثْلُ الذي لهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨-١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى العذابَ العظيمَ الذي سيقَع على مَن تفرَّقوا في دِينهم شيعًا بعد مجيءِ الحقِّ وظهورِه لهم، بيَّن هنا موعدَ مجيء ذلك العذاب[١]، فقال:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

أي: إنَّ أولئك لهم عذابٌ عظيمٌ في اليومِ الذي تكونُ فيه وجوهُ أهل السعادةِ بيضاءَ، وهم الذين اعتَصَموا بحبلِ الله جميعًا، وائتلَفوا بينهم، وتكونُ فيه وجوهُ أهلِ الشَّقاوة سوداءَ، وهم الذين تَفرَّقوا بعدَ ظهورِ البيِّنات لهم[٢].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين اسودَّت وجوهُهم، يُقال لهم توبيخًا وتقريعًا: أكفرتُم بعد توحيدِ الله تعالى وعهْدِه الذي أخَذه عليكم بألَّا تُشرِكوا به شيئًا[٣]؟!

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي: فذوقوا إذَنْ عذابَ الله تعالى؛ بسببِ كُفْركم هذا[٤].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾.

أي: أمَّا أولئك الذين قد ابيضَّتْ وجوهُهم فهُمْ يتقلَّبون في رحمةِ الله تعالى

= (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩-١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٢-١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥-٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٤-٦٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٧-٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩-٣٠).

بما أعدَّ لهم في جنَّته من أنواعِ النعيم، ماكثين فيه أبدًا بغير نهاية[١].

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: تلك الآياتُ التي تقدَّمت، ومنها ما ذكره الله تعالى من ثوابِ المؤمنين وعذابِ الكافرين، نقرؤها عليك- يا محمَّدُ- بالصِّدق المُطابِقِ للواقع؛ صِدقًا في أخبارها، وعدْلًا في أحكامها[٢].

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يَظلمُ أحدًا مُطلقًا؛ لأنَّه غيرُ مريدٍ للظُّلم سبحانه، ومِن ذلك أنَّه لا ينقص أحدًا شيئًا من الحَسنات، ولا يَزيدُ على أحدٍ شيئًا من السَّيِّئات[٣].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّه غيرُ مُريدٍ للظُّلم، بيَّن هنا أنَّه لا يَحتاجُ إلى ظُلْم أحدٍ مِن خلْقه[٤]؛ لأنَّه إذا كان له ما في السَّموات وما في الأرض، فهو يُريد صلاحَ حالهم، ولا حاجةَ له بإضرارهم إلَّا للجزاءِ على أفعالهم؛ فلا يريد ظُلمَهم[٥]، لذا قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٤-٦٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٧-٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢-٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٧).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو وحْده المالكُ لِجميع مَا في السَّموات وما في الأرض، والخالقُ الرازقُ المدبِّر(١).

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

أي: هو الذي يتصرَّفُ في شؤون عبيدِه، والحاكمُ عليهم في الدُّنيا والآخرة، ومن ذلك رجوعُ النَّاس إليه يومَ القيامة؛ ليُجازيَهم بأعمالهم؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ(٢).

الفَوائِد التربويَّة:

١- قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾، توجيه النِّداء إلى المؤمنين يُشير إلى أنَّ التَّقوى من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّه إذا نُودي الإنسانُ بوصْف، فإنَّه يزدادُ وصْفُه هذا بحسب زِيادتِه فيما وُجِّه إليه(٣).

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فيه أنَّ على العبادِ البقاءَ على الإسلام والتَّمسُّكَ به، والمحافظةَ عليه في حال الصِّحَّة والسَّلامة حتى يُوافيَهم الموتُ وهم عليه؛ فالمَدار على الخاتِمة(٤)؛ فالموتُ غيبٌ لا يَدري إنسانٌ متى يُدرِكه، فمَن أراد ألَّا يموتَ إلَّا مسلمًا فسبيلُه أنْ يكون منذ اللحظةِ مسلمًا، وأنْ يكون في كلِّ لحظة مسلمًا(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٦٩-٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩١).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٢).

٣- وجوبُ الاجتماعِ على شَرْع الله تعالى؛ فقد وضَعَ الله تعالى لنا بفضله ورحْمته قاعدةً نَرجِع إليها عند تَفرُّقِ الأهواءِ واختلافِ الآراء، وهي الاعتصامُ بحبله، بالتَّحاكمِ إلى شرْعِه؛ قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[1].

٤- تذكير العبادِ نعمةَ الله تعالى في الأمور الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، بقلوبِهم وألْسنتهم؛ ليَزدادوا شكرًا له ومحبَّة، وليَزيدَهم من فضْله وإحسانه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ...﴾[2]، والتَّذكير بنِعْمة الله تعالى طريقٌ من طُرُق مواعظ الرُّسل[3].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾ الحرصُ على الاجتماع والحَذَر من التَّفرُّق؛ فالاجتِماعُ والائتلافُ مِن أعظمِ الأمورِ التي أوْجبَها اللهُ ورسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، فمِن أكبرِ نِعَم الله على الأُمَّة أنْ يؤلِّف بين قلوبِها بالاجتماعِ وعدم الفُرْقة؛ فاجتماعُ الأُمَّة الإسلاميَّة عِصمةٌ لها، وفي التَّفرُّقِ زوالُ الوَحْدة التي هي مَعقِدُ العزَّة والقوَّة[4].

٦- في قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ... فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ ركيزتانِ تقوم عليهما الجماعةُ المسلمةُ، وتؤدِّي بهما دورَها الشاقَّ العظيم: ركيزةُ الإيمان والتقوى أولًا؛ التقوى التي تبلغُ أنْ تُوفي بحقِّ الله الجليل، التقوى الدائمةُ اليقِظة التي لا تَغفُل ولا تَفتُر لحظةً من لحظاتِ العُمر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:١٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢-٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٣٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٧-١٨، ٢٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٠٣).

حتى يبلغَ الكتابُ أجَلَه. وأمَّا الركيزةُ الثانية فهي ركيزةُ الأُخوَّة: الأُخوة في اللهِ، على منهجِ الله؛ لتحقيقِ منهج الله[١].

٧- الدَّعوةُ إلى سَبيلِ الله تعالى وإرشادُ الخَلْقِ إلى دِينه وظيفةٌ ضروريَّة لإقامةِ منهجِ الله في الأرض، ولتغليبِ الحقِّ على الباطل، والمعروفِ على المُنكَر، والخيرِ على الشرِّ؛ فلا بدَّ من جماعةٍ تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المُنكَر، وإنْ كان ذلك واجبًا على كلِّ فردٍ من الأُمَّة بحسَبه، وهؤلاء هم المفلحون الرَّابحون إذا خسِر النَّاسُ؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾[٢].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ قوله: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ﴾ والموت لا يُنهى عنه؛ لأنَّه غيرُ داخلٍ تحتَ قُدرة المكلَّف، فيتعيَّن حمْلُه على السببِ الذي يَقتضي حصولَ الموت على الإسلام، وهو تقديمُ الإسلامِ قبلَ ذلك، والثباتُ عليه، فيأتي الموت حينئذٍ والعبدُ على الإسلام، والقاعدةُ في مِثل هذا تقول: إذا كان مُتعلِّقُ الخطابِ مقدورًا حُمِلَ عليه، وإنْ كان غيرَ مقدورٍ عليه صُرِفَ الخطابُ إلى ثمرتِه أو سببِه، وهنا حُمِل على السَّبب[٣].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، في الآية دليلٌ على أنَّ الأمْرَ بالشَّيء يَستلزِمُ النَّهيَ عن ضدِّه[٤].

٣- قول الله تعالى: ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يَقُل (بينكم)؛ لأنَّ الائتلافَ في

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص:١٤٢)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٤٨٢).

القلوب، وهذا هو الذي عليه المدارُ؛ فكم مِن أُمَّةٍ ائتلفتْ بأجسامها وقلوبها مُتفرِّقةٌ! كما قال الله تعالى عن اليهود: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾(١) [الحشر: ١٤].

٤- في قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الردُّ على أهلِ البِدع الذين حرَّفوا نُصوصَ الكتاب والسُّنَّة إلى معانٍ لا يدلُّ عليها ظاهرُها، دونَ بيانٍ مِن الله ورسولِه، فتصيرُ هذه النُّصوصُ مبهمةً، وبناءً على طريقتِهم هذه لا يكونُ القرآنُ هدًى ولا بيانًا للنَّاس، وهو خلافُ ما تدلُّ عليه هذه الآيةُ(٢).

٥- في قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إثبات العِللِ في أفعال الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ (لعلَّ) للتَّعليل(٣).

٦- قول الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ لا إلى أنفسِهم؛ ففيه ملاحظةُ الإخلاص؛ لأنَّ بعضَ النَّاس يدعو إلى نَفْسه لا إلى الخيرِ(٤).

٧- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾، فيه أنَّ الاختلافَ المنهيَّ عنه هو ما كان ناشئًا عن التَّفرُّق لا كلُّ اختلافٍ(٥).

٨- في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ قُدِّم الافتراقُ على الاختلاف؛ للإيذانِ بأنَّ الاختلافَ عِلَّةُ التَّفرُّق، وهذا من المفادات الحاصلةِ من ترتيب الكلامِ، وذِكْر الأشياء مع مُقارناتها(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٠٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٠٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٤٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٣).

٩- قول الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ يُفيد أنَّ الإنسان لا يُؤاخَذ على تَرْك الحقِّ، أو اتِّباع الباطل إلَّا إذا بُيِّن له ذلك حتى يَتبيَّن، أو صار بحيث تَبيَّن له لو نظَر فيه، والجهلُ ليس بعُذْر بعدَ البيان[1].

١٠- قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ فيه تمثيلُ حال التَّفرُّق في أبشعِ صُورِه المعروفةِ لديهم من مطالعة أحوالِ اليهود، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ تَرْك الأمْر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر يُفضي إلى التَّفرُّق والاختلاف؛ إذ تَكثُر النَّزَعات والنَّزَغات، وتَنشقُّ الأُمَّة بذلك انشقاقًا شديدًا[2].

١١- قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، فيه أنَّ المكلَّف إمَّا مؤمن وإمَّا كافر، وأنَّه ليس هاهنا مَنزِلةٌ بين المنزِلتين كما يذهب إليه المُعتزِلة، فإنَّ الله تعالى قسَّم أهلَ القيامة إلى قِسْمين: منهم مَن يَبيضُّ وجهُه وهم المؤمنون، ومنهم مَن يسودُّ وجهُه وهم الكافرون، ولم يذكر ثالثًا، فلو كان هاهنا قِسْمٌ ثالث لذكَره الله تعالى[3].

١٢- في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إشعار بأنَّ جانب الرَّحمة أغلب وذلك من وجوه:

الأول: أنَّه لم يَنصَّ تعالى على خُلُود أهل النَّار في هذه الآية، مع أنَّه نصَّ على خُلُود أهل الجنَّة؛ وذلك إشعارًا بأنَّ جانب الرَّحمة أغلب.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٨).

الثاني: أنَّه لَمَّا ذكَر العذابَ لم يُضِفْه إلى نَفْسه، وذكَر الرحمة مُضافةً إلى نَفْسه.

الثالث: أنَّه لَمَّا ذكَر العذابَ علَّله بفِعْلهم، ولَمَّا ذكَّر الثوابَ علَّله برحمتِه[1].

١٣- لو لم يقُلْ الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لكان الوعيدُ مختصًّا بمَن كفَر بعد إيمانِه، فلمَّا ذكَر هذا ثبَتَ الوعيدُ لِمَن كفَر بعد إيمانه، ولِمَن كان كافرًا أصليًّا[2].

١٤- قول الله تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ (في) للظَّرفية، فرحمةُ الله هنا ليستِ الرَّحمة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾؛ لأنَّ هذه صِفة الله، أمَّا في قوله تعالى ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ فهي مخلوقُ الله، والمُراد بها: الجنَّة، فالرَّحمةُ تُطلَق على غير صِفة الله، بل على مخلوقاتِه، ويَمتنِع أنْ يكون المراد بها الصِّفة؛ لأنَّ الصِّفة لا تكون ظرفًا للبشر، وإذا امتنع أنْ تكون ظرفًا للبشر امتنع أنْ يُراد بالرحمة هنا الرَّحمة التي هي صفةٌ لله تعالى، بل هي الرَّحمةُ المخلوقة لله، وأُطلِق عليها اسمُ الرَّحمة؛ لأنها كانت برحمة الله يَرحَم الله بها مَن يشاء من عباده[3].

١٥- قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾؛ فيه أنَّ مَن كان وكيلًا عن الغير، فله حُكْمُ ذلك الذي وكَّله؛ لأنَّ الله أضاف التِّلاوة إليه مع أنَّ التَّالي رسوله، فدلَّ هذا على أنَّ حُكْم ما نفَّذه الرَّسول بما أُرسِل به حُكْم ما قاله المُرسِل[4].

١٦- قول الله تعالى: ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾؛ فيه أنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى؛ لأنَّ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢).

تعالى أضافه إلى نَفْسه، وما أُضيفَ إلى الله، ولم يكُن عينًا قائمةً بنفْسها، فهو من صفاتِه[١].

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يُفيد أنَّ مَن حاوَل أن يُشرِّع للخَلْق شيئًا سِوى ما شَرَعه الله، فقد جعَل نَفْسَه شريكًا مع الله، ووجْه ذلك: أنَّ الله حصَر مَرجِع الأمور إليه[٢].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾:

- فيه تكريرُ الخِطابِ بعُنوان الإيمانِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهو تشريفٌ إثرَ تَشريفٍ[٣].

- وتصديرُ الآيةِ بالنِّداءِ يُشعِر بالعِنايةِ، والاهتمام بالتَّقوى[٤].

- وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: فيه النَّهيُ عن شيءٍ وإرادةُ النَّهيِ عن لازِمه؛ إذ النَّهيُ عن الموتِ على حالةٍ في الدِّين إلَّا على حالة الإسلام، مقصودٌ منه النَّهيُ عن مُفارَقة الدِّين؛ بالإسلام مدَّةَ الحياة؛ لأنَّ ساعة الموت أمرٌ غير معلوم؛ فالنَّهيُ عن الموت على غير الإسلام، يَستلزِم النَّهيَ عن مُفارَقة الإسلام في سائرِ أحيان الحياة، ولو كان المرادُ به معناه الأصلي، لكان ترخيصًا في مُفارَقة الإسلام إلَّا عندَ حضورِ الموت، وهو معنى فاسدٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠-٣١).

- ومجيءُ جملة ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ اسميَّةً أبلغُ؛ لتكرُّر الضَّمير، وللمُواجهة فيها بالخِطاب(١).

٢- **قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾** فيه تمثيلٌ لهيئة اجتماعِهم، والتفافِهم على دِين الله ووصاياه وعهوده بهيئةِ استمساكِ جماعةٍ بحبل أُلقي إليهم من مُنقِذٍ لهم؛ مِن غرَقٍ أو سقوطٍ، فشبَّه الوثوقَ بالله، والاعتمادَ على حمايتِه، بحالِ مَن يُمسِك بحبلٍ وثيقٍ، وقد تدلَّى من مكانٍ عالٍ، فهو آمنٌ مِن انقطاعِه وانبتاتِه(٢).

- قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ تأكيدٌ لمضمون (اعتصموا جميعًا) ... وقد يكون قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أمرًا ثانيًا؛ للدَّلالة على طلبِ الاتحاد في الدِّين، وقد يُؤكَّد الشيءُ بنفْي ضِدِّه، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(٣) [الأنعام: ١٤٠].

٣- **قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:**

- فيه تصويرٌ لحَالِهم التي كانوا عليها؛ ليَحصُل من استفظاعها انكشافُ فائدةِ الحالة التي أُمِروا بأنْ يكونوا عليها، وهي الاعتصامُ جميعًا بجامعةِ الإسلام الذي كان سببَ نَجاتهم من تلك الحالة، وفي ضِمنِ ذلك تذكيرٌ بنِعمة الله تعالى، الذي اختارَ لهم هذا الدِّين، وفي ذلك تحريضٌ على إجابةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠- ٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢).

أَمْره تعالى إيَّاهم بالاتِّفاق(١).

- وقوله: ﴿شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾:

- فيه تمثيلُ حياتِهم التي يُتوقَّع بعدَها الوقوعُ في النَّار بالقعودِ على حرْفها، مُشرِفِين على الوقوع فيها؛ إذ لو ماتوا على ما كانوا عليه مِن الكُفْر، لوقعوا في النَّار(٢).

- وفيه تنبيهٌ على تَحقير مُدَّة الحياة؛ فإنَّه ليس بين الحياةِ وبين الموتِ المُستلزِم للوقوعِ في الحُفْرة إلَّا ما بين طرف الشَّيء وبين ذلك الشيء(٣).

- وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾: إشارةٌ إلى مصدرِ الفعل الذي بعده (يُبيِّن)، أي: مِثْل ذلك التَّبيينِ الواضحِ، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذانِ بعُلُوِّ درجة المُشارِ إليه، وبُعدِ منزلتِه في الفضل، وكمالِ تميُّزِه به عمَّا عداه، وانتظامِه بسببه في سَلكِ الأمورِ المُشاهَدة، والكافُ لتأكيدِ ما أفادَه اسمُ الإشارةِ من الفخامة(٤).

٤- قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

- صيغة ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ صِيغةُ وجوب، وهو لتأكيدِ ما كانوا يَفعلونه ووجوبِه؛ لأنَّ ذلك كان حاصلًا بينهم من قبلُ، كما يدلُّ عليه قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفيه زيادةُ الأمرِ بالدَّعوة إلى الخير، وقد كان الوجوب مُقرَّرًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢-٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٩٥-٣٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٧).

من قَبلُ بآياتٍ أُخرى، أو بأوامر نبويَّة؛ فالأمرُ لتأكيدِ الوجوبِ أيضًا؛ للدَّلالة على الدَّوام والثَّبات عليه(١).

- وفيه عطْف الخاصِّ على العامِّ، حيث عطَف الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المُنكَر على الدَّعوةِ إلى الخيرِ، مع اندراجِهما فيها؛ لمزيدِ العِناية بهما، ولإظهارِ فضْلِهما على سائرِ الخيراتِ(٢).

- وفيه: حذْفُ المفعولِ الصريحِ من الأفعال الثلاثة (يَدْعُون- ويأمرون- ويَنْهون)؛ للإيذانِ بظهوره، أي: يدْعون النّاسَ ويأمُرونهم وينهَوْنهم، أو لقصْد إيجاد نفْسِ الفِعْل كما في قولك: فلانٌ يُعطِي ويَمنعُ، أيْ: يفعلون الدعاءَ إلى الخير والأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، أو لقَصْد التَّعميم، أي يَدْعون كلَّ أحد(٣).

- قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: التَّعريف في (الخير- والمعروف- والمُنكَر)- للاستغراق، وهو يُفيد العمومَ في المعاملات بحسب ما يَنتهي إليه العِلْم والمقدِرة، فيُشْبِه الاستغراقَ العُرْفيَّ(٤).

- وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الإشارة بـ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإشعارِ بعلوِّ طبقتِهم، وبُعدِ منزلتِهم في الفضلِ، والإفرادُ في كاف الخطابِ؛ لأنَّ المخاطَب كلُّ مَن يَصلُح للخطاب، أو لأنَّ التعيينَ غيرُ مقصودٍ، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصِّفاتِ الكاملة(٥).

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤-١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤-١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٧- ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٠-٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٨).

٥- قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فيه تأكيدٌ ومبالغةٌ في وعيد المُتفرِّقين، وتشديد في تهديدِ المُتشبِّهين بهم[١]؛ حيث جاءَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّة التي تُفيد تأكيدَ الخبر، وتعريفَ المُسنَد إليه باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ لتَعيُّنه، وبُعد مَنزلته في الشرِّ والفساد[٢]، مع ما في تنكيرِ ﴿عَذَاب﴾ من التَّهويل، والتَّأكيد بوصْفِه بصيغةِ المبالغة فعيل ﴿عَظِيم﴾.

٦- قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾:

- في تعريفِ هذا اليومِ بحُصولِ بياضِ وجوهٍ وسوادِ وجوهٍ فيه: تهويلٌ لأمْره، وتشويقٌ لِمَا يرِدُ بعدَه من تفصيلِ أصحابِ الوجوهِ المبيضَّة، والوجوه المُسودَّة؛ ترهيبًا لفريق، وترغيبًا لفريق آخر[٣].

- وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيه تفصيلٌ لأحوالِ الفَريقينِ بعدَ الإشارةِ إليها إجمالًا، وتقديمُ بيانِ هؤلاء؛ لأنَّ المَقام مقامُ التَّحذيرِ عن التَّشبُّه بهم، مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتَّفصيلِ، والإفضاءِ إلى ختْم الكلامِ بحُسن حال المؤمنين، كما بُدِئ بذلك عند الإجمالِ[٤].

- وقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ...﴾ يُسمِّي علماءُ البلاغةِ هذا النَّوعَ من السِّياق لفًّا ونَشرًا غير مُرتَّب؛ إذ جُعِل النَّشرُ في الآية على غيرِ ترتيبِ اللَّفِّ: فذكَر في اللَّفِّ الابيضاضَ قبل الاسوداد، وذكَر في النَّشرِ حُكْمَ مَن اسودَّت وجوهُهم قبل حُكْم مَن ابيضَّت وجوهُهم، فجعل

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

مَطلَع الكلام ومَقطَعه حليةَ المؤمنين وثوابهم، وأدمَج ذِكْر الآخرين في الأثناء، ونُكْتةُ ذلك: بيان أنَّ المقصودَ من الخَلْقِ الرحمةُ دون العذاب، والتنبيهُ على أنَّ إرادةِ الرَّحمة أكثرُ من إرادةِ الغضبِ(١).

- وقدَّم عندَ وصْف اليومِ ذِكْرَ البياض، الذي هو شعارُ أهل النَّعيم؛ تشريفًا لذلِك اليوم بأنَّه يومُ ظهورِ رحمةِ الله ونِعْمته، ولأنَّ رحمةَ الله سبقَتْ غضبَه، ولأنَّ في ذِكر سِمَة أهلِ النَّعيم عقِب وعيدٍ بالعذاب، حسرةً عليهم؛ إذ يَعلم السامعُ أنَّ لهم عذابًا عظيمًا في يومٍ فيه نعيمٌ عظيمٌ، ثم قدَّم في التَّفصيلِ ذِكرَ سِمَة أهل العذاب؛ تَعجيلًا بمساءتِهم(٢).

- وفيه: تلوينُ الخِطاب، وهو أحدُ أنواعِ الالتفات؛ لأنَّ قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ﴾ غَيبة، و﴿أَكَفَرْتُمْ﴾ مُواجَهة(٣).

- قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾: جاءَ على صِيغة الأمْرِ، والغرَضُ منه الإهانةُ لهم(٤).

- قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: فيه الجمعُ بين صِيغتي الماضي ﴿كُنْتُمْ﴾ والمستقبل ﴿تَكْفُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرارِ كُفرِهم، أو على مُضيِّه في الدُّنيا(٥).

٧- قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فيه تفاوتٌ بديعٌ بين التَّقسيمين؛ حيث جمَع لِمَن اسودَّت وجوهُهم بين التَّعنيفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٣٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

بالقولِ والعذاب، وهنا جعَلَ من ابيضت وجوههم مُستقرِّين في الرَّحمة، فالرَّحمة ظرْفٌ لهم، وهي شاملتُهم، ولَمَّا أخْبَر تعالى أنَّهم مُستقِرُّون في رحمة الله، بيَّن أنَّ ذلك الاستقرارَ هو على سبيلِ الخُلُود لا زوالَ منه ولا انتقال، وأشار بلفظ (الرَّحمة) إلى سابق عِنايتِه بهم، وأنَّ العبدَ وإنْ كَثُرت طاعته لا يدخُل الجنَّة إلَّا برحمة الله تعالى(١).

- وقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن السِّياق، كأنَّه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هُمْ فِيهَا خالدون، لا يَظعَنون عنها ولا يَموتون، وتقديمُ الظرفِ (فيها)؛ للمُحافظة على رؤوس الآي(٢).

٨- قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾:

- قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى الآيات المُشتمِلةِ على تنعيمِ الأبرارِ، وتعذيبِ الكفَّارِ، ومعنى البُعدِ في ﴿تِلْكَ﴾؛ للإيذان بعُلُوِّ شأنِها، وسُموِّ مكانِها في الشَّرف(٣).

- وقوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾: فيه التفاتٌ من الغَيبة إلى التَّكلُّم(٤)، والتَّعبير بنون العظمةِ في ﴿نَتْلُوهَا﴾- مع كون التِّلاوةِ على لِسانِ جبريلَ عليهِ السَّلام-(٥)؛ لإبرازِ كمالِ العناية بالتِّلاوة(٦).

- قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾: تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٩- ٧٠).

(٥) هذا على قِراءة مَن قرأ ﴿نَتْلُوهَا﴾ بنون العظمة، وأمَّا على قراءة (يَتلوها) بالياء، فليس فيها هذانِ الوجهان.

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٦٩- ٧٠).

أبلغِ وجهٍ وآكَدِه؛ فإنَّ تَنكيرَ الظُّلمِ، وتوجيهَ النفيِ إلى إرادتِه بصِيغةِ المضارعِ دونَ نفْسِه، حيث قال: ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ ولم يقل: (والله لا يظلم)، وتَعليقَ الحكمِ بآحادِ الجَمْع المعرَّف (للعالمين)، والالْتِفاتَ إلى الاسم الجليل (الله)، حيث لم يَقُل: (وما نُريد)؛ إشعارًا بعِلَّة الحُكم- كلُّ ذلك بيانٌ لكمالِ نزاهتِه عزَّ وجلَّ عن الظُّلمِ بما لا مزيدَ عليه، أي: ما يُريد فردًا من أفراد الظُّلم لفردٍ من أفراد العالَمين، في وقتٍ من الأوقاتِ، فضلًا عن أنْ يَظلِمَهم؛ فإنَّ المضارعَ كما يُفيد الاستمرارَ في الإثبات يُفيده في النَّفي بحسبِ المقامِ، كما أنَّ الجملةَ الاسميَّة تدلُّ بمعونةِ المقامِ على دوامِ الثُّبوتِ، وعند دخولِ حرفِ النَّفي تدلُّ على دوامِ الانتفاءِ لا على انتفاءِ الدَّوامِ[١].

- وفي سِياق هذه الجُملةِ نوعُ إيماءٍ إلى التَّعريض بأنَّ الكفرَةَ هم الظالِمون؛ حيث ظلموا أنفسَهم بتعريضِها للعذابِ الخالد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢] [يونس: ٤٤].

- قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه تقديمُ الخبر؛ لإفادةِ الحَصْرِ والتَّخصيص، فالآية تُفيدُ انفرادَ مُلْك الله تعالى بذلك، أي: إنَّ الله وحده هو المالكُ لها، لا غيره[٣].

- وأتى بـ(ما) التي لغيرِ العاقل؛ لأنَّهم الأكثرُ فغُلِّبوا، ومِن وجهٍ آخر أنَّه إذا أُريدت الصِّفة، فإنَّه يُعبَّر بـ(ما) بدَلَ (مَن) ولو في العاقل، مِثْل قوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ولم يَقُل: (مَن طاب)؛ لأنَّه لم يَقصِد عينَ الشَّخص العاقل، بل قصَد الوصفَ والجِنسَ والكمَّ، أي: انكحوا ما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥).

طابَ مِن جميلٍ وقبيحٍ وواحدٍ ومُتعدِّدٍ من النِّساء[١].

- وتكريرُ اسمِ الجلالة (الله) ثلاثَ مرَّات في الجُمَل الثلاث: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ بدون إضمار؛ للقصدِ إلى أنْ تكون كلُّ جُملة مُستقِلَّةَ الدَّلالة بنَفْسها، غير مُتوقِّفة على غيرها، حتى تَصلُح لأنْ يُتَمثَّل بها، وتَستحضِرها النُّفوسُ، وتَحْفظها الأسماع[٢].

- قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ الأمور: جمع أمر، وهو مُحلًّى (بأل) فيُفيد العُمُوم، ففيه بيانُ سَعةِ الله تعالى، حيث كانت جميعُ الأمور الدَّقيقة والجليلة تُرجَع إليه[٣].

- وفيه تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَإِلَى اللهِ﴾ على المُتعلِّق ﴿تُرْجَعُ﴾؛ لإفادةِ الحَصْر[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٧- ٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩).

الآيات: (١١٠ - ١١٢)

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾: يُقال: ولَّاهُ دُبُرَه: إذا انهزَم، والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبال، وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيءِ وخلْفُه، ضد القُبُل[١].

﴿الذِّلَّةُ﴾: الصَّغار، وأَصْل الذُّلِّ: الخُضُوع، والاستكانة، واللِّين، وهو ضِدُّ العزِّ[٢].

﴿ثُقِفُوا﴾: أُدرِكوا وأُخِذوا، أو وُجِدوا وظُفِر بهم، وأصلُ الثَّقَف: الحِذْقُ في إدراك الشَّيء وفِعله[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٦).

﴿الْمَسْكَنَةُ﴾: فَقْرُ النَّفْس، من السُّكون والاستكانة، وأصله: الخُضُوع والتَّذلُّل(١).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِب اللهُ أُمَّةَ الإسلام بأنَّهم خيرُ أُمَّة أَخرَجها للنَّاس، وتلك الخيريَّة حازُوها؛ لكونِهم يأمرون بالمعروف ويَنْهون عن المُنكَر، ويُؤمِنون بالله عزَّ وجلَّ.

ولو أنَّ اليهود والنَّصارى آمنوا برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبما جاء به مِن عند ربِّه تعالى، لكان إيمانُهم خيرًا لهم، لكنَّ مَن آمن منهم قِلَّة، والأكثر استمرُّوا على ما هُمْ عليه، ثمَّ يُخبِر الله أُمَّةَ محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ أهلَ الكتاب مهما بلغتْ عداوتُهم لهم، فلن يَضرُّوهم إلَّا أذًى باللِّسان، وإنْ حصَل بينهم وبين المؤمنين قتالٌ يَلوذون بالفِرار، ثم لا يُنصَرون، قد ألْزَمهم الله بالذِّلَّة والصَّغار في أيِّ مكان وُجِدوا فيه، فلا يَستقِرُّون ولا يَطمئنُّون إلَّا بذِمَّة مِن الله، أو بعَهْد من النَّاس، قد استحقُّوا غضَبَ الله، وظهرتْ عليهم آثار الفاقةُ وذُلُّ الحاجة؛ والسببُ كُفْرهم بآيات الله، وقتْلهم الأنبياء ظُلمًا، وما حمَلهم على الكُفْرِ والقتلِ هو عِصيانُهم لله، وتجاوزهم حدودَ ما شرَعه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانتِ الآيةُ السَّابقة وهي قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٠٥).

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أمرًا منه تعالى لهذه الأُمَّة، والأمرُ قد يَمتثِله المأمورُ ويقوم به، وقد لا يقوم به؛ أَخبَر في هذه الآية أنَّ هذه الأُمَّة المحمديَّة قد قامتْ بما أمَرها الله بالقيام به، وامتَثلتْ أمرَ ربِّها، واستحقَّتِ الفضلَ على سائر الأمم[1]، فقال تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أي: أنتم - يا أُمَّةَ الإسلامِ - قد جُعِلتم خيرَ الأمم وأكرمَها على الله تعالى؛ لأسبابٍ أنعَم الله بها عليكم، فتميَّزتُم وفُقْتُم مَن سبقَكم، وكنتم أنفع النَّاس للنَّاس[2].

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

أي: حُزْتم خيريَّتكم بأمركم النَّاسَ بكلِّ ما يأمر به الشَّرعُ، ونهيِكم لهم عن كلِّ ما ينهى عنه الشَّرعُ، ولأنَّكم تُقِرُّون بالله تعالى وجودًا ورُبوبيَّة وأُلوهيَّة وبما له من أسماء وصفات، وتُتْبِعون ذلك بالانقياد لِما أمَر واجتناب ما نهى سبحانه[3].

فجمَعوا بين تكميلِ الخَلْق، والسَّعيِ في منافعِهم بحسَب الإمكان، وبين تكميلِ النَّفْس بالإيمانِ بالله تعالى، والقيامِ بحقوق الإيمان[4].

عن مُعاويةَ بن حَيْدَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّهُ سمِعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٩٣-٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢).

وكان هنا تامَّة، وذهَب إلى ذلك جمْعٌ من المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ١٩٤)، وقيل: (كان) هنا ليستْ دالَّةً على زمان، وإنَّما هي مُبيِّنةٌ لاتِّصافِ المبتدأ بالخبر، وتَحقُّق وجودِه فيه. ينظر ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٦-٦٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين - آل عمران)) (٢/ ٤٨-٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢).

يقولُ في قولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: ((إنَّكم تُتِمُّون سبعينَ أمَّةً، أنتم خيرُها وأكرمُها علَى اللَّهِ))(١).

وعن أَبي هُرَيرَةَ رَضِي اللهُ عنه، أنَّه قال عن قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: (خيرَ النَّاس للنَّاس، تأتون بهم في السَّلاسِلِ في أعناقِهم، حتى يَدخُلوا في الإسلام)(٢).

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

مناسبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا مدَح الله تعالى هذه الأُمَّةَ على تلك الصِّفات التي نالوا بها الخيريَّة من الإيمان بالله تعالى والأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، شرَع في تأنيبِ أهلِ الكتاب، الذين ذمَّهم في آيةٍ أخرى بقوله سبحانه: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٣) [المائدة: ٧٩].

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

أي: ولو آمَن أهلُ التَّوراة والإنجيلِ من اليهود والنَّصارى بمحمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما جاءَهم به من عند اللهِ عزَّ وجلَّ، لاهتَدَوْا، وكان ذلك خيرًا لهم عندَ الله تعالى في دُنياهم، وآخرتهم(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجة (٤٢٨٨)، وأحمد (٢٠٠١٥)، وعبد بن حميد (٤٠٩)، والطبري في ((التفسير)) (٧٦٢٢) بألفاظ متقاربة.
حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ١١٢)، وجوَّده ابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (٢/ ٢٣٢)، وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٧٣): حسن صحيح وله شاهد مرسل رجاله ثقات. وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٣٠١)، وصحَّحه الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١١٣٢).

(٢) رواه البخاري (٤٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٧-٦٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢).

﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: ولكنْ لم يُؤمِنْ منهم إلَّا القليلُ، وأمَّا أكثرُهم فخارجون عن طاعةِ ربِّهم، وخارجون عن دِينِهم، الذي فيه الأمرُ باتِّباع محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانُ صفاته(١).

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

هذا استئنافٌ نشأ عن قولِه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ لأنَّ الإخبارَ عن أكثرِهم بأنَّهم غير مؤمنين يُؤذِن بمُعاداتِهم للمؤمنين، وذلك مِن شأنه أنْ يُوقِع في نُفُوس المسلمين خَشيةً من بأسِهم(٢)، فقال تعالى:

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾.

أي: لن يَضُرَّكم- يا أُمَّة محمَّد- هؤلاء الفاسقون من اليهود والنَّصارى، في دِينِكم ولا في أبدانِكم، وإنَّما غايةُ ما تَلْقَون منهم أَذيَّةَ اللسان، كإسماعِكم كُفْرَهم، ودُعائِهم إيَّاكم إلى الضَّلالة، ولا يَضرُّونكم بذلك(٣).

﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾.

أي: قد ردَّ الله تعالى كيدَهم في نُحُورهم؛ فإنَّهم لو قاتَلوكم لَلَاذُوا بالفِرار، ثم تستمرُّ هزيمتُهم، ويدومُ ذُلُّهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-٩٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٧٨-٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّه لا ينالُ المؤمنين ضررٌ من أهل الكتاب، وأنَّهم لو قاتَلوا المؤمنين لولَّوُا الأدبارَ فِرارًا، فلمَّا أَخبَر عنهم سبحانه وتعالى بهذا الذُّلِّ أَتْبَعه الإخبارَ بأنَّه في كلِّ زمان وكلِّ مكان مُعاملةً منه لهم بضدِّ ما أرادوا، فعوَّضهم عن الحِرصِ على الرِّئاسة إلزامَهم الذِّلَّةَ، وعن الإخلادِ إلى المال ضرْبَ المسكنة عليهم[١]، فقال:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾.

أي: أُلزِم اليهودُ الذِّلَّةَ والصَّغار، فجُعِل ذلك أمرًا محتومًا عليهم، لا يُفارِقهم حيثما وُجِدوا وأينما كانوا، لكنَّهم يَأمَنون على أموالِهم وأنفسِهم وذَراريهم بعهدٍ مِن الله تعالى، وعهدٍ من النَّاس[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨١-٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٢- ٦٥).
قيل: المرادُ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ﴾ أي: بذِمَّة من الله، وهو عقدُ الذمَّة لهم، وضرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام المِلَّة. وهذا اختيارُ ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ١٠٤)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ٩٧٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٤/ ٥٦).
وقيل: المرادُ بقوله سبحانه: ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: أمان منهم ولهم، كما في المُهادَن والمُعاهَد والأسير إذا أمَّنه واحدٌ من المسلمين. وهذا اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ١٠٤).
وقيل المراد: إذا كانوا تحتَ ولاية غيرِهم ونظارتهم أو إذا استنصروا بقبائلَ أو دولٍ أُولي بأس شديد. وهذا اختيارُ السعدي في ((تفسيره)) (ص: ٩٧٢)، وابن عاشور في ((تفسيره)) (٤/ ٥٦)، واختار ابنُ عثيمين أنَّ ظاهر اللفظ العمومُ فيشمل كِلَا القولين. يُنظر: ((تفسير ابن =

﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

أي: قد انصرَفوا مُستحقِّين غضبَ الله عليهم(١).

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾.

أي: كما أُلزِموا قَدَرًا وشرعًا بالذُّلِّ في بَواطِنِهم، عُوقِبوا كذلك ببُدوِّ أَثَرِ الحاجةِ وذُلِّ الفاقةِ على ظَواهِرِهم(٢).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أي: وقعتْ عليهم هذه العقوباتُ المذكورة؛ بسببِ كُفْرِهم الدَّائم بدلائل الحقِّ بغيًا وعِنادًا، وقتْلِهم المستمرِّ لأنبيائه عليهم السَّلام ظلمًا واعتداء(٣).

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

أي: إنَّما حمَلهم على هذا الكُفرِ والقتلِ أنَّهم مُقيمون على معصيةِ الله عزَّ وجلَّ، ومُستمِرُّون في الاعتداء على حدود شَرْع الله تعالى، فهذا الذي أوصَلهم إلى التجرُّؤ على الكفرِ بالله سبحانه، وقتْلِ أنبيائه عليهم السَّلام(٤).

الفَوائد التربويَّة:

١- يَنبغي أن تُدركَ الأمَّةُ المسلمةُ أنَّها خَيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ؛ لتعرفَ

= عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٤-٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٧).

وممَّن فسَّر من السلف ﴿الْمَسْكَنَة﴾ بالفاقة: أبو العالية، والسُّدِّي، والربيع. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٢/ ٧٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٧-٦٨٨))، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٨))، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢).

حقيقتَها وقيمتَها، وتعرفَ أنَّها أُخرجتْ لتكونَ طليعةً، ولتكون لها القيادةُ، بما أنَّها هي خيرُ أمَّة، واللهُ يُريد أن تكونَ القيادةُ للخيرِ لا للشرِّ في هذه الأرض، ومِن ثَمَّ لا يَنبغي للأُمَّةِ المسلمةِ أنْ تَتلقَّى من غيرِها مِن أُمم الجاهليَّة، إنَّما يَنبغي دائمًا أنْ تُعطي هذه الأُممَ ممَّا لديها، وأنْ يكونَ لديها دائمًا ما تُعطيه من الاعتقادِ الصَّحيح، والتصوُّرِ الصَّحيح، والنظامِ الصحيح، والخُلُق الصحيح، والمعرفةِ الصَّحيحة، والعِلم الصَّحيح(١).

٢- في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه فضيلةُ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنَّهما أساسُ خيريةِ الأمَّة وأفضليتها على غيرِها، ومناطُ رِفعتها، وأنَّ خيريَّةَ الأُمَّةِ وفضْلها على غيرِها، تكون بالقيامِ بالأمر بالمعروف والنَّهيِ عن المُنكَر، المُتضمِّن لدعوة الخَلْقِ إلى الله، وجهادِهم على ذلك، ولا توجد الأُمَّةُ وجودًا حقيقيًّا إلا بتوافُر هذه السِّمة، فكلَّما وُجِدتْ هذه الفريضةُ في الأُمَّة وُجِدَ الخيرُ فيها، وكلَّما ضَعُفت فيها ضَعُف الخيرُ(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، العنايةُ بتحقيقِ الإيمان؛ لأنَّه هو الذي يضع الميزانَ الصَّحيح للقِيَم، والتَّعريفَ الصَّحيح للمعروف والمُنكَر، والتَّصوُّرَ الثَّابت للخير وللشرِّ، والفضيلة والرَّذيلة، ثمَّ لا بدَّ من الإيمان أيضًا؛ ليَملِكَ الدُّعاةُ إلى الخير، الآمِرون بالمعروف، النَّاهون عن المنكَر، أنْ يَمضوا في هذا الطَّريقِ الشاقِّ، ويَحتمِلوا تكاليفَه(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٥)، ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣).
(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٤٧-٤٤٨).

اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فيه الحَذَرُ من الكفر بآياتِ الله؛ والمعصية والاعتداء؛ لأنَّها سببٌ للعقوبات، فقد جعَل الله تعالى على اليهودِ الذِّلَّةَ والغضبَ والمسكنةَ لازِمًا لهم؛ بسبب هذه الأفعال[١].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- ذِكْر الحُكم مقرونًا بالوصف المناسِبِ له يدلُّ على كونِ ذلك الحُكم مُعلَّلًا بذلك الوصف، يَقْوَى بقوَّته ويَضعُف بضَعْفه، وفي قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ حكَمَ تعالى بثُبوت وصْف الخيريَّة لهذه الأُمَّة، ثم ذكَر عُقَيبه هذه الطاعات: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، والإيمان؛ فوجَب كونُ تلك الخيريَّة مُعلَّلةً بهذه العبادات[٢].

٢- تفضيلُ الله لهذه الأمةِ بالأمرِ بالمعروفِ، والنَّهي عن المنكرِ في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه ضمانٌ من الله تعالى بأنَّ هذه الشَّعيرةَ لا تَنقطِعُ من المسلمين إنْ شاء اللهُ تعالى[٣].

٣- قول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه دليلٌ على حُجيَّة الإجماعِ وعِصْمة الأُمَّة من الخطأ؛ فإنَّ (الألف واللام) في لفْظ (بالمعروف) ولفظ (المُنكَر) يُفيدان الاستغراقَ، وهذا يَقتضي كونَهم آمِرين بكلِّ معروف، وناهين عن كلِّ مُنكَر، ومتى كانوا كذلك كان إجماعُهم حقًّا وصِدقًا لا مَحالة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٢).

٤- في قول الله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ قدَّم تعالى الأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ على الإيمانِ باللهِ لعِدَّة أسباب؛ منها:

- التنويهُ بفضيلةِ الأمْر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر(١).

- ولَمَّا كان الكلامُ في خيريَّة هذه الأُمَّة على جميعِ الأمم مُؤمِنهم وكافِرهم قدَّم الوصفَ المُتَّفَق على حُسْنه عندَ المؤمنين والكافرين(٢).

- ولأنَّ الأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر سِياجُ الإيمان وحِفاظُه، فكان تقديمُه في الذِّكر مُوافِقًا لمعهودٍ عندَ الناس في جَعْل سياجِ كلِّ شيء مُقدَّمًا عليه(٣).

- وأيضًا تعريضًا بأهل الكتاب الذين كانوا يَدَّعون الإيمان، ولا يَقدِرون على ادِّعاءِ القيام بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر(٤).

- ولأنَّه هو الوصْفُ المؤثِّر في حصولِ هذه الخيريَّة لهذه الأُمَّة؛ إذ الإيمان قدَرٌ مُشترَك بين كلِّ الأمم المحِقَّة، والمؤثِّر في حصول هذه الزِّيادة هو كون هذه الأمَّة أقوى حالًا في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر من سائر الأمم، وأمَّا الإيمانُ بالله فهو شرطٌ لتأثيرِ هذا المؤثِّر في هذا الحُكم؛ لأنَّه ما لم يوجدِ الإيمان لم يَصِرْ شيءٌ من الطَّاعات مؤثِّرًا في صِفة الخيريَّة(٥)،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسر المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٢).

وللدَّلالة على أنَّهم أمَروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر إيمانًا بالله، وتصديقًا به، وإظهارًا لدِينه[1].

٥- قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ فيه أنَّ العامِلين يَتفاضلون[2].

٦- قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فيه جوازُ تَعدُّد العِلل لمعْلولٍ واحد[3].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ استئنافٌ مُبيِّن لكونِهم خيرَ أُمَّة[4]، وتعليل لأمْرهم بالدَّعوة إلى الخير[5].

- وعبَّر بصِيغة الاستقبال (تأمرون- وتَنْهون)؛ للدَّلالة على الاستمرارِ، والخِطابُ وإنْ كان خاصًّا بمَن شاهَد الوحيَ من المؤمنين، لكنَّ حُكمَه عامٌّ للكلِّ[6].

- والمراد بـ﴿أُمَّةٍ﴾: عمومُ الأُمم كلِّها- على ما هو المعروفُ في إضافة أفعل التَّفضيل إلى النَّكرةِ أنْ تكون للجِنس، فتُفيد الاستغراق[7].

- وفيه إيجازٌ؛ حيث اكتفَى بذِكر الإيمان بالله، ولم يذكُر الإيمانَ بالنُّبوَّة مع أنَّه لا بدَّ منه؛ لأنَّ الإيمانَ بالله يَستلزِم الإيمانَ بالنُّبوَّة؛ لأنَّ الإيمانَ بالله لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٤٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧١).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٠).

يَحصُل إلا إذا حصَل الإيمان بكونه صادقًا، والإيمان بكونه صادقًا لا يَحصُل إلَّا إذا كان الذي أَظهَر المعجِزَ على وَفْق دعواه صادقًا، وكان الاقتصارُ على ذِكْر الإيمان بالله تنبيهًا على هذه الدَّقيقة(١).

٢- قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ فيه تعريضٌ بأهلِ الكتابِ من اليهودِ وغيرِهم أنَّهم مُتوقِّفونَ في اتِّباع الإسلام، مع إمكانِ تحصيلِهم على هذا الفضلِ(٢).

٣- قوله: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

- الألف واللَّام في ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ وفي ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ للدلالة على المبالَغةِ والكمالِ في الوصفينِ، وذلك ظاهرٌ؛ لأنَّ مَن آمَن بكتابه وبالقرآن فهو كاملٌ في إيمانه، ومَن كذَّب بكتابه؛ إذ لم يتَّبع ما تَضمَّنه من الإيمانِ برسول الله، وكذَّب بالقرآنِ، فهو أيضًا كامِلٌ في فِسْقه، مُتمرِّد في كُفْره(٣).

- قول الله تعالى: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، لم يَقُل: (منهم مؤمنون)، فـ(أل) للعَهْد الذِّهنيِّ، فالمقصود الإيمان المعهود عندكم- أيُّها المسلمون- وهو الإيمانُ برسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٤).

٤- قوله: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ فيه مُبالَغةٌ في عدمِ مكافحةِ الكُفَّارِ للمؤمنينَ إذا أرادوا قِتالَهم، وأنَّهم ليسوا ممَّن يَغلِب ويَقتُل وهو مُقبِلٌ على محاربِه غيرُ مُدبِرٍ عنه، وهذه الجملة جاءتْ كالمؤكِّدة للجملةِ قَبلها ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾؛ إذ تضمَّنت الإخبارَ أنَّهم لا تكونُ لهم غَلَبةٌ ولا قَهْر، ولا دولةٌ على المؤمنين؛ لأنَّ حصولَ ذلك إنَّما يكون سَببَه صِدْقُ القتال والثَّبات

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤).

فيه، أو النَّصرُ المستمدُّ من الله، وكِلاهما ليس لهم(١).

- وأتى بلفظِ (الأدبار) لا بلفظِ الظُّهور؛ لِمَا في ذِكر الأدبارِ من الإهانة دون ما في الظُّهور، ولأنَّ ذلك أبلغُ في الانهزامِ والهَرَب(٢).

٥- **قوله:** ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ فيه من وجوهِ البلاغةِ ما يأتي:

- في قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ عدولٌ عن جَعْلِه معطوفًا على جُملةِ جوابِ الشرط ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ إلى الاستئنافِ والإخْبارِ ابتداءً؛ كأنَّه قيل: ثُمَّ أُخْبِرُكم أنَّهم لا يُنصَرونَ؛ إشارةً إلى أنَّ الخِذْلانَ دِيدنُهم وهِجِّيراهُم؛ لأنَّ المقصودَ أنَّهم مع تولِّيهم الآنَ لا يُنصرونَ مُطلقًا قاتلوكم أو لم يقاتلوكم، وفيه تثبيتٌ للمؤمنينَ على أتمِّ وَجْهٍ، ولو عُطِفَ على الجواب﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ لكان مقيَّدًا بمقاتَلَتِهم، ولفظة ﴿ثُمَّ﴾ دلَّت على التَّراخي والمُهْلَةِ الملائمَةِ لِمَا قُصِدَ مِنَ الاستقبالِ، إشارةً إلى أنَّ هؤلاء اليهودَ قومٌ لا يُنصَرون ألبتَّةَ، مهما واتَتْهم الإمكاناتُ، ومهما أُغدِقت عليهم المساعدات، و مجيء حرْف العَطفِ (ثمَّ)؛ لأنَّ الكلامَ لو عُطِف بالواوِ مثلًا لظَنَّ قِصارُ النَّظر أنَّ المسلمين إنَّما وُعِدوا بالنَّصر في تلك الحالة ليس غيرُ، فدفَع هذا الظنَّ بكلمة (ثمَّ) التي تَقطُع هذا الشكَّ باليقين، مؤكِّدًا أنَّ النتيجة الحتميَّة هي النَّصر المؤزَّر للمؤمنين؛ فقطع على هؤلاء الظَّانِّين الطريقَ لالتِماس المعاذير للتَّخلُّف عن الجهاد(٣)، أو تكون (ثم) هنا ليستْ للمُهْلة في الزَّمان، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٣)، ((خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية)) لعبد العظيم المطعني (١/ ٣٢٠).

هي للتَّراخي في الإخبار، فالإخبارُ بتولِّيهم في القتال، وخِذلانهم، والظَّفَر بهم أَبْهجُ وأَسَرُّ للنَّفْس، ثُمَّ أَخبَر بعد ذلك بانتفاء النَّصرِ عنهم مُطلَقًا(١).

٦- قوله: ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ التَّنكيرُ في (بغضب)؛ للتَّفخيم والتهويل، و(مِن) في قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوف وقَع صفةً لغضب مُؤكِّدةٌ؛ لِما أفاده التَّنكيرُ من الفخامة والهول، أي كائن من الله عزَّ وجلَّ(٢)، فتأكَّد التَّفخيم بالوصف في قوله تعالى (مِنَ اللَّهِ)(٣).

٧- قول الله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لبيانِ الواقِع، والدَّلالةِ على أنَّ هذا القتْلَ كان عُدوانًا وظلمًا، فقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ليس قيدًا، ولكنَّه كشفٌ وإيضاحٌ؛ لأنَّه لو كان قيدًا للزمِ من ذلك أنْ ينقسِمَ قتْلُ الأنبياءِ إلى قِسمين: قسم بحقٍّ، وقِسم بغير حقٍّ، وهذا لا يكون؛ لأنَّ قتْلَ الأنبياءِ كلَّه يكونُ بغيرِ حقٍّ؛ والمقصود بقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ شِدَّةَ التوبيخِ لهؤلاء، وأنَّهم يَقْتُلون أشرفَ الخلقِ بغيرِ حقٍّ، وللدَّلالة أيضًا على أنَّه لم يكُن حقًّا بحسَبِ اعتقادِهم أيضًا(٤).

٨- قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ﴾ مع قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: فيه نشْرٌ ولفٌّ؛ فكُفْرهم بالآيات سببُه العِصيان، وقتْلهم الأنبياء سببُه الاعتداءُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٢).
(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٣٩- ١٤٠)، (٢/ ٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧).

الآيات: (١١٣ - ١١٥)

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: ساعاته، وآناء جمْعٌ، مُفْرده: إِنْيٌ وإِنًى وأَنًا، وأصْله: ساعة من الزَّمان[١].

﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾: أي: فلن يُحرَموه، ولن يَضيعَ ولن يَنقُص ثوابُه ألبتَّةَ، وأصْل الكُفر: السَّتر والتَّغطية[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ أهلَ الكتاب ليسوا جميعُهم سواءً؛ فكما أنَّ فيهم طائفةً مذمومة، فهناك طائفةٌ هداهم اللهُ فأسْلَموا، فهم مُستمسِكون بالحقِّ، يَقرؤون كتابَ الله في صلواتهم التي يؤدُّونها في ساعاتِ الليل، ويؤمنون بالله تعالى، وباليوم الآخر وما يتعلَّق به، كما يأمرون غيرهم بالمعروف ويَنْهونهم عن المُنْكر، ويُبادِرون إلى فِعْل الخيرات، وهؤلاء الذين يَفعلون هذا الفعلَ هم مِن الصَّالحين، وما يقومون به من عملٍ من أعمال الخير، فلن يَذهب سُدًى، والله سبحانه عالِم بأهل التَّقوى ومُطَّلِع عليهم، وسيَجزيهم على تقواهم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) (٥/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣، ٢٦٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى الفِرْقةَ الفاسقةَ من أهل الكتاب، وبيَّن أفعالَهم وعقوباتِهم، بيَّن هاهنا الأُمَّةَ المستقيمة، وبيَّن أفعالَها وثوابَها[1]، فقال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾.

أي: ليس جميعُ أهلِ الكتاب على حدٍّ سواء، فلا يَستوي مَن تقدَّم ذمُّهم من أهلِ الكتاب، وهؤلاء الذين أَسْلَموا منهم، فإنَّ منهم جماعةً ثابتة على الحقِّ، مُتمسِّكة به، مستقيمةً على هَدْي القرآن والسُّنَّة[2].

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

أي: يَقرؤون كتابَ الله تعالى في صلاتِهم في ساعات اللَّيل[3].

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى من صِفات تلك الأُمَّة، تَهجُّدها وقيامها، ذكَر ما أثمَر لهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣-١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٩-٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧-٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٩٥-٦٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).

هذا التَّهجُّدُ، وهو الإيمان[١]، فقال:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

أي: يُؤمنون بالله تعالى، وبكلِّ ما يتعلَّق باليوم الآخِر من بعدِ الموت: كالبعث، والحشر، والجزاء على أعمالِهم، ودخولِ الجنَّة أو النَّار وغير ذلك، ولا يَكْتفون بتطهيرِ قلوبهم وصلاح أنفسهم، بل يَسْعون أيضًا في إصلاحِ الآخَرين، فيأمرونهم بكلِّ ما أمَر به الشَّرع من مُعتقَدات وأعمال، ويَنْهَوْنهم عن كلِّ ما نهى عنه الشَّرعُ مِن مُعتقَداتٍ وأعمال، ويَبتدِرون فِعْلَ الخيرات، ويَنتهِزون الفرصَ إليها؛ خَشيةَ الفَواتِ بحلول وقتِ الممات[٢].

﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ الذين قاموا بهذه الأعمالِ الجليلةِ ممَّن أَسلَم من أهل الكتاب هم في الحقيقةِ من عِداد الصَّالحين[٣].

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ قراءتان:

١- ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ بياءِ الغَيبة، على أنَّ المرادَ الطَّائفةُ المؤمنةُ من أهل الكتابِ التي تقدَّم ذِكْرُها[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٧٧، ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٠).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وحفص. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤١). =

٢- (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ) بتاءِ الخطابِ على أنَّ الخطابَ لأُمَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾.

أي: إنَّ كلَّ ما يَعمَله مَن أَسلَم مِن أهل الكتاب، مِن خير (قليلًا كان أو كثيرًا) فلن يُجحَد ويَذهَب سُدًى بلا ثوابٍ ولا مُجازاة، بل سيُشكَرون على ما فَعلوا، ويُجزَون عليه أوفرَ الجزاء[٢].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَخْفى عليه كلُّ مَن قصَد تقواه، وأراد رِضاه، بامتثالِ أوامرِه واجتنابِ نواهيه، وسيُثيبُهم، ولن يُضيعَ أجرَهم[٣].

الفَوائِد التَّربويَّة:

١- بيانُ عدْلِ الله تعالى، وأنَّه يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلَمَّا ذمَّ أهلَ الكتاب في الآيات السَّابقة، فقد يتوجَّه الفَهْمُ إلى أنَّ جميعَ أهل الكتاب على هذا الوصفِ مِن أنهم يَكْفُرون بآياتِ الله، ويَقتُلون الأنبياءَ بغير حقٍّ، ويَعْصون الله

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٦٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٠-١٧١).

(١) قرأ بها الباقون ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤١). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٦٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٠-١٧١).

(٢) ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٩).

وقيل المراد: من كان على استقامة من أهل الكتاب قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨٩-٧٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣، ٩٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧-٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢، ٩٧٣).

ويَعتَدون على حقِّه وحقِّ عباده؛ فقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: منهم مَن ليس كذلك[١]، فينبغي العدلُ والإنصافُ حتى مع المخالِفين.

٢- قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ فيه أنَّه ينبغي أن يكون اعتناءُ قارئِ القرآنِ بقراءةِ اللَّيلِ أكثرَ، وإنَّما رَجَحَت صلاةُ اللَّيلِ وقراءتُه؛ لكَونِها أجمَعَ للقَلْبِ، وأبعَدَ عن الشَّاغلاتِ والـمُلْهياتِ، والتصرُّفِ في الحاجات، وأصونَ عن الرِّياءِ وغَيْرِه مِنَ الْمُحْبِطات[٢].

٣- قول الله تعالى ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يدلُّ على أهميَّة الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكَر؛ وذلك لأنَّه بعد تكميلِ المؤمنين أنفسَهم بالإيمانِ ولَوازِمه، يَسْعَون في تكميلِ غيرِهم من النَّاقِصين، وذلك بأمرهم بكلِّ خيرٍ، ونهيهم عن كلِّ شرٍّ، فهذا هو الغاية القُصوى في الكمال[٣].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فيه الحثُّ على التَّقوى، فالأعمالُ ثوابُها تَبَعٌ لِمَا يقوم بقلْب صاحبها من الإيمان والتَّقوى، ولا يفوز عند الله تعالى إلا أهل التَّقوى[٤].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، جاء ذِكْرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في آداب حملة القرآن)) للنووي (ص: ٦٣، ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٥).

الإيمان بالله واليوم الآخِر بعد ذِكْر تِلاوة الآيات؛ لأنَّه لا يُمكِن الإيمان بالشَّيء إلا بعد العِلم به، فهم إذا تَلَوا آياتِ الله، عَلِموا باليوم الآخر، ثم آمنوا به[1].

٢- في قول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ خصَّ ذِكْر الإيمان بالله تعالى؛ لأنَّه يَستلزِمُ الإيمان بجميعِ أنبيائه ورُسله[2].

- وخصَّ الإيمان باليومِ الآخِر؛ لأنَّ الإيمانَ الحقيقيَّ باليوم الآخِر يَستلزِمُ الحذرُ من المعاصي، فيحثُّ المؤمنَ به على فِعلِ ما يُقرِّبه إلى الله، ويُثاب عليه في ذلك اليوم، وترْكِ كُلِّ ما يُعاقَب عليه في ذلك اليوم[3].

٣- قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ يدلُّ على أنَّه مَن فعَل خيرًا أُعطي عليه أجرَه كاملًا بلا نَقْص؛ لأنَّ المرادَ بالنَّفي هنا تمامُ الإثبات[4].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ لَمَّا أخْبَر تعالى عن عدمِ الحِرمان والجزاء، أقام ما يَجري مجرَى الدَّليل عليه، وهو أنَّ عدمَ إيصال الثَّواب والجزاء إمَّا أنْ يكون للسَّهوِ والنِّسيان، وذلك مُحالٌ في حقِّه؛ لأنَّه عليمٌ بكلِّ المعلومات، وإمَّا أنْ يكون للعجزِ والبخل والحاجة، وذلك مُحالٌ؛ لأنَّه إلهُ جميع المُحدَثات؛ فاسمُ الله تعالى يدلُّ على عدم العجز والبُخْل والحاجة، وقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ يدلُّ على عدم الجهل، وإذا انتَفتْ هذه الصِّفات امتَنَع المنعُ من الجزاء[5].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى المتَّقِين بالذِّكر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥).

مع أنَّه تعالى عالم بكلِّ النَّاس؛ بِشارةً للمُتَّقين بجزيل الثَّواب، ودَلالةً على أنَّه لا يفوز عنده إلا أهل التَّقوى(١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ استئنافٌ قُصِد به إنصافُ طائفةٍ من أهل الكتاب، بعد الحُكم على مُعظمهم بصِيغة تَعُمُّهم؛ تأكيدًا لِمَا أفاده قوله: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فالضميرُ في قوله: ﴿لَيْسُوا﴾ لأهل الكتاب المُتحدَّث عنهم آنفًا، وهم اليهود، وهذه الجملةُ تتنزَّل من التي بعدها مَنزِلة التَّمهيد(٢).

٢- قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّة عدمِ تَساويهم، ومُزيلٌ لِمَا فيه من الإبهامِ في قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، ووضَع ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ مَوضعَ الضَّميرِ العائدِ إليهم حيث لم يَقُل (منهم أُمَّةٌ قائمة)، فأَظهَر في مَوضِع الإضمار، وقال: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ لتحقيقِ ما به الاشتراكُ بين الفريقين، والإيذانِ بأنَّ تلك الأُمَّةَ ممَّن أوتي نصيبًا وافرًا من الكتاب لا مِن أرذالهم؛ اهتمامًا بِتلك الأُمَّة(٣)، وليكون هذا الثَّناءُ شاملاً لصالحي اليهود، وصالحي النَّصارى، فلا يختصُّ بصالحي اليهود(٤).

- وجاءَ باسم الفاعلِ ﴿قَائِمَةٌ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الاستقامةَ وصْفٌ ثابتٌ لِتلك الأُمَّة لا يتغيَّر(٥).

٣- قوله: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٢).

- التَّصريحُ بتِلاوتِهم آياتِ الله في الصَّلاة، مع أنَّها مُشتمِلةٌ عليها قطعًا؛ لزيادة تحقيقِ المُخالفةِ، وتوضيحِ عدمِ المُساواةِ بينهم وبين الذين وُصِفوا آنفًا بالكفرِ بها، وهو السِّرُّ في تقديم هذا النَّعْتِ على نعت الإيمانِ(١).

- وتخصيصُ السُّجودِ في قوله: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ بالذِّكرِ من بين سائرِ أركانِ الصَّلاةِ؛ لكونِه أدلَّ على كمالِ الخضوعِ(٢).

- وجملةُ ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ حالٌ، أي: يتهجَّدون في الليل بتِلاوة كتابِهم- أي: القرآن بعد أنْ صاروا مُسلمين- فقُيِّدتْ تلاوتُهم الكتابَ بحالةِ سجودهم، وهذا الأسلوب أبلغُ وأَبْينُ مِن أنْ يُقال: يتهجَّدون؛ لأنَّه يدلُّ على صورة فِعْلهم(٣).

- والتَّعبير بالجُملةِ الاسميَّة؛ للدَّلالةِ على الاستمرار، وتكريرُ الإسنادِ بتكرُّر الضَّمير، وهو (هم)؛ لتقوية الحُكْمِ وتأكيدِه(٤).

- وصِيغةُ المضارع (يَتْلُونَ- يَسْجُدُونَ)؛ للدَّلالة على التَّجدُّد(٥).

٤- قال تعالى: ﴿**وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾ لم يَقُل: (إِلَى الْخَيْرَاتِ) مع أنَّ الفعل (سَارَعَ) يَتعدَّى بـ(إلى)؛ إيذانًا بأنَّهم يُسارعون في أعمالِ الخيرِ، وهم داخلونَ فيها، لا أنَّهم خارجونَ عنها، أو مُنتهون إليها(٦).

٥- قوله: ﴿**وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ الإشارةُ بـ﴿أُولَئِكَ﴾ وما فيه من معنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٢٥٠)، ((تفسير المنار)) (٦/ ٣٢١) ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٧٩).

البُعْد؛ للإيذان بعُلُوِّ دَرجتِهم، وسُموِّ طبقتِهم في الفضلِ، وإيثارُه على الضَّميرِ؛ حيث لم يَقُل: (وهم من الصَّالحين)؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكم والمدح، أي: أولئك المنعوتون بتلك الصِّفاتِ الفاضِلة بسببِ اتِّصافِهم بها[١].

٦- **قوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾** على قراءة ﴿تَفْعَلُوا.. تُكْفَرُوهُ﴾- بالتَّاء- يكون فيه التِفاتٌ من الغَيبة إلى الخِطاب[٢].

- قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط يُفيد العُمُوم؛ ففيه ثُبُوت الثَّواب على عملِ الخير قليلًا كان أم كثيرًا[٣].

٧- **قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾** تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَه؛ فإنَّ عِلمَه تعالى بأحوالهم يَستدعي تَوْفيةَ أُجورِهم لا محالة[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٤).

الآيتان: (١١٦ - ١١٧)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿صِرٌّ﴾: أي: بَرْدٌ شديد، وأصْل الصِّرِّ: الشَّدُّ؛ وأطلِقَ على البردِ الشَّديد؛ لِمَا في البُرودةِ من التَّعقُّد. أو الصرُّ: هو صَوتُ الرِّيحِ الشَّديدة، أو: صوتُ لهبِ النَّارِ التي كانتْ في تِلك الرِّيح، وأصلُه مِن الصَّرير الذي هوَ الصَّوتُ، من قولهم: صرَّ الشَّيءُ، ومنه: الرِّيح الصَّرصر[١].

﴿حَرْثَ﴾: أي: زَرْع، والحَرْث: إلقاءُ البَذْر في الأرض وتهيُّؤها للزَّرع، ويُسمَّى المحروث حَرْثًا، وأصْل الحَرْث: الجَمْع والكَسْب[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ الكُفَّارَ لا يُنجِّيهم ما معهم من أموالٍ وأولادٍ من عذابِ الله تعالى، بل هم أصحابُ النَّار المُلازِمون لها أبدًا، وأنَّ ما يُنفِقه هؤلاء الكُفَّار في الدُّنيا من أموال، مَثلُه كمَثَل مَن زرَعَ زرعًا يَرجو منفعتَه، لكن أصابتْه رِيحٌ عاصِفٌ شديدةُ البرودة، فأهلكتْ ذلك الزَّرعَ، فلم يَستفِدْ منه شيئًا، ولم يَظلِمِ اللهُ هؤلاء

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٠- ٥٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٤، ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦).

الكُفَّارَ بإحباطه لأعمالهم، لكن هم مَن ظلموا أنفسَهم بكُفْرهم وحِرْصِهم على إطفاءِ نورِ الله.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وصَف الله تعالى مَن آمَن مِن الكفَّارِ بما تقدَّم من الصِّفات الحسنة، أَتْبَعه تعالى بوعيدِ الكفَّار، فذكَر شيئًا من أحوالِ المؤمنين، ثم ذكر شيئًا من أحوال الكافرين؛ ليتَّضِح الفَرقُ بينهما[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّه لا يَرُدُّ بأسَ الله عن الكفَّار شيءٌ؛ فلا تدفعُ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم- التي حسبوها نافعةً لهم في الشَّدائد والمكاره- لا تدفعُ عنهم شيئًا من عذابِ الله تعالى في الدُّنيا والآخرة، ولا تكون سببًا في رَحْمتهم[2].

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: سيَظَلُّون مُلازِمين لنار جَهنَّمَ ماكِثين فيها بلا نهايةٍ[3].

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٢-٧٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ أموالَ الكفَّار لا تُغْني عنهم شيئًا، ثم إنَّهم ربَّما أَنفَقوا أموالهم في وجوه الخيرات، فيَخطُر ببالِ الإنسان أنهم يَنتفِعون بذلك، فأَزال اللهُ تعالى بهذه الآية تلك الشُّبْهةَ، وبيَّن أنَّهم لا يَنتفِعون بتلك الإنفاقات، وإنْ كانوا قد قصَدوا بها وجهَ الله [1]، فقال:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

أي: إنَّ ما يُنفِقه الكفَّارُ من صَدَقاتٍ، وما يُنفِقونه من أموالٍ للصدِّ عن سبيل الله تعالى، نفقاتٌ باطِلة، وثوابها الذي يَرْجونه مُضمَحِلٌّ عند الله عزَّ وجلَّ، وشَبَّه الله تعالى ذلك بهُبوب ريحٍ عاصفٍ شديدةِ البرودةِ، قويَّة الصَّوت، قد سُلِّطتْ على زرع أُناسٍ استَحقُّوا أنْ يُعذِّبَهم الله تعالى بها، فدمَّرت زرعَهم وأصبح يابسًا، بعد أن أمَّلوا حصادَه، ورَجوا الاستفادةَ من خيراتِه [2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: إنَّ ما فعَله الله تعالى بهؤلاء الكفَّار، من إحباطِ ثواب أعمالِهم، إنَّما وضَعَه في مَوضِعه، وفعَل بهم ما هم أهلُه، وهم الذين نقَصُوا أنفسَهم في الحقيقةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٣-٧٠٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٥-١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٧-٨٩).

ووضَعوها في غيرِ موضِعها الذي يَليق بها[١].

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- معرفةُ تمام قُدْرة الله وسُلْطته على العباد؛ حيث إنَّ الكفار العُتاةَ لا يستطيعون أنْ يدفعوا شيئًا بأموالهم وأولادهم ممَّا قضاه الله عزَّ وجلَّ، يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[٢].

٢- الحَذَرُ من الاغترارِ بالنِّعم، فالمغرورُ إنَّما يَصُدُّه عن اتِّباع الحقِّ، أو النَّظر في دليلِه الاستغناءُ بما هو فيه من النِّعم، وأعظمُها الأموالُ والأولاد، فالذي يرَى نَفْسه مُستغنيًا بمِثْل ذلك قلَّما يُوجِّه نظرَه إلى طلبِ الحقِّ، أو يُصْغي إلى الدَّاعي إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا...﴾[٣].

٣- نَفْسُ الإنسانِ عنده أمانةٌ يَلحَقها ظُلْمُه وغشمُه، ويلحقها برُّه وإحسانُه؛ فيجب أن يرعى هذه الأمانةَ حقَّها؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٤].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى الأموالَ والأولاد بالذِّكر؛ لأنَّهما من أشد الأشياء نفعًا للإنسان، فالمالُ يدفعُ به المرءُ عن نَفْسِه في فِداءٍ أو نحوه، والولدُ يَنصُر أباه ويُدافِع عنه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٩-٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص:١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٤).

فإذا لم يُغنِ عنه ولدُه لصُلْبه، ومالُه الذي هو نافِذُ الأمر فيه؛ فغير ذلك أبعدُ مِن أن يُغني عنه مِن الله شيئًا[١].

٢- قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ فيه إثباتُ القياس؛ ووجْه ذلك: أنَّ المَثَل إلحاقٌ للأصل بالفرع، وإلحاقٌ للمُشبَّه بالمُشبَّه به، وهذا هو أصلُ القياس- إلحاق فرعٍ بأصلٍ في حُكْمٍ لِعَلَّةٍ جامعة- فكلُّ مِثالٍ ضربَه الله في القرآن ففيه دليلٌ على القياس؛ إذ إنَّه إلحاق المُشبَّه بالمُشبَّه به[٢].

٣- في قولِه: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ تنبيهٌ على أنَّ سَبَبَ إصابةِ هذه الرِّيحِ لحَرْثِهم هو ظُلْمُهم؛ فهو الذي سَلَّطَها عليهم حتى أهلَكَتْ زَرْعَهم وأيبَسَتْه، فظُلْمُهم هو الرِّيحُ التي أهلَكَتْ أعمالَهم ونفقاتِهم وأتْلَفَتْها[٣].

بَلاغَةُ الآيتين:

١ - قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ إلى ذِكْر وعيدِ المشركين بمناسبةِ ذِكر وعْدِ الذين آمَنوا مِن أهل الكتاب[٤].

- وإنَّما عطَف الأولادَ هنا؛ لأنَّ الغَناء في مُتعارَف النَّاس يكون بالمال والولد[٥].

- وكرَّر حرْفَ النَّفي مع المعطوف في قوله: ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾؛ لتأكيدِ عدم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

غَناءِ أولادِهم عنهم؛ لدفع توهُّم ما هو مُتعارَف من أنَّ الأولاد لا يَقعُدون عن الذَّبِّ عن آبائهم(١).

- وتنكيرُ قوله: ﴿شَيْئًا﴾؛ للتَّقليل(٢)، وهي نَكِرة في سياق النَّفي، والنَّكرة في سياق النَّفي تُفيد العمومَ، فالمعنى: أيُّ شيء كان سواءً كان هذا الشَّيء شديدًا أو ضعيفًا(٣).

- وفيه تحقيقُ مضمون الجملة بـ: التَّأكيدِ بـ(إنَّ)، ومَوقِع اسم الإشارة، وضمير الفصل (هُمْ)، ووصْف (خَالِدُونَ)، وجُملة (وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) عطْف على جملة (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُم وَلَا أَوْلَادُهُمْ)، وجيء بالجملةِ معطوفةً، على خلافِ الغالبِ في أمثالها أنْ يكون بدون عطفٍ؛ لقصْدِ أن تكون الجملةُ مُنصبًّا عليها التَّأكيدُ بحرف (إنَّ)(٤)، ووقوعها جملةً اسميَّة؛ للدَّلالةِ على الدَّوام والثُّبوت(٥).

٢- **قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾** استئنافٌ بيانيٌّ، وفي الآية: تشبيهٌ تَمثيليٌّ، حيث شبَّه سبحانه ما أنفَقوه في عدمِ جدواه، وقِلَّة غَنائه بالحَرْث الذي عصفَتْ به الرِّيحُ الصِّرُّ، والتَّقدير: مَثَل ما يُنفِقون في هذه الحياةِ الدنيا كمَثَل حَرْثِ قومٍ ظلَموا أنفسَهم فأصابتْه ريحٌ فيها صِرٌّ؛ جاء النَّظم هكذا؛ لفائدةٍ جليلة، وهي تقديمُ ما هو أهمُّ؛ لأنَّ الرِّيحَ التي هي مِثْل العذاب ذِكْرها في سياقِ الوعيدِ والتَّهديدِ أهمُّ مِن ذِكْر الحَرْث، فقُدِّمت عِنايةً بِذِكْرها(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير أبي =

- وفي قوله: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ ما يُعرَف بالتَّتْميم؛ إذ أَفادَتِ المبالغةَ، كما أفادتِ التَّجسيدَ والتَّشخيص، كما تقول: بَرْدٌ بارِد، وليلةٌ ليلاء، ويوم أيوم، ثم قُيِّد الصِّرَّ بالظَّرفيَّة (فيها)؛ لأنَّ الرِّيح مُطلَقة ثم قيَّدها بالظَّرفيَّة، وكلُّ مُقيَّد ظَرْف لمُطلَقه؛ لأنَّ المُطلَق بعض المُقيَّد، فحصل التَّجسيد والتَّشخيص[1].

وأيضًا كأنَّ جِنْسَ الصِّرِّ مَظروفٌ في الرِّيح، وهي تَحمِله إلى الحَرْث، فيُفيد شِدَّةَ بَرْد هذه الرِّيح[2].

٣- قوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيه تقديمُ المفعول ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ على الفِعل وفاعِله ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وفائدة التَّقديم: الحصرُ، فالمعنى: أنَّهم ما ظلَموا اللهَ عزَّ وجلَّ، والله- أيضًا- ما ظلَمهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسَهم دون غيرِها، ودون أن يَظلِمَهم أحدٌ[3].

= السعود)) (٢/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣-٣٤).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣-٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٠).

الآيات (١١٨ - ١٢٠)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِطَانَةً﴾: أي: دُخلاءَ، وبِطانةُ الرَّجُل: أهلُ سِرِّه، الذين يُبطِنون أمْرَه، مِمَّن يسكُن إليهم، ويَثِق بمودَّتهم(١).

﴿من دُونِكُمْ﴾: أي: مِن غيرِ المسلمين، وأصْل الدُّون: المُداناة والمُقاربة(٢).

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: لا يُقصِّرون في فَسادِ دِينكم؛ يُقال: ألوتُ في الشَّيء آلو: إذا قصَّرتُ فيه(٣).

و﴿خَبَالًا﴾: أي: فَسادًا أو شرًّا، وأصْل: الخَبْل: فسادُ الأعضاء، والجُنُون(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤١، ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٠، ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩، ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني =

﴿ودُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: أي: ودُّوا عنَتكم، والمُعانتة: مُعانَدة فيها خوفٌ وهلاك، وأصْل العَنَت: المشقَّة[1].

﴿خَلَوْا﴾: أي: انفَرَدوا؛ يُقال: خلا إليه: انتهى إليه في خَلوةٍ، والخَلاءُ من الشَّيء: الفراغ منه[2].

﴿تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾: أي: تَنلْكُم وتُصبكم نِعمة، وأصْل المسِّ: جسُّ الشيء باليدِ، والحسَنة: النِّعمة[3].

المعنى الإجماليُّ:

يَنهى الله عبادَه المؤمنين عن اتِّخاذ أشخاصٍ مُقرَّبين من غير المؤمنين، يُطلِعونهم على أسرارِهم، فإنَّ هؤلاء الكفرةَ والمنافقين لا يؤمَن جانبُهم، لا تَسْنَح لهم فرصةٌ للإضرار بالمؤمنين إلَّا استغَلُّوها، بل يَسْعَون في الإضرارِ بهم بكلِّ طاقتهم، فهم يتمنَّون حصول كلِّ ما فيه مشقَّةٌ على المؤمنين، ومِن شدَّة ما يُضمرونَه من أحقادٍ تُجاهم لم يستطيعوا كِتمانَها، فظهرتْ كراهيتُهم للمؤمنين على فلتاتِ ألْسنتهم، وما بقِي حبيسَ صدورِهم من البغضاء أعظمُ وأكبرُ ممَّا ظهَر، قد وضَّح اللهُ الآياتِ للمؤمنين، وسيُفيدهم ذلك التَّوضيح إنْ عقَلوه وفَهِموه.

ثم يُبيِّن الله بعضًا ممَّا يُوجِب الحذرَ من الكفَّار والمنافقين، فهم من شدَّة

= (ص: ٢٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١) (٢/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧).

ما في صدورِهم على المؤمنين من الحِقد، لا يُبادِلونهم المشاعر، فالمؤمنون يُحبُّونهم ويَودُّونهم، وهؤلاء الكفَّار يُبغِضونهم، كما أنَّ المؤمنين آمنوا بجميعِ الكتُبِ المنزَّلة من عند الله، بينما هم لا يؤمنون بما أنزَله الله إلى محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقد حرَّفوا ما أُنزِل إليهم؛ فالأَوْلى بمَن هذا صنيعُه أنْ يُعادَى ويُبغَض، بل إنَّهم إذا قابَلوا المؤمنين أظهَروا الإيمانَ بألْسنتِهم، وإذا انفرَدَ بعضُهم ببعضٍ عضُّوا أطرافَ أصابِعهم من شِدَّة الغيظِ على المؤمنين. ثم أمَر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يقول لهم: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ إنَّ الله مُطَّلِعٌ على ما تُكِنُّه الصُّدور، لا يَخفى عليه شيءٌ.

هؤلاء المذكورون من المنافقين والكفَّار إنْ حصَلَ للمؤمنين ما يَسُرُّ ساءَهم ذلك وأَحزَنهم، وإنْ أصاب المؤمنين سوءٌ فرِحوا بذلك، ثمَّ أرشَدَ الله المؤمنين لِمَا يُعِينهم على تحمُّل ذلك، وهو الصَّبرُ والتَّقوى؛ فإنَّهم إنْ فعَلوا ذلك فإنه لن يَلحَقهم من ضررِ هؤلاء وكيدِهم شيءٌ، واللهُ مُحيطٌ بجميع ما يفعله هؤلاءِ المنافقونَ والكفَّارُ، وسيُجازيهم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شرَح الله تعالى أحوالَ المؤمنين والكافرين، شرَع في تحذيرِ المؤمنين عن مُخالَطة الكافرين[١]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تَجعلوا مِن خاصَّةِ أصدقائكم والمقرَّبين منكم أُناسًا من غير المؤمنين، كفَّارًا أو منافقين؛ تُطْلِعُونَهم على أسرارِكم، أو تَجعلون لهم مناصبَ ونفوذًا؛ فإنَّ الكافرَ لا يُؤمَن جانبُه؛ لما تنطوي عليه نَفْسُه من الغِشِّ والخداع، وإذاعة أسرار المؤمنين إلى الأعداء، ولا يترك مجالًا يُمكِن أنْ يُفسِد أحوالَكم فيه إلَّا سعَى إليه بكلِّ طاقته، ولا يُقصِّر في إلحاقِ أنواع الضَّررِ بكم[1].

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما بعَث اللهُ مِن نبيٍّ، ولا استَخلَف من خليفةٍ، إلَّا كانتْ له بِطانتان: بِطانةٌ تأمرُه بالمعروفِ وتَحضُّه عليه، وبِطانةٌ تأمرُه بالشرِّ وتحضُّه عليه، فالمعصومُ مَن عصَم اللهُ تعالى))[2].

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾.

أي: يُحِبُّون ويتمنَّون بكلِّ قلوبِهم وقوعَ الضِّيقِ، وحصولَ المشقَّة عليكم في دِينكم وأموالِكم وأبدانِكم، وكلِّ ما يسوؤكم[3].

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

أي: ظهرتْ على فَلَتات ألْسنتهم البغضاءُ لكم، فلم يَستطيعوا كِتمانَها[4].

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٧-٧٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٦-١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣).

(٢) رواه البخاري (٧١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٢-٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٨).

أي: إنَّ ما انطوت عليه صدورُهم من الكراهيةِ للإسلامِ وأهلِه أشدُّ وأعظمُ ممَّا بَان على ألْسنتِهم[1].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: قد أَظهَرْنا لكم بوضوح- أيُّها المؤمنون- آياتِ الله تعالى، ومنها العلاماتُ والبراهين التي تُظهِر لكم أمْرَ هؤلاء الذين حذَّرناكم من اتِّخاذهم بِطانة، تُفسِد عليكم مصالحَكم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، فتتمكَّنوا من خلالها من التَّفْرِقة بين الصَّديق والعَدوِّ إنْ كنتم تَعقِلون عن الله آياتِه؛ فإنَّ ذلك لا يَخفى على لبيبٍ عاقل[2].

﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)﴾.

﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

أي: ها أنتم- أيُّها المؤمنون- تُحِبُّون هؤلاء الذين نَهيتُكم عن اتخاذِهم بِطانةً، فتودُّونهم وتُريدون لهم الخيرَ، وهم لا يُحِبُّونكم، بل يُبغِضونكم ويُريدون لكم السوءَ والضَّررَ؛ فكيف تُحِبُّونهم[3]؟!

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٨-٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٥، ٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠٠).

أي: إنَّكم تؤمنون بجميعِ الكُتُب التي أَنزَلها الله تعالى، وتَعلَمون أنَّ هؤلاء القومَ لا يؤمنون بما أُنزِل إليكم، وقد حرَّفوا وبدَّلوا ما أُنزِل إليهم، فالأَوْلى بكم إذنْ أن تُعادوهم وتُبغِضوهم[1].

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الذين نهاكم اللهُ أن تتَّخِذوهم بِطانةً، إذا لَقُوكم أَعلَنوا لكم بألْسنتهم إيمانَهم نِفاقًا منهم[2].

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

أي: إذا صاروا في خَلاءٍ مع أضرابِهم من حيث لا تَرونهم، عَضُّوا أطرافَ أصابعهم من شِدَّة الحَنَق والغيظ على ما يَرون مِن ائتلافكم، واجتماعِ كلمتِكم على الحقِّ[3].

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء: لتَهلِكوا بغيظِكم الذي بكم على المؤمنين؛ ذلك أنَّ الله تعالى مُتِمٌّ نِعمتِه على عبادِه، وستَرَوْن من عِزِّ الإسلام وذُلِّ الكُفر ما يسوؤكم، وتموتون بغيظكم، فلا تَضُرُّون بذلك إلَّا أنفسَكم[4].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٦، ٧١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤، ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧١٨، ٧١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠١-١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠٢).

أي: إنَّ الله سبحانه لا يَخفى عليه ما تَنطوي عليه صدورُ هؤلاء من الغِلِّ والبغضاء لعبادِه المؤمنين، ويعلمُ أيضًا ما تحويه صدورُ جميعِ خَلْقه، فيحفظُ عليهم ذلك؛ ليُجازيَ كلًّا منهم بما يُكِنُّه قلبُه من خيرٍ أو شرٍّ[1].

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى شِدَّةَ عداوة أهل الكتاب للمؤمنين، ذكَر هاهنا أحوالًا دالَّةً على ذلك، تكشِف عمَّا في صدورهم[2]، فقال:

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.

أي: إنْ تنالوا- أيُّها المؤمنون- سرورًا بظهوركم على عدوِّكم والنصر عليهم، أو بكَثْرة أنصارِكم، أو بحصولِ العافية لكم، وغير ذلك من أنواع الخيرِ، يَغُمُّهم ذلك ويُحزِنهم[3].

﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

أي: وإنْ يَنَلْكم- أيُّها المؤمنون- ما يسوؤكم؛ كانتصارِ عدوِّكم عليكم، أو حدوثِ اختلاف بينكم، أو وقوع جَدْبٍ في أرضكم، وغير ذلك من أنواع الضُّرِّ، فإنَّهم يُسَرُّون بذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨-١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢١، ٧٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى شدَّةَ عداوةِ الكفَّار والمنافقين، وشرَح ما هم عليه من الصِّفات الخبيثة، وجَّه عِبادَه إلى ما يُعينهم على تحمُّل ذلك، ودفْعِ ضرره عنهم[1]، فقال:

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

أي: إن تَصبِروا - أيُّها المؤمنون - على كلِّ ما وجَب عليكم الصَّبرُ عليه، ومن ذلك: أقدارُه سبحانه، وتمتثلوا ما أمَركم الله تعالى به، وتَجتنبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ استعمالَ هذا الصَّبرِ ولُزومَ هذه التَّقوى يدفعُ عنكم بإذنه كلَّ كيدٍ للأعداء، وكلَّ ضررٍ أرادوا إلحاقَه بكم، فتَسلَموا من أذاهم[2].

قال تعالى عن إنجائه يوسف من كيدِ إخوته وغيرهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٩-٩٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى محيطٌ بجميعِ ما يقوم به هؤلاء الكفَّار من كيدٍ وضُرٍّ بأهل طاعته، لا يَغيب عنه شيءٌ من ذلك، فهو سبحانه يُحصيه عليهم، ويُجازيهم به[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢٣، ٧٢٤)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٧٢٤، ٧٢٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

الفَوائِدُ التربويَّة:

١- في قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُم...﴾ بيانٌ لحالِ مَن حول الجماعة المسلِمة من أعداء، يَتظاهرون للمسلمين- في ساعة قوَّة المسلمين وغلبتهم- بالمودَّة، فتُكذِّبهم كلُّ خالجةٍ وكلُّ جارحة، وينخدعُ المسلمون بهم فيَمنحونهم الودَّ والثقةَ، وهم لا يُريدون للمسلمين إلَّا الاضطرابَ والخبالَ، ولا يُقصِّرون في إعناتِ المسلمين، ونثْر الشوكِ في طَريقِهم، والكيدِ لهم والدَّسِّ، ما واتتْهم الفرصةُ في ليلٍ أو نهار؛ هذا التحذيرُ يُبصِّر الجماعةَ المسلمةَ بحقيقةِ الأمرِ، ويُوعِّيها لكيدِ أعدائها الطبيعيِّين، الذين لا يُخلصون لها أبدًا، ولا تغسل أحقادَهم مودَّةٌ من المسلمين وصُحبة. ولم يجِئْ هذا التحذيرُ ليكون مقصورًا على فترة تاريخيَّة مُعيَّنة، فهو حقيقةٌ دائمة، تُواجِه واقعًا دائمًا، كما نرى مصداقَ هذا فيما بين أيدينا من حاضرٍ مكشوفٍ مشهود(١).

٢- أنَّ تَجنُّب البِطانة السَّيئة من مقتضيات الإيمان؛ لأنَّ الخطاب وُجِّه إلى المؤمنين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية، فيه دلالةٌ على أنَّه ليس كلُّ أحد يُجعل بِطانةً، فإذا ابتُلِي المرءُ بمُخالَطة العدوِّ فينبغي أنْ تكون مُخالَطتُه له في الظاهر، ولا يُطْلِعه على شيءٍ مِن باطنه، ولو تَملَّق له وأَقسَم أنَّه من أوليائِه(٣).

٤- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ بيانُ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٤).

عِناية الله تعالى بعبادِه المؤمنين؛ حيث حذَّرهم من أمورٍ قد تَخفى عليهم كاتِّخاذ البِطانات السَّيئة[1].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أنَّ أعداءَنا يودُّون لنا ما يَشُقُّ علينا؛ في الدُّنيا أو الدِّين، فيودُّون ما يُدمِّر جيوشَنا، ويودُّون ما يُدمِّر اقتصادَنا، ويودُّون ما يدمِّر معارفَنا، ويودُّون ما يُدمِّر دِينَنا، وهذا الأخيرُ هو الأهمُّ لديهم[2].

٦- إعمالُ الفِكْرِ والاستدلال، واستعمالُ العقل في تأمُّل الآيات، هو سبيلُ العِلْم والفِطْنة، يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3].

٧- كلَّما كان الإنسان أقوى عقلًا كان أَفْهَمَ لآيات الله؛ فقد قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4].

٨- التَّحذيرُ ممَّن يُبدِي أنَّه ناصحٌ لك وقلْبُه كارهٌ لك؛ لأنَّ المقصودَ من قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ...﴾ التَّحذيرُ من هؤلاء، فلا تَغترَّ بمَن ظاهِر حالِه النُّصحُ، بل قِسِ الأمور بالأفعال؛ لأنَّ الأفعالَ هي التي تُبيِّن حقيقةَ الأمر، فكم من إنسانٍ يقول لك قولًا وهو على خلافِ ما يقول لك، فالعِبرةُ بالأفعال لا بالأقوال[5].

٩- أنَّه ينبغي للمسلمِ أنْ يكون قويًّا صارمًا أمام أعدائه؛ لقوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٨).

١٠- في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ...﴾، التَّحذير من تولية اليهود والنَّصارى لأمورِ المسلمين القياديَّة؛ كأنْ يجعلوهم مُدراء أو وزراء أو ما أَشْبه ذلك؛ لأنَّهم لا يألُونَنا خبالًا، ويُسَرُّون بما يَسوؤنا، ويُساؤون بما يَسُرُّنا، فكيف نتَّخِذهم بِطانةً نُولِّيهم أمورَنا القياديَّة من: إدارة أو رئاسة أو غيرها[1]؟

١١- أنَّ أعداءَنا لا يألون جَهْدًا في الكيدِ لنا، وعلاجُ هذا بالصَّبر والتَّقوى ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، بالصَّبرِ على كلِّ ما يجبُ الصَّبرُ عليه من أوامِرَ فنقوم بها، أو نَواهٍ فنتركها، أو سياساتٍ فنتَّبعها، فمَن صبَر واتَّقى كان في حِفْظِ اللهِ عن الآفاتِ والمخافات، فلا يَضُرُّه كيدُ الكافرين، ولا حِيَلُ المُحتالِين[2].

١٢- أنَّ الصَّبر والتَّقوى يَدفعانِ الأعداءَ؛ لقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ وما فعلوه عَلنًا إنْ صبَرنا واتَّقينا لا يَضُرُّنا من باب أَوْلى؛ لأنَّ الكيدَ الذي يكون بالمكرِ والخديعةِ إذا كان لا يَضُرُّنا مع الصَّبر والتَّقوى، فما كان ظاهرًا بيِّنًا فهو من باب أَوْلى[3].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- توجيهُ الخِطاب إلى المؤمنين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ له ثلاثُ فوائد:

الأولى: الإغراءُ على الامتِثال كأنَّه يقول: إنْ كنتَ مؤمنًا فافْعَل كذا وكذا، إنْ كنتَ مؤمنًا فلا تفعل كذا وكذا، إنْ كنتَ مؤمنًا فصَدِّق بالخبرِ، ففيه توجيهٌ للمؤمنين وإغراءٌ بالامتثال.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٢) ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٠).

الثَّانية: أنَّ امتثالَه من مقتضياتِ الإيمان؛ لأنَّه لا يُخاطَب الشَّخصُ بوصفٍ ثم يُوجَّه إليه حُكْمٌ مُتعلِّقٌ بهذا الوصف إلَّا كان ذلك دليلًا على أنَّ امتثالَ هذا الحُكم من مُقتضيات الإيمان؛ لأنَّه لا يَصِحُّ أنْ تُوجَّه لكافرٍ كلمةٌ تتعلَّق بالمؤمن.

الثَّالثة: أنَّ الإخلالَ به نَقْصٌ في الإيمان(١).

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، نهيٌ عن اتِّخاذ بِطانةٍ كافرة، ثم نبَّه على أشياءَ ممَّا هم عليه من ابتغاء الغوائلِ للمؤمنين، ومحبَّة مشقَّتهم، وظهور بُغْضهم، والتَّقييد بالوصف أو بالحالِ يُؤذِن بجوازِ الاتِّخاذ عند انتفائهما(٢).

٣- في قول الله تعالى: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾؛ إشارةٌ إلى أنَّهم يَهضِمون أنفسَهم، ويُنزِلونها عن عَلَيِّ دَرجتِها بموادَّتِهم(٣).

٤- قول الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فيه ذِكْر الأفواهِ دون الألْسنة؛ إشعارًا بأنَّ ما تلفَّظوا به يملأ أفواهَهم، كما يُقال: كلمة تملأ الفمَ إذا تَشدَّق بها(٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولم يَقُل: (إنْ كنتم تعلمون أو تفقهون)؛ لأنَّ العقلَ أعمُّ من العِلْم والفقه، وهذه الآياتُ آياتُ فراسةٍ وتَوسُّم؛ لذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٥).

٦- في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٥).

بِهَا﴾ أنَّ العدوَّ إذا أصابتْ عَدوَّه حسنةٌ ساءتْه، وإذا أصابتْه سيئةٌ فرِح بها، وقد جعل الفقهاء رحِمهم الله هذا ضابطًا في العَداوة، حينما تكلَّموا في باب الشَّهادات على أنَّ العدوَّ لا تُقبَل شهادتَه على عدوِّه، قالوا في ضابط العدوِّ: هو مَن سرَّتْه مساءتُك وساءَه مَسرَّتُك[1].

٧- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، لم يَقُل: (إنَّ الله محيط بما يعملون)؛ لأنَّه ليس المقصودُ هاهنا بيانَ كَوْنه تعالى عالِمًا، وإنَّما بيان أنَّ جميعَ أعمالهم معلومةٌ لله تعالى، ومُجازيهم عليها[2].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

- في تصديرِ الخِطابِ بالنِّداءِ في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دلالةٌ على أهمِّيَّة ما يأتي بَعْدَه والتَّنبُّه له[3].

- وقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾، و﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، وكذلك ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾: جُمَل مُستأنَفةٌ على وجهِ التَّعليل للنَّهي عن اتِّخاذهم بِطانةً للتَّنبيه، وهو أَبلغُ وأَحسنُ من تقديرِ هذه الجُملِ صِفةً للبِطانة[4]؛ فهي مُبيِّنةٌ لحالِهم، داعيةٌ إلى الاجتناب عنهم، ومؤكِّدةٌ للنَّهي أيضًا، ومُوجِبةٌ لزِيادةِ الاجتنابِ عن المنهيِّ عنه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٩٥- ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٦).

- قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه حَذْف الجوابِ؛ لدَلالة المذكور عليه، والتَّقدير: إنْ كنتم تَعقِلون ما بُيِّن لكم من الآيات فعملتُم به، أو: إنْ كنتُم عقلاءَ، وقد عَلِمَ تعالى أنَّهم عقلاءُ، لكن علَّقَه على هذا الشرطِ على سَبيلِ الهزِّ للنُّفوسِ، كقولك: إنْ كنتَ رجُلًا، فافعلْ كذا. وقيل: إنْ كُنتُم تعقلونَ فلا تُصافوهم، بل عامِلُوهم معاملةَ الأعداءِ(١).

٢- قوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ فيه خروجُ الأمْرِ عن معناه الحقيقيِّ إلى معنى التَّوبيخِ والتَّقريع، كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وليس هو بأمرٍ جازِم؛ لأنَّه لو كان أمرًا لَمَاتوا من فَورِهم، وليس بدعاءٍ؛ لأنَّه لو أمَرَه بالدعاء لَمَاتوا جميعُهم على هذه الصِّفة؛ فإنَّ دعوتَه لا تُرَدُّ، وقد آمَن منهم بعد هذه الآيةِ كثيرٌ، وليس بخبر؛ لأنَّه لو كان خبرًا، لوقَع على حُكمِ ما أَخبَر به، فلم يؤمن أحدٌ بعدُ(٢).

٣- قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ استئنافٌ ابتدائي، قُصِد منه المقابلةُ بين خُلُقِ الفريقين؛ فالمؤمنون يُحِبُّون أهلَ الكتاب، وأهلُ الكتاب يُبغِضونهم، وكلُّ إناء بما فيه يَرشَح(٣).

- وفيه تعجُّبٌ من مجموع الحالين؛ فالعجبُ مِن محبَّة المؤمنين إيَّاهم في حال بُغْضهم المؤمنين، ولا يُذكَر بعد اسمِ الإشارة جملةٌ في هذا التَّركيبِ إلَّا والقصد التَّعجُّب من مضمونِ تلك الجملة(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله: ﴿بِالْكِتَابِ﴾: فيه تعريفُ (الكتاب) للجِنْس؛ تعظيمًا وتكريمًا، وأُكِّد بصيغةِ المفرد (كله) مُراعاة للفظِه(١).

- قول الله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ في الآية إضمارٌ، والتَّقدير: وتؤمنون بالكتاب كلِّه وهم لا يؤمنون به، وحَسُن الحذفُ؛ لأنَّ الضِّدَّين يُعلمانِ معًا، فكان ذِكْرُ أحدهما مُغنيًا عن ذِكْر الآخَر(٢).

٥- **قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** تذييلٌ لقوله: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، وما بينها كالاعتراض، أي: إنَّ الله مُطَّلِع عليهم، وهو مُطلِعك على دخائِلِهم(٣).

٦- **قوله: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾** ذِكرُ المسِّ مع الحَسنةِ، والإصابةِ مع السيِّئة؛ للإيذانِ بأنَّ مدارَ مَساءتِهم أدْنى مراتبِ إصابةِ الحَسنةِ، ومناطَ فرحِهم تمامُ إصابةِ السَّيئةِ(٤)؛ لأنَّ الشَّيءَ المصِيب لشيءٍ هو مُتمكِّنٌ منه، أو فيه، فدلَّ هذا النَّوعُ البليغُ على شِدَّة العداوةِ؛ إذ هو حِقْدٌ لا يَذهَبُ عند نُزولِ الشَّدائد، بل يَفرحون بنُزولِ الشَّدائدِ بالمؤمنين، وهكذا هي عداوةُ الحسدِ في الأغلبِ، ولا سيَّما في مِثلِ هذا الأمرِ الجسيمِ الذي هو مِلاكُ الدُّنيا والآخِرة(٥).

- وفي قوله: ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ و﴿سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ قابَل الحسنةَ بالسيِّئةِ، والمساءةَ بالفرحِ، وهي مقابلةٌ بديعةٌ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٢).

- و﴿حَسَنَةٌ﴾، ﴿سَيِّئَةٌ﴾ نَكِرتانِ في سِياقِ الشرطِ؛ تفيدان العمومَ، أي: أيُّ حَسنةٍ دُنيويَّة أو دِينيَّة أو ماليَّة أو بدنيَّة؛ فأيُّ حسنةٍ تُصيبُ المؤمنينَ فإنَّها تَسوءُهم؛ لأنَّهم أعداءٌ، وكذلك السيِّئة؛ أيُّ سَيِّئةٍ تُصيبُ المؤمنينَ؛ فيما يَسوءُهم في البدنِ أو الأهلِ أو المالِ أو الدِّين، يَفْرَحون بها[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٠٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٢).

الآيات (١٢١ - ١٢٩)

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
(١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم
بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ
يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) ﴾

غريبُ الكلمات:

﴿غَدَوْتَ﴾: أي ذهبتَ أوَّلَ النَّهار؛ يُقال: غدا يَغْدو، والغَدْوة والغَدَاة تكون من أوَّلِ النَّهار(١).

﴿تُبَوِّئُ﴾: تتَّخِذ لهم، وتُوطِّن، وأصْل البَواء: مساواةُ الأجزاءِ في المكانِ، وتَساوي الشَّيئين(٢).

﴿مَقَاعِدَ﴾: أي: مُعسكرًا، ومَصافَّ للقِتال، وأصْل المَقعَد: مكان القُعُود(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

﴿تَفْشَلَا﴾: أي: تجبُنا وتَضعُفا(١).

﴿أَذِلَّةٌ﴾: قليلون مَقهورون، وأصل الذُّلِّ: الخضوعُ، والاستكانةُ، واللِّين، والذُّلُّ: ضدُّ العزِّ، وخِلافُ الصُّعوبة(٢).

﴿مِنْ فَوْرِهِمْ﴾: أي: مِن وجْهِهم أو مِن ساعتِهم، أو مِن غضَبِهم، ، يُقال: فار فائرُه، إذا غضِب، وأصْل الفَوْر: ابتداءُ الأمْر، يُؤخَذ فيه ويُوصَل بآخَرَ؛ يُقال: فَعلَه مِن فَوْره، أي: في بَدْءِ أمْره، قبل أن يَسكُن(٣).

﴿مُسَوِّمِينَ﴾: أي: مُعلِّمين لأنفسِهم أو لخيولِهم بعَلامةِ الحَرب، مأخوذٌ من السَّومة والسِّيماء: وهي العلامة التي تُعلِّم الفارسَ نفْسَه(٤).

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: أي: ليَقتُل فِرْقةً منهم، أو يُهلِك جماعةً منهم، وأصْل القطع: الفَصْل، وإبانةُ شيءٍ من شيء، وطرَف الشَّيء: جانِبُه، وأصْله: حدُّ الشيءِ وحَرْفه(٥).

﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: يَصرَعهم لوجوهِهم ويُهلِكهم، والكَبْت: الإهلاكُ، والردُّ بعُنفٍ وتذليل(٦).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٩، ١١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) (٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، =

﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾: فيَنهزِموا مُنقطِعِي الآمال، والانقلابُ: الانصرافُ، ورجوعُ القَهْقَرى، وقلبُ الشيءِ: تصريفُه وصرْفُه عن وجْهٍ إلى وجه[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُذكِّر الله نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بخروجه من بيته للقاءِ الكفَّار يوم أُحدٍ، حين كان يُرتِّب المؤمنين للقتال، كلٌّ في مَقعَده اللائق به، والله سبحانه مُطَّلعٌ على كلِّ شيءٍ، فهو سبحانه السميعُ العليمُ.

ويذكِّره أيضًا حين همَّت طائفتانِ من المؤمنين- وهما بنو سَلِمَةَ وبنو حارثة- بالفشلِ، فثبَّتهما الله تعالى، مُنبِّهًا أنه عليه وحْدَه فليتوكَّل المؤمنون.

ويَمتنُّ الله على عِبادِه بنَصْرِه لهم يومَ بدرٍ وهم ضعفاءُ، فينبغي أنْ يتَّقوه؛ لعلهم يَشكُرونه تعالى لِمَا امتنَّ به عليهم، ثم يُذكِّر الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حين قال عليه الصَّلاة والسَّلام لأصحابه مُبشِّرًا لهم، ألَن يَكفِيَكم إمدادُ الله لكم بثلاثة آلاف من الملائكة، يُنزِلهم سبحانه وتعالى من السَّماء؛ ليُشارِكوكم القتالَ يوم بدرٍ، بلى، هو كافٍ لكم، ولكم أيضًا أنْ يُمِدَّكم الله بخمسةِ آلافٍ من الملائكة الذين عليهم علامةُ الشُّجعان في حالِ صَبْركم وتقواكم، ومجيءِ المشركين من الجِهة التي جاؤوكم منها مُسرِعين إليكم.

ويُخبِرهم سبحانه أنَّ إعلامَ الله لهم بأنَّه سيُمِدُّهم بالملائكة هو بُشرى لهم؛ ولتَسكُنَ قلوبهم به، وما النَّصر إلَّا من عند الله العزيز الحكيم، يَنصُرهم سبحانه من أجْل أن يُهلِك بعضَ الكفَّار، أو يُخزي بعضَهم، ويُذِلَّهم، فيعودوا

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

إلى بلادِهم خائبين لم ينالوا خيرًا، أو أنَّه سبحانه يَهديهم للإسلام، أو يُعذِّبهم بسبب ظُلْمهم، فأمرُهم كلُّه راجعٌ إلى الله سبحانه، ليس للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من الأمر شيء.

ثم يُقرِّر تعالى أنَّ له وحْده كلَّ ما في السَّموات والأرض، يتجاوزُ عن عقوبةِ مَن يشاء مِن عباده، ويُعاقِب مَن يُشاءُ، والله هو الغفورُ الرَّحيم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ سلاحَ الصبر والتقوى يأمنُ بإذنِه المؤمنون من غوائلِ المتربِّصين، ويحصُل به النصرُ على الكافرين، ذكَر هنا مثالًا يَمنعُ تحقُّقَ ذلك الأمْر، إذا تخلَّفتْ بعضُ أسباب النصر تلك[١].

وأيضًا لما حذَّر الله تعالى عِبادَه من اتِّخاذ الأعداءِ بطانةً ذِكر هذه الغزوةِ؛ ليُظهر شيئًا من كيدِ الأعداءِ الذين حذَّر من اتِّخاذهم بطانةً[٢].

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

أي: واذكُر- يا محمَّدُ- حين خرجتَ مِن بيتك مُغادِرًا المدينةَ، للقاءِ المشركين في غزوة أُحُد، وأخذتَ تُنزِل المؤمنين في مَواضِع القتالِ التي يَثبُت فيها الجيشُ، ولا يَنتقِل عنها؛ لأنَّها لائقةٌ بتحرُّكاته، كلٌّ في الموضِع الذي يَصلُح له مَيمنةً أو مَيسرةً وغير ذلك[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥-١١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٥)، ((تفسير =

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سميعٌ لِمَا تتشاورُ فيه أنت ومَن معك حول مَوضِع لقاءِ العَدوِّ، عليمٌ بأصلحِ تلك الآراء لكم، وبما تُخفيه صدورُ المُشيرين من المؤمنين والمنافقين من نيَّات، كما أنَّه سبحانه يسمعُ ويعلمُ غيرَ ذلك من أمورِكم وأمورِ سائر خَلْقه، فيُحصي على عبادِه ما يقولون ويعملون، وبحسَب ذلك يُجازون[1].

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)﴾.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾.

أي: واذكرْ إذْ حدَّث بنو سَلِمةَ وبنو حارثة أنفسَهم بالفِرار، والانصرافِ عن القتال مع رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ أُحُد؛ خوفًا وضَعْفًا من لِقاء العدوِّ، لا شكًّا منهم في الإسلام ولا نفاقًا[2].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

أي: عصَمهم اللهُ ممَّا همُّوا به، فثبَّتهم برعايته الخاصَّة، وأيَّدهم ووفَّقهم

= ابن كثير)) (٢/ ١٠٩-١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٠-٧١).

وممَّن قال من السلف: إنَّ الآية متعلقةٌ بيوم أُحد: ابن عباس، وقتادة، والربيع، والسُّدِّي، وابن إسحاق. انظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦)، و((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١-١٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ٩٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢، ١٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١١).

قال ابنُ جرير: (ولا خلافَ بين أهل التأويل أنَّه عنَى بالطائفتين بني سلمة وبني حارثة، ولا خلافَ بين أهل السِّيَر والمعرفة بمغازي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ الذي ذكَر الله من أمرهما إنما كان يومَ أُحُدٍ دون يوم الأحزاب) ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧).

لِيَمضوا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لقتالِ الأعداء[(١)].

عن جابرِ بن عبدِ الله رضِي اللهُ عنهما، قال: ((فينا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾، قال: نحن طائفتان: بنو حارِثةَ وبنو سَلِمَةَ، وما نُحِبُّ- وقال سُفيانُ مرةً: وما يَسُرُّني- أنَّها لم تَنزِلْ؛ لقولِ اللهِ: ﴿وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾))[(٢)].

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ تعالى وحْده اعتَمِدوا بصِدقٍ- أيُّها المؤمنون- في كلِّ شؤونكم؛ جلبًا للخيرات، أو دفعًا للكريهات[(٣)].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ سلاح الصَّبر والتَّقوى يأمَن بإذنه المؤمنون من غوائل المُتربِّصين، ويحصُل به النَّصر على الكافرين، ذكَر هنا مثالًا تحقَّقت فيه للمؤمنين أسبابُ النَّصر هذه، فنصرهم الله تعالى بفضلِه[(٤)].

كما أنَّه لَمَّا ذكَر حالَهم في غزوة أُحُد، وما جرَى عليهم من المصيبة، أدخَل فيها تذكيرَهم بنَصْره، ونعمتِه عليهم يوم بَدْر؛ ليكونوا شاكرين لربِّهم، وليُخفِّف هذا هذا[(٥)] فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٥، ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١١-١١٢).

(٢) رواه البخاري (٤٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١١٢-١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٣).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾.

أي: ولقد أَظهَركم اللهُ على عدوِّكم، فغلَبتموهم في الغزوة التي دارتْ في محلَّة بَدْر، والحال أنَّكم يومئذٍ ضعفاءُ، فقليلٌ عَددُكم وعُددُكم، وكنتم في غير مَنَعَةٍ من النَّاس، وهم كانوا أكثرَ منكم عَددًا وعُددًا، فإنْ تَصبِروا لأمْر الله وتتَّقوه سبحانه يَنصرْكم كما نصرَكم في ذلك اليوم(١).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: لأنَّ الله تعالى جعَل لكم الغَلَبة يومَ بدر، فاتَّقوه بامتِثال أوامِره، واجتنابِ نواهيه؛ لتكونوا بذلك من الشَّاكرين له على ما منَّ به عليكم من النَّصرِ على الأعداء، وجَعْلِكم مِن بعد الهوانِ أعزَّاء(٢).

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤)﴾.

أي: اذكُر- يا محمَّدُ- حين قلتَ للمؤمنين من أصحابك مُبشِّرًا لهم: ألَا يكون كافيًا إمدادُ الله تعالى لكم بثلاثة آلاف من الملائكة، يُنزِلهم سبحانه من السماء؛ ليُقاتِلوا معكم المشركين يوم بَدْر(٣)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦، ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٦).

نسب ابن عاشور لجمهور المفسِّرين أنَّ نزول الملائكة المذكور في هذه الآية كان في غزوة بدر.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠، ٢٨، ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير =

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾.

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾.

أي: هذا الإمدادُ يَسُدُّ حاجتكم، ولكن إنِ استعملتُم الصَّبر في كلِّ ما وجب فيه الصَّبر، ولَزِمتُم التَّقوى بامتِثال أوامرِ الله تعالى واجتناب نواهيه، وخرج المشركون عليكم مباشرةً من حيث خرَجوا، مُسرِعين إليكم، في حدَّةٍ وحرارةٍ لقتالكم[(١)].

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قِراءتان:

١- ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ -بكَسرِ الواو على أنَّها اسمُ فاعل- أي: سوَّم الملائكةُ أنفسَهم، أو سوَّموا خُيولَهم[(٢)].

٢- (مُسَوَّمِينَ) -بفَتحِ الواو على أنَّها اسمُ مفعول- أي: إنَّ الملائكةَ قد سُوِّموا[(٣)].

= السعدي)) (ص: ١٤٦، ٩٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢، ٧٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٢-١٣٣).

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ويأتوكم﴾ أي يأتي المدد لنصرة إخوانهم المشركين يوم بدر. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٥).

(٢) قرأ بها ابنُ كثير، والبصريَّانِ، وعاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٣)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤). =

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

أي: إنَّ ربَّكم الذي له بكم عِناية خاصَّة، يُزوِّدكم بأكثر ممَّا وعدكم من قَبْل بزيادة ألفين من الملائكة، يأتونكم وعليهم أو على خيولهم علامة الشُّجعان الأبطال، دَلالة على أنَّهم لا يَكترِثون بأنْ يَعرِفهم عدوُّهم من شدَّة شجاعتهم[1].

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾.

أي: وما أَخبَركم اللهُ سبحانه بنبأِ إمدادِكم بالملائكةِ إلَّا لإدخالِ السُّرور عليكم[2].

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾.

أي: جعَل اللهُ تعالى هذا المددَ لكم؛ لحصولِ الطُّمأنينة أيضًا في قلوبِكم، فتَسكُن، ولا يُصيبها الهَلَعُ والانزعاجُ من تفوُّق عدوِّكم عليكم في العَدد والعُدد[3].

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

أي: لا يتحقَّق لكم الظَّفَرُ بعدوِّكم إلَّا بعَونِ الله وحده، لا من قِبَل المددِ الذي يأتيكم من الملائكة، فعلى الله فتوكَّلوا، وبه فاستَعينوا، لا على ما أُوتيتم

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٣)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٣، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((العذب النمير)) (٤/ ٥٤١).

من أسباب؛ فإنَّه الذي ذَلَّ له كلُّ الخلائق، فهم تحتَ تدبيره وقَهْره، وهو الغالبُ على أمْره، وهو الذي يَضَع الأشياء مَواضِعها، فيتصرَّف في عبادِه بحِكمتِه، ومن ذلك أنَّه يَنصُر أولياءَه كما في بَدْر، أو يُقدِّر هزيمتَهم، كما وقَع في أحدٍ[1].

قال تعالى بعدَ أمْرِه المؤمنين بالقتال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)﴾.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: مِن أسبابِ نَصْر الله تعالى لعباده إهلاكُ بعض الكفَّار، كاستئصالِ صناديدِهم، وأسْر بعضِهم، وقتْل آخرين، كما وقَع يومَ بَدْر، أو الاستيلاءِ على أراضيهم وأموالِهم، وغير ذلك[2].

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.

أو يُخْزي بعضَهم، ويُصيبهم بالغمِّ والحَزَن، بسببِ رُجوعهم مُحمَّلين بالخيبةِ والفشل الذَّريع؛ إذ لم ينالوا ما أمَّلوا من الانتصارِ عليكم- أيُّها المؤمنون[3].

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾.

سببُ النُّزول:

عن أنسِ بن مالكٍ رضِي اللهُ عنه، ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨، ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٩).

كُسِرَتْ رَباعيَتُه[١] يومَ أُحُدٍ، وشُجَّ[٢] في رأسِه، فجَعل يَسلُتُ[٣] الدمَ عنه، ويقول: كيف يُفلِحُ قومٌ شجُّوا نبيَّهم وشجُّوا رَبَاعِيَتَه وهو يَدعوهم إلى اللهِ؟! فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾))[٤].

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾.

أي: إنَّ شأنَ أولئك الكفَّار راجعٌ إلى اللهِ تعالى لا إليكَ- يا محمَّدُ-؛ فاترُك أمرَهم للهِ عزَّ وجلَّ، وامضِ أنتَ لشأنِكَ في تبليغِ رِسالةِ ربِّك، فإمَّا أنْ يُوفِّقهم الله تعالى للدُّخول في دِينه، فيُسلِموا محضَ فضلٍ منه جلَّ وعلا، أو يُعذِّبهم في الدُّنيا أو الآخِرة عدْلًا منه سبحانه؛ بسببِ وضْعهم أنفسَهم في غيرِ ما خُلِقُوا لأجله، باعتناقِهم الكفرَ، وارتكابِهم المعاصي[٥].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ جميعَ المخلوقات مُلْكٌ لله تعالى وحده، يحكُم فيهم بما شاءَ،

---

(١) الرَّبَاعيَة- بوزن الثمانية-: هي السِّنُّ التي بين الثنية والناب. ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٧).

(٢) شُجَّ في رأسه: أي ضرب بشيء فجرح رأسه وكسر أو شق، فالشج أن يعلو رأس الشيء فيضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه، ولا يكون الشج إلا في الرأس- في الأصل- ثم استعمل في غيره من الأعضاء. ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٤٥)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٥٤).

(٣) يَسلُت: أي يميط عنه الدَّم، ويَمسحُه لينْظُفَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٨٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٤/ ٥٦٤- ٥٦٥).

(٤) رواه مسلم (١٧٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٩-٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٤٦-١٤٨).

ويتصرَّف فيهم بما أَحبَّ سبحانه(١).

﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: ما دامَ أنَّ له مُلْكَ كلِّ شيءٍ سبحانه، فعباده دائرون بين مَغفرتِه وتعذيبه، فيَتجاوَز عن عقوبةِ مَن يشاء بحِكمته، فضلًا منه سبحانه، ويُعاقِب مَن يشاء بحِكمته، عدْلًا منه سبحانه(٢).

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: هو الذي يَستُر ذُنوبَ عباده، ويتجاوَز عن المؤاخذة بها، وهو الرَّحيم الذي رحْمته غلبتْ غضبه، ومِن رحمته سَعةُ إحسانِه إلى عباده(٣).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- التَّوفيقُ والعِصمةُ من الله تعالى، ولولا توفيقُه سبحانه وتسديدُه لَمَا تَخلَّص أحدٌ عن ظُلماتِ المعاصي، يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾(٤).

٢- أنَّه يَنبغي للقائد أنْ يُبوِّئ أمكنةَ المُقاتِلين، ويُعرِّف كلَّ واحد منهم مكانَه وعملَه؛ حتى لا يَحصُل ازدواجٌ يَضُرُّ بالجيش، كلُّ واحد يُرتِّبه على حسَب ما يَليق به، ويقول: اجلِس مكانَك، وهذا عملُك واستمرَّ عليه؛ لأنَّ في النِّظام- ولا سيَّما في مِثْل هذه المواقف- فائدةً كبيرةً(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٠-١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢١).

٣- وجُوب التَّوكُّل على الله، وأنَّه مِن مُقتضى الإيمان؛ لقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١]، وأنَّه ينبغي التوكُّل على الله- ولا سيما- في هذه المواطِن التي يَشتدُّ فيها الأمرُ على المسلم، بل على المؤمن ألَّا يَنظُر إلى الأمورِ نظرًا ماديًّا؛ لأنَّ وراء الأمور الماديَّة ما هو أعظَم منها، وهي قُدْرة الله سبحانه وتعالى التي تَقضي على كلِّ هذه الأمور [٢].

٤- يَنبغي أنْ يَدفَع الإنسانُ ما يعْرِضُ له من مكروهٍ وآفةٍ بالتَّوكُّل على الله تعالى، وأنْ يَصرِف الجَزْع عن نَفْسه بذلك التَّوكُّل، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٣].

٥- أنَّه إذا قوِي الإيمانُ قوِي التَّوكُّل على الله؛ لقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بِناءً على قاعدة معروفة، وهي: أنَّ ما عُلِّق على وصْفٍ يقوى بقوَّته، ويَضْعُف بضَعفه[٤].

٦- يَذكُرُ اللهُ الأسبابَ ويأمُر بألَّا يُعتمَدَ عليها، ولا يُرْجَى إلَّا اللهُ تعالى؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى لَمَّا أنزلَ الملائكةَ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٥].

٧- في قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أنَّ الإنسان بغير نَصْر الله لا يستطيعُ أن يَنتصِر، وإن عَظُمت الأسباب من كثرة عَدد وقوة عُدَد؛ لأنَّه إذا كان جندُ الله الذين هم أعظمُ جندٍ كانوا على وجْهِ الأرض، وهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومن معه، لم يَنتصِروا بأنفسهم، وإنَّما انتصروا بنصر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٢).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٥٨).

الله؛ فمَن سواهم مِن باب أَوْلى، ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّنا لا نُعلِّق النَّصر إلَّا بالله سبحانه وتعالى، لا نُعلِّق النَّصرَ بقوَّتنا[١].

٨- أنَّه كلَّما كان الإنسان أذلَّ لله كان أقربَ إلى نصْر الله، وكلَّما كان الإنسان مُستغنيًا عن الله كان أبعدَ عن النَّصر؛ لقوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، والإنسان إذا رأى مِن نَفْسه العِزَّة وعلا وشمخ فإنَّه يُخذَل، قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[٢] [العلق: ٦-٧].

٩- أنَّ مَنْ مَنَّ الله عليه بنعمةٍ كان ذلك مُوجِبًا لتقوى الله، فالنَّصر سببٌ للتَّقوى والذُّلِّ لله والخضوعِ له والانطراحِ بين يديه، كما فعَل النَّبيُّ عليه السَّلام حين فتَح مكة دخل مُطأطِئ الرَّأس يتْلو كتابَ الله عزَّ وجلَّ، خِلافًا لِمَا يفعله بعضُ النَّاس إذا انتصر جعَل هذا النَّصر سببًا للأَشَر والبَطَر والملاهي والأغاني، وغير ذلك من المعاصي، بل قد يكون بعد النَّصر أكثرَ منه فُسُوقًا ممَّا قبل الحرب، وهذا خلافُ ما أمر الله به؛ لأنَّه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فأمر بالتَّقوى بعد النَّصر؛ لئلا يَشمَخَ الإنسان بأَنْفه، ويتطاوَل على ربِّه بانتصاره، فيعود إلى ما كان عليه من الفَرَح والبَطَر والأَشَر[٣].

١٠- أنَّ تقوى الله تعالى من الشُّكر لله؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهذا أمْرٌ لا شكَّ فيه أنَّ التَّقوى من الشُّكر، بل هي الشُّكر حقيقةً؛ لأنَّ التَّقوى اتِّخاذ وقاية من عذاب الله بفِعْل أوامره واجتناب نواهيه، والشُّكر هو القيام بطاعة المُنعِم بالقلب واللِّسان والجوارح[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١١- أفاد قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ ما كان عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في معاملة أصحابه؛ من إدخالِ الأمَلِ في قلوبهم عند اشتدادِ الأزمات، وهذا أدْعى للنَّشاط وطرْحِ الهمِّ والغمِّ، أمَّا بعض النَّاس فيكون على العكس تَجِده يُدخِلُ على النَّاس التَّشاؤمَ والمروِّعاتِ والمُخيفاتِ، وهذا لا شكَّ أنَّه خلافُ السِّياسة الشَّرعيَّة، بل وخلافُ العقل[1].

١٢- أنَّ الصَّبرَ والتَّقوى سببانِ للنَّصر؛ لقوله: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: تَصبِروا على الأوامر، وتتَّقوا المحارم[2].

١٣- في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ما يُفيد أنَّ البابَ مفتوحٌ أمامَ العباد؛ لينالوا مغفرتَه ورحْمتَه، بالعودة إليه، وردِّ الأمر كلِّه له، وأداء الواجب المفروض، وترْكِ ما وراء ذلك لحِكْمتِه وقَدَره ومشيئته المُطلَقة من وراء الوسائل والأسباب[3].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائف:

١- حُسْنُ تدبيرِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الحرب؛ لقوله: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[4].

٢- في كلمة ﴿طَائِفَتَانِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾: إشارة لطيفة إلى الكِناية عمَّن يَقَع منه ما لا يُناسِب والسَّتْر عليه، إذ لم يُعيِّن الطائفتين بأنفسهما، ولا صرَّح بمَن هما منه من القبائل؛ سَترًا عليهما[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٩).

٣- أنَّ الدِّعايةَ- ولو كانتْ باطلةً- ربما تؤثِّر حتى على المؤمن؛ قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾(١).

٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى يَلطُف بالمؤمن حتى يُثبِّته على الحقِّ؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾(٢).

٥- قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فيه تنبيهٌ على الوصفِ الذي يَقتضي التَّوكُّلَ، وهو الإيمان، فهو مِن دواعي التَّوكل ومُوجِباتِه(٣).

٦- في قول الله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ قدَّم لهم الوعدَ بنُزول الملائكة؛ لتَقْوَى قلوبُهم؛ ويَعزِموا على الثَّبات، ويَثِقوا بنصر الله(٤).

٧- أنَّ مَوطِن الملائكة هو السماء، هذا هو الأصلُ؛ لقوله ﴿مُنْزَلِينَ﴾؛ لأنَّ النُّزول إنَّما يكون مِن أعلى إلى أسْفَل، فإذا كان هؤلاءِ الملائكةُ مُنزَلين دلَّ على أنَّ مكانهم في السَّماء، هذا هو الأصلُ، لكن ينزلون إلى الأرضِ كثيرًا حسَب أمْر الله تعالى(٥).

٨- في قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾؛ صرَّح أنَّ البُشرى لهم في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ مع ظهورِ ذلك؛ للدَّلالةِ على تكرِمةِ الله تعالى إيَّاهم بأنْ بشَّرهم بُشرى لأجْلهم، كما صرَّح بذلك في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢٤/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).

٩- إثباتُ الحِكمة لله عزَّ وجلَّ في أفعاله وتشريعاته؛ وذلك لأنَّ اللام للتَّعليل، والتَّعليلُ هو الحكمة، قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١].

١٠- في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾، أنَّ الله سبحانه وتعالى يُسلِّط المؤمنين على الكفَّار؛ ليَقطَع طرفًا من الذين كفروا، وليس كلَّ الذين كفَروا؛ لأنَّ مِن حِكمة الله أنْ يبقى الإيمانُ والكفر متصارعَينِ دائمًا؛ حتى يَتبيَّن المؤمنُ الخالصُ من غيره[٢].

١١- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يَملِك شيئًا من الأمر الكونيِّ، وفي هذه الجملةِ ردٌّ على الذين يتعلَّقون بالرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام في الدُّعاء، والاستعانةِ به، والاستغاثةِ به حتى بعدَ موته[٣].

١٢- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، دلالةٌ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُكلَّف، يأمُره الله سبحانه وتعالى وينهاه؛ وعليه فيكونُ في هذا إبطال لدَعْوى مَن يقولون: إنَّ الإنسان إذا وصَلَ إلى حالة مُعيَّنة من العبوديَّة سقطتْ عنه التَّكاليف؛ فيُقال لهم: إذا كان النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام- وهو أشرفُ الخَلْق- لا يَصِل إلى هذه المرتبةِ؛ فما بالك بمن دونه[٤]؟!

١٣- أنَّ الله سبحانه قد يُعذِّب الكافرين عذابًا ليس للمسلمين فيه يدٌ، بل هو مِن عند الله وحْده؛ لقوله: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤٨).

١٤- أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُعذِّب إلَّا بذنب؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، والظالم مُستحِقٌّ لأنْ يُنكِّل اللهُ به؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُحِب الظلم(١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

- قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾: فيه تخصيصُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالخِطاب خاصَّة، مع عمومِ الخطابِ فيما قبله وما بعدَه، له وللمؤمنين؛ لاختصاصِ مضمونِ الكلامِ هنا به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

- قوله: ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: فيه إطلاقُ العامِّ المرادِ به الخاصُّ؛ إذ المرادُ بـ﴿أَهْلِكَ﴾: بيتُ عائشة رضي الله عنها- على قول الجمهور(٣).

- قوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: الجملةُ اعتراضٌ؛ للإيذانِ بأنَّه قد صدَر عنهم هناك من الأقوالِ والأفعالِ ما لا يَنبغي صدورُه عنهم(٤).

٢- قوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

- جملةُ ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ اعتراضٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا من فاعل ﴿همَّتْ﴾ أو من ضميرِه في ﴿تَفْشَلَا﴾، وهي مفيدةٌ لاستبعادِ فشلِهما، أو همِّهما بِه مع كونِهما في ولاية الله تعالى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٩).

- وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ للتَّبرُّك والتَّعليل؛ فإنَّ الأُلوهيَّة من مُوجِبات التَّوكُّلِ عليه تعالى، واللامُ في ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ للجِنْس؛ فيدخلُ فيه الطائفتان دخولًا أوليًّا[١].

- وقُدِّم المجرورُ - وهو لفظُ الجلالة ﴿اللهِ﴾ - للاعتناءِ بمن يُتوكَّل عليه[٢].

٣- قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ؛ سِيقتْ لإيجاب الصبرِ والتَّقوى، بتذكير ما ترتَّب عليهما من النَّصر إثرَ تذكيرِ ما ترتَّب على عدمهما من الضَّرر[٣].

- قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ انهزام يوم أُحُد لا يَفِلُّ حِدَّة المسلمين؛ لأنَّهم صاروا أعزَّةً، والحرب سِجالٌ[٤]، و(الأذِلَّة) جمع قِلَّة، وإنما ذُكِر جمعُ القِلَّة؛ ليَدلَّ على أنَّهم مع ذُلِّهم كانوا قليلين[٥]..

٤- قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه الاقتصارُ على الأمر بالتَّقوى مع كونه مشفوعًا بالصَّبر فيما سبَق وما لحِق؛ للإشعارِ بأصالتِه، وكونِ الصَّبرِ من مباديه اللازمةِ له؛ ولذلك قُدِّم عليه في الذِّكر، وفي ترتيبِ الأمرِ بالتَّقوى على الإخبار بالنَّصر إيذانٌ بأنَّ نصرَهم المذكورَ كان بسبب تقواهم؛ أي: إذا كان الأمرُ كذلك، فاتَّقوا الله كما اتَّقيتم يومئذ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢٤/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٣٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢٤/ ٧٩).

٥- قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ثم قال بعده: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾: فيه تلوينٌ للخِطاب بتَخصيصِه رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لتشريفِه، والإيذانِ بأنَّ وقوعَ النَّصرِ كان ببِشارتِه عليه السَّلام[١].

- و﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لـ﴿نَصَرَكُمْ﴾ قُدِّم عليه الأمر بالتَّقوى؛ لإظهارِ كمالِ العِنايةِ به، والمرادُ به الوقتُ الممتدُّ الذي وقع فيه ما ذكَر بعده[٢].

- وصيغةُ المضارعِ ﴿تَقُولُ﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ صورتِها أي: نصَركم وقتَ قولِك[٣].

٦- قوله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾:

- الاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَنْ﴾ تقريريٌّ؛ لإثباتِ أنَّ ذلك العددَ كافٍ[٤].

- وجيءَ في النَّفي بحرف (لَنْ) الذي يُفيد تأكيدَ النَّفي؛ للإشعارِ بأنَّهم كانوا يوم بدر لِقلَّتهم، وضَعْفهم، مع كثرةِ عَدوِّهم، وشَوْكته، كالآيسين من كفايةِ هذا المدد من الملائكة، فأوقَع الاستفهامَ التَّقريريَّ على ذلك؛ ليكون تَلْقِينًا لمَن يُخالِج نَفْسه اليأسُ من كفاية ذلك العدد من الملائكة، بأنْ يُصرِّح بما في نفْسه، والمقصود من ذلك لازمُه، وهذا إثباتُ أنَّ ذلك العدد كافٍ[٥].

- وقوله: ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ﴾ في إسنادِ الإمدادِ إلى لفظة ﴿رَبُّكُمْ﴾ دون غيرِه من أسماءِ اللهِ: إشعارٌ بحُسْنِ النَّظر لهم، واللُّطف بهم[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٩- ٨٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٣٤).

- قوله: ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾: فيه وصْف الملائكة بـ﴿مُنْزَلِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنهم يَنزِلون إلى الأرض في مَوقِع القتال؛ عِنايةً بالمسلمين[١].

٧- قوله: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ...﴾:

- ﴿بَلَى﴾ إبطالٌ للنَّفي، وإثباتٌ لكون ذلك العدد كافيًا[٢].

- قوله: ﴿مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾: لفظ ﴿فَوْرِهِمْ﴾ فيه تأكيدٌ لسرعةِ إتيانِهم، وإمدادِهم، بزيادةِ تعيينِه وتقريبِه، مع تحقُّق الإمدادِ لا محالةَ، سواءٌ أَسرعوا أو أبطؤوا؛ لتحقيقِ سُرعةِ الإمدادِ لا لتحقيقِ أصلِه، أو لبيانِ تحقُّقِه على أيِّ حالٍ فُرِضَ، على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه بتعليقه بأبعدِ التقاديرِ؛ ليُعلم تحقُّقُه على سائرِها بالطَّريق الأَوْلى؛ فإنَّ هجومَ الأعداءِ وإتيانَهم بسرعةٍ من مظانِّ عدمِ لُحوقِ المددِ عادةً، فعُلِّق به تحققُ الإمدادِ إيذانًا بأنَّه حيثُ تحقَّقَ مع ما ينافيه عادةً، فلأَنْ يتحقَّقَ بدونه أولى وأحرى[٣].

- وإضافةُ الفَورِ إلى ضميرِ الآتين في قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ﴾؛ لإفادةِ شدَّة اختصاصِ الفَوْر بهم، أي: شدَّة اتِّصافِهم به حتى صارَ يُعرَف بأنَّه فَوْرهم[٤].

- والإشارةُ بقوله: ﴿هَذَا﴾ إلى الفور؛ تنزيلًا له منزلةَ المُشاهَد القريب[٥].

٨- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾:

- فيه إظهارُ اسمِ الجلالةِ (الله) في مَقامِ الإضمار؛ للتَّنويهِ بهذه العِناية مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ بهم(١).

- وقد وردتْ في سورةِ الأنفال آيةٌ أُخرى مشابهةٌ لهذه الآيةِ التي في آل عمران، وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، لكن جاءَ التعبيرانِ فيهما بعضُ الاختلاف؛ ففي هذه الآية قال ﴿بُشْرَى لَكُمْ﴾، بينما في آيةِ الأنفالِ لم يذكُر الجارَّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾، وفي هذه الآية قال: ﴿قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ فأخَّر الجارَّ والمجرور ﴿بِهِ﴾، بينما قدَّمه في الأنفال فقال: ﴿بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، وفي هذه الآية قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وقال في سورةِ الأنفال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ومن الحِكَم في هذا التغايُرِ ما يأتي(٢):

أ- أمَّا التَّصريح بالجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿بُشْرَى لَكُمْ﴾ فقدْ جاءَ على الأصل، بينما في آية الأنفال لم يُظهِرِ الجارُّ والمجرورُ؛ لأنَّه قد تقدَّم (لَكُمْ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]؛ فأغْنَى عن إعادتِها بلفظها ومعناها، فالتصريحُ بها هنا يُعلَم منه أنَّ جَعْل البشرى لهم، بينما لم يتقدَّم في سورة آل عمران ما يقومُ مقامَ الأُولى؛ لهذا جاءَ بها على الأصلِ.

ولأنَّه لَمَّا تقدَّم في آية آل عمران قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ﴾ والإخبارُ عن عدوِّهم، فاختلَط ذكرُ الطائفتينِ، وضَمَّهما كلامٌ واحدٌ، فجُرِّدت البشارةُ لِمَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للخطيب الإسكافي (١/ ٣٨٩- ٣٩٥)، ((البرهان في توجيه متشابه القرآن)) للكرماني (ص: ٩٢)، ((ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٨٩- ٩٠).

هُدي منهما، وأنَّها لأولياءِ الله المؤمنين، فجيء بضمير خِطابهم ﴿لَكُمْ﴾ متَّصلًا بلام الجرِّ المقتضيةِ الاستحقاقَ، فقيل: ﴿بُشْرَى لَكُمْ﴾، أمَّا آيةُ الأنفال فلم يتقدَّمْ فيها ذِكرٌ لغيرِ المؤمنين؛ فلم يُحتَجْ إلى ذِكْر ضميرِ الخِطاب ﴿لَكُمْ﴾.

ب- وأمَّا تأخيرُ ﴿بِهِ﴾ بعدَ قوله: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ هنا في آل عمران، وتقديمُها في آية الأنفال؛ فلأنَّه لَمَّا أخَّر الجارَّ والمجرورَ في الكلامِ الأوَّل، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ..﴾، وعطَف الكلامَ الثاني عليه، وقد وقَع فيه جارٌّ ومجرور وجَب تأخيرُهما في اختيار الكلام؛ ليكونَ الثاني كالأوَّل في تقديمِ ما الكلامُ أحوجُ إليه، وتأخيرُ ما قد يُستغنَى عنه، وأمَّا تقديم (به) في آيةِ الأنفال؛ فلأنَّ الأصلَ في كلِّ خبرٍ يُصدَّر بفِعل أنْ يكون الفاعلُ بَعدَه، ثمَّ المفعولُ والجارُّ المجرور، وقد يُقدَّم المفعولُ على الفاعلِ إذا كان اللبسُ واقعًا فيه، وأُريد إزالتُه عنه، ومثله الجارُّ والمجرور، وفي هذا الموضِع لم يعرِضْ في اللَّفظ ما يُوجِب إجراءَ الكلامِ على الأصْل كما كان في سورة آل عمران؛ فإنَّ المعتمدَ بتحقيقه عند المخاطبَين إنَّما هو الإمدادُ بالملائكةِ، وهو الذي أخْبَر الله تعالى عنه أنَّه لم يجعلْه إلَّا بشرى، فوَجَب أنْ يُقدَّم الإمداد، وهو الضَّميرُ بعد الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ على الفاعِل ﴿قُلُوبُكُمْ﴾، فقال تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾.

وقد يُقال: قَدَّم ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ هُنا وأَخَّر ﴿بِهِ﴾؛ ازدواجًا بَين المخاطبَين، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبكُمْ بِهِ﴾، وقدَّم ﴿بِهِ﴾ في الأنفال؛ ازدواجًا بَين الغائبين، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبكُمْ﴾.

ج- أمَّا قوله في آية آل عمران: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وقال في سورة الأنفال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ فذلك لأنَّ آيةَ الأنفال تقدَّم فيها أوعادٌ جليلةٌ كقولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ

إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، ثمَّ قال: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، ثمَّ قال: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]؛ فهذه أوعادٌ عليَّةٌ لم يتقدَّم إفصاحٌ بمِثلها في آية آل عمران فناسَبَها تأكيدُ الوصفين العظيمَينِ من قُدرته سبحانه على كلِّ شيءٍ وحِكمته في أفعالِه، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ولَمَّا لم يقعْ في آيةِ آل عمران إفصاحٌ بما في آية الأنفال وردتِ الصفتانِ تابعتَينِ دون تأكيدٍ، وجاء كلٌّ على ما يُناسِب.

وقد يُقال: إنَّه قال في الأنفال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فجاءَ وصفُ اللهِ تعالى بالعِزَّة والحِكمة بلفظِ خبرٍ ثانٍ مستأنَف، وذلك على الأصلِ الواجبِ في توفيةِ كلِّ معنًى حقَّه من البيان؛ لأنَّ القصدَ في الآية إعلامُ المخاطَبين أنَّ النَّصرَ ليس من قِبَل الملائكة، ولا مِن جِهة العدَدِ والعُدَّة وفضْل القوَّة، ولكنَّه من القادِرِ الذي لا يُغلَب ولا يُمنَع عمَّا يُريد فِعلَه، والحكيمِ الذي يَضعُ النصرَ موضعَه، ففَصَل ذلك في خَبرينِ. وحذف ﴿إِنَّ اللهَ﴾ هاهنا في سورة آل عمران؛ لأنَّ الذي في الأنفال قِصَّةُ بدر؛ وهي سابقةٌ على ما في هذه السُّورة؛ فإنَّها في قصَّة أُحُد، فأَخْبَرَ هناك في الأنفال أنَّ الله عزيز حكيم، فاستقرَّ الخبرُ. وجعَله في هذه السُّورةِ صِفةً؛ لأنَّ الخبَر قد سَبَق.

٩- **قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾** تذييلٌ، أي: كلُّ نَصْر هو من الله لا من الملائكة، وذَكَر وصفَي ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ هنا؛ لأنَّهما أَوْلى بالذِّكر في هذا المقام؛ لأنَّ العزيزَ يَنصُر مَن يُريد نصره، والحكيم يعلم مَن يَستحِقُّ نصرَه وكيف يُعطاه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨).

١٠- قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ تنكيرُ (طرفًا) للتفخيم[١].

- وفيه تشبيه مَن قُتِل منهم وتَفرَّق بالشَّيء المقتَطَع الذي تَفرَّقت أجزاؤه، وانخرم نظامُه[٢].

١١- قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراضٌ وُسِّط بين المعطوف عليه المتعلِّقِ بالعاجل، والمعطوفِ المتعلِّقِ بالآجل؛ لتحقيق أنْ لا تأثير للمنصورين إثْرَ بيانِ أن لا تأثيرَ للنَّاصرين، وفي تخصيص النَّفيِ برسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: تلوين الخطاب؛ للدَّلالة على الانتفاءِ من غيره بالطَّريق الأولى، وإنما خُصَّ الاعتراضُ بموقعه؛ لأنَّ ما قبله من القطع والكبْتِ من مظانٍّ أن يكونَ فيه لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولسائر مُباشري القتالِ مدخَلٌ في الجملة[٣].

١٢- قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ تعليلٌ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، مُبيِّنٌ لكون ذلك من جِهَتهم، وجزاءٌ لظُلْمهم[٤].

١٣- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان اختصاصِ ملكوتِ كلِّ الكائناتِ به عزَّ وجلَّ إثْرَ بيانِ اختصاصِ طرَفٍ من ذلك به سبحانه؛ تقريرًا لما سبق وتكملةً له، وتقديمُ الجارِّ (ولله) للقَصْر، وانفراد الله بذلك، وكلمةُ (مَا) من صيغ العُمُوم شاملةٌ للعقلاء أيضًا تغليبًا، أي: له مَا فِيهِمَا مِنَ الموجوداتِ خَلْقًا ومُلكًا، لا مدخَلَ فيه لأحد أصلًا؛ فله الأمرُ كلُّه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٧٨- ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ مع زيادة فيه، وفي تخصيصِ التَّذييلِ به دون قرينةٍ اعتناءٌ بشأن المغفرةِ والرَّحمة(١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٣).

الآيات (١٣٠ - ١٣٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عبادَه المؤمنين عن أخْذ الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة، كما كانوا يَفعلونه في الجاهليَّة، ويأمُرهم بتقواه سبحانه؛ ليُفلحوا، فينجوا من عذابِه ويُدركوا ثوابَه، ويأمُرُهم أيضًا سبحانه بأنْ يَجعلوا بينهم وبَين النَّار التي هُيِّئت للذين كفروا ما يَقيهم منها، وأنْ يُطيعوا اللهَ ورسولَه، بامتثالِ الأمْر واجتناب النَّهي؛ لعلَّهم إذا فَعلوا ذلك أن يُرحَموا في الدُّنيا والآخِرة.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

وجْهُ الاتِّصالِ بين هذه الآياتِ وما قَبْلَها: أنَّ ما قَبْلَها في بيانِ أنَّ الله نصَرَ المؤمنين وهم أذلَّةٌ، وأنَّهم إنما نُصِروا بتقوى اللهِ وامتثالِ الأمْرِ والنهي؛ ولذلك خُذِلوا في أُحُدٍ عند المخالفةِ، والطَّمعِ في الغنيمةِ، فحثَّهم اللهُ تعالى في هذه الآيةِ على بَذْلِ المالِ في سبيلِ اللهِ، كالدِّفاعِ عن المِلَّةِ والأُمَّة، والتنفيرِ عن الطَّمع فيه، وشرُّه أكْلُ الرِّبا أضعافًا مُضاعفةً؛ لذا ذُكِر في أوَّلِ الكلامِ في هذه الغزوةِ شيءٌ يتعلَّقُ بالمالِ وإنفاقِه، وفي آخِرِها شيءٌ يَتعلَّقُ بذلك[1].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٠١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا تقدَّم وعْدُ الله تعالى للمؤمنين، بأنَّهم إنْ صبَروا واتَّقوا، نَصَرهم على أعدائِهم، فكأنَّ النُّفوسَ اشتاقتْ إلى معرفةِ خِصال التَّقوى التي يَحصُل بها النَّصرُ والفلاحُ والسَّعادة، فذكَر اللهُ في هذه الآياتِ أهمَّ خِصال التَّقوى، التي إذا قام العبدُ بها، فقيامُه بغيرها من باب أَوْلى وأَحْرى، فنهاهم أولًا عن أكْل الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة، ثم توالتْ بعد ذلك الأوامرُ الأخرى التي مَن امتَثلها، فإنَّه يُحقِّق التَّقوى[١].

وأيضًا ناسَب اعتراضَ هذه الجملةِ هنا أنَّه تعالى وعَدَ المؤمنين بالنَّصرِ والإمدادِ مَقرونًا بالصَّبرِ والتقوى، فبدأ بالأهمِّ منها، وهو: ما كانوا يَتعاطَوْنه من أكْلِ الأموالِ بالباطلِ، وأمَر بالتَّقوى، ثمَّ بالطاعة[٢].

وأيضًا لَمَّا نَهَى اللهُ تعالَى المؤمنين عن اتِّخاذِ بِطانةٍ من غيرِهم، واستطرَدَ لذِكْر قِصَّة أُحُد، وكان الكفَّارُ أكثرُ معاملاتِهم بالرِّبا مع أمثالهم ومع المؤمنين، وهذه المعاملةُ مُؤدِّيةٌ إلى مُخالطةِ الكفَّار؛ نُهوا عن هذه المعاملةِ التي هي الرِّبا قطعًا؛ لِمُخالطةِ الكفَّارِ ومَودَّتِهم، واتِّخاذ أخلَّاء منهم، لا سيَّما والمؤمنون في أوَّل حالِ الإسلامِ ذوو إعسارٍ، والكفَّار من اليهودِ وغيرهم ذوو يسارٍ، وكان أيضًا أكْلُ الحرامِ له مَدخلٌ عظيمٌ في عدم قَبول الأعمالِ الصَّالحة والأدعية، فناسَب ذِكْرَ هذه الآية هنا[٣].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وبيَّن أنَّ ما فيهما من الموجودات مِلكٌ له، ولا يجوزُ أنْ يُتصرَّفَ في شيءٍ منها إلَّا بإذنه على الوجهِ الذي شَرَعه، وآكِلُ الرِّبا مُتصرِّفٌ في مالِه بغير الوجهِ الذي أَمَر؛ نبَّه تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٣٩).

على ذلِك، ونهى عمَّا كانوا في الإسلامِ مُستمرِّين عليه من حُكم الجاهليَّة[1]، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تتعاملوا بالرِّبا بعدَ إسلامِكم كما كُنْتم تتعاطَوْنه في جاهليَّتكم؛ فإنَّهم كانوا إذا حلَّ الدَّينُ على المُعسِرِ ولم يتمكَّن مِن سداده في وقتِه، قالوا له: إمَّا أن تَقضِيَ، وإمَّا أنْ تُرْبيَ، أي: إما أنْ تَقضيَنا ما عليك من الدَّين، أو نَزيدك في المدَّة، وتَزيدنا على القَدْر المطلوب، فربَّما تَضاعَف القليلُ بهذه الطَّريقة حتى يُصبِح كثيرًا جدًّا[2].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: امتثِلوا- أيُّها المؤمنون- ما أمَركم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك أكْل الرِّبا؛ كي تَظفَروا بما تَطلُبون، وتَنجوا في الدُّنيا والآخرة ممَّا منه تَحْذرون[3].

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)﴾.

أي: وامتثِلوا أوامرَ الله تعالى، واجتنِبوا نواهيَه، ومنها: ترْك أكلِ الرِّبا؛ فإنَّه وقايةٌ لكم من النَّار، التي هُيِّئت مُسْبقًا لكلِّ مَن كفَر بالله العظيم[4].

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٤-١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٨-١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦١-١٦٢).

أي: واعمَلوا- أيُّها المؤمنون- بما أمَركم اللهُ تعالى به ورسولُه، وانتَهُوا عمَّا نَهاكم الله ورسولُه عنه من أكلِ الرِّبا وغيرِه من المُحرَّمات؛ لتُرحَموا في الدُّنيا والآخِرة[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في توجيهِ الخِطابِ للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ دَلالةٌ على أنَّ اجتناب الرِّبا من مقتضيات الإيمان، وأنَّ كلَّ مؤمنٍ صادقِ الإيمان، فلا بدَّ أنْ يَتجنَّب أكْلَ الرِّبا [2].

٢- تقْوى الله هي الحامِلةُ على مُخالَفة ما تعوَّده المرءُ ممَّا نهى الشَّرعُ عنه، وهي سببٌ لرجاء الفلاح والفوز؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

٣- تعليقُ رجاء المؤمنِ لرحمة الله تعالى بتوفُّره على طاعتِه وطاعةِ رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾، يُقاسُ على الأكلِ بقيَّةُ الإتلافات بالشُّرب واللِّباس، وبِناءِ المساكن وما أَشْبَهها، لكنْ قيل: إنَّه عبَّر بالأكْل؛ لأنَّه أخصُّ وجوه الانتفاع[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٣-١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٥٩).

٢- في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، قوله: (أَضْعَافًا) هو جَمْع ضِعْف، وهو جمعُ قِلَّة، ولَمَّا كان جَمْعَ قِلَّة، والمقصودُ الكثرة، أَتْبعه بما يدلُّ على ذلك، وهو الوصف بقوله: ﴿مُضَاعَفَةً﴾(١).

٣- قول الله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾، قوله: (أَضْعَافًا مُضاعَفَةً)، ليس هذا الحالُ - أي هذا القيد بالوصْف ﴿مُضَاعَفَةً﴾- هو مَصبَّ النَّهيِ عن أَكْلِ الرِّبا؛ حتى يَتوهَّم مُتوهِّم أنَّه إنْ كان دون الضِّعفِ لم يكن حرامًا، فالحال واردةٌ لحكاية الواقع؛ فلا تُفيد مفهومًا؛ لأنَّ شرطَ استفادة المفهوم من القيود ألَّا يكون القيدُ الملفوظُ به جرى لحكاية الواقع، فلا يَقتصِر التحريمُ بهذه الآية على الرِّبا البالغ أضعافًا كثيرة(٢).

٤- في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ إخبارٌ عن الماضي، فلا بدَّ أن يكون قد دخَل ذلك الشيءُ في الوجود، فالنَّار مخلوقةٌ الآن(٣).

٥- أنَّ أهلَ النَّار هم الكافرون؛ لقوله سبحانه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، أمَّا الفُسَّاق الذين يُعذَّبون بالنَّار على قدْرِ أعمالهم، ثم يُخرَجون منها؛ فإنَّ النَّار لم تُعَدَّ لهم(٤).

٦- جوازُ اقترانِ اسم الرَّسول باسمِ الله في الأمْر الذي يكون مُشتركًا بينهما؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، أمَّا الأمرُ الذي لا يكون مُشتركًا بينهما، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٣).

الأمر الكونيُّ القَدَريُّ، فهذا لا يُذكَر فيه الرَّسولُ مع الله إلَّا بحرفٍ يدلُّ على التَّرتيب ((ما شاء اللهُ، ثمَّ شِئت))، وبهذا نَعرِف الفرقَ بين إسنادِ الشَّيء الشَّرعيِّ إلى اللهِ ورسولِه، وبين إسناد الكونيِّ إلى اللهِ ورسولِه[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾:

- في تصديرِ الخِطاب في شأنِه بالنِّداء تعظيمٌ لشأنِ الرِّبا، وبيانُ خَطرِه[٢].

- وسمَّى أخْذَ الرِّبَا أكلًا في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾؛ لأنَّه يؤولُ إليه؛ فهذا مِن بابِ تسميةِ الشَّيء بما يؤول إليه[٣].

- وتَضمَّن النَّهيُ عن الرِّبا التَّوبيخَ بما كانوا عليه في الجاهليَّة من تضعيفِه؛ إذ كان الرَّجُل منهم إذا بلَغ الدَّين مَحلَّه يقول: إما أنْ تَقْضي حقِّي أو تُربي وأزيدَ في الأَجلِ، فاستَغرَق بالشَّيء الطَّفيف مال المديون[٤]؛ فأكْل الرِّبا مَنهيٌّ عنه قليلًا وكثيرًا، لكنَّها نزلتْ على سببٍ، وهو فِعْلهم ذلك؛ ولأنَّه مقامُ تشنيعٍ عليهم، وهو بالكثيرِ أَليقُ[٥].

٢- قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فيه تنفيرٌ من النَّار وما يُوقِع فيها، بأنَّها معدودةٌ للكافرين، وتحذيرٌ المسلمين من مشاركتِهم؛ إذ المسلمون لا يَرْضَون بمشاركةِ الكافرين؛ لأنَّ الإسلامَ الحقَّ يُوجِب كراهيةَ ما ينشأ عن الكُفْر،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤١٠).

(٥) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٠١).

وذاك تعريضٌ واضح في الوعيد على أخْذ الرِّبا، ومقابل هذا التَّنفير التَّرغيب الآتي في قوله: ﴿... وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣][1].

- وبِناءُ فِعل ﴿أُعِدَّتْ﴾ للمَفعولِ؛ لزيادةِ التَّرهيبِ، والمُبالَغةِ في الإنذار[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٤٢).

الآيات (١٣٣ - ١٣٦)

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿السَّرَّاءِ﴾: السُّرور والفرَح، ولذَّة في القلبِ عند حصولِ نفْعٍ أو توقُّعه، أو عند رؤيةِ أمْر يُعجِب[١].

﴿الضَّرَّاءِ﴾: سُوء الحالِ، والفقر والقَحْط، والضرُّ: خِلافُ النَّفْع[٢].

﴿الْكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾: أي: الحابِسين، أو الممسكِين عن إمضائِه مع قُدرتِهم على مَن أغضبهم؛ يُقال: كظَمْتُ القِرْبَةَ، إذا سَددتَ رأسَها[٣].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُر الله سبحانه عبادَه المؤمنين بالمُبادَرةِ والمسابقةِ للحُصولِ على مغفرةِ الله سبحانه وتعالى، ومن أجْل دخولِ الجنَّة التي يَبلُغ عرضُها مِثلَ عَرْض السَّموات والأرض لعِظَمها، أُعِدَّت هذه الجنَّة للمُتَّقين، الذين يَبذُلون أموالَهم صدقةً، سواء

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١، ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣، ٥٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢، ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

في حال رَخائِهم وسُرورِهم، أو في حال الضِّيق والضُّرِّ، والذين يَملِكون أنفسَهم حين يَغضَبون، ويَكتُمون الغيظَ الذي في قُلوبِهم، ويَعْفُونَ عن النَّاس حين يَتلقَّوْن الإساءة، وهذه الصِّفاتُ مِن الإحسان، واللهُ يحبُّ المُتَّصِفين بها.

ومن صِفاتهم أيضًا: أنَّهم إذا ارتكَبوا فاحشةً من الفواحش، أو وقَعوا في معصيةٍ من المعاصي، ذَكَروا اللهَ، فطَلَبوا منه مغفرةً لذُنوبهم؛ فإنَّه لا يغفرُ الذُّنوبَ أحدٌ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، ولم يَستمِرُّوا مُصِرِّين على ذلك الذَّنب، وهم يعلمون أنَّهم عَصَوُا اللهَ، وأنَّهم بذلك مُعرَّضون للعقاب لو أصرُّوا، ويعلمون أيضًا أنَّ التَّوبةَ واجبةٌ إلى الله، وأنَّه يَقبَل توبةَ عبادِه. هؤلاء المذكورة أوصافُهم لهم مَغفرةٌ من الله، وسيَدْخلون جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ستكون منازلهم أبدًا، ونِعْم أجْرُ العاملين.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)﴾.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وليُسابِقْ بعضُكم بعضًا بالمُبادَرة إلى فِعل الخيرات؛ لنيلِ مغفرةِ الله تعالى؛ بسَتْرِ الذُّنوب والتَّجاوزِ عنها[1].

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى عِبادَه بالبِدارِ والمسابقةِ إلى مَغفرةِ الله، التي بها زوالُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٥-١٦٦).

المكروه، أمَرَهم عَقِبَ ذلك بالبِدارِ والمسابقة إلى ما يُحقِّق لهم حُصولَ المطلوب؛ فإنَّ الإنسان لا تَتِمُّ سعادتُه إلَّا بهذين الأمرين: زوال ما يَكْره، وحُصول ما يَأمُل(١)؛ لذا قال:

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

أي: وليُسابِقْ بعضُكم بعضًا بالمبادرةِ إلى ما يُحقِّق -بإذن الله تعالى- دُخولَكم الجنَّةَ، التي يَبلُغ عَرضُها مِثْلَ عَرْض السَّمواتِ والأرض(٢).

قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ الجَنَّة قد هُيِّئَت مُسبقًا للذين اتَّقوا الله تعالى؛ بامتثالِ أوامره، واجتناب نواهيه؛ فهُم أهلُها وساكِنُوها(٣).

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢-٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٧-١٦٩).
والعَرْض في كلامِ العرب يُطلَق على ما يُقابلُ الطُّول، ويُطلَق على الاتِّساع، وقد نَزل القرآنُ بلُغةِ العربِ وعلى معهودِهم في الخِطاب، وقال بعضُ المفسِّرين: إنَّ عرضَها كطولِها؛ لأنَّها قُبَّة تحت العرش، والشيء المقبَّب والمستدير عَرضُه كطوله. والله أعلم بالغيب. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٩)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٦٩-١٧٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى أنَّ أهلَ الجنَّة هم المتَّقون، أَعقَب ذلك بذِكْر قيام هؤلاء المتَّقين بأعمالٍ جليلة، أهَّلتْهم لنَيل هذا الفضل العظيم(١).

وأيضًا لما نهى الله عبادَه عن أكْلِ الرِّبا، ابتدأ في صِفات المتَّقين بضدِّ ذلك، وهو الإنفاقُ في سبيل الله عزَّ وجلَّ(٢)، كما جمَع بينهما في آياتٍ أخرى كقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

أي: إنَّ من صِفات المتَّقين أنَّهم يَتصدَّقون باستمرارٍ، وفي جميع الأحوال، سواء كانوا في حال سُرورٍ- بتوفُّر المال، ورَغَد العيش؛ فلا يُلْهيهم ذلك عن مساعدة الآخرين- أو أصابَهم الضرُّ وضيقُ العيش؛ لِقلَّة ذاتِ اليد، فلا يَصرِفهم ذلك أيضًا عن مواصلةِ العطاء(٣).

فأصبحَ الإنفاقُ سَجِيَّةً دائمةً لهم، لا يَشغَلهم عنه أيُّ حالٍ أصابهم، ولا يَنشأ ذلك إلَّا عن نَفْس طاهرة(٤).

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

أي: إنَّ مِن صِفات المتَّقين المُتأصِّلة فيهم، والمستمرَّة معهم: أنَّهم يَمتلِكون السَّيطرةَ التَّامَّةَ على غضبِهم مهما بلغت شِدَّتُه، حتى لو كاد أنْ يخرج منهم من شدَّةِ امتلاءِ نُفُوسهم، وغليانِ قلوبِهم به؛ فإنَّهم يَملِكون أيضًا كتْمَه وحبْسَه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٠-٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٢، ٤٩٣)، =

وهذا يدلُّ على عزيمةٍ راسخةٍ في النَّفْس، وقهْرِ قوَّة إرادتِهم للغضبِ وشهوةِ الانتقام، وهذا من أكبرِ قُوى الأخلاقِ الفاضلة[١].

عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ليس الشَّديدُ بالصُّرَعَة، إنَّما الشَّديدُ الذي يَملِك نَفْسَه عند الغضبِ))[٢].

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

أي: ومِن صِفاتهم أيضًا صَفْحُهم، وتَجاوُزهم عن مؤاخذة مَن أساء إليهم- ما لم يتعلَّق بحقٍّ من حقوقِ الله تعالى- مع قُدْرتهم على الانتقامِ منه، فلا تَبقَى بذلك في نُفوسِهم مَوْجِدةٌ على أحد[٣].

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ جميعَ ما سبَق ذِكْرُه من صفاتٍ للمتَّقين، فهو داخلٌ في عُمُوم الإحسان، الذي هو سببٌ لنيل محبَّة الله تعالى لِمَن تَحلَّى بها، وصارتْ له طبْعًا وسَجِيَّة[٤].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾.

= ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٩، ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).

(٢) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٣-١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٥-١٧٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى بعضَ صِفات المتَّقين المتعلِّقة بمعاملة الخَلْق، أَعقَب ذلك بِذِكر قِيامهم بحقِّ الخالق سبحانه[١].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا وصَف الجنَّة بأنَّها مُعَدَّة للمتَّقين، بيَّن أنَّ المتَّقين قِسمان: أحدهما: الذين أَقبَلوا على الطَّاعات والعبادات، وهم الذين وصَفَهم الله بالإنفاقِ في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وكَظْمِ الغيظ، والعفوِ عن النَّاس- فذكَر المتَّقين حالَ كمالِهم. وثانيهما: الذين أَذنَبوا ثم تابوا، فذكَرهم حالَ تَدارُكِهم نَقائصَهم، فالمُذنِب إذا تاب صار حالُه كحال مَن لم يُذنِب قطُّ في استحقاقِ المنزلِة والكرامةِ عند الله[٢].

وأيضًا فإنَّه تعالى لَمَّا ندَب في الآية الأولى إلى الإحسانِ إلى الغيرِ، ندَبَ في هذه الآيةِ إلى الإحسانِ إلى النَّفْس؛ فإنَّ المذنِب العاصي إذا تاب كانتْ تلك التَّوبةُ إحسانًا منه إلى نَفْسه[٣]؛ فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

أي: إنَّ من صِفات المتَّقِين أنَّهم إذا ارتكبوا فَعْلةً قبيحةً، قد تَجاوَزت الحدَّ في الفساد، أو فعلوا بأنفسِهم غيرَ الذي كان ينبغي لهم أنْ يفعلوا بها، من رُكوبِهم عُمومَ معصيةِ الله سبحانه، كبيرةً كانتْ أو صغيرةً[٤].

﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠-٦٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٧٩)، (١١/ ٦٩٢)، (١٥/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢).

أي: إنَّهم إنْ وقعوا في ذَنبٍ، ذكَروا رحمتَه سبحانه ونِعَمَه عليهم، وما أَعدَّ للطائعين من ثواب، وذكروا عَظمتَه، وبطْشَه وعقابَه، وغير ذلك، فأَوجَب لهم هذا الحياءَ من الله تعالى والخوفَ منه، ففرُّوا إليه في الحال نادِمين، وطالبين منه السَّترَ وعدمَ المؤاخذة على ذُنوبهم[1].

عن عليٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((كنتُ إذا سمعتُ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شيئًا، نَفَعني الله بما شاءَ أن يَنْفَعني منه، وحدَّثَني أبو بكرٍ - وصدَقَ أبو بكرٍ - قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما مَن مُسلم يُذنِب ذنبًا، ثم يَتوضَّأ فيُصلِّي رَكعتينِ، ثمَّ يَستغفرُ اللهَ تعالى لذلكَ الذَّنبِ، إلَّا وغُفِر له، وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، ﴿وَالذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥]))[2].

﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

أي: لا يَغفر ذُنوبَ العبادِ أحدٌ غيرُ الله تعالى[3].

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٣-١٨٤).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦)، وابن ماجه (١٣٩٥)، وأحمد (٤٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٢٥٠).

قال ابن عدي في ((الكامل)) (٢/ ١٤٢): أرجو أن يكون صحيحًا، وقال ابن تيمية في ((الاستقامة)) (٢/ ١٨٤) : محفوظ في السنن. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١/ ٤٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (١٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢، ٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٣).

أي: إنَّهم يُقلِعون عن الذَّنبِ ولا يُقيمون عليه- وإنْ تكرَّر منهم مرَّةً بعد مرَّة- وهم يَعلَمون أنَّ ما ارْتكبوه معصيةٌ، وأنَّهم مُعرَّضون للعُقوبة إنْ أصرُّوا عليها، ويعلمون وجوبَ التَّوبة منها إلى الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه يَقبَلُ التَّوبةَ مِن عبادِه[1].

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أَتَمَّ اللهُ تعالى وصْفَ السَّابقين، وهم المتَّقون، واللَّاحِقين، وهم التَّائبون- أَخبَر بجزائهم[2]؛ فقال:

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ أولئك المتَّقين الَّذين ذكَر الله تعالى بعضَ أوصافِهم، لهم أجرٌ كريمٌ مُقابِلَ ما قدَّموه من أعمالٍ صالحةٍ، وهو أوَّلًا مغفرةُ الله تعالى لهم بسَتْر ذنوبهم، والتَّجاوز عن المُعاقَبة بها، فينجُون بذلك ممَّا كانوا يَحذَرون[3].

﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ويُثابَون ثانيًا بدخولِ الجنَّات التي تَجري من تحتِ أشجارِها وقصورِها الأنهارُ المتنوِّعة، فيَمكُثون فيها بلا نهايةٍ، وبذلك يَفوزُون بما كانوا يأمُلون[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٥-٦٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٦-١٨٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩١-١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩-٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

أي: ونِعَم جزاءُ العاملين لله تعالى مغفرتُهُ، والخُلودُ في دار كرامتِه(١).

الفوائد التربويَّة:

١- الحثُّ على المسارَعة في أسبابِ المغفرةِ وأسبابِ دخول الجنَّة، بأداء الواجبات، والتَّوبةِ عن جميعِ المَحظورات؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾(٢).

٢- أنَّ التَّخليةَ قبل التَّحلية؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، فبالمغفرة الزحزحةُ عن النَّار التي أوجَبتْها الذُّنوبُ، ثم يكون دخول الجنَّة، ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾(٣).

٣- مُلازَمة السَّخاء وإنفاق المال- الذي هو عزيزٌ على النَّفْس- في العُسْر واليُسْر، والأحوال كلِّها، مِن أشرف الطَّاعات المُوجِبة للجنَّة؛ يُبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾(٤).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ الثَّناءُ على مَن أَنفَق في السَّرَّاء والضَّرَّاء؛ وذلك لأنَّ الإنفاقَ في السَّراء ليس بغريب؛ فكلُّ إنسانٍ يَهُون عليه أن يُنفِق إذا

= (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٣-١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٦).

كان في سرَّاء، لكن الإنفاقَ في الضَّرَّاء هو الذي يَدلُّ على أنَّ الإنسان يُنفِق طلبًا للأجْر، لا زُهْدًا في المال(١).

٥- كَظْمُ الغيظِ وإخفاؤه- بالصَّبر عن إمضائِه مع القُدرة، فلا يَظهَر له أثرٌ- من الأخلاقِ الفاضلة، ومِن أعظمِ العبادة؛ قال تعالى ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾(٢).

٦- الحثُّ على العفوِ عن النَّاس فيما أساؤوا؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾(٣)، لكنَّه مُقيَّدٌ بما إذا كان أَصلَحَ (٤).

٧- الحثُّ على الإحسانِ إلى الغير، بإيصال النَّفع إليه، أو بدَفْع الضَّرر عنه؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فإنَّ كلَّ إنسانٍ يعلم أنَّ الله يُحِب الإحسانَ، سوف يُحسِن، ويتقدَّم إلى الإحسان ويَحرِص عليه؛ لأنَّ محبَّة الله للعبد هي غايةُ ما يُريد(٥).

٨- الحثُّ على الاستغفارِ، والإتيانِ بالتَّوبةِ على الوجه الصَّحيح، بالنَّدمِ على فِعْل ما مضَى من الذَّنب، مع العَزْمِ على تَرْك مِثْله في المستقبل؛ فالله تعالى موصوفٌ بسَعة الرَّحمة، وقُرْبِ المغفرة، فلا مَفْزَعَ للمُذنِبين إلَّا فضلُه وكرمُه، والذُّنوب وإنْ جلَّتْ فإنَّ عفوَه أجلُّ، وكرمَه أَعظَمُ؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٢-٩٣).

٩- قوله: ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ فيه سرعةُ انتباه هؤلاء المذكورين في الآيات عندَ فِعْل الذُّنوب؛ فيُبادِرون بالتَّوبة، والمبادرة بالتَّوبة من صفات المتَّقين، وهي واجِبة؛ لأنَّ التَّوبة إذا نزَل الأجلُ لا تُقبَل، والإنسانُ لا يَدري متى يَنزِل أجلُه؛ وعلى هذا فيجب أنْ يتوبَ الإنسانُ من ذُنوبه فورًا ودونَ تأخير(١).

١٠- أنَّه لا أحدَ يَستطيعُ أنْ يَغفِر الذُّنوبَ إلَّا الله؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾، ويَتفرَّع عليها ألَّا يُعتمَدَ على أحدٍ في مغفرة الذُّنوب أو طلَبِ المغفرة، وإنَّما يكونُ الاتِّجاهُ إلى الله عزَّ وجلَّ(٢).

١١- أنَّ الرَّجل إذا أَذنَب فاستغفَر، ثم أَذنَب فاستغفر، ثم أَذنب فاستغفر، فإنَّه يُغفَر له، وإنْ تَكرَّر الذَّنبُ منه؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ولم يَقُل: (ولم يُعيدوا ما فَعلوا)(٣).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا﴾ استدلَّ به كثيرٌ من الأُصوليِّين على أنَّ ظاهرَ الأمر يُوجِب الفَورَ، ويَمنَع من التَّراخي(٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، إنَّما فصَل بينهما؛ لأنَّ الغُفران معناه إزالةُ العِقاب، والجنَّة معناها إيصالُ الثَّواب؛ فجمَع بينهما للإشعارِ بأنَّه لا بدَّ للمُكلَّف من تحصيلِ الأمرين(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- هذه الآياتُ الكريمات: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآيات، من أَدِلَّة أهلِ السُّنة والجماعة، على أنَّ الأعمالَ تَدخُل في الإيمان، خِلافًا للمُرجئة، ووجْه الدَّلالة إنَّما يَتِمُّ بذِكْر الآيةِ التي في سورة الحديد، التي هي نظيرُ هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، فلم يَذكُر فيها إلَّا لفْظَ الإيمان به وبرُسله، وهنا قال: ﴿أُعِدَّت للمُتَّقين﴾، ثم وصَفَ المتَّقِين بهذه الأعمال الماليَّة والبَدنيَّة؛ فدلَّ على أنَّ هؤلاء المتَّقِين الموصوفين بهذه الصِّفات هم أولئك المؤمنون[١].

٤- في قول الله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، دليلٌ على أنَّ الجنَّة مخلوقةٌ الآن[٢].

٥- بدأ وصفُ المتَّقِين بالإنفاقِ لوجهين: (أحدهما): مُقابلتُه بالرِّبا الذي نُهي عنه في الآية السَّابقة؛ فإنَّ الرِّبا هو استغلالُ الغَنيِّ حاجةَ المـُعوِز، وأكْلُ مالِه بلا مُقابِل، والصَّدقة إعانةٌ له، وإطعامُه ما لا يَستحِقُّه؛ فهي ضدُّ الرِّبا، ولم يَرِد في القرآن ذِكرُ الرِّبا إلَّا وقُبِّح ومُدِحتْ معه الزَّكاةُ والصَّدقة. (ثانيهما): أنَّ الإنفاقَ في السَّرَّاء والضَّرَّاء أدلُّ على التَّقوى، وأشقُّ على النُّفوس، وأنفعُ للبشرِ من سائر الصِّفات والأعمال[٣].

٦- في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، قوله: ﴿فَاحِشَةً﴾، أي: من السَّيِّئات الكِبار، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، أي: بأيِّ نوعٍ كان من الذُّنوب؛ لتَصير الفاحشةُ موعودًا بغُفرانها بالخُصوص وبالعُموم[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٧٣).

٧- في قوله تعالى: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، قيل: وجْه كونِ الإنسان ظالِمًا لنَفْسه، أنَّ نَفْسك عندك أمانةٌ، فإذا فرَّطتَ في هذه الأمانةِ، بأنْ أَقحَمتَ نَفْسَك فيما حرَّم اللهُ عليك، أو تأخَّرتَ عمَّا أَوجَب اللهُ عليك، فقدْ ظَلمتَ نَفْسَك[١].

٨- أنَّ المتَّقِي لا يكونُ معصومًا من فِعْل الفاحشة، أو ظُلْم النَّفْس؛ لأنَّ الله لم يَقُل: (وهم لا يفعلون الفواحشَ أو لا يظلمون أنفسَهم)، بل قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، ففِعْلُ الفاحشة لا يَخدِش التَّقوى إذا استَغفَر الإنسانُ وتاب[٢].

٩- التَّعبير عن (المغفرة والجنَّاتِ) بالأجْر في قوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّهما يُستحقَّان بمقابلة العملِ، وإنْ كان بطريق التفضُّل؛ لمزيدِ التَّرغيبِ في الطَّاعات، والزَّجرِ عن المعاصي[٣].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

- ﴿وَسَارِعُوا...﴾ فيه الوَصْلُ- أي: العطفُ بالواو- بين هذه الجُملةِ، وجُملةِ الأمر بالطَّاعة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ لكون الأمرِ بالمُسارَعة إلى المغفرة والجنَّة يؤولُ إلى الأمر بالأعمال الصَّالحة، ومَن قرأ (سَارِعُوا) بغير واو، فتتنزَّل جملة (سَارِعُوا) مَنزِلةَ البيان، أو بدلَ الاشتمال، لجملة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ لأنَّ طاعةَ الله والرَّسول مُسارَعةٌ إلى المغفرة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٧).

والجنَّة؛ فلذلك فُصِلتْ ولم تُعطَف، وعلى هذا يجوزُ الفصلُ والوصلُ في بعض الجُمَل باعتبارين[١].

- وجِيء بصيغة المُفاعَلة مُجرَّدةً عن معنى حُصولِ الفِعلِ من جانبينِ في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا﴾؛ لقصد المُبالَغة في طلبِ الإسراعِ، والعربُ تأتي بما يدلُّ في الوضع على تكرُّر الفعل، وهم يُريدون التَّأكيدَ والمُبالَغةَ دون التَّكريرِ[٢].

- وتنكيرُ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾، وإضافتُها إلى ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في قوله: ﴿مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ لقَصْدِ الدَّلالةِ على التَّكثيرِ والتَّعظيم[٣].

- وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾: استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكْر الجنَّة عَقِب ذِكْر النَّار- الموصوفة بأنَّها ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾- يُثير في نُفوس السَّامعين أنْ يتعرَّفوا مَن الذين أُعِدَّت لهم[٤].

٢- قوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فيه التَّعبيرُ بالعامِّ الذي يُراد به الخاصُّ؛ إذ المعنى: والعَافِين عمَّن ظلَّمهم أو أساء إليهم[٥].

٣- قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الألف واللامُ في ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ إمَّا للجِنْس، وهم داخِلون فيه (وصْف التَّقوى) دخولًا أوَّليًّا، فيتناول كلَّ مُحسِن، ويدخل تحتَه هؤلاء المذكورون في الآية، وإمَّا للعهد؛ عبَّر عنهم (أي: الْمُتَّقِينَ) بالمُحسِنِينَ؛ إيذانًا بأنَّ النُّعوتَ المعدودةَ هي من باب الإحسانِ، الذي هو الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٨٨، ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٨٩)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦).

- وجملةُ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها[١]، وهي أيضًا اعتراضٌ بين قوله: ﴿... أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾، وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً...﴾، وهذا الاعتراضُ مشيرٌ إلى ما بينهما من التَّفاوت؛ فإنَّ درجةَ الأوَّلين من التَّقوى أعْلَى مِن درجةِ هؤلاء، وحظَّهم أَوْفى من حظِّهم، أو على نَفْس المتَّقين، فيكونُ التفاوتُ أكثرَ وأظهرَ[٢].

٤- قوله: **﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** فيه مِن حُسْن البلاغة: ترتيبٌ بديعٌ؛ حيث رُتِّبتْ هذه الأركانُ في الآيةِ بحسَب شِدَّة تَعلُّقها بالمقصود؛ لأنَّ ذِكْر الله يحصُلُ بعد الذَّنب، فيبعثُ على التَّوبة؛ ولذلك رُتِّبَ الاستغفارُ عليه بالفاء، وأمَّا العِلْمُ بأنَّه ذَنبٌ، فهو حاصلٌ من قبلِ حُصولِ المعصية، ولولا حُصولُه لَمَا كانت الفَعْلةُ معصيةً؛ فلذلك جِيءَ به بعدَ الذِّكر ونَفي الإصرار[٣].

- قوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ جُمْلة مُعترِضة بين جملة ﴿فَاسْتَغْفَرُوا﴾ وجملة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾: وفيها ارتفاقٌ بالنَّفس، وداعيةٌ إلى رَجاءِ اللهِ وسَعَةِ عَفْوِه، ودلالةٌ على اختصاصِه بغُفْران الذَّنب[٤]، ولتقريرِ الاستغفارِ والحثِّ عليه، والإشعارِ بالوعد بالقَبول[٥].

- والاستفهامُ إنكاريٌّ مُستَعمَلٌ في معنى النَّفي، بقرينةِ الاستثناء منه، والمقصودُ تسديدُ مُبادَرتهم إلى استغفارِ الله عَقِب الذَّنب، والتَّعريضُ بالمشرِكين الذين اتَّخذوا أصنامَهم شفعاءَ لهم عند الله، وبالنَّصارى في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦- ٨٧).

زعْمهم أنَّ عيسى رفَع الخطايا عن بني آدم ببَليَّة صَلْبِه[١].

٥- قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ...﴾ جِيءَ باسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ المشارَ إليهم صاروا جَديرينَ بالحُكْم الواردِ بعدَ اسمِ الإشارة؛ لأجْل تلك الأوصاف التي استوجَبوا الإشارةَ لأجْلها[٢]، إضافةً إلى ما فيه مِن معنى البُعْد؛ إشارةً إلى عُلُوِّ مَرتَبتِهم، وسُمُوِّ درجتِهم.

٦- قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ﴾، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ﴾ كلُّ هذا تَكرارٌ للفظِ الجلالة (الله)[٣]، وفيه من تربيةِ المهابةِ والجلالِ وغيرِه ما لا يَخْفى.

٧- قوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ تذييلٌ؛ لإنشاءِ مدْحِ الجزاء، مُختَصٌّ بالتَّائبين، وهو مِن عطفِ الإنشاءِ على الإخبار، وهو كثيرٌ في فصيح الكلام، وسُمِّي الجزاء أجرًا؛ لأنَّه كان عن وعدٍ للعاملِ بما عمِل[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿الْعَامِلِينَ﴾ للعَهدِ، أي: ونِعْم أجرُ العاملين هذا الجزاءُ، وهذا تفضيلٌ له، وللعمل المُجازَى عليه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥).
(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (١٢٧ - ١٤١)

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿خَلَتْ﴾: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خلا الزَّمان: إذا مضى وذهَب[١].

﴿سُنَنٌ﴾: أي: سِيرٌ وأمثالٌ، وطرائِقُ ومناهجُ، جمْع سُنَّةٍ، وهي الطَّريقةُ المسلوكة، والمنهاجُ المتَّبع. وقيل: معْنى ﴿سُنَنٌ﴾ أُمم، جمْع سُنَّة، وهي الأُمَّة، وأصلُ (سنن): جريانُ الشَّيءِ واطِّرادُه في سُهولةٍ[٢].

﴿عَاقِبَةُ﴾: عاقبةُ أمر كذا، أي: آخرُه وما يصيرُ إليه منتهاه، وما يؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثوابِ إذا أُطلقت، وقد تُستعملُ في العقوبةِ إذا أُضيفتْ، وأصل (عقب): تأخيرُ شيءٍ وإتيانُه بعدَ غيره[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٠، ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧-٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: أي: لا تَضعُفوا، وأصل الوَهْن: الضَّعْفُ من حيثُ الخَلْقُ، أو الخُلق[١].

﴿قَرْحٌ﴾: الجِراحُ، أو الأثَر من الجِراحةِ من خارج، وأصل القَرْح: ألَمٌ بجراح، أو ما أشبهها[٢].

﴿نُدَاوِلُهَا﴾: أي: نَجعلُها للمؤمنين مرَّةً، وللكافرين مرَّةً، والدُّولة: اسمُ الشَّيءِ الذي يُتداولُ بعينه، والأصلُ: تحوُّل شيءٍ من مكانٍ إلى مكان[٣].

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: أي: ليُطهِّر، ويَختبر، ويُنقِّي، والتمحيصُ: الابتلاءُ والاختبارُ، وأصلُ المحْص: تُخليصُ الشَّيءِ، وتنقيتُه ممَّا فيه من عَيب[٤].

﴿وَيَمْحَقَ﴾: يُهلك، ويَنقص، وأصل المَحْق: النُّقصانُ، أو نقصانُ الشيءِ قليلًا قليلًا[٥].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطب اللهُ المسلمين مسلِّيًا لهم بعدَ الذي أصابهم في أُحُدٍ من هزيمة، مبيِّنًا سبحانه أنَّه قد مضَتْ مِن قبلهم سُننٌ إلهيَّة على الخَلق؛ فسِيروا - أيُّها المسلمون -

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢، ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

في الأرض؛ لتنظروا من الآثارِ التي تُبيِّن كيف كانت نهاية الكافرين.

ثم يُخبر تعالى أنَّ هذا القرآنَ الكريم بيانٌ للناس كافَّةً؛ يوضِّح لهم الحقَّ من الباطل، وهو مرشِدٌ للمتَّقين إلى الطَّريق القويم، وزاجرٌ لهم عن سُبُلِ الضَّلالة والفساد.

ثم أمَر الله المسلمين ألَّا يَضعُفوا ولا يَحزنوا بسبب تلك الهزيمة التي لحقتهم؛ فإنَّهم هم الأعْلَوْن دائمًا، ما داموا مُتمسِّكين بإيمانهم، فإنْ يكُن قد نالهم جراحٌ وقتْل يوم أُحد، فقد أصاب أعداءَهم من الجراح والقَتْل نحوٌ من ذلك في أُحدٍ وبَدرٍ؛ فقد تساوَوْا، فلا ينبغي أنْ يستمرُّوا على حُزنهم، وهذه سُنَّة الله؛ أنْ يَجعل الأيَّامَ دُوَلًا بين الناس جميعًا؛ مؤمنِهم وكافرهم، فتارةً نصر، وتارةً هزيمة. ومن الحِكَم التي أرادها اللهُ تعالى من ذلك التداوُلِ بين الناس: ظهورُ صادِقي الإيمان من غيرهم، واتِّخاذُ اللهِ من المؤمنين شُهداءَ يُقتَلون في سبيلِه، والله سبحانه لا يحبُّ الظالمين، وحتى يُنقِّي اللهُ المؤمنين من ذُنوبهم بما يُصيبهم من قتْلٍ وجراح، ويُهلِك الكافرين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

بعدَما سبَق الحديثُ عن غزوة أُحُد، وما أصابَ المسلمين فيها، خاطبَهم الله تعالى بهذه الآية؛ تَعزيةً وتسليةً لهم[1]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٦).

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾.

أي: قد مضَى على مَن كان قبلكم من الأُمم طرائقُ إلهيَّةٌ جاريةٌ باعتيادٍ على الخَلق، ومِن ذلك: أنْ يكون النصرُ والهزيمة سِجالًا ومداولةً بين المؤمنين والكافرين، ومِن تِلك السُّنن: إمهالُ الكفَّارِ واستدراجُهم حتى يَحين موعدُ إهلاكِهم، وإنجاءُ المؤمنين مِن بعد ابتلائِهم؛ فتلك أمثلةٌ صالحةٌ للعِظةِ والاعتبار(١).

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: فسِيروا على أقدامِكم وبقُلوبِكم، ناظرين ومُتفكِّرين فيما بقِي للأُممِ الكافرةِ السَّابقة من آثارٍ أرضيَّة، تقِف شاهدةً على جريان سُنَّة اللهِ تعالى في الكافرين بعد إمهالِهم واستدراجِهم، حيث كانت نهايتُهم بإهلاكِهم، وتَدميرِهم بأنواعِ العقوبات؛ جرَّاءَ تكذيبهم بآيات الله تعالى ورسلِه عليهم السَّلام(٢).

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ العظيم- ومن ذلك: الآيات التي تَقدَّم ذِكرُها- يُبيِّن لعمومِ الناس الأمورَ بوضوحٍ تامٍّ، فيُعرَف به الحقُّ من الباطل، وتنكشفُ به الحقائق، فيتميَّزُ مِن خلاله أهلُ السَّعادة من أهل الشَّقاوة(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٠، ٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥-٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٨-١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٩٩-٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٧، ٩٨)، ((تفسير =

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: إنَّ القرآن يُرشِد أهلَ التَّقوى- الذين دأَبوا على امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه- إلى طريق الحقِّ والرَّشاد، ويَزجُرهم عن سلوك طُرُقِ الغَيِّ والفساد[1].

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾، وقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، كالمقدِّمة لقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾؛ كأنَّه قال: إذا بحثتُم عن أحوالِ القرونِ الماضية، علمتُم أنَّ أهلَ الباطلِ وإنِ اتَّفقت لهم الصولةُ، فإنَّ مآلَ أمْرِهم إلى الضَّعفِ والفتور، وصارتْ دولةُ أهل الحقِّ عاليةً؛ وصولةُ أهل الباطل مُندرِسةً؛ فلا ينبغي أنْ تصيرَ صولةُ الكفَّار عليكم يومَ أُحُد سببًا لضعْف قلوبِكم، ولجُبنكم وعجزِكم، بل يجبُ أنْ تَقْوَى قلوبُكم؛ فإنَّ الاستعلاءَ سيحصُل لكم، والقوَّةُ والدولةُ راجعةٌ إليكم[2]؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾.

أي: ولا تَضعُفوا ولا تَتثبَّطوا- أيُّها المؤمنون- عن جِهاد عدوِّكم، ولا يُصيبنَّكم الحزنُ؛ بسببِ الهزيمةِ التي تعرَّضتم لها من قِبَل عدوِّكم يومَ أُحُد، وما نالكم فيه من قتْلٍ وجراح؛ فأنتُم الأعلى دائمًا في جميعِ الأحوالِ حتى لو كنتُم مغلوبينَ، ما

= ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧١).

دُمتُم باقين على إيمانكم؛ فإنَّ هذا الوهنَ والحزنَ غيرُ لائقٍ بالمؤمنين(١).

قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)﴾.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾.

أي: إنْ كنتُم قد أصابتْكم جراحٌ، وقُتِلَ منكم جماعةٌ في غزوة أُحُد، فقد أصابَ أعداءَكم قَريبٌ من ذلك، مِن قتْلٍ وجراحٍ في أُحُد أو بَدْر، فتساويتُم أنتُم وإيَّاهم في ذلك؛ فلا تبتئِسوا(٢).

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَجعل الأيَّام دُوَلًا بين الناس؛ مؤمنِهم وكافرِهم، فيُصرِّفُها كيف يشاء؛ فمرَّةً يُديل المؤمنينَ على الأعداءِ، فتكونُ لهم الغَلَبةُ، ومرةً يُديل الأعداءَ على المؤمنين، فتكونُ الغلبةُ لهم؛ ففي بدرٍ كان النصرُ للمُؤمنين، وفي أُحُدٍ كان النصرُ للمُشرِكين(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٦-٧٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٦ - ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٩-٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٩-٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٩-٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

مُناسَبتها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين عن الهزيمةِ التي وقَعتْ لهم يوم أُحُد، وأنَّ الأيَّامَ دُولٌ بين الناس، شرَع سبحانه في بيان الحِكَم العظيمةِ المترتِّبةِ على ذلك[1]، فقال:

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُصرِّف الأيَّام بين الناس نصرًا وهزيمة؛ ليظهرَ بذلك صادقُ الإيمانِ من غيرِه، كما عَلِمه الله تعالى بسَابِق عِلْمه في الأزلِ؛ فإنَّ المؤمنين لو كانوا دائمًا مَنصورِينَ، فإنَّ الجميعَ سيُظهرون لهم الموالاةَ، ولن يَتميَّز أعداؤُهم من أوليائِهم حقيقةً[2].

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

أي: ومِن أسبابِ إدالةِ اللهِ تعالى الأيَّامَ بين الناس؛ بتمكينِه للكفَّار أحيانًا على بعض المؤمنين: إكرامُ عِبادِه المؤمنين بالشَّهادةِ بالقتْلِ في سبيلِه، كما وقَع

= (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٠-٢٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٨٥-٨٧)، ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢١-٢٢٣).

والعِلم في هذه الآية؛ في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عِلمُ وجود، وعلمٌ يترتَّب عليه الجزاء؛ لأنَّ الله تعالى قد علِم الذين آمنوا قبل أنْ يؤمنوا، فإنَّ عِلْم الله بالأشياء عِلمٌ أزليٌّ قديم، فهو سبحانه وتعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٢)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٥٥).

يوم أُحُد، ولولا ذلك لَمَا نالوا تلك الحُظوةَ الرَّفيعة، وذلك المقامَ السَّامي[1].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الكافِرين والمنافِقين، الذين وَضَعوا- بالكفر- أنفسَهم في غيرِ ما خُلِقتْ لأجْله، فبَخَسوها حقَّها؛ ولذا أَقعدَ المنافقين يومَ أُحُدٍ عن القتال مع المؤمنين؛ لأنَّه يُبغضُهم، كما أنَّ الله تعالى يُديلُ الكافِرين على المؤمنين أحيانًا، لا لأنَّه يُحبُّهم، بل لِمَا سبَق ذِكرُه من أسباب، وإذا أدالَ المؤمنين عليهم فلأَجْل محبَّتِه سبحانه لهم[2].

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: ومِن حِكَم الإدالةِ على المؤمنين تَنقيتُهم من الذُّنوب، سواءٌ بما حصَل لهم مِن قتْل، أو بما أصابَهم من جِراح، ومِن ذلك أنَّهم إنِ انتصروا دائمًا، حصَلَ لنفوسِهم طغيانٌ وضَعْفُ إيمان، يُوجِب لهم العقوبةَ والهوان[3].

﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: يُهلِكُهم ويُفنيهم؛ فإنَّهم إنِ انتَصروا طَغَوْا وبغَوْا وبطَروا؛ فيكون ذلك سببًا في استئصالِهم بعقوبةٍ تُدمِّرهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٨٧)، ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) =

الفوائد التربويَّة:

١- الحثُّ على الاعتبارِ بأحوال الأُمم الماضية، وتأمُّلِ عاقبة المكذِّبين للرُّسل، وتعرُّفِ ما حلَّ بهم، فذلك هو الذي يُوصل إلى معرفةِ تِلك السُّنن والاعتبارِ بها؛ قال تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

٢- إثباتُ القياس؛ لأنَّ المقصود بقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ النَّظرُ والاعتبار، وأنْ يُقاسَ ما حضَرَ على ما مضَى وسلَف[2].

٣- في قوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ ما جرَى للمكذِّبين بالأمس، سيَجري مثلُه للمكذِّبين اليومَ وغدًا؛ ذلك كي تَطمئنَّ قلوبُ الجماعةِ المسلمةِ إلى العاقبةِ مِن جهةٍ، وكي تَحذرَ الانزلاقَ مع المكذِّبين من جِهةٍ أخرى، وقد كان هنالك ما يَدعو إلى الطُّمأنينةِ، وما يَدعو إلى التَّحذير[3].

٤- أنَّ القرآنَ الكريمَ صالحٌ لهدايةِ المؤمِن والكافِر؛ لقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، فهو يَشمَل المؤمنَ والكافر[4].

٥- تسليةُ هذه الأمَّة من وجهٍ، وتحذيرُها من وجهٍ آخَرَ؛ تسليتُها بأنَّ الله سبحانه وتعالى قد عاقَبَ مَن قَبلَها، فعقوبتُه لها في غزوة أُحُد من سُنَن الله عزَّ

= (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٠)، ((تفسير المنار)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٨).

وجلَّ؛ لأنَّه لا شكَّ أنَّ ما حصَلَ في أُحُدٍ عقوبةٌ؛ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾. وفيها أيضًا تحذيرٌ من جِهةٍ أخرى مِن عقوبةٍ أشدَّ؛ لأنَّ الأُممَ السابقة أُهلكوا ودُمِّروا عن آخِرهم(١).

٦- أنَّ القرآنَ الكريم لا يَنتفعُ به إلَّا المتقون؛ لقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ففيه فضيلةُ التَّقوى، وأنَّها سببٌ للاهتداءِ والاتعاظ(٢)، فالكلمةُ الهاديَةُ لا يستَشْرِفُها إلا القلبُ المؤمِنُ المفتوحُ للهدى، والعِظَةُ البالغةُ لا ينتفِعُ بها إلا القَلبُ التقيُّ الذي يخفُقُ لها ويتحرَّكُ بها(٣).

٧- أنَّ مَن لم يتَّعظ بالقرآن، فليتَّهِمْ نفْسَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٤).

٨- في قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، دلالةٌ على أنَّ الإنسانَ كلَّما ازداد تقوى، ازداد هدًى وموعظةً؛ لأنَّ الحُكمَ المعلَّق بوصف يَقوَى بقوَّته، ويَضعُف بضَعْفِه(٥).

٩- أنَّ صِحَّة الإيمان تُوجِب قوَّةَ القلب والثقةَ بالله تعالى، وقِلَّةَ المبالاةِ بأعدائه؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٦).

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: أنَّه يَنبغي للإنسانِ أن يكون قويَّ العزيمة، ولا يَضعُف ولا يَجبُن، وكم من إنسانٍ ضَعُف وجبُن ففاتَه خيرٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).
(٣) ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٤٩).

كثيرًا ولو أقدم لحصَل على خيرٍ كثير؛ لأنَّ المستقبَل لا تُدرى ما النتيجة فيه[١].

١١- الحزنُ مِن عوارضِ الطَّريقِ إلى اللهِ تعالى، وليس مِن مقاماتِ الإيمانِ، ولا مِن مَنازِلِ السَّائِرين؛ ولهذا لم يأمرِ اللهُ به في موضعٍ قطُّ، ولا أثنَى عليه، ولا رتَّب عليه جزاءً ولا ثوابًا، بل نهَى عنه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٢].

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أنَّه كلَّما ازداد إيمانُ الأمَّة ازدادتْ عُلوًّا، وأنَّ للعبدِ مِن العلوِّ بحسبِ ما معَه مِن الإيمانِ؛ لأنَّ الله تعالى رتَّب العلوَّ على الإيمان، والمرتَّبُ على شيءٍ يَزيد بزِيادته، ويَنقُص بنَقْصِه[٣].

١٣- في هذه الآياتِ تسليةٌ من الله للمؤمنين عمَّا حصَل لهم من الهزيمةِ في أُحُد، فبيَّن لهم سبحانه الحِكَمَ العظيمة المترتِّبة على ما أصابَهم في تِلك الهزيمة؛ ومنها:

- أنَّ هذه الدارَ يُعطِي اللهُ منها المؤمنَ والكافر، والبَرَّ والفاجر، فيداولُ اللهُ الأيَّامَ بين الناس؛ يومًا لهذه الطائفة، ويومًا للطائفة الأخرى؛ لأنَّ هذه الدارَ الدنيا منقضيةٌ فانية، وهذا بخِلاف الدَّار الآخرة؛ فإنَّها خالصةٌ للذين آمنوا، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

- ومنها: أنَّ اللهَ تعالى يَبتلي عِبادَه بالهزيمةِ والابتلاء؛ ليَتبيَّن المؤمنُ من المنافق؛ لأنَّه لو استمرَّ النصرُ للمؤمنين في جميع الوقائع، لدخَلَ في الإسلامِ مَن لا يُريده، فإذا حصَل في بعضِ الوقائعِ بعضُ أنواع الابتلاء، تبيَّن المؤمنُ حقيقةً، الذي يَرغبُ في الإسلامِ في الضرَّاء والسَّرَّاء، واليُسر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٨).

والعُسر، ممَّن ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

- ومنها: اتِّخاذُ الشُّهداء؛ قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ لأنَّ الشهادةَ عند الله من أرفعِ المنازل، ولا سَبيلَ لنَيلِها إلَّا بما يَحصُل من وجودِ أسبابها، فهذا من رحمتِه بعباده المؤمنين، أنْ قيَّض لهم من الأسبابِ ما تَكرهه النفوسُ؛ ليُنيلَهم ما يُحبُّون من المنازلِ العالية، والنعيم المقيم.

- ومنها: تمحيصُ المؤمنين من ذُنوبِهم وعُيوبِهم؛ قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ويُمحِّص اللهُ أيضًا المؤمنين من غيرِهم من المنافقين، فيَتخلَّصوا منهم، ويَعرِفوا المؤمنَ من المنافق.

- ومنها: أنَّ الله سبحانه يُقدِّر ذلك؛ ليمحقَ الكافرين كما قال تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: ليكون سببًا لمحْقِهم واستئصالِهم بالعقوبة؛ فإنَّهم إذا انتصروا بَغَوا وازدادوا طُغيانًا إلى طُغيانهم، يَستحقُّون به المعاجلةَ بالعقوبةِ؛ رحمةً بعبادِه المؤمنين(١).

١٤- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾: يَتبيَّن منه أنَّ الله سبحانه وتعالى قد يمتحنُ العبدَ؛ ليعلمَ إيمانَه من عدمِه، يمتحنُه بأنواعٍ من الامتحانات: تارةً بالمصائِب، وتارةً بالمعايب، فهنا ابتلاءٌ بالمصائِب، وإذا يَسَّر اللهُ للإنسانِ أسبابَ المعصية، فهذا ابتلاءٌ بتيسير المعايب(٢).

١٥- الشِّدَّةُ بعد الرَّخاء، والرَّخاء بعدَ الشِّدَّة، هما اللذان يَكشِفانِ عن معادن النفوس، وطبائِع القلوب، ودَرجةِ الغَبَش فيها والصَّفاء، ودرجة الهَلَع

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥).

فيها والصَّبر، ودرجة الثقة فيها باللهِ أو القنوط، ودرجة الاستسلامِ فيها لقدَر الله أو البَرَم[١] به والجُموح، عندئذ يَتميَّزُ الصفُّ ويتكشَّف؛ قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢].

١٦- مداولةُ الأيَّام، وتعاقُب الشِّدَّة والرَّخاء، محكٌّ لا يُخطِئ، وميزانٌ لا يَظلم، والرخاء في هذا كالشِّدة، وكم مِن نفوسٍ تصبر للشِّدَّة وتتماسَك، ولكنَّها تتراخى بالرَّخاء وتنحلُّ! والنفسُ المؤمنةُ هي التي تصبر للضَّرَّاء، ولا تَستخفُّها السَّرَّاء، وتتَّجه إلى اللهِ في الحالين، وتوقِن أنَّ ما أصابَها من الخيرِ والشرِّ فبإذنِ الله؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[٣].

١٧- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، يُثير في نفْس المؤمن بُغضَ الظُّلم وبُغضَ الظالمين، وهذه الإثارةُ في مَعرِض الحديثِ عن الجهادِ والاستشهادِ لها مُناسبتُها الحاضرة؛ فالمؤمن إنَّما يَبذُل نفْسَه في مكافحةِ ما يَكرهه اللهُ ومَن يَكرهه، وهذا هو مقامُ الاستشهاد، وفي هذا تكونُ الشهادةُ، ومِن هؤلاء يتَّخِذُ اللهُ الشُّهداءَ[٤].

١٨- قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ جملةٌ معترِضة مسوقةٌ لبيانِ أنَّ الشهداءَ يكونون ممَّن خَلَصوا لله، وأخْلصوا في إيمانهم وأعمالهم؛ فلم يَظلِموا أنفسِهم بمخالفةِ الأمْرِ أو النهي، ولا بالخروجِ عن سُنن اللهِ في الخَلْق، وأنَّه تعالى لا يَصطفي للشهادةِ الظالمين ما داموا على ظُلمهم، وفي ذلك بِشارةٌ

---

(١) البَـرَمُ: مصدر قولك: بَرِمَ به، إذا سَئِمه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٨٦٩).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٢).

للمتَّقين، وإنذارٌ للمقصِّرين؛ فالناسُ قَبل الابتلاءِ بالمِحن والفتنِ يَكونون سواءً؛ فإذا ابتُلوا تَبيَّن المخلِصُ والصادقُ، والظالمُ والمنافِق [١].

١٩- الظَّالم لا تدومُ له سُلطةٌ، ولا تثبُتُ له دولة، فإذا أصابَ غِرَّةً من أهل الحقِّ والعدل، فكانتْ له دولةٌ في حربٍ أو حُكم، فإنَّما تكونُ دولتُه سريعةَ الزوال، قريبةَ الانحلال والاضمحلال [٢].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أنَّ القرآن يَربط ماضي البشريةِ بحاضرِها، وحاضرَها بماضيها، فيُشيرُ من خلال ذلك كلِّه إلى مستقبلها [٣].

٢- في قوله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، أنَّ المصارعةَ بين الحقِّ والباطلِ قد وقعتْ في الأُمم الماضية، وكان أهلُ الحقِّ يَغلِبون أهلَ الباطل، ويُنصَرون عليهم بالصَّبر والتقوى [٤].

٣- قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾، فيه أنَّ السَّير في الأرض لغيرِ غرَضٍ مشروعٍ مذمومٌ؛ لأنَّ السَّيرَ في الأرضِ من غيرِ غَرضٍ مشروعٍ فيه إتعابٌ للنَّفس، وتعريضُها للهلاك، وإضاعةُ المال، وإضاعةُ الوقت [٥].

٤- أنَّ القرآنَ بيانٌ للناسِ في كلِّ شيء، فهو عامٌّ من حيثُ التَّبيينُ، وعامٌّ من

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٧٩).

(٤) انظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١١٧).

(٥) يُنظر: ((الزهد والورع والعبادة)) لابن تيمية (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٢).

حيثُ المبيَّنُ له؛ يُؤخَذ العمومُ للمُبيَّن له من قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، والتبيينُ مِن كونِه حَذَف المتعلَّقَ، وحذف المتعلَّق يدلُّ على العمومِ ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ لكلِّ شيءٍ، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] [النحل: ٨٩].

٥- أنَّ هذه الأمَّةَ هي العُليا، بشَرْط أنْ تؤمن؛ لقوله: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

٦- في قوله: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ التلميحُ بالتوبيخِ إذا حصَل الوهنُ أو الحزن لا سيَّما إذا قلنا: إنَّ الواوَ هنا واو الحال؛ يعني: كيف يَليقُ بكم أن تَهِنوا وتحزنوا وأنتم الأعلون؟! لأنَّ الأعلى لا يَليق به أن يهِن أو يَحزَن[3].

٧- بيانُ رأفةِ الله سبحانه وتعالى برسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه بهذه التسليةِ العظيمة؛ ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾[4].

٨- إنْ قِيل: ما وجهُ الجمعِ بينَ الإفرادِ في قولِه: ﴿قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾، وبينَ التثنيةِ في قولِه: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾[آل عمران: ١٦٥]، فالجواب، والله تعالى أعلم: أنَّ المرادَ بالتثنيةِ قتلُ سبعينَ، وأسرُ سبعين يومَ بدرٍ في مقابلةِ سبعينَ يومَ أُحُد، كما عليه جمهورُ العلماءِ. والمرادُ بإفرادِ المثلِ: تشبيهُ القرحِ بالقرحِ في مُطلقِ النِّكاية والألمِ[5].

٩- أنَّ الله سبحانه وتعالى جعَل هذه الدنيا دولًا تتقلَّب؛ لئلَّا يركنَ الإنسان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٤).
(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٩).

إليها؛ لأنَّ الدنيا لو كانتْ دائمًا راحةً ونعمة، لركَن الإنسانُ إليها، ونسي الآخرة، ولو كانت دائمًا محنةً ونقمةً، لكانتْ عذابًا مستمرًّا، ولكن الله جَعَلها دولًا يُدال فيها الناسُ بعضُهم على بعض، وتتداول الأحداثُ على الإنسانِ ما بَين خيرٍ وشرٍّ؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[١].

١٠- أنَّ عِلمَ الله سبحانه وتعالى بالأشياءِ على قِسمين: عِلمٍ بأنَّها ستوجد، وهذا أزليٌّ، وعِلمٍ بأنَّها وُجِدت، وهذا يكونُ عند الوجودِ؛ وهو علمٌ يترتَّب عليه الجزاء ولهذا قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فإنَّ عِلْم الله بالأشياء عِلمٌ أزليٌّ قديم، يعلم سبحانه وتعالى ما كان، وما يكون، والقاعدة أنه: متى عَلَّق الله عِلمَه بالأمور بعد وجودِها، كان المرادُ بذلك: العلمُ الذي يترتَّب عليه الجزاء[٢].

١١- أنَّ اللهَ تعالى قد يُقدِّر المكروهَ للنَّفْس؛ لحِكَمٍ بالغةٍ كثيرة؛ لقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾[٣].

١٢- فضيلةُ الشَّهادة، تُؤخذُ من قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾، فكأنَّه سبحانه اصطَفى هؤلاء الشُّهداءَ، واتَّخذَهم لنفسِه[٤].

١٣- قول الله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾: يُستفادُ من هذا أنَّ النعمةَ قد تكون سببًا للنِّقمة؛ فإنَّ انتصارَ الكفَّار يُوجِب فرَحَهم وبطرَهم، حتى إذا بطَروا مُحِقوا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥)، ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٩).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ جِيء بـ﴿قَدْ﴾ الدالَّة على تأكيدِ الخبرِ؛ تنزيلًا لهم منزلةَ مَن يُنكر ذلك؛ لِمَا ظهَر عليهم من انكسارِ الخواطرِ من جرَّاءِ الهزيمةِ الحاصلةِ لهم من المشركين، مع أنَّهم يُقاتلون لنصرِ دِين الله[1].

٢- قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تخصيصُ البيانِ للنَّاسِ مع شُمولِه للمتَّقين أيضًا؛ لأنَّ المرادَ به مجردُ البيانِ العاري عن الهُدى والعظةِ، والاقتصارُ على الهُدى والموعِظة في جانبِ المتَّقين مع ترتُّبهما على البيانِ؛ لأنَّهما المقصِدُ الأصليُّ، ويجوز أن يكونَ تعريفُ الناسِ للجِنس، أي: هذا بيانٌ للنَّاس كافةً، وهُدًى وموعظةٌ للمتَّقين منهم خاصَّة؛ لأنَّه لا يَحصُل إلَّا لهم[2].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ فيه التعبيرُ عمَّا أصاب المسلمين بصِيغة المضارع في ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾؛ لقُربِه من زمَنِ الحال، والتعبيرُ عمَّا أصاب المشركين بصيغةِ الماضي؛ لبُعدِه؛ لأنَّه حصَل يومَ بدر[3].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

- التعبيرُ بأداة البُعد ﴿تِلْكَ﴾ فيه تنبيهٌ على تَعظيمِ الأيَّام[4].

- وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ﴾ فيه التفاتٌ مِن ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ إلى الغَيبة بإسنادِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٠).

إلى اسمِ الذاتِ المستجمِعِ للصِّفات ﴿الله﴾؛ للتعظيم، ولتربية المهابةِ، والإشعارِ بأنَّ صدورَ كلِّ واحدٍ ممَّا ذُكِر بصدد التعليلِ من أفعالِه تعالى باعتبارِ منشأٍ معيَّنٍ من صفاته تعالى، مغايرٌ لمنشأِ الآخَر[١].

٥- قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، ونفيُ المحبَّةِ في إيقاعِه على الظَّالِمين تَعريضٌ بمحبَّته تعالى لمقابِليهم من المؤمنين[٢].

٦- قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾:

- تكريرُ اللامِ في ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾؛ للتَّذكيرِ بالتعليلِ السَّابق (ولِيَعلمَ)؛ لوقوعِ الفصلِ بينهما بالاعتراضِ بجملة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقِع الإضمار؛ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بشأن التَّمحيصِ، وهذه الأمورُ عِللٌ للمداولة المعهودةِ باعتبار كونِها على المؤمنين، وقُدِّمت في الذِّكر؛ لأنَّها المحتاجةُ إلى البيان، ولعلَّ تأخيرَ العِلَّةِ الأَخيرةِ عن الاعتراضِ؛ لئلَّا يُتوَهَّمَ اندراجُ المذنبين في الظَّالمين[٣].

- ولفظة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ عامٌّ، أُريد به الخصوصُ؛ فالمرادُ بالكافرين هنا طائفةٌ مخصوصة، وهم الذين حارَبوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه تعالى لم يَمْحَقْ كلَّ كافر، بل كثيرٌ منهم باقٍ على كُفرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).

- وقابَل في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ تمحيصَ المؤمنِ بمحْقِ الكافِر؛ لأنَّ التمحيصَ إهلاكُ الذُّنوب، والمحقَ إهلاكُ النُّفوس، وهي مقابلةٌ لطيفةٌ في المعنى(١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٥٦).

الآيات (١٤٢ - ١٤٥)

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: أي: كفرتم، والانقلابُ: الانصرافُ؛ يُقال لِمَن كان على شيءٍ ثم رجَع عنه: قد انقلَبَ على عقِبه، ومنه قيل للكافرِ بعد إسلامه: مُرتدٌّ، وأصلُ (قلب): صَرْفُ الشَّيء عن وجهٍ إلى وجهٍ، أو ردُّه من جِهةٍ إلى جِهة[١].

و﴿أَعْقَابِكُمْ﴾: جمْعُ عقِب، وهو: مُؤخَّر الرِّجْل، ويُقال: رجَع على عَقِبه: إذا انثنى راجعًا، وأصلُ العقب: يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ، وإتيانِه بعد غيرِه[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُنكر اللهُ تعالى على المؤمنينَ أن يَظنُّوا أنَّهم سيَدخلون الجَنَّة بمجرَّدِ إيمانهم، بل لا بدَّ أن يُبتلَوا؛ حتى يَعلمَ الله المجاهدين حقًّا في سبيلِه، ويعلمَ الصابرين.

ثم يُذكِّرهم تعالى أنَّهم كانوا يَتمنَّون مواجهةَ أعدائهم، ويَطمعون في بلوغِ مرتبةِ الشهادةِ بالموتِ في سبيلِ الله، وهاهم رأَوا بأعينهم يومَ أُحُد ما كانوا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥).

تمنَّوه، فلِمَ لمْ يَثبُتوا ويَصبِروا حتى ينالوا ما كانوا يَطمعون إليه.

ثم يُخبرهم اللهُ تعالى أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ مخلَّد في الدُّنيا، فإنَّما هو رسولٌ كباقي رُسل الله الذين من قبلِه؛ قد انقضتْ آجالهم في الدُّنيا بالموت أو القتْل؛ فهل إذا انقضَى أجلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يكون هذا مبرِّرًا ليرتدُّوا عن دِينهم؟! ومَن يَرتدِدْ عن دِينه فلن يضرَّ اللهَ بردَّته عن الدِّين شيئًا، وسيُثيب الله الشَّاكرين.

ثم يُبيِّن الله أنَّه ما كان لنَفْسٍ أن تموتَ إلَّا بإذن الله، وذلك إذا جاء أجلُها الذي كتَبه الله لها، ثم أَخبر تعالى أنه يُؤتي الناسَ من ثواب الدُّنيا والآخرة ما عَلَقتْ به إرادتُهم؛ فمَن يُرِدْ ثوابَ الدنيا بعملِه، يُؤتِه منها، ومَن يُرِدْ به ثوابَ الآخِرة، يُؤتِه منها، وسيُثيب الله تعالى الشَّاكرين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أرشدَ الله تعالى المؤمنين في الآياتِ السَّابقة إلى أنَّه لا يَنبغي لهم أن يَضعُفوا أو يَحزنوا، وبَيَّن لهم حِكمةَ ما أصابهم يومَ أُحد، وأنَّه منطبِقٌ على سُنَّته في مداولة الأيَّام بين الناس، وفي تمحيصِ أهل الحقِّ بالشَّدائد، وفي ذلك من الهِداية والإرشادِ والتَّسلية ما يُربِّي المؤمنَ على الصِّفات التي يَنالُ بها الغَلبةَ والسِّيادةَ بالحقِّ، وهذه مِن سعادةِ الدُّنيا- بيَّن لهم في هذه الآيةِ أنَّ سعادةَ الآخِرة لا تُنالُ أيضًا إلَّا بالجهادِ والصَّبر[1]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٢٧).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾.

أي: لا تظنُّوا- يا معشرَ المؤمنين- أنْ تنالوا شَرَفَ دخولِ الجنَّة قبلَ أن تُبتَلَوْا، ويرَى اللهُ تعالى- واقعًا ظاهرًا- المجاهدين منكم في سبيلِه، ويرَى كذلك الصَّابرين على الجهادِ، وعلى ما يَنالهم من مَصائبَ وآلامٍ، كما وقَع يوم أُحُد[1].

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)﴾.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾.

أي: قدْ كنتُم- يا مَعشرَ المؤمنين- قبلَ مجيء غزوةِ أُحُدٍ تَتحرَّقون شوقًا لمناجزةِ الأعداء، وتَطمَعون في الموتِ؛ لنَيلِ الشَّهادة في سَبيلِ الله تعالى، كما وقَع لإخوانِكم يومَ بدر[2].

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

أي: ها قدْ حصَل لكم ما تمنَّيتموه من لِقاءِ الأعداءِ، وشاهدتُم بأمِّ أعينِكم يومَ أُحُد الموتَ وأسبابَه وشِدَّته، ومَن يموتُ مِن الناس، أبصرتُم ذلك عِيانًا، فلِمَ لمْ تَثبُتوا وتَصبروا؛ حتى تنالوا ما أردتموه من قبلُ[3]؟!

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٣-٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٤-٢٣٥).

أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

أي: إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ مخلَّدٍ في الدُّنيا، بل له أُسوةٌ في إخوانِه المرسَلين في انقضاءِ أجلِه الدُّنيوي بالموتِ أو القتْل، كما وقَعَ لهم من قبلُ[1].

﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾.

أي: هلْ يَعني انقضاءُ أجَل نبيِّكم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم بالموت أو القَتْل، أنْ يكونَ مبرِّرًا لكم لترتدُّوا عن دِينكم، فترجعوا من بعد نبيِّكم كفَّارًا[2]؟!

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ كلَّ مَن يَرتدُّ عن دِين الله تعالى، فإنَّما يضرُّ نفسَه في الحقيقةِ، ولن يُصيبَ اللهَ سبحانه شيءٌ من ضررِ ذلك؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عنه وعن إيمانه، فلن يُوهِن ارتدادُه سُلطانَه، ولن يَنقصَ ذلك شيئًا من مُلكِه، ولن يَنال اللهَ سبحانه وتعالى بأيِّ سوء[3].

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى سيُثيب مَن قاموا بشُكر نِعَمه بقلوبِهم وألْسِنتِهم وجوارِحِهم، كالذين ثَبتوا على إيمانِهم، واتَّبعوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حياتِه وبعد مماتِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٦، ٩٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١٨/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) =

عن عائشةَ رضي الله عنها: ((أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه أقبلَ على فَرَسٍ مِن مَسْكَنِه بالسُّنُحِ[(١)]، حتى نزلَ فدخلَ المسجدَ، فلم يُكلِّمِ الناسَ حتى دخلَ على عائشةَ، فتيَمَّمَ[(٢)] رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مغشيٌّ بثوبِ حِبَرَةٍ[(٣)]، فكشفَ عن وجهِه، ثم أكبَّ عليه فقبَّلَه وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمِّي! واللهِ لا يَجمَعُ اللهُ عليك مَوْتَتَيْنِ، أمَّا الموتةُ التي كُتِبَتْ عليك فقد مِتَّها. قال الزهريُّ: حدَّثني أبو سَلَمَةَ، عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ: أنَّ أبا بكرٍ خرجَ وعمرُ بنُ الخَطَّابِ يُكلِّمُ الناسَ، فقال: اجلسْ يا عُمرُ، فأبَى عمرُ أن يَجلِسَ، فأقبلَ الناسُ إليه وتَركوا عمرَ، فقال أبو بكرٍ: أمَّا بعدُ، فمَن كان منكم يَعبُدُ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنَّ محمدًا قد ماتَ، ومَن كان منكم يَعبُدُ اللهَ، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ؛ قال اللهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ...﴾ إلى قوله: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤- ١٤٥]. وقال: واللهِ لكأنَّ الناسَ لم يَعلَموا أنَّ اللهَ أنزلَ هذه الآيةَ حتَّى تلاها أبو بكرٍ، فتلقَّاها منه الناسُ كلُّهم، فما أسمعُ بَشرًا مِن الناسِ إلَّا يَتلوها، فأَخبرني سعيدُ بنُ المُسَيَّبِ: أنَّ عمرَ قال: واللهِ ما هو إلَّا أنْ سمعتُ أبا بكرٍ تلاها فعَقِرْتُ[(٤)]، حتى ما تُقِلُّني[(٥)] رجلايَ، وحتى أَهْوَيتُ إلى الأرضِ حينَ

= (ص: ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٠-٢٤١).

(١) السُّنُحِ- بضمِّ السِّين والنونِ، وقيل: بسُكون النون-: موضِعٌ بعوالي المدينة، فيه منازلُ بني الحارث بن الخزرج. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٠٧).

(٢) فتيمَّم: أي: توخَّاه وقصَدَه دون مَن سواه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ٢٠٦٤).

(٣) الحِبَرة- على وزن عِنَبَة-: ثوب يمانيٌّ من قُطن أو كَتَّان، مُخطَّط، يقال: بُردٌ حِبَرةٌ- على الوصف-، وبُردُ حِبَرةٍ- على الإضافة. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١١٨).

(٤) فَعَقِرتُ: أي: أسلمتني قوائمي من الخوف، أو دُهشت ولم أستطِع أَنْ أتقدَّمَ أو أتأخَّرَ من فجأة الرَّوع؛ مأخوذٌ من العَقَر- بفتْحتين. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٧٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٩).

(٥) مَا تُقِلُّني- بِضَم أَوله، وَكسر الْقَاف، وَتَشْدِيد اللاَّم-: أي ما تحملني، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧]. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٨/ ٧٢).

سمعتُه تلاها، علمت أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد مات))(١).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾.

أي: ولا يَنبغي أن تموتَ نفْسُ أيِّ أحدٍ مِن خَلْق الله تعالى، سواء كان محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو غيره، إلَّا إذا أذِن الله جلَّ جلاله، وذلك حين يَبلُغ الوقتَ المحدَّد الذي كتَبه اللهُ تعالى لموته، فيَستوفي بذلك المدَّةَ المضروبةَ لحياته الدنيا؛ فأمَّا قبلَ ذلك فلنْ يموتَ أحدٌ لا بكيدِ كائدٍ، ولا بحِيلة محتالٍ، ولو اجتمعتْ حوله جميعُ أسبابِ الموت، فالجُبن لا يَزيد في العُمر، والشجاعةُ والإقدامُ لا تَنقص منه، وفي هذا تقويةٌ للنفوسِ على الجِهاد في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾.

أي: إنَّ مَن قصَد بأعمالِه وسَعيِه طلبَ الدنيا فحسبُ، فسيُؤتيه اللهُ تعالى مُبتغاه منها، إنْ شاء، وليس له في الآخِرة من ثوابٍ على تلك الأعمالِ(٣).

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٠٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٧، ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٠٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٨-٢٤٩، ٢٥٣-٢٥٤).

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال عز وجل: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾.

أي: وأمَّا مَن قصَد بأعمالِه وسَعيِه طلبَ ثوابها الأُخروي، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعطيه- بإذنه- ما ابْتغَى[1].

ولا يَمنع هذا مِن نَيلِ نَصيبِه الدُّنيويِّ الذي قَسَمه اللهُ تعالى له[2].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

وقال أيضًا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/١٠٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/٥١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/٢٤٩).

أي: إنَّ الله تعالى سيُثيب كلَّ شاكرٍ؛ فضلًا منه سبحانه[١].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

الفوائد التربويَّة:

١- حبُّ الله وحبُّ الآخرة لا يتمُّ بالدَّعْوَى؛ فليس كلُّ مَن أقرَّ بدِين الله كان صادقًا، ولكن الفَصل فيه: تسليطُ المكروهات والمحبوبات؛ فإنْ بقِي الحبُّ عند تسليطِ أسباب البلاء ظهَر أنَّ ذلك الحبَّ كان حقيقيًّا؛ يُبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، فالصَّبرُ والثباتُ عند جلائلِ المصائبِ أعظمُ دليلٍ على الوثوقِ باللهِ ووعدِه، الذي هو صريحُ الإيمان[٢].

٢- بيانُ أنَّ التمنِّي رأسُ مال المفاليس؛ فالتمنِّي دون فِعلِ السببِ خُسرانٌ، وذلك رأسُ مالِ المفلسِ الذي لنْ يُحصِّل له شيئًا، والجنة لا تُدرك بالتمنِّي؛ لقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٣].

٣- في قوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الجَنَّةَ أعلى المطالِب، وأفضلُ ما به يتنافسُ المتنافسون، وكلَّما عظُم المطلوب، عظُمت وسيلتُه والعملُ الموصل إليه؛ فلا يُوصلُ إلى الراحةِ إلَّا بترْك الراحة، ولا يُدركُ النَّعيم إلَّا بتركِ النَّعيم، ولكنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٥-٣٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٢).

مكارهُ الدنيا التي تُصيب العبدَ في سبيل الله عند توطينِ النَّفسِ لها، وتمرينِها عليها، ومعرفةِ ما تؤول إليه، تنقلبُ عند أربابِ البصائرِ مِنحًا يُسَرُّون بها، ولا يُبالون بها، وذلك فضلُ الله يُؤتِيه مَن يشاء(١).

٤- في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾: أنَّه لا يَكفي أنْ يُجاهد المؤمنون، إنما هو الصَّبرُ على تكاليفِ هذه الدَّعوة أيضًا؛ التكاليف المستمرَّة المتنوِّعة، التي لا تقِف عند الجِهادِ في الميدان، فربَّما كان الجهادُ في الميدان أخفَّ تكاليفِ هذه الدعوةِ التي يُطلب لها الصبر، ويُختبرُ بها الإيمانُ، إنما هنالك المعاناةُ اليوميَّة التي لا تَنتهي: معاناةُ الاستقامةِ على أُفق الإيمان، والاستقرارِ على مُقتضياتِه في الشعُّور والسلوك، والصَّبرِ في أثناء ذلك على الضَّعفِ الإنساني؛ في النَّفس، وفي الغير، ممَّن يتعامَلُ معهم المؤمنُ في حياتِه اليوميَّة. والصَّبرِ على الفتراتِ التي يَستعلي فيها الباطلُ ويَنتفِش، ويبدو كالمنتصِر! والصَّبرِ على طولِ الطريق، وبُعدِ الشُّقَّة، وكثرةِ العقبات. والصبرِ على وسوسة الرَّاحة، وهفوةِ النفس لها في زحْمةِ الجهدِ والكربِ والنِّضال. والصبرِ على أشياءَ كثيرةٍ ليس الجهادُ في الميدان إلَّا واحدًا منها، في الطريقِ المحفوفِ بالمكاره؛ طريقِ الجنة التي لا تُنال بالأماني، وبكلماتِ اللِّسان(٢).

٥- أنَّ الجهاد سببٌ لدخول الجنة؛ لقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾، وهذا يدُلُّ على عِظَمَ مرتبتِه في دينِ الله، ولا فَرْقَ بين الجِهادِ بالسِّلاح والجِهادِ بالعِلم؛ فكلاهما جهادٌ، بل قد تَحتاج الأمَّةُ الإسلاميَّة إلى جهادِ العلم أكثرَ ممَّا تحتاج إلى جهادِ السِّلاح، وقد يكونُ بالعكس، وقد يتساويان. ولكن لا بدَّ من وجودِهما في الأمَّة الإسلاميَّة(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٣).

٦- أنَّ الصَّبرَ سببٌ لدخول الجنَّة؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، وأنَّ الجزاءَ يكون على قدْر العمل، فإذا كان ثوابُ الصبر الجنةَ، دلَّ على عِظَم مرتبتِهِ في دِين الله عزَّ وجلَّ[1].

٧- يجبُ على المرءِ ألَّا يطلُبَ أمرًا حتى يُفكِّر في عواقبِه، ويَسبُرَ مقدارَ تحمُّله لمصائبه، وأنَّه لا يَنبغي للإنسان أن يتمنَّى المكروه؛ لأنَّه إذا تمنَّاه ووقَع، ربَّما ينكِص، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[2].

٨- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾: أفاد أنَّه لا بأسَ أن يُوبِّخ الإنسانُ مَن تحدَّى، واتَّخذ لنفسِه مكانًا عاليًا إذا وجَده قد تخاذَلَ في هذا المكان[3].

٩- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾: هذه الآية تُنبِّه كلَّ مؤمنٍ إلى الحذرِ من الغرورِ بحديثِ النَّفس والتمنِّي والتشهِّي، وتَهديه إلى امتحانِ نفْسِه بالعملِ الشاق، وعدمِ الثِّقةِ بما دون الجِهادِ والصَّبر على المكارهِ في سَبيل الحقِّ؛ حتى يأمنَ الدعوَى الخادعةَ، بَلْهَ الدعوى الباطِلة، وإنَّما الخادعة أنْ تدَّعي ما تتوهَّم أنَّك صادقٌ فيه مع الغفلةِ أو الجهلِ بعجزك عنه، والباطلةُ لا تَخفى عليك، وإنَّما تظنُّ أنَّها تَخفى على سواك[4].

١٠- ليسَ كلُّ مَن عزَم على شيءٍ عزمًا جازمًا قبلَ القُدرةِ عليه وعدمِ الصَّوارفِ عن الفِعل، تَبقَى تلك الإرادةُ عند القُدرةِ المقارنةِ للصوارفِ؛ يُبيِّن ذلك قولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٤/ ١٣٠).

اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾(١).

١١- قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ..﴾: فيه عدمُ الاعتمادِ في اتِّباعِ الحقِّ ولزومِه والثباتِ عليه على وُجودِ المعلِّم، بحيث يُترَك الحقُّ بعد ذَهاب المعلِّم أو موته(٢).

١٢- في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾: أنَّ لكلِّ نفْس كتابًا مؤجَّلًا إلى أجلٍ مرسوم، ولن تموتَ نفْسٌ حتى تستوفيَ هذا الأجلَ المرسوم؛ فالخوفُ والهلع، والحِرصُ والتخلُّف، لا تُطيل أجلًا، ومَن أحجمَ عن الجهاد، ذمَّه اللهُ تعالى ولم ينفعْه الإحجامُ، والشجاعةُ والثباتُ والإقدامُ والوفاءُ لا تُقصِّر عُمرًا، ومَن أقدمَ على الجهاد، شَكَر اللهُ تعالى له ذلك، ولم يَضرَّه الإقدامُ(٣).

١٣- المؤثِّر في جلْبِ الثواب والعقاب: هو القصدُ لا ظواهرُ الأعمال؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾(٤)؛ وشتَّان بين حياةٍ وحياةٍ! وشتَّان بين اهتمام واهتمامٍ! مع اتِّحادِ النتيجةِ بالقياسِ إلى العُمر والأجل، والذي يَعيش لهذه الأرضِ وحْدَها، ويُريد ثوابَ الدنيا وحْدَها، إنَّما يَحيا حياةَ الدِّيدان والدوابِّ والأنعام، ثم يموتُ في موعدِه المضروبِ بأجَلِه المكتوب، والذي يَتطلَّعُ إلى الأفق الآخَر، إنما يَحيا حياةَ الإنسان الذي كرَّمه اللهُ واستخلَفَه وأفْرَده بهذا المكانِ، ثمَّ يموتُ في موعدِه المضروب بأجَلِه المكتوب(٥).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٣٣).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨٤). ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٩).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٧).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ... وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، في هذه الآيةِ أعظمُ دليلٍ على فَضيلةِ الصِّدِّيقِ الأكبر أبي بكر، وأصحابِه الذين قاتَلوا المرتدِّين بعدَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهم هم ساداتُ الشَّاكرين[1].

٢- الاستدلالُ بذِكر النَّظائرِ؛ ليقتنعَ الإنسانُ بما سمِع؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[2].

٣- إثباتُ أنَّ محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاتمُ الرُّسل؛ لقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ و(أل) هنا للعموم، ولم يقُل: (قد خلتْ من قبله رسل)، بل قال: ﴿الرُّسُل﴾، وإذا كان الرسلُ كلُّهم قد خَلَوْا من قبله، لزِمَ مِن ذلك أنْ يكونَ هو آخِرَهم[3].

٤- الردُّ على مَن توهَّم أو زعَمَ أنَّ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم حيٌّ في قبره؛ لقوله: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾[4].

٥- قال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ولم يَذكُرْ جزاءَهم؛ ليدلَّ ذلك على كثرتِه وعَظمتِه، وليعلمَ أنَّ الجزاءَ على قدْرِ الشُّكر؛ قِلَّةً وكثرةً وحسنًا[5].

٦- جوازُ الإطلاقِ في الكلامِ إذا جاء مفسَّرًا في موضِع آخَر؛ لقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾؛ فإنَّ هذه الآيةَ مجملَةٌ لم يُبيِّن الله تعالى كيف يكون هذا الجزاء، ولكنَّه قد بُيِّن في نصوص أخرى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، والشَّريعة يُفسِّر بعضُها بعضًا، ويُقيِّد بعضُها بعضًا، ويُخصِّص بعضُها بعضًا، وهذا يَجعل النَّفْسَ تتطلَّع إلى بيانِ هذا المجمَل، فتَحرِص وتَبحث، وتَقرِن بين الأدلَّة، فيكون المسلمُ ملمًّا بجميع النصوص[1].

٧- إثباتُ أنَّ كلَّ شيء- حتى الموت- مخلوقٌ لله في قوله: ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وما كان صادرًا عن إذنٍ فهو مخلوقٌ، ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[2] [الملك: ٢].

٨- أنَّه لا يُمكن أن يَتقدَّم الإنسانُ أو يتأخَّر عن الأجَل الذي قدَّره اللهُ له؛ لقوله: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾، ويُؤيِّد هذا آياتٌ؛ منها قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، ومنها: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾[3] [المنافقون: ١١].

٩- أنَّ الناسَ لهم مشاربُ، ولكلِّ واحدٍ مسلكٌ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ﴾[4].

١٠- أنَّ الإخبارَ عن الشَّيء، أو عن وقوعِ الشَّيء لا يدلُّ على حِلِّه؛ فقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ لا يدلُّ على حِلِّ إرادةِ الإنسانِ الدُّنيا بعمله، إنَّما هو خبرٌ عن أمْرٍ وقَع، والحِلُّ والحُرمة يُؤخذانِ من دليلٍ آخَر من الشرع[5].

١١- الردُّ على الجَبريَّة؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ حيث أثبتَ للإنسان إرادةً،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسانَ ليس له إرادةٌ، وإنَّه يفعل بدون اختيارٍ ولا إرادة، ولكنْ كلُّ النُّصوصِ السَّمعيَّة والعقليَّة تردُّ على قولهم(١).

١٢- إيثارُ إرادةِ الآخِرة على الدُّنيا؛ لقوله: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾؛ فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّ مَن أراد الآخرة، فإنَّه من الشاكرين الذين يَجزيهم اللهُ عزَّ وجلَّ(٢).

١٣- إثباتُ الجزاءِ على العمل، وهو دائرٌ بين أمرين، بين عدْلٍ وفَضْل، ويمتنع الأمرُ الثالث، وهو الظُّلمُ بالنِّسبة للهِ عزَّ وجلَّ، ولكنْ لكمال عدْله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾(٣).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ الهمزةُ فيه للإنكارِ، والاستفهامُ المقدَّر بعدَ ﴿أَمْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّغليطِ والنهيِ؛ ولذلك جاء بـ﴿أَمْ﴾؛ للدَّلالةِ على التغليط، أي: لا تَحْسَبوا أنْ تَدخُلوا الجَنَّةَ دون أنْ تُجاهِدوا وتَصبِروا على عواقِب الجهاد(٤)، فصِيغةُ السُّؤالِ الاستنكاريَّة يُقصَد بها التَّنبيهُ بشِدَّة إلى خطأِ هذا التصوُّر؛ تصوُّر أنَّه يَكفي الإنسانَ أن يقولَها كلمةً باللِّسان(٥).

٢- قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه تَكرارُ الفِعل (يعلم)؛ إمَّا لاختلافِ المتعلَّق، وإمَّا للتَّنبيهِ على فَضْل الصَّابرِ(٦).

٣- قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٦).
(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).

تَنظُرُونَ﴾ أي: تتمنَّوْن الحربَ ومناجزةَ الأعداء يوم أُحد؛ فإنَّها من مبادِئ الموتِ، أو تتمنَّون الموتَ بالشَّهادة في سبيل الله، وهو خبرٌ فيه توبيخٌ لهم على تمنِّيهم الحربَ، وعلى ما تَسبَّبوا له مِن خروجِ رسولِ اللَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإلحاحِهم عليه، ثمَّ انهزامِهم عنه وقِلَّة ثباتِهم عندَه، كأنَّه قيل: إنْ كُنتُمْ صادقينَ في تمنِّيكم ذلك، فقدْ رأيتُموه معاينينَ له، حِين قُتِلَ بين أيديكم مَنْ قُتل مِن إخوانِكم وأقاربِكم، وشارفتُم أن تُقتلوا، فلِمَ فعلتُم ما فعلتُم. وليس التوبيخُ على تمنِّي الشَّهادةِ بناءً على تضمُّنها لغلَبَةِ الكفَّارِ؛ لأنَّ مَطلبَ مَن يتمنَّاها نيلُ كرامةِ الشُّهداءِ، من غير أنْ يخطُرَ بباله شيءٌ غيرُ ذلك، فلا يستحِقُّ العتابَ من تلك الجِهة[(١)].

٤- قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه قصرٌ، والقصرُ قلبيٌّ[(٢)]؛ فإنَّهم لَمَّا انْقَلبوا على أعقابِهم، فكأنَّهم اعتَقدوا أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام رسولٌ لا كسائرِ الرُّسلِ في أنَّه يخلو كما خَلَوا، ويجب التمسُّكُ بدِينه بعده، كما يجب التمسُّكُ بدِينهم بعدَهم، فردَّ عليهم بأنَّه ليس إلَّا رَسولًا كسائرِ الرُّسلِ، فسَيخْلُو كما خلَوْا، ويجبُ التمسُّكُ بدِينه كما يجبُ التمسُّكُ بدِينهم[(٣)].

٥- قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فيه ذِكر ﴿الرُّسُل﴾ بالتَّعريفِ الدالِّ على العُموم، ويُؤخذُ منه التَّفخيمُ للرُّسل، والتنويهُ بهم على مُقتضَى حالِهم مِن اللهِ تعالى[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٠٧-١١٠).

(٢) القصر القلبي: هو ردُّ المخاطَب إلى إثباتِ ما ينفيه، ونفيِ ما يثبتُه من الحُكم. يُنظر: ((حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٤٢).

٦- قوله: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ همزةُ الاستفهام في ﴿أَفَإِنْ﴾ للإنكار، والفاءُ للسببيَّة، وهذا يؤكِّدُ ما اقتضتْه جملةُ القصر، من التعريضِ بالإنكارِ عليهم في اعتقادِهم خلافَ مضمونِ جُملة القصر؛ فقد حصَل الإنكارُ عليهم مرَّتين: إحداهما بالتعريضِ المستفادِ من جُملة القصر، والأُخرى بالتَّصريحِ الواقِع في هذه الجُملة[١].

- وقوله: ﴿مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ فيه: تكرار؛ وقد سوَّغه كونُ العُرفِ في الموتِ خِلافَ العُرْف في القَتْل، وإنْ كان كلاهما واحدًا من حيثُ مفارقةُ الرُّوحِ الجسدَ[٢].

٧- قوله: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾ خبرٌ، الغرضُ منه تأكيدُ الوعيد؛ لأنَّ كلَّ عاقلٍ يعلمُ أنَّ الله تعالى لا يَضرُّه كفرُ الكافرين، بل المرادُ أنَّه لا يضرُّ إلَّا نفسَه[٣].

- وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾، أي: شيئًا من الضَّرر، لا قليلًا ولا كثيرًا؛ أفادَ ذلك التَّنكيرُ في ﴿شَيْئًا﴾ حيثُ وقَع في سِياقِ النَّفي[٤].

٨- قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ بإتْباعِ الوعيدِ بالوَعْد[٥].

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقِعِ الإضمار؛ لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بشأن جزائِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٧٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٤).

٩- قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ خبرٌ فيه تحريضٌ وتشجيعٌ على القتال[١].

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ...﴾ جِيءَ الحُكمُ بصِيغة الجُحود (ما كان)؛ للمبالغةِ في انتفاءِ أنْ يكونَ موتٌ قَبْل الأجَلِ[٢].

- وقوله: ﴿مُؤَجَّلًا﴾: يُؤكِّد معنى ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ يُفيد أنَّ له وقتًا قد يكون قريبًا، وقد يكون بعيدًا[٣].

١٠- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ﴾:

- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: خبرٌ فيه تعريضٌ بالذين شَغلتْهم الغنائمُ يومَ أُحُدٍ[٤].

- وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ﴾ فيه تكرار[٥]، وهو يُفيدُ التأكيدَ على المعنى.

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).

الآيات (١٤٦ - ١٤٨)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿وَكَأَيِّنْ﴾: لفظةٌ مركَّبةٌ من كافِ التَّشبيهِ و(أيٍّ)، حدَث فيها بَعدَ هذا التركيبِ معنى التَّكثيرِ[١].

﴿رِبِّيُّونَ﴾: أي: جماعاتٌ كثيرة، والواحدُ منها رِبِّيٌّ، ويُقال: الأُلوف، وأصلُه من الرِّبَّة، وهي: الجماعةُ، كأنَّ الرِّبِّيَّ نُسِب إليها[٢].

﴿وما اسْتَكَانُوا﴾: أي: ما خشَعوا وما ذَلُّوا، وما خَضعوا للعدوِّ، ومنه أُخذ المستكين، وأصلُ الاستكانة: إظهارُ الضَّعْف[٣].

﴿وَإِسْرَافَنَا﴾: وإفراطَنا، والسَّرَف: تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعلُه الإنسانُ، وأصلُه: تعدِّي الحدِّ، والإغفالُ للشَّيءِ أيضًا[٤].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٦-١١٧).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ١٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣، ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

كلمة ﴿كَأَيِّنْ﴾ مركَّبةٌ من كافِ التَّشبيه و(أيٍّ)(١)، وأمَّا موقعُها الإعرابيُّ: فهو الرَّفْعُ بالابتداءِ، والخبرُ جملة ﴿قَاتَلَ﴾، والتقديرُ: كثيرٌ من الأنبياءِ قاتَلَ. وعلى هذا يكون ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ جملةً في محلِّ نصْب على الحالِ مِنَ الضمير في ﴿قَاتَلَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ ﴿مَعَهُ﴾ وحْدَه هو الحال، و﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعلًا بهذا الظرف الذي وقع حالًا- وعَمِلَ الظرفُ هنا لاعتمادِه على صاحِب الحالِ الذي هو الضَّميرُ في ﴿قَاتَلَ﴾- والتقديرُ: استقرَّ معه رِبيُّون، ولا يحتاج هنا إلى واو الحال؛ لأنَّ الضميرَ الذي في (معه) هو الرَّابط. أو يكون ﴿قَاتَلَ﴾: جملةً في محلِّ جرٍّ، صفة لـ﴿نَبِيٍّ﴾، و﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ هو الخبر، وفيه الوجهان المتقدِّمان في جعْله حالًا، يعني: أن يكون ﴿مَعَهُ﴾ خبرًا مُقدَّمًا و﴿رِبِّيُّونَ﴾ مبتدأً مؤخَّرًا، والجملة خبر ﴿كَأَيِّنْ﴾، أو يكون ﴿مَعَهُ﴾ وحْده هو الخبرُ، و﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعلٌ به ؛ لاعتمادِ الظَّرْف ﴿مَعَهُ﴾ على صاحِب خبر. ويجوزُ أن يكونَ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعِلَ ﴿قَاتَلَ﴾، وتكونَ الجملةُ الفِعليَّة ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ خبرًا لـ﴿كَأَيِّنْ﴾. وقيل غير ذلك(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر اللهُ تعالى أنَّه: كمْ مِن نبيٍّ من الأنبياءِ قاتَل وشارَكه في ذلك من أتْباعه الكثيرُ، فأصابهم ما أصابَهم في سبيلِ الله، لكنَّ ذلك لم يكُن حاملًا لهم على مفارقةِ دِينهم، أو ترْك الجِهادِ في سَبيل الله؛ فما ضعُفتْ أبدانُهم ولا قلوبُهم ولا

(١) و(أيٍّ) منوَّنة، وحقُّها أن يُوقفَ عليها بغير نون؛ لأنَّ التنوين يُحذف وقفًا، ولكن ثبَت في المصاحف نونٌ بعد الياء؛ لأنَّها كلمةٌ نُقلت عن أصلِها، فالوقفُ عليها بالنون اتِّباعًا للمصحف، وقيل غير ذلك في بِنيتها الصرفيَّة، وفي لُغاتها. وقيل: إن ﴿كَأَيِّن﴾ كلمة بسيطة غير مركَّبة وأنَّ آخرها نون هي مِن نفس الكلمة لا تنوين، وهذا أسهلُ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٧٥- ١٧٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٢١- ٤٢٦).

هِمَمُهم، ولا لانَتْ عزائمُهم، ولم يَذِلُّوا لعدوِّهم، واللهُ تعالى يحبُّ الصَّابرين؛ كهؤلاءِ ومَن على شاكِلتِهم.

ولم يكُن لهم مِن قَولٍ يقولونه بعدَ ما حصَل لهم إلَّا أنَّهم طلَبوا المغفرةَ مِن الله لذُنوبِهم، ولتجاوُزِهم ما حدَّه الله تعالى في جميعِ أُمورِهم، وأنْ يُثبِّتَ الله أقدامَهم، وينصرَهم على أعدائِه وأعدائِهم من الكافرين، فأعطاهم اللهُ ثوابَ الدُّنيا مِن نصْرٍ وغنيمةٍ وغيرها، وحُسنَ ثوابِ الآخِرة من رِضَا الله، والخلودِ في جنَّته، واللهُ تعالى يُحبُّ المحسنين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان من المؤمنين ما كان يومَ أُحُد، وعتَبَ عليهم اللهُ ما وقَع منهم، أخبرَهم أنَّ طريقةَ أتْباعِ الأنبياء المتقدِّمين: الصَّبرُ على الجِهاد، وترْكُ الفرار؛ فكيف يليقُ بكم هذا الفرارُ والانهزام[١]؟!

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿قَاتَلَ﴾ قِراءتان:

١- قِراءة (قُتِلَ) على البِناء للمَفعول[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨٥).

(٢) قرأ بها نافع وابن كثير والبصريَّان. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٩)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

٢- قِراءة ﴿قَاتَلَ﴾ على البِناءِ للفاعِل[1].

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

أي: كَثيرون هم الأنبياءُ الذين قاتَلَ جموعٌ كثيرةٌ من أتْباعهم، وقُتِلَ كثيرٌ منهم، فلم يحملْ ذلك بقيَّتهم على التزعزع عن دينهم، أو على أن يتركوا جهاد عدوهم[2].

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ أبدانَهم لم تضعُفْ، وهمَّتهم لم تتثبَّط، ولم يَجبُنوا عن جِهادِ العدوِّ؛ بسببِ ما نالهم من جِراحٍ، وغيرِ ذلك مِن أذًى في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ[3].

﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٩)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٧٥)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٥٨-٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

وقيل: يحتمل على قراءة (قاتل) أن يكون القتالُ واقعًا من النبيِّ، وأنَّ له أتباعًا كثيرين يقاتلون معه، فلم يقعْ منهم وهنٌ ولا ضعفٌ.

وعلى قراءة ﴿قُتِلَ﴾ قيل: يحتمل أن يكونَ القتلُ واقعًا على النبيِّ، ولم يكن ذلك سببًا لتراجعهِ ووهنِهم.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٠، ١١١، ١١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٠- ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٢٠- ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٢٩-٢٠٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٥٨ -٦٠)، ((الحسنة والسيئة)) لابن تيمية (ص: ١٢٣-١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٠- ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥٦-٢٦٠).

وممَّن قال من السَّلف في معنى ﴿ربيُّون﴾ بنحو ما ذُكر: ابن عبَّاس، وابن مسعود، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وهو أحد قولي الحسَن، وعِكرمة، والسُّدِّي، وعطاء الخراساني، وقتادة، والربيع. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٠).

أي: إنَّ قلوبهم لم تضعُف، وعَزائمَهم لم تَلِنْ، وقُواهم لم تَخِرْ؛ بسببِ ما أصابهم، ولم يَذلُّوا لعدوِّهم(١).

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: واللهُ تعالى يحبُّ هؤلاءِ وأمثالَهم؛ من الصَّابرين على طاعتِه وجِهادِ أعدائه، ويُحبُّ مَن صبَرَ عن معصيتِه، وعلى أقدارِه سبحانه(٢).

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦١).

فائدةٌ في الفَرْق بَينَ الضَّعف والوهن: أنَّ الضَّعفُ خِلافُ القوَّة، ويكون الضَّعفُ-بفتح الضاد وضمها- في الجَسدِ والرأي والعَقل. والوهن: هو أنْ يفعلَ الإنسان فِعلَ الضعيف؛ يقال: وهن في الأمرِ إذا أخذ فيه أخْذ الضعيف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، أي: لا تَفْعلوا أفعالَ الضُّعفاء؛ ويدلُّ على صحة هذا: أنه لا يُقال: خلَقَه الله واهنًا كما يُقال خلقَه الله ضعيفًا. وقد يُستعمل الضعفُ مكانَ الوهن، كقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦]، أي: لم يَفعلوا فِعلَ الضَّعيف. ويجوزُ أن يُقال: إنَّ الوهنَ هو انكسارُ الجَسدِ بالخوفِ ونحوه، والضَّعْف نُقصانُ القوَّة.

وقيل: إنَّ الوهن الضَّعفُ في العَملِ والأمر، وكذلك في العَظم ونحوه؛ يقال: وَهَن العَظمُ، ورجُل واهِنٌ في الأمر والعمل، وموهونٌ في العَظْم والبدن.

يُنظر: ((معجم الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٣٣٠- ٣٣١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ٣٠٦) و(٦/ ٢٣٤)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيده (١/ ٤١١) و(٤/ ٤٢٩).

وقيل: هُما متقارِبان تقاربًا قريبًا من الترادُف؛ فالوهنُ: قِلَّةُ القُدرةِ على العملِ وعلى النُّهوضِ في الأمْر، والضَّعفُ: ضِدُّ القوَّة في البَدن؛ فالوهنُ أقربُ إلى خَورِ العزيمة ودَبيبِ اليأس في النفوس والفِكر، والضَّعفُ أقربُ إلى الاستسلامِ والفشلِ في المقاومة. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٨- ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذَكَر ما كان عليه الرِّبِّيُّون من الجَلَد والصبر، وعدمِ الوهنِ والاستكانةِ للعدوِّ، وذلك كلُّه من الأفعالِ النفسانيَّة التي يَظهر أثرُها في الجوارح، ذكَر ما كانوا عليه من الإنابةِ والاستغفارِ، والالْتجاءِ إلى الله تعالى بالدُّعاء[1]، فقال:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾.

أي: ولم يكُن لدَى الربِّيِّين من قولٍ يَنطِقون به، سوى طلبِ المغفرةِ من الله تعالى بسَتْر ذنوبِهم، وسَتْر إفراطِهم في جميعِ شؤونهم، بتجاوُزهم ما حَدَّه اللهُ تعالى فيها، وطلبِهم التجاوزَ عن المؤاخذةِ بذلك[2].

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.

أي: ومِن جملةِ دُعائهم: طلبُهم مِن اللهِ تعالى الثباتَ في وجوهِ الأعداءِ لِقتالهم[3].

﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: ومِن جملةِ ما سألوه ربَّهم سبحانه: أنْ يمنحَهم الفوزَ على الكفَّار[4].

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أتمَّ الثناءَ على فِعل الرِّبِّيِّين في الصَّبر، وطريقتِهم في الدُّعاء،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٤-٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٦-٢٦٧).

ذكَر ما سبَّبه لهم ذلك من الجَزاء في الدُّنيا والآخِرة[١]، فقال:

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد منَحهم بفضله جزاءً في الدنيا، كالنَّصرِ على الأعداءِ، والظَّفر بالغنائمِ، وغيرِ ذلك، وضمَّ لهم مع أجْر الدنيا جزاءَ الآخرة الحَسَن، من الفوز برِضوانِ الله تعالى، والخلودِ في دار السَّعادة الأبديَّة[٢].

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى جازاهم بالإحسان الدُّنيويِّ والأخرويِّ؛ لإحسانِهم العملَ؛ فإنَّ الله تعالى يحبُّ كلَّ محسِنٍ في عِبادتِه سبحانه، وفي تعامُلِه مع مخلوقاتِه[٣].

الفوائدُ التربويَّةُ:

١- التأسِّي بمَن مضَى من صالحِي الأُمم السَّابقة؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ..﴾[٤].

٢- أنَّ مِن طُرُقِ التَّشجيعِ على الشَّيءِ والإغراءِ به، أنْ يُذكَر للإنسانِ سَلفٌ يَقتدي به، ويَتشجَّع للحاقِ به؛ لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾[٥].

٣- الإشارةُ إلى انحطاطِ مرتبةِ الذين يَذِلُّون لأعداءِ الله؛ يُؤخَذ من قوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٨-٢٦٩).

قال الماورديُّ: (﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ الجنةُ، في قول الجميع) ((تفسير الماوردي)) (١/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٩-٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٢).

﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾؛ وذلك أنَّ الإنسانَ المؤمِن يجبُ أن يكونَ أشمَّ؛ كالطَّودِ العظيمِ بالنِّسبةِ لأعداء الله، حتى إنَّه يجوزُ للإنسانِ الخُيلاءُ، وجرُّ الثوبِ في مقابلةِ الأعداءِ(١).

٤- مَن صبَر على تحمُّل الشَّدائد في طريق الله، ولم يُظهِر الجزعَ والعجزَ والهلعَ، فإنَّ الله يحبُّه؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(٢).

٥- مَن عَوَّلَ في تحصيلِ مَهمَّاته على نفْسه ذَلَّ، ومَن اعتصَم بالله بالدعاء، والتضرُّع بطلبِ الإمدادِ والإعانةِ منه تعالى، فازَ بالمطلوب؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٣).

٦- تقديمُ التوبةِ والاستغفارِ في الدُّعاء عند النوائب والمِحَن؛ سواءٌ كان في الجهاد، أو غيرِه، فما نزَل من بلاءِ الدُّنيا إنَّما هو بذنوبٍ من البَشر؛ يُبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٤).

٧- أنَّ الإنسانَ مُفتقرٌ إلى مغفرةِ الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، ولو كان غنيًّا عنها ما سألها، ولكنَّه مفتقرٌ إليها غايةَ الافتقار(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٧).

٨- في قولهم: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، أنَّ الإنسانَ لا يَخلو من الإسرافِ على نفْسه: إمَّا في غُلو، وإمَّا في تقصيرٍ؛ وجه ذلك: أنَّ سؤالهم اللهَ أنْ يغفرَ لهم الإسرافَ يدلُّ على وجودِ هذا الشَّيء، وإذا تأمَّل الإنسانُ نفْسَه، وجَد أنَّه لن يَخلوَ من الإسرافِ(١).

٩- أنَّ الإنسانَ مُفتقرٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في تثبيتِ القدَم؛ لقوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، وهذا يتأكَّدُ في ثلاثةِ مواطنَ: عند مواجهةِ الأعداء، وعندَ الشُّبهاتِ، وعندَ الشَّهوات (٢).

١٠- الإشارةُ إلى خِفَّة شأنِ الدُّنيا بالنِّسبة للآخِرة؛ لقولِ الله تعالى: ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾، فكأنَّ الدنيا ليستْ بشيءٍ حتى يكونَ فيها حُسْن؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ العاقلَ يَنبغي له أن يَعتني بثوابِ الآخِرة الذي هو حسنٌ(٣).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله: ﴿واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرينَ﴾ له وقعُه وله إيحاؤُه؛ فهو الحبُّ الذي يُعالج الجِراح، ويَمسحُ على القرحِ، ويُعوِّض ويَربو عن الضرِّ والقُرحِ، والكِفاحِ المريرِ(٤).

٢- أنَّ هؤلاءِ الرِّبِّيِّين الذين قاتلوا مع النبيِّ كمُلت منهم الأفعال والأقوال؛ من الأفعال قولُه تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، ومن الأقوال: أنَّهم لَجؤوا إلى الله عزَّ وجلَّ بسؤال المغفرةِ؛ مغفرةِ الذنوبِ والإسرافِ في الأمْر؛ لأنَّهم يَعلمون أنَّ ما أصابَهم إنَّما هو بسببِ الذُّنوب(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٣).
(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٧).

٣- أنَّه يَنبغي على الإنسانِ أنْ يَدعوَ الله تعالى بهذا الدُّعاء، لا سيَّما عندَ ملاقاة الكفَّار؛ حتى ينتصرَ عليهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(١).

٤- في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، إنَّما قدَّموا قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ضمِن النُّصرةَ للمؤمنين، فإذا لم تَحصُل النصرةُ وظهَرتْ أماراتُ استيلاءِ العدوِّ، دلَّ ذلك ظاهرًا على صدورِ ذنبٍ وتقصيرٍ من المؤمنين؛ فلهذا المعنى يجبُ عليهم تقديمُ التوبةِ والاستغفارِ على طلبِ النُّصرة(٢).

وقيل: قدَّموا طلبَهم الاستغفارَ على طلبِ تثبيتِ الأقدام والنُّصرة؛ ليكونَ طلبُهم ذلك إلى الله عن زكاةٍ وطهارةٍ، فيكون طلبُهم التثبيتَ بتقديمِ الاستغفارِ حريًّا بالإجابة(٣).

٥- في قول الله تعالى حكايةً عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، بدؤوا بالتوبةِ عن كلِّ المعاصي، وهو المرادُ بقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فدخَل فيه كلُّ الذنوب، سواء كانتْ من الصَّغائر أو من الكبائر، ثم إنَّهم خَصُّوا الذنوبَ العظيمةَ الكبيرة منها بالذِّكرِ بعد ذلك؛ لعِظَمها وعِظَم عِقابها، وهو المرادُ من قوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾؛ لأنَّ الإسرافَ في كلِّ شيء هو الإفراطُ فيه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٠).

٦- في قول الله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾، قدَّم ثوابَ الدنيا؛ ليكونَ ذلك إعلامًا بتعجيلِ إجابةِ دَعوتِهم لحصولِ خيرَيِ الدُّنيا والآخِرة؛ ولأنَّ ذلك في الزَّمانِ مُتقدِّمٌ على ثوابِ الآخِرة(١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ خبرٌ عن السَّابقين، فيه تعريضٌ بالمخاطَبين، بما أصابَهم من الوهنِ والانكسارِ عندَ الإرجافِ بقتْل رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبضَعْفِهم عند ذلك عن مجاهدةِ المشركين، واستكانتِهم لهم(٢).

- قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾، ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: فيه جمْع بين الوهن والضَّعف، وهما مُتقاربان تقاربًا قريبًا من التَّرادُف؛ للتأكيد، وأمَّا الاستكانةُ؛ فهي الخضوعُ والمذلَّة للعدوِّ. ومن اللَّطائف: ترتيبُ هذه الثلاثةِ في الذِّكر على حسَب ترتيبِها في الحُصولِ؛ فإنَّه إذا خارتِ العزيمةُ، فَشِلت الأعضاءُ، وجاء الاستسلامُ، فتبعتْه المذلَّةُ والخضوعُ للعدوِّ(٣).

- وفي الآية: تعريضٌ بتَشبيهِ حالِ أصحابِ أُحُدٍ بحالِ أصحابِ الأنبياءِ السَّالفين؛ لأنَّ محلَّ المَثل ليس هو خُصوصَ الانهزامِ في الحرْب، بل ذلك هو المُمثَّل، وأمَّا التَّشبيه؛ فهو بصبرِ الأَتْباعِ عند حلولِ المصائِب، أو موتِ المتبوع(٤).

٢- قوله: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ تذييلٌ مقرِّر لِمَا قبلَه، وإظهارُ الاسمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٨- ١١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١١٦).

الجليل (الله) في موضِعِ الإضمار؛ للثَّناءِ على الصَّابرين بحُسنِ الصَّبرِ، والإشعارِ بعِلَّة الحُكم(١).

- وفيه: توكيدُ الخبرِ باسميَّة الجملة(٢).

٣- قوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا﴾ فيه تقديمُ خبر (كان) على اسمِها؛ لأنَّه خبرٌ عن مبتدأ محصورٌ؛ إذ المقصودُ حصْرُ أقوالِهم حينئذٍ في مقالة: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فالقصرُ حقيقيٌّ؛ لأنَّه قصرٌ لقولهم الصادِر منهم، حين حصولِ ما أصابهم في سبيل الله(٣).

٤- قوله: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ فيه تخصيصُ ثوابِ الآخِرة بالحُسن؛ للدَّلالة على فضلِه وتقدُّمه، وأنَّه هو المعتدُّ به عنده(٤)؛ وذلك لأنَّ ثوابَ الآخِرة كلَّه في غايةِ الحُسن، فما خصَّه اللهُ بأنَّه حَسَنٌ من هذا الجِنس، فانظر كيف يكونُ حُسنُه؟! ولم يَصِفْ ثوابَ الدنيا بذلك؛ لقلَّتِها وامتزاجِها بالمضارِّ، وكونِها منقطعةً زائلة(٥).

٥- قوله: ﴿واللهِ يُحِبُّ المحْسِنينَ﴾ أي: يحبُّ كلَّ محسن، وهو تذييلٌ، وموقِعُ التذييلِ يدلُّ على أنَّ المتحدَّث عنهم هم مِن الذين أحْسنوا؛ فاللامُ للجِنس المفيدِ معنى الاستغراق(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢١).

الآيات (١٤٩ - ١٥٥)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ
أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ
﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ
يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾
وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ
مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾
۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ
بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ
شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ
مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿الرُّعْبَ﴾: أي: الجزَعَ والهلَع والخوف، وقيل: الرُّعب هو الخوفُ الذي

يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيل: إنَّه أشدُّ الخوفِ، وأصلُ الرُّعب: يدلُّ على الخوفِ، والملءِ، والقَطع[١].

﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حُجَّة، وأصْلُ السُّلطان: القوَّة والقَهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[٢].

﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾: مرجعُهم الذي يَعُودون إليه، والمَأْوى: مَكَانُ كلِّ شَيْءٍ ومرجعُه الَّذي يعودُ إليه ليلًا أو نهارًا؛ يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصْله: التَّجمُّع[٣].

﴿مَثْوَى﴾: أي: مَنزِل، يُقال: ثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً، والثَّوَاء: الإقامةُ مع الاستقرارِ، وأصلُ (ثوي) يدلُّ على الإقامة[٤].

﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾: أي: تَستأصِلونهم قتلًا، أو تقتلونهم، وأصْل حَسَس: غلبةُ الشَّيء بقتْل أو غيره، وحِكايةُ صوت عند توجُّعٍ وشَبَهِه[٥].

﴿فَشِلْتُمْ﴾: أي جَبُنتُم، والفَشل: ضَعْفٌ مع جُبن[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: أي: تُبعِدون في الهزيمةِ، والصُّعود: الذَّهابُ في المكانِ العالي، وأصْل الصُّعود: ارتفاعٌ ومشقَّة[1].

﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾: تُمعِنون في الهزيمةِ، ولا يقِفُ أحدٌ لآخَر، واللَّيُّ: فَتْل الحبلِ، وأصْله: إمالة للشَّيء[2].

﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾: أي: في آخِركم، أو مِن خَلْفِكم، وأصل (أخر): خِلافُ التَّقدُّمِ[3].

﴿يَغْشَى﴾: يُغطِّي ويَستُر، من غَشِي الشَّيءَ، أي: غطَّاه وسَتَره[4].

﴿لَبَرَزَ﴾: لظَهَر من الصَّفِّ للمُبارَزة للقتال، والبَرازُ المتَّسَعُ من الأرض، أو الفضاءُ، وأصْله: ظهورُ الشَّيء وبُدوُّه[5].

﴿مَضَاجِعِهِمْ﴾: جمْعُ مَضْجَع، وهو موضِعُ الضُّجوع، وأصلُ (ضجع): اللُّصوقُ بالأرضِ على جَنْبٍ[6].

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: أي: ليُطهِّر، ويَختبِر، ويُنقِّي، والتَّمحيص: الابتلاءُ والاختبار، وأصْل المَحْصِ: تَخليصُ الشَّيءِ، وتنقيتُه ممَّا فيه من عَيبٍ[7].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٥٨).

(٧) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، =

﴿اسْتَزَلَّهُمُ﴾: طلَبَ زَلَلَهم، والزَّلَّة: الخطأُ، والذَّنب من غيرِ قصدٍ وأصل الزَّلل: استرسالُ الرِّجْلِ من غيرِ قصْدٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُحذِّرُ الله تعالى عبادَه المؤمنين من طاعةِ الكفَّار؛ وذلك أنَّ طاعتَهم تؤدِّي بهم إلى ردِّهم إلى الكُفْر، فيَهلِكوا في الدُّنيا والآخِرة؛ فالله سبحانه هو مَن يتولَّى عبادَه، ويَنصُرهم وهو خيرُ مَن نَصرَ.

ثم يُخبِر تعالى أنَّه سيُدخِل الرُّعبَ في قلوب الكفَّار؛ بسبب إشراكِهم بالله بلا حُجَّة ولا دليل، وسيكون مصيرُهم في الآخرة النَّارَ، وبئس المقامُ للظالِمين.

ثم يُذكِّر اللهُ سبحانه عِبادَه المؤمنين بإنجازه لِمَا وعدَهم به من النَّصر يوم أُحُد، بنصرِهم على عدوِّهم في بدايةِ المعركة؛ حيث أَعمَلوا فيهم القتلَ، حتى حان من المسلمين الضَّعفُ والجُبنُ عن القِتال، وحدَث الخلافُ بين رُماتهم، وعَصَوْا أمْرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حينها حلَّت بالمسلمين الهزيمةُ بعدَ أنْ كانوا رَأوا ما يُفرِحهم من هزيمةِ العدوِّ؛ فبعض المؤمنين ابتَغَوا الدُّنيا، فذَهبوا لجَمْعِ الغنائم، وتركوا أماكنَهم التي أُمِروا بمُلازَمتها، وبعضُهم كانوا يَرغَبون في أَجْرِ الآخِرة، فلزِموا أماكنَهم، فصرَف اللهُ بعدَها وجوهَ المؤمنين عن الكفَّار، فكانتْ للكفَّار الغَلَبةُ، وهذا ابتلاءٌ من الله لعباده؛ ليتميَّزَ الطائعُ من العاصي، ولقد تَجاوُز اللهُ عنهم، فهو سبحانه ذو فضلٍ على المؤمنين.

ثم يُذكِّرهم سبحانه بلحظاتِ فِرارِهم، حيث كانوا جادِّين في الفِرار؛ لا أحدَ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١).

منهم يَلتفِت إلى غيرِه، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعوهم إلى الثَّبات والتَّوقُّف عن الفِرار، وقدْ خلَّفوه عليه الصَّلاة والسلام وراءَ ظُهُورهم، فلم يَستجيبوا، فجازاهم اللهُ بغمٍّ، وهو ما انتشرَ مِن خبرِ مَقتَلِ نبيِّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، الذي كان أعظمَ مِن بقيَّة الغُمومِ التي حلَّتْ بهم من فواتِ النَّصر والغنيمة، وإصابتِهم بالقتْلِ والجراح، فخفَّفتْ شِدَّةُ ذلك الغمِّ ما سبقَه من غُموم.

ثمَّ أَنزَل اللهُ على المؤمنين- من بعد الغُمُوم التي أصابتْهم- الأمانَ والطُّمأنينةَ في القلب؛ وذلك بأنْ غَشَّى المؤمنين من الخارجين مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النُّعَاسَ، وهناك طائفةٌ أخرى ممَّن شارك في هذه الغزوة مِن شِدَّة اضطرابِهم وقلَقِهم على حياتِهم، لم يُغشِّهم النُّعاسَ، وهم من المنافقين، الذين يظنُّون بالله ظنًّا كاذبًا؛ بأنَّه عزَّ وجلَّ لا ينصُر عبادَه، وظنُّهم هذا كظنِّ أهلِ الجهلِ بالله، يقولون: إنَّهم لم يَجِدوا بُدًّا من الخروج، فالقرارُ ليس بأيديهم، فأمَر الله نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقول لهم: إنَّ جميعَ الأمورِ لله تعالى وَحْده، ثم أعاد سبحانه الحديثَ عن صِفةِ هؤلاء المنافقين، فأخْبَر أنَّهم يُسِرُّون في أنفسِهم ما لا يُظهِرونه لنبيِّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذلك قولهم فيما بَينهم: إنَّه لو كان لهم نَصيبٌ من الاختيارِ في شأنِ الخروجِ للقِتال، لَمَا اختاروا الخروجَ من المدينة، ولَمَا حصَل ما حصَل في صُفوفِهم من المَقْتَلة.

فأمَر اللهُ نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُخبِرَهم بأنَّهم لو كانوا في بُيُوتهم، لخرَج الذين كتَب اللهُ عليهم القتلَ إلى الأماكنِ التي فيها مَصارِعُهم، وقد كان تقديرُ خروجِهم من اللهِ؛ ليَميزَ اللهُ تعالى ما في قُلوبِهم من خَبيثٍ وطيِّب، واللهُ عليمٌ بما تَحويه صدورُ العبادِ.

ثم أَخبَر تعالى أنَّ فِرار المُنهزِمين يوم المعركة إنَّما كان نتيجةَ إيقاع الشَّيطان

لهم في تلك الزَّلَّة، وما كان تَسلُّطُه عليهم إلَّا بسببِ بعضِ ذُنوبهم، مُخبِرًا سبحانه أنَّه عفَا عنهم، والله غفورٌ حليمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بطاعتِه المُوجِبةِ للنَّصر والأجْر، وختَم بمحبَّته للمُحسِنين، حذَّر من طاعةِ الكافرين المقتضيةِ للخِذلان؛ رَغبةً في موالاتِهم ومُناصَرتهم(١)، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)﴾.

أي: احْذَروا- يا عبادَ الله المؤمنين- من طاعةِ الكفَّار فيما يأمرونكم به، وفيما يَنْهونكم عنه، فإنَّ طاعتَهم تَحمِلُكم على الارتدادِ عن الإيمانِ إلى الكفرِ، الذي عاقبتُه الهلاكُ في الدُّنيا والآخرة(٢).

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان التَّقديرُ في الآية السَّابقة: فلا تُطيعوهم؛ إنَّهم ليسوا صالحين للولايةِ مُطلَقًا ما دُمْتم مؤمنين، عطَفَ عليه قوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ مخبرًا بأنَّه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

ناصِرُهم، وأنَّ نَصْره لا يُساويه نصرُ أحدٍ سواه[١]، فقال:

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

أي: فلا تُطيعوهم خوفًا منهم، أو طلبًا لنُصْرتهم، واستَغْنُوا عن موالاتهم؛ فهم لن يَنصُروكم، بل عليكم أنْ تُطيعوا اللهَ الَّذي يتولَّاكم بتوفيقِه وتأييده ونَصْره؛ فهو خيرُ مَن يَجلِب لكم النَّصرَ[٢].

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أبان أنَّه مَوْلى المؤمنين، وأنَّه خيرُ النَّاصرين، وأنَّ مَن نصَره، سبَّب له جميعَ أسبابِ النَّصر، وأزال عنه كلَّ أسباب الخِذلان، فمنَع غيره- كائنًا من كان- من إذلاله، فذكَر هاهنا مِثالًا على وَلايتِه ونُصْرتِه للمؤمنين، وقرَّر ذلك بقوله مُحقِّقًا للوعدِ[٣]:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى بشَّرَ ووعَد عبادَه المؤمنين بأمْرٍ محتومٍ وقوعُه، وقريبٍ حُصولُه، وهو إدخالُ الخوفِ والفزعِ الشَّديد في قلوب الكفَّار[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٣-١٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩١) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

عن جابر بن عبد الله رضِي الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أُعطيتُ خمسًا، لم يُعطَهنَّ أحدٌ منَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شهرٍ..))[١].

﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

أي: إنَّ سببَ قذْفِ الرُّعب في قلوب الكفَّار، هو وقوعُهم في الشِّرك، الذي لا حُجَّةَ ولا دَليلَ على صحَّتِه[٢].

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾.

أي: إنَّ النَّار ستكون المصيرَ الأخرويَّ لأولئك المشركين[٣].

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

أي: وساءتِ النَّارُ مَقامًا لكلِّ ظالم[٤].

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

وقال الواحديُّ: (قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، أي: حُجَّة وبرهانًا في قول جميع المفسِّرين، يعني الأوثانَ التي عبدوها مع الله) ((التفسير الوسيط)) (١/ ٥٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا وعَد اللهُ تعالى المؤمنين في الآية المُتقدِّمة إلقاءَ الرُّعبِ في قلوب الذين كفروا، أكَّدَ ذلك بأنْ ذكَّرهم ما أَنجَزهم من الوعدِ بالنَّصرِ في واقعةِ أُحُد؛ فإنَّه لَمَّا وعدَهم بالنُّصرةِ، بشرْط أنْ يتَّقُوا ويَصبِروا؛ فحينَ أَتَوْا بذلك الشَّرطِ لا جَرَمَ وفَّى اللهُ تعالى بالمشروطِ، وأعطاهم النُّصرةَ، فلمَّا تَركوا الشَّرطَ لا جرَمَ فاتَهم المشروطُ[1]، فقال:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ قد أَنجَز لكم ما وعَدَكم به يومَ أُحدٍ- أيُّها المؤمنون- وهو نصْركم على عَدوِّكم، وكان ذلك في بدايةِ المعركة حين طفِقتُم تَستأصِلونهم بقتْلهم قتلًا ذريعًا، وذلك قد وقَع عن أَمرِ اللهِ تعالى شرعًا وقدَرًا[2].

﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾.

أي: لَمَّا استولَى عليكم الضَّعفُ والخَوَرُ، وجَبُنتم عن القِتال، ووقَع الخلافُ بين رُماتكم؛ هل يَلزَمون ثُغُورَهم- كما عهِد إليهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- أم يتحرَّكون لجمْعِ الغنائم، وعصَى بعضُكم في النِّهاية أمْرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مِن بعدِ أنْ أَظهَر الله تعالى لكم ما تُحِبُّونه من انهزام الكفَّار، وتوليتهم الأدبار، فلمَّا وقع ذلك كلُّه، حلَّت بكم الهزيمةُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٨-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٠٤-٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٣٦)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٤، ٨٥).

عن البَرَاءِ بن عازبٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((لَقِينا المشركين يومئذٍ، وأجلَسَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جيشًا مِن الرُّماةِ، وأمَّرَ عليهم عبدَ الله، وقال: لا تَبرَحوا[١]، إنْ رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم فلا تَبرَحوا، وإنْ رأيتموهم ظهَروا علينا فلا تُعينونا، فلمَّا لَقِيناهم هرَبوا حتى رأيتُ النِّساءَ يَشتَدِدْنَ في الجبلِ، رفعْنَ عن سُوقِهِنَّ، قد بدَتْ خَلاخلُهنَّ، فأخذوا يقولون: الغنيمةَ الغنيمةَ، فقال عبدُ اللهِ: عهِد إليَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ألَّا تَبرَحوا! فأَبَوا، فلمَّا أبَوْا صُرِفت وجوهُهم، فأُصِيبَ سبعون قتيلًا، وأَشرَفَ أبو سفيان، فقال: أفي القومِ محمدٌ؟ فقال: لا تُجيبوه، فقال: أفي القومِ ابنُ أبي قُحافَةَ؟ قال: لا تُجيبوه، فقال: أفي القوم ابنُ الخطابِ؟ فقال: إنَّ هؤلاء قُتِلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يَملِكْ عمرُ نفسَه، فقال: كذبتَ يا عدوَّ اللهِ، أبقى اللهُ عليك ما يُخْزِيك، قال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أجيبوه، قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ أعلى وأجلُّ، قال أبو سفيانَ: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم! قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أجيبوه، قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ مولانا، ولا مولى لكم، قال أبو سفيان: يومٌ بيومِ بدرٍ، والحربُ سِجَالٌ[٢]، وتجدون مُثْلَةً[٣]، لم آمُرْ بها ولم تَسؤْني))[٤].

---

(١) لا تَبرَحوا: أي: لا تَترُكوا أماكِنكم وتزولوا عنها؛ يُقال: بَرِحَ مكانَه، أي: زال عنه وصارَ في البَراحِ أي: المتَّسع من الأرضِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٥٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٤٢).

(٢) سِجَالٌ: أي مَرَّة لنا ومَرَّة علينا. وأصْلُه أنَّ المُسْتَقين بالسَّجْلِ يَكُونُ لكُلِّ واحِدٍ مِنهم سَجْلٌ. ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٤).

(٣) المُثْلَة: من مَثَلْتُ بالقَتيل، إذا جَدَعْتَ أنْفَه، أو أُذُنَه، أو مَذاكِيرَه، أَوْ شَيْئًا مِنْ أطرافِه، كما فعلوا بحمزة رضي الله عنه، ومَثَّل، بالتَّشْديدِ؛ للمبالَغة. ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٢٩٤)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٧/ ١٤٣).

(٤) رواه البخاري (٤٠٤٣).

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

أي: إنَّ بعضًا منكم- أيُّها المؤمنون- قد ابتَغَوا الدُّنيا، وهم الرُّماةُ الذين تَركوا أماكنَهم، وأخَذوا في جمْعِ الغنائمِ والحُطامِ الفاني يَومَ أُحُد، والبعضَ الآخَرَ كانوا يَرغبونَ في أجْرِ الآخرةِ الباقي، وهم الرُّماةُ الذين لزِموا مَقاعدَهم التي أَقعَدَهم فيها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

أي: بعدَ أنِ انصرفَ بعضُ الرُّماة من المؤمنين من أماكنهم، مُنصرِفين بذلك عن طاعةِ رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وانصرَفتْ قلوبُهم للدُّنيا، ردَّ الله وجوهَكم عن الكفَّار، فصارتِ الدَّائرة عليكم؛ امتحانًا مِن الله تعالى لكم، ليَتميَّز الطَّائعُ من العاصي، والصَّابرُ على البلاء من الجازع[2].

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد تَجاوَز عن عقوبة استئصالِكم جميعًا أيُّها الرُّماة، لمعصيتكم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واستبدَل بها عقوبةً أخفَّ وطأة عليكم، وهي إلحاقُ الهزيمة بكم، وقَتْل بعضكم[3].

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٣٠٨-٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٣٧).

أي: واللهُ تعالى صاحِبُ الفضلِ على جميعِ المؤمنين؛ لأجْلِ ما معهم من إيمانٍ، ومن ذلك: العَفوُ عمَّا يَقَعُ منهم من عِصيان(١).

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾.

أي: اذكُروا- أيُّها المؤمنون- حين كنتُم تَجِدُّون في الفِرارِ، والإبعادِ في الأرض، ولا أحدَ منكم يَلتفِتُ إلى غيره أو يَنظُر إليه؛ إذ لم يكُن لديكم مِن همٍّ سِوى النَّجاةِ من الأعداء(٢).

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾.

أي: إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد خلَّفتموه وراءَ ظُهورِكم ممَّا يلي جِهةَ العدوِّ، وهو يدعوكم- أيُّها المؤمنون- إلى التَّوقُّفِ عن الفِرار، والثَّبات، فلم تَلتفِتوا إليه(٣).

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾.

أي: بسببِ ما قُمْتم به من الفِرار وعدمِ الاستجابةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يوم أُحُد، جازاكم اللهُ تعالى بغمٍّ نبأِ مَقتَل النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٦-٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٧).

أعظمُ من بقيَّةِ الغُموم التي نالتْكم، كفواتِ النَّصرِ والغنائم، وإصابتِكم بالقَتْل والجراح[1].

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد أصابكم بغمٍّ سماعِكم إشاعةَ مَقتَل محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو أشدُّ من الغُمُوم الأخرى؛ لئلَّا يُصيبَكم الحَزنُ على ما ذهَب عنكم من النَّصر والغنائم، ولا على ما نالكم من جراحٍ، وما أصابَ إخوانَكم مِن قتْل، فيُنسيكم سماعُ مقتلِ النَّبيِّ ذلك كلَّه، أو يُخفِّف من وطْأتِه عليكم[2].

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو وحْدَه العالمُ ببواطنِ ما تَعمَلونه من خيرٍ أو شرٍّ- أيُّها المؤمنون- ومِن ذلك: ما قُمتُم به في غزوةِ أُحُد، كما أنَّ ما ترتَّبَ عليها من ابتلاءاتٍ ومِحَنٍ وأسرار، إنَّما هو صادرٌ عن كمال عِلْمه ببواطنِ الأمور[3].

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٤٩-١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥١-١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا وعَد بنصرِ المؤمنين على الكافرين، وهذا النَّصرُ لا بدَّ وأنْ يكون مسبوقًا بإزالةِ الخوف عن المؤمنين- بيَّن في هذه الآية أنَّه تعالى أزالَ الخوفَ عنهم؛ ليصيرَ ذلك كالدَّلالةِ على أنَّه تعالى يُنجِز وعْدَه بنصْرِ المؤمنين[1] فقال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قدْ أَنزَل عليكم- أيُّها المؤمنون- بعدَ كلِّ تلك الغُمومِ التي أصابتْكم يومَ أُحُد، أنزل عليكم ما به حُلولُ الأمان، وحصولُ الاطمئنانِ في قلوبكم[2].

﴿نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾.

أي: إنَّ الأمانَ الذي نزَل بقلوبهم مصدره النُّعاس الذي غشي أهلَ الإيمان من بين مَن خرج مع رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأُحد[3].

عن أنسِ بن مالكٍ، أنَّ أبا طلحةَ رضِي الله عنهما قال: ((رَفعتُ رأسي يومَ أُحدٍ فجعلتُ أَنظُر، وما منهُم يَومئذٍ أحدٌ إلَّا يَميدُ تحتَ حَجفتِهِ[4] منَ النُّعاسِ، فذلِكَ قَولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾))[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٧).

(٤) الحَجَفَة: التُّرسُ؛ يُقال للتُّرس- إذا كان من جُلودٍ ليسَ فيه خشَبٌ، ولا عَقَبٌ وهو العَصَبُ الذي تُعمَلُ منه الأوتارُ-: حَجَفةٌ ودَرَقةٌ. ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٤١)، (١/ ١٨٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٤٥).

(٥) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٣٤)، و الترمذي (٣٠٠٧)، وقال: هذا حديث =

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾.

أي: إنَّ ثمَّة جماعةً أخرى مِن بين مَن خرجَ لأُحد، لم يَغْشَهم النعاسُ مِن شِدَّة قلقِهم واضطرابِهم على حياتِهم، وهم المنافِقون الذين لا همَّ لديهم غيرُ أنفسِهم التي يَحذرون من قتْلِها(١).

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

أي: يظنُّ أفرادُ هذه المجموعةِ ظنونًا كاذبةً، كما هو دَيدنُ أهلِ الجهلِ بالله تعالى، وذلك حين رأوا هجمةَ المشركين على المسلمين، وإعمالَ القتْل فيهم؛ إذ ظنُّوا أنَّ دِينَ الله تعالى مُضمحِلٌّ، وأتباعَه مَهزومون(٢).

قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي: قال هؤلاء الحريصونَ على سلامةِ أنفسِهم مُستنكِرين، بأنَّهم لم يكونوا يَملِكون شيئًا من قرارِ خُروجِهم للقِتال(٣).

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

= حسن صحيح، وصحح إسناده الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٠٧) وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٣٦٦): صحيح على شرط مسلم.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٥-١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٤-١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٨-٣٣٠).

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء المنافقين: إنَّ جميعَ الأمور، مُبتدَأها ومنتهاها لله تعالى وحده لا شريكَ له، فهو الذي يُصرِّفها كيف شاء، ويُدبِّرها كيفما أراد، فجميعُ الأمورِ بقضائِه وقدَره، ومِن ذلك خُروجُكم للقتال، وما يقَعُ فيه من نصْرٍ أو هزيمة، كما أنَّ العاقبةَ في النهاية لِدين اللهِ تعالى وأوليائِه، وإنْ وقَع عليهم ما وقَع[1].

﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

أي: يُضمِر أولئك المنافقون في نفوسِهم ما لا يُظهرونه لك- يا محمَّدُ[2].

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

أي: إنَّ الذي كانوا يُخفونه عنك- يا محمَّدُ- هو قولهم فيما بينهم مُتحسِّرين ونادِمين: لو كان لنا في شَأنِ الخروجِ لهذا القِتال نَصيبٌ من الرأي والاختيارِ في ذلك، لَمَا اتَّخذنا قرارًا بالخروجِ مِن المدينة مُطلقًا، ولَمَا وقعتْ في صُفوفنا مَقتلةٌ[3].

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

أي: قل- يا محمَّدُ- لأولئك المنافقين- ردًّا على قولِهم الذي أسرُّوه وأَطْلَعَك اللهُ تعالى عليه-: إنَّما وقَع ما وقَع بقدَر الله تعالى وحْدَه، وهو حُكمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٠).

قال أبو حيان: (الخطابُ بقولِه: ﴿قُلْ﴾، متوجهٌ إلى الرسولِ بلا خلافٍ) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

ماضٍ لا بدَّ أن ينفُذ، فحتى لو كنتُم في بيوتِكم التي ليستْ بمظنَّةٍ لوقوعِ القتْل فيها، فسيخرُج منها مَن كتَب اللهُ تعالى عليه ذلك، ويأتي الموضعَ الذي يَلقَى فيه مصرعَه(١).

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد قدَّر عليكم الخروجَ والقتل؛ ليختبرَ قلوبَكم(٢).

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: وليَميزَ الله تعالى ما في قلوبِكم من خَبيثٍ وطيِّب، ويُظهرَ أمْرَ المؤمِن والمنافِق للنَّاس؛ في أقوالهم وأفعالهم(٣).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

أي: واللهُ تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ ما تُكنُّه صُدورُ عِبادِه، لا يَخفى عليه شيءٌ من ذلك، ومُجازٍ كلًّا منهم بحسبه. لكنَّ حِكمتَه اقتضتْ أنْ يُقدِّر من الأسبابِ ما تَتبيَّن به مُخبَّآتُ الصُّدور(٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦).

ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.

أي: إنَّ الذين ولَّوا منكم المشركين أَدْبارَهم، وانْهَزموا عنهم يومَ تَلاقَى جمْعُ المسلمين والمشركين بأُحُد، إنَّما أَوْقَعَهم الشيطانُ في تلك الزَّلَّة، وما تَسلَّط عليهم إلَّا بسببِ بعضِ ذُنوبهم(١).

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد تجاوزَ عن معاقبةِ أولئك الذين تَولَّوا، فلم يُؤاخِذْهم على فِرارهم(٢).

عن عثمانَ بن مَوهَبٍ، قال: ((جاء رجلٌ حجَّ البيتَ، فرأى قومًا جلوسًا، فقال: مَن هؤلاء القعودُ؟ قالوا: هؤلاء قريشٌ، قال: مَن الشَّيخُ؟ قالوا: ابنُ عمرَ، فأتاه فقال:... أَتَعْلَمُ أنَّ عُثمانَ بنَ عفَّانَ فرَّ يومَ أُحُدٍ؟ قال: نعَمْ... أمَّا فِرارُه يومَ أُحُدٍ فأَشهدُ أنَّ اللهَ عفا عنه وغفَر له...))(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الذي يَستُر ذُنوبَ عِبادِه، ويتجاوزُ عن المؤاخذةِ بها، وهو الذي يُمهِلُ عِبادَه؛ ليتوبوا، فلا يُعاجِلهم بالعقوبةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧١-١٧٢)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٣٥/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٠-٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٣) رواه البخاري (٤٠٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٢).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فضيلةُ الإيمان، حيثُ يُوجَّه الخطابُ إلى الناس بوصْفِ الإيمان في مقامِ الإرشادِ والتنبيه؛ لأنَّ الإيمانَ مُقتضٍ للامتثال[1].

٢- تحذيرُ المؤمنين من الانقيادِ للعدوِّ، والتذلُّلِ له، وإظهارِ الحاجة إليه، وأنْ يُخامِرَهم خاطرُ الدُّخول في صُلح المشركين وأمانهم؛ فإذا مالوا إليهم اسْتدرَجوهم رويدًا رويدًا، بإظهارِ عدمِ كراهية دِينهم المخالِف لهم، حتى يردُّوهم عن دِينهم؛ قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[2].

٣- التحذيرُ من الشِّرك؛ فهو جالبٌ للشرِّ في الدُّنيا والآخِرة، فالمُشركونَ في الدُّنيا مَرعُوبونَ، وفي الآخرة مُعذَّبونَ؛ وذلك بسببِ إشْراكهم؛ قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، فالمُشرِك يخاف المخلوقينَ ويرجوهم فيحْصُلُ له رعْبٌ، وأما المؤمن الخالِصُ من الشِّرْكِ فيحصُلُ له الأمْنُ؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ﴾[3] [الأنعام: ٨٢].

٤- أنَّ النِّزاعَ والمعصيةَ سببانِ لفوات النَّصر؛ لأنَّ المسلمين في أوَّل الأمر انْتَصروا وقَتلوا المشركين، لكن لَمَّا حدَث هذا المانعُ، امتنع أو انتفَى النصرُ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٢) ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٨).

فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ...﴾(١).

٥- الحثُّ على اجتماعِ الكلمة؛ وجهُه: أنَّ النزاعَ سببٌ للخِذلان، فيكون الاتِّفاق سببًا للنَّصر، وهو كذلك؛ فاجتماعُ الناسِ على كَلمةٍ واحدةٍ لا شكَّ أنَّه سببٌ للنصر؛ ولهذا يَنبغي لطلبةِ العِلمِ وللعلماء ألَّا يُظهروا خِلافَهم ونزاعَهم أمامَ العامَّة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ ....﴾(٢).

٦- أنه ينبغي للقائدِ أنْ يكونَ ذا شجاعةٍ في قيادتِه، بحيثُ يثبُت ويدعو إلى الثَّبات؛ لقولِه تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾؛ لأنَّه لو لم يثبُت وهرَب معهم، لم يكُن صالحًا للقيادة(٣).

٧- التربيةُ العظيمةُ للعِباد، وهي ألَّا يَحزنوا على ما فاتهم، فإذا فاتك ما تظنُّه خيرًا لنفسك، فقل: قَدَّرَ الله وما شاء فَعَل، وكذلك إذا أصابَك ما تَكرَهُ، فقل: قدَّر اللهُ وما شاء فَعَل، واعلمْ أنَّ الحزن لا يَردُّ الغائب أبدًا، وإنَّما يَزيد الإنسان بلاءً، والله عزَّ وجلَّ يحبُّ من عِباده ألَّا يحزنوا؛ لأنَّه دفَعَ الغمَّ بالغمِّ من أجْل ألَّا يحزنوا؛ وذلك لأنَّ الحُزن يُحدِث للإنسان انقباضًا، ربَّما يَمنعُه عن كثيرٍ من المصالح؛ قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾(٤).

٨- أفاد قولُ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وجوبَ الحذرِ مِن مخالفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ووجهُه: أنَّه إذا كان خبيرًا بعمَلِنا، فإنَّ ذلك يُوجِب لنا ألَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((أمراض القلوب وشفاؤها)) (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٥).

نخالِفَه؛ لأنَّنا إنْ خالفْناه عَلِمَ، وإذا عَلِمَ فسوف يُحاسبنا[١].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أنَّ هذه العقيدةَ الإسلاميَّة تُعلِّم أصحابَها- فيما تُعلِّم- أنْ ليس لهم في أنفسِهم شيءٌ؛ فهم كلُّهم لله، وأنَّهم حين يَخرُجون للجهادِ في سبيله يَخرجون له، ويُقاتلون له، وأنَّهم يُسلِمون أنفسَهم لقدَرِه، فيَتلقَّون ما يأتيهم به هذا القدرُ في رِضًا وفي تَسليم، كائنًا هذا القدَرُ ما يكون[٢].

١٠- أنَّ الإنسانَ الذي لا يكونُ له همٌّ إلَّا نفسُه في هذه المواطن قد يُبتلى- والعياذ بالله- بهذه البلوى العظيمة، وهي أنْ يظنَّ باللهِ غير الحقِّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾[٣].

١١- أنَّ العِبرةَ والمدارَ على القلوبِ التي في الصُّدور؛ لقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾، وقال: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وكأنَّ هذا- والله أعلم- فيه إشارةٌ إلى أنَّ سببَ الجُبن والنِّزاع والمعصية سوءُ النيَّةِ من بعضِ مَنْ كان فيهم، ويُمكن أن نجعلَ قوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ جملةٌ استئنافيَّة تعليليَّة لِمَا حَصَل، ولا شكَّ أنَّ المدارَ كلَّه على ما في القلبِ، وأنَّه متى كان القلبُ صالحًا، صلَح العملُ، ومتى كان فاسدًا، فسَد العملُ[٤].

١٢- الحَذرُ لا يَدفعُ القدَر، والتدبيرُ لا يُقاوِم التقديرَ؛ يُبيِّن ذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، فالذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٤).

قدَّر الله تعالى عليهم القتْلَ لا بدَّ وأن يُقتلوا على جميعِ التقديرات[1].

١٣- ليس كالمحنةِ محكٌّ يَكشفُ ما في الصُّدور، ويَصهَر ما في القلوبِ؛ فيَنفي عنها الزَّيفَ والرِّياء، ويَكشفها على حقيقتِها بلا طِلاءٍ؛ فهو الابتلاءُ والاختبارُ لِمَا في الصُّدور؛ ليظهرَ على حقيقتِه، وهو التطهيرُ والتصفيةُ للقلوب، فلا يَبقى فيها دَخَلٌ ولا زَيف، قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[2].

١٤- الذَّنبُ يجرُّ إلى الذنب؛ يبيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، فقد أزلَّهم الشيطان بشُؤمِ بعضِ ما سبَق لهم مِن الذُّنوب، وأوقعَهم في الهزيمةِ[3].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّة لله؛ لقوله: ﴿سَنُلْقِي﴾[4].

٢- مِن كمالِ الله عزَّ وجلَّ تجدُّدُ أفعالِه التي تكون تابعةً لإرادتِه وحِكمتِه؛ لأنَّ إلقاءَ الرُّعب في قلوبِ هؤلاءِ حادثٌ؛ ﴿سَنُلْقِي﴾، أي: في المستقبَل[5].

٣- إثباتُ الأسبابِ؛ لقوله: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾؛ لأنَّ الباءَ للسببيَّةِ، وهو الحقُّ[6].

٤- في قول الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، دلالةٌ على أنَّ الرُّعبَ إذا كان يُلقَى في قلوبِ الذين

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٧).
(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٤٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٩٩).

كفروا؛ لإشراكِهم، فإنَّ الأمْنَ يُلقَى في قلوبِ الذين آمَنوا؛ لتوحيدِهم[١].

٥- أنَّه لا دليلَ لأحدٍ يحتجُّ به على اعتناقِ الشِّركِ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[٢].

٦- شِدَّةُ عزيمةِ الصحابةِ رضي الله عنهم في طَلَبِ العدوِّ؛ لأنَّه قال: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾، والحسُّ: القتل، أو أشدُّه، كأنَّه يُسمعُ له صوتٌ عند القتْل، وهكذا يَنبغي للمسلمين أنْ يأتوا أعداءَهم الحربيِّين على شِدَّة وغِلظة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤]، يعني: لا تَضعُفوا في طلبِهم[٣].

٧- المعصيةُ بعدَ النِّعمة أشدُّ من المعصيةِ قبل النِّعمة؛ لقوله: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾، وإلَّا لكان يقول: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ فقط، لكن كون المعصيةِ تقعُ بعدَ أنْ أراهم اللهُ ما يُحبُّون؛ هذه أعظمُ ممَّا إذا لم يكُن الله قد أراهم ما يحبُّون[٤].

٨- في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ...﴾، جاءتِ المخاطبةُ بجمْع ضميرِ المؤمنين في هذه الآيات، وإنْ كان لم يصْدرْ ما يُعاتبُ عليه مِن جميعِهم؛ وذلك على طريقةِ العربِ في نِسبةِ ما يَقع من بعضِهم للجميع على سبيلِ التجوُّز، وفي ذلك إبقاءٌ على مَن فعَل، وسَتْرٌ؛ إذ لم يُعيَّن، وزجرٌ لِمَن لم يَفعلْ أن يفعلَ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٠٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٧٨).

٩- أنَّه قد يكونُ في خيرِ القرون مَن يُعاب عليه الفِعل؛ لقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾، ولكنَّ الصحابة رضي الله عنهم بخاصَّة، لهم مِن الفضائل والسَّوابق والصُّحبة ما يُكفِّر ما حصَل منهم مِن الآفات وغيرِها[1].

١٠- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، وقوله: ﴿لِكَيْلَا﴾، وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾ إثباتُ الحِكمة في أفعال الله؛ فإنَّ اللام هنا للتعليل، فيكون في هذا ردٌّ على الجهميَّةِ ونحوهم ممَّن يُنكرون حِكمةَ الله عزَّ وجلَّ، ويقولون: إنَّ اللهَ يفعل لا لحِكمةٍ، ولكن لمجرَّد مشيئة، ونحن نُؤمِنُ بأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يَفعل شيئًا، ولا يَشرَع شيئًا إلَّا لحِكمة، لكن من الحِكَمِ ما هو معلومٌ للبشر، وما هو مجهولٌ لا تَبلغُه العقولُ[2].

١١- في تَعقيبِ الملامِ من الله تعالى للذين انهزموا في المعركةِ بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ تسكينٌ لخواطِرهم؛ فما حصَلَ من المؤمنين- من التنازُع، والفشل، والمعصية، وإرادة الدنيا- كلُّه مَحاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وفي ذلك تلطُّفٌ معهم على عادةِ القرآن في تقريعِ المؤمنين، وأعظمُ مِن ذلك تقديمُ العفوِ على الملامِ في ملامِ الرَّسولِ عليه السَّلام في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، فتِلك رُتبةٌ أشرفُ من رُتبةِ تعقيبِ الملام بذِكر العفو[3].

١٢- وفي تعقيبِ الملامِ أيضًا دلالةٌ على صِدقِ إيمانهم؛ إذ عجَّلَ لهم الإعلامَ بالعفو؛ لكيلَا تطيرَ نفوسُهم رهبةً وخوفًا من غضَبِ الله تعالى[4].

١٣- خصَّ سبحانه العملَ في قوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وإنْ كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١٥، ٣٢٤، ٣٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠).

تعالى خبيرًا بجميعِ الأحوال مِن الأعمالِ والأقوالِ والنيَّات؛ تنبيهًا على أعمالهم من توليةِ الأدبار، والمبالغةِ في الفِرار، وهي أعمالٌ تُخشَى عاقبتُها وعِقابُها[١].

١٤- الردُّ على الجبريَّة مِن قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّه أضاف العملَ إليهم، والجبريَّةُ يقولون: إنَّ الإنسانَ لا يَعمل، لا يَفعلُ شيئًا باختيارِه وكذلك قوله: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، وقوله: ﴿تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ فيه ردٌّ عليهم[٢].

١٥- الردُّ على غُلاة القدريَّة من قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾؛ لأنَّ غلاة القدرية يُنكِرون عِلمَ الله بِفعل العبدِ، ويقولون: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يعلمُ أفعالَ العبد، لكن إذا فعَلَها علِمَ بها، تعالى الله عمَّا يقولون[٣].

١٦- أنَّه لا يَظنُّ أحدٌ بالله ظنًّا غير الحقِّ إلَّا وهو جاهلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، فكلُّ مَن ظنَّ بالله غيرِ الحقِّ، فإنَّه بلا شكٍّ جاهلٌ، لم يَقدُرِ اللهَ حقَّ قدْره[٤].

١٧- إثباتُ أنَّ للشيطان تأثيرًا على العبدِ، حتى في عَملِه الصَّالح، وحتى في الجِهاد؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾[٥].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للانتقالِ مِن التوبيخِ واللَّومِ والعِتابِ إلى التحذيرِ؛ ليُتوسَّلَ منه إلى معاودةِ التَّسليةِ على ما حَصَل من الهزيمة[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٢٥، ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢١).

- وتصديرُ الخِطابِ بالنِّداء والتنبيهِ ﴿يَا أَيُّهَا﴾؛ لإظهارِ الاعتناءِ بما في حَيِّزه، ووصْفُهم بالإيمان؛ لتذكيرِ حالِهم، وتثبيتِهم عليها؛ بإظهارِ مُبايِنتِها لحالِ أعدائِهم، كما أنَّ وصْفَ المنافقين بالكُفر في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لذلك؛ قَصْدًا إلى مزيدِ التنفيرِ عنهم، والتَّحذيرِ عن طاعتِهم[1].

٢- قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾:

- في قوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ التفاتٌ- على قِراءة مَن قرأ (وسَيجزي) بالياء-[2]، حيث التفتَ من الغَيبة إلى التكلُّمِ؛ للاهتمامِ بما يُلقيه تعالى في قلوبِهم.

٣- وقوله: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: ما لَا سُلطانَ له، ففيه التَّعبيرُ عن نفْي تنزيلِ السُّلطان، والمرادُ نفيُ وجودِه، فلمْ يَعْنِ أنَّ هناك حُجَّةً إلَّا أنَّها لم تَنزِلْ عليهم؛ لأنَّ الشِّركَ لا يستقيمُ أنْ يقومَ عليه حُجَّةٌ، وإنَّما المرادُ نفيُ الحُجةِ ونزولِها جميعًا؛ لأنَّه لو كان لنزَل، أي: لأَوْحى الله به إلى الناس؛ لأنَّ الله لم يَكتمِ الناسَ الإرشادَ إلى ما يجبُ عليهم من اعتِقادٍ على ألْسِنة الرُّسُل، فالتنزيلُ إمَّا بمعنى الوحي، وإمَّا بمعنى نصْب الأدلَّة عليهم[3].

- وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ وصفٌ كاشف؛ لأنَّ الإشراكَ لا يُمكن أنْ يكونَ قد نزَلَ بسلطانٍ، ولا يوجدُ ما يُسمِّيه أحدٌ شريكًا إلَّا وهو ممَّا لم يُنزل

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٥- ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٦).

به الله سُلطانًا، بل ولا حُجَّة به في الواقِع ولا بُرهان[1]، وذلك يُفيد التوكيدَ.

٤- قوله: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ فيه وضْعُ الظاهرِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ موضِعَ المُضمَر- حيث لم يقل: (مثواهم)-؛ للتغليظِ، والإشعارِ بأنَّهم في إشراكِهم ظالِمُون، واضِعُون للشيءِ في غيرِ موضعِه[2]، وللتَّعميمِ وتعليقِ الحُكم بالوصف[3].

- والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ؛ للدَّلالة عليه، أي: بِئْسَ مثوى الظالِمين النارُ، وفي جَعْلِها مثواهم بعدَ جَعْلِها مأواهم نوعُ رَمزٍ إلى خلودِهم فيها؛ فإنَّ المثْوى مكانُ الإقامةِ المنبئةِ عن المُكثْ، وأمَّا المأوى، فهو المكانُ الذي يَأوي إليه الإنسانُ[4].

٥- قول الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ عدَلَ عن ذِكرِ الغنيمةِ باسمِها إلى الموصول ﴿مَا﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم عَجِلوا في طلبِ المالِ المحبوبِ[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣٩١)، عند الحديثِ عن آية الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال ابنُ عاشور في تفسيرِه لآية الأعراف: (فعرَّف الشركاءَ المزعومين تعريفًا لطريقِ الرَّسم بأنَّ خاصَّتهم: أنْ لا سلطانَ على شِركتهم لله في الإلهية؛ فكلُّ صنم من أصنامهم واضحةٌ فيه هذه الخاصَّة، فإنَّ الموصولَ وصِلتَه من طرق التعريف، وليس ذلك كالوصفِ، وليس للموصولِ وصِلتِه مفهومُ مخالفةٍ، ولا الموصولات معدودة في صِيغ المفاهيم، فلا يتَّجه ما أوردَه الفخرُ مِن أن يقول قائلٌ: هذا يُوهم أنَّ مِن بين الشرك ما أنزل الله به سلطانًا واحتياجه إلى دفْع هذا الإيهام، ولا ما قَفاه عليه صاحبُ «الانتصاف» من تنظيرِ نفْي السلطانِ في هذه الآيةِ بنحو قولِ امرئ القيس:

عَلى لاحِبٍ لا يُهتدَى بمَنارِه.

ولا يَتَّجِه ما نحاهُ صاحبُ «الكشاف» من إجراءِ هذه الصِّلة على طريقةِ التهكُّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٠١- ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٩).

٦- قوله: ﴿مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فيه تفصيلٌ للإجمالِ الذي في قولِه: ﴿وتَنَازَعْتُمْ﴾، وتبيينٌ لـ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾، وتخصيصٌ له بأنَّ العاصين بعضُ المخاطَبين المتنازِعين؛ إذِ الَّذين أرادوا الآخِرةَ ليسوا بعاصين؛ ولذلك أُخِّرتْ هذه الجملةُ إلى بعدِ الفِعلين، وكان مُقتضى الظاهرِ أنْ يُعقِّب بها قوله: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾، وفي هذا الموضعِ للجملةِ ما أغْنى عن ذِكر ثلاثِ جُمَل، وهذا مِن أبدعِ وجوهِ الإعجاز، والقرينةُ واضحةٌ[1].

٧- قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾، و﴿مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ...﴾ فيه حُسْنُ تقسيمٍ[2].

٨- قوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تذييلٌ؛ لتأكيدِ ما اقتضاه قولُه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾[3].

- وتنكيرُ ﴿فَضْلٍ﴾؛ للتفخيم[4].

- والإظهارُ ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ في موقعِ الإضمارِ (عليهم)؛ للتَّشريفِ، والإشعارِ بعلَّة الحُكم، وتعليق الحُكم بالوصف[5].

٩- قوله: ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذْف؛ إذ المعنى: ولا يَلوي أحدٌ على أحدٍ، فأوجزَ بالحذف، والمرادُ: على أحدٍ منكم[6].

١٠- قوله: ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ فيه تنكيرُ (غَمّ)؛ للتكثيرِ[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٩).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣١).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٠).

١١- قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ فيه التصريحُ بتأخُّر الإنزالِ عنه بقوله ﴿مِنْ بَعْدِ﴾، مع دَلالة ﴿ثُمَّ﴾ عليه وعلى تَراخِيه عنه؛ لزِيادةِ البيانِ، والتذكيرِ بعِظَمِ النِّعمةِ[1].

- وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يدلُّ على تجلُّل النُّعاسِ واستعلائِه وغلبتِه عليهم[2].

- وقوله: ﴿أَمَنَةً نُعَاسًا﴾: في إبدال ﴿نُعَاسًا﴾ من ﴿أَمَنَةً﴾ إيجازٌ كثيرٌ، يدلُّ على أنَّ الأمنَ والهدوءَ استوليَا عليهم بمجرَّدِ مُخالطةِ النُّعاس، وإنَّما ينعَسُ مَن أمِن، وزايلَه الخوف، والخائِف لا يَنامُ، بل يرَى أعداءَه في كلِّ مكان[3].

- وتقديمُ الظَّرفينِ ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ على المفعولِ الصَّريح ﴿أَمَنَةً﴾؛ للاعتناءِ بشأنِ المقدَّمِ، والتشويقِ إلى المؤخَّر[4].

- وتَخصيصُ الخوفِ من بين فُنونِ الغمِّ بالإزالة؛ لأنَّه المهمُّ عندَهم حينئذٍ؛ لأنَّ المشركين لَمَّا انصرَفوا كانوا يَتوعَّدون المسلمين بالرُّجوع، فلم يأمنوا رجْعَتَهم إليهم، وكانوا تحتَ الأسلحةِ متأهِّبين للقِتال، فأنزلَ اللهُ تعالى عليهم الأَمنةَ فأَخذَهم النُّعاسُ[5].

١٢- قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ نشأ عن قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾، وفيه تعريضٌ بأنَّهم لم يُزيلوا بعضَ أوصاف الجاهليَّة، ولم يُخلصوا الدِّينَ لله[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٧٩- ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٥).

- وقوله: ﴿غَيْرَ الحَقِّ﴾: تأكيدٌ لـ﴿يَظُنُّونَ﴾، مثل قولك: هذا القولُ غيرُ ما تقول، وهذا القولُ لا قولك[١].

١٣- قوله: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿هَلْ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ بمعنى النَّفي، بقرينةِ زيادة ﴿مِن﴾ قبل النَّكرة، وهي مِن خَصائصِ النَّفي، وهو تبرئةٌ لأنفسِهم من أنْ يكونوا سببًا في مقابلةِ العدوِّ، حتى نَشأَ عنه ما نَشأ، وتَعريضٌ بأنَّ الخروجَ للقتالِ يومَ أُحُدٍ خَطأٌ وغُرور[٢].

١٤- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ فيه تأكيدُ الخبر بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة.

- و﴿كُلَّهُ﴾- على قِراءة النَّصب- تأكيدٌ لاسم (إنَّ)[٣]، فلمَّا أُكِّد في كلامِهم بزيادة (مِن) في قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾، جاءَ الكلام مؤكَّدًا بـ(إنَّ)، وبُولغ في توكيدِ العمومِ بقولِه: ﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، فكان الجوابُ أبلغَ[٤].

١٥- قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ خبرٌ فيه وعدٌ ووعيد، وتنبيهٌ على أنَّه غنيٌّ عن الابتلاء، وإنما فعَل ذلك؛ لتَمرينِ المؤمنين، وإظهارِ حالِ المنافقين[٥].

١٦- قوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ فيه مِن البلاغة: المخالفةُ في جواب ﴿لَوْ﴾؛ فقد جاءَ مرَّةً بغيرِ لام ﴿مَا قُتِلْنَا﴾، وجاء مرة مقترنًا بها ﴿لَبَرَزَ﴾، وفي هذا سرٌّ عجيبٌ، والقاعدةُ المعروفةُ هي أنَّ جوابَ (لو) إذا كان منفيًّا بـ(ما)، فالأكثرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٤).

عدمُ اللامِ، وفي الإيجابِ بالعكس؛ لأنَّ الإيجابَ أحوجُ إلى التَّثبيتِ والترسيخ[١].

١٧- **أفاد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾** أنَّه يَنبغي التأكيدُ من أجْل زيادةِ طُمأنينةِ المخاطَبِ؛ لأنَّه أكَّد هذه الجملةَ الخبريَّةَ التي تُفيد العفوَ عنهم؛ أكَّدها بقَسَم، ولام، وقدْ؛ من أجْل أنْ تَزدادَ طُمأنينتُهم في هذا العفو[٢].

١٨- **قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** الجملةُ تعليلٌ لِمَا قَبْلَها على سبيلِ التَّحقيق، وفي إظهارِ لفظ الجَلالةِ (الله) في موضِع الإضمارِ تربيةٌ للمهابةِ، وتأكيدٌ للتَّعليل[٣].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٧٩-٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٣).

الآيات (١٥٦ - ١٥٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿غُزًّى﴾: جمْع غازٍ، مِن: غَزا يَغْزو غَزْوًا، والغزوُ: الخروجُ إلى مُحاربةِ العَدوِّ، وأصلُ (غزو): طلبُ شيءٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عِبادَه المؤمنين عن أنْ يُشابهوا الَّذين كفَروا في قولِهم النَّاشئ عن الاعتراضِ على قَضاءِ اللهِ وأقدارِه، حين قالوا عن إخوانِهم من الكَفَرة الَّذين ماتوا أو قُتِلوا- وهم بَعيدونَ عن أوطانِهم لغرَض التِّجارة أو القِتال- قالوا: لو كانوا مُقيمينَ معنا في أوطاننا، لَمَا أصابَهم ما أصابهم؛ ليجعلَ اللهُ هذا الاعتقادَ والقولَ منهم حسرةً وندامةً في قلوبهم، واللهُ وحده مَن بيدِه إحياءُ الخَلْق وإماتَتُهم، وكلُّ ذلك بمشيئته، لا تموتُ نفسٌ إلَّا حين تستوفي أجَلَها، وهو سبحانه بما يعمَلُ خَلقُه بصيرٌ.

ثمَّ يُخاطِب اللهُ تعالى عبادَه بأنَّ مَن يُقتَل في سبيلِ الله أو يموت، فما سينالُه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

من مغفرةِ الله ورحمتِه هو خيرٌ من البقاءِ في هذه الدُّنيا، وأفضل ممَّا يجمعه أهلُها منها، ثمَّ يُذكِّرهم أنَّهم إنْ ماتوا أو قُتلوا فإنَّ المصيرَ والمرجِع إليه جلَّ وعلا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أنَّ هزيمةَ مَن تولَّى منهم يوم أُحُدٍ كانت بوَسواسٍ من الشيطان استزلَّهم فزَلُّوا، أراد أنْ يُحذِّرهم من مثلِ تلك الوسوسةِ الَّتي أفسدَ الشَّيطانُ بها قلوبَ الكافرين[١]، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تَصيروا مثلَ الكفَّار الَّذين قالوا قولًا منكرًا، ناشئًا عن اعتقادٍ فاسدٍ؛ بالاعتراضِ على قضاءِ الله عزَّ وجلَّ وقدَرِه، وهو قولُهم عن إخوانهم من أهلِ الكفرِ، الَّذين خرَجوا من بلادهم سَفرًا لأجل التِّجارة، وطلب المعيشة، أو خرَجوا غُزاةً للقتال، فماتوا في سَفَرهم، أو قُتلوا في غزوهم: لو أقاموا معنا في بِلادِنا، ولم يَخرُجوا كما فَعَلْنا نحن، لَمَا ماتوا في سفَرِهم، ولَمَا قُتِلوا في غَزوِهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٥-١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَجعلُ هذا القولَ وهذا الاعتقادَ ندامةً في قلوبهم وهمًّا، فتزداد مصيبتُهم بذلك[١].

﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو وحْدَه الَّذي يملِكُ الإحياءَ والإماتة، فلن يموتَ أحدٌ أو يُقتَل إلَّا بمشيئتِه سبحانه، وذلك بعدَ استكمالِ أجَلِه الَّذي قدَّره الله عزَّ وجلَّ له[٢].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قراءتان:

١- (يَعْمَلُونَ) على أنَّها خِطابٌ للكافرين[٣].

٢- ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على أنَّها خِطابٌ للمؤمنين[٤].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ يرى كلَّ ما يَعمَلُه العبادُ، مؤمنُهم وكافرُهم، من خيرٍ أو شرٍّ، قليلٍ أو كثيرٍ، وهو حافظٌ له، وسيُجازيهم عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٠-١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

(٣) قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٧٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦١).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٧٧)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن أنْ يكونوا كالَّذين كفروا، وقالوا ما قالوا في شأنِ مَن مات في سفَرٍ أو غزوٍ- بيَّن لهم ثمرةَ فواتِ أنفسِهم في الجهادِ بالموتِ أو القتْلِ؛ ليكونَ ذلك موجِبًا لتسليمِ الأمرِ للخالِق، وعدمِ التَّخاذُل عن الغزوِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّكم إذا قُتِلتم في سبيلِ الله تعالى، أو أصابَكم الموتُ في سبيله أيضًا، فهذا أمرٌ حسَنٌ يَنبغي أنْ تطمَعوا فيه، وتتنافسوا عليه؛ لأنَّه موصلٌ إلى نيلِ مغفرةِ الله تعالى لذُنوبكم، وشمولِ رحمتِه عليكم، وذلك أفضلُ لكم من البقاءِ في هذه الدَّارِ، وجمْعِ حُطامِها الفاني، كما يفعلُ أهلُ الدُّنيا[2].

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رغَّب اللهُ تعالى المجاهِدِينَ في الآيةِ الأُولى بمغفرتِه ورحمتِه، زادَ في إعلاءِ الدَّرجاتِ، فرغَّبهم هاهنا بالحشرِ إليه[3]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٤).

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي: وإنْ أصابَكم الموتُ أو القتْلُ- أيُّها المؤمنون- فإنَّ مَصيرَكم في النهاية هو العودةُ إلى الله عزَّ وجلَّ، فيُجازيكم بما صنعتُم، فآثِروا ما يُقرِّبكم من اللهِ تعالى، وكونوا مُطمئنِّين ومستبشرين للقائِه سبحانه[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- عِلمُ الله لا يَتغيَّرُ، وحُكمُه لا ينقلِبُ، وقضاؤُه لا يتبدَّلُ، فلا تأثيرَ لشيءٍ آخرَ في الحياةِ والموت: مَن قُدِّر له البقاءُ لم يُقتَل في الجهاد، ومَن قُدِّر له الموتُ لم يَبقَ، وإنْ لم يجاهد؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[٢].

٢- إثباتُ عمومِ عِلمِ الله عزَّ وجلَّ بكلِّ ما نعمل؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أو (بِمَا يَعْمَلُونَ)، ويَترتَّبُ على هذه الفائدةِ فائدةٌ مسلكيَّةٌ ينتفعُ بها الإنسانُ في سلوكِه وعملِه، وهي أنَّه إذا آمَن بأنَّ اللهَ بَصيرٌ بما يعمل لزِم من ذلك أنْ يستقيمَ على أمْرِه[٣].

٣- إنَّ مصيرَ العالَمين كلِّهم إلى اللهِ تعالى؛ فالموافاةُ على الشَّهادةِ أمثلُ بالمرء؛ ليُحرِزَ ثوابها، ويجِدَه وقتَ الحشر، ذلك خيرٌ له من أنْ يموتَ مِن غيرِ ما فائدةٍ؛ يبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾، فالنهايةُ واحدةٌ: موتٌ أو قتْلٌ في الموعدِ المحتوم، والأَجَلِ المقسوم، ورجعةٌ إلى الله وحشرٌ في يومِ الجَمْعِ والحشر، ومغفرةٌ من الله ورحمةٌ، أو غضبٌ من الله وعذاب؛ فأحْمَقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٣-١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٠-٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٩،٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٥٥).

الحمقَى مَن يختار لنفسِه المصيرَ البائس، وهو ميِّتٌ على كلِّ حال[١]!

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قول الله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ ذكَرَ الغزوَ بعدَ الضَّربِ في الأرض، وهو داخلٌ فيه؛ قيل: لأنَّ الضَّربَ في الأرض يُراد به الإبعادُ في السَّفر، لا ما يَقرُب منه، وفي الغزو لا فَرقَ بين بعيدِه وقريبِه، فبينهما عمومٌ وخصوص؛ فتغايرَا، فصحَّ إفرادُه. وقِيل: قدَّم الضَّربَ في الأرض على الغزو؛ لكَثرتِه[٢].

٢- في قولِ الله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ قدَّم الموتَ على القتْل؛ قيل: لِمُناسبةِ ما قَبلَه من قوله: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾[٣]، أو باعتبارِ أنَّ الموتَ حتْفَ الأنفِ هو الغالبُ، وليس القتْل[٤].

٣- الرَّدُّ على القدريَّة؛ لقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أنَّ اللهَ قدَّر أنْ يقولوا هذا القولَ؛ ليجعلَه حَسرةً في قلوبهم[٥].

٤- قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ علَّق ما قال الكافرون بالبصرِ لا بالسَّمعِ، وإنْ كان الصادرُ منهم قولًا مسموعًا لا فِعلًا مرئيًّا، لَمَّا كان ذلك القولُ من الكافِرِ قصدًا منهم إلى عَملٍ يُحاولونه، فخَصَّ البصرَ بذلك[٦].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الرَّدُّ على الجبريَّة، حيث

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٠، ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٥٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٣/ ٩٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٤).

أضافَ العملَ إليهم، والجبريَّةُ لا يُضيفون العملَ إلى الإنسان[١].

٦- قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ قدَّم القتلَ على الموت؛ لأنَّه محلُّ تحريضٍ على الجهاد، فقدَّم الأهمَّ والأشرفَ[٢].

٧- الجَمْع بين المغفرة والرَّحمة؛ ليكملَ للإنسانِ سعادتُه؛ إذ بالمغفرةِ زوالُ المكروه، وبالرَّحمةِ حصولُ المطلوب، قال تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٣].

٨- جوازُ إيقاع التَّفضيلِ بين شيئينِ بينهما بُعدٌ تامٌّ، كما قال تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٤].

٩- قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ قدَّم الموتَ هنا على القتْل؛ قيل: لأنَّها آيةُ وعْظٍ بالآخِرة والحشرِ، وتزهيدٍ في الدُّنيا والحياة، والموتُ فيها مُطلَق لم يقيَّدْ بشيءٍ فقُدِّم لعمومِه، أو لأنَّه أغلبُ في النَّاس من القتْل[٥].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ زيادةُ تسليةٍ للمؤمنين؛ لأنَّ المؤمنَ إذا عَلِم أنَّ مرجعَه إلى الله، فإنَّه سوف يَطمئنُّ ويستبشرُ وينشرحُ صدرُه بذلك[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦١).

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

- في الآية: حِكايةُ الحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ الصُّورةِ في الذِّهن، وتجسيدِ المعنى المراد، والتَّشخيصِ لِمَا يُراد عَرْضُه؛ فـ: ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ للمستقبل، وقد جاء متعلقًا بـ﴿قَالُوا﴾، وهي فِعل ماضٍ، وكان ظاهرُ الكلام يَقضي باستعمال (إذ) المفيدةِ للمُضيِّ، ولكنَّه عدَل عنها إلى ﴿إِذَا﴾؛ لحكايةِ الحالِ الماضية، وفائدتُها استمرارُ الزَّمان المنتظِم للحالِ الَّذي يَدورُ عليه الحديثُ إلى وقتِ التَّكلُّم(١).

- وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: خبرٌ متضمِّنٌ للتَّحذيرِ لهم مِن أن يُضمروا العَوْدَ إلى ما نُهوا عنه(٢).

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله) في موقعِ الإضمارِ؛ لتربيةِ المهابةِ، وإلقاءِ الرَّوْعةِ، والمبالغةِ في التَّهديد، والتَّشديدِ في الوعيد(٣).

٢- قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فيه تأكيدُ الخبرِ باسميَّةِ الجملة، واللام(٤).

- ووردتْ ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نكرتين، إشارةً إلى أنَّ أيسرَ جزءٍ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٤)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٧).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٨).

المغفرة والرَّحمة خيرٌ من الدُّنيا، وأنَّه كافٍ في فوزِ المؤمن[١].

٣- **قوله:** ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه توكيدُ الخبرِ باسميَّةِ الجملة، واللام في ﴿لَإِلَى﴾[٢].

- وعبَّر بقوله تعالى: ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ ولم يقُلْ: (تحشرون إلى الله)، فقدَّم ما حقُّه التَّأخير؛ ليُفيد الحَصرَ، فمعناه: إلى اللهِ يُحشَر العالَمون لا إلى غيرِه، وهذا يدلُّ على أنَّه لا حَاكمَ في ذلك اليومِ، ولا ضارَّ ولا نافعَ إلَّا هو سبحانه وتعالى[٣].

- وقوله: ﴿تُحْشَرُونَ﴾ بُني لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه، مع أنَّ فاعلَ ذلك الحَشرِ هو اللهُ تعالى، وإنَّما لم يقَعِ التَّصريحُ به؛ لأنَّه تعالى هو العظيمُ الكبير، وترك التَّصريح في مِثل هذا الموضعِ أدلُّ على العظَمةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٥).

الآيات (١٥٩ - ١٦١)

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿فَظًّا﴾: كَريهَ الخُلُق، وجافِي الفِعل، من الفظِّ، وهو ماءُ الكَرِش، وأصل الفظاظة: الجَفوة، والكراهةُ والتَّكرُّه[1].

﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: أي: لتَفرَّقوا عنك، ولم يَسكُنوا إليك، والفضُّ: كسْرُ الشَّيءِ، والتَّفريقُ بين بعضِه وبعضِه، وأصلُه: التَّفريقُ والتَّجزئة[2].

﴿عَزَمْتَ﴾: أي: عَقَدْتَ قلبَك على إمضاءِ الأمورِ، وصَحَّحتَ رأيَك فيها، وأصلُ العزم: القطعُ[3].

﴿يَخْذُلْكُمْ﴾: أي: يَترُكْ نُصرتَكم ومعونتَكم، وأصل (خذل): ترْكُ الشَّيءِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١- ٦٦٢).

والقعودُ عنه، ومنه الخِذلانُ، وهو تركُ المَعُونة[١].

﴿يَغُلَّ﴾: أي: يَخون في الغنائم، أو يُنسَب إلى الخيانة- على قراءة (يُغَلَّ)-، والغُلول في الغنائم، إخفاءُ الشَّيء، وعدمُ ردِّه إلى القَسم؛ كأنَّ صاحبَه قد غلَّه بين ثِيابِه، وأصل الغُلول: تخلُّل شيءٍ، وثباتُ شيء، كالشَّيء يُغرَزُ[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه بسبب رحمةِ الله تعالى كان ليِّنًا مع أصحابه، خافضًا لهم جناحَه، لذا اجتمعوا عليه، وامتثلوا أمرَه، ولو كان سيِّءَ الخُلُق ذا قلبٍ قاسٍ لتَركوه ونفَروا منه، وأمَره تعالى بأنْ يَعفوَ عن أخطائِهم وتقصيرِهم، وأنْ يَستغفرَ لهم اللهَ، وأنْ يَستشيرَهم في الأمورِ الَّتي تحتاجُ إلى مشورةٍ، فإذا ترجَّح له أمرٌ بعد الاستشارةِ، فليَمضِ فيه متوكِّلًا على الله، والله سبحانه يحبُّ مَن يتوكَّل عليه.

ثمَّ يخبِرُهم تعالى أنَّه حِين يُقدِّرُ للمؤمنين النَّصرَ فلنْ يَستطيعَ أحدٌ أنْ يَهزمَهم، وإنْ تخلَّى اللهُ عنهم فلا يُمكن لأحدٍ أنْ يَنصُرَهم أبدًا، وعلى اللهِ وحْدهَ فليكُنِ اعتمادُ كلِّ مؤمن.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّه ليس من صِفاتِ الأنبياءِ الغُلولُ- وهو: كتمانُ الغنيمةِ - ولا الخيانةُ عمومًا، فقد صان اللهُ أنبياءَه عن كلِّ ما يُدَنِّسهم، ولا يَنبغي أن يُتَّهموا بذلِك، أو يَخُونَهم أحدٌ، ثمَّ يذكرُ وعيدَ من غلَّ بأنَّه يأتي بما غلَّه يحملُه يومَ القيامةِ على ظهره، ثمَّ تُجزَى كلُّ نفسٍ بما عمِلَتْ، لا يُظلَمُ أحدٌ شيئًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وَعَظَ اللهُ تعالى الصَّحابةَ رضي الله تعالى عنهم، أَتْبَعَه تحبيبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما فعل بهم من الرِّفق واللِّين، مع وجودِ سببِ الغضبِ الموجِبِ للعُنف والسَّطوة؛ من اعتراضٍ على ما أشار به، ثمَّ مخالفتِهم لأمْره في حِفظِ المركزِ والصَّبرِ والتقوى، ثمَّ خِذلانِهم له وتقديمِ أنفسِهم على نفسِه الشَّريفةِ، ثمَّ عدم العطفِ عليه وهو يَدْعوهم إليه، ويأمُرُ بإقبالِهم عليه، ثمَّ اتِّهامِ مَن اتَّهمه، إلى غيرِ ذلك من الأمورِ الَّتي تُوجِبُ لرؤساءِ الجيوشِ وقادةِ الجنودِ اتِّهامَ أَتْباعِهم، وسوءَ الظَّنِّ بهم، الموجِبَ للغضبِ والإيقاعِ ببعضِهم؛ ليكونَ ذلك زاجرًا لهم عن العَودِ إلى مثلِه[1]، فقال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾.

أي: بسببِ رحمةِ اللهِ تعالى لكَ ولأصحابِكَ- يا محمَّدُ- أَلَانَ قَلبَك لهم، فكنتَ سهلًا ورقيقًا في تعاملِك معهم[2].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦١-٣٦٣).

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

أي: لو كنتَ- يا محمَّدُ- جافيًا سيِّئَ الخُلُق، قاسيَ القلبِ مع أتْباعِك، لنفَروا منك وفارَقوك[١].

عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لقِيتُ عبدَ اللهِ بن عمرِو بنِ العَاصِ رضِيَ اللهُ عنهمَا: قلتُ: أخبِرني عن صفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّورَاةِ، قالَ: ((أَجَلْ، واللهِ إنَّهُ لموصوفٌ في التَّورَاةِ ببعضِ صِفَتِهِ في القرآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ[٢]، أنتَ عَبْدِي ورَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المُتوكِّلَ، ليسَ بِفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ[٣] في الأسواقِ، ولا يَدْفَعُ بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولكنْ يَعفُو ويغْفِرُ، ولنْ يَقْبِضَه اللهُ حتَّى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويفْتَحُ بها أعيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا))[٤].

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

أي: فتَجاوَزْ عن أصحابِك- يا محمَّدُ- فيما أخطَؤوا أو قَصَّروا فيه من حقِّك، واطلبِ المغفرةَ لهم من اللهِ تعالى فيما أَخطؤوا أو قَصَّروا فيه من حقِّ الله عزَّ وجلَّ، واطلبْ رأيَهم فيما حزَبَك من الأمور العامَّةِ والمشتبِهة؛ وذلك تطييبًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٦-١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) حرزًا: أي: حافظًا، والأميُّون: جمع أُمِّي، وهو الذي لا يكتُب، والمراد بهم هنا: العرب؛ وسمُّوا بذلك؛ لأنَّ الكتابة كانت عندهم قليلة. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٦٨)، ((عمدة القاري)) للعيني (١١/ ٢٤٣).

(٣) سخَّاب- على وزن: فعَّال- مِن السَّخَب: وهو الصَّخبُ والصِّياح. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٩)، ((عمدة القاري)) للعيني (١١/ ٢٤٣).

(٤) رواه البخاري (٢١٢٥).

لقلوبهم؛ ليكونوا لك أطوعَ، وفيما يُقدِمون عليه أنشَطَ، وليقتدوا بكَ في ذلك مِن بعدِك[1].

وقد أثنى اللهُ تعالى على المؤمنين بذلك فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم...﴾الآيات [الشورى: ٣٦- ٤٣].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

أي: إذا صحَّ عزْمُك على أمرٍ من الأمورِ، بعدَ استطلاعِ آراءِ أصحابِك فيه، فامْضِ فيه معتمِدًا على حولِ الله تعالى وقوَّتِه، واثقًا به فحسبُ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ اللَّاجئين إليه، والمعتمِدين في جميعِ أمورِهم عليه[2].

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

أي: إذا قدَّر الله تعالى بأنْ يَكونَ النصرُ حليفَكم- أيُّها المؤمنون- فإنَّه لن يَغلِبَكم أحدٌ مُطلَقًا، مهما بلغ قوَّةً وكثرة[3].

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٨٨-١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٤-٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٧-٣٧٨).

أي: وإذا ترَكَكم اللهُ تعالى، وخلَّى بينكم وبين عَدوِّكم، ووكَلَكم إلى أنفسِكم، فلا يُمكن لأيِّ أحدٍ مطلقًا أن يَنصُرَكم من بعدِ خِذلانِ اللهِ تعالى لكم[١].

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ تعالى وحْدَه، لا على أيِّ أحدٍ غيرِه، فاعتمِدوا- أيُّها المؤمنونَ- في جلْبِ الخيرِ ودَفْعِ الضُّرِّ، ومِن ذلك النَّصرُ على الأعداءِ، ودفعُ شرِّهم[٢].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

مناسبةُ هذه الآيةِ لِمَا قَبْلَها من عدَّة وجوه:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حثَّ على الجهادِ أتْبَعَه بذِكرِ أحكامِ الجهاد، ومِن جملتها: المنعُ من الغُلولِ[٣].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ النَّصرَ والخِذلانَ بيده وحْدَه، وذلك يستلزمُ التَّحريضَ على طلَبِ مَرْضاتِه؛ ليكونَ لطيفًا بمَن يُرضُونه، ولَمَّا كان الغُلولُ مِن أعظمِ مُوجباتِ الخِذلانِ، أو أعْظَمَها، والنَّزاهةُ عنه مِن أعظمِ مُوجباتِ النَّصرِ- كان أنسبَ الأشياءِ لتعقيبِ هذه الآيةِ[٤].

وكذلك لَمَّا أمَرَهم اللهُ تعالى بالتوكُّل في الآيةِ السَّابقة، حثَّهم على ألَّا يأتوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٢-١٩٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٤).

بِما يَقدَحُ في التوكُّلِ؛ كالغُلولِ وما يُدانِيه[1].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿يَغُلَّ﴾ قِراءتان:

١- ﴿يَغُلَّ﴾ أي: ما كان لنبيٍّ أنْ يخُونَ في غنيمةٍ أو غيرِها[2].

٢- (يُغَلَّ)، قِيل معناها: ما كان لنبيٍّ أن يُغِلَّه أحدٌ، أي: يَخُونَه، وقيل: ما كان لنبيٍّ أنْ يُتَّهم بالغُلولِ فيُخوَّن[3].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾.

أي: وليس الغُلولُ- وهو كِتمانُ الغنيمة- ولا غيرُ ذلك من أوجهِ الخِيانة، من صِفاتِ الأنبياء؛ فذلك محالٌ وممتنعٌ على مَن اختارهم الله تعالى لمقام النُّبوَّة، ولا يَنبغي شرعًا لأحدٍ أن يخُونَهم، أو ينسُبَ إليهم هذه الصِّفةَ الشَّنيعةَ[4].

﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ومَن يخُنْ مِن غنائمِ المسلمين شيئًا، فإنَّه يَجيءُ معه يومَ القيامةِ بنَفْسِ الشَّيءِ الَّذي أخَذه على سَبيلِ الخِيانةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١١).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عمرو، وعاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٩٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٠-١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠٠-٢٠١)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٤-٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) =

عن مُعاذِ بن جبلٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((بعَثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا سِرتُ أرسَل في أثَري، فرَددْتُ، فقال: أتدْرِي لمَ بَعثتُ إليك؟ لا تُصيبَنَّ شيئًا بغيرِ إذني؛ فإنَّه غُلولٌ، ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ لهذا دعَوْتُك فامضِ لعملِك))(١).

وعن أبي حُميدٍ السَّاعديِّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((اسْتَعْمَل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رجلًا من الأزدِ على صدقاتِ بني سُلَيم، يُدعى ابنَ الأُتْبِيَّةِ، فلمَّا جاءَ حاسبَه، قال: هذا مالُكم، وهذا هديَّةٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فهلَّا جلَستَ في بيتِ أبيك وأمِّك حتَّى تَأتيَك هديَّتُك إنْ كنتَ صادقًا؟! ثمَّ خطبنا، فحمِدَ اللهَ وأثْنى عليه، ثمَّ قال: أمَّا بعدُ، فإنِّي أستعملُ الرجلَ منكم على العَملِ ممَّا ولَّاني اللهُ، فيأتي فيقول: هذا مالُكم وهذا هديَّةٌ أُهدِيتْ لي، أفَلا جلَسَ في بيت أبيه وأمِّه حتَّى تأتيَه هديَّتُه إنْ كان صادقًا؟! واللهِ لا يَأخذُ أحدٌ منكم منها شيئًا بغير حقِّه، إلَّا لقيَ اللهَ تعالى يَحملُه يومَ القيامةِ، فلَأعرفنَّ أحدًا منكم لقِيَ اللهَ يَحمِل بعيرًا له رُغاءٌ(٢)، أو بقرةٌ لها خُوارٌ(٣)، أو شاةٌ تَيْعِرُ(٤)،

= (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٦-٣٨٧).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، أي: يأتي به حاملًا له على ظهرِه ورقبتِه، مُعذَّبًا بحملِه وثقلِه، ومرعوبًا بصوتِه، وموبَّخًا بإظهارِ خيانتِه على رؤوس الأشهادِ... وهذه الفضيحةُ التي يُوقِعُها اللهُ تعالى بالغالِّ نظير الفضيحةِ التي تُوقَع بالغادر، في أن يُنصَب له لواءٌ عندَ اسْتِه بقدرِ غَدرتِه). ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٥٦).

(١) رواه البخاري (٢٠٠).

(٢) الرُّغَاء: صوتُ البَعير. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٤٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١٦).

(٣) الخُوَارُ: صَوْتُ البَقر. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٧).

(٤) تَيعِرُ: أي: تَصِيحُ، واليُعارُ صَوْتُ الشَّاةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٩٧)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١٩).

ثمَّ رفع يدَيه حتَّى رُئِيَ بياضُ إِبْطَيه، ثمَّ قال: اللهمَّ هل بلَّغْتُ؟، بصُرَ عيني، وسمِع أُذني))[١].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((غزا نبيٌّ من الأنبياءِ فقال لقومِهِ: لا يَتْبَعْنِي رجلٌ ملَكَ بُضعَ امرأةٍ[٢]، وهو يُريدُ أن يَبنيَ بها، ولَمَّا يَبْنِ، ولا آخَرُ قد بنَى بُنيانًا، ولَمَّا يرفَعْ سقفَها، ولا آخرُ قد اشترَى غنَمًا أو خَلِفاتٍ[٣]، وهو منتظرٌ ولادَها، قال: فغزَا، فأَدْنَى للقريةِ حينَ صلاةِ العصرِ، أو قريبًا من ذلكَ، فقال للشَّمسِ: أنتِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللهمَّ احبِسْها عليَّ شيئًا، فحُبِستْ عليهِ حتَّى فتَحَ اللهُ عليهِ، قال: فجمَعُوا ما غنِموا، فأقبلتِ النَّارُ لتأكلَه، فأبتْ أنْ تَطْعَمَهُ، فقال: فيكُم غُلولٌ، فليُبايِعْنِي من كلِّ قبيلةٍ رجلٌ، فبايَعوهُ، فلصِقَتْ يدُ رجلٍ بيدِهِ، فقال: فيكُم الغُلولُ، فلتُبايِعْنِي قبيلتُكَ، فبايَعَتْه، قال: فلصِقَتْ بيدِ رَجُلينِ أو ثلاثةٍ، فقال: فيكُم الغُلولُ، أنتُم غلَلْتُم، قال: فأَخْرجوا له مِثْلَ رأسِ بقرةٍ من ذَهبٍ، قال: فوضَعُوهُ في المالِ وهو بالصَّعيدِ[٤]، فأقبلتِ النَّارُ فأكلَتْهُ، فلم تحِلَّ الغنائمُ لأحدٍ مِن قبلِنا؛ ذلكَ بأنَّ اللهَ تباركَ وتعالى رأى ضَعْفَنا وعَجزَنا، فطَيَّبها لنا))[٥].

وعن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ خيبرَ أقبَل نفَرٌ مِن صحابةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: فلانٌ شهيدٌ. فلانٌ شهيد، حتَّى مرُّوا

---

(١) رواه البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم واللفظ له (١٨٣٢).

(٢) بضع امرأة: البُضع يطلَق على عَقْدِ النِّكاحِ والجِماعِ معًا، وعلى الفَرْج. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٣٣)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ٤٣).

(٣) الخَلِفاتُ: جمع خَلِفَة، وهي الحامل من النُّوق. وقيل الخَلِفات: الحواملُ من الإبلِ إلى أنْ يَمضِيَ عليها نِصْفُ أَمَدِها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٨٩).

(٤) بالصَّعيدِ أي: بوَجْه الأرضِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٥٣).

(٥) رواه مسلم (١٧٤٧).

على رجلٍ فقالوا: فلانٌ شهيدٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كلَّا، إنِّي رأيتُه في النَّارِ، في بُردةٍ غلَّها، أو عَباءةٍ، ثمَّ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا ابنَ الخطَّابِ، اذهَبْ فنَادِ في النَّاسِ: إنَّه لا يدخُلُ الجنَّةَ إلَّا المؤمنونَ، قال: فخرَجتُ فنادَيتُ: ألَا إنَّه لا يَدخُلُ الجنَّةَ إلَّا المؤمِنونَ)) [١].

وعن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: ((خرَجْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ خَيبرَ، فلم نَغنَمْ ذهبًا ولا فِضَّةً، إلَّا الأموالَ والثِّيابَ والمَتاعَ، فأهدَى رجلٌ من بني الضَّبيبِ، يُقالُ له: رِفاعةُ بنُ زيدٍ، لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غلامًا، يُقالُ له: مِدعَمٌ، فوَجَّه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى وادي القُرَى، حتَّى إذا كان بوادي القُرَى، بينما مِدعَمٌ يَحُطُّ رَحلًا لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا سهمٌ عائرٌ [٢] فقَتَلَه، فقال النَّاسُ: هَنيئًا له الجنَّةُ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كلَّا، والَّذي نفْسي بيدِه، إنَّ الشَّملةَ الَّتي أخَذها يومَ خَيبرَ من المغانمِ، لم تُصِبْها المَقاسِمُ، لَتَشتَعِلُ عليه نارًا، فلمَّا سَمِعَ ذلك النَّاسُ جاء رجلٌ بشِراكٍ [٣]، أو شِراكَينِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: شِراكٌ من نارٍ، أو: شِراكانِ من نارٍ)) [٤].

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عُقوبةَ الغالِّ، وأنَّه يأتي يومَ القيامةِ بما غَلَّه، ولَمَّا أرادَ أنْ

---

(١) رواه مسلم (١١٤).

(٢) سهم عائر: أي: لا يُدرَى مَن رماه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٦٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٨).

(٣) الشِّرَاكُ: أحد سُيور النَّعْلِ، التي تكون على ظهر القدَم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٦٧- ٤٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٢٩).

(٤) رواه البخاري (٦٧٠٧)، ومسلم (١١٥).

يذكُرَ توفيتَه وجزاءَه، وكان الاقتصارُ على الغالِّ يُوهِم -بالمفهومِ- أنَّ غيرَه من أنواعِ العاملين قد لا يُوفَّوْن- ناسَب أن يأتيَ بلفظٍ عامٍّ جامعٍ له ولغيرِه[١]، فقال:

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ كلَّ نفسٍ تُعطَى يومَ القيامةِ جزاءَ ما عمِلَتْ، كاملًا غيرَ منقوص، فلا يُنقَصُ من حَسناتِهم، ولا يُزادُ في سيِّئاتهم[٢].

الفَوائدُ التربويَّة:

١- الحثُّ على حُسنِ الخُلق واللِّين؛ فثمرة اللِّين هي المحبَّة والاجتماع، وخلافُه من الجَفوةِ والخشونةِ مُؤدٍّ إلى التَّفرُّق؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣].

٢- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ الأخلاقُ الحسنة من الرَّئيس في الدِّين، تجذِبُ النَّاسَ إلى دِين الله، وتُرغِّبُهم فيه، مع ما لصاحبِه من المدحِ والثَّواب الخاصِّ، والأخلاقُ السَّيِّئةُ من الرَّئيسِ في الدِّين تُنفِّر النَّاسَ عن الدِّين، وتُبغِّضُهم إليه، مع ما لصاحبِها من الذَّمِّ والعِقابِ الخاصِّ؛ فهذا الرَّسولُ المعصومُ يقولُ اللهُ له ما يقولُ؛ فكيف بغيره[٤]؟!

٣- يجبُ أنْ يكونَ الاعتمادُ على إعانةِ اللهِ وتَسديدِه وعِصمتِه، وألَّا يكونَ للعبدِ اعتمادٌ على شيءٍ إلَّا على الله تعالى في جَميعِ الأمورِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥١).

٤- ليس التوكُّلُ إهمالَ التَّدبيرِ بالكلِّيَّة، بل بمراعاةِ الأسبابِ الظَّاهرةِ- كالمشاورة- مع تفويضِ الأمرِ إلى الله تعالى، فلا يُعوِّل بقلبه عليها، بل يُعوِّلُ على عصمةِ الله تعالى؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾(١).

٥- ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الآيةُ صريحةٌ في وجوبِ إمضاءِ العزيمةِ المستكمِلةِ لشُروطِها- وأهمُّها في الأمورِ العامَّةِ حربيَّةً كانتْ أو سياسيَّةً أو إداريَّةً: المشاورةُ- وذلك أنَّ نقضَ العزيمةِ ضعفٌ في النَّفسِ، وزلزالٌ في الأخلاقِ، لا يُوثَقُ بمنِ اعتاده في قولٍ ولا عمَلٍ، فإذا كان ناقضُ العزيمةِ رئيسَ حكومةٍ أو قائدَ جيشٍ، كان ظهورُ نقضِ العزيمةِ منه ناقضًا للثِّقةِ بحكومتِه وبجيشِه، ولا سيَّما إذا كان بعد الشُّروعِ في العملِ (٢).

٦- في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أنَّ العزمَ على الفِعلِ وإنْ كان يكونُ بعد الفكرِ، وإحكامِ الرَّأيِ والمشاورةِ، وأخْذِ الأُهْبةِ، فذلك كلُّه لا يَكفي للنَّجاحِ إلَّا بمعونةِ اللهِ وتوفيقِه؛ لأنَّ الموانعَ الخارجيَّةَ له والعوائقَ دونه لا يُحيطُ بها إلَّا الله- تعالى-، فلا بدَّ للمؤمنِ من الاتِّكالِ عليه، والاعتمادِ على حَولِه وقوَّته، مع فعلِ الأسبابِ(٣).

٧- أنَّه يَنبغي على الإنسانِ إذا عزَم على الأمرِ ألَّا يتردَّدَ؛ لأنَّ التَّردُّدَ يُحيِّر الإنسانَ ويوقِعُه في القلقِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧٣).

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- أنَّ التَّفريطَ في حقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام ذنبٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الله لَمَّا أمر نبيَّه بالعفوِ عن حقِّه الخاصِّ قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وهو كذلك؛ فإنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ليس كغيره؛ لأنَّ له حقَّ الإسلام وحقَّ الرِّسالة، ولأنَّه أعظمُ النَّاس حقوقًا علينا؛ فالاعتداءُ في حقِّه أشدُّ من غيره، بل يُكسِبُ الإثمَ[1].

٢- في قولِ الله سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أنَّ المشاورةَ من العباداتِ المتقرَّبِ بها إلى الله[2].

٣- للشُّورى المأمورِ بها في قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ حِكَمٌ وفوائدُ تترتَّبُ عليها، مِن هذه الحِكَمِ:

- ألَّا يَستبدَّ الرَّئيسُ أو وليُّ الأمرِ برأيه.

- كما أنَّ فيها تعويدَ أفراد الأمَّةِ على النَّظرِ في شؤونهم؛ حتَّى يتمرَّنوا ويُمارِسوا هذا الأمْرَ.

- التَّواضُع ممَّن شاور، فلا شكَّ أنَّه إذا شاوَرَ فهو متواضِعٌ.

- تنشيطُ الأمَّة، حيثُ ترى أنَّه يُرجَعُ إليها في الرَّأي، فتنشطُ وتَعملُ ما فيه الخيرُ العامُّ، بخِلافِ ما إذا استبدَّ وليُّ الأمر في رأيه، فإنَّه وإنْ كان صوابًا ربَّما تشمئزُّ النُّفوس منه.

- أنَّه إذا اجتمعتِ الآراءُ مع حُسنِ النِّيَّةِ، فإنَّ الغالبَ أنَّ اللهَ يُوفِّقُهم للصَّوابِ.

- أنَّ الإنسانَ ربَّما يرَى في هذا الأمرِ مصلحةً، ويفُوته ما يَترتَّبُ عليه من مفسدةٍ، لا سيَّما إذا كان له هوًى؛ فإنَّ الهوى كما قيل: يُعمِي ويُصِمُّ، أحيانًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٤).

يكونُ للإنسان هوًى فيرى المصلحةَ، ولا يَرى المفسدةَ في الشَّيء، فإذا حصَل التَّشاورُ تبيَّنتِ المصالحُ من المفاسدِ.

- أنَّ الأمَّةَ إذا اجتمعَتْ على رأيها لم يكُنْ للنَّاسِ اعتراضٌ، ومعلومٌ أنَّ الَّذي يُشاوَر هم أهلُ الأمانةِ، وأهلُ الحَلِّ والعَقدِ والمعرفة(١).

٤- أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعتريه ما يَعتري البشرَ من التَّردُّدِ في الأمور، ووجهُ الدَّلالةِ: أولًا في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾، وثانيًا في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾؛ فإنَّ العزيمةَ قد يسبِقُها تردُّدٌ، كما هو الواقع(٢).

٥- ليسَ في الوجودِ سَببٌ يستقلُّ بحُكمٍ، بل كلُّ سببٍ فهو مُفتقِرٌ إلى أمورٍ أُخرى تُضَمُّ إليه، وله موانعُ وعوائقُ تَمْنَعُ مُوجِبَه، وما ثَمَّ سببٌ مستقلٌّ بالإحداثِ إلَّا مَشيئةُ اللهِ وحْدَه؛ فمَا شاء كان، وما لم يَشأْ لم يكُنْ، وما شاءَ خَلَقَه بالأسبابِ التي يُحدِثُها ويَصرِفُ عنه الموانعَ؛ فلا يجوزُ التوكُّلُ إلَّا عليه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٣).

٦- في قولِ الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أنَّ التَّوكُّلَ من مقتضياتِ الإيمانِ؛ لأنَّه علَّق الحُكمَ على وصفٍ، وهو الإيمانُ، فدلَّ ذلك على أنَّه كلَّما قوِيَ الإيمانُ قوِيَ التَّوكُّلُ على اللهِ، وكلَّما ضعُف الإيمانُ ضعُف التَّوكُّلُ على اللهِ(٤).

٧- الخيانةُ مع كلِّ أحدٍ مُحرَّمةٌ، وتخصيصُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بهذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

الحُرمةِ في قوله تعالى في قِراءة: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ) يُستفادُ منه فوائدُ؛ منها: أنَّ المجنيَّ عليه كلَّما كان أشرَفَ وأعظَمَ درجةً كانت الخيانةُ في حقِّه أفحشَ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أفضلُ البشرِ، فكانتِ الخيانةُ في حقِّه أفحشَ، ومنها: أنَّ الوحيَ كان يأتيه حالًا فحالًا، فمَن خانه فربَّما نزَل الوحيُ فيه، فيحصُلُ له مع عذابِ الآخرةِ فضيحةُ الدُّنيا، ومنها: أنَّ المسلِمين كانوا في غايةِ الفقرِ في ذلك الوقتِ، فكانتْ تلك الخيانةُ هناك أفحشَ [1].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ الفاء للتَّفريعِ على ما اشتمَلَ عليه الكلامُ السَّابقُ الَّذي حُكِي فيه مخالفةُ طوائفَ لأمْر الرَّسولِ من مؤمنين ومُنافِقين، وما حُكِي مِن عفوِ اللهِ عنهم فيما صنَعوا[2].

- وتقديمُ المجرورِ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ مفيدٌ للحصرِ الإضافيِّ، أي: برحمةٍ مِن الله، لا بغَيرِ ذلك من أحوالهم، وهذا القصرُ يُفيدُ التَّعريضَ بأنَّ أحوالَهم كانتْ مستوجِبةً الغِلَظَ عليهم، ولكنَّ اللهَ تعالى ألَانَ خُلُقَ رسولِه، رحمةً بهم؛ لحكمةٍ علِمها اللهُ في سياسةِ هذه الأمَّةِ[3].

- وزِيدَتْ ﴿مَا﴾ بعدَ باءِ الجرِّ؛ لتأكيدِ الجملةِ بما فيه من القَصرِ، فتعيَّن بزيادتها كونُ التَّقديمِ للحصرِ، لا لمجرَّدِ الاهتمامِ[4].

- وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أُسْنِدت الرَّحمةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٤).

المتفضِّلُ بها، ولأنَّ إسنادَها إليه يُفيدُ عظَمتَها، وأنَّها رحمةٌ عظيمةٌ[١].

- ودلَّ فِعلُ المُضيِّ في قوله: ﴿لِنْتَ﴾ على أنَّ ذلك وصفٌ تَقرَّر وعُرِف مِن خُلقِه، وأنَّ فِطرتَه على ذلك برَحمةٍ مِن اللهِ؛ إذ خلَقه كذلك[٢].

٢- قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ فيه تمثيلٌ؛ حيث شُبِّهت هيئةُ النُّفورِ منه، وكراهيةُ الدُّخولِ في دِينه بالانفضاضِ مِن حولِه، أي: الفِرار عنه مُتفرِّقين، وهو يُؤذِنُ بأنَّهم حولَه متَّبِعون له[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ (الفاء) فيه تدُلُّ على التَّعقيبِ المباشِر؛ فهذا يدُلُّ على أنَّه تعالى أوجَب على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَعفوَ عنهم في الحال[٤].

٤- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الجملةُ تعليلٌ للتَّوكُّلِ عليه تعالى[٥]، وهو مِن حُسنِ التَّعليل، كما فيها تأكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ)، واسميَّةِ الجملة[٦].

- وفيه: وضعُ الاسمِ الظَّاهرِ ﴿إِنَّ اللهَ﴾ موضِعَ الضَّمير (إنَّه)؛ لتربيةِ المَهابةِ[٧].

٥- في قوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾:

- جَعَل الجوابَ بقوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ دون أن يقول: (لا تُغلبوا)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٥).

(٦) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٧٠).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للتَّنصيصِ على التَّعميمِ في الجواب؛ لأنَّ عمومَ ترتُّبِ الجزاءِ على الشَّرطِ أغلبيٌّ، وقد يكون جزئيًّا، أي: لا تُغلَبوا مِن بعضِ المغالبين، فأُريد بإفادةِ التَّعميمِ دفعُ التَّوهُّمِ[1].

- قوله: ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِنْ بَعْدِهِ﴾: خبرٌ فيه ترغيبٌ في الطَّاعةِ، وفيما يَستحقُّون به النَّصرَ مِن الله تعالى والتَّأييدَ، وتحذيرٌ من المعصية، وممَّا يستوجِبون به العقوبةَ بالخِذلانِ[2].

- قوله: ﴿فَمَن ذَا الذي يَنصُرُكُم مِنْ بَعْدِهِ﴾: الاستفهامُ إنكاريٌّ، مفيدٌ لانتفاءِ النَّاصرِ ذاتًا وصِفةً بطريق المبالَغةِ[3].

- وفيه تلطُّفٌ بالمؤمنين حتَّى لا يُصرِّحَ لهم بأنَّه لا ناصرَ لهم، بل أبرَز ذلك في صورةِ الاستفهامِ، الَّذي يقتضي السُّؤالَ عن النَّاصرِ، وإن كان المعنى على نفْيِ الناصرِ، لكن فرقٌ بين الصَّريحِ والمُتضمَّنِ، فلم يُجرِ المؤمنين في ذلك مجرى الكفَّارِ، الَّذي نصَّ عليه بالصَّريحِ أنَّه لا ناصرَ لهم؛ كقولِه: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[4] [محمد: ١٣].

- قوله: ﴿وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ؛ لإفادةِ قصرِه عليه تعالى، والفاءُ لترتيبِه، أو ترتيبِ الأمرِ به[5].

- والمرادُ بالمؤمنين إمَّا الجنسُ، والمُخاطَبون داخِلونَ فيه دُخولًا أوَّليًّا، وإمَّا هم خاصَّةً بطريق الالتفاتِ، وعلى كِلا الوجهين فيه تَشريفٌ لهم بعنوانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٣- ١٥٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١١).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦).

الإيمانِ اشتراكًا أو استقلالًا، وتعليلٌ لتحتُّمِ التَّوكُّلِ عليه تعالى؛ فإنَّ وصفَ الإيمانِ ممَّا يوجِبه قطعًا(١).

٦- قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ فيه المبالغةُ في النَّهيِ حيث عبَّر بـ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾، وهي صيغةُ جُحودٍ تُفيد مبالَغةَ النَّفي؛ لأنَّ الغُلولَ أَولى بأن يُبالَغَ فيه(٢).

٧- قوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه تعميمُ الحُكمِ؛ ليكونَ كالبرهانِ على المقصودِ، وللمبالغةِ فيه؛ فإنَّه إذا كان كلُّ كاسبٍ مَجزيًّا بعملِه، فالغَالُّ مع عِظَمِ جُرمِه بذلك أَولى(٣).

- وجِيءَ بأداةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾؛ للدَّلالةِ على طولِ مُهلةِ التَّفضيحِ، فزادَ ذلك في تَعظيمِ يومِ القيامة، وتعظيمِ الجزاءِ فيه(٤).

- وبُني الفِعلُ ﴿تُوَفَّى﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه؛ إظهارًا لعظَمتِه تعالى، على طريقِ كلامِ القادِرين(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٩٣-٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٣).

الآيات (١٦٢ - ١٦٨)

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾
أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ
قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ
يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟
لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بَاءَ بِسَخَطٍ﴾: رجَع، وانْصَرَف بذلك، ولا يُقال (باء) إلَّا بِشَرٍّ، وأصلُه الرجوعُ، يقالُ: باء بكذا، أي رجَع به، وباء إلى المَبَاءَة- وهي المنزلُ- أي رجَع. ومنه قولُهم: باء بذنبه، كأنَّه عاد إلى مباءته محتملًا لذنبه(١).

﴿مَنَّ﴾: أي: أنْعَم وصنَع الصُّنع الجَميل، والمنَّة: النِّعمة الثَّقيلة، وأصل مَنَّ: اصطناعُ الخيرِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٠- ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٢).

﴿يُزَكِّيهِمْ﴾: يُطهِّرُهم من الكُفرِ والمَعاصِي والرَّذائل، وأصل الزَّكاة: النَّماءُ والزِّيادةُ، والطَّهارةُ(١).

﴿أَنَّى﴾: هي كلمةٌ للبَحثِ عن الحالِ والمكان، بمعنى: كيفَ وأينَ؛ لتضمُّنها مَعناهما، وهي هنا بمَعْنى: كيفَ(٢).

﴿تَعَالَوْا﴾: أي: هلُمُّوا، و(تَعالَ)، أصلُه أنْ يُدعَى الإنسانُ إلى مَكانٍ مرتفِعٍ، ثمَّ جُعل للدُّعاءِ إلى كلِّ مكان، وأصله مِن العلوِّ، وهو ارتفاعُ المنزلةِ، فكأنَّه دعا إلى ما فيه رِفعةٌ(٣).

﴿فَادْرَؤُوا﴾: أي: فادْفَعوا، ودَرَأتُ عنه: دفعت عن جانبِه، ودارأتُه: دافَعْته والدَّرْءُ: الميلُ إلى أحدِ الجانبينِ وأصلُه: دفعُ الشيءِ(٤).

المَعنَى الإجماليُّ:

لا يَستوي مَن كان مبتغاه رِضا اللهِ تعالى، ويَسعى لذلك، ومَن هو واقعٌ في معاصي الله، راجعٌ بسَخَطِه وغَضَبِه، ومَصيرُه جهنَّمُ، وبئس المصيرُ، وكِلا الفريقين مراتبُ متفاوتةٌ، فمَنِ ابتغَوْا رضوانَ الله درجاتٌ مختلفةٌ في العُلوِّ، ومَن باؤوا بسَخَطِ الله دركاتٌ متفاوتةٌ في السُّفولِ، واللهُ مطَّلعٌ على كلِّ ما يعملُه عبادُه، وسيُجازيهم عليه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢-٣١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦-٢٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٤).

ثمَّ أخبرَ تعالى أنَّه أنعَمَ على أهلِ الإيمانِ بإرسال محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم من جنسِهم البَشريِّ، يَقرأ عليهم القُرآنَ، ويُطهِّرُهم من الشِّركِ والمعاصي والأخلاقِ الرَّذيلةِ، ويُعلِّمُهم معانيَ القرآنِ، والسُّنَّة النَّبويَّة، وقد كانوا من قَبلِ أن يَأتيَهم في ضلالٍ واضحٍ.

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى للمُؤمنين: أحِينَ أَصابَتْكم المصيبةُ يومَ أُحُدٍ بقَتْلِ سبعين منكم، وأنتُم قد أوقعتُم بعَدوِّكم ضِعفَيْها بقتلِ سبعينَ منهم، وأَسْرِ سبعينَ، أعندَ ذلك تَتساءَلون: مِن أين أصابَنا ما أصابَنا، وكيف وقَعَتْ علينا هذه المصيبةُ، فأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لهم: إنَّ ما حَلَّ بكم سببُه من أنفسِكم، حين حصَلَ مِن بعضِكم التَّنازُعُ فيما بينهم، وعصَوْا أمرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واللهُ تعالى على كلِّ شيءٍ قادرٌ.

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ تعالى المؤمنين أنَّ ما أصابَهم يومَ أُحُدٍ يوم الْتَقى جَمْعُ المسلمين بجَمْعِ المشركين، إنما هو بقَضاءِ الله وقدَرِه، وليَمِيزَ سبحانه المؤمنين، ويمِيزَ أيضًا المنافقين الَّذين هم في صُفوفِ المسلمين، وقد اتَّضَح أمرُهم حين دُعوا للقتالِ في سبيلِ الله، أو من أَجْلِ الدَّفعِ عن البلاد ومَن فيها، فما كان منهم إلَّا أنِ اعتذروا بعُذرٍ قبيحٍ؛ حيث قالوا: إنَّهم لو يعلَمون أنَّه ستكونُ مواجهةٌ بين المسلِمين والمشركين لخرجوا مع المسلِمين، لكنَّهم لا يرَوْن أنَّ هذا سيحصُلُ، فأخبر تعالى أنَّ المنافقين كانوا في تلك الحالِ أقرَبَ إلى الكفرِ منهم إلى الإيمانِ، يُضمِرون في أنفسِهم خلافَ ما يُظهِرونه، واللهُ سبحانه مطَّلِعٌ على كلِّ ما يُخفونه.

هؤلاءِ المنافقون الَّذين تخلَّفوا عن الجِهادِ مع المسلمين قالوا: لو أنَّ قرابتَنا الَّذين قُتِلوا في المعركةِ أَخَذوا بمشورتِنا؛ بترْكِ الخروج للقتال لم يُقتَلوا، فأمَرَ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ لهم: فادْفَعوا الموتَ عن أنفسِكم

إنْ كنتُم صادقين في أنَّهم لو أطاعوكم ما كانوا قُتِلوا.

تَفسيرُ الآيات:

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أتبَعَه بتفصيلِ هذه الجملة، وبيَّن جزاءَ المُطيعينِ ما هو، وجزاءَ المُسيئين ما هو[١].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه لا يقعُ يومَ القيامة ظُلمٌ أصلًا، تسبَّبَ عنه الإنكارُ على مَن حدَّثَتْه نفسُه بالأمانيِّ الكاذبة، فظنَّ غيرَ ذلك من استواءِ حالِ المُحسِنِ وغيرِه، أو فعَل فعلًا وقال قولًا يؤدِّي إلى ذلك؛ كالمُنافِقين وكالمُقبِلين على الغنيمةِ[٢]، فقال تعالى:

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)﴾.

أي: هل مَن تَرَكَ الغُلولَ، وانتهى عن غيرِه مِن المعاصي، وعَمِل بطاعةِ الله تعالى، قاصدًا بذلك نَيْلَ رضا الله سبحانه، هل هو كالَّذي رجَع متحمِّلًا غضَبَ اللهِ عزَّ وجلَّ عليه بوقوعِه في العِصيانِ، أو بترْكِ طاعةِ الرَّحمن، فاستحقَّ بذلك الإقامةَ في جَهنَّمَ، وما أسوأَه مِن مصيرٍ يُرجَع إليه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٣-١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٩٣-٣٩٤).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وقال سبحانه: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)﴾.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ للمتَّبعين رِضوانَ اللهِ تعالى مراتبَ متفاوتةً في العلوِّ، كما أنَّ لِمَن باؤوا بسَخَطِ اللهِ سبحانه دَركاتٍ متفاوتةً في السُّفولِ [(١)].

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى مطَّلعٌ على كلِّ ما يعمَلُه عبادُه؛ من طاعةٍ أو معصيةٍ، لا يَخفَى عليه شيءٌ من ذلك، وهو حافِظٌ لأعمالهم، وسيُجازي كلًّا منهم بحسَبِها [(٢)].

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا فصَّل اللهُ تعالى أحوالَ النَّاسِ بدأ بالمؤمنين، فذكر ما امتَنَّ عليهم به [(٣)]، فقال:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٩٨-٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١٥).

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد أنعَمَ على عِبادِهِ المؤمنين؛ بأنْ أرسَلَ إليهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من جِنسِهم البشريِّ، فيَألَفونَه ويَفهمون خِطابَه، ويَتمكَّنون من مجالستِه والتَّحدُّثِ إليه(١).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥].

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: يقرَأُ عليهم القُرآنَ، ويأمُرُهم بكُلِّ خيرٍ، ويَنهاهم عن كلِّ شرٍّ، حتَّى تطهُرَ نفوسُهم من دَنَسِ الشِّركِ والمعاصي، ورذائلِ الأخلاقِ(٢).

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

أي: ويُعلِّمهم معانيَ القرآنِ الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة(٣).

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

أي: إنَّ المؤمنين كانوا قَبل بِعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم مُنغمِسينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تيمية (١/ ٢٢٦-٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٠٥-٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨).

في جاهليَّةٍ جَهلاءَ، وحيرةٍ عَمياءَ، وانحرافٍ واضحٍ عن طريق الهُدى[1].

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)﴾.

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾.

أي: أحِينَ حلَّت بكم مُصيبةُ غزوةِ أُحُدٍ بقتلِ سبعينَ رجلًا منكم، مع أنَّكم نِلتُم قبلها في بَدْرٍ ضِعْفَيْ ما نالوا منكم عددًا، بقَتلِ سبعينَ، وأَسْرِ سَبعينَ آخَرين، أحينَها تقولون: مِن أين جرَى علينا هذا الأمرُ، وكيفَ حلَّتْ بنا هذه الكارثةُ[2]؟!

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾.

أي: قُل- يا محمَّدُ- للمؤمنين: هذه المصيبةُ الَّتي وقعتْ عليكم في أُحُدٍ إنَّما كنتُم أنتم أنفسُكم السببَ فيها، وذلك حينَ تنازَع بعضُكم فيما بينهم، وعصَوْا أمرَ رسولِهم عليه الصَّلاة والسَّلام[3].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى قادرٌ على جميعِ الأشياء، ومِن ذلك: إيقاعُ العقوبةِ بكم أيُّها المؤمنون، كما حدَث في غزوةِ أُحُدٍ، ومِن ذلك أيضًا: قدرتُه على نصرِكم، فلا تظنُّوا بالله تعالى غيرَ الحقِّ، وإنَّما قدَّر ما قدَّر عليكم في أُحُدٍ مِن الهزيمةِ والإصابةِ بالقَتْلِ والجِراحِ لحِكمتِه سبحانه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٠٨-٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٣-٤١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٤).

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كانتْ نسبةُ المصيبةِ إليهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ربَّما أوهَمَتْ أنَّ بعضَ الأفعالِ خارجٌ عن مُرادِه تعالى[١]- قال تعالى:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الَّذي وقَع عليكم- أيُّها المؤمنون- من القَتْلِ والجِراحِ والهزيمةِ يومَ الْتَقيتُم أنتم والمشرِكون بأُحُدٍ، إنَّما وقَع بقَضاءِ الله تعالى وقدَرِه[٢].

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ ما أصابَكم يومَ أُحُدٍ كان لأجلِ تَمييزِ المؤمنين الَّذين صبَروا وثبَتوا مِن غيرهم[٣].

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١١٨).

وقيل: (عطف على قولِه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وهو كلامٌ واردٌ على معنى التَّسليمِ، أي: هَبُوا أنَّ هذه مصيبةٌ، ولم يكُنْ عنها عِوَضٌ، فهي بقدرِ الله، فالواجبُ التَّسليمُ، ثم رجع إلى ذِكر بعضِ ما في ذلك مِن الحكمةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

أي: إنَّ ما أصابكم يومَ أُحُدٍ- أيُّها المؤمنون- كان أيضًا لأجْلِ تمييزِ المُنافِقين المندَسِّين بين المسلِمين، الَّذين لَمَّا دُعوا للقِتالِ في سبيل الله عزَّ وجلَّ يومَ أُحُدٍ، أو لأَجْلِ دفْعِ العدوِّ عن البلادِ والعبادِ، امتنَعوا عن المشاركةِ مُتعلِّلين بعُذرٍ قبيحٍ، وقائلين بكَذِبٍ صريحٍ: لو نعلَمُ أنَّكم تُقاتِلون لَسِرْنا معكم، ولكن لا نَرَى أنَّه سيكونُ بينكم وبينَ المشركين قتالٌ(١).

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

أي: إنَّ أولئك المنافِقين كانوا في تِلك الحالِ الَّتي امتنَعوا فيها عن مشاركةِ المسلِمين في قِتالِ المشركين، كانوا أقرَبَ إلى الكفرِ من الإيمانِ(٢).

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: مِن صِفاتِهم أنَّهم يقولون خلافَ ما يُضمِرون في أنفسِهم(٣)، ومن ذلك قولُهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]؛ فإنَّهم قد علِموا وقوعَ القتالِ(٤).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى أعلمُ مِن غيرِه بما يكتُمُه هؤلاء المنافِقون، وهو مطَّلعٌ عليه، ومُظهِرُه للمؤمنين، وسيُجازيهم به(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٠-٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢٢-٤٢٣).

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

أي: إنَّ أولئك المنافقين الَّذين قعَدوا عن الجِهادِ مع المسلِمين، قالوا: لو سمِع مَن قُتِل مِن قَراباتِنا بأُحُدٍ مشورتَنا بتَركِ الخروج للقتال- لَمَا قُتلوا هنالك؛ اعتراضًا منهم على قضاءِ اللهِ تعالى وقدَرِه، وطعنًا منهم في طاعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّذي أمَر بالخروجِ[1].

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: قُلْ - يا محمَّدُ- للقائلين بتلك المقالةِ مِن المُنافِقين: امنَعوا وقوعَ الموتِ عليكم بالقعودِ عن القتالِ، إنْ كنتم صادقين في قولِكم بأنَّ المرءَ يَسلَمُ مِن القتلِ بالقُعود عنه[2].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- لا يَستوي مَن كان قَصْدُه رِضوانَ ربِّه، والعملَ على ما يُرضيه، ومَن ليس كذلك، ممَّن هو مُكِبٌّ على المعاصي، مُسخِطٌ لربِّه؛ هذان لا يَستويانِ في حُكمِ اللهِ، وحِكمة الله، وفي فِطَرِ عبادِ الله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]؛ ولهذا قال هنا: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾[3].

٢- اللُّجوءُ إلى الله تعالى بطلبِ التَّثبيتِ منه على الإيمان؛ لأنَّه إذا كان هو المانَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٥-٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٠-١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٥).

به، فهو الَّذي يملِكُ ثُبوتَه وزوالَه؛ فارجِعْ إليه، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

٣- الخِذلانُ والانهزامُ إنَّما يَحصُلُ بشُؤمِ المعصية؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(٢).

٤- مِن المستحسَنِ أن يُذَكَّر الإنسانُ بما يُهوِّنُ المصيبةَ عليه؛ لقوله: ﴿أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾(٣).

٥- أنَّه يَنبغي لِمَن أجابَ غيرَه أنْ يُجيبَه بما يمنَعُ احتجاجَه؛ لقوله: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أنتم السَّبب(٤).

٦- تَسليةُ المؤمنِ بقضاءِ الله وقدرِه؛ لقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّ المؤمِنَ إذا علِم أنَّه مِن عندِ الله رضِيَ وسلَّم(٥).

٧- أنَّ اللهَ تعالى قد يُقدِّرُ على عبدِه المؤمنِ ما يَكرَهُه لحِكَمٍ عظيمة؛ لقوله: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٦).

٨- أنَّه يَنبغي للإنسانِ أن يَحترسَ في الحُكمِ، وألَّا يُطلِقَه؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ﴾، فربَّما يُغيِّرُ اللهُ تعالى حالَ قومٍ، فيكون الإيمانُ إليهم أقربَ، فيَنبغي التقييدُ عند الحُكْم على شخصٍ(٧).

٩- في قوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ أنَّ الموتَ يُصيبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٨).

المجاهِدَ والقاعِد، والشُّجاعَ والجَبان، ولا يَردُّه حِرصٌ ولا حَذرٌ، ولا يُؤجِّله جُبنٌ ولا قُعود، والواقعُ هو البرهانُ الذي لا يَقبل المِراءَ، وهذا الواقعُ هو الذي يَجبَهُهم به القرآنُ الكريم، فيردُّ كَيدَهم اللَّئيم، ويقرُّ الحقَّ في نِصابِه، ويُثبِّتُ قلوبَ المسلمين، ويَسكُب عليها الطُّمأنينةَ والرَّاحةَ واليقين[1].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- تَتضاعفُ المِنَّةُ بأن يكونَ هذا الرَّسولُ من أنفُسِهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فلم يقُلْ: (منهم)؛ لأنَّ الصِّلةَ بين المؤمنين والرَّسولِ هي صلةُ النَّفسِ بالنَّفس، لا صلة الفرد بالجنس[2].

٢- في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، لم يُعيِّنِ اللهُ تعالى السَّببَ ما هو؛ لُطفًا بالمؤمنين في خطابِه تعالى لهم[3].

٣- أنَّ الإنسانَ تتغيَّرُ أحوالُه، فيكون في حالٍ أقرَبَ إلى الإيمانِ من الكفرِ، وفي حالٍ أخرى بالعكس؛ لقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾، واستدَلَّ بعضُ العُلماءِ بهذه الآيةِ على زِيادةِ الإيمانِ ونُقصانِه[4].

٤- التَّنديدُ بهؤلاء الَّذين جمَعوا بين قُبحِ الفعل وقُبحِ القول، يُؤخَذُ مِن قوله: ﴿قَالُوا﴾، ﴿وَقَعَدُوا﴾ قُبْحُ الفِعلِ من كونهم قعَدوا، وقُبحُ القولِ مِن قولِهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣٠).

٥- أنَّه لا يُمكِنُ درءُ الموتِ؛ لأنَّ ما وقَع التَّحدِّي به فإنَّه لا يمكِنُ وقوعُه؛ إذ لو أمكَن وقوعُه لم يكُنْ للتَّحدِّي به فائدة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

- قوله: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ﴾: همزةُ الاستفهامِ للإنكارِ؛ فالاستفهامُ إنكاريٌّ معناه النَّفي، أي: ليسَ مَن اتَّبع رِضا الله؛ فامتثَل أوامرَه، واجتنبَ مناهيَه، كمَن عصاه فباءَ بسَخَطِه(٢).

- وقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ في موضعِ الإضمارِ؛ لإدخالِ الرَّوْعةِ، وتربيةِ المهابةِ(٣).

- وقوله: ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾: فيه تمثيلٌ لحالِ صاحبِ المعاصي بالَّذي خرَج يَطلُبُ ما يَنفَعُه فرجَع بما يضُرُّه، أو رجَع بالخَيبةِ(٤).

٢- قوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ للدَّلالةِ عليه، أي: وبئس المصيرُ جهنَّمُ(٥).

٣- قوله: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فيها تَشبيهٌ بليغٌ؛ حيث جعَلَهم الدَّرجاتِ نفسَها؛ للمبالَغةِ في إظهارِ التَّفاوُتِ لِمَا بينهم في الثَّوابِ والعقابِ(٦)، وتقدير

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٩٤).

الكلام: لهم درجاتٌ عند الله، إلَّا أنَّه حسُنَ هذا الحَذفُ؛ لأنَّ اختلافَ أعمالِهم قد صَيَّرهم بمنزلةِ الأشياءِ المختلفةِ في ذواتها(١).

٤- قوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ خُصَّ العملُ دون القولِ؛ لأنَّ العملَ يَشملُ عملَ القَلْبِ واللِّسانِ والجوارحِ، والتُّروكَ(٢).

٥- قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تأكيدٌ باللام الَّتي هي جوابٌ لقَسَمٍ محذوفٍ، و(قَدْ) الَّتي تُفيد التَّحقيقَ، والكلامُ مُستأنَفٌ مسُوقٌ لتأكيد نزاهةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانِ خَطإِ الَّذين نَسَبوا إليه الغُلولَ(٣).

٦- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

- قوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ﴾: استفهامٌ يُرادُ به الإنكارُ؛ لإفادة التَّقريرِ والتَّقريع(٤).

- قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾: الاستفهامُ للتَّقريعِ والتقريرِ، وتذكيرُ اسمِ الإشارةِ (هذا) في ﴿أَنَّى هَذَا﴾ مع كونِه إشارةً إلى المصيبة، ليس لكونِها عِبارةً عن القتلِ ونحوِه، بل لأنَّ إشارتَهم ليستْ إلَّا إلى ما شاهَدوه في المعركةِ من حيثُ هو هو، مِن غيرِ أنْ يَخطُرَ ببالِهم تسميتُه باسمٍ ما، فَضلًا عن تسميتِه باسمِ المصيبةِ، وإنَّما هي عند الحِكايةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشعراوي)) (٣/ ١٨٤٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٨-١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦١).

- قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾: إجابةٌ فيها إنكارٌ وتقريعٌ، وتبكيتٌ لهم[١].

- قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: الجُملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها، داخلٌ تحت الأمرِ للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

- وفيها: توكيدُ الخبرِ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ، وتقديم ما حقُّه التَّأخيرُ ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣].

٧- قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ فيه: تكرار فِعل (يَعْلَم)[٤]، وهو يُفيدُ التَّأكيدَ.

- ولفظة ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيها دَلالةٌ على كونهم مُستقرِّين على إيمانِهم، متثبِّتين فيه؛ فالاسمُ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدُلُّ على تأكيدِ المعنى، وأمَّا لفظ ﴿نَافَقُوا﴾ في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ فيدُلُّ على كونِهم إنَّما شرَعوا في الأعمالِ اللَّائقةِ بالنِّفاقِ في ذلك الوقتِ[٥].

٨- قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ذِكرُ الأفواهِ مع القلوبِ تصويرٌ لنِفاقهم، وأنَّ إيمانَهم موجودٌ في أفواهِهم، مَعدومٌ في قلوبِهم[٦].

٩- قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ عبَّر بصيغةِ التَّفضيلِ ﴿أَعْلَمُ﴾؛ لأنَّ بعضَ ما يكتُمونه مِن أحكامِ النِّفاقِ وذمِّ المؤمنين، وتَخطئةِ آرائِهم، والشَّماتةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٢٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٣).

بهم وغيرِ ذلك، يعلَمُه المؤمنون على وجْهِ الإجمالِ[١].

١٠- قوله: ﴿قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أمرٌ غرَضُه الاستهزاءُ بهم، أي: إنْ كنتُم رِجالًا دفَّاعين لأسبابِ الموت، فادرَؤوا جميعَ أسبابِه حتَّى لا تموتوا[٢].

- وفيه مِن البيانِ: ما يُعرَفُ بـ(الاحتِجاج النَّظَريِّ)[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).

وقال أبو حيَّان: (هذا النَّوعُ عند علماءِ البيانِ يُسمَّى: الاحتجاجَ النَّظريَّ، وهو: أن يذكُرَ المُتكلِّمُ معنًى يستدلُّ عليه بضروبٍ من المعقولِ، نحو: ﴿وَلَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]... وبعضُهم يُسمِّيه: المذهبَ الكلاميَّ). ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٥- ٣٩٦).

الآيات (١٦٩ - ١٧١)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يفرَحون، أو يَنالون البُشرى، والاستبشارُ: السُّرورُ بالبِشارة، وأصلُ الاستبشارِ: ظُهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجمالٍ[١].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يظُنَّ أنَّ مَن قُتِل مِن أصحابِه يوم أُحُدٍ، وهم كُثُرٌ، ميِّتون لا يَشعُرون، بل هم أحياءٌ حياةً خاصَّةً عند الله عزَّ وجلَّ، قَريبون منه، يَتنعَّمون في دارِ كرامتِه مِن رِزقِه الواسعِ، مَسرورين بما أعطاهم اللهُ تعالى ممَّا تفضَّلَ به عليهم من النَّعيمِ العظيمِ، فَرِحين بإخوانِهم الَّذين ما زالوا أحياءً يُقاتِلون في سبيل الله؛ بأنَّهم إذا استُشهِدوا سيَلحَقون بهم دون أن يُصيبَهم خوفٌ ولا حُزْنٌ، فَرِحين أيضًا بما أكرَمهم اللهُ تعالى به من النَّعيمِ، والفضلِ العَميمِ، واللهُ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنين.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضِي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لَمَّا أُصيبَ إخوانُكم بِأُحُدٍ، جَعَل اللهُ أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خُضرٍ، تَرِدُ أنهارَ الجنَّة، وتأكُلُ مِن ثمارِها، وتَأوي إلى قَناديلَ مِن ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ، فلمَّا وجَدوا طِيبَ مأكلِهم ومَشرَبِهم ومَقيلِهم[١]، قالوا: مَن يُبلِّغُ إخوانَنا عنَّا أنَّا في الجنَّةِ نُرزَقُ؛ لئلَّا يَزهَدوا في الجِهَاد، ولا يَنكُلوا[٢] في الحربِ؟ فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا أُبلِّغُهم عنكم، فأَنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾))[٣].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿قُتِلُوا﴾ قِراءتان:

١- (قُتِّلُوا)- بالتَّشديد- وتعني التَّكثيرَ، أي: قُتِل كثيرٌ منهم[٤].

---

(١) مقيلهم: أي مأواهم ومستقرهم. يُنظر: ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (٧/ ١٤٠).

(٢) ولا يَنكُلوا: أي: لا يَجبُنُوا ولا يَضعُفوا،ولا يَمتنِعوا عن الإقدامِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٨٣٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٦).

(٣) رواه أبو داود (٢٥٢٠)، وأحمد (٢٣٨٨)، و أصلُه في مسلم (١٨٨٧).من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه

حسَّنه ابنُ القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٤/٣٣٨)، وصحَّحه ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٧/ ٤٠٣)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٢٣)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥٢٠).

(٤) قرأ بها ابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٤).

٢- ﴿قَتِلُوا﴾- بالتَّخفيف- وتحتَمِلُ التَّقليلَ والتَّكثيرَ، أي: تَعني قُتِل قليلٌ منهم، أو قُتِل كثيرون[١].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾.

أي: لا تظُنَّنَّ- يا محمَّدُ- أنَّ الشُّهداءَ الَّذين قُتِلوا في جِهادِ أعداء الدِّين- كأصحابِك الَّذين قُتِلوا في أُحُدٍ- أمواتًا لا يَشعرون بشيءٍ، ولا يتمتَّعون ويتنعَّمون[٢].

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

أي: هُمْ على خِلافِ ذلك؛ فهم أحياءٌ حياةً خاصَّةً عند الله عزَّ وجلَّ في دارِ كرامتِه، وبالقُربِ منه سبحانه، مُتنعِّمين في رِزقِ الله تعالى الواسِعِ[٣].

عن مَسروقِ بنِ الأجدَعِ قال: ((سَأَلْنا عبدَ اللهِ (هو ابنُ مسعودٍ) عن هذه الآيةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أمَا إنَّا سألْنا عن ذلك، فقال: أرواحُهم في جَوفِ طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعرشِ، تَسرَحُ من الجنَّةِ حيث شاءَتْ، ثمَّ تَأوي إلى تلك القناديلِ، فاطَّلَع إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتَهون شيئًا؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نَشتهي ونحن نَسرَحُ من الجنَّةِ حيثُ شِئْنا؟ ففعَل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ، فلمَّا رأَوْا أنَّهم لن يُترَكوا مِن أن يُسأَلوا، قالوا: يا ربِّ، نُريدُ أن ترُدَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتَّى نُقتَلَ في سَبيلِك مرةً أخرى، فلمَّا رأى أنْ ليسَ لهم حاجةٌ تُرِكوا))[٤].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٢٧-٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٤) رواه مسلم (١٨٨٧).

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ الشُّهداءَ الَّذين قُتِلوا في سَبيلِ الله تعالى، وهم أحياءٌ عنده، مَسرورون بما منَحهم اللهُ تعالى إيَّاه، مِن النَّعيمِ المبهِجِ، والمُتعةِ العظيمةِ، جُودًا وكرَمًا منه سبحانه(١).

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الشُّهداءَ مَسرورون أيضًا بإخوانِهم الَّذين ما زالوا أحياءً في عالَم الدُّنيا يُجاهِدون في سبيلِ الله تعالى؛ فإنَّهم إذا استُشهِدوا لحِقوا بهم، دون أن يُصيبَهم خوفٌ من أيِّ أمرٍ مستقبلٍ، أو حُزنٍ على أيِّ أمرٍ قد مضى، بل هم آمِنون دائمًا، وفَرِحونَ أبدًا(٢).

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

أي: إنَّ الشُّهداءَ يَفرَحون بما حَباهم اللهُ تعالى مِن النَّعيمِ العَظيم، وبما أَسبَغَ عليهم مِن جزيلِ ثوابِه الكريم، وزِيادةِ إحسانِه العميم(٣).

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ قِراءتان:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٧-٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٧).

١- (وَإِنَّ) بكسرِ الهمزةِ، فتكون الجملةُ مُستأنَفةً[1].

٢- ﴿وَأَنَّ﴾ بفتحِ الهمزة على أنَّ قولَه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾[2]، وهذا يَعني أنَّ الشُّهداءَ يستبشرون أيضًا بأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنين[3].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد حَفِظ لأولئك الشُّهداءِ ما قدَّموه مِن الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وأعطاهم على ذلك أُجورَهم مِن فَضلِه سبحانه، وهكذا كلُّ مؤمنٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُثيبُه على ما قدَّم[4].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- دُخولُ الجنَّةِ فَضلٌ مِن الله تعالى على أهلِها، لا بَعملِ أحدٍ، نستفيدُ ذلك من قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ولو شاءَ تعالى لَحاسَبَهم على سبيل العَدلِ، ولو فعَلَ ذلك لم يكُنْ لهم شيءٌ؛ لأنَّ أعمالَهم مِن نِعَمِه تعالى عليهم[5].

---

(١) قرأ بها الكِسَائِيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨١).

(٢) ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٨٧).
وفيه أنَّها قُرئت بالفتحِ عطفاً على قولِه: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ لأنَّها بتأويلِ مصدرٍ أي: يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ منه، وعدمِ إضاعةِ اللهِ أجرَ المؤمنين.

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٢١، ١٢٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، الحثُّ على فرَحِ الإنسانِ بصَلاحِ أحوالِ إخوانِه في اللهِ[١].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآيات، إثباتُ نعيمِ البرزخ[٢].

٢- أنَّه يصحُّ نفيُ الشَّيءِ باعتبارٍ، لا نفيًا مطلقًا؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾؛ فإنَّ نفيَ كونِهم أمواتًا هنا يُرادُ به الموتُ الَّذي حصَل فيه العدَمُ بلا فائدةٍ، وبدون ثوابٍ[٣].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فيه فضلُ الشَّهداءِ؛ فهُم عندَ ربِّهم يُرزَقونَ، وحياتُهم أكملُ مِن حياتِهم في هذه الدُّنيا، وأتمُّ وأطيبُ، وإنْ كانتْ أجسادُهم متلاشِيَةً، ولحومُهم متمزِّقةً، وأوصالُهم مُتفرِّقةً، وعِظامُهم نَخِرةً[٤].

٤- أنَّ هؤلاءِ الشُّهداءَ لهم شعورٌ؛ لقوله: ﴿فَرِحِينَ﴾؛ لأنَّ الفرَحَ مِن الشُّعورِ النَّفسيِّ[٥].

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾؛ عقَّبَ هذا الجزاءَ والحُكمَ لذلك الوصفِ والعملِ بحَرْفِ الفاء، وهي تُفيد السببَ، فدلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٣).

ذلك على أنَّ ذلك التوكُّلَ هو سببُ هذا الانقلابِ بنعمةٍ مِن اللهِ وفضلٍ، وأنَّ هذا الجزاءَ جَزاءٌ على ذلك العملِ(١).

٦- إسنادُ النِّعمةِ إلى مُسْدِيها، وهو اللهُ جلَّ جلالُه؛ فهم لا يرَوْن لأنفسِهم فضلًا، بل يرَوْن المِنَّةَ والفضلَ لله عليهم؛ ولهذا قال: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾(٢).

٧- عِظَمُ النِّعمةِ الَّتي يُعطَوْنَها، ووجهُه أنَّ اللهَ أضافها إليه، وإضافةُ العطاءِ إلى اللهِ يدُلُّ على عظَمتِه. قال تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾(٣).

٨- إثباتُ عدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وذلك بعدمِ إضاعتِه أجرَ المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾:

- قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: في التَّعرُّضِ لعنوان الرُّبوبيَّةِ المنبئةِ عن التَّربيةِ، والتَّبليغِ إلى الكمال، مع الإضافةِ إلى ضميرِهم: مزيدُ تكرمةٍ لهم(٥).

- قول الله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قَدَّم صِفةَ الظَّرفِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ على صِفةِ الجملة ﴿يُرْزَقُونَ﴾؛ لأنَّ المعنى في الوصف بالزُّلفى عند اللهِ والقُربِ منه أشرفُ من الوصفِ بالرِّزقِ(٦).

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٢٩).

- قوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾: فيه تأكيدٌ لكونِهم أحياءً، ووصفٌ لحالهم الَّتي هم عليها من التَّنعُّمِ برزقِ الله[1].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ...﴾ التعبيرُ بصِيغةِ المضارعِ؛ لإفادةِ التجدُّد؛ للدَّلالة على تَجدُّد الاستبشارِ حينًا بعد حِينٍ[2].

٣- قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ كُرِّر الفِعلُ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ للتَّأكيدِ، ولبيانِ أنَّ الاستبشارَ المذكورَ ليس بمجرَّدِ عدمِ الخوفِ والحزنِ، بل به وبما يُقارِنُه من نعمةٍ عظيمةٍ، لا يُقادَرُ قَدْرُها، وهي ثوابُ أعمالِهم[3].

وقيل: ليس هناك تَكرارٌ؛ لأنَّ الاستبشارَ هو الفرحُ التَّامُّ، فلعلَّ المرادَ حُصولُ الفرَحِ بما حصَل في الحالِ، وحُصولُ الاستبشار بما عرَفوا أنَّ النِّعمةَ العظيمةَ تحصُلُ لهم في الآخرةِ[4].

- قول الله تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ فيه جاء التعبيرُ بالتَّنكيرِ، دَلالةً على بعضٍ غيرِ مُعيَّنٍ، وإشارةً إلى إبهام المرادِ؛ تعظيمًا لأمرِه، وتنبيهًا على صعوبةِ إدراكِه، كما جاء في الحديثِ أنَّ فيها: ((ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ))[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٩ - ٤٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٣٩ - ٤٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٤).

والحديث رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- قوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه تأكيدٌ[١]، وقدَّم الضَّمير (هم) إشارةً إلى اختصاصِهم بانتفاءِ الحُزن، وأنَّ غيرَهم يحزنُ[٢]، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفاءِ الخوفِ والحَزَنِ، لا بيان انتفاءِ دوامِهما، كما يُوهِمه كونُ الخَبرِ في الجملةِ الثَّانيةِ مُضارعًا؛ فإنَّ النَّفيَ وإن دخَل على نفس المضارعِ يُفيدُ الدَّوامَ والاستمرارَ بحسَب المقامِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١/ ٢٤١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٢).

الآيات (١٧٢ - ١٧٦)

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين امتثلوا أمْرَ الله وأمرَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعد غزوةِ أُحُدٍ مباشرةً؛ بأنْ بادَروا بالاستعدادِ للقِتال مرةً أخرى، على ما بهم مِن آلامٍ جسديَّةٍ نتيجةَ الجِراح، وآلامٍ نَفسيَّةٍ بسببِ ما وقَع من قتْلٍ وهزيمة، للذين أحسنوا مِن هؤلاء عند الله أجرٌ عظيم. هؤلاء لم يُرْهِبْهم تَخويفُ بعضِ النَّاس لهم بأنَّ كفَّارَ قُرَيشٍ استعدُّوا للكَرَّة عليهم، وأنَّهم لا يَستطيعون مواجهتَهم، وما زادهم ذلك التخويفُ إلَّا إيمانًا ويقينًا، وقالوا: حسبُنا اللهُ ونِعمُ الوكيلُ، فرجَعوا من مَنطقةِ (حَمْراء الأسد)، وكانوا خرَجوا إليها لمدافَعةِ المشركين، رجَعوا بنعمةٍ مِن الله وفضلٍ، لم ينَلْهم أيُّ أذًى مِن أعدائِهم، واتَّبَعوا ما يُرضِي اللهَ تعالى باستجابتِهم لله ولرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واللهُ ذو الفَضلِ العظيمِ.

ثمَّ يُخبِرُهم تعالى أنَّ ذلك المخوِّفَ لكم هو الشَّيطانُ، يُريد أنْ يزرَعَ في قلوبكم الخوفَ من أوليائِه، الَّذين هم المشركونَ، ثمَّ نهاهم سبحانه عن الخَوفِ من المشركين، وأمَرهم بالخوفِ مِن اللهِ وحْده، إنْ كانوا مُؤمِنينَ.

ثمَّ يَنهَى اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الحزنِ بسبب الَّذين يسارعون في الكُفرِ ويتوغلون فيه؛ فهؤلاءِ لن يضُرُّوا اللهَ شيئًا بكفرِهم، وإنَّما يُريدُ اللهُ بمسارعتِهم في الكُفرِ ألَّا يجعَلَ لهم أيَّ حظٍّ من نعيمِ الآخِرة، ولهم العذابُ العظيم.

تَفسيرُ الآيات:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذمَّ المنافقين برُجوعِهم من غيرِ أنْ يُصيبَهم قرحٌ، ومدَحَ أحوالَ الشُّهداءِ- ترغيبًا في الشَّهادة- وأحوالَ مَن كان على مِثل حالِهم- ترغيبًا في النَّسج على منوالهم- وختَم بتعليق السَّعادةِ بوصف الإيمان، أخَذ يَذكُرُ ما أثمَر لهم إيمانُهم؛ من المبادَرةِ إلى الإجابةِ إلى ما يَهديهم إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إشارةً إلى أنَّه لم يَحمِلْ على التَّخلُّفِ عن أمْرِه مِن غيرِ عُذرٍ إلَّا صريحُ النِّفاقِ[١].

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا انصَرَفَ المشرِكون عن أُحُدٍ وبلَغوا الرَّوحاءَ[٢]، قالوا: لا محمَّدًا قتلتموه، ولا الكواعبَ أردَفْتُم[٣]، وبِئسَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٢٣).

(٢) الرَّوحاءُ: مَوضِعٌ بينَ مكَّة والمدينة، يَبعُد ما بين ثلاثينَ وأربعينَ مِيلاً من المدينة. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٧٦٤).

(٣) المراد: ما أتيتُم بأسيراتٍ من نِساء المسلمين.

والكواعِبُ جمْع كاعِب، أي: نَاهِد، وهي المرأةُ حِين يَبْدُو ثَديُها للنُّهودِ. وأردفتُم، أي: أركبتُم خلْفكم. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٦٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٧٩).

ما صنعتُم، ارجِعوا، فبلَغ ذلك رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فندَب النَّاسَ فانتدبوا[١] حتَّى بلَغوا حمراءَ الأسدِ وبِئرَ أبي عِنَبَةَ، فأنزَل اللهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]...))[٢].

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾.

أي: الَّذين أَجابوا أمْرَ اللهِ تعالى ورَسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام بالنُّهوضِ مجدَّدًا؛ لردِّ هجومٍ مُتوقَّعٍ من المشركين عقبَ غزوةِ أُحُدٍ مباشرةً، على الرَّغم ممَّا ألَمَّ بهم من جِراحٍ وآلامٍ جَسديَّةٍ، وأُخرى نَفسيَّةٍ بسببِ القتْلِ والهزيمةِ الَّتي لحِقَتْهم في أُحُدٍ[٣].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّها قالتْ لِعُروَةَ عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: ((يا ابنَ أُختي، كانَ أبواكَ منهُم: الزُّبَيْرُ وأبو بكرٍ، لَمَّا أصاب رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما أصابَ يومَ أُحُدٍ، وانصَرَفَ عنه المشرِكونَ، خافَ أن يَرْجِعوا، قال: (مَن يَذهَبُ في إثْرِهِم[٤])، فانتدَبَ مِنهُم سَبْعونَ رَجلاً، قال: كان فيهم أبو بكرٍ والزُّبَيرُ))[٥].

---

(١) فانتدبوا: انتَدَب: أي: أجابَ؛ يُقال: ندَبَه لأمرٍ فانتدبَ له، أي: بَعَثَه لأمرٍ ودعاه له فأجابَ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٢٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٣٤).

(٢) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٨٣)، والطبراني (١١/ ٢٤٧) (١١٦٣٢)، والمقدسي في ((الأحاديث المختارة)) (٢١٠).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٢٤): رجاله رجال الصحيح غير محمَّد بن منصور الجواز وهو ثقة. وصحَّح إسنادَه الشوكانيُّ كما في ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٥٩٧)، وصحَّحه الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٩-٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦).

(٤) يَذهَبُ في إثْرِهِم: أي: يتَّبِعهم. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٧/ ١٦٢).

(٥) رواه البخاري (٤٠٧٧) واللفظ له، ومسلم (٢٤١٨) مختصرًا.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الَّذين أَحسَنوا منهم في أعمالِهم، وامتثَلوا ما أَمَر اللهُ تعالى به، واجتَنَبوا ما نهى عنه، لهم ثوابٌ جَزيلٌ، وأجرٌ واسع من اللهِ تبارَك وتعالَى[١].

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾.

أي: خوَّفهم وحَذَّرهم بعضُ النَّاسِ من أنَّ كفَّارَ قُرَيشٍ قد أعدُّوا العُدَّةَ للكَرَّةِ عليهم، وأنَّه لا قِبَلَ لهم الآن بقتالِهم[٢].

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

أي: لم يَجبُنوا ولم يَتزَعْزَعوا، بل منَحهم ذلك التَّخويفُ زيادةً في الطُّمأنينةِ، وقوَّةً في الإيمانِ واليقين، مُعلِنين بأنَّهم وكَلوا أمرَهم إلى اللهِ تعالى وحْدَه؛ ليكفيَهم شرَّ أعدائِهم؛ فهو سبحانه نِعْمَ مَن يُوثَق به في تفويضِ الأمورِ[٣].

عن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، قالها إبراهيمُ عليه السَّلام حينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وقالها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ قالوا: إنَّ النَّاسَ قد جمَعوا لكم فاخشَوْهم، فزادَهم إيمانًا، وقالوا: حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦-٤٤٧).

قال محمد رشيد رضا: (وأما النَّاس الذين جمعوا الجموعَ لقتالِ المسلمين فهم أبو سفيان وأعوانُه قولًا واحدًا) ((تفسير المنار)) (٤/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٤) رواه البخاري (٤٥٦٣).

وعن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما أيضًا، قال: ((كان آخرَ قولِ إبراهيمَ حينَ أُلْقِيَ في النَّارِ: حسْبي اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ))[١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((كيف أنعَمُ وقد الْتقمَ صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنَى جبهتَه، وأصْغَى سمعَه، ينتظرُ أن يُؤمرَ أن ينفُخَ فينفُخَ، قال المسلمون: فكيف نقولُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا، وربَّما قال سفيانُ: على اللهِ توكَّلْنا))[٢].

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّهم توكَّلوا عليه، كفاهم سُبحانه ما أهَمَّهم، وردَّ عنهم بأسَ مَن أرادَ كيدَهم[٣].

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((... وقد كانَ أبو سُفيانَ قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَوعدُك مَوسِمُ بَدْرٍ حيث قتلتُم أصحابَنا، فأمَّا الجبانُ فرجَع، وأمَّا الشُّجاعُ فأخَذ أُهْبَةَ القِتالِ والتِّجارةِ، فلم يَجِدوا به أحدًا، وتسوَّقوا[٤]، فأنزَل اللهُ تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٤٣)، وأحمد (١١٠٣٩).

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٣٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧١).

(٤) تَسوَّقوا: أي: باعوا واشتروا. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٤٩٩).

سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤])[1].

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

أي: انصرَفَ الصَّحابةُ الَّذين استجابوا للهِ تعالى ورسولِه تأهُّبًا لردعِ المشركين، انصرَفوا مِن مَنطقةِ حمراءِ الأسدِ دون أن يَلقَوْا بها عَدوًّا، راجعين بأَجْرِ الجهادِ في سبيله، وبالأرباحِ الَّتي نالوها من الاتِّجارِ هناك[2].

﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.

أي: لم ينَلْهم أيُّ أذًى أو مَكروهٍ مِن عدوِّهم[3].

﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾.

أي: رجَعوا أيضًا بِرضَا اللهِ تعالى عنهم؛ فقدْ أرْضَوُا اللهَ تعالى باستجابتِهم لِمَا أمَرهم به، وانقيادِهم لرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام فيما دعاهم إليه مِن اتِّباعِ أثرِ العدوِّ[4].

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى صاحبُ الفضلِ الكبيرِ والإحسانِ العميمِ على عِبادِه، في الدُّنيا والآخِرَة، ومِن ذلك تَفضُّلُه على هؤلاءِ الصَّحابةِ الكرامِ بالعودةِ مِن غَزوِهم هذا سالِمين مِن العدوِّ، راجِعين بِرضا اللهِ تعالى عنهم، وبما نالوه من

(١) تقدَّم تخريجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ((لما انصرف المشركون...)) الحديث.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥٠-٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥١).

الأُجورِ الأُخرويَّة، والمكاسِبِ الدُّنيويَّة[١].

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا جزَى اللهُ تعالى الَّذين استجابوا بالسَّلامةِ والغَنيمة، ورغَّبهم فيما لديه لتولِّيهم إيَّاه، أَتْبَعَ ذلك بما يَزيدُهم بصيرةً؛ من أنَّ المخوِّفَ لهم مَن كَيدُه ضعيفٌ، وأمْرُه هيِّنٌ خفيفٌ، واهٍ سَخيفٌ، وهو الشَّيطان، وساق ذلك مَساقَ التَّعليل لِمَا قبْلَه، مِن حيازتِهم للفضلِ، وبُعدِهم عن السُّوءِ بأنَّ وليَّهم اللهُ، وعدوَّهم الشَّيطانُ، فقال التفاتًا إليهم بزيادةٍ في تنشيطِهم، أو تشجيعِهم وتثبيتِهم[٢]:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾.

أي: إنَّما المخوِّفُ لكم في الحقيقةِ هو الشَّيطانُ، وقد أرادَ أنْ يُوقِعَ في قلوبِكم الخوفَ مِن أنصارِه حِزبِ المشركين؛ لترهَبوهم[٣].

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فلا تَخافوا مِن المشركين أولياءِ الشَّيطان، وخافوا مِن اللهِ تعالى وحْدَه إنْ كُنتم مؤمنين حقًّا؛ فهو الَّذي يَنصُر أولياءَه، ويملأ قلوبَهم أمنًا، ويَكفيهم شرَّ أعدائِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٥-٢٥٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٢٣)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (١/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٧)، ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧).

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا مدَح اللهُ تعالى سبحانه وتعالى المسارِعين في طاعتِه وطاعةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وختَم ذلك بالنَّهيِ عن الخوفِ من أولياءِ الشَّيطانِ، أعْقَبه بذَمِّ المسارِعين في الكُفرِ، والنَّهيِ عن الحُزنِ مِن أجلِهم[1]، فقال:

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

أي: ولا يُحْزِنْك- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الَّذين يُبادِرون بأقوالِهم وأفعالِهم مُتعجِّلين الوقوعَ في الكفرِ، أو التَّوغُّلَ فيه[2].

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ لن يُلحِقوا باللهِ؛ بمسارعتِهم في الكفرِ، أيَّ نوعٍ من أنواعِ الأذى، صغيرًا كان أو كبيرًا[3].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾.

أي: يُريدُ اللهُ تعالى بمسارعتِهم في الكُفرِ أنْ يَخذُلَهم، فلا يكونَ لهم أيُّ نصيبٍ مِن نعيمِ الآخرةِ، قليلًا كان أو كثيرًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣٢-١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٧-١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦١).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إنَّهم مع حِرمانِهم من نعيمِ الآخرة، لهم عقوبةٌ كبيرةٌ عند الله تعالى(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- لا تتمُّ استجابةُ العبد لله إلَّا باستجابته للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بتلقِّي الرِّسالة منه، والنَّصيحة له؛ نَستفيدُ ذلك من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾(٢).

٢- المصائِبُ محكٌّ لمعرفةِ الرِّجال، فلولا فَضلُ الصَّحابة ومَيزتُهم عن الخَلْق ما خرَجوا بعد أنْ أصابَهم القَرحُ؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾(٣).

٣- على المؤمنِ كلَّما ألَمَّت به المصائبُ أن يلجأَ إلى ربِّه، ويَزدادَ إيمانًا به؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(٤)، فالَّذي يكفي المؤمنين شرَّ النَّاس هو اللهُ تعالى؛ فالواجبُ على المؤمنين المبالَغةُ في التَّوكُّلِ عليه، وربطُ أمورِهم به تعالى(٥).

٤- الإيمانُ يَزيدُ بالطَّاعاتِ، وينقُصُ بالمعصيةِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾(٦).

٥- العاقبةُ- كما هو المنتظَرُ مِن وعدِ اللهِ- للمتوكِّلين عليه، المكتفِين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٩، ٤٣٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٣٧).

به، المتجرِّدين له: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ فيه أنَّ الإيمانَ يزيدُ[٢].

٢- أنَّ الحسْبَ هو اللهُ وحده، ولا أحَدَ معه؛ لقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، ولم يقولوا: حسبُنا اللهُ ورسولُه، بل قالوا: حسبُنا اللهُ وحده؛ فالله وحده هو الحسْبُ، كما أنَّه وحده المتوكَّلُ عليه[٣].

٣- إثباتُ اسم ﴿الْوَكِيلُ﴾ للهِ تعالى؛ لأنَّ تقديرَ الآية: ونِعْمَ الوكيلُ هو، وقد ذكَر اللهُ تعالى في آيةٍ أخرى أنَّه على كلِّ شيء وكيلٌ؛ فـ: (الوكيلُ) مِن أسماء الله تعالى، ومعناه المتكفِّلُ بشؤونِ عباده، وليس معناه القائمَ بالأمرِ نيابةً عنهم[٤].

٤- إثباتُ الرِّضا لله؛ لقوله: ﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾، والرِّضا: صفةٌ من صفاتِ الله الفِعليَّةِ[٥].

٥- في قولِه تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا عَمِل العملَ وسعَى فيه ولم يُكمِلْه، كُتِب له أجرٌ كاملٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٢).

٦- مفهومُ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أنَّ الكافرَ قد يكونُ له حظٌّ في الدُّنيا، وكُفرُه لا يمنَعُه مِن الحظِّ في الدُّنيا[١].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- **قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** (مِن) في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ للبَيانِ وليست للتَّبعيض، والمقصودُ مِن ذِكرِ الوصفينِ المدحُ والتَّعليل لا التقييد؛ لأنَّ المستجيبينَ كلَّهم مُحسِنون مُتَّقون[٢]، وعبَّر بـ(مِن) الَّتي تصلُحُ للبيانِ والبعضِ؛ ليدومَ رغَبُهم ورهَبُهم[٣].

٢- **قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾:**

- جِيء في قولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ بإعادةِ الموصولِ (الَّذين) دون أن تُعطَفَ الصِّلةُ على الصِّلةِ الأولى في قولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ اهتمامًا بشأنِ الصِّلة الثَّانية حتَّى لا تكونَ كجُزءِ صِلةٍ[٤].

- وفي قولِه: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ التعبيرُ بلفظِ العمومِ معَ إرادةِ الخُصوصِ حيثُ عبَّر بـ﴿النَّاس﴾ والمرادُ بعضُ النَّاسِ، وليس كلَّهم، وهذا أسلوبٌ لُغَويٌّ لا يخرُجُ عن قواعدِ اللُّغة العربيَّة، والمرادُ بعضٌ من النَّاس[٥].

٣- **قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾** فيه لفٌّ ونَشرٌ مرتَّبٌ، مع طَيِّ ذِكرِ الملفوفِ والمنشورِ، وهما (السَّلامة بالأجسامِ) الَّتي تعودُ إلى قوله: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٩).

و(الرِّبح بالتِّجارة) الَّذي يعودُ إلى قولِه: ﴿وَفَضْلٍ﴾[١].

– في قوله: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ إيجازٌ؛ فإنَّه يدُلُّ على أنَّهم خرَجوا للقاءِ العدوِّ، وأنَّهم لم يلقَوْا كيدًا، فلم يلبثوا أنِ انقلَبوا إلى أهليهم، ومِثلُ هذا الحذفِ، الَّذي يدُلُّ عليه المذكورُ بمجرَّدِ ذِكرِه، كثيرٌ في القرآنِ[٢].

– قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: وقَع صفةً لـ﴿نِعْمَةٍ﴾؛ تأكيدًا لفخامتِها الذَّاتيَّةِ الَّتي يُفيدها التَّنكيرُ بالفَخامةِ الإضافيَّةِ، أي: نِعمة كائِنة مِن الله تعالى[٣].

٤- قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ خبرٌ فيه تحسيرٌ للمتخلِّفِ وتخطئةُ رأيِه حيثُ حَرَمَ نفْسَه ما فازوا به[٤].

– وكرَّر الاسمَ العظيمَ (الله)؛ لبيانِ عِظَمِ الأمرِ[٥].

٥- قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ فيه تضمينُ الفِعل ﴿يُسَارِعُونَ﴾ معنى الفِعل (يَقعون)؛ حيث عُدِّي بـ(في)؛ إشارةً إلى استقرارِهم في الكفرِ، ودوامِ ملابَستهم له في مبدأِ المسارَعةِ ومُنتهاها، وأنَّهم يَعجَلون إلى إظهارِه وتأييدِه، والعملِ به عند سُنوحِ الفُرص، ويَحرِصون على إلقائِه في نفوسِ النَّاس، فعبَّر عن هذا المعنى بقولِه: ﴿يُسَارِعُونَ﴾، ولو عُدِّي بـ(إلى) لفُهِم منه أنَّهم لم يَكفُروا عند المسارَعة[٦]، وأمَّا إيثارُ كلمة (إلى) في قولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١١٣)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٤).

(٤) ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٢- ١٧٣).

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ فلأنَّ المغفرةَ والجنَّةَ مُنتهَى المسارعةِ[١].

٦- قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ تعليلٌ للنَّهي، وتكميلٌ للتَّسلية، بتحقيق نفْيِ ضررِهم أبدًا، أي: لن يضُرُّوا بذلك أولياءَ اللهِ ألبتَّةَ، وتعليقُ نفيِ الضَّررِ به تعالى؛ لتشريفِهم، والإيذانِ بأنَّ مضارَّتَهم بمنزلةِ مضارَّتِه سبحانه، وفيه مزيدُ مبالَغةٍ في التَّسليةِ[٢].

- وفيه: تعريضٌ ظاهرٌ باقتصارِ الضَّررِ عليهم، كأنَّه قيل: وإنَّما يضُرُّون أنفسَهم[٣].

- وتَنكيرُ قوله: ﴿شيئًا﴾ مع تنوينِه- الَّذي يَزيد النَّكرةَ شياعًا وتنكيرًا، وقلَّةً وحقارةً-؛ لتأكيدِ ما هم عليه من القلَّةِ والحقارةِ، وضآلةِ الشَّأنِ[٤].

- وموقع (إنَّ) في مِثل هذا المقامِ لإفادةِ التَّعليلِ؛ فإنها تُغني غَناءَ فاء التَّسبُّب[٥].

٧- قوله: ﴿يريدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ استئنافٌ مبيِّن لسرِّ ابتلائِهم بما هم فيه مِن الانهماكِ في الكفرِ[٦].

- وعبَّر بصِيغة الاستقبالِ ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على دَوامِ الإرادةِ واستمرارِها[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٥-١١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٦).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٧٧ - ١٨٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾
وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ
عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ
ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿نُمْلِي﴾: أيْ: نُطيلُ لهم المدَّة، وأَمْلَى مأخوذٌ مِن أملَلَ، وأصل الإملاء: الزَّمنُ الطويل، وامتدادٌ في شيءٍ؛ زمانٍ أو غيرِه(١).

﴿يَجْتَبِي﴾: يختارُ، وأصلُ الاجتباءِ: جمْعُ الشَّيءِ والتجمُّع؛ يُقال: جبيتُ الماءَ في الحوضِ: جمعتُه(٢).

﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: أيْ: يَلزمُ أعناقَهم إثمُه، أو يلزمون أعمالَهم مثلَما يلزمُ الطوقُ العنقَ، وأصلُ الطوق: ما يُجعل في العُنقِ، وكلُّ ما استدارَ بشيءٍ فهو طوقٌ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦، ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: (يَحسَب) فِعلٌ مضارعٌ يتعدَّى لمفعولَين، مبنيٌّ على الفتْح لاتِّصالِه بنونِ التوكيدِ الثَّقيلةِ، وهو في مَحلِّ جزم بـ(لا) الناهية. وقدْ قُرِئ بياءِ الغَيبة، وبتاءِ الخِطاب؛ فعَلَى قِراءة الياء يكون ﴿الَّذِينَ﴾: في محلِّ رفْعِ فاعِل (يحسبن). و﴿أَنَّمَا نُمْلِي﴾: (ما) في ﴿أَنَّمَا﴾ موصولةً بمعنى الذي، وهي في محلِّ نصب، اسم (أنَّ)، ويجوز أنْ تكون (ما) مصدريَّة، والمصدرُ المؤوَّل (ما نملي)- أي: (إملاءنا)- هو اسم أنَّ. و(أنَّ) ومَا اتصلتْ به في محلِّ نصب، سادٌّ مَسدَّ مَفعولَيْ (يحسب)، أو سادٌّ مسدَّ أحدهما، والمفعول الآخَر محذوف، تقديرُه: نافعًا. وعلى قِراءة (وَلَا تَحسَبَنَّ) بالتاء؛ فالفاعلُ ضميرٌ مستترٌ وجوبًا تقديرُه (أنت)، عائدٌ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و﴿الَّذِينَ﴾: مفعولٌ أوَّل لـ(تحسبن)، و﴿أَنَّمَا نُمْلِي﴾: في مَحلِّ نصْبِ مفعولٍ ثانٍ، على تَقديرِ حذْفِ مضافٍ، أي: (ولا تحسبن شأنَ الذين كَفروا...)، وفي الآية توجيهاتٌ أخرى[1].

٢- قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: قُرِئ بياءِ الغَيبة، وبتاءِ الخِطاب؛ فعَلى قِراءة الياء يكون ﴿الَّذِينَ﴾: في مَحلِّ رفْعِ فاعِل (يحسبن)، و﴿يَبْخَلُونَ﴾ صِلة له. ويكون ﴿خَيْرًا﴾: مفعولًا ثانيًا، والمفعول الأوَّل محذوفًا تقديرُه: البُخلَ؛ لدلالةِ ما قبله عليه ﴿يَبْخَلُونَ﴾، والتقدير: ولا يَحسبنَّ الذين يَبخلون بما آتاهم اللهُ مِن فَضلِه البُخْلَ خيرًا لهم. وقوله: ﴿هُوَ﴾ ضميرُ فصلٍ، لا محلَّ له مِن الإعراب. وأمَّا على

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٧٩- ١٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣١٢- ٣١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٤٩٦)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ١٧٤).

قِراءة (تَحسبَنَّ) بالتاء؛ فالفاعلُ هو المخاطَب، وهو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، و﴿الَّذِينَ﴾: مفعولٌ أوَّلُ على تَقديرِ حذْفِ مضافٍ، وإقامةِ (الَّذين) مقامَه؛ ليصدقَ الخبرُ على المبتدأ، و﴿خَيْرًا﴾: مَفعولٌ ثانٍ، والتقدير: ولا تَحسبنَّ- يا محمَّدُ- بُخْلَ الذين يَبخلون خَيْرًا لهم. وفي الآيةِ تخريجاتٌ أخرى[1].

المعَنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى عن الَّذين استبْدَلوا الكُفرَ بالإيمانِ أنَّهم لن يَضرُّوا بذلك اللهَ شيئًا، ولهم عذابٌ أليمٌ.

يقول الله تعالى: لا تظنَّ يا محمد، ولا يظنَّ الكفارُ كذلك أنَّ عدمِ مُعاجَلة الله لأهل الكفرِ بالعقوبةِ، وترْكهم يتمتَّعون في الدُّنيا-هو كرامة لهُم وخيْر، بلْ إنَّ ذلك مِنْ أجْلِ أنْ يَتحمَّلوا مَزيدًا من الإثمِ ولهُم عذابٌ مُهين.

ثمَّ يخبر الله تعالى أنَّه ليس من حِكمتِه أن يُبقِيَ المؤمنين على الحالِ التي هم عليها مِن اختلاطِ المؤمنين بالمنافقين دون أنْ يَتمايزَا، بلْ لا بدَّ من الابتلاءات التي تُمحِّص وتُميِّز كُلًّا منهما عن الآخر.

كما أنَّه ليس من حِكمتِه أنْ يُطلِعَ أحدًا منهم على ضَمائرِ قلوبِ العِباد؛ كيْ يُظهِرَ له المؤمنَ من المنافقِ، وإنَّما يُهيِّئُ اللهُ تعالى مِن المِحَن والابتلاءات ما مِن خِلالِه يتمايَز العِباد، ولكِنَّ اللهَ يختارُ بعضًا مِن رُسُله عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لِيُطلعَهم على بعض الغَيْبيَّات بحِكمتِه وإذْنه، ثمَّ يأمر الله تعالى المؤمنين أن يُحقِّقوا الإيمانَ بِه تعالى وبجميع رُسُله، ووعدَهم بأنَّهم إنْ قاموا بذلك واتَّقَوْا أنَّ لهم أجرًا عظيمًا.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٠ - ١٨١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥١٠).

ثُمَّ يُخاطِب اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَنْ لا يظنَّ أَنَّ الذين يَبخلون بأموالهم التي رزَقَهم اللهُ تعالى إيَّاها؛ فضْلًا مِنه- أَنَّ بُخلَهم خَيْرٌ لهم من العَطاء، ولا ينبغي أن يظنَّ هؤلاء الذين يَبخلون بالأموال: أَنَّ بُخْلَهم خيْرٌ لهم من العطاء، بل هو شَرٌّ لهم؛ فإنَّ اللهَ تعالى توعَّدَ الباخِلين: أَنَّه سَيجعل المال الذي بخِلوا بإخراجِ حقِّ الله تعالى فيه طَوْقًا يُحيطُ بأعناقِهم، ويُعذَّبون به يومَ القيامة، ولله تعالى ميراثُ السَّموات والأرض؛ فتُردُّ إليه كلُّ أملاك الخَلْق بعد فنائِهم، واللهُ خبيرٌ ومُطَّلِعٌ على جميعِ أعمال العبادِ، وسيجازيهم عليها.

تَفسيرُ الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧)﴾.

أَيْ: إنَّ هؤلاءِ الذين استبدَلوا الإيمانَ بالكفرِ، لا يُصيبون اللهَ تعالى بأيِّ ضرَرٍ كان، وإنَّما يَضرُّون في الحقيقةِ أنفُسَهم؛ فبذلك يَستحِقُّون عُقوبةَ اللهِ تعالى المؤلِمةَ(١).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قِراءتان:

١- (وَلَا تَحْسَبَنَّ) على معنى أنَّ الخِطاب للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٨-٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السَّعدِيّ)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٤-٤٦٦).

(٢) قرأ بها حمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠). =

٢- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ على أنَّها نهيٌ للذين كفروا[1].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾.

أَيْ: ولا تظنَّ- يا مُحمَّدُ- ولا يظنَّ الكفَّارُ كذلك، أنَّ إطالتَنا لهم في أعمارهم، وترْكَهم يَتمتَّعون في دُنياهم، وعدَمَ مُعاجَلَتِهم بالعقوبة- أنَّه خيْرٌ وكرامةٌ مِن الله تعالى لهم، ودليلٌ على مَحبَّتِه لهم، ورِضاهُ عنهم، كما يبدو في الظَّاهر[2].

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾.

أَيْ: حقيقةُ الأمْرِ أنَّ ذلك شرٌّ عليهم، وإنَّما منحَهم الله تعالى إطالةَ العُمْرِ، وسَعَةَ الرِّزْق، وحُصولَ النَّصْر وغيْرَ ذلك؛ مِن أَجْل أن يكتسبوا المزيدَ مِن الآثام؛ فتكثُرَ سيِّئاتُهم[3].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

أَيْ: ولهؤلاء الكفَّار المستكبِرين عُقوبَةٌ تُذِلُّهم وتُهينُهم[4].

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ المؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٧)، ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٢).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١١٧)، ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٥٩-٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤٦)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تَيمية (٢/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٨).

بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى عُقوبةَ المنافقين الأُخْرَويَّةَ، أَتْبَعَها بوعيدِه للمنافقين بالعقوبةِ الدُّنيويَّةِ؛ التي هي الفضيحةُ والخِزْي بالتمييزِ بينهما؛ لِيُظهرَ المؤمِنَ من المنافِق[١].

وأيضًا لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى عن الأحوالِ التي وقعتْ يومَ أُحُدٍ من القتْل والهزيمة، والتي أظهرتِ المؤمنَ مِن المنافِق؛ لأنَّ المنافقين خافوا ورجَعوا وشَمَتوا بكثرة القتْلى، ثمَّ ثبَّطوا وزهَّدوا المؤمنين عن العَوْد إلى الجِهاد- أعقبَ سبحانه وتعالى ذلك ببيانِ أنَّه لا يجوزُ في حِكمتِه أَنْ يَذَرَكم على ما أنتُم عليه من اختلاطِ المنافقين بكم، وإظْهارِهم أنَّهم من أهْل الإيمان؛ فكان إلقاءُ هذه الحوادثِ والوقائع؛ حتَّى يَحصُلَ هذا الامتياز[٢]؛ فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

أيْ: إنَّه من الممْتَنِع على حِكْمة اللهَ عزَّ وجلَّ أن يدَعَ عبادَه المؤمنين على ذات الحال التي هُم عليها؛ من اختلاطِهم بالمنافِقين تحتَ مُسمًّى (الإسلام) الذي يَجمعهم، من دونِ أَنْ يُعرف هذا مِن هذا، بلْ لا بُدَّ أَنْ يَجعلَ كلَّ واحدٍ منهما مُتميِّزًا عنِ الآخر، مُنفصِلًا عنه بِلا لَبْسٍ بينهما؛ ولذا يَعقِد الله تعالى أسبابًا مِن المِحَن يُظهِر فيها وليَّه، ويُفضَحُ فيها عدُوُّه، كما فعل بهم يوم أُحُدٍ[٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٠-٤٧١).

ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.

أَيْ: مِن الممتَنِع على حِكمَة الله تعالى أيضًا أَنْ يُطلِعَكم على ضَمائِرِ قلوبِ عِبادِه؛ كَيْ يُظهِرَ لكم المؤمِنَ من المنافِق، ولكِنَّه يَعقِد الأسبابَ التي تكشِف لكم هذا الأمْرَ، وتَظهرُ بها طَوايا النَّاس(١).

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

أَيْ: لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يختارُ بعضَ رُسُله عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لِيُطلِعَهم على بعض الغيبيَّات بحِكمتِه وإِذْنِه سُبحانَه، ومِن ذلك: إطْلاعُهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عددٍ من المنافِقين(٢).

قال سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٥-٢٧].

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أَيْ: حَقِّقُوا إيمانَكم باللهِ تعالى وجميعِ رُسُله عليهم السَّلامُ بالتَّصديق التَّامِّ، والانقيادِ والاستسلامِ؛ فهذا هو المطلوبُ منكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٢-٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٣-٤٧٤).

﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أَيْ: إنَّكم إذا حقَّقْتم المطلوبَ منكم بالإيمانِ بالله تعالى ورُسُلِه، وامتثَلتُم ما أمرَكم الله تعالى ورسولُه به، واجتنَبتُم ما نهاكم اللهُ تعالى ورسولُه عنه، إنْ قُمْتُم بذلك؛ فقد استحقَقْتُم نَيْلَ ثَوابٍ مِن الله تعالى كبيرٍ[١].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حرَّض الله المؤمنين على بَذْل الأرواحِ في الجِهادِ في الآيات السَّابقة، أَرْدَفه بالتحريضِ على بَذْلِ الأموالِ في الجِهادِ وغيرِه، وبيَّن الوعيدَ الشديد لِمَن يَبخلُ[٢]، فقال:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قراءتان:

١- قراءة (وَلَا تَحْسَبَنَّ) على الخِطاب للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أَيْ: لا تحسَب- يا مُحمَّدُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٤-٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥١)، ((نظْم الدُّرَر)) للبقاعي (٥/ ١٣٧).

(٣) قرأ بها حمزةُ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٦-٣٦٧)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠).

٢- قراءة ﴿ولا يَحْسَبَنَّ﴾ بإضافةِ الفِعل إلى ما بَعدَه، أَيْ: لا يَحسبنَّ الذين يبخلون[١].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

أَيْ: لا تظنَّنَّ- يا مُحمَّدُ- ولا يظنَّنَّ هؤلاء الذين يشِحُّون بأموالهم التي رزَقهم الله تعالى؛ كرَمًا منه عن أداء حقِّه فيها، أنَّ بُخلَهم هذا خيرٌ لهم من العطاء الذي يُنقص المال، كما يبدو في الظاهر[٢].

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾.

أَيْ: ليس الأمرُ كما يَظنُّون؛ فامتناعُهم عن أداءِ حَقِّ الله تعالى فيما رزَقَهم من أموالٍ بُخْلًا منهم، هو في حقيقةِ الأمْرِ شرٌّ من هذا النقْصِ الذي يَبدو لهم، ومضرَّةٌ عليهم في دِينهم ودُنياهم[٣].

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أَيْ: سيَجعل اللهُ تعالى المالَ الذي بَخِل به مَن منَعَ حقَّ اللهِ تعالى فيه، سيجعلُه طَوْقًا يُحيطُ بعُنُقِ صاحبه، ويُعذَّب به يوم القيامة[٤].

عَن أبي هُرَيرَةَ رَضِي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٦-٣٦٧)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٨-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٠-٤٨١).

وقِيل: يدخُل في الآية أيضًا من بَخِل بجاهِه، أو بعِلْمِه: كأهل الكتاب الذين بَخِلوا ببيان ما في أيْديهم من الكُتُب المُنزَّلة، ومن ذلك: صِفَةُ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٧١، ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٤-١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٢-٤٨٤).

آتاه الله مالًا فَلم يُؤَدِّ زَكاتَه، مُثِّلَ له مالُه شُجاعًا أقْرَعَ(١)، لَه زَبِيبَتَانِ(٢) يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ- يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ- يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ)) ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾ إلى آخِرِ الآيةِ(٣).

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أَيْ: إنَّ كلَّ أملاكِ الخَلْقِ مَردُّها بعدَ فنائِهم إلى اللهِ تعالى وحْدَه؛ فهو المالكُ ذو المَلَكوت، والحيُّ الباقي الَّذي لا يموتُ؛ فأنفِقوا في حياتِكم مِمَّا جعلكم اللهُ عزَّ وجلَّ مُستَخلَفين فيه، وقدِّموا فيها من أموالِكم ما يَنفعُكُم يومَ تأتون إلى الله سُبحانَه، وليس معكم شيءٌ مِمَّا كنتُم تملكون؛ فلا مَعنى للبُخْل بشيءٍ زائلٍ عنكم، ومُنتقِلٍ إلى غيرِكم(٤).

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

---

(١) شُجَاعًا أَقْرَعَ: الشُّجَاعُ بالضَّمِّ والكسْرِ: الحيةُ الذَّكَرُ. وَقِيلَ الْحَيَّةُ مُطْلَقًا. والأقْرَع: الذي لا شَعْر على رَأْسِه، يُريد حَيةً قَدْ تَمَعَّطَ جلْد رأسِه؛ لِكثرة سَمِّه وطول عُمْره. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٤٧) (٤/ ٤٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٧٠).

(٢) الزَّبِيبَتَانِ: مثنَّى زبِيبَة، قيل: هي نُكْتةٌ سوداءُ فوقَ عَيْنِ الحَيةِ، وقيل: هُما نُقْطَتان بجانبي فمِها، وقيل: هُما الزَّبَدَتان اللَّتان في جانبي شِدْقي الحيَّة من السُّم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٩٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٢٦).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٨-١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٤-٤٨٥).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قِراءتان:

١- (يَعْمَلُونَ) على الغَيْبة؛ جرْيًا على ﴿يَبْخَلُونَ﴾ و﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾[١].

٢- ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على الالْتفاتِ للمُخاطَب؛ فيكون ذلك خِطابًا للباخِلين[٢].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أَيْ: واللهُ عزَّ وجلَّ مُطَّلِعٌ على خفايا أعمال الخلْق، ومُطَّلِعٌ على نيَّاتهم وضمائرهم، وسيجازيهم على أعمالهم ونيَّاتهم بحسَبها، ومن ذلك: هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله تعالى من فَضْلِه؛ فإنَّ الله سبحانَه مُطَّلِعٌ على ما يُخفونَ ويَكنِزون، ويعلمُ إنْ كانوا قد أدَّوا حقَّ الله تعالى فيه أمْ لا، وإنْ خَفِيَ ذلك على غيرِه[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- نِعَمُ الدُّنيا ليستْ دليلًا على رِضا الله تعالى؛ فتِلك النِّعَم قد تكون نِقَمًا وآفاتٍ في الحقيقةِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فهذا البقاءُ، وهذا

---

(١) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٥).

الإمهالُ صار وسيلةً إلى الخِزْيِ في الدُّنيا، والعقابِ الدائمِ يومَ القيامة؛ فلم يكُنْ نعمةً حقيقة[1].

٢- في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَعتبِر في عُمْره؛ هل أمضاه في طاعةِ الله تعالى، أو أمضاهُ في معصيتِه، فمُجَرَّد طولِ العُمُر ليس خيرًا للإنسانِ إلَّا إذا أحسَنَ عَمَلَه؛ لأنَّه أحيانًا يكونُ طولُ العُمُر شرًّا للإنسانِ وضررًا عليه، فهؤلاءِ الكفَّارُ يُمْلي اللهُ لهم؛ أي: يُمِدُّهم بالرِّزقِ والعافِيَةِ وطولِ العُمُر والبنينَ والزَّوجاتِ، لا لخَيرٍ لهم، ولكنَّه شَرٌّ لهم، والعياذُ بالله؛ لأنَّهم سوف يزدادونَ بذلك إثمًا[2].

٣- التمايُزُ لا يكون إلَّا بالشَّدائد؛ أمَّا الرَّخاء واليُسْر، وتكليف ما لا مشقَّةَ فيه، فيَقدِر عليه المنافِقون، ويَشتركون فيه مع المُخلِصين الصادقين؛ قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[3].

٤- البُخل بشيءٍ من الخيراتِ والمنافعِ مذمومٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- البُخلُ قد يكون من الكَبائِر الموجِبَةِ للنَّارِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٩)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٣).

يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ بيانُ شِدَّة رغبةِ الكفَّار في الكُفر؛ لأنَّهم اشتَرُوا الكفرَ اشتراءً، والمشترِي طالِبٌ للسِّلعة؛ فهم يأخذون الكفرَ عن رغبةٍ[2].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الإنسان قد يَغترُّ بظاهر الحالِ، ويقول: إنَّ الله لم يُنعِمْ عليَّ نعمةً إلَّا لأنَّني أهلٌ لها، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[3] [القصص: ٧٨].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بيانُ مِنَّةِ الله على عبادِه؛ حيثُ جعَل إثابتَهم على العملِ بمنزلةِ الأَجْر المتقرِّر لهم: كالذي استأجَرَ أُجراءَ، وأعطاهم أجْرَهم فَرضًا، إلَّا أنَّه تعالى هو الذي فرَض ذلك على نفْسِه[4].

٥- الإشارةُ إلى اسم اللهِ (الآخِر)، فإنَّ اللهَ هو الأوَّل والآخِر، وذلك مِن قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فإذا ثبَتَ إرْثُه لهما لزِم مِنْه أنْ يكون هو الآخِر عزَّ وجلَّ[5].

بلاغةُ الآيات:

١- قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٧).

- قوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾: تكريرٌ لجملة: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ قُصِد به- مع التأكيد- إفادةُ هذا الخبرِ استقلالًا؛ للاهتمامِ به بعدَ أنْ ذُكِرَ على وجهِ التعليلِ؛ لتسليةِ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

- وفيه: تعريضٌ ظاهرٌ باقتصارِ الضَّررِ عليهم، كأنَّه قيل: وإنَّما يَضُرُّون أنفسَهم[٢].

- وقوله: ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: جملةٌ مُبتدَأةٌ مُبيِّنة لكمالِ فظاعةِ عذابِهم؛ بذِكر غايةِ إيلامِه، بعدَ ذِكْر نهايةِ عِظَمِه[٣].

- والتعبيرُ بصِيغة (فَعِيل) في قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾؛ للمُبالَغة في وصْف العَذاب[٤]، مع ما في التنكيرِ من التَّهويل.

- وفي الآية: الفَصلُ -أي: عدَم العطف- بين جملةِ: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ وسابقتِها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا...﴾؛ لوقوعِ هذه بيانًا للسابِقة، بينما وصَل -أي: عطَفَ- بين جملة: ﴿وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وسابقتِها؛ لوقوعِ هذه ابتدائيَّة مبيِّنة لفظاعةِ عذابِ الكفَّار[٥].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾:

- قوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾: استئنافٌ واقِعٌ مَوقِعَ التَّعْليل؛ للنهْي عن حُسبانِ الإملاءِ خيرًا، أَيْ: ليس هو بخير؛ لأنَّهم يَزدادون في تلك المدَّة إثْمًا[٦]، ومُبيِّنٌ كذلك لحِكمة الإملاءِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١١٧).
(٤) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٨٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه حَصْرٌ، أَيْ: ما نُملي لهم إلَّا لِيزدادوا إِثمًا، أَيْ: فيكونَ أَخْذُهم به أشدَّ؛ فهو قصْرُ قلْبٍ[1].

- وقوله ﴿خَيْرٌ﴾ وإنْ كانَ بصِيغة المُبالغةِ والتَّفضيلِ، إلَّا أنَّه لنفْي الخيريَّة، لا لنفْي كونِه خيرًا مِن شيءٍ آخَرَ؛ لأنَّ بناءَ المبالغةِ لا يَجوز ذِكْرُه إلَّا عندَ ذِكْر الرَّاجح والمرجوح، فلمَّا لم يَذكُرِ اللهُ هاهنا إلَّا أحدَ الأمرين، دلَّ على أنَّه لنفْي الخيريَّة، لا لنفْي كونِه خيرًا مِن شيءٍ آخَرَ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾:

- قولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ اللَّام في قوله: ﴿لِيَذَرَ﴾ هي المُسمَّاة (لام الجحود)، وعلى القولِ بأنَّ خبرَ كان محذوفٌ، وأنَّ انتصابَ الفِعلِ بعدَ هذِه اللامِ بـ(أنْ) المضمرَة وجوبًا[3]؛ فاللَّام تتعلَّقُ بالخبرِ المقدَّر لـ﴿كَانَ﴾، والتقديرُ: ما كان اللهُ مُريدًا أو مُتصدِّيًا لأنْ يَذَرَ المؤمنين، أي: ما كان مُريدًا لتَرْكِ المؤمنين، وفي توجيهِ النَّفي إلى إرادةِ الفِعلِ تأكيدٌ ومبالغةٌ، ليستْ في تَوجيهِ النَّفي إلى المفعولِ نفْسِه؛ فاللام مُقوِّيَةٌ لطَلَبِ ذلكَ المَحذُوفِ (مريدًا) لِمَا بَعدَها (أنْ يَذَرَ). وعلى القول بأنَّ خَبرَ كان هو الفِعلُ (يَذَر)، وأنَّ اللَّام تَعمَلُ بنفسِها النَّصبَ في المضارِعِ[4]؛ فاللَّام زائدةٌ لتأكِيدِ النَّفْيِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٠).

(٣) وهذا مذهبُ البصريِّين.

(٤) وهذا مذهبُ الكوفيِّين.

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٨- ١١٩).

- وفيه إظهارُ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضِعِ الإضمارِ، حيث قال ﴿لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: الثابتين في وصْفِ الإيمان، ولم يقُل: (ليذركم)؛ لإظهارِ شرَفِ الوصْفِ بالإيمانِ، تعظيمًا لأهلِه[١].

- وقوله: ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فيه مبالغةٌ في النَّفي؛ حيثُ وقعت (حتَّى) بعدَ (مَا كَانَ)، وهو استعمالٌ خاصٌّ يُسمَّى: (نفْي الجحود)، وتُفيد (حتَّى) فيه تنهِيةَ الاستحالة؛ لأنَّ الجُحودَ أخصُّ من النفْي، فيكونُ حصولُه كالمستحيل؛ فإذا غيَّاه المتكلِّم بغايةٍ، كانت تلك الغايةُ غايةً للاستحالة المستفادةِ من الجحود، وليست غايةً للنفي؛ حتَّى يكون مفهومها أنَّه بعدَ حصولِ الغاية يثْبُت ما كان منفيًّا[٢].

- قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ تمهيدٌ لبيانِ الميْزِ الموعود، على طريقِ تجريدِ الخِطابِ للمُخلِصين؛ تَشريفًا لهم[٣].

- قوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ...﴾ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي...﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليل (الله) في الموضِعَينِ؛ لتربية المَهابَة[٤].

٤- قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

- قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ فيه إيرادُ ما بخِلوا به بعنوانِ إيتاءِ الله تعالى إيَّاهم مِن فضلِه؛ للمُبالغةِ في بيانِ

---

(١) يُنظر: ((نظْم الدُّرر)) للبقاعي (٥/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٨- ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

سُوءِ صَنيعِهم؛ فإنَّ ذلك حقُّه أنْ يكونَ من مُوجِباتِ بَذْلِه في سبيلِه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1].

- قوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ﴾ فيه تأكيدٌ لنفْيِ كونه خيرًا، وإفادةُ نفْيِ توهُّمِ الواسطةِ بين الخيرِ والشرِّ[2].

- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تذْييلٌ لموعظةِ الباخِلين وغيرِهم، بأنَّ المالَ مالُ الله، وما مِن بخيلٍ إلَّا سيذهب ويترُك مالَه، والمتصرِّفُ في ذلك كلِّه هو الله؛ إذْ هو يرِث السَّمواتِ والأرضَ؛ فالآيةُ موعظةٌ، ووعيدٌ ووعْد؛ لأنَّ المقصودَ لازمٌ[3].

- قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليل (الله) في مَوضعِ الإضمار[4]؛ لتربيةِ المَهابة.

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنة؛ حيثُ ختَم بهذه الصِّفة، ومعناها التهديدُ والوعيدُ على قَبيحِ مُرتكَبِهم من البُخل[5].

- وفيه: التفاتٌ[6]؛ حيثُ التفتَ من الغَيْبة إلى خِطابِ الباخِلين[7]، وهو أزجرُ في التهديدِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٨٢-١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣).

(٦) هذا على قِراءة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطاب، وأمَّا على قِراءة (يعملون) بياء الغَيبة؛ جريًا على ﴿يَبْخَلُونَ﴾ و﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾؛ فليس فيه التفاتٌ.

(٧) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١١٩).

الآيات (١٨١ - ١٨٤)

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلمات:

﴿بِقُرْبَانٍ﴾: القُربان: ما يُتقرَّبُ به إلى الله عزَّ وجلَّ مِن ذبْح أو غيرِه، وأصل القُرب: خلافُ البعد[1].

﴿وَالزُّبُرِ﴾: الكتُب، جمْع زَبور، وهو: كلُّ كتابٍ ذي حِكمةٍ، مأخوذٌ من الزَّبْر، وهو الكتابةُ والقِراءة، وقيل: مِن زبَرَه، إذا دفَعه[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى أنَّه قد سمِع قولَ اليهودِ الذين تجرَّؤوا على اللهِ، وقالوا: إنَّه فقيرٌ- تعالى اللهُ عن ذلك- وهم أغنياءُ، ثُمَّ أخبرَ سبحانَه أنَّه سيَكتُب ما قالوا، وسيَكتُب أيضًا رِضاهم واستحلالَهم لِمَا قام به أسلافُهم من قتْلِ الأنبياء بدون أيِّ عُذرٍ يُبيح لهم ذلك، وأخبر أنَّه سيقولُ لهم تعالى: ذُوقوا العذابَ المحرِقَ الذي استحقَقتُموه بما اقترَفتم، واللهُ تعالى لا يَظلِمُ أحدًا من العبادِ شيئًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

هؤلاءِ اليهود الَّذين ادَّعَوْا كَذِبًا: أنَّ اللهَ تعالى أوْصَى إليهم بوصيةٍ، وهي ألَّا يُؤمنوا لأيِّ رسولٍ حتَّى يأتيَهم بشَيءٍ يتقرَّب به إلى الله، ولا بُدَّ أنْ تأكلَه النار، فأمَرَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يردَّ على زَعْمهم هذا: بأنَّه قد جاءَ أسلافَهم من اليهودِ المتقدِّمين رُسُلٌ مِن الله، معهم الكثيرُ من المعجِزاتِ وبالذي طَلَبوه من القُربانِ الذي تأكلُه النَّار، فلِمَ قاموا بقتْلهم إنْ كانوا صادِقين في أنَّ اللهَ عهِدَ إليهم بالإيمانِ بِمَن جاءَ بذلك؟!

ثمَّ سلَّى الله نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: بألَّا يتأثَّر حُزْنًا ووهنًا إنْ كذَّبَه هؤلاء اليهودُ؛ فإنَّه قد كُذِّب رسُلٌ جاؤوا مِن قبلِه، أتَوا معهم بالمعجزات الباهِرة، وبالكتُب المنزَّلة من الله عزَّ وجلَّ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى المكلَّفين في الآياتِ السَّابقة ببَذْلِ النفْسِ وبذْلِ المالِ في سبيلِ الله، شرَعَ بعدَ ذلك في حِكايةِ شُبُهاتِ القومِ في الطَّعْن في نُبُوَّة النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومنها: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَر بإنفاق الأموالِ في سبيلِه قالوا: إنَّه لو طَلَب الإنفاقَ في تحصيلِ مَطلوبِه لكان فقيرًا عاجِزًا[١]، فردَّ اللهُ تعالى عليهم في هذِه الآيةِ.

سببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما قال: ((قال أبو بكرٍ رضِي اللهُ عنه لِفِنْحَاص-

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٦).

وكان مِن علماءِ اليهودِ وأحبارِهم-: اتقِّ اللهَ وأسْلِم، فواللهِ إنَّك لَتعلمُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن عندِ الله، جاءَكم بالحقِّ من عندِه، تَجدونَه مكتوبًا عندَكم في التوراة والإنجيل، فقال فِنْحَاصُ: يا أبا بكر! واللهِ ما بنا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن فَقْرٍ، وإنَّه إلينا لَيفتَقِر، وما نتضرَّع إليه كما يَتضرَّع إلينا، وإنَّا عنه لَأغنياءُ، ولو كان عنَّا غنيًّا لَمَا استقرَضَنا أموالَنا كما يزعُم صاحِبُكم؛ يَنهاكم عن الرِّبا ويُعطِيناه، ولو كان عنَّا غنيًّا ما أعطانا الرِّبا، فغضِب أبو بكْرٍ فضَربَ وجهَ فِنحَاص، فأخبر فِنْحاصُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي بكْر: ما حملَك على ما صنعتَ؟ فأخبرَه، فجَحَد ذلك فِنْحَاص، وقال: ما قلتُ ذلك، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] الآية))(١).

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

أَيْ: لقد سمِع اللهُ جلَّ جلالُه قولَ اليهودِ الذين قالوا في الله عزَّ وجلَّ مقالةً شنيعةً؛ بإضافةِ النقْصِ إليه سبحانَه فقالوا: إنَّ الله فقيرٌ إلينا؛ لأنَّه طلَب منَّا أنْ نُقرِضَه مِن أموالِنا! ثُمَّ جعَلوا أنفسَهم أكملَ مِن الله تعالى؛ فقالوا: ونحن أغنياءُ عنه(٢)!

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أَيْ: سنكتُب ما قالوه في ربِّهم؛ مِن الإفْك والفِريَة عليه، ورِضاهم، واستحلالِهم لِمَا قام به أسلافُهم مِن أفعالٍ فظيعةٍ؛ بقتْلِهم الأنبياءَ دون حُجَّةٍ أو عُذْرٍ يُسوِّغ لهم

---

(١) رواه الطبريُّ في ((تفسيره)) (٧/ ٤٤١)، والطحاويُّ في ((شرح مُشكِل الآثار)) (١٨٣٠)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٤٥٨٩).
حسَّن إسنادَه ابن حجَرٍ في ((فتح الباري)) (٨/ ٧٩)، وقال أحمدُ شاكر في ((عمْدة التفسير)) (١/ ٤٤٤): إسناده جيِّد أو صحيح.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨١-٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٨-٤٩١).

فِعْلَ ذلك؛ فسنكتُب ذلك ونحفظُه عليهم؛ لنجازيَهم به[١].

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

أَيْ: ويقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ إهانةً وإذلالًا لأصحابِ تِلك المقالةِ الشَّنيعةِ في حقِّه سبحانَه: ذوقوا عذابَ النَّار المحرِقة[٢].

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾.

أَيْ: يُقال لهم: إنَّما استحقَقْتُم هذا العذابَ المخزِي؛ بسببِ ما اكتسبتموه في حياتِكم من آثامٍ؛ ولأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حكَمٌ عدْلٌ مع كلِّ أحَدٍ، لا يُجازي كلَّ نفسٍ إلَّا بما كسَبتْ، دون أن يَنقُصَ من حسناتها شيئًا، أو يَزيد على سيِّئاتها شيئًا[٣].

فما قدَّمتْ أيديهم أوجَبَ لهم حُصولَ العذاب، وعدْلُ اللهِ أوجَبَ كوْنَ هذا العذابِ في مِقدارِه المشاهَد من الشِّدَّة؛ حتَّى لا يظنُّوا أنَّ في شدَّته إفراطًا عليهم في التَّعذيب[٤].

ثمَّ ذكر شُبْهةً أخرى لهم، فقال:

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨١-٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩١-٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٣-٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٧-٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٥).

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾.

أَيْ: هؤلاءِ اليهودُ الَّذين ادَّعَوْا كَذِبًا وافتراءً على اللهِ تعالى، بأنَّه أَوْصاهم بوصيَّةٍ مُؤكَّدةٍ في كُتُبهم، وعلى ألْسِنة رُسُله تَقضي بألَّا يَنقادوا مؤمِنينَ ومُذعنين لكلِّ مَن يقولُ: إنَّه مُرسَلٌ مِن عند الله تعالى حتَّى يُثبتَ صِدْقَ رِسالتِه بأمرٍ واحدٍ، وهو: أنْ يَجيءَ بشيءٍ ممَّا يُتقرَّب به إلى اللهِ تعالى من الصَّدقات، فإنْ أكلَتْه النارُ كان ذلك دَلالةً على قَبولِ اللهِ تعالى منه ذلك، وصِحَّة رسالتِه من ربِّه[1].

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾.

أَيْ: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء اليهود؛ ردًّا على ما زَعموه مِن افتراءٍ: قد أتَى أسلافكم- يا مَعشَرَ اليهود- رُسُلٌ مِن اللهِ تعالى مِن قَبْل بَعْثتي، كانوا مُزوَّدين بالحُجَج، ومُدَعَّمين بالمعجِزات التي تُثبت صِدْقَ رسالتِهم، وأتَوهم أيضًا بالذي ادَّعيتم من تقديمِهم قرابينَ تأكُلُها النار، فوقعَتْ على أيديهم هذه المعجِزةُ التي تمسَّكتم بها[2].

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أَيْ: ما دام أنَّه سبَق وأنْ جاءَتكم الرُّسُلُ بالذي زَعَمتُم أنَّه حُجَّةٌ لتصديقِهم، فلِمَ قام آباؤكم إذنْ بقتْلِهم، إنْ كنتُم مُحقِّين في دَعْواكم الإيمانَ برسولٍ يأتي بقُربان تأكلُه النار؟! فتبيَّن بهذا كَذِبُهم، وعِنادُهم وتناقضُهم، وظهَر أنَّه ليس امتناعُهم مِن اتِّباع مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعدمِ ظُهورِ هذه المعجِزة[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٥-٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير =

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ المنِيرِ (١٨٤)﴾.

أَيْ: فإنْ كَذَّبَكَ- يا مُحمَّدُ- هؤلاء اليهودُ، فلا يُوهِنك ولا يَحزُنك ذلك، ولك أُسْوَة بمَن قبلَك؛ فأنتَ لستَ بأوَّلِ مَن يُكذَّب، بل كُذِّب عددٌ من الرُّسُل عليهم السَّلام مع أنَّهم أتَوا أقوامَهم بالحُجَج القاطِعة، والمعجِزات الباهِرة السَّاطعة، وبالكُتُب المنزَّلةَ مِن الله تعالى، المشتمِلةِ على المَواعِظ والزَواجِر، المضيئةِ لطريق الحقِّ؛ بذكْرِ الأحكامِ العادِلة، والأخبارِ الصَّادِقة[1].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- تَذكُّر أنَّ الله تعالى يَكتُب على العبادِ أعمالَهم، على وجهٍ لا يَزولُ ولا يُنسى ولا يتغيَّر؛ ليَقرؤوا ذلك في صحائفِ أعمالِهم يومَ القيامة، وليُجازوا عليه، كما في قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[2].

٢- الرِّضا بعِصيان العاصِين، وتصويبُ أعمالِهم يُعدُّ مُشاركةً لهم في ذلك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وإنَّما قتَلَهم أسلافُهم، والمتأخِّرون راضون بأفعالِ أولئك المتقدِّمين ومُصوِّبون لهم في كلِّ ما فَعلُوه[3].

٣- الحذرُ من المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ

= السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٦-٢٨٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٧-٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٤٣).

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فذلك العقابُ حاصِلٌ بسببِ المعاصي، مِن الافتراءِ وقَتْل الأنبياء، وغير ذلك[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسليةُ الرسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، ويتفرَّع عليها أنْ يَتسلَّى الإنسان في كلِّ ما أصاب غيرَه[٢]؛ فالرُّسُل أُوذوا بالتكذيب، والإنسانُ يَكادُ يتَقطَّع إذا أَخبرَ بشيءٍ صِدْقٍ، ثمَّ قيل له: كذَبتَ، فكيف وهُم مِن عند الله عزَّ وجلَّ مُؤيَّدون بآياتِه[٣]؟!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذا قيْدٌ كاشِفٌ، وليس احترازِيًّا؛ فقتْلهم للأنبياءِ لا يمكن أنْ يكونَ بحقٍّ أبدًا، وإنَّما جِيءَ به مبالَغةً في التشنيعِ عليهم؛ فإنَّهم يَقتُلونهم بغيرِ سببِ حقٍّ يَدْعو لذلك[٤].

٢- في قول الله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ عبَّر عَن مُباشَرة العذاب بـ﴿ذُوقُوا﴾؛ لأنَّ الذَّوْقَ مِن أبْلغِ أنواع المباشَرة، وحاسَّتُها مُتميِّزة جدًّا[٥].

٣- في قوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أنَّ هؤلاء سوف يَذوقون العذابَ بالألم البدَنِيِّ والألم النفْسِيِّ؛ ففي ﴿الحَرِيقِ﴾: ألَمٌ بَدنِيٌّ، وفي قوله: ﴿ذُوقُوا﴾: أَلَمٌ نفسِيٌّ؛ لأنَّ هذا توبيخٌ وإهانة[٦].

٤- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٦).

أفادت باءُ السببيَّةِ في قوله: ﴿بِمَا﴾ ترتيبَ العقابِ على سَبَبِه، والقرآنُ مملوءٌ من ترتيبِ الأحكامِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ والثَّوابِ والعقابِ على الأسبابِ بِطُرُقٍ متنوِّعةٍ، فيأتي بباءِ السَّببيَّة تارةً، وباللَّامِ تارةً، وبأنْ تارةً، وبِكَيْ تارةً، ويَذْكُر الوصْفَ المقتضِيَ تارةً، ويذكُرُ صريحَ التَّعليلِ تارةً؛ كقوله: ذلك بأنَّهم فعلوا كذا، وقالوا كذا، ويذكُرُ الجزاءَ تارةً[1].

٥- جاءَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.. التعبيرُ بالعبيد؛ إبرازًا لحقيقةِ وضْعِهم- وهم عبيدٌ من العبيد- بالقياس إلى اللهِ تعالى، وهو ما يَزيد في شَناعةِ جُرمهم، وفَظاعةِ سُوءِ أدبِهم مع اللهِ تعالى في قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وفي قتْلهم الأنبياء[2].

٦- أنَّه يَنبغي عند المُخاصمةِ إفحامُ الخَصْم بما يدَّعيه؛ ليكونَ ذلك أبلغَ في دحْضِ حُجَّته، وهذا يُؤخذُ من قوله سبحانه: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾؛ لأنَّه إذا خُوصِم بما يقوله لم يبْقَ له حُجَّة[3].

٧- في قول الله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أنَّ تسليَةَ الإنسانِ بمَن قارَبه في الزمانِ أشدُّ تسليةً، وأقوى تثبيتًا[4].

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ جاءَ التعبير أوَّلًا بقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ﴾ بصيغة الماضي، ثمَّ قال: ﴿سَنَكْتُبُ﴾، ولَمْ يَقُل: (كُتب أو كَتَبْنا)؛ لأنَّ السَّماعَ أوَّلًا

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٤٤).

مُؤكَّد بالقَسَم، ثمَّ قال: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ على جِهة الوعيد، والسِّين فيه للتأكيد، بمعنى: لَن يفوتَنا أبدًا إثباتُه وتدوينه، كما لنْ يَفوتَنا قتْلُهم الأنبياء؛ لِكونِه في غايةِ العِظَم والهوْل، وجَعَلَ قتْلهم الأنبياءِ قرينةً له؛ إيذانًا بأنَّهما في العِظَم أخوانِ، وبأنَّ هذا ليس بأوَّل ما ركِبوه من العظائمِ، وأنَّهم أُصَلاءُ في الكُفْر، ولهم فيه سوابقُ، وأنَّ مَن قتَل الأنبياءَ لَمْ يُستَبعدْ منه الاجتراءُ على مِثلِ هذا القول[١].

٢- قوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ الأمْرُ هنا للتوبيخِ والإهانةِ والإذلال، وإلَّا فإنَّهم سيَذوقون عذابَ الحريقِ، قيل لهم ذلك أم لمْ يُقل؛ فهو حقٌّ[٢].

٣- قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُم﴾ فيه إشارةٌ للعذاب المشاهَد يومئذٍ، وفيه تهويلٌ للعذاب، والباء للسببيَّة؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا العذابَ لعِظَم هوله ممَّا يُتساءَل عن سببِه[٣].

- وفيه نِسبةُ ما قدَّموه مِن المعاصي القوليَّة والفعليَّة والاعتقاديَّة إلى الأيدي على سبيلِ التغليب؛ لأنَّ الأيدي تُزاوِل أكثرَ الأعمال؛ فكأنَّ كلَّ عمل واقعٌ بها[٤]، ولِيفيد أنَّ ما عُذِّبوا عليه هو مِن عَمِلِهم حقيقةً لا مجازًا؛ فإنَّ نسبةَ الفِعلِ إلى يدِ الفاعلِ تُفيدُ مِن إلصاقِه به ما لا تُفيده نِسبتُه إلى ضميرِه[٥].

- وفيه جوازُ إطلاقِ البَعضِ على الكلِّ إذا وُجدت قرينةٌ تدلُّ عليه؛ لِقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ فاليدُ بعضٌ من الإنسان، لكن (القرينة) تدلُّ على أنَّ المرادَ الكلُّ، يعني: (بِمَا قدَّمتُم)[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٤٦-٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٣، ٤٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢١٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٠).

٤- قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ، مُقرِّر لمضمونِ ما قَبْلَها، والتعبيرُ عن ذلك بنَفْي الظُّلم؛ لِبيانِ كمالِ نزاهتِه تعالى عَن ذلك بتصويرِه بصورةِ ما يَستحيلُ صُدورُه عنه سبحانه من الظُّلْم، كما يُعبَّر عن تَرْك الإثابةِ على الأعمالِ بإضاعتِها[1]، وحتَّى يَطمئنَّ الإنسانُ أنَّه لنْ يُجازَى إلَّا بعملِه: إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر[2].

- والتعبيرُ بصيغةِ المبالَغة ﴿ظَلَّام﴾؛ لِتأكيدِ هذا المعنى بإبرازِ ما ذُكِر من التعذيب بغيرِ ذنبٍ في صُورة المبالَغةِ في الظُّلم. وقيلَ: هي لِرعايةِ جَمعيَّةِ العبيدِ من قولِهم: فلانٌ ظالمٌ لعبدِه، وظلَّام لعبيدِه، على أنَّها للمبالغة كمًّا لا كَيفًا؛ فجاء لفْظ (ظلَّام) بصيغةِ المبالَغةِ المقتضِيةِ للتكثير؛ لأنَّه لَمَّا قُوبِل بالعبيد- وهم كثيرون- ناسَبَ أنْ يُقابِل الكثيرَ بالكثير؛ ولأنَّه إذا نُفِي الظُّلْمُ الكثيرُ يُنفَى القليل؛ لأنَّ الذي يَظلمُ إنَّما يَظْلمُ لانتفاعِه بالظُّلم، فإذا ترَك كثيرَه مع زيادةِ نفْعِه فيمَن يجوزُ عليه النفْعُ والضرُّ-كان لقليلِه مع قلَّةِ نفْعِه أتْرَكَ[3].

٥- قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تعليلٌ لجواب الشرط، أَيْ: فتَسلَّ؛ فقد كُذِّب رسلٌ من قبلك[4].

- وتنكير ﴿رُسُل﴾؛ لكثرتِهم وشَياعِهم[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٧٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٩).

الآيتان (١٨٥ - ١٨٦)

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبر تَعالى أنَّ كلَّ نفسٍ لا بُدَّ أنْ يكونَ مصيرُها الموت، وأنَّه لا يُجزَى أحدٌ كامِلَ جزائِه على ما عمِلَ مِن خيرٍ أو شرٍّ إلَّا يومَ القيامة؛ فمَن جُنِّب النَّارَ، وأُدخِلَ الجنَّةَ فقد أفلَحَ، وما الحياةُ الدنيا إلَّا متعةٌ زائلةٌ تَغرُّ صاحبَها وتَخدعُه.

ثمَّ يُخبر اللهُ المؤمنين أنَّهم سيُخْتَبرون في أموالهم، وفي أنفسِهم، وأنَّهم سيَسمعون أذًى كثيرًا مِن أعدائِهم مِن أهلِ الكتابِ والمشركين، كالطعنِ في دينكِم، والاستهزاءِ بشريعتكم فإنْ يَصبروا على ما يُصيبهم مِن ذلك ويتَّقوا، فإنَّ ذلك من الأمورِ التي يُعزَم عليها، وتَحتاج إلى هِمَّةٍ عاليةٍ لِتحقيقِها.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أولئك المفترِين عليه من اليهود المكذِّبين برسولِه، الذين وصَف صِفتَهم، وأخْبَرَ عَن جراءتِهم على ربِّهم، ذَكر أنَّ مصيرَهم ومصيرَ غيرِهم

إليه؛ لأنَّه قد حتَّم الموتَ على جميعِهم، وفي هذا تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١)، قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

أَيْ: كلُّ نفسٍ لا بُدَّ أنْ يُدرِكَها الموتُ، فتَنتقلَ بذلك مِن عالَم الفناءِ إلى عالمِ البَقاء(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨).

قال ابنُ عاشور: (هذه الآيةُ مرتبطةٌ بأصل الغرضِ المَسُوق له الكلامُ، وهو تسْليةُ المؤمنين على ما أصابهم يومَ أُحُدٍ، وتَفنيدُ المنافقين في مَزاعِمِهم أنَّ النَّاسَ لو استشاروهم في القِتال لأشاروا بما فيه سلامتُهم فلا يَهْلِكوا، فبَعد أنْ بَيَّن لهم ما يَدْفعُ توَهمَهم أنَّ الانهزامَ كان خِذلانًا مِن اللَّه وتعَجُّبَهم منه كيف يَلحقُ قومًا خرجُوا لنصرِ الدِّينِ، وأنْ لا سَبَب للهزيمة بقوله: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ﴾ [آل عمرَان: ١٥٥] ثُمَّ بَيَّن لهم أنَّ في تلك الرَّزيَّةِ فَوائِدَ بقول اللَّه تعالى: ﴿لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى مَا فاتَكُمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٣] وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمرَان: ١٦٦]، ثمَّ أمرهم بالتَّسليم لِلَّه في كلِّ حالٍ، فقال: ﴿وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمرَان: ١٦٦] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لِإِخْوانِهِمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٦] الآيةَ. وبيَّن لهم أنَّ قَتْلَى المؤمنين الَّذين حَزِنوا لهم إنَّما هم أحياءٌ، وأنَّ المؤمنين الَّذين لمْ يَلحَقُوا بهم لا يُضَيِّعُ اللَّه أجرَهم ولا فَضْل ثَباتِهم، وبيَّن لهم أنَّ سلامةَ الكفَّارِ لا ينبغي أنْ تُحزِن المؤمنين ولا أنْ تَسُرَّ الكافرين، وأبطَلَ في خِلالِ ذلك مَقالَ المنافقين بقوله: ﴿قُل لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ﴾ [آل عمرَان: ١٥٤] وبِقَوْله: ﴿الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾ إلى قوله: ﴿قُل فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [آل عمرَان: ١٦٨] خَتَم ذلك كلَّه بما هو جامعٌ للغرضَيْن في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكم يومَ الْقِيامة﴾ لأنَّ المُصيبةَ والحزنَ إنَّما نشَآ على موت مَن استُشْهد مِن خِيرَةِ المؤمنين، يعني أنَّ الموتَ لمَّا كان غاية كلِّ حيٍّ فلو لم يموتوا اليوم لماتوا بعد ذلك، فلا تأسَفوا على مَوت قَتْلاكم في سبيلِ اللَّه، ولا يفتِنْكم المنافقون بذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١١).

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٤-٣٥].

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أَيْ: لا يُؤدَّى إليكم كامِلُ الجزاءِ على أعمالِكم- خيرِها وشرِّها- إلَّا في يومِ القيامة[١].

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

أَيْ: فمَن نُحِّي عن النارِ وجُنِّبها، وأُدخِلَ الجنَّة، فقد نجَا وظَفِرَ بعظيمِ كرامةِ الله تعالى[٢].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

أَيْ: ليستْ هذه الحياةُ الدُّنيا بما فيها مِن لذَّاتٍ وشهواتٍ إلَّا مُجرَّد مُتْعَةٍ زائلةٍ تخدع صاحبَها؛ فلا يَنبغي لعاقلٍ أنْ يَركنَ إليها[٣].

قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠].

عن أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ في الجنةِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، اقرؤوا إنْ شِئْتُم ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١١-٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩-١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨٨-٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٨-١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٢-٥١٣).

(٤) رواه الترمذيُّ (٣٠١٣) واللفظ له، والدارمي (٢٨٢٠)، والنسائي في ((السُّنن الكبرى)) (١١٠٨٥)، وابن حبَّان (٧٤١٧).

=

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا سلَّى الرسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، زادَ في تسليَتِه بهذه الآية؛ فبيَّنَ أنَّ الكفَّار بعدَ أنْ آذَوُا الرَّسولَ والمسلمين يومَ أُحُد، فسيُؤذونهم أيضًا في المستقبَل بكلِّ طريقٍ يُمكِنهم: مِن الإيذاءِ بالنَّفس والإيذاءِ بالمالِ، والغرضُ مِن هذا الإعلامِ أنْ يُوطِّنوا أنفُسَهم على الصَّبْر وترْك الجزَع[1]؛ لذا قال تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾.

أَيْ: لَتُختَبَرُنَّ في أموالِكم بوقوعِ المصائِب فيها: كتَلَفِها، أو حُصولِ النقْص مِنْها، ولَتُمتحَنُنَّ أيضًا في أنفُسِكم: كأمرِكم بالجهادِ في سبيلِ الله، وما يَحصُل فيه مِن خوْفٍ وجِراحٍ وأسْرٍ وقتْلٍ، أو بإصابتِكم بمرَضٍ في أبدانِكم، أو موْتِ أحدِ أبنائِكم[2].

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

= قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيح، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٣).

قال ابن عاشور عن هذه الآية: (استئنافٌ؛ لإيقاظ المؤمنين إلى ما يَعترض أهل الحق وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيهٌ لهم على أنَّهم إنْ كانوا مِمَّن تُوهِنهم الهزيمةُ، فليسوا أحرياءَ بنصْر الحقِّ) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٦-٥١٧).

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

أَيْ: إنَّ أعداءَكم مِن المشركين وأهْل الكتاب لا بدَّ أنْ يؤذوكم أذًى كثيرًا بألْسنتِهم، ومن ذلك تَكرُّرُ طعْنِهم في دِينِكم، والنُّطْق بمعتقداتِهم الباطِلة(١).

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

أَيْ: إذا تسلَّحتُم- أيُّها المؤمنون- بسِلاح الصَّبرِ على ما يُصيبكم مِن بلاءٍ في أموالِكم وأنفسِكم، وعلى ما تَسمعونه مِن أذًى في دِينِكم مِن المشركين وأهْل الكِتاب، واستعملتُم التَّقوى بفِعْلِ أوامرِ اللهِ تعالى واجتنابِ نواهِيه- فإنَّ ذلك الصَّبرَ والتقوى مِن الأمورِ التي تَحتاج إلى هِمَّة عالية، ويَنبغي العزمُ والتصميمُ عليها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٧-٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٨-٥٢١).

والجمهورُ على أنَّ الآيةَ مُحْكَمة. يُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزيِّ (ص: ٣٣٤).

وقال ابنُ تيميَّة: (إنَّ الأمر بالصَّبر على أذاهم وبتقوى اللهِ لا يَمنعُ قتالَهم عندَ المُكْنة، وإقامة حدِّ الله عليهم عند القُدْرة؛ فإنَّه لا خِلافَ بين المسلمين أنَّا إذا سمِعنا مُشرِكًا أو كتابيًّا يُؤذي اللهَ ورسولَه، فَلا عَهْدَ بيننا وبينه، وجَبَ علينا أنْ نُقاتِلَه ونجاهِدَه إذا أمكن ذلك... وذلك: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا قَدِم المدينةَ كان بها يهودٌ كثير ومشركون، وكان أهْلُ الأرض إذْ ذاك صِنفَين: مُشرِكًا أو صاحِبَ كتاب، فهادَن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مَن بها من اليهود وغيرِهم، وأمرَهم الله إذْ ذاك بالعَفْو والصفْح، كما في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾؛ فأمرَه الله بالعفو والصفْح عنهم إلى أنْ يُظهِر الله دينَه، ويُعِزَّ جُنْدَه، فكان أوَّلَ العزِّ وقعَةُ بدْرٍ؛ فإنَّها أذلَّت رِقابَ أكثرِ الكفَّار الذين بالمدينة، وأرهبَت سائرَ الكفَّار). ((الصارم المسلول)) (ص:٢١٦-٢١٧).

قال الزركشيُّ: (وبهذا التحقيقِ تَبيَّن ضعفُ ما لهَجَ به كثيرٌ من المفسِّرين في الآياتِ الآمِرَة بالتخفيفِ أنَّها منسوخةٌ بآية السيف، وليستْ كذلك، بل هي مِن المُنسأ، بمعنى: أنَّ كلَّ أمرٍ ورَدَ =

قال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

عنْ أسامةَ بن زَيْدٍ رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ركِبَ على حِمارٍ، على قَطِيفةٍ فَدَكِيَّةٍ(١)، وأَرْدَفَ أسامةَ بنَ زيدٍ وراءَه، يعودُ سعدَ ابنَ عبادةَ في بني الحارثِ ابنِ الخَزْرَجِ، قبْلَ وقعةِ بَدْر، قال: حتَّى مرَّ بمجلسٍ فيه عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ، وذلك قبلَ أن يُسْلِمَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ، فإذا في المجلسِ أخلاطٌ مِن المسلمين والمشركين عَبَدةِ الأوثانِ، واليهودِ والمسلمين، وفي المجلسِ عبدُ اللهِ بنُ رَواحَةَ، فلَمَّا غَشِيَتِ المجلسَ عَجاجَةُ الدَّابَّةِ(٢)، خمَّرَ(٣) عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ أَنفَه بردائِه، ثمَّ قال: لا تُغَبِّروا علينا، فسَلَّم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم ثمَّ وقَفَ، فنزَلَ فدَعاهم إلى اللهِ، وقرَأَ عليهم القرآنَ، فقال عبدُ اللهِ بنِ أَبيٍّ ابنُ سَلولَ: أيُّها المرءُ، إنَّه لا أحسنَ ممَّا تقولُ، إنْ كان حقًّا، فلا تُؤْذِنا به في مجالِسِنَا، ارجِعْ إلى رَحْلِك، فمَن جاءَكَ فاقصُصْ عليه. فقال عبدُ اللهِ ابنُ رَواحةَ: بلى يا رسولَ اللهِ، فاغْشَنا به في مجالِسِنَا؛ فإنَّا نُحِبُّ ذلك. فاستَبَّ المسلمون والمشركون واليهودُ حتَّى كادوا يَتَثاورون(٤)، فلَمْ يَزَلِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُخفِّضُهم حتَّى سَكَنوا، ثمَّ ركِبَ النبيُّ صلَّى اللهُ

= يجب امتثالُه في وقتٍ ما لعِلَّة تُوجِبُ ذلك الحُكم، ثم ينتقل بانتقالِ تلك العِلَّة إلى حُكمٍ آخَر، وليس بنسخٍ إنَّما النسخُ الإزالةُ حتى لا يجوز امتثالُه أبدًا)) ((البرهان في علوم القرآن)) (٢/ ٤٢).

(١) قَطِيفة فَدَكِيَّة: القطيفة دِثارٌ مُخمل، أو كِساءٌ غَليظ، وجمعها: قطائف. وفدكيَّة نِسبة إلى فَدَك، وهي بلدةٌ أو قرية بالحِجاز. يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت (٤/ ٢٣٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٥٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣١).

(٢) أيْ: غُبارُها الذي تثيره. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٣) خَمَّرَ: أي: غَطَّى. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٤) يَتَثَاوَرُونَ: أي: يَتواثَبون، أي: قاموا بسرعة وانزعاج، وقاربوا أن يثبَ بعضُهم على بعض فيقتَتِلوا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

عليه وسلَّمَ دابَّتَه، فسارَ حتَّى دخَلَ على سَعْدِ بنِ عُبادةَ، فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: يا سعدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ ما قال أبو حُبَابٍ- يُرِيدُ عبدَ اللهِ بنَ أُبيٍّ- قال: كذا وكذا؟! قال سعدُ بنُ عُبادةَ: يا رسولَ اللهِ، اعفُ عنه، واصفَحْ عنه، فوالذي أنزَلَ عليك الكتابَ، لقد جاءَ اللهُ بالحقِّ الذي أنزَلَ عليك، ولقدِ اصطَلَحَ أهلُ هذه البُحَيْرَةِ[١] على أنْ يُتَوِّجُوه فيُعَصِّبُوه بالعِصابةِ[٢]، فلمَّا أَبَى اللهُ ذلك بالحقِّ الذي أعْطاكَ اللهُ شرِقَ[٣] بذلك؛ فَذلِك فَعَلَ به ما رأيتَ، فعَفَا عنه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابُه يَعْفُون عن المشركينِ وأهلِ الكتابِ كما أمرَهم اللهُ، ويَصْبِرون على الأذى، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ الآيةُ، وقال اللهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتَأَوَّلُ[٤] العفْوَ ما أمَرَه اللهُ به، حتَّى أَذِنَ اللهُ فيهم، فلمَّا غزَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بدْرًا، فقَتَلَ اللهُ به صَناديدَ[٥] كفَّارِ قُرَيشٍ، قال ابنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ وَمن

(١) البُحَيْرة- بضمِّ الباء مصغَّرة، ويروى بفَتْحِها مُكبَّرة-: أصلُها القريةُ، والمقصودُ بها هنا: مدينةُ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٦/ ١٧٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٥٨).

(٢) العصابة: العمامة، ويُعصِّبوه بالعصابة، أي: يُرئِّسوه ويُسوِّدوه، وكانوا يُسمُّون السيِّد المطاع مُعصَّبا؛ لأنَّه يُعصَّب بالتَّاج، أو يعصَّب به أمور الناس، ولما يعصب برأسه من الأمور، أو لأنَّهم يُعصبون رؤوسهم بعصابةٍ لا تنبغي لغيرهم فيمتازون بها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٣/ ٤٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٣) شَرِقَ: أي: غُصَّ، وهو كناية عن الحسَد، كأنَّه شيء لم يقدِرْ على إساغته وابتلاعه، فغُصَّ به. يقال: غص بالطعام وشرق بالماء، إذا اعترض شيءٌ من ذلك في الحَلْق فمنعه الإساغة. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٦٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٣٢).

(٤) يتأوَّل العَفوَ: التأويل تفسيرُ ما يؤولُ إليه الشَّيء، ويَعني هنا: يأخُذ العفوَ مِن قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾[المائدة: ١٣]، ويمتثِلُ به. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٢/ ٢١٧)، ((نخب الأفكار)) للعيني (١٤/ ٢٦٠)، ((شرح القسطلاني)) (٩/ ١١٩).

(٥) صَنَادِيد: جمع صنديد، وَهُوَ السَّيِّد الكَبِير فِي القَوم. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٨/ ١٥٧).

مَعَه مِن المشركين وعَبدةِ الأوثانِ: هذا أمرٌ قد تُوجِّهَ، فبايَعوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الإسلامِ فأَسْلَمُوا))[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ المقصودُ من هذه الآيةِ: تأكيدُ تسليَةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام، والمبالغةُ في إزالةِ الحزْنِ مِن قلْبِه، وذلك من وَجهينِ: أحدهما: أنَّ عاقِبَةَ الكلِّ الموتُ، وهذه الغمومُ والأحزانُ تَذهبُ وتزولُ، ولا يَبقى شيءٌ منها، والحزنُ متى كان كذلك لمْ يَلتفتِ العاقلُ إليه. والثاني: أنَّ بعدَ هذه الدارِ دارًا يَتميَّز فيها المحسِنُ عن المسيءِ، ويَتوفَّر على عملِ كلِّ واحدٍ ما يليقُ به من الجزاء، وكلُّ واحدٍ من هذينِ الوجهين في غايةِ القوَّةِ في إزالةِ الحُزْنِ والغَمِّ عن قلوبِ العُقلاء[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ حثُّ الإنسانِ على المبادرةِ للعملِ الصَّالح؛ لأنَّه إذا كان ميِّتًا ولا مَحالَةَ، وهو لا يَدري متى يموت، فعليه أنْ يُبادرَ، ولا سِيَّما في قضاءِ الواجباتِ، والتخلِّي عن المظالم والسيِّئات[3].

٣- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فيه التزْهيدُ في الدُّنيا بفنائِها وعدمِ بَقائِها، وأنَّها متاعُ الغُرور، تَفتِنُ بزُخْرُفِها، وتَخدَع بغُرورِها، وتَغرُّ بمَحاسِنها، ثمَّ هي مُنتقِلةٌ، ومُنتقَلٌ عنها إلى دارِ القرارِ، التي تُوفَّى فيها النُّفوسُ ما عمِلَت في هذه الدَّارِ، مِن خيرٍ وشرٍّ[4].

٤- الدُّنيا متاعُ الغُرور، ويَظْهرُ فسادُها لمن اشْتَراها مِن وجوه: أوَّلُها: أنَّه لو

(١) رواه البخاري (٤٥٦٦) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٥٩).

حصَل للإنسانِ جَميعُ مُراداتِه، لَكان غمُّه وهمُّه أزيدَ مِن سُرورِه؛ لِأجْل قِصَرِ وقْتِه، وقلَّة الوثوقِ به، وعدَمِ عِلْمِه بأنَّه: هَلْ يَنتَفِعُ به أمْ لا؟ وثانيها: أنَّ الإنسانَ كُلَّما كان وِجدانُه بمُرادات الدنيا أكثرَ، كان حرصُه في طلَبِها أكثرَ، وكُلَّما كان الحرْصُ أكثرَ، كان تألُّم القلْبِ بسببِ ذلك الحرْصِ أشدَّ؛ فإنَّ الإنسانَ يَتوهَّم أنَّه إذا فازَ بمَقصودِه سَكنَتْ نفسُه، وليس كذلك، بلْ يَزدادُ طلَبُه وحِرْصُه ورغبَتُه. وثالثها: أنَّ الإنسانَ بِقدْرِ ما يجدُ من الدُّنيا يَبقى محرومًا عَن الآخِرةِ التي هي أعظمُ السَّعاداتِ والخيرات، ومتَى عَرَفْتَ هذه الوجوهَ الثلاثةَ عَلِمْتَ أنَّ الدنيا متاعُ الغُرور، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

٥- في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يَتفطَّن لِمَا فيه مِن خير وشرٍّ؛ لِيعلمَ أنَّه ابتلاءٌ مِن الله؛ ففي الخيرِ يُبتلى؛ لِيشكر، وفي ضِدِّه يُبتلى؛ لِيصبر[2].

٦- التوجيهُ القرآني في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...﴾ يَبقى رصيدًا للأُمَّةِ المسلمة يَجلو لأبصارِها طبيعةَ هذه الدَّعوة، وطبيعةَ طريقِها، وطبيعةَ أعدائِها الرَّاصدين لها في الطَّريق، ويَبثُّ في قلبِها الطُّمأنينةَ لكلِّ ما تَلْقاه مِن وعدِ الله ذاك؛ فتعرِف حينَ تَتناوشُها الذِّئابُ بالأذى، وحين تَعْوِي حولَها بالدِّعاية، وحين يُصيبها الابتلاءُ والفِتنةُ أنَّها سائرةٌ في الطَّريق، وأنَّها ترَى معالمَ الطَّريق! ومِن ثَمَّ تَستبشرُ بالابتلاءِ والأذى والفِتنةِ، والادِّعاءِ الباطلِ عليها، وإسماعِها ما يُكرَه وما يُؤذِي؛ لأنَّها تَستيقنُ منه أنَّها ماضيةٌ في الطريقِ التي وصفَها اللهُ لها مِن قبلُ، وتَستيقنُ أنَّ الصَّبرَ والتقوى هما زادُ الطريق[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٤٠).

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ في إخْبارِه لعباده المؤمنين بذلك عدَّةُ فوائد: منها: أنَّ حِكمتَه تعالى تقتضِي حصولَ ذلك؛ لِيتميَّزَ المؤمِنُ الصادِق مِن غيره، ومنها: أنَّه تعالى يُقدِّر عليهم هذه الأمور؛ لِما يُريده بهم من الخير؛ لِيُعليَ دَرجاتِهم، ويُكفِّرَ مِن سيِّئاتهم، وليزدادَ بذلك إيمانُهم، ويُتِمَّ به إيقانَهم؛ فإنَّه إذا أخبرَهم بذلك، ووقَع كما أخبر، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾، ومنها: أنَّه أَخبرَهم بذلك؛ لِتتوطَّنَ نفوسُهم على وقوعِ ذلك، والصَّبرِ عليه إذا وقَعَ؛ لأنَّهم قد استعدُّوا لوقوعِه؛ فيهونُ عليهم حِمْلُه، وتخِفُّ عليهم مُؤنتُه، ويَلجؤون إلى الصَّبرِ والتقوى[1].

٨- التنبيهُ على فضيلةِ العزْمِ في الأمورِ؛ لِقوله: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، وكلَّما كان الإنسانُ عازِمًا في أمورِه، كان ذلك أَنجحَ له وأحسَنَ[2].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ يدلُّ على أنَّ المقتولَ يُسمَّى بالميِّت[3].

٢- في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بَيَّن تعالى أنَّ تمامَ الأجْرِ والثوابِ لا يصِلُ إلى المكلَّف إلَّا يومَ القيامة؛ لأنَّ كلَّ مَنفَعةٍ تصلُ إلى المكلَّف في الدُّنيا فهي مُكدَّرةٌ بالغُمومِ والهُموم، وبخوفِ الانقطاعِ والزَّوال، والأجرُ التامُّ والثواب الكامِل إنَّما يصلُ إلى المكلَّفِ يومَ القيامة؛ فهناك يَحصُلُ السُّرورُ بلا غمٍّ، والأمْنُ بلا خوْفٍ، واللذَّةُ بلا أَلَمٍ، والسَّعادة بلا خَوفِ الانقطاعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٢).

وكذا القولُ في جانبِ العِقاب؛ فإنَّه لا يَحصُل في الدُّنيا أَلَمٌ خالِصٌ عن شَوائبِ اللذَّة، بل يمتزِجُ به راحاتٌ وتخفيفات، وإنَّما الألمُ التامُّ الخالِصُ الباقي هو الذي يكون يومَ القيامةِ، نعوذُ بالله مِنْه[1].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إشارةٌ لطيفةٌ إلى نعيمِ البَرْزَخِ وعذابِه، وأنَّ العامِلين يُجزَون فيه بعضَ الجزاء ممَّا عمِلوه، ويُقدَّم لهم أنموذجٌ ممَّا أسلَفوه، يُفهم هذا مِن قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: تَوفِيَة الأعمالِ التامَّة، إنَّما يكونُ يومَ القيامَة، وأمَّا ما دون ذلك فيكونُ في البَرْزَخ، بل قد يكونُ قبل ذلك في الدُّنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾[2] [السجدة: ٢١].

٤- إنَّما جمَعَ بين ﴿زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ و﴿أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ مع أنَّ في الثاني غُنْيةً عن الأوَّل؛ قيل: ليُعلِّق الفوزَ- وهو نيلُ الحظِّ مِن الخيرِ، والنجاةُ من الشرِّ- على التنحيةِ من النارِ ودُخولِ الجنة[3]. وقيل: للدَّلالةِ على أنَّ دُخولَ الجنَّةِ يَشتمِلُ على نِعمتَينِ عظيمتينِ: النَّجاةِ مِن النار، ونعيمِ الجنَّة[4].

٥- لفظ ﴿زُحْزِحَ﴾ بذاتِه يُصوِّر معناه، ويَرسِم هيئتَه، ويُلقي ظلَّه! وكأنَّما للنَّار جاذبيَّةٌ تشدُّ إليها مَن يَقترب منها، ويَدخُل في مجالها! فهو في حاجةٍ إلى مَن يُزحزِحه قليلًا قليلًا؛ لِيُخلِّصَه مِن جاذبيَّتها المنهومَة! فمَن أَمْكَن أنْ يُزحزحَ عن مجالِها، ويُستنقذَ مِنها، ويدخلَ الجنَّة- فقد فاز؛ صورةٌ قويَّة، بل مَشهدٌ حيٌّ؛ فيه حركةٌ وشدٌّ وجذْبٌ[5]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٦٠- ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((في ظِلال القرآن)) لسيد قطب (١/ ٥٣٩).

٦- قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ... أَذًى﴾ ولم يقُلْ ضررًا؛ لأنَّ هذا الذي يَسمُعه المؤمنون يُؤذيهم، ولكن لا يَضرُّهم[١].

٧- الصَّبرُ عبارةٌ عن احتمالِ المكروه، والتقوى عبارةٌ عن الاحترازِ عمَّا لا ينبغي، وفِعلِ ما يَنبغي فِعلُه؛ فقَدَّم ذِكرَ الصَّبر ثمَّ ذَكَر عَقِبَه التقوى في قولِ الله تبارَك وتعالَى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾؛ لأنَّ الإنسانَ إنَّما يُقدِمُ على الصَّبر؛ لأنَّه يُريدُ الاتِّقاءَ عمَّا لا يَنبغي. وفيه وجهٌ آخر: وهو أنَّ مُقابَلةَ الإساءةِ بالإساءةِ تُفضِي إلى ازديادِ الإساءة، فأَمرَ بالصَّبْر؛ تقليلًا لمضارِّ الدُّنيا، وأمَر بالتقوى؛ تقليلًا لمضارِّ الآخِرة، فكانتِ الآيةُ على هذا التأويلِ جامعةً لآداب الدُّنيا والآخِرة[٢].

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ خبرٌ فيه وعْدٌ للمُصدِّق، ووعيدٌ للمُكذِّب[٣].

- وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ فيه: تشبيهٌ بَليغٌ؛ فقد شبَّه الدنيا بالمتاعِ الذي يُدلِّس به بائعُه على طالِبه؛ حتَّى يَنخدعَ ويَشتريَه، وخرَجَ هذا التَّشبيهُ مَخرجَ الإنكارِ على مَن جَعَل دَيْدَنَه الاغترارَ بالدُّنيا، وهي في الواقعِ لا نَفْعَ فيها، ولا طائِل تحتَها[٤].

- وفيه: تأكيدُ الخبرِ باسميَّة الجُملة، والقصْر بـ(مَا) و(إلَّا)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٢٥)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٩٦).

(٥) يُنظر: ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٥٩٦).

٢- قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَذًى كَثِيرًا﴾ أكَّد الفِعلين (لتبلونَّ- ولتسمعنَّ) بلامِ القَسم، وبنونِ التوكيدِ الشَّديدة؛ لإفادةِ تحقيقِ الابتلاءِ؛ إذْ نونُ التوكيدِ الشديدةُ أقْوَى في الدَّلالةِ على التوكيدِ مِن الخفيفةِ[1].

- وفيه: تقديمُ الأموالِ؛ لِكثرة وقوعِ الهلَكةِ فيها[2].

- وقوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: من قبلُ إيتائِكم القرآنَ، وهم اليهودُ والنَّصارى؛ عبَّر عنهم بذلِك للإشعارِ بمدارِ الشِّقاقِ، والإيذانِ بأنَّ بعضَ ما يَسمَعونه منهم مُستنِدٌ على زعْمِهم إلى الكتابِ، والتصريحُ بالقَبْليَّة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ لِتأكيدِ الإشعارِ وتقويَةِ المدارِ؛ فإنَّ قِدَمَ نُزولِ كتابِهم ممَّا يُؤيِّد تمسُّكَهم به[3].

٣- قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الصَّبر والتَّقوى، وما فيه مِن معنى البُعد؛ لِلإيذانِ بعُلُوِّ درجتِهما، وبُعدِ مَنزلَتِهما[4].

وتوحيدُ حَرْفِ الخِطاب؛ إمَّا باعتبارِ كلِّ واحدٍ من المخاطَبين، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالخِطاب مُجرَّدُ التنبيهِ مِن غيرِ مُلاحَظةِ خُصُوصِيَّةِ أحوالِ المخاطَبين[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٣- ١٢٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (١٨٧ - ١٨٨)

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بِمَفَازَةٍ﴾: أَيْ: بمَنجاةٍ، أو بمَوضِعِ الفوْز، ومِنْه يُقال: فازَ فُلانٌ، أَيْ: نجا، والفوز: الظَّفَرُ بالخيرِ مع حُصولِ السَّلامة، وأصلُه: النَّجاة[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: وكذلك قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾: قُرِئ بتاءِ الخِطاب فيهما، وبياءِ الغَيبةِ فيهما، وبياءِ الغَيبةِ في الأوَّلِ وتاءِ الخِطابِ في الثَّاني، ولكلِّ قِراءةٍ توجيهُها الإعرابيُّ:

فعَلى قِراءة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ و﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ بالتاء؛ فالفِعلانِ مضافانِ إلى المخاطَب، وهو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو الفاعِلُ. و﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ مفعولٌ أوَّلُ لـ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، وحُذِف المفعولُ الثَّاني؛ لدَلالةِ ما بعدَه عليه- وهو ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾، الذي هو المفعولُ الثاني لـ﴿تَحْسَبَنَّهُمْ﴾، وقيل: إنَّ ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ هو المفعولُ الثاني لـ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ الأوَّلِ على تَقديرِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللُّغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١، ٦٤٧)، ((التِّبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤).

التَّقديمِ، فيكونُ المفعولُ الثاني لـ(تَحْسَب) الثاني محذوفًا؛ لدَلالةِ الأوَّلِ عليه تقديرُه: لا تَحسبَنَّ- يا محمَّدُ- الذين يَفرحون بما أَتَوْا بمفازةٍ من العذاب، فلا تَحسبنَّهم بمفازةٍ من العذابِ، ثم حُذِف الثاني. و﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾: تأكيدٌ لـ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاءِ أيضًا، أو بَدلٌ جاءَ مشوبًا بمعنى التأكيدِ؛ لاتِّفاقِ الفاعلين والمفعولين، والفاءُ صِلةٌ لا تمنعُ من البَدلِ.

وعلى قِراءة (لَا يَحْسَبَنَّ) و(فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ) بالياء؛ فـ﴿الَّذِينَ﴾ فاعلٌ، ومَفْعولَا (لَا يَحْسَبَن) محذوفانِ؛ اكتفاءً بمفعولي (فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ)؛ لأنَّ الفاعلَ فيهما واحدٌ، فالفِعلُ الثاني تكريرٌ للأوَّل؛ (فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ): تأكيدٌ لـ(لَا يَحْسَبَن)، أو بدلٌ جاءَ مشوبًا بمعنى التأكيد، ولَمَّا تعدَّى (فَلَا يَحْسَبَنَّهُمْ) إلى مَفعولَينِ استُغْني بذلك عن تَعدِّي (لَا يَحْسَبَن)؛ لأنَّ الثاني بدلٌ منه، فاستُغني بتعدِّيه عن تَعدِّي الأوَّل، والتقدير: لا يَحسبَنَّ الفارِحونَ أنفسَهم فائزين؛ فلا يَحسبنَّهم فائِزين.

وأمَّا على قِراءة الأوَّل (لَا يَحْسَبَنَّ) بالياء، والثاني (فَلَا تَحْسَبَنَّ) بالتاء؛ فالإعرابُ كما مرَّ في كلِّ فِعلٍ بحسَبِه، إلَّا أنَّه لا يَحْسُن في الثاني التأكيدُ أو البَدلُ؛ لاختلافِ فاعليهما، ولكن يكونُ مفعولَا الأوَّل حُذِفَا؛ لدلالةِ مفعولَيِ الثاني عليهما، وفي الآيةِ توجيهاتٌ أخرى[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُذكِّر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى عليه وسلَّم؛ حين أخذ سبحانَه عهْدًا مُؤكَّدًا مِن أهْل الكتاب: بأنْ يقوموا بتبيين ما في كُتُبهم للنَّاس، ولا يُخفون شيئًا ممَّا فيها؛ فنَقَضوا ذلك العهد، ولم يعملوا به، ومن ذلك أنْ كتموا صِفَة مُحمَّد صلَّى اللهُ

(١) يُنظر في إعرابِ هذه الآية وتوجيهها: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٢- ١٨٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٢٥- ٥٣٠).

عليه وسلَّمَ الَّتِي في كتُبهم، مُستبدِلين مُقابِلَ ذلك الكتمانِ ما حصلوا عليه من مَكاسِبَ دُنيويَّة حقيرة؛ فبِئس ما صَنَعوا.

ويُخاطِب اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنْ لا يَظُنَّ الذين يَفرحون بما فَعَلوه من أعمالٍ، ويُحبُّون أنْ يُثنِي عليهم الناسُ بما لم يَعملوه- أنَّهم سيَنجُون من عذابِ الله، بل لهم عذابٌ أليمٌ!

تَفسيرُ الآيتين:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حكَى اللهُ تعالى عنِ اليَهودِ شُبَهًا طاعِنةً في نُبوَّة مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وأجاب عنه، أتْبَعه بهذه الآيةِ، وذلك؛ لأنَّه تعالى أوجَبَ في التوراةِ والإنجيلِ على أُمَّة موسى وعيسى عليهما السَّلام أنْ يَشرحوا ما في هذين الكِتابَيْن من الدَّلائلِ الدَّالَّةِ على صِحَّة دِينِه، وصِدْقِ نُبوَّته ورِسالَتِه، والمراد منه التعجُّب مِن حالهم، كأنَّه قِيل: كيفَ يَليقُ بكم إيرادُ الطَّعْنِ في نُبوَّته ودِينه مع أنَّ كُتبَكم ناطِقةٌ ودالَّةٌ على أنَّه يجبُ عليكم ذِكْرُ الدَّلائل الدَّالَّة على صِدْق نبوَّته ودِينه[١].

وأيضًا فإنَّه تعالى لَمَّا أوجبَ في الآيةِ المتقدِّمةِ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ احتمالَ الأذى مِن أهْلِ الكتاب، وكان مِن جُملة إيذائِهم للرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أنَّهم كانوا يَكتُمون ما في التوراةِ والإنجيلِ مِن الدَّلائل الدَّالَّة على نُبوَّته؛ فكانوا يُحرِّفونها، ويَذكُرون لها تأويلاتٍ فاسِدةً؛ فبيَّن أنَّ هذا مِن تِلك الجُملةِ الَّتي يجب فيها الصَّبرُ[٢]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.

أَيْ: واذْكُر- يا مُحمَّدُ- حين عَهِد اللهُ عزَّ وجلَّ إلى اليهودِ وغيرِهم مِن أهل الكتاب عَهْدًا مؤكَّدًا: بأنْ يُبيِّنوا ما في كتُبهم للنَّاس، ولا يُخفونه أبدًا، ومن ذلك صِفةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإثباتُ رِسالتِه(١).

عنْ أبي هُرَيرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((من سُئِلَ عن علْمٍ عِلمَهُ، ثُمَّ كتَمَهُ، أُلْجِمَ يَومَ القيامَةِ بلِجامٍ من نارٍ))(٢).

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

أَيْ: فكانتِ النتيجةُ أنَّهم نقَضوا هذا العهْدَ، وترَكوا العملَ به، ككِتمانِهم صِفةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الناس(٣).

﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أَيْ: أرادُوا مُقابِلَ نقْضِهم عَهدَ الله تعالى؛ بكِتمانهم ما في كتُبهم- الحصولَ على حُظوظٍ دُنيويَّةٍ خسيسةٍ مِن مَناصِبَ أو أموالٍ، أو غيرِ ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٤-٥٢٥).

(٢) رواه الترمذيُّ (٢٦٤٩) واللفظ له، وأبو داود (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٢٦٦)، وأحمد في ((مسنده)) (٨٥١٤).

حسنه الترمذي، وقال ابن القطان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٢١٨): رواته كلهم ثقات. وصحح إسناده أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١٥/ ١٩٤)، وصححه الألباني في ((صحيح ابن ماجة)) (٢١٥)، وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٧٧): حسن رجاله رجال الصحيح.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٤، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٥).

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

أَيْ: فبِئستِ الصفقةُ صَفْقتُهم، وما أخْسرَها مِن تجارةٍ! لأنَّهم اختاروا الدَّنيءَ الخَسيسَ، وتركوا العاليَ النَّفيس(١).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)﴾.

سببُ النُّزول:

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رجالًا مِن المنافقين على عَهْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كان إذا خرَجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عنه، وفَرِحُوا بمقعدِهم خِلافَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإذا قَدِمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اعتَذَرُوا إليه وحَلَفُوا، وأحَبُّوا أنْ يُحْمَدوا بما لم يَفْعَلوا، فنزَلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآيةُ))(٢).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، بَيَّن تعالى هنا أنَّ مِن جُملةِ أنواعِ هذا الأذَى أنَّهم يَفرحون بما أَتَوْا به من أنواعِ الخُبْث، والتلبيسِ على ضَعَفةِ المسلمين، ويُحبُّون أنْ يُحمَدوا بأنَّهم أهْلُ البِرِّ والتقوى والصِّدْق والدِّيانة وغير ذلك، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ يَتأذَّى بمشاهدةِ مِثل هذه الأحوالِ؛ فأمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٩٤، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٦-٥٢٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٥٦٧)، ومُسلِم (٢٧٧٧).

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالمصابرةِ عليها وبيَّن ما لهم مِن الوعيدِ[١]، فقال تعالى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ قِراءتان:

١- قراءة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالخِطابِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وجَعْله الفاعِل، و﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ مفعولًا[٢].

٢- قراءة (لَا يَحْسَبَنَّ) بجَعْل الفاعل: ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾[٣].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.

أَيْ: لا تظُنَّنَّ يا مُحمَّدُ، ولا يَظُنَّنَّ الَّذين يَفرحون بما فعَلوه من أقوالٍ وأفعالٍ باطِلة: ككِتْمان العِلم مَن سألهم عنه، كاليهود، والتخلُّف عن الغزْو في سبيل الله تعالى، كالمنافقين، وكأعمال المتزيِّنين للنَّاس، المُرائين لهم بما لم يَشرَعْه الله ورسولُه[٤].

عن ثابتِ بنِ الضحَّاك رضِي اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ومَن ادَّعى دعَوى كاذبةً؛ لِيتكثَّرَ بها لم يَزدْه اللهُ إلا قِلَّةً))[٥].

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٦).

(٢) قرأ بها الكوفيُّون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٩).

(٥) رواه مُسلِم (١١٠).

أَيْ: وهم مع ذلك يُحبُّون أنْ يُثني الناسُ عليهم بالخَيرِ، على طاعاتٍ للهِ تعالى لم يَقوموا بها(١).

فجمَعوا بذلك بين فِعْلِ الشَّرِّ والفرَحِ بذلك، ومحبَّةِ حمْدِ النَّاسِ لهم على الخيرِ الذي لم يَفعلوه(٢).

عن عَلْقمةَ بنِ وقَّاصٍ ((أنَّ مَرْوانَ، قال: اذْهَبْ يا رافعُ- لبوَّابِه- إلى ابنِ عَبَّاسٍ فقُلْ: لَئِنْ كان كلُّ امْرِئٍ منَّا فَرِحَ بِما أَتى، وأَحبَّ أنْ يُحْمَدَ بما لم يَفْعَلْ مُعَذَّبًا، لَنُعَذَّبَنَّ أجمعونَ! فقال ابنُ عَبَّاسٍ: ما لكُم ولهذه الآيةِ؟ إنَّما أُنزِلَتْ هذه الآيةُ في أهلِ الكِتابِ، ثُمَّ تَلا ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] هذه الآيَةَ، وتَلا ابنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وقال ابنُ عَبَّاسٍ: سألَهُم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن شَيءٍ فكَتَموه إيَّاه، وأَخْبَروه بغَيرِه، فخَرَجوا قدْ أَرَوْه أنْ قدْ أَخْبَروه بما سَأَلَهُمْ عنه، واسْتَحْمَدوا بذلكَ إليه، وفَرِحوا بِما أَتَوْا مِنْ كِتْمانِهم إيَّاه ما سَأَلَهُمْ عنه))(٣).

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قِراءتان:

١- قراءة (يَحْسَبُنَّهُمْ) بجَعْلِ الفِعلِ للذين يَفرَحون بما أَتوا، ويُحبُّون أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٩-٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠).

(٣) رواه البُخاري (٤٥٦٨)، ومُسلِم (٢٧٧٨) واللفظ له.

يُحمدوا بما لم يَفعلوا، أَيْ: فلا يَحْسَبون أنفسَهم بمفازةٍ من العذابِ[١].

٢- قِراءة ﴿تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ بجَعْل الفِعل خِطابًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

أَيْ: فلا تَظُنَّهم- يا مُحمَّدُ- ولا يظُنَّ أولئك القومُ أنفسَهم أنَّهم في سَلامةٍ ونجاةٍ من عذابِ الله تعالى[٣].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أَيْ: إنَّهم قد استحقُّوا عذابًا مُؤلِمًا، سيَصيرون إليه[٤].

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ وجوبُ بيانِ العِلمِ على أهلِ العِلم، ولمْ يَذكرِ اللهُ عزَّ وجلَّ الوسيلةَ التي يَحصُل بها البيان؛ فتكونُ على هذا مُطلَقَةً، راجعةً إلى ما تَقتضيه الحالُ، قد يكون البيانُ بالقولِ، وقد يكونُ بالكتابةِ، وقد يكونُ في المجالسِ العامَّة، وقد يكونُ في المجالسِ الخاصَّة، على حسْبِ الحال؛ لأنَّ اللهَ أطلقَ البيانَ، ولم يُفصِّل ولم يُعيِّن[٥].

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٧)، ((الكشْف)) لمكي (١/ ٣٧١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٧)، ((الكشْف)) لمكي (١/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٧).

٢- يَنبغي قَرْنُ النَّفي بالإثباتِ في الأمور المهِمَّة؛ لِيتحقَّقَ الكمالُ؛ لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، ووجْه ذلك: أنَّ البيانَ عدمُ الكتمان، لكن لَمَّا قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ أكَّد البيانَ بأنْ يكونَ كامِلًا، ليس فيه أيُّ نوعِ كِتمانٍ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ وقال بعده: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ مع أنَّ البيان ضدُّ الكتمان؛ وذلك لأنَّ المعنى: لَتبيِّنُنَّه بيانًا لا كِتمانَ فيه بأيِّ وجهٍ من الوجوه[2]، أو يكون المرادُ مِن البيان ذِكْرَ تلك الآيات الدَّالَّة على نُبوَّة محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من التوراة والإنجيل، والمرادُ مِن النهي عن الكِتمان أنْ لا يُلقُوا فيها التأويلاتِ الفاسِدةَ، والشُّبهات المعطلة[3].

٢- الذمُّ القبيح لأهْلِ الكتابِ اليهود والنصارى؛ لِقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ وذلك أنَّه يُلاحَظ شدَّةُ القذْفِ في قوله: ﴿نَبَذُوه﴾، ثمَّ شِدَّةُ الاستكبار في قوله: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[4].

٣- دلَّ مفهومُ قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ على أنَّ مَن أحبَّ أنْ يُحمَدَ، ويُثنى عليه بما فعَلَه من الخيرِ، واتِّباع الحقِّ، إذا لمْ يكُن قصدُه بذلك الرِّياءَ والسُّمْعَةَ- أنَّه غيرُ مذمومٍ، بل هذا من الأمورِ التي جازَى بها اللهُ تعالى خواصَّ خَلْقِه، وسألوها مِنه، كما قال إبراهيمُ عليه السَّلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، وقد قال عِباد الرَّحْمن: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

بَلاغَةُ الآيتين:

١ - قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قليلًا﴾ كلامٌ مُستأنَف سِيقَ؛ لِبيان بعض أذياتهم، وهو كِتْمانُهم ما في كِتابِهم من شواهِدِ نُبوَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وغيرِها(١).

- وفيه: التفاتٌ؛ فقد انتقلَ من الغَيْبةِ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ...﴾ إلى الخِطابِ في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾، ثمَّ عاد إلى الغَيْبةِ في قولِه تعالى: ﴿فَنبَذُوه﴾، والفائدةُ مِن ذلك: زيادةُ التَّسجيلِ المباشِرِ عليهم(٢).

- وفيه تأكيدُ إيجابِ بيانِ الكتابِ، واجتنابِ كِتمانه؛ حيثُ قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾، ولم يقل: (ولا تكتموه)، ولَم يُؤكِّد بالنون؛ لكونِه مَنفيًّا؛ أو لأنَّه اكتفَى بالتأكيدِ بالنونِ في الأوَّل؛ ولأنَّ هذا الفِعلَ نفسَه تأكيدٌ له(٣).

- قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ فيه: العطْف بالفاءِ الدَّالَّةِ على التعقيبِ؛ للإشارةِ إلى مُسارَعتِهم إلى ذلك، ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ مُستعمَلةً في لازِم التعقيب، وهو شِدَّةُ المسارَعَة لذلك عند اقتضاءِ الحال إيَّاه، والاهتمامُ به، وصرْفُ الفكرة فيه(٤).

- قوله: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قليلًا﴾ فيه نهايةُ الجَزالة، والدَّلالةُ على كمالِ فَظاعة حالِهم وغاية قُبْحها، بإيثارِهم الدنيءَ الحقيرَ على الشَّريفِ الخَطير، وتَعكيسِهم بجعلهم المقصِدَ الأصليَّ وسيلةً، والوسيلةَ مَقصِدًا؛ حيثُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٢٨)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩١- ١٩٢).

صوَّر هذه المعاملةَ بعقْدِ المعاوَضَة، لا سيَّما بالاشتراءِ المؤذِن بالرَّغبةِ في المأخوذ، والإعراضِ عن المعطَى، والتعبيرِ عن المُشترَى الذي هو العُمْدةُ في العَقْد، والمقصودُ بالمعامَلة بالثَّمنِ الذي شأْنُه أنْ يكونَ وسيلةً إليه، وجعْلِ الكتابِ الذي حقُّه أنْ يَتنافسَ فيه المتنافِسون مَصحوبًا بالباءِ الدَّاخِلة على الآلاتِ والوسائلِ[١].

٢- قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ فيه تَكرار الفعل (حسب)، وهو يُفيد التَّأكيد[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٦).

الآيات (١٨٩ - ١٩٥)

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ
يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن
تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا
يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ
مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ
وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَخْزَيْتَهُ﴾: أي: أهْلكتَه وأبعدتَه، وقيل: أَخْزى فلانًا، أي: ألْزمَه الحُجَّةَ وأذلَّه معها، وخزِيَ الرَّجُلُ: لَحِقَه انكسارٌ، والخزاية: النَّكالُ والفضيحةُ، وأصل الإخزاء: الإبعادُ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾

﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾: الجارُّ والمجرور متعلِّق بـ﴿وَعَدْتَنَا﴾، بتقديرِ مُضافٍ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥، ٤٣٢).

محذوف، والتَّقدير: ما وَعَدْتنا على تَصديقِ رُسلِك مِن الثَّوابِ، أو على ألْسنةِ رُسلِك، ويجوزُ أنْ يتعلَّق بـ﴿آتِنَا﴾، وقيل غير ذلك[١].

٢- قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾

﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ﴾: (أنَّ) المفتوحةُ وما بعدَها مَصدرٌ مؤوَّل، وهو في مَحلِّ نصْبٍ على نزْعِ الخافِض، أو في محلِّ جرٍّ بحَرْف الجرِّ؛ إذ التقدير: (بأنِّي لا أُضيع)، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بـ﴿اسْتَجَابَ﴾. وقُرِئ (إنِّي) بالكسر على تَقديرِ: فقَال: إنِّي لا أُضيع، أو على الحِكايةِ بـ﴿اسْتَجَابَ﴾؛ لأنَّ فيه معنى القول، وعليه فـ(إنَّ) وما بعدَها في محلِّ نصْب؛ لأنَّها جملةُ مقول القول[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى أنَّه وحَدَه مَن يَملِكُ السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما، وهو ذو القُدرةِ التامَّةِ على كلِّ شيء.

ويُخبر أيضًا سبحانه أنَّ في خلقِ السَّموات والأرض من عدمٍ، وصُنعِهما المتقنِ وما فيهما، وتعاقُبِ الليل والنهار، لَدلائلَ واضحةً لذوي العقولِ السَّليمةِ، تدلُّهم على الخالقِ سبحانه وعلى صِفاتِه، هؤلاء هم الذين يَذكُرون الله تعالى دائمًا، وعلى مُختلفِ حالاتِهم؛ قِيامًا وقُعودًا ومُضطجِعين، وتَجُولُ أفكارُهم في خلْقِ السَّمواتِ والأرض، يقولون وهم يتفكَّرون فيها مُخاطِبين الله تعالى: إنَّك يا ربَّنا، لم تَخلقْ هذا الخلقَ عبثًا؛ فأنتَ منزَّهٌ عن العَبثِ واللَّهو، فجنِّبْنا عذابَ النارِ، تِلك النارُ التي مَن أدخلتَه فيها فقدْ أهنتَه، وما للظالمين مِن أنصار، ربَّنا إنَّنا سَمِعنا نبيَّك مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعو إلى الإيمانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣٧ - ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣٨)، ((إعراب القرآن الكريم)) لدعاس (١/ ١٨٠).

بك، فاستجَبْنا له، فتجاوزْ عن ما اقتَرَفْناه مِن ذنوبٍ، واستُرْها بسَتْرِك، وامْحُها بإيمانِنا بك واتِّباعنا لنبيِّك، واجعَلْنا حينَ تتوفَّانا مِن الصَّالحين، ربَّنا وآتِنا جميعَ ما وعدتَنا به على ألْسِنةِ رُسلِك، ولا تَفضَحْنا بذُنوبِنا أمامَ الخَلْقِ يومَ القيامة؛ إنَّك لا تخلفُ وعدَك.

فأَخبرَ اللهُ تعالى أنَّه استجابَ لهم تلك الدَّعواتِ؛ فهو سبحانه لا يَضيعُ عَملٌ عنده، أيُّ عَملٍ، ومِن أيِّ عاملٍ، سواء كان ذكرًا أو أنثى؛ فلا فَرْقَ بينهم في ذلك، فالذين ترَكوا أوطانَهم- لكونها دارَ كُفرٍ- إلى دارِ الإيمان، أو طَرَدَهم أهلُ الشِّركِ مِن دِيارهم، وأُوذوا في سبيل الله، وقاتلوا في سبيلِ الله وقُتلوا، سَيمْحُو اللهُ عنهم خَطاياهم، وسيُدخلهم جنَّاتٍ تَجري من تحتِها الأنهارُ؛ جزاءً من عند الله على ما بذَلوا وقدَّموا، واللهُ تعالى عنده حُسنُ الثَّواب.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو وَحْدَه المالكُ لكلِّ شيءٍ؛ فيَملِكُ السَّمواتِ والأرضَ، وجميعَ ما من أصنافِ الخَلْق[1].

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ له كمالُ القُدرةِ على كلِّ شيءٍ، فلا يمتنعُ عليه أحدٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ سبحانه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان المقصودُ من هذا الكتابِ الكريمِ جَذْبَ القلوبِ والأرواحِ عن الاشتغالِ بالخَلقِ إلى الاستغراقِ في مَعرفةِ الحقِّ، والإيمانِ بهِ وتوحيدِهِ وطاعتِهِ، فلمَّا طال الكلامُ في تقريرِ الأحكامِ، والجوابِ عن شُبهاتِ المبطِلين، عادَ إلى إنارةِ القلوبِ بذِكرِ ما يدلُّ على التوحيدِ والإلهيَّة والكبرياءِ والجلالِ، فذَكَر هذه الآيَةَ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّه مالكُ السَّمواتِ والأرضِ، وذكَر قُدرتَه، ذكَر أنَّ في خَلقِهما دَلالاتٍ واضحةً لذَوي العقولِ[2]، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ في إيجاد هذه السَّموات والأرضِ من العدمِ، وابتداعِهما على غيرِ مثالٍ سبَق[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٦-٥٣٨).

وفي خلقِ السَّموات والأرضِ آياتٌ مِن عدةِ أوجهٍ:

الوجهُ الأوَّل: مِن جهة الكِبَر والسَّعة.

الوجه الثاني: ما فيهما من الحُسن والبهاءِ والجَمال، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥].

الوجه الثالث: في خَلق السَّموات من جهةِ إتقانِها وعدمِ تخلخلها، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ - ٤].

الوجه الرابع: في خلقِ السَّموات والأرضِ مما أودع الله فيهما مِن الموادِّ المتعددةِ، المختلفةِ الأنواعِ والأشكالِ والمنافعِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ =

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

أي: وفي تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ على العبادِ، وتفاوتهما طولًا وقِصَرًا، وغير ذلك[١].

﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أي: إنَّ في خَلْق تِلكِ المخلوقاتِ العجيبةِ، وما تَحويه من الأشياءِ المبهرةِ العظيمة، لعلاماتٍ لأصحابِ العقولِ السَّليمةِ، التي تُدرِكُ حَقائقَ الأشياء، فتدلُّهم على أنَّ خالقَ ذلك هو الربُّ المعبودُ وحْدَه سبحانه، كما تدلُّهم على صِفاتِ الله تبارَك وتعالَى[٢].

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما، قال: ((بِتُّ في بيتِ مَيمونَةَ ليلةً، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِندَها؛ لأنظُرَ كيفَ صلاةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالليلِ، فتحدَّث رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ معَ أهلِه ساعةً ثم رقَد، فلمَّا كان ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، أو بعضُه، قعَد فنظَر إلى السَّماءِ، فقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ثمَّ قام فتوضَّأ واستَنَّ[٣]،

= [الرعد: ٤] يعني متجاورات بعضها إلى جوار بعض ولكن بينهما من الاختلاف ما لا يعلمه إلا الله.

فيهما أيضًا ما فيهما مِن المنافعِ العظيمةِ للخلقِ؛ فالشمسُ فيها خيرٌ عظيمٌ، والقمرُ كذلك، والأشجارُ وغيرُها كلُّها فيها خيراتٌ عظيمةٌ من آيات الله عزَّ وجل. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٧)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٩-٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٠).

(٣) استنَّ أي: استاك، والاستنانُ الاستياكُ، وهو دلكُ الأسنانِ بالعُودِ ونحوِه. يُنظر: ((فتح الباري)) (١/ ١٣٤).

ثم صلَّى إحْدَى عشْرةَ ركعةً، ثم أذَّن بلالٌ بالصَّلاةِ، فصلَّى ركعتَينِ، ثمَّ خرَج فصلَّى للناسِ الصُّبحَ))[1].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سبحانه وتعالى في الآيةِ السَّابقةِ دَلائلَ الإلهيَّةِ والقُدرةِ والحِكمةِ، وهو ما يتَّصلُ بتَقريرِ الرُّبوبيَّة، ذكَرَ بعدَها ما يتَّصل بالعبوديَّة[2].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى أنَّ الذين يَنتفعونَ بتلك الآياتِ هم أُولو الألبابِ، شرَعَ في وصْفِهم[3]، فقال:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾.

أي: إنَّ أُولي الألبابِ هم الذين يُديمون ذِكرَ اللهِ تعالى بقلوبِهم وألْسنتِهم، وفي جميعِ أحوالِهم، في حالِ وُقوفِهم، وحالِ جُلوسِهم، وحالِ اضطجاعِهم[4].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وصَفَهم بالذِّكر، وثبَت أنَّ الذِّكرَ لا يَكمُلُ إلَّا مع الفِكر، لا جرمَ قال بَعْدَه[5]:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٠).

أي: إنَّ مِن صِفاتِهم أيضًا أنهم يُعمِلون عُقولَهم في خَلْقِ اللهِ تعالى للسَّمواتِ والأرض؛ ليَستدلُّوا بذلك على المقصودِ منها، ويَفهموا ما فيها من الحِكمِ الدالَّةِ على صِفاتِ الخالقِ جلَّ وعلا(١).

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾.

أي: إنَّهم حين يَتفكَّرون في خَلْقِ السَّمواتِ والأرض، يقولون: إنَّك يا ربَّنا، لم تَخلقْ هذا الخَلْقَ عبثًا ولا لهوًا؛ فأنتَ مُنزَّهٌ عن ذلك، ولكنَّك خلقتَه لحِكمةٍ ولأمرٍ عظيمٍ، من تكليفٍ وبعْثٍ، وحسابٍ وجزاءٍ، فتجزي كلَّ أحدٍ بما عمِله من خيرٍ أو شرٍّ(٢).

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

أي: يا مَن خلقتَ الخَلْقَ بالحقِّ والعدل، وأنتَ منزَّهٌ عن النقائصِ والعيوب، أَجِرْنا من عذابِ النار، بأنْ تُوفِّقَنا للأعمالِ الصالحات، وتُجنِّبنا بفضلِك الذُّنوبَ والسيِّئات(٣).

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤١-٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٠-٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا سألوا ربَّهم أن يَقيَهم عذابَ النار، أتْبعوا ذلك بما يدلُّ على عِظَمِ ذلك العقابِ وشِدَّته، وهو الخزيُ؛ ليكونَ موقعُ السؤال أعظمَ؛ لأنَّ مَن سأل ربَّه أنْ يَفعلَ شيئًا، أو ألَّا يَفعلَه، إذا شرَح عِظمَ ذلك المطلوبِ وقوَّتَه، كانت داعيتُه في ذلك الدعاءِ أكْمَلَ، وإخلاصُه في طلبه أشدَّ، والدُّعاءُ لا يتَّصلُ بالإجابةِ إلَّا إذا كان مقرونًا بالإخلاصِ؛ فهذا تعليمٌ من اللهِ لعبادِه في كيفيَّة إيرادِ الدُّعاء[1].

وأيضًا لَمَّا دَعَوْا أنْ يَقيَهم اللهُ من النار، بيَّنوا سببَ دُعائِهم، وأنَّ سببَ ذلك هو أنَّ النارَ دارُ الخِزي[2]؛ لذا قالوا:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾.

أي: إنَّ مَن أدخلتَه النارَ يا رَبَّنا، فقدْ أَهنتَه وفَضحْتَه[3].

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

أي: إنَّهم إنما دخلوا النارَ بظُلمِهم، وليس للظالمِ يَومَ القيامةِ أحدٌ يُنقذُه من عذابِ اللهِ تعالى[4].

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٠-٥٥١).

أي: إنَّهم قالوا: يا ربَّنا، إنَّنا قد سمِعْنا داعيًا يَدْعو إلى الإيمانِ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾.

أي: يقولُ للنَّاسِ: آمِنوا بربِّكم، فبَادَرْنا إلى الاستجابةِ له، فأَقرَرْنا بالحقِّ وقبِلْناه، مُنقادِين إليه، ومُذعِنين له[2].

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

أي: بإيمانِنا واتِّباعِنا نبيَّك، استُرْ علينا ذُنوبَنا، وتجاوزْ عن مُؤاخذتِنا بها[3].

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾.

أي: بإيمانِنا واتِّباعِنا نبيَّك، امحُ عنَّا خَطايانا؛ فالحسناتُ يُذهِبْنَ السيِّئاتِ[4].

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

أي: واجعلْنا إذا قَبضتَ أرواحَنا إليك في عِدادِ الصَّالحين[5].

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٣-٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١). ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٦).

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾.

أي: وأعطِنا- يا ربَّنا- ما وعَدتَنا به على ألْسنةِ رُسلِك عليهم السَّلامُ، من النَّصرِ على الأعداء[1]، ومِن الثوابِ على الأعمالِ الصَّالحة[2].

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ولا تَفْضَحْنا بذُنوبِنا على رُؤوسِ الخلائقِ، ولا تُذِلَّنا يومَ القيامةِ[3].

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

أي: فإنَّا قد علِمْنا بأنَّك لا تُخلفُ وعدَك لعبادِك[4].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عنهم مواظبتَهم على الذِّكر، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا﴾، وعلى التفكُّرِ، وهو قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم حكَى عنهم أنَّهم أثْنَوا على اللهِ تعالى، وهو قولُهم: ﴿رَبَّنَا مَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (١/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٥).

خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾، ثمَّ حَكَى عنهم أنَّهم بعدَ الثناءِ اشتَغلوا بالدُّعاء وهو مِن قولِهم: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾: إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾- بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه استجابَ دُعاءَهم[1]، فقال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

أي: فأجابَ اللهُ تعالى أولئك الدَّاعين، بأنَّ عمَلَ كلِّ عاملٍ منهم محفوظٌ لديهِ؛ قلَّ أو كثُر، وسواء كان صادرًا مِن ذَكَرٍ أو أُنثى؛ فلا فَرْقَ بينهم في الثَّوابِ وإجابةِ الدعوات، مِثلما أنَّه لا فَرْقَ بينهم في اتِّباع مِلَّةِ الإسلام[2].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ قِراءات:

١- قِراءة (وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا) قيل: على معنى أنَّ بعضَهم يُقتَل، فيَقتُل الباقون مَن بقِي مِن عَدوِّهم، وهذا أبلغُ في مَدحِهم؛ لأنَّهم يُقاتِلون بعد أن يُقتَل منهم، فلم يَهِنوا بعدَ قتْلِ أصحابِهم[3].

٢- قراءة ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ قيل: على معنى أنَّهم قاتلوا أحياءً ثم قُتِلوا؛ لأنَّ القتْلَ لا يكونُ إلَّا بعدَ قِتال[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣١٩، ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٩).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص:١٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٤٢-٥٤٣).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٠٥).

=

٣- قراءة (وَقَاتَلُوا وَقُتِّلُوا) بتشديدِ التاء، على معنى التَّكثير[١].

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.

أي: فالذين غادَروا قومَهم من أهلِ الكُفر، واسْتَوْطَنوا دارَ الإيمانِ مع إخوانِهم في الله، وطرَدَهم المشركونَ، أو ضايقوهم بالأذَى حتى ألْجؤوهم إلى الخروجِ من بين أَظهرِهم، ووقَعَ عليهم الأذى بسببِ إيمانِهم باللهِ تعالى وطاعتِهم له سبحانه، وقاتَلوا في سبيلِ اللهِ تعالى لإعلاءِ كَلمتِه، وقُتِّلوا تَقتيلًا كثيرًا، مِثل أصحابِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ورضِي اللهُ عنهم[٢].

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: إنَّ أولئك المؤمنين والمؤمنات؛ بسببِ ما حصَل لهم مِن تلك الأشياءِ مِن هِجرةٍ وجِهادٍ وغيرِ ذلك[٣]، يمحو اللهُ تعالى عنهم خَطاياهم[٤].

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: ولأُسكِننَّهم جنَّاتٍ تَجري في خلالِها أنواعٌ من الأنهار؛ جزاءً عظيمًا لهم على ما قدَّموا، وأبْلَوْا في سبيلِ العظيمِ الكريمِ[٥].

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨٧).

(١) قرأ بها ابن كثير وابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٩-٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٧١-٥٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سوؤة آل عمران)) (٢/ ٥٧٣-٥٧٤).

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ عنده الجزاءُ الحسن لِمَن عمِلَ صالحًا، ممَّا لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خَطَر على قلبِ بشَرٍ(١).

الفَوائدُ التَّربويَّة:

١- الحثُّ على التأمُّل في خَلْقِ السَّمواتِ والأرض؛ لأنَّ اللهَ ذَكَر أنَّ فيهما آياتٍ، والآياتُ هي: العلاماتُ، وكلَّما ازدادتِ الآياتُ وضوحًا ازدادَ الإيمانُ قُوَّةً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾(٢).

٢- إدامةُ ذِكرِ الله تعالى على كلِّ حال، فالمرادُ بقوله تعالى: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ عُمومُ الأحوال، على أنَّ هذه الأحوالَ هي مُتعارَفُ أحوالِ البَشرِ في السَّلامة، أي: أحوال الشُّغل، والرَّاحة، وقَصْد النَّوم(٣).

٣- أصنافُ العُبوديَّة ثلاثةُ أقسام: التَّصديقُ والإذعانُ بالقلب، والإقرارُ باللِّسان، والعملُ بالجوارحِ؛ فقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللهَ﴾ إشارةٌ إلى عُبوديَّةِ اللِّسان، وقوله: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ إشارةٌ إلى عُبوديَّةِ الجوارحِ والأعضاء، وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى عُبوديَّة القلبِ والفِكرِ والرُّوح، والإنسانُ ليس إلَّا هذا المجموع، فإذا كان اللِّسان مستغرقًا في الذِّكرِ، والأركانُ في الشُّكر، والجَنانُ في الفِكر، كان هذا العبدُ مُستغرقًا بجميعِ أجزائِه في العبوديَّة(٤).

٤- أنَّ ذِكرَ اللهِ تعالى لا يَكفي وَحْدَه في الاهتداءِ إلى الآيات، ولكن يُشترَط

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٥٩).

معه التفكُّرُ في تِلك الآيات؛ فلا بدَّ من الجمْعِ بَينَ الذِّكر والفِكْر، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(١).

٥- في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارَ﴾ تعليمُ العبادِ كيفيَّةَ الدُّعاءِ وآدابَه، وذلك أنَّ من أراد الدُّعاءَ فلْيُقَدِّمِ الثَّناءَ، ثم يَذْكُر بعده الدُّعاءَ، كهذه الآيةِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتصرَّفَ في مُلكِه إلَّا على حسَبِ إذْنِ الشَّارع؛ لأنَّ كونَ المُلكِ للهِ يدلُّ على أنَّ تصرُّفَنا فيه إنما يكونُ بطريق الوكالةِ، والوكيلُ يَتقيَّد بما أُذِن له فيه(٣).

٢- أنَّه كلَّما كان الإنسانُ أعقلَ، كان باللهِ وآياتِه أعلمَ؛ لقوله: ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ والحُكمُ المعلَّقُ على وصْفٍ يَثبُت لثبوتِه، ويُعدَم لعدمِه، فإذا كان أصحابُ العقولِ هم الذين يَنتفعون بهذه المخلوقاتِ، ويَستدلُّون بها على الخالقِ عزَّ وجلَّ، وعلى ما له مِن صِفاتِ الكمال؛ فإنَّ مَن عقلُه عَقلٌ بهيميٌّ لا يَنتفع بهذه الآيات؛ لأنَّه ليس من ذوي الألباب(٤).

٣- أنَّ ذِكرَ الله عزَّ وجلَّ من لوازمِ العقلِ ومُقتضياتِه؛ لقوله: ﴿لِأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٦/ ١١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٦).

٤- جوازُ ذِكرِ الله تعالى للجُنُب؛ لدُخولِه في عموم قولِه: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[١].

٥- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾: تخصيصُ الأحوالِ المذكورةِ بالذِّكر ليس لتخصيصِ الذِّكرِ بها، بل لأنَّها الأحوالُ المعهودةُ التي لا يَخلو عنها الإنسانُ غالبًا[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنَّه إذا أثْنى على المتفكِّرين في الخَلْق، فالمُتفكِّرون في الشَّرْعِ مِن باب أوْلى؛ لأنَّ الشرعَ ليس أمرًا مَحسوسًا، فالتفكُّر فيه أبلغُ في الإيمانِ من التفكُّرِ في الخَلق؛ الخلق أمرٌ محسوس، كلُّ إنسان يُدركه، لكنَّ حِكَم الشَّرائعِ وأسرارَها ليس كلُّ أحدٍ يُدركُها[٣].

٧- أنَّ صفوةَ الخَلقِ مُحتاجون إلى الدُّعاءِ للوقايةِ مِن النار؛ لقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٤].

٨- إثباتُ التوسُّل في الدُّعاءِ بصِفاتِ اللهِ؛ يُؤخذ ذلِك مِن قوله: ﴿فَقِنَا﴾؛ لأنَّهم بَنَوْا ﴿فَقِنَا﴾ على قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ يعني: أنَّنا نتوسَّلُ إلى الله عزَّ وجلَّ بتنزُّهه عن النقصِ أنْ يَقيَنا عذابَ النار؛ لأنَّنا مؤمنون؛ لقوله: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ويُقرُّون بأنها خُلقتْ بالحقِّ وللحقِّ، ويُنزِّهون اللهَ عزَّ وجلَّ عن كلِّ نقْصٍ وعيبٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- التوسُّلُ إلى الله تعالى بالربوبيَّة حالَ الدُّعاءِ، بتعبيرِهم في دُعائِهم باسمِ الربوبيَّة، أو وصْف الربوبيَّة دون اسمِ الجلالة؛ في قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾، لأنَّ الربوبيَّةَ بها الخَلْقُ والمُلك والتَّدبير، والقيامُ بأمورِ العِباد وإصلاحُها، ولِمَا في الربوبيَّة من الدَّلالةِ على الشَّفقةِ بالمربوب، ومَحبَّة الخيرِ له، ومِن الاعترافِ بأنَّهم عبيدُه، فكان العبدُ مُتعلِّقًا بمَن شأنُه التربيةُ والرِّفقُ والإحسانُ، ولتتأتَّى الإضافةُ المفيدةُ التشريفَ والقُرب(١).

١٠- تكرَّر لفظ ﴿رَبَّنَا﴾ خمسَ مرَّات؛ كل ذلك على سَبيلِ الاستعطاف، وتَطلُّبِ رحمةِ الله تعالى بِندائِه بهذا الاسمِ الشريفِ الدالِّ على التربيةِ والمُلكِ والإصلاح، وفيه أيضًا دَلالةٌ على الإلحاحِ في المسألة، واعتمادِ كثرةِ الطَّلب مِن الله تعالى(٢)، وتَكرارُ الدُّعاءِ من أسبابِ الإجابة(٣).

١١- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ بيان أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذَلَ الجهدَ في دعوةِ الخَلْق إلى الحقِّ؛ لأنَّ النداءَ يكون برفْعِ الصوت، فكأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاة والسَّلام يدعو الناسَ بأعْلَى صوتِه يُناديهم للإيمانِ(٤).

١٢- أنَّ الكلمات قد يُستغنى بمُجملها عن تفصيلها؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أي: بكلِّ شيءٍ يجب الإيمان به، فكلُّ ما أخبر اللهُ به، وصَدَّقْنا به، وأَقْرَرْنا به، فهو داخلٌ في الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ(٥).

(١) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٧٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٥٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٣- الإشارةُ إلى بيانِ عِلَّة الإيمان؛ لقوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾؛ فالربُّ أهلٌ لأنْ يُؤمِنَ به الإنسانُ؛ لأنَّه ربٌّ خالقٌ، مالكٌ، مُدبِّر؛ فهو جديرٌ بأنْ يُؤمِن به العبدُ[١].

١٤- جوازُ التوسُّل في الدعاءِ بالأعمالِ الصالحة؛ لقولهم: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ عطفًا على قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾، والتوسُّلُ بالأعمالِ الصَّالحة ممَّا ثبَت بالسُّنة أيضًا[٢].

١٥- أنَّه يَنبغي للدَّاعي أنْ يُكثِرَ مِن الثناءِ على اللهِ تعالى بأسمائِه وصِفاتِه؛ لأنَّ هذا مِن وسائلِ إجابةِ الدُّعاءِ، كما قال تعالى حاكيًا عن الدَّاعينَ الذين أَثْنَى عليهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ....﴾[٣].

١٦- يَتبادر سؤالٌ عندَ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ...﴾، وهو أنَّ الخُلفَ في وعْدِ اللهِ محالٌ؛ فكيفَ طلبوا بالدُّعاءِ ما عَلِموا أنَّه لا محالةَ واقعٌ؟ والجوابُ عنه من وجوه:

الأوَّل: أنَّه ليس المقصودُ من الدَّعاء طلبَ الفِعل، بل المقصودُ منه إظهارُ الخضوعِ والذلَّة والعُبوديَّة، وكَمالِ الضَّراعة والابتهال، وقد أُمِرْنا بالدُّعاءِ في أشياءَ نعلمُ قطعًا أنَّها تُوجدُ لا محالةَ، كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وقوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

الثاني: أنَّ وعْدَ اللهِ لا يتناول آحادَ الأمَّةِ بأعيانهم، بل إنَّما يتناولهم بحسَبِ أوصافهم؛ فإنَّه تعالى وعَدَ المتَّقين بالثواب، ووعَد الفُسَّاقَ بالعقاب، فقوله:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٥٨).

وينظر ما رواه البخاري (٢٢١٥) ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في قصة الثلاثة الذين سدَّت الصخرةُ عليهم الغارَ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٦٦).

﴿وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ معناه: وفِّقْنا للأعمالِ التي بها نَصيرُ أهلًا لوعدِك، واعْصِمْنا من الأعمالِ التي نَصيرُ بها أهلًا للعقابِ والخزي، وعلى هذا التقديرِ يكونُ المقصودُ مِن هذه الآيةِ طلَبَ التوفيقِ للطَّاعة، والعِصمةِ عن المعصيةِ، فهذه الدعواتُ ليستْ لخوفِهم من إخلافِ الميعاد، بل لخوفِهم مِن أنْ لا يكونوا مِن جملةِ الموعودِين بسبب تغيُّر الحالِ، وسوءِ الخاتمةِ والمآل؛ فمَرجعُها إلى الدُّعاءِ بالتثبيت.

الثالث: أنَّ اللهَ تعالى وعَدَ المؤمنين بأنْ يَنصُرَهم في الدُّنيا، ويَقهرَ عدوَّهم؛ فهم طلبوا تَعجيلَ ذلك(١).

١٧- قوله تعالى: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ بيان لـ﴿عَامِلٍ﴾، قيل: وجهُ الحاجةِ إلى هذا البيانِ هنا: دفْعُ توهُّمِ أنَّ النساءِ لا حَظَّ لهنَّ في تحقيقِ الوعد، الذي وعَد اللهُ على ألْسنةِ رُسلِه(٢).

١٨- قولُ الله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فيه الإشارةُ إلى عِظَمِ هذا الثوابِ بقَوْله: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فاللهُ تعالى أضافَه إليه ونَسَبه إليه؛ ليدُلَّ على أنَّه عظيمٌ؛ لأنَّ العظيمَ الكريمَ لا يُعْطي إلا جزيلًا كثيرًا؛ فالعَطيَّةُ تَعظُمُ بحسَب مُعْطيها، والهِبَةُ تَعظُم بحسَبِ واهبِها(٣).

بَلاغَةُ الآيات:

١- قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تذييلٌ بوعيدٍ يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى لا يَخفى عليه ما يَكتمُون مِن أخلاقِهم وطِباعِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢-١٣٣)..
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٧٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٥).

- وفيه تقديمٌ للخبر ﴿لِلَّهِ﴾، وأفادَ هذا التقديمُ أنَّ مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ خاصٌّ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إذا قُدِّم ما حقُّه التأخيرُ، كان ذلك دليلًا على الحَصْر[١].

٢- قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريرٌ لاختصاصِ مُلكِ العالَمِ به سبحانَه وتعالى؛ فإنَّ كونَه تعالى قادرًا على الكلِّ بحيثُ لا يشِذُّ من ملكوتِه شيءٌ من الأشياء، يَستدعي كونَ ما سواه كائنًا ما كان مَقدورًا له، ومِن ضَرورتِه اختصاصُ القُدرةِ به تعالى، واستحالةُ أنْ يشاركَه شيءٌ مِن الأشياءِ في القُدرةِ على شيءٍ مِن الأشياءِ، فضلًا عن المشاركةِ في مُلكِ السَّمواتِ والأرض[٢].

- وفيه تقريرٌ لِمَا مرَّ مِن ثُبوتِ العذابِ الأليمِ لهم، وعَدمِ نجاتِهم منه[٣].

- وفيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ (وَاللَّهُ) في مَوقعِ الإضمارِ (وهو)؛ لتربيةِ المهابةِ، والإشعارِ بمناطِ الحُكم؛ فإنَّ شمولَ القُدرةِ لجَميعِ الأشياءِ من أحكامِ الأُلوهيَّة، مع ما فيه مِن الإشعارِ باستقلالِ كلٍّ من الجُملَتين بالتقرير[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾:

- قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَات وَالْأَرْضِ﴾: جملةٌ مُستأنفةٌ سِيقتْ لتقريرِ ما سبَق مِن اختصاصِه تعالى بالسُّلطانِ القاهرِ، والقُدرةِ التامَّةِ، وصُدِّرتْ بكلمة التأكيدِ ﴿إِنَّ﴾ اعتناءً بتحقيق مضمونِها، أي: في إنشائِها على ما هي عليه في ذواتِها وصِفاتِها، من الأمورِ التي يَحارُ في فَهمِ أجلاها العقولُ[٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأفاد حرفُ ﴿إِنَّ﴾ أيضًا الاهتمامَ بالخبر(١).

- قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾: التنكيرُ فيه للتفخيمِ كمًّا وكيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةٍ عظيمة(٢).

- قوله: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: فيه اختصاصٌ(٣)، أفادَ أنَّ أصحابَ العقولِ السليمةِ هم أَوْلى النَّاسِ وأحقُّهم بهذا الوَصْفِ.

٤- **قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** فيه إيجازٌ، حيثُ انطوى تَحتَ هذا الإيجازِ في ﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلُّ مَا تمخَّض عنه العِلمُ من رَوائعِ المُكتَشفات، وبَدائعِ المُستنبَطات(٤).

٥- **قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾** (هذا) كِنايةٌ عن المخلوق، يعني: ما خَلقتَ هذا المخلوقَ العجيبَ باطلًا، والتعبيرُ بـ﴿هَذَا﴾ ضربٌ من التَّعظيم، كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٥)[الإسراء: ٩].

- وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾: اعتراضٌ، فيه تأكيدٌ لمضمونِ ما قَبْلَه، وتمهيدٌ لِمَا بعدَه(٦).

٦- **قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾** جِيء بفاءِ التعقيب؛ لترتيبِ الدُّعاءِ على ما ذُكِر، وللاستعدادِ لقَبول الدُّعاءِ؛ فالفاءُ لترتيبِ المدعوِّ (الوقايَةَ) على ذلك، كأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٧).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٣٢)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦٠٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١).

قيل: وإذ قدْ عرَفْنا سِرَّك(١)، وأَطَعْنا أَمْرَك، ونزَّهناك عمَّا لا يَنبغي؛ فقِنا عَذابَ النارِ الذي هو جزاءُ الذين لا يَعرِفون ذلك(٢).

٧- قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾:

- فيه مبالغةٌ في استدعاءِ الوقايةِ، وبيانٌ لسببِه(٣).

- وتصديرُ الجملةِ بالنِّداء ﴿رَبَّنَا﴾؛ للمبالغةِ في التضرُّعِ(٤).

- وتأكيدُها بـ(إنَّ)؛ لإظهارِ كمالِ اليقينِ بمضمونها، والإيذانِ بشدَّةِ الخوفِ(٥).

- وإظهارُ ﴿النَّارَ﴾ في موضِعِ الإضمارِ؛ لتهويلِ أمرِها(٦).

- وذِكرُ الإدخالِ ﴿تُدْخِلِ﴾ في مَوردِ العذابِ؛ لتعيينِ كيفيتِه، وتَبيينِ غايةِ فَظاعتِه(٧).

- وفي قوله: ﴿أَخْزَيْتَهُ﴾: تهويلُ المستعاذِ منه؛ تَنبيهًا على شِدَّة خوفِهم، وطلبِهم الوقايةَ منه، وفيه إشعارٌ بأنَّ العذابَ النَّفسي أفظعُ مِن العذابِ البدنيِّ(٨).

٨- قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ تذييلٌ؛ لإظهارِ نهايةِ فظاعةِ حالِهم،

---

(١) قال أبو السعود: (فإنَّ مَعرفةَ سرِّ خلْقِ العالم، وما فيه من الحِكمةِ البالغةِ والغايةِ الحميدةِ، والقيامَ بما تقتضيه مِن الأعمالِ الصالحةِ، وتَنزيهَ الصانعِ تعالى عن العَبَثِ مِن دَواعي الاستعاذةِ ممَّا يَحيق بالمُخلِّين بذلك، مِن وجهين؛ أحدُهما: الوقوفُ على تحقُّق العذابِ، فالفاءُ لترتيبِ الدُّعاءِ عَلَى ما ذُكِر، والثَّاني الاستعدادُ لقَبول الدعاءِ...). ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٧) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٨) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٤).

بيانِ خُلودِ عَذابِهم بفُقدانِ مَن ينصُرهم، ويقومُ بتخليصِهم، وغَرضُه تأكيدُ استدعاءِ الوقايةِ(١).

– وفيه: وضْع الظاهر ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ موضعَ المضمَر – فقد كان مُقتضَى الظاهر أنْ يُقال: (وما لهم) أو (وما له)؛ مُراعاةً لمعنى ﴿مَنْ﴾ (العموم)، أو مُراعاةً للفظِها (الإفراد)– وفائدة هذا الإظهارِ: الإشعارُ بتخصيصِ الخِزي بهم، والإشعارُ بتعليلِ دُخولِهم النارَ بظُلْمِهم، ووضعِهم الأشياءَ في غيرِ مواضعِها(٢).

٩– قوله: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ فيه: تصديرُ مُقدِّمةِ الدُّعاءِ بالنِّداء ﴿رَبَّنا﴾؛ لإظهارِ كمالِ الضَّراعةِ والابتهال(٣).

– وفيه: إيجازٌ، حيث أَوقعَ الفِعلَ على المُسمَع، وحَذَف المسموعَ؛ لدلالةِ وصْفِه عليه، وهو يُفيد مبالغةً ليستْ في إيقاعِه على نفْس المسموعِ(٤).

– وفيه إطنابٌ بالتَّكرار، وهو الجَمْع بين ﴿مُنَادِيًا﴾ و﴿يُنَادِي﴾؛ وذلك أنَّه ذَكَر النِّداءَ في الأوَّلِ مُطلقًا، ثمَّ ذَكَره في الثَّاني مُقيَّدًا بالإيمان؛ وفائدتُه تفخيمُ شأنِ المُنادِي وتعظيمُه؛ لأنَّه لا مُنادِي أعظمُ من منادٍ ينادي للإيمان؛ وذلك لأنَّ المنادِي إذا أُطلق ذهَب الوهمُ إلى منادٍ للحرب، أو لإغاثة المكروبِ، أو الكفايةِ لبعضِ النوازل، فإذا قلت: يُنادي للإيمان، فقد رفعتَ من شأنِ المنادِي وفخَّمته(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣١–١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٣٨).

١٠- قوله: ﴿فَآمَنَّا﴾ فاء التعقيب؛ للدَّلالةِ على المبادرةِ، والسَّبقِ إلى الإيمان، وذلك دليلُ سلامةِ فِطرتِهم مِن الخطأِ والمكابرة، وقد توسَّموا أنْ تكونَ مبادرتُهم لإجابةِ دعوةِ الإسلامِ مشكورةً عندَ الله تعالى[١].

١١- قوله: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فيه تكرارٌ؛ للتأكيد، حيث طلَبوا من اللهِ تعالى في هذا الدُّعاءِ غُفرانَ الذُّنوب، وتكفيرَ السيِّئات- على القولِ بأنَّ المرادَ بهما شيءٌ واحد-؛ وإنَّما أُعيدَ ذلك للتأكيدِ؛ لأنَّ الإلحاحَ في الدُّعاءِ والمبالغةَ فيه مندوبٌ[٢].

- والفاء في قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ لترتيبِ المغفرةِ، أو الدُّعاءِ بها على الإيمانِ به تعالى، والإقرارِ بِرُبوبيَّته؛ فإنَّ ذلك مِن دواعي المغفرةِ والدُّعاءِ بها[٣].

١٢- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ... إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ما يُسمَّى بـ(الإسجال)؛ فقد سجَّل المولى سبحانَه على ألْسنةِ عِبادِه تحقيقَ موعودِه على لِسانِ رسولِه، وبتأمُّل قوله: ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ يتَّضح أنَّ هذا الوَعدَ قد أصبح مُبرَمًا، لا انفكاكَ لإبرامِه[٤].

- وتكريرُ ﴿رَبَّنَا﴾؛ للمبالغةِ في الابتهالِ، والدَّلالة على استقلالِ المطالِب وعُلوِّ شأنِها، والإعلامِ بما يُوجِبُ حُسنَ الإجابة وحُسنَ الإثابةِ، مِن احتمالِ المشاقِّ في دِينِ اللهِ، والصَّبرِ على صُعوبة تكاليفِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٤/ ٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٢)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢).

- قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾: تعليلٌ لتحقيقِ ما طلَبوا من الدُّعاء[١].

١٣- قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾:

- صِيغةُ الماضي في قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ هاهنا للإيذانِ بتحقُّقِ الاستجابةِ وتقرُّرِها[٢].

- قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ بمعنى أجاب؛ فالسِّينُ والتاءُ للتأكيدِ، و(استجاب) أخصُّ مِن (أجاب)؛ لأنَّ (استجاب) يُقال لِمَن قبِل ما دُعي إليه، و(أجاب) أعمُّ، فيُقال لِمَن أجاب بالقَبول وبالردِّ[٣].

- قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ فيه التفاتٌ إلى التكلُّم والخِطاب؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بشأنِ الاستجابةِ، وتَشريفِ الدَّاعين بشَرفِ الخِطاب، والمرادُ تأكيدُها ببيانِ سببِها، والإشعارُ بأنَّ مَدارَها أعمالُهم التي قدَّموها على الدُّعاء، لا مُجرَّد الدُّعاء، وتَعميمُ الوعدِ لسائرِ العاملين- وإنْ لم يَبلُغوا درجةَ أُولي الألباب-؛ لتأكيدِ استجابةِ الدَّعواتِ المذكورة[٤].

- والتعبيرُ عن ترْكِ الإثابةِ بالإضاعةِ ﴿لَا أُضِيعُ﴾؛ لبيانِ كَمالِ نزاهتِه تعالى عن ذلِك بتصويرِه بصورةِ ما يَستحيلُ صدورُه عنه من القَبائح، وإبرازِ الإثابةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٢-١٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٣).

في مَعرِض الأمورِ الواجبةِ عليه[١].

- قوله: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ جملةٌ معترِضة بيَّن بها شركةَ النِّساءِ مع الرِّجالِ فيما وعَد للعمَّال[٢].

- وفيه بيان للتساوي في الأخبارِ المتعلِّقة بضمائرِ المخاطبين، أي: أنتُم في عِنايتي بأعمالِكم سواءٌ، وهو قضاءٌ لحقِّ ما لهم مِن الأعمال الصَّالحةِ المتساوين فيها؛ ليكونَ تمهيدًا لبساطِ تمييزِ المهاجِرين بفَضلِ الهجرةِ الآتي في قوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾ الآيات[٣].

- و﴿مِن﴾ بَيانيَّة، وقيل: إنَّها مؤكِّدة للنَّفي، بمعنى: عَمَل عاملٍ مِنكم ذِكرٍ أو أُنثى[٤].

- قوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: جملة مُعترضة مُبيِّنة لسببِ انتظامِ النِّساءِ في سلكِ الرِّجالِ في الوعد؛ فإنَّ كونَ كلٍّ منهما من الآخَر- لتشعُّبهما من أصلٍ واحد، أو لفَرطِ الاتِّصال بينهما، أو لاتِّفاقهما في الدِّين والعمل- ممَّا يَستدعي الشركةَ والاتحاد[٥].

- قوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: فيه نوعُ تَفصيلٍ لِمَا أُجمل في العملِ، وتَعدادٌ لبعضِ أحاسِن أفرادِه، على وجهِ المدح والتَّعظيم[٦]، وهو تَفريعٌ عن قوله: ﴿لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾، وهو مِن ذِكرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ للاهتمامِ بذلك الخاصِّ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٤).

الآيات (١٩٦ - ٢٠٠)

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ
لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟
وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مَتَاعٌ﴾: مَنفعةٌ، وكلُّ ما حَصَل التمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، والمتاعُ والمتعة: ما يُنتفعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصل (متع): يدلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ(١).

﴿الْمِهَادُ﴾: الفِراشُ والقرارُ، والمهدُ: ما يُهيَّأ للصَّبي، وأصلُ المهاد: المكانُ الممهَّد الموطَّأ(٢).

﴿نُزُلًا﴾: أي: ثوابًا ورزقًا، والنُّزل: ما يُعدُّ للنازلِ من الزَّاد، أو ما يُهيأ للضَّيف(٣).

﴿وَرَابِطُوا﴾: اثبتُوا وداوِموا، وأصلُ المرابطة والرِّباط: ربْطُ كلِّ فريق لخيولهم في الثَّغر، كل يُعِدُّ لصاحبِه؛ فسُمِّي المقامُ بالثغور رباطًا، ومنه: مُلازمةُ ثَغرِ العَدُوِّ،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).
(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٩).

كأنَّهم قدْ رُبِطُوا هناك فثبَتوا به ولازَمُوه، وربْطُ الفرس: شدُّه بالمكانِ للحِفْظ، ومنه: رِباط الخيل، وسُمِّي المكانُ الذي يُخصُّ بإقامةِ حِفظِه فيه: رباطًا، وأصل الرَّبط: الشدُّ والثبات(١).

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَنخدعَ بما عليه الكافرون مِن تقلُّبٍ في البلادِ بأنواعِ التِّجاراتِ والمكاسِب، والغلبةِ في بعضِ الأوقات؛ فإنَّ ذلك مُتعةٌ قليلةٌ، فانيةٌ زائلة، ثم يكونُ مصيرُهم جهنَّمَ، وبئسَ المقرُّ.

أمَّا المتَّقون لربِّهم، فإنَّ لهم جَناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ، هي دارُهم التي يَمكُثون فيها على الدَّوام، أعدَّها اللهُ لهم مَنزلَ ضِيافةٍ، وما عندَ الله تعالى خيرٌ مِن متاعِ الدُّنيا لِمَن أطاع وأَحْسنَ العملَ.

ثم يُخبر تعالى أنَّ مِن أهل الكتاب طائفةً يُؤمنون بالله تعالى، ويُوحِّدونه، ويُؤمنون بما أُنزِلَ على مَحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما أَنزَلَ الله إليهم مِن كتُب، خاضِعين لله، لا يُحرِّفون ما في كُتبهم، ولا يَكتمونه، ولا يُبدِّلونه مُقابلَ متاعٍ دُنيويٍّ زائل؛ فهؤلاء لهم عند الله ثوابٌ عظيمٌ، واللهُ سريعُ الحسابِ.

ثم يأمُر الله عِبادَه المؤمنين بالصَّبر، ومغالبةِ أعداءِ الدِّين بالصَّبر، حتى يَنتصروا عليهم، وأنْ يَلزموا الإقامةَ في الأماكنِ التي يُخشَى من وصولِ العدوِّ من خلالِها، وأنْ يَمنعوه من الوصولِ إلى مُبتغاه، وأنْ يتَّقوا اللهَ؛ وذلك مِن أجْل أنْ يفوزوا بمطلوبِهم، ويَنجُوا ممَّا يَرهبونَه.

تَفسيرُ الآيات:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦)﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وعَد اللهُ تعالى المؤمنين بالثَّوابِ العظيم، وكانوا في الدُّنيا في نهاية الفقرِ والشِّدَّة، والكفَّارُ كانوا في النِّعم، ذكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما يُسلِّيهم، ويُصبِّرُهم على تلك الشِّدَّة[1]، فقال:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦)﴾.

أي: لا تَنخدعْ- يا محمَّد- بظاهرِ ما عليه الكفَّارُ من تردُّدٍ على البلاد، وتنقُّلٍ فيها بأنواعِ التِّجاراتِ والمكاسبِ، بِما يجعلُهم في بَحبوحةٍ في العيش، وترَفٍ في الحياةِ، وعِزٍّ وغلبةٍ في بعضِ الأوقات[2].

قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤].

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)﴾.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾.

أي: إنَّ هذا الذي عليه الكفَّارُ إنما هو لذائذُ فانيةٌ؛ فزمنُها محدودٌ، وتَنتهي بانقضاءِ أعمارِهم، وهي مُتعةٌ قليلةٌ كمًّا وكيفًا[3].

﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أي: إنَّهم مُنتقِلون بعدَ مماتِهم وذَهابِ مُتعِهم، إلى الإقامةِ في نارِ جَهنَّم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٠-٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٢-٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٣).

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

أي: وبئس الفراشُ والمقرُّ هي، أي: جهنَّم[١].

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله سبحانه وتعالى الوعيدَ للذين كَفروا، أَتْبعَه بالوعدِ بالنُّزُل للذين آمنوا[٢]، فقال:

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

أي: أمَّا الذين امتَثلوا ما أمَر الله تعالى به، واجتَنبوا ما نهى عنه، فإنَّهم يُمتَّعون في الدارِ الآخِرةِ في جَنَّاتٍ تَجري من تحتها أنواعٌ من الأنهار، وهم ماكثونَ في هذا النَّعيمِ على الدَّوام[٣].

﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قدْ أعدَّ لهم تلك الجنَّاتِ مَنزلَ ضِيافةٍ دائمًا، مِن كرامةِ اللهِ تعالى لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٥-٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٧-٥٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٠).

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

أي: وما عندَ اللهِ تعالى من النَّعيمِ والكرامةِ خيرٌ للطَّائعين- الذين أحْسَنوا العملَ- من متاعِ الدُّنيا القليلِ الزَّائل[1].

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى حالَ المؤمنين- وكان قدْ ذكَر حالَ الكفَّارِ مِن قبلُ بأنَّ مَصيرَهم إلى النَّار- بَيَّن في هذِه الآيةِ أنَّ مَن آمَنَ منهم كان داخلًا في صِفة الذين اتَّقَوا[2].

وأيضًا لَمَّا حكَى اللهُ تعالى بعضَ مخالفاتِ أهلِ الكتابِ، مِن نبْذِ الميثاق، وتَحريفِ الكتابِ وغيرِ ذلك، سِيقتْ هذه الآيةُ؛ لبيانِ أنَّ أهلَ الكتابِ ليس كلُّهم كمَن حُكيتْ مخالفاتُهم، بل منهم مَن له مَناقبُ جليلةٌ، مثل: عبد الله بن سَلَام وأصحابه[3].

سببُ النُّزول:

عن أنسٍ رضِي اللهُ عنه، قال: لَمَّا جاء نعْيُ النَّجاشيِّ، قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((صلُّوا عليه، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، نُصلِّي على عَبدٍ حَبشيٍّ؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٦).

فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ﴾ الآية))[1].

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾.

أي: وإنَّ طائفةً من أهلِ الكتابِ مِن اليهودِ والنَّصارى يُؤمنون باللهِ تعالى حقَّ الإيمان، ويقرُّون بوحدانيَّته[2].

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾.

أي: إنَّهم يُؤمنون أيضًا بالقرآن، الذي أُنزل على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[3].

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾.

أي: ويُؤمنون أيضًا بالكتُب السابقةِ، التي أَنزلها اللهُ تعالى إليهم، كالتَّوراة[4].

﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم خاضِعون للهِ تعالى، مُستكينين له ومُتذلِّلين[5].

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

---

(١) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٨٨)، والبزار (٦٥٥٦)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (١٢٨٧)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥١٤٧).
وثَّق رجالَ الطبرانيِّ الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٤١)، وصحَّح إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٠٤٤)، وقال الوادعيُّ في ((الصحيح المسند من أسباب النزول)) (٧٠): الحديث بمجموع طُرقه يَرتقي إلى الحُجيَّة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٣-٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٥).

أي: لا يُحرِّفون ما في كُتُبِهم، ولا يُبدِّلونه، ولا يَكتمون ما فيها من العِلم- ومِن ذلك البشارةُ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيانُ صِفتِه للناس-؛ ليَحْصُلوا في مُقابلِ ذلك على متاعٍ دُنيويٍّ زائلٍ، مِن منصبٍ، أو جاهٍ، أو مالٍ، وغير ذلك[١].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: إنَّ لأولئك القومِ المؤمنين ثوابًا عظيمًا عندَ الله سبحانه[٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ حسابَ اللهِ عزَّ وجلَّ قريبٌ؛ لسُرعةِ انقضاء الدُّنيا، كما أنَّه سبحانه يُحاسبُ الخلائقَ يومَ القيامة على أعمالِهم في مُدَّةٍ وجيزةٍ جدًّا[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، اصبِروا على جميعِ ما أمَرَكم اللهُ تعالى بالصَّبرِ عليه، كالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والصَّبرِ عن مَعصيتِه، والصَّبرِ على أقدارِه سبحانه[٤].

﴿وَصَابِرُوا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٩٣، ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٥-٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٥-٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٠٠-٦٠١).

أي: وغالِبوا بالصبرِ أَعداءَ الدِّين، حتى تَنتصِروا عليهم؛ فلا يكونوا أَصْبرَ منكم[١].

﴿وَرَابِطُوا﴾.

أي: والْزَموا الإقامةَ في الثُّغورِ؛ لِمَنْع العدوِّ من الوصولِ إليها، والنفوذِ منها إلى مُبتغاه[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: واستعمِلوا تَقوى اللهِ عزَّ وجلَّ بامتثالِ أوامِره واجتنابِ نواهيه، ومِن ذلك: الأوامرُ السَّابقة، مِن الصَّبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ في سبيلِه؛ وذلك مِن أَجْل تحقيقِ الفوزِ بالمطلوب، والنَّجاةِ من المرهوبِ في الدُّنيا والآخِرة[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- نَهْي المسلمِ عن الاغترارِ بما أُوتي الكفَّار من النِّعمِ والرَّفاهية؛ لقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾؛ لأنَّ ما يُعطيه اللهُ العبدَ من الرَّخاء وسَعة الرِّزق والانطلاقِ في الأرض، ليس دليلًا على رِضاه عن العبدِ، وإنما المقياسُ لرِضا اللهِ عن العبدِ هو اتِّباعُ العبدِ لشرْعِ اللهِ تعالى[٤].

٢- أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد يَستدرجُ المرءَ بإغداقِ النِّعم عليه؛ فِتنةً له، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]؛ ووجه ذلك أنَّ اللهَ مَكَّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٦-٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٨-٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢-١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٠٣-٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٤).

هؤلاءِ الكفَّارَ من التقلُّبِ في البلادِ كما يَشاؤون؛ فتنةً لهم؛ ليستمرُّوا على ما هم عليه، فيكونَ ذلك شرًّا لهم- والعياذ بالله- كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨](١).

٣- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ فيه: أنَّ الإنسانَ وإنْ تكلَّفَ الصَّبرَ والمصابرةَ، إلَّا أنَّ فيه أخلاقًا ذميمةً تَحمِل على أضدادِها، وهي الشهوةُ والغضبُ والحِرصُ، والإنسانُ ما لم يكُن مُشتغلًا طولَ عُمرِه بمجاهدتِها وقَهرِها، لا يُمكنه الإتيانُ بالصبرِ والمصابرةِ؛ فلهذا قال: ﴿وَرَابِطُوا﴾، ولَمَّا كانتْ هذه المجاهدةُ فِعلًا من الأفعال، ولا بدَّ للإنسانِ في كلِّ فِعلٍ يفعله من داعيةٍ وغرَض- وجَب أنْ يكون للإنسانِ في هذه المجاهدةِ غرضٌ وباعثٌ، وذلك هو تقوى اللهِ؛ لنَيلِ الفلاحِ والنَّجاحِ؛ فلهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

٤- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه: أنَّه لا سبيلَ إلى الفلاحِ بدون الصَّبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ؛ فلم يُفلحْ مَن أفلحَ إلَّا بها، ولم يَفُتْ أحدًا الفلاحُ إلَّا بالإخلالِ بها أو ببَعضِها(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه علَّم اللهُ تعالى عبادَه كيفيَّةَ حَرْبِ الشَّيطانِ وجهادِه، فجمعها لهم في أربعِ كلماتٍ في هذه الآيةِ، ولا يتمُّ أمرُ هذا الجهادِ إلا بهذه الأمورِ الأربعةِ، فلا يتمُّ له الصَّبرُ إلَّا بمصابرةِ العدُوِّ، وهي مُنازَلَتُه، فإذا صابَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

عدوَّه احتاجَ إلى أمرٍ آخَرَ، وهو المرابَطَةُ، وهي لزومُ ثَغْرِ القلب وحراسَتُه؛ لئلَّا يدخُلَ منه العدوُّ، ولزومُ ثَغْرِ العَينِ والأُذُن واللِّسان والبَطْن واليَد والرِّجْل، فهذه الثُّغورُ منها يدخلُ العَدُوُّ، فيجوس خلالَ الدِّيارِ، ويُفسِدُ ما قَدَرَ عليه، فالمرابطةُ لُزومُ هذه الثُّغورِ، ولا يُخْلي مكانَها، فيصادف العدوُّ الثغرَ خاليًا، فيدْخُل منه. وجِماعُ هذه الثَّلاثةِ وعمودُها الذي تقوم به هو تقوى الله، فلا ينفَعُ الصَّبْرُ ولا المصابَرةُ ولا المرابطَةُ إلَّا بالتَّقوى، ولا تقومُ التَّقوى إلَّا على ساقِ الصَّبرِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾، إنْ قيل: كيف جازَ أنْ يَغترَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك حتى يُنهى عنه وعن الاغترارِ به؟ فالجوابُ: إما أنَّ مُقدَّمَ القومِ يُخاطَبُ بشيءٍ، فيقوم خِطابُه مقامَ خِطابهم جميعًا، فكأنَّه قيل: لا يَغُرَّنَّكم. أو أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان غيرَ مغرورٍ بحالهم، فأكَّد عليه ما كان، وثبَت على الْتزامِه، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] أو يكون الخطابُ لكلِّ أحدٍ[٢].

٢- الإشارةُ إلى أنَّ هذا النَّعيمَ الذي يُدركه الكفَّارُ في الدنيا سوف يُنسى بهذا المأوى السيِّئ؛ فإذا كان المأوى هو النارَ، نسُوا كلَّ شيء؛ ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾[٣].

٣- قال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ هذه الآيةُ المقصودُ منها التسليةُ عمَّا يحصُلُ للَّذين كفروا مِن متاعِ الدُّنيا، وتنعُّمِهم فيها، وتقلُّبِهم في البلادِ بأنواعِ التِّجاراتِ والمكاسِبِ

(١) يُنظر: ((الداء والدواء)) لابن القيم (١/ ٢٢٨- ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٤٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٨٦).

واللَّذَّات، وأنواعِ العِزِّ، والغَلَبَة في بعضِ الأوقات؛ فإنَّ هذا كلَّه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوتٌ ولا بقاءٌ، بل يتمتَّعونَ به قليلًا ويُعَذَّبون عليه طويلًا[١].

٤- قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فيه عِظَمُ هذا الجزاءِ والثوابِ الذي يَحصُل لهم؛ لأنَّه نُزُلٌ من عند أكرمِ الأَكْرَمِينَ، وهو الله عزَّ وجلَّ[٢].

٥- مرجِعُ الدِّينِ كُلِّه إلى قواعِدَ ثلاثٍ؛ وهي: فِعْلُ المأمور، وتَرْكُ المحظور، والصَّبْرُ على المقدور؛ وقد ذكر تعالى هذه الأصولَ الثَّلاثةَ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فكلُّ موضعٍ قُرِنَ فيه التَّقوى بالصَّبرِ اشتملَ على هذه الأمورِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّ حقيقةَ التَّقوى فِعْلُ المأمورِ وتَرْك المحظورِ[٣].

٦- في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أمَرَهم بالصَّبر وهو حالُ الصَّابِرِ في نفْسِه، والمصابرةِ وهي حالُه في الصَّبر مع خَصْمِه- فهي مقاومةُ الخَصْمِ في مَيدانِ الصَّبرِ؛ فإنَّها مُفاعَلَةٌ تَستدعِي وقوعَها بين اثنينِ، كالمُشاتَمةِ والمُضاربةِ-، والمرابطةِ وهي الثباتُ واللُّزومُ والإقامةُ على الصَّبر والمصابرةِ؛ فقدْ يَصبِرُ العبدُ ولا يُصابِر، وقد يُصابِر ولا يُرابِط، وقد يَصبِر ويُصابِر ويُرابِطُ مِن غيرِ تعبُّدٍ بالتَّقوى؛ فأَخْبَرَ سبحانه أنَّ مِلاكَ ذلك كلِّه التَّقوى، وأنَّ الفَلاحَ موقوفٌ عليها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤].

٧- ختَم سبحانه السُّورةَ بهذه الوصيةِ للمؤمنين بقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩١).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٨، ٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢١).

آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قيل: لأنَّها هي التي تَتحقَّق بها استجابةُ ذلك الدُّعاءِ، وإيفاءُ الوعدِ بالنَّصرِ في الدنيا، وحُسنُ الجزاءِ في الآخِرة(١).

بَلاغَةُ الآيات:

١- ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إيرادُ التقوى في حيِّز الصِّلة ﴿الَّذِينَ﴾؛ للإشعارِ بكونِ الخِصال المذكورةِ من بابِ التقوى(٢).

٢- قوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ الجملةُ تذييلٌ لِمَا قبلَها(٣).

- والتعبيرُ عن المتقين بـ(الأبرار)؛ للإشعارِ بأنَّ الصِّفاتِ المعدودةَ من أعمالِ البِرِّ، كما أنَّها من قَبيلِ التقوى(٤).

٣- قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارةٌ إليهم مِن حيثُ اتِّصافُهم بما عُدَّ من صِفاتِهم الحميدةِ، وما فيه من مَعنى البُعد؛ للدَّلالةِ على عُلوِّ رُتبتهم، وبُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرفِ والفضيلةِ(٥).

٤- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

- قوله: ﴿وصَابِرُوا﴾: عبَّر بصِيغة المفاعَلة، مع أنَّ (المصابرة) بابٌ من الصَّبر الذي ذُكِرَ قبلَه في قوله: ﴿اصْبِرُوا﴾؛ تَخصيصًا لشدَّتِه وصُعوبتِه(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٥)
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٠).

٥- وفي الآيةِ من البَلاغة: حُسْنُ الختامِ، وحُسنُ البيانِ؛ حيث جاءَ ختامُ سورةِ آل عمران حَسنًا جدًّا، فكما جاءَ خِتامُ سورةُ البقرةِ مُشتملًا على الدُّعاءِ، جاءَ ختامُ سورة آل عمران مشتملًا على عَددٍ من الوصايا النافعةِ، كالدُّعاءِ وطَلَبِ التَّقوى التي هي ملاكُ الأمْر وزِمامُه، وهذا هو حُسنُ الختامِ؛ ليَبقَى راسخًا في الأسماعِ، وهذا هو حُسنُ البيان[1]؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر في هذه السُّورةِ أنواعًا كثيرةً مِن عُلوم الأصولِ- فيما يَتعلَّقُ بتقريرِ التوحيدِ والعدلِ والنبوَّة والمعاد- والفروع- فيما يتعلَّقُ بالتكاليفِ والأحكامِ نحوَ الحجِّ والجهادِ وغيرهما- ختَم هذه السُّورةَ بهذه الآيةِ المشتملةِ على جَميعِ الآدابِ؛ وذلك لأنَّ أحوالَ الإنسانِ قِسمان: منها ما يَتعلَّق به وحْدَه، ومنها ما يكونُ مُشتركًا بينَه وبينَ غيرِه، أمَّا القِسمُ الأوَّل فلا بدَّ فيه مِن الصَّبر، وأمَّا القِسم الثاني فلا بدَّ فيه مِن المصابَرة[2].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٦)، ((دليل البلاغة القرآنية)) للدبل (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٣).

الفهرس

الفهرس